

عبدالرقيب يوسف

الدولة الدستورية

الجزء الثاني - القسم الحضاري

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي رايه رين - اربيل - كردستان العراق

ت: ٢٢٣٢٠٢١ ص.ب: رقم ١

عبدالرقيب يوسف

الدولة الدوستكية في كُردستان الوسطى

الجزء الثاني - القسم الحضاري

اسم الكتاب: الدولة الدستورية في كُردستان الوسطى - الجزء الثاني
تأليف: عبدالرقيب يوسف
من منشورات نارس رقم: ٨٠
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي وعبدالرزاق عبدالله
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: عبدالرزاق عبدالله
تصحيح: عبدالرزاق عبدالله
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الثانية: اربيل ٢٠٠١
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٣١٥ لسنة ٢٠٠١

مقدمة الطبعة الثانية

طبع الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٩٧٢، ثم طبع ثانية من قبل السيد (هوشنگ كرد داغي) في بيروت سنة ١٩٩٦. أما هذا الجزء فبعد موافقة رقابة المطبوعات العراقية على نشره، طُبع من قبل مديرية الثقافة الكُردية العامة ببغداد عام ١٩٧٥ بـ (٣٠٠٠) نسخة. لكن الحكومة وضعت يدها على الكتاب في المطبعة ومنعته من الإنتشار وأحالته الى لجنة لدراسته من جديد، فكان تقريرها في صالح الكتاب لكنها لم تقتنع بتقريرها وأحالته ثانية الى لجنة أخرى مؤلفة من ثلاثة مؤلفين كان تقرير إثنين منهم وأحدهم المؤلف الكُردى المرحوم مصطفى نریمان في صالحه أيضاً، وأما الثالث فلا، لكن الحكومة لم تقتنع بتقريرها أيضاً. وقررت إحالته الى لجنة ثالثة مؤلفة من أساتذة من جامعة بغداد، غير أن الأجهزة الأمنية طلبت من الوزارة عدم السماح بنشره مطلقاً وكانت حجتها أنه سيكون للكتاب تأثير كبير بين الأوساط الكُردية وغيرها لأنه (إحياء لكيان سياسي كُردى مندثر). فصدر كتاب رسمي في خريف عام ١٩٧٦ بتوقيع مدير رقابة المطبوعات داود الفرحان، الذي أصبح فيما بعد مدير الأمن العام، يقضي بإرسال الكمية المطبوعة منه الى (معمل صناعة الورق في البصرة) ليستفيد منها في مجال عمله، فقام المعمل بعجنها وتحويلها الى ورق أبيض.

هكذا خاف نظام البعث من تأثير كتاب يثبت أنه كان للشعب الكُردى دولة حقيقية في العهد الإسلامي تجمعت فيها كافة مقومات الدولة، متحلية بالنظم السياسية والإدارية المعروفة في عصرها، أي في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد. وامتازت الدولة من بين كافة دول وإمارات عهدها بالوقوف الى جانب السلم والصداقة مع الدول والإمارات الأخرى، وإبتعادها عن الفتن والمنازعات والمعارك التي كانت تعصف ببلدان الشرق الأوسط، التي كان يحكمها حكام ظالمون جلبوا الكوارث على شعوبهم بما زرعه فيهم من قتل وسلب ونهب وتدمير وخلق الفقر والجوع والخوف الذي تنطق به صفحات التاريخ. كانت السياسة الداخلية لهذه الدولة الكُردية منصبة على توفير الأمن والإستقرار والرخاء والسعادة لشعبها، وإرساء العدل والمساواة بين طوائفها الدينية حتى كان مدير الأوقاف فيها، وهي مؤسسة دينية إسلامية (إبن شليطا) رجلاً مسيحياً شغل المنصب طوال فترة حكم إثنين من أمراء الدولة، ما يشهد على حكمها الديمقراطي، الأمر الذي أدى برمته الى أن تتقدم البلاد إقتصادياً وعمرانياً وإجتماعياً ومن ناحية عدد السكان كذلك. وكل ذلك بشهادة تاريخية من أبي العلاء المعري الذي مرَّ ببلادها عن طريق زاخو (الحسنية) - آمد قادماً من بغداد فوصفها بأنها: "يتساوى فيها حامل المال وحامل الرمال، فالمسافر فيها آمن على ماله وروحه لا يتعرض له أحد أينما بات ونام". وذكر بأن المسافة من بغداد الى حدودها وكذلك من حدودها الغربية الى حلب مليئة بالمخاوف والربح ومخاطر اللصوص وقطاع الطرق، وبشهادة كذلك من الطبيب الشهير (إبن بطلان) الذي أشار الى ما حصل في بلادها من التقدم العمراني والإقتصادي وتوسع أعمال البناء وكثرة

الرخاء وتظاهر السكان بالغنى. حتى إن ذلك أثر على رفع مستوى المعيشة وتقدم الأوضاع الصحية (حيث قلّ عدد الوفيات وأصبح الأطباء وحفاروا القبور بلا عمل). لقد كتب ابن بطلان هذا وهو مقيم بضاحية العاصمة البيزنطية (قسطنطينية)، بعيداً عن البلاد الدوستكية وبعيداً عن التزلف والرياء ونصراً للحقيقة التاريخية ليس إلا. أما شهادات المؤرخ (الفارقي) فكثيرة وسيجدها القاريء وغيرها من الشهادات بين ثنايا كتابنا هذا. لقد كانت هذه الدولة الكُردية في عصرها كدولة (سويسرا) في القرن العشرين. إن الدول المحتلة لكُردستان تبث أنواع الدعايات للتقليل من شأن الشعب الكُرد وحركاته التحررية في الداخل وفي الخارج، ومن ذلك أن الإدعاء بأنه لم تكن للكُرد يوماً دولة في التاريخ وهم غير جديرين لذلك بالحكم وإقامة دولة قومية لهم. ولما كانت الدولة الدوستكية قد أثبتت جدارة الكُرد للحكم ومشاركتهم في الحضارة، قام نظام الحكم في العراق بمنع نشر هذا الكتاب الذي يفند تلك الإدعاءات، ويحيي ذكرى كيان كُردى مندثر منسي كانت له إسهامات حضارية مهمة. لم تضم الدولة الدوستكية كافة أقاليم كُردستان مثلما لا توجد الآن دولة عربية تحوي كافة أقطار بلاد العرب. إن الدولة الدوستكية وإن لم تكن من الدول الكبرى كالدولة العباسية والفاطمية والبويهية والسلجوقية، إلا أنها كانت كبيرة بقيمتها وسياساتها السلمية والعادلة وحكمها الديمقراطي. لقد خاف النظام العراقي من تأثير هذا الكتاب المؤلف بأسلوب علمي، فأعدمه بتلك الطريقة المشينة. بينما كان النظام يكافيء كُرداً آخرين من مؤلفي القصص والكتب الأخرى بالجوائز النقدية والعينية، ذلك أن نتاجاتهم كانت تعتبر قليلة أو قليلة التأثير على المجتمع الكُردى. وكان الأخرى بأولئك الكتاب الكُرد رفض تسلك تلك الجوائز كما فعل (مانديلا) العظيم في أقصى جنوب المعمورة، حينما عرضوا عليه تسلم جائزة (أتاتورك) من الحكومة التركية قائلاً: "إنها، أي الحكومة التركية تضطهد الكُرد".

إن ما آل إليه مصير الكتاب، والذي كلفني أتعاباً كثيرة دون أن يؤثر ذلك على عزيمتي ذبولاً أو خمولاً، بل زادها رفعةً وصلابة كصلابة أبراج ديار بكر. فشددت الرحال في صيف عام ١٩٧٧ الى:

بلاد بها حل الشباب قمامي وأول أرض مس جلدي ترابها
مربع يُزري بالعبير رغامها وتهزأ بالظبي النُفور كعابها

ذلك لمشاهدة وتصوير الآثار الحضارية للدولة الدوستكية التي لم تعفُ رسومها بنوائب الدهر. فكانت سفرة مبهجة غناً، كسفرة الشاعر (المازي) كاتب (ديوان الإنشاء) في عهد الملك الدوستكي نصرالدولة - الى (وادي بزغا). فزرت مدينة آمد (ديار بكر) - سقاها مُضاعف الغيث العميم - التي يقال ان سورها المتين هو أول سور من نوعه في العالم بعد سور الصين. ووجدت سورها وأبراجها متحفاً زاخراً بالكتابات والرسوم الرومانية والعديد من الدول الإسلامية، وشاهدت عليها كتابات كوفية مورقة ورسوماً موثقة بأسماء الأمراء الدوستكيين. وكانت الأبراج متجدلة شاهقة عتيده وهي تنتظم حول دورة السور كالعقد العظيم، ومنها ما يزيد إرتفاعها على عشرين متراً، وهي تزهو في عتو ونُفور، ولكنها حنت على آلة تصويري حنو المرضعات على الفطيم معتقدة أن تلك الآلة الصغيرة

تبعثها بمعنى جديد وتعيد إليها عزها ومجدها التليد وتحيي ذكرى بُنائها وعظامهم رميم. أما العاصمة فارقين، فإن الجهلاء من سكانها هدموا أسوارها ونقضوا أبراجها وإستخدموا أحجارها المهندمة الناصعة في بناء دورهم الحقيمة. ولهذا لم يبق منها سوى رمق من نتوءات وشواهد من الماضي المجيد مما لم يستطيعوا قهره مثل (برج الطبالين) الضخم و(قلعة زه مبييل فروش) الباسقة التي تحكي قصة عفة طريفة ما زالت تُنشد بالنظم الكردي في معظم أنحاء كُردستان. كانت القلعة المذكورة جزءاً من (المنظرة) العالية التي شيدها نصرالدولة، الذي حكم أكثر من نصف قرن، لبيتزته فيها مع ندمائه غارقاً في أسباب الترف والنعيم كأنه خالد لاتناله اظفار المنون . أما البرج الخمسة أضلاعه، فقد ظل سالماً لم تتل منه أيدي الجناة وكأنا خافوا من صورة الأسدين المنقوشين عليه وبينهما شمس ساطعة لا يغشاها سحاب كأنهما يحرسانه، أو كأنهما مع الشمس المرسومة طلسم يصونه آماداً على آماد. يحمل البرج بكتابتيه ذكرى ملكين كرديين، أحدهما ملك هاديء الطبع مسالم هو نظام الدين بن نصرالدولة، وآخر في منتهى الشجاعة والإقدام وهو الملك الكامل الأيوبي الذي قاوم في فارقين قوات المغول لسنتين، ثم لما أحضر أمام هولاءكو أسيراً أهان هولاءكو وحقره تحقيراً حين قال له الملك الكامل: "أنا خير منك، أنت لا عهد لك ولا ذمة ولادين". فأدخل هولاءكو سيفه في بطنه ميقراً، فذهب شهيداً الى جنات النعيم، وأجزل له التاريخ سطوراً من خلود. ثم زرت آثار الجسر الذي شيده نصرالدولة على نهر باطمان وحاولت إكتشاف موقع مدينة (النصرية) التي بناها على ضفة النهر المذكور، كما زرت قلعة (هتاخ) التي أعتيل فيها مهمد الدولة وسافرت الى قرية كورماس (كورماص) وقرية مروان أبي الأمراء في منطقة (شيروان)، فوجدت آثار الطاحونة (ناشي مه روانان) التي ذكر الفارقي أن مروان أبا الأمراء كان قائماً عليها. كما قمت بتصوير آثار مدينة نهرزن (غرزان). اني أضيف الآن هذه المعلومات الى الكتاب مما يزيد في أهميته توثيقاً مع إضافة معلومات من مصادر لم أطلع عليها سابقاً، فزادت مصادر الكتاب على (٣٠٠) مصدر وتعمقت بصورة أكبر في دراسة أنظمة الدولة والحالة الإقتصادية من زراعة وتجارة وغيرها وكذلك في آثارها العمرانية.

إستقر رأيي مؤخراً على أن لقب مؤسس الدولة هو (پاد / PAD) بالباء المفخمة وليس (باد) بالياء الموحدة غير المفخمة. ف(پاد) بعنى الكبير والحاكم أو الملك. وقد دخل في تركيب لفظ(پادشاه). لقد كتبنا بعض الكلمات (الأسماء) بالإملاء الكردي تسهيلاً للقراء الكرذ وحددتها بأسمائها الحالية أيضاً.

في سنة ١٩٩٨ ترجم الأخ السيد أبوبكر كارواني معلومات من هذا الجزء ونشرها باللغة الكردية في كتيب مشكوراً.

ختاماً في الساعة (٤٥, ١٢) من ظهر اليوم الثاني من أيلول الجاري تسلط عليّ بكاء لم أستطع رده وذلك عندما يئست من وجود مصادر أخرى متيسرة حالياً للإستفادة منها. عندها علمت بأن البحث قد إنتهى وشعرت كأنما الحياة بالنسبة لكائن عزيز قد توقفت وأن القلم قد جف وأن دوري قد إنتهى، فلم أستطع أن أضع بين يدي القاريء الكريم سوى جزء يسير من تاريخ هذه الدولة ومازال

القسم الأكبر منه مفقوداً أو لم يُدَوَّن أصلاً. فكان البكاء بكاءً يأس وعجز ولعل في المستقبل من يأتي بعدي فيعثر على مخطوطات ما زالت منسية كمؤلفات الأخوين يحيى بن جرير والفضل بن جرير من أطباء الدولة الدوستكية، حيث أُلِّفَ الأول كتابين في التاريخ تناول في أحدهما تاريخ هذه الدولة بالتأكيد. أما الثاني فقد أُلِّفَ في التاريخ كتاباً واحداً. وتعد الكتب الثلاثة حالياً في عداد المفقودات، حيث إتصلت بجملة من المكتبات الشهيرة في الشرق والغرب للحصول عليها فلم يكن لها فيها وجود.

أهدي ثواب كتابي هذا بجزءه الى المؤرخ العربي الجليل أستاذي سعيد الديوه جي الذي وجهني الى التاريخ:

وهو الذي أفادنا الآداباً والبحث والسؤال والجواباً

عبدالرقيب يوسف

١٩٩٩/٩/٦

مقدمة الطبعة الأولى

يعتبر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عصر نهضة بالنسبة للشعب الكردي، حيث ناضل

هذا الشعب من أجل الحصول على حريته وتمكن من تأسيس حكومات كردية أسوة باستقلال شعوب أقاليم أخرى في المنطقة مع إعراف بالزعامة الروحية للخليفة العباسي وتلك الحكومات الكردية هي: الحكومة الهذليانية والشدادية والبرزيكانية والدوستكية، وكانت الأخيرة التي أسسها الأمير الكردي أبو شجاع ياد بن دوستك في (٣٧٢هـ=٩٨٢م) والتي عاشت الى (٤٧٨هـ=١٠٨٦م)، والتي اجتمعت فيها كافة مقومات الدولة. وكنت أنوي طبعه كله في مجلد كبير ولكن حالت دون ذلك ظروف قاسية فرأى الأول النور وظل هذا القسم الأخير يخاطبه شاكياً بلسان الأديب الكردي (البيتوشي):

وظالما كنا كغصني بان لكن نما وزدت في النقصان

وقد لقي الأول إستحسان القراء وإعتبره بعضهم أول دراسة من نوعها في المكتبة الكردية بالطابع الذي تميز به، ألا هو طابع النقد والتحليل والإستنتاج، أي مناقشتنا لأراء المؤرخين والعشور على أخطاء ومواقع الضعف فيها وقيامنا بتحليلات وإستنتاجات كثيرة في المناسبات العديدة. وكذلك أبدينا رأينا بصدد مسائل متعددة وكان هدفي تنقية تاريخ هذه الدولة من الأخطاء والشوائب التي تسربت اليه وعلقت به وتثبيت الصحيح والتأكيد عليه. فجاء هذا تعبيداً للطريق وتسهيلاً بالنسبة للجزء الثاني، فلا حاجة بنا الى التنبيه على الخلافات الموجودة حول مسألة ما من جديد إلا ما لم نشر أو لم نهتد إليه. وبقي الجزء الثاني دراسة مرنة وشيقة مع كونها دراسة عميقة في قلب المجتمع الكردي في فترة بعيدة وفي قلب الدولة الدوستكية تحدد طبيعة سياستها الداخلية والخارجية وأبعاد علاقاتها مع الدول والإمارات المجاورة لها ولاسيما الدول الكبرى الثلاث؛ الدولة العباسية والفاطمية والبيزنطية. وما تلك العلاقات إلا تعبير عن علاقات الشعب الكردي بالشعوب المجاورة، علاقات تميزت بالسلم والصدقة.

يتناول هذا الجزء أنظمة الدولة الدوستكية، من النظام السياسي والإداري والمالي والعملة الدوستكية. ولم نغفل عن التطرق رغم المعلومات القليلة الى الحياة الإجتماعية والبشرية أما الحياة الإقتصادية فقد إهتمنا بها أيضاً سواء الزراعة أو الصناعات أو التجارة. وقد إزدهرت الحركة التجارية في عهد هذه الدولة وإمتازت حالة الشعب بالسعادة والرخاء قياساً للعهود السابقة. ويلمس القاريء من خلال هذا الكتاب اهتمام الدولة بالحالة الثقافية وتقديرها للعلماء وتشجيعهم للهجرة الى بلادها. فإزدهرت الثقافة ونشأ من كردستان الكثير من العلماء الأفاضل، كما قدم إليها من الخارج أساتذة لإقامة فيها وطلبة لتلقي العلوم في مراكزها الثقافية، فكانت الصلات الثقافية على أشدها

بين كُردستان وبلاد الشام ومصر. وأبرز ما حصل في مجال الفقه هو إنتشار المذهب الشافعي وإستقراره في البلاد على يد الشيخ أبي عبدالله الكازروني وتلامذته وانتشاره إنتشاراً من مدرسة فارقين. وفي مجال الطب حصل تقدم ملحوظ، حيث شيدت الدولة مستشفى في عاصمتها كان يحتوي على مدرسة للطب، وكان يعمل فيه عدد من الأطباء الماهرين الذين تشهد على فضلهم مؤلفاتهم القيمة في الطب وغيره. وقد ألف هولاء الأطباء في الطب والرياضة البدنية والفلك والتنجم والتاريخ والحيوان، فألف الطبيب عبيدالله بن بختيشوع كتاباً في الحيوان للأمير نصرالدولة، كما ألف له أيضاً الطبيب المشهور ابن بطلان كتابه (دعوة الأطباء). ومن آثار الحركة الثقافية أيضاً وجود مكتبات في البلاد تضم كثيراً من الكتب وكذلك تطور الكتابة الكوفية المزخرفة، فالأشرطة والأقاريز الكتابية الدوستكية توجد الآن على سور دياربكر، وهي تعتبر أرقى ما وصلت إليه الكتابة الكوفية ذات الزخارف النباتية في العالم الإسلامي، وقد فازت بإعجاب المستشرقين والباحثين المختصين.

تقدم في العهد الدوستكي أيضاً فن العمارة والزخرفة وغير ذلك من الأمور الهامة التي تبرهن على معالم النهضة التي شاهدها ذلك الجزء من كُردستان في ظل الحكم الدوستكي. ولا ريب أن القاريء سيلاحظ ما يحتوي عليه هذا الجزء من المواضيع الهامة والمعلومات الغزيرة التي كلفتنا سنوات من العمر وبحثاً متواصلاً في مراجعة المصادر الكثيرة في المكتبات المختلفة، وهذا هو شأن الدراسات التاريخية، إذ أنها ليست مواضيع فكرية محضة غير محتاجة الى هذه المراجعة. إن عمل المؤرخ ليس كعمل الشاعر المحظوظ الذي يكفيه وهو يؤلف قصيدته قلم وورقة كيفما كانا ثم جولة في الخيال الدافيء، أو جولة بين المآسي والآلام التي عاناها أو سمع بها، فحزينة الخيال أو الذاكرة هي المكتبة التي تغنيه عن شد الرحال وراء المصادر. وفضلاً عن هذا ان المؤرخ يكتب عن عصور لم يعيش فيها وأمم لم يعاصرها، وعن سالف زمن بينه وبين حاضره بون بعيد وفرق شاسع في الأنظمة والأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، مع ملاحظة تباين أو إختلافات في طبائع وأخلاق الشعوب وكل ذلك مما إقتضته حتمية التطور. وإذا كان لا يصح للمؤرخ ان ينظر الى تلك العصور والشعوب والطبائع والأوضاع بمنظار عصره في كثير من المجالات، او أن يقيسها على ما يشاهده ويألفه في عصره، او ان يحكم عليها حسب ذوقه وهواه. فعليه أن يدرس العصر الذي يكتب عنه دراسة دقيقة من كافة الجوانب ويُلَم بما يتعلق به وكأنه عاش فيه وعاصر شعوبه حتى يكون سديداً في إستنتاجاته وصائباً في أحكامه. ولا يتأتى له ذلك إلا بمراجعة كثير من المصادر التاريخية وغير التاريخية أيضاً، وجمع المعلومات منها بصورة صحيحة، ثم انه يعكف على دراستها دراسة ناقدة وغربلتها وتحليلها مطبّقاً منهجه وخطته ومحققاً هدفه ومبتغاه. وان تحليله يجب أن يأتي بإستنتاجات قيمة وأحكام صائبة اضافة الى تنظيم المعلومات في أبواب ومواضيع لم يكن لها ذلك الشكل المستقل في تلك المصادر. وهذه العملية شبيهة بصهر مادة لتحويلها الى مادة أخرى وبشكل آخر. لعلنا وقُفنا الى هذا في هذه الدراسة في ضوء المنهج التاريخي الحديث الذي ساهم في بنائه كل من

فوكو وسان سيمون، أوغست كنت، وفوستل دي كولانج، وبولين يونج وفي ضوء منهج المفكر العظيم ابن خلدون في نقد المصادر والكشف عن الأخطاء.

هذا ولما كانت المعلومات قليلة بالنسبة الى بعض المواضيع، إلتجأنا الى الإستدلال بنص واحد من مصدر واحد في مواضع متعددة لعدم العثور على نص مماثل من مصدر آخر أو على معلومات أكثر، مثل ذكر الدينار (الأرمانوسي) البيزنطي الوارد في تاريخ الفارقي. فقد إستدللت به في موضوع العلاقات الدوستكية البيزنطية، و النظام المالى، وفي التجارة وبنيت عليه إستنتاجات. وكذلك عبارة الفارقي بصدد ربح (التاجر ابن بهات)، فقد إستفدت منها في موضوع التجارة، والأوقاف، والقوات المسلحة، والعلاقات الدوستكية البيزنطية، والعدول.

وصادفت في تاريخ الفارقي (مصطلحات) كانت لي بمثابة جُفر لم أتفطن لمدلولاتها وأهميتها مدة، وكثيراً ما وقعت تحت نظري الى أن إهتديت اليها، فوجدتها عظيمة في معانيها الحضارية منها؛ مصطلح (العدول) و(شيخ سوق الطعام) و(عارض الجيش) الواردة في تاريخ الفارقي بدون إشارة الى مدلولاتها. فإستنتجت من المصطلح الأول موضوع (العدول) ومن الثاني (الحسبة) أي النقابات ومن الثالث (وظيفة العارض) من الأنظمة العسكرية وكذلك مصطلح (رسم الإستعمال) الوارد في سيرة (المؤيد في الدين الشيرازي) ممثل الدولة الفاطمية في حركة البساسيري، وذلك في إستعراضه وإنتقاده موقف الأمير الدوستكي نصرالدولة. وتوصلت بعد أن تمكنت من معرفة مصطلح (رسم الإستعمال) الى أنه كانت تُصنع سنوياً بإسم نصرالدولة الثياب (الرسمية) في مصر في مدينتي (تنيس و دمياط) والتفاصيل في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية. وبسبب قلة المعلومات جاءت دراستنا هذه على هذا النمط من البحث ومثلنا في هذا كمثل أجدادنا القدامى الذين كانوا ينحتون لهم من الصخور كهوفاً.

يمكن أن يلاحظ مدى التحقيق الذي قمنا به في هذه الدراسة في الحضارة من ذلك العدد الضخم من المصادر التي إعتدنا عليها والبالغة أكثر من (٣٠٠) مصدر، وقلما يوجد كتاب يعتمد على مثل هذا العدد الكثير، علماً اننا راجعنا أضعافاً مضاعفة ولكن بدون أن نستفيد منها شيئاً.

إن صادف القراء مواضيع ضحلة فليصفحوا الصفح الجميل، وذلك لأنني لم أمر عليها إختصاراً للوقت أو تهرباً من صعوبة البحث، بل لما لم أجد حولها معلومات أكثر. فعلى سبيل المثال ان موضوع العلاقات مع الشعب الأرمني رغم ضحالتها من حيث المادة، قد كلفني كثيراً من البحث والوقت. فقد أرسلت مرتين بإستفسارات الى مجلس الإستشراق في أرمينيا بصدد تحديد موقع الإمارات الأرمنية ولاسيما إمارة السناسنة وبصدد علاقاتها مع الدولة الدوستكية. ولكن لم أتلق منه جواباً علماً ان المعلومات بهذا الخصوص قليلة في المصادر الإسلامية. واني اعتقد ان المؤرخين الأرمن القدامى دونوا في مؤلفاتهم معلومات غير قليلة عن العلاقات والروابط المتشابكة بين الشعبين الكردي والأرمني في القرنين العاشر والحادي عشر، وأخص بالذكر تاريخ العالم للمؤرخ آسوليك وتاريخ أرزروني لتوماس الأرزروني وتاريخ قاردان المتضمن الفترة (٨٨٩-١٢٦٩م)، وكذلك تاريخ قرياقوس الكنجي (٣٠٥-

١٢٦٥م) ووقائع نامه لميكائيل السرياني المنتهي بسنة (١١٩٥م). وللمصادر الأرمنية القديمة (بل لكل الفترات) أهمية بالنسبة للتاريخ الكردي.

أما المصادر الكنسية فإنها تحتوي على قسم غير قليل من تاريخ البلاد الكردية، لأنها تعالج تاريخ الديانة المسيحية والمسيحيين في كردستان. وهذا بحد ذاته جزء من تاريخ هذا الوطن، الذي أقسمه من حيث الديانة المدونة المعترف بها إلى القسم الزرادشتي والقسم الإسلامي والقسم المسيحي. فلا فرق في نظري بين حياة عالم مسلم وعالم مسيحي عاشا في العصر الدوستكي ولا بين مدرسة إسلامية كمدرسة فاروقين ومدرسة مسيحية في كردستان كمدرسة (ديرقرتمين) في طورعبيدين ومدرسة (ديرزقنين) في دياربكر، وكذلك بين مكتبة جامع دياربكر ومكتبة دير قرتمين، وإنما الفرق بالأهمية فقط.

إن تاريخ هذه الدولة الكردية يجب أن يكون شاملاً بالنسبة للمسلمين والمسيحيين الذين عاشوا في ظل هذه الدولة. ولهذا وجدنتي بحاجة إلى المصادر الكنسية، لأن المصادر الإسلامية لم تهتم كثيراً بالجانب المسيحي، فراجعت عدداً من كنائس الطوائف المسيحية ببغداد لهذه الغاية. وبالإضافة إلى المكتبات العامة إستفدت من عدد من المصادر الكنسية ولاسيما مؤلفات البطريرك السرياني (أفرام برصوم) وبالأخص "تاريخ طورعبيدين". ففي المصادر الكنسية معلومات غير قليلة عن كردستان ومدنها وقلاعها وحتى عن الكرد المسلمين أيضاً، وذلك لأن العلماء المسيحيين دونوا تاريخ كنائسهم وأديرتهم وحياتهم الدينية والثقافية، ويمتازون بهذا عن العلماء الكرد المسلمين. غير أن كثيراً من المصادر الكنسية مازال مخطوطاً أو باللغة السريانية بحيث يصعب الإستفادة منها. وكذلك إستفدنا من مصادر فارسية وتركية أهميتها غنية عن البيان.

وللحصول على معلومات أكثر إتصلنا بعدد من المكتبات والمتاحف في الشرق الأوسط وفي الغرب فحصلنا على صور لنماذج من النقود الدوستكية زودنا بها المتحف البريطاني بلندن وعلى مخطوطات ثمينة.

أخيراً أرجو أن ينال هذا الكتاب رضى القراء وإستحسانهم.

عبدالرقيب يوسف

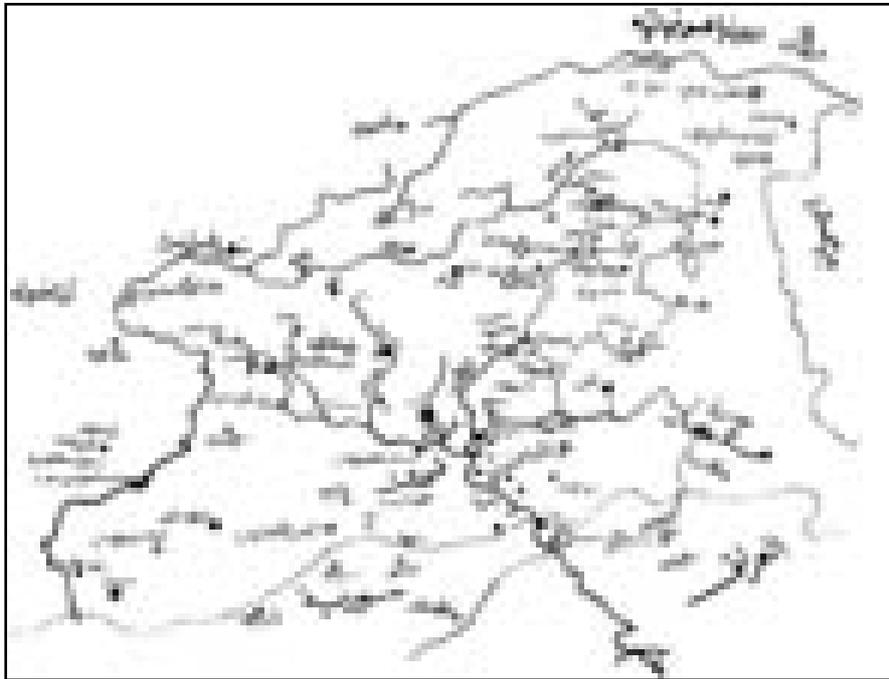
الأمراء الدوستكيون ومدد حكمهم

- ١- ياد بن دوستك ٢٧٢-٣٨٠ هـ = ٩٨٢-٩٩٠ م
- ٢- أبو علي حسن بن مروان ٣٨٠-٣٨٧ هـ = ٩٩٠-٩٩٧ م
- ٣- محمد الدولة سعيد بن مروان ٣٨٧-٤١٠ هـ = ٩٩٧-١٠١١ م
- ٤- نصرالدولة أحمد بن مروان ٤٠١-٤٥٣ هـ = ١٠١١-١٠٦١ م
- ٥- نظام الدين نصر بن نصرالدولة ٤٥٣-٤٧٢ هـ = ١٠٦١-١٠٨٠ م
- ٦- ناصرالدولة منصور بن نظام الدين ٤٧٢-٤٧٨ هـ = ١٠٨٠-١٠٨٦ م وكانت الدولة قد أسست سنة (٣٧٢ هـ = ٩٨٢ م) وعاشت الى سنة (٤٧٨ هـ = ١٠٨٦ م). وأحيائها ناصرالدولة سنة ٤٨٥ هـ -١٠٩٣ م ودامت خمسة أشهر أو ستة أشهر فقط.

إمتدت حدود الدولة الدوستكية في أوج توسعها من نهر الفرات حتى جنوب الموصل وشمال تكريت، ومن شمال شرق بحيرة وان حتى أورفا (الرها) أي الى الحدود التركية - السورية الحالية أو بالقرب منها. وذكرنا التفاصيل في الجزء الأول موضوع حدود الدولة. ومما تجب الإشارة إليه هنا هو إنني إعتبرت هناك (موش) داخل حدودها وزاخو (الحسنية) خارجها، وظهر لي فيما بعد أن منطقة زاخو كانت ضمن بلادها مع إحتمال إمتداد حدودها حتى منطقة (نيروه) في شرق العمادية. ولما كانت نصيبين من مدنها في فترات، فإن معظم الأراضي الواقعة في قضاء القامشلي السوري أو قسم غير قليل منه كان تابعاً لنصيبين. كما إن قضاء ديرك (المالكية) السوري كانت معظم أراضيه تابعة لمدينة الجزيرة الدوستيكية. أي إن قسماً من محافظة الجزيرة السورية كان داخلاً ضمن البلاد الدوستيكية كخط متصل دون فاصلة. أما منطقة (هكاري) فمن المحتمل أن قسماً منها كانت ضمن بلادها، وخاصة القسم الجنوبي والغربي، بينما كان قسمها الآخر تابعاً للدولة الهذبانية الكردية في آذربيجان. أما (موش) فمن المحتمل جداً أنها كانت ضمن إمارة السناسنة الأرمنية. ولما كانت الحدود الدولية آنذاك غير دقيقة كدقتها الآن، فلا يمكن لنا تأشير الحدود الدوستكية ضمن خط محدد على خارطة الدولة الدوستكية هنا. وقد وضعنا على الخارطة أسماء مدن خارجة عن سيطرتها توضيحاً لعموم المنطقة.

أما تعبير (كردستان الوسطى) الذي إستخدمته في عنوان الكتاب، فإنه بالنسبة لجغرافية كردستان الحالية، التي إتسعت فيما وراء البلاد الدوستكية شمالاً وغرباً الى مسافات شاسعة جداً حتى منابع الفرات والى القرب من سيواس وولاية الإسكندرونه، فكردستان الوسطى ماعدا ذلك الجزء من بهدينان تُسمى الآن من قبل الكرد مع المناطق المشار إليها بـ(كردستان الشمالية) التي هي تحت السيطرة التركية.

خريطة الدولة الدستورية
مقياس الرسم: ١ : ١٥٠٠٠٠٠



الفصل الأول

العلاقات الخارجية للدولة الدوستكية

أسس وطبيعة سياستها الخارجية

قبل أن نخوض في تفاصيل علاقات الدولة الدوستكية مع العديد من الدول والإمارات المعاصرة لها كل على حدة وبشكل مسهب بقدر ما توصل اليه البحث والتدقيق، نبدأ بتحليل سياستها الخارجية كي يلمس القاريء أسس وطبيعة سياسة هذه الدولة الكُردية في المجال الخارجي. وهي أسس تمثل تجسيداً حياً لطبيعة علاقات الشعب الكُرد في فترة مهمة من القرون الوسطى بالشعوب المجاورة له. ان السياسة الخارجية للدولة الدوستكية في عهد مؤسسها الملك (باد بن دوستك) كانت تتمثل فيما يلي:

- ١- تمتين علاقات الصداقة مع الإمبراطورية البيزنطية.
- ٢- تقوية العلاقات مع الشعب الأرمني.
- ٣- تقوية العلاقات مع الشعب العربي في شمال سورية.
- ٤- تمتين العلاقات مع الشعب الكُرد في كُردستان الشرقية وأقصد بذلك (الدولة الهذبانية).
- ٥- توسيع مساحة الدولة في كُردستان الجنوبية والموصل والعراق، اي في البلاد التي كانت تحت سيطرة الدولة البويهية (الدلمية) إلا في فترة صلح (نصيبين). وكان الملك باد يعمل لتحقيق هذا الجانب من سياسته الخارجية الى أن ضحى بنفسه في سبيل ذلك بزحفه على الموصل. وبإنهاء عهده إنتهى الدور الأول من الأدوار التاريخية للدولة، ألا وهو (دور الإنتراع). وفي عهد (أبي علي حسن بن مروان) حدث تحول في سياستها بصورة عامة حيث أصبحت تتمثل في:
 - ١- الإكتفاء بمساحة الدولة والحفاظ عليها.
 - ٢- الإبتعاد عن المشاكل الخارجية والإصطدام المسلح مع أي من جاراتها. أي إنتهاج سياسة سلمية مع كافة دول وإمارات المنطقة وبضمنها الدولة البويهية.
 - ٣- الإنصراف التام الى الشؤون الداخلية، توفير أسباب حياة الرفاه والأمن والإستقرار لأبناء الشعب. وقد سار الملوك الذين أتوا من بعد ابي علي حسن على السياسة التي رسمها للدولة، والتي بفضلها تمتعت دولتهم بإستقرار لم تحظ بمثله أية دولة أخرى في ذلك العصر. وتمتع شعبها بحياة هادئة لم ينعم بمثلها شعب آخر من شعوب المنطقة، والبرهان على ذلك قلة مشاكلها الخارجية والداخلية أيضاً. أي ان المشاكل التي حدثت لها كانت قليلة جداً، إذا ما قورنت بمشاكل غيرها من دول وإمارات المنطقة. فمثلاً لم نجد للدولة الدوستكية مشكلة تؤدي الى صدام مسلح مع جاراتها منذ إنتهاء القتال

مع القوات البيزنطية سنة (٣٨٢هـ = ٩٩٢م) الى سنة (٤١٧هـ = ١٠٢٦م)، حيث حدثت مصادمة مع النميريين في الرها في أول سنة ٤١٨ هـ . أي لم يحدث للدولة إصطدام مسلح واحد خلال سبع وثلاثين سنة كاملة سوى قتال مع أمير عقيلي سنة (٤٠٤هـ). ثم أقبلت (فترة المشاكل) من المصادمة مع النميريين وبدران العقيلي الى سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م) أي الى نهاية الإشتباكات مع القوات البيزنطية اثناء النزاع على أورفا (الرها). ففي هذه الفترة توترت علاقات الدولة الدوستكية مع جاراتها: مع الدولة البيزنطية والأرمن والنميريين والعقيليين وحدثت مصادمات مسلحة معها كانت معظمها دفاعية، ومن هذا التاريخ الى سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) أو السنة التي تلتها أي بداية الزحف السلجوقي لإحتلال الدولة- لم تحدث أية معارك خلال (٤٩) سنة بينها وبين جاراتها سوى مصادمة مسلحة واحدة مع قوات الأمير العقيلي (قريش بن بدران) الزاحفة على الأراضي الدوستكية في مقاطعة بوتان سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م)، إثر مقتل واليها الأمير أبي الحرب سليمان بن نصرالدولة.

وهكذا نرى إن المشاكل الخارجية التي حدثت للدولة الكردية، والتي رافقها القتال كانت قليلة جداً بفضل سياستها الخارجية السلمية الناجحة، علماً أنه حدثت مشكلتان أخريان بيد أنهما لم تكونا من هذا الباب. وهما عبارتان عن إغارة (الغز) السلاجقة المهزومين أمام طغرل وأخيه إبراهيم ينال، وحادثة سلاخراسان. فالأولى ليست بشكل مشكلة بين دولة ودولة، واما الثانية فإعتداء من قبل دولة قوية بحيث لايمكن الطعن بالسياسة الدوستكية بسببها.

أما المشاكل الداخلية التي أريقت فيها الدماء، فهي عبارة عن مشكلتين هما؛ مؤامرة شيروه بن مم وقرمرد بوتان سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م). أو ربما هي ثلاث مشاكل، إذا ما أضفنا إليها إغتيال عبدالبر للأمير أبي علي سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م). أما خلاف الأمير سعيد مع أخيه نظام الدين فقد ذكر بعض المؤرخين انه أدى الى قتل بعض الناس خارج مدينة فارقين ولكن لم يؤد الى قتال فعلي بين الأخوين. وكان الخلاف الوحيد داخل الأسرة الدوستكية كثيرة الرجال، وهذه ميزة شاذة تقريباً بالنسبة للأسر الحاكمة في ذلك العصر. فوحدة رجال الأسرة الدوستكية وسياسة دولتهم السلمية والعادلة أدتا الى بقاء الدولة مدة (١٠٦) أعوام لم تعش مثلها دول أكبر وأقوى منها. وقد مرت تفاصيل ذلك في الجزء الأول.

هكذا قللت سياسة الدولة الحكيمة من المشاكل الخارجية والداخلية ومنحتها إستقراراً لم تشهده دولة أخرى. ولكن قلة المشاكل الخارجية والداخلية لهذه الدولة أصبحت سبباً لقلّة المعلومات التاريخية المدونة حولها إذا ما إستثنينا ما دونه الفارقي، وذلك لأن المؤرخين كانوا يصبون إهتمامهم على تسجيل أنباء القتال والمعارك وعلى حوادث السلب والنهب، ويتركون (نسبياً) البلد الهاديء في هدوئه. فكان نصيبه من التاريخ الأقل. أما الجوانب الإقتصادية والعمرائية... وأهمية الهدوء فلم يعيروا لها الإهتمام اللائق.

هذا وإذا أجلنا الطرف تارة أخرى في السياسة الدوستكية الخارجية، نرى إنها تمتاز بالإستقرار

والإستقامة، حيث إن الدولة حددت طبيعة علاقاتها مع الدول والإمارات المعاصرة وحددت سياساتها من النزاعات الدولية وخاصة من الدولتين العباسية والفاطمية، المتنازعتين على الخلافة الإسلامية. كما حددتها من النزاع البويهي- السلجوقي والنزاع السلجوقي- البيزنطي.

ولا نغالي إذا ما عبّرنا عن سياستها بـ(سياسة الحياد)، إذا ما أردنا تقريبها من المفاهيم أو التعابير الحديثة لزيادة الإيضاح. فبالرغم من أن الدولة الدوستكية كانت مرتبطة من الناحية المذهبية والرسمية بالخلافة العباسية، إلا أنها من الناحية العملية كانت محايدة بين المعسكرين العباسي والفاطمي وإزاء نزاعهما، الذي تأثر به الأمراء وأصحاب الأطراف في بلاد الشام والجزيرة والعراق وإشتركوا فيه عملياً، لاسيما في فترة إشتداده وتأزمه من سنة (٤٤٨هـ - ٤٥١هـ). فمنهم من إنضم الى هذا الجانب مرة، والى ذلك الجانب مرة أخرى، بينما إلتزمت الدولة الدوستكية جانب الحياد، بالرغم من ضغط المعسكر الفاطمي عليها وتهديد القوات الموالية للفاطميين والمتجمعة في منطقة الجزيرة، إستعداداً للزحف على بغداد، للأمير نصرالدولة. إلا أن هذا الأخير لم يشترك في الزحف على بغداد سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م) ولا دافع عنها، كما لم يقطع الخطبة للسلطان السلجوقي بالرغم من الإلحاح الفاطمي وتحذيره من البقاء محايداً. كما لم يعاد هذا الأمير الجانب الفاطمي أيضاً، بل دخل وهو دبلوماسي بارع في مخابرات طويلة مع ممثل هذا الجانب (المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي) ومع الخليفة الفاطمي نفسه، وأرسل مندوبه (الشيخ أبا الحسن بن بشر) الى مصر، وكل ذلك إنتظاراً لجلاء الموقف، كما يصارحه الشيرازي في رسائله إليه. ويفضل هذه السياسة او الموقف إستطاع نصرالدولة أن يحافظ على سلامة بلاده من الكوارث التي حلت جراء ذلك النزاع بالقسم الأكبر من بلاد الجزيرة والعراق، كما سيأتي بالتفصيل في موضوع العلاقات الدوستكية - الفاطمية.

لما كانت السياسة الدوستكية مستقرة وثابتة، فإنها لم تنسم بالتذبذب وراء الأطماع والمكاسب الأنية كسياسة الكثير من الأمراء في المنطقة، والتي إتسمت بالتذبذب وعدم الإستقامة. فقد كان (قريش بن بدران) أمير دولة بني عقيل قد أقام الخطبة في بلاده للسلطان السلجوقي طغرل وقدم له ولاءه سنة (٤٤٨هـ) أو السنة التي سبقتها، ولكنه إنضم الى الجانب الفاطمي في السنة المذكورة بعد معركة سنجان مباشرة، إلا أنه عاد وتراجع مرة أخرى مع (إبن مزيد) أمير الإمارة الأسدية في الحلة في السنة التي تلتها، ولكن قريشاً عاد فإنضم الى الجانب الفاطمي في سنة (٤٥٠هـ) وساعد أبا الحارث البساسيري على إحتلال بغداد وإقامة الدعوة الفاطمية فيها. غير أنه قدّم ولاءه في السنة التالية لطغرل إثر وصوله الى العراق وقضائه على البساسيري^(١).

كل هذا التذبذب حدث في تلك الفترة القصيرة ولم يجن (قريش) من سياسته غير الثابتة هذه غير النكبات لبلاده وشعبه، حتى إن عاصمته الموصل قد إحتلت مرتين في تلك المدة من قبل السلاجقة.

(١) راجع إبن الأثير، الكامل ج ٨ ص ٧٧، ٧٨، ٨٠ - ٨٣. وخاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، ص ١٠١ - ١٠٥. ذكر المؤيد في سيرته: ان قريشاً لم يفارق البساسيري وإنما أرسل ابنه الى طغرل سنة ٤٤٩هـ نتيجة مفاوضات فأعطاه طغرل بعضاً من بلاد أبيه.

إن سياسة الحياد لاتعني إن الدولة الدوستكية عاشت في عزلة سياسية وإقتصادية عن بلدان النزاع، بل بعكس ما يمكن أن يُتصور. فالحياد أبعد عنها العزلة وساهم في تنشيط علاقاتها مع دول وإمارات المنطقة وجعلها متينة مستقرة، إلا في أثناء مشاكلها الخارجية التي أشرنا إليها والتي كانت قليلة وقصيرة الأمد بالنسبة لعمر الدولة البالغ أكثر من قرن من الزمن.

وقد عرفت هذه الدولة الكرديّة بسياستها السلمية وكان نصرالدولة مثلاً للملك السلمي والرجل المحب للسلام. فقد كان يبغض القلاقل والمشاكل وإراقة الدماء ويتجنب الحرب بالوسائل السلمية، ويعمل على حل المشاكل والحيلولة دون نشوب القتال بينه وبين طلاب الحرب عن طريق التفاوض والتفاهم وأحياناً عن طريق إقناع عدوه بالمال، مع قدرته على المجابهة وصد العدوان. (وكان إذا قصده عدو يقول: كم يلزمني من النفقة على قتال هذا، فإن قالوا خمسون ألفاً بعث بهذا المقدار وما يقع عليه الإتفاق وقال: إدفعوا هذا الى العدو وأكفه بذلك وآمن على عسكريه من المخاطرة)^(٢).

وبهذه الطريقة السلمية التي ذكرها وخلدها التاريخ نجح نصرالدولة أحياناً في إبعاد شبح القتال عن بلاده أو الحد منه وحل خلافاته مع أعدائه، وقد مر التفصيل في موضوع (سياسة نصرالدولة السلمية في الجزء الأول). أما الأمير نظام الدين الذي حكم تسع عشرة سنة بدون أن تتوتر علاقاته مع إحدى الدول أو الإمارات المجاورة، فقد أراد أن يسير على سياسة والده المذكورة في صرف العدو عن طريق المال دون إراقة الدماء. فعندما حاصر (سلار خراسان) مدينة فارقين، وكان قد أرسل مع قوات عسكرية من قبل السلطان السلجوقي سنة (٤٥٨هـ = ١٠٦٦م) للتحرش بالدولة الدوستكية، تفاوض معه نظام الدين على إعطائه (٣٠٠) ألف دينار مقابل رجوعه عن بلاده، غير أن وزيره الأنباري أشار عليه بإلقاء القبض على سلار وقتله بحيلة مر ذكرها، وبين له خطأ هذه السياسة فقال له: "يجيء غداً آخر مثله ويفتح عليك باباً لاتقدر أن تسده أبداً"^(٣)، فقبض عليه نظام الدين وقتله مع من دخلوا معه المدينة، ثم شتت جيشه. فأصبحت حادثة سلار الأولى والأخيرة ولم يتكرر مثلها.

إن سياسة الحياد والسلمية التي إنتهجتها الدولة الكرديّة أثرت تأثيراً إيجابياً على تقدم البلاد في المجال الإقتصادي والثقافي، لأن مثل هذا التقدم مرهون كما لا يخفى بالسلام وإستقرار الأوضاع وتأمين طرق المواصلات، إذ أن تلك السياسة قد جنبت كُردستان الوسطى من مثل تلك الغزوات والغارات التي كانت تُشن عليها من هنا وهناك في العهود السابقة وتترك فيها الخراب والدمار.

وإذا أردنا أن نوضح السياسة الدوستكية الكرديّة بصورة أجلى، فلنقارن بين وضع البلاد في العهد الدوستكي ووضعها في العهد الحمداني، الذي إنتهى قبله بأقل من خمس سنوات. ولنضرب بسياسة الحمدانيين الداخلية جانباً، لأن الحديث عن مساوئها وفسادها مسألة طويلة أوفت بها المصادر القديمة،

(٢) ابن الجوزي، المنتظم ج ٨ ص ٣٢٢. ابن الأثير. البداية والنهاية. ج ١٢ ص ٨٧. الخزرجي. العسجد المسبوك ورقة ٢٨ مخطوط.

(٣) الفارقي ص ١٨٣.

وبالأخص (صورة الأرض) لابن حوقل. كانت قد دخلت كُردستان الوسطى وقسم من كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق) تحت حكم الحمدانيين مدة حوالي خمسين سنة أو أكثر، وقد تعرض الحمدانيون الى إنتقادات شديدة من قبل بعض المؤرخين، كالدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة الذي قال: "لا ينبغي ان نتصور آل حمدان مثلاً أنشأوا دولتهم إنتصافاً للعرب من غير العرب... بل هم من حيث الإدارة أسوأ الدول التي عرفها الإسلام على الإطلاق. فقد كان ظلمهم وعسفهم ونهبهم أموال الناس مضرب المثل" (٤). أما آدم منتز فقد وصفهم باللصوص الرسميين (٥). لهذا لا يُستغرب أن يضيف حسين بن حمدان الى جرائمه إحراق بلدة (تل فافان) الكُردية سنة (٣٠٣ هـ = ٩١٥ م) وهو يهزم أمام القوات العباسية (٦).

لقد بالغ الحمدانيون في إغتصاب الأملاك من السكان وفرض الضرائب الثقيلة عليهم وأخذ الأتاوات منهم وأدى ظلمهم هذا الى تأخر بعض المدن وتقلص عمرانها كمدينة رأس العين التي قال بصددها معاصره ابن حوقل: "وكان في داخل السور لهم (أي لسكانها) المزارع والطواحين والبساتين وماكان يقوتهم لولا ما مُنوا به من الجور الغالب والبلاء الفادح ممن لا رحم الله منهم شعرة" (٧). وقال أيضاً بصدد مدينة الرقة والرافقة: "إنه ساء وضعهما وتأخر بسبب ضرائب سيف الدولة المختلفة ومصادرة أهلها مرة بعد أخرى".

أما المصائب التي لاقتها مدينة نصيبين ومنطقتها على أيدي الحمدانيين فقد كانت قاسية جداً بحيث أدى ظلمهم الشديد الى تشريد كثير من السكان، وأخص بالذكر بني حبيب الذين هاجروا الى البلاد البيزنطية وإعتنقوا الديانة المسيحية في نحو عشرة آلاف فارس ولحق بهم اخرون. ثم إنهم كانوا يشنون الغارات سنوياً على كُردستان الوسطى حتى وصلوا أحياناً الى نصيبين، وكانوا يتلفون المزارع ويقطعون الأشجار المثمرة ويخربون القرى (٨).

أما الغارات البيزنطية فكانت تتوالى على كُردستان الوسطى وشمال سورية، بسبب سوء سياسة الحمدانيين الخارجية وتأجيج نار العداء مع الدولة البيزنطية وحبهم للسلب والنهب. فإذا كان الأمير الحمداني يواصل غاراته المتتالية على الحدود البيزنطية محرقاً المدن والقرى وسابياً النساء والأطفال،

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢ ص ٢١٦، تعليق الدكتور حسين مؤنس.

(٥) آدم منتز، الحضارة الإسلامية، ج ١ ص ٢٣ و ج ٢ ص ١٩٦.

(٦) ابن الأثير . الكامل. ج ٨، ص ٣٠، تل فافان هي الآن قرية تسمى (تلاتيف روان) وهي تقع عند إلتقاء نهر بوتان بنهر دجلة ولها تاريخ قديم يرجع الى العهد الآشوري، حيث ورد إسمها في وثائقهم (تله) على ما جاء في (دائرة المعارف الإسلامية في مادة دجلة). ووصفها المقدسي في أوائل العهد الدوستكي أو قبيله بكونها بلدة ذات أسواق مغطاة بالبضائع والأسعار بها رخيصة وحولها البساتين. راجع (أحسن التقاسيم ص ١٣٩). أما في الوقت الحاضر فلا تزال آثار قلعتها شاخصة على الضفة اليمنى لنهر بوتان (الرزم) وتقابلها من الضفة اليسرى في بوتان قرية (سيفيه).

(٧) ابن حوقل. صورة الأرض. ص ٢٠٠.

(٨) ابن حوقل. صورة الأرض ص ٢٠٣، ٢٩١-٢٩٢.

فلاشك أن البيزنطيين يكيلون لهم الصاع صاعين لأنهم أقدر على مثلها. وهكذا أغرقت البلاد في بحر من الكوارث والمآسي، بحيث أن الغارات الإنتقامية البيزنطية كانت تتوالى على البلاد الكرديّة الخاضعة للحمدانيين وأعني بها كُردستان الوسطى (٩). نعم لقد زحف الجيش البيزنطي مرات عديدة أخرى على كُردستان، كزحفه عليها سنة (٣٥٥هـ)، حيث "خرج الروم إلى آمد وقتلوا وأسروا عدداً كثيراً وإنصرفوا إلى دارا وقربوا نصيبين وهرب أهلها" (١٠).

ولنسمع الخطيب المشهور (ابن نباته) الفارقي (نسبة إلى فارقين)، الذي عاصر تلك الأحداث المرة، وهو يصف لنا بكلمات وجيزة مأساة البلاد وما عم سكانها من الجوع والخوف والحيرة. حيث قال في مقدمة خطبته التي ألفها ليلقيها يوم الجمعة وهو يحرض الناس على الجهاد: إن جيوش سيف الدولة توجهت سنة (٣٥٢هـ) إلى إقليم دياربكر و"ذلك على فاقة شديدة من أهل دياربكر إلى الغوث وإشفاق وخوف من العدو..." (١١).

وهكذا كان ذلك الجزء من البلاد الكرديّة وكذلك شمال سورية، يعيش بين ناري ظلم الحمدانيين وجورهم وبين الغارات البيزنطية المدمرة. ولاشك أن ذلك الوضع السيء راجع إلى سياسة فاشلة لم تخدم مصلحة البلاد. ألم يكن بإمكان الحمدانيين التفاهم مع البيزنطيين لوضع حد للمعارك، كما تفاهم بعدهم الكُرد الدوستكيون. وكان ذلك ممكناً ولكنهم لم يفعلوا ولم يريدوا السلم والسلامة

(٩) لسنا هنا بصدد ذكر أو تعداد كل الغارات الحمدانية والبيزنطية المتقابلة، ولكن ندرج هنا نماذج منها مع ذكر بعض نتائجها التدميرية: ففي سنة (٣٣١هـ = ٩٤٢م) زحفت القوات البيزنطية على إقليم دياربكر وتوغلت فيه وإستولت على مدينة أوزن (غرزان) وبلغت إلى قرب نصيبين أو حتى جنوب ماردين. وفي نفس السنة هاجمت الإقليم مرة أخرى وإحتلت مدينة دارا في جنوب شرق ماردين كما إحتلت بلدة رأس العين وسبت منها زهاء ألف نسمة. وكان سيف الدول الحمداني قد أغار سنة (٣٢٨هـ = ٩٣٩م) على الحدود البيزنطية من السواحل الشمالية لبحيرة وان وخرّب مدينة (موش). وفي سنة (٣٣٨هـ = ٩٤٩م) أغار البيزنطيون (الروم) على المناطق الواقعة في شمال البحيرة وإستعادوا قاليقلا (أرضروم). وكان سيف الدولة قد هاجم في نفس السنة على (حصن برزويه) في شمال إقليم دياربكر وكان محتفظها أبو تغلب الكردي، كما أغار في السنة التالية على الأراضي البيزنطية وهاجم البيزنطيون إقليم دياربكر وعطف سيف الدولة إلى دياربكر و"حارب الروم وخرّب الضياع وإنصرف". وفي سنة (٣٤٥هـ = ٩٥٦م) "سار سيف الدولة في جيوش إلى بلاد الروم وغزاها وسبى وأحرق وخرّب وأكثر القتلى فيهم... فلما سمع الروم بما فعل أجمعوا وساروا إلى ميفارقين وأحرقوا سوادها ونهبوا وخرّبوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم" كما في الكامل لابن الأثير حوادث السنة المذكورة. راجع الذهبي. تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٦٣. وسامي الكيالي، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص ٢٠٧-٢٠٩. والشّيح محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص ٣٩١ وقليلها وبعدها. وتاريخ الرهاى المجهول، ص ٢٠-٢١ مطبوع بالآلة الطابعة بمجمع اللغة السريانية ببغداد، ترجمه إلى العربية الأب ألبير أبونا الزاخوبي.

(١٠) ماريوس كانا. نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة. ص ١٩٦.

(١١) نفس المصدر. ص ١٦٧.

للبلاذ، حتى إن سيف الدولة رفض طلب الجانب البيزنطي الى عقد هدنة بين الطرفين. ففي سنة (٣٣٩هـ) "أرسل الدمستق الى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجبه سيف الدولة وبعث يهدده ثم جهز جيشاً فدخلوا بلد الروم من ناحية حران ففتحوا وأسروا خلقاً..." (١٢).

أما في العهد الدوستكي، فقد ساد السلام ولم يقع إعتداء بيزنطي على حدود كُردستان، سوى حوالي مرتين أو ثلاث. لقد قدّر الإمبراطور (بسليوس) سياسة مهاد الدولة ومحافظته على الإستقرار وحماية الحدود، وإجتمع به سنة (١٠٠٠م) وإعتبره معلماً أي رجلاً حكيماً وجعله ماجسترس ودوق المشرق، كما سيأتي في موضوع العلاقات بين الدولتين. وهذا كله يدل على مدى جدارة الأسرة الدوستكية للحكم وتقديرها لقيمة الإنسان. ويدل كذلك على مسالمة شعب كُردستان الوسطى وحبه للسلام وجدارة الحكم الكُردي.

لقد شغلت الدولة الدوستكية حيزاً على الصعيد العالمي ولعبت دورها في المجال السياسي والإقتصادي والثقافي وحصلت على مكانة دولية لائقة، ومما يشير الى ذلك الوساطة التي قام بها الملك الكُردي نصرالدولة بين الدولتين البيزنطية والسلجوقية سنة (٤٤١هـ = ١٠٤٩م) بطلب من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع، فأطلق طغرل بهذه الوساطة سراح (قاريط) ملك (الأبخاز)، الذي أسره إبراهيم ينال أخو طغرل في زحفه على شعوب القفقاس (١٣).

وقد سُر بذلك الإمبراطور البيزنطي وأهدي الى طغرل هدايا كبيرة جداً، كما أهدي الى نصرالدولة عشرة أمان من المسك (١٤).

لقد إعتبر المؤرخون هذه الحادثة نصراً كبيراً لطغرل، الذي كبر شأنه حتى أقيمت له الخطبة في العاصمة البيزنطية، إلا أنها من جهة أخرى تعد نصراً لسياسة الملك الدوستكي المحنكة ودلالة على مكانة الدولة الكُردية. فعلى إثر وفاة قريش بن بدران سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م) ظهر خلاف على السلطة في الدولة العقيلية، فعرض نصرالدولة وساطته لحسم الخلاف. فأرسل وزيره وابن جهير الى نصيبين (نسيبين) وحل الخلاف، وأجمع كلمة امراء بني عقيل لمسلم بن قريش، مما أدى الى تسنمه

(١٢) الذهبي. دول الإسلام، ج ١، ص ١٦٣. كانت الغارات البيزنطية رداً على غارات سيف الدولة الحمداني الكثيرة التي شنّها في أعوام: ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٢ وغيرها.

(١٣) الأبخاز في دائرة المعارف الإسلامية ج ١، ص ٢٠، أن الأبخاز قبيلة من قبائل القوقاز الغربية على شاطئ البحر الأسود. وتشمل بلاد أبخازيا المنطقة الممتدة من سلسلة جبال القوقاز الأصلية الى شاطئ البحر بين جاجري في الشمال ومصب الأنغور في الجنوب. كان الأبخازيون يعرفون قديماً بإسم "أبسكوي". وقد أخضع جوستانيان الأبخازيين، فإعتنقوا المسيحية وإستطاعوا أن ينالوا إستقلالهم بمساعدة الخزر عام ٨٠٠م. وشهدت مملكة الأبخاز أزهي عصورها بين عامي (٨٥٠-٩٥٠م) وتوسعت وتدخلت في شؤون أرمينيا، ومنذ ذلك العهد أصبحت لغة جورجيا لغة الأدب ولغة الطبقات المثقفة في أبخازيا. وبعد زوال أسرتهم المالكة في أواخر القرن العاشر، إنتقل الملك الى عائلة البجراتونيين ملوك الأبخاز.... وقد عدد الأبخازيين عام ١٨٨١م بما يقرب من ٢٠ ألف نسمة.

(١٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨، طبعة بيروت.

الحكم (١٥).

بعد هذا العرض السريع لأسس وطبيعة السياسة الخارجية للدولة الدوستكية، نبدأ في إستعراض علاقاتها مع الدول والحكومات المعاصرة لها.

العلاقات مع الدولة العباسية والبويهية

لما كانت الدولة البويهية مسيطرة على العراق مركز الخلافة العباسية ولم تترك للخليفة العباسي سوى سلطة إسمية فقط، فلا يمكن إذن فصلها في مثل هذه المناسبات والمواضيع عن الدولة العباسية. إن علاقات الدولة الدوستكية في دور الإنتزاع والنشوء مع الدولة العباسية والبويهية كانت علاقات عدائية، ماعدا فترة صلح (نصيبين). لأن معظم كُردستان الوسطى التي نشأت فيها الدولة كان تحت السيطرة البويهية منذ أن قضى الملك البويهي عضد الدولة على نفوذ (أبي تغلب الحمداني) سنة (٣٦٨هـ = ٩٧٨م). وفي هذه السنة وبينما كان هذا الملك في (الموصل) قدم إليه الأمير ياد بن دوستك بعدد تردد وبواسطة القائد الديلمي البارز (زياد بن شهاكويه) ليقدّم إليه ولاءه كسائر الأمراء، غير إن عضد الدولة أراد القبض عليه حينما لاحظ فيه علامات الرجولة والشجاعة والطموح، وقال في حق ياد: "... له بأس شديد وفيه شر لايجوز الإبقاء عليه".

لكن الأمير ياد قد لاحظ بذكائه وفراسته (حسب تعبير الروذراوري) أن عضد الدولة يكنُّ له نوايا سيئة إما باعتقاله أو بقتله، فخرج بمن معه من رجاله من الموصل سراً ولم يظفر به عضد الدولة حينما طلبه (١٦).

وهكذا زالت الثقة نهائياً بين الطرفين. وبعد أن رجع الأمير ياد، أخذ يستعد لتحرير كُردستان الوسطى من السيطرة البويهية. فزحف سنة (٣٧٢هـ = ٩٨٢م) على إقليم دياربكر وإحتله بسرعة كما إحتل نصيبين والجزيرة، وشرع في التوسع نحو الموصل والعراق. ولما تولى الحكم الملك صمصام الدولة بعد وفاة والده عضد الدولة في هذه السنة وشعر بخطورة توسع هذا الملك الكُردي الناشيء، أرسل إليه وفداً برئاسة (زياد بن شهاكويه) صديق ياد، للتفاوض معه على أساس أن يقدم الأمير ياد الطاعة لـصمصام الدولة وتكون البلاد التي فتحها إقطاعاً له من الأخير. غير إنه رفض شروط الملك البويهي طمعاً في التوسع. فأرسل الملك الجديد جيشاً لصدّه فهزّمه الجيش الكُردي في نصيبين، كما هزم جيشاً آخر أقوى منه عند قرية باجلى (باجلا) الحالية الواقعة على نهر الخابور (زاخو) في شرق زاخو،

(١٥) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٩١، طبعة القاهرة- مطبعة الإستقامة.

(١٦) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ٨٤. ابن الأثير، الكامل. ابن حلدون، العبر، ج ٤، ص ٣١٦. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية. ص ٩٦.



وادي باجلي

وكانت آنذاك مدينة كما كانت مركز المنطقة قبل ذلك بدلاً من الحسنية (زاخو) وتقع على الضفة الجنوبية لنهر خابور وهذه صورة موقع المعركة على ما صورناه. وسيطر الأمير ياد على منطقة بهدينان المنطقة الجبلية الكردية الواقعة شمال الموصل، كما إحتل مدينة الموصل سنة (٣٧٣هـ = ٩٨٣م) بترحيب من سكانها وإستوزر (أبا المطرف)، وكان عاملاً على الموصل من قبل البويهيين. وهكذا وصل نفوذ الدولة الدوستكية الى حدود تكريت من العراق، والتي تجمعت فيها القوات البويهية المنهزمة وظلت الموصل في يده مدة سنة. وبينما كان الأمير الكردي يستعد للزحف على بغداد والقضاء على الدولة البويهية في العراق (١٧).

زجت الدولة البويهية بمعظم إمكاناتها الحربية في معركة حامية جنوب الموصل، فحلت الهزيمة بقوات الأمير وتراجع نحو إقليم ديار بكر. ولكنه أخذ يجمع الرجال وينظم قواته لصد التقدم البويهي في البلاد. ولما تمردت القوات البويهية في الجزيرة ونصيبين على قادتها وإمتنعت عن خوض معارك أخرى، ولما إنهزم سعد الدولة الحمداني صاحب حلب أمام القوات الكردية وكان قد تحالف معه البويهيون بالإضافة الى نجاة الأمير من محاولة إغتيال دبرها البويهيون، رغب الطرفان في التصالح. فتم عقد صلح بينهما في نصيبين سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م) أو التي قبلها. وبموجب بنود هذا الصلح

(١٧) راجع الروذراوي (محمد بن الحسين)، ذيل تجارب الأمم، ص ٨٥. فيه أن يادا عندما فرت القوات البويهية من باجلا عقبها ومن أدركه قتله وقتل أسراهم. راجع أيضاً: ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٣٠٠. محمد أمين زكي - الدول والإمارات الكردية، ص ٩٨. ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٣.

إعترفت فيه الدولة البويهية بسيادة الدولة الدوستكية على كافة المناطق التي بحوزتها الى النصف من منطقة طورعبدین (طوری) ، بينما أعطيت الجزيرة ونصيبین (١٨) للدولة البويهية.

والذي يظهر من رسالة الملك صمصام الدولة الى قائده ومثله في إبرام الصلح أبي القاسم سعد بن محمد الحاجب، هو أن الأمير باد أطاع الملك البويهي وأصبح نائباً له على البلاد، ولعل المقصود بالبلاد هو الجزيرة ونصيبین. حيث إن الملك أعطاه المدينتين على سبيل الإقطاع، فلم تخرجا من النفوذ الدوستكي الفعلي. والظاهر أن كلاً من الملك البويهي والخليفة العباسي قد إعترفا بدولة الأمير باد، وإعتراف الأول بحكمه واضح من نص رسالته الى مثله المذكور. وبهذا أصبحت الدولة الدوستكية دولة شرعية معترف بها (١٩).

هذا وفي فترة الصلح ساد الهدوء والإستقرار في المنطقة وتحسنت علاقات الدولة الكُردية بالدولة العباسية والبويهية. غير إن الفترة كانت قصيرة لم تكمل ثلاث سنوات، إذ ساءت العلاقات بعد وفاة والي الموصل سعد الحاجب سنة (٣٧٧هـ = ٩٨٧م)، وتجددت أطماع الأمير الدوستكي في التوسع نحو الجنوب. فتقدم بقواته نحو نصيبین كما جمع القائد الديلمي البويهي (أبو نصر خاشاده) قوات عرب بني عقيل، حيث كانت قواته النظامية ضعيفة، وتوجه الى نصيبین لإيقاف تقدمه. فدارت معركة بين الطرفين قُتل فيها الأمير (أبوالفوارس) بن دوستك أخو باد (٢٠).

بعد وفاة الملك شرف الدولة بن عضد الدولة وتسلم أخيه بهاء الدولة الحكم سنة (٣٧٩هـ = ٩٨٩م)، نشأت ظروف جديدة في الموصل كان لها تأثير في وضع الدولة الدوستكية ووضع الموصل أيضاً. فقد إنحسر النفوذ البويهي الفعلي من الموصل بعد أن سمح الملك الجديد لأبي طاهر وأبي عبدالله إبنی ناصرالدولة الحمداني المبعدين الى بغداد بالعودة الى الموصل، غير أنه ندم على إرتكابه هذا الخطأ بعد أن بين له القادة البويهيون وجه الخطأ (٢١).

ولما وصل الحمدانيان الى الموصل طردا والي البويهي بقواته الضعيفة. ولما وجد الأمير باد ان الظروف الجديدة ملائمة للتوسع نحو الموصل وكُردستان الجنوبية، لضعف الحمدانيين وخلو المنطقة من القوات البويهية، زحف بقواته نحو الموصل. ولكن الحظ لم يكن حليفه إذ قتل في المعركة التي نشبت على أبواب الموصل سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م).

وبتفاعل تلك الظروف نشأت الدولة العقيلية في الموصل في نفس الوقت، حيث قتل محمد بن المسيب أمير بني عقيل أبا طاهر الحمداني، بعد أن سحق الأمير الكُردي أبو علي حسن بن مروان إبن

(١٨) الروذراوي. ذيل تجارب الأمم. ص ٨٧.

(١٩) راجع نص رسالة صمصام الدولة وتفصيل الصلح في الجزء الأول ص ١٠٤- ١٠٦.

(٢٠) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ١٤٣ أو ١٤٥. الفارقي ص ٥٦. إبن الأثير- حوادث السنة المذكورة.

(٢١) إبن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٤. الروذراوي، ذيل تجارب الأمم ص ١٧١.

أخت ياد جيشه الزاحف على بلاده وأسره كما أسر أخاه أبا عبدالله للمرة الثانية (٢٢).
بنشوء تلك الدولة العقيلية، التي أصبحت حاجزاً بين الدولة الدوستكية والبويهية، إنتهى النزاع بينهما وبدأت صفحة جديدة من العلاقات في عهد الأمير أبي علي. فقد إترف الخليفة العباسي والملك البويهي بحكمه، بينما أصبح هو تابعاً لهما من الناحية الرسمية. وأكبر دليل على هذا هو وجود إسم الخليفة القادر بالله والملك بهاء الدولة على نقوده كما سيأتي.

ونظراً لعلاقات الصداقة بين الدولة الدوستكية والدولة العباسية، أرسل الخليفة العباسي والملك بهاء الدولة الهدايا الى محمد الدولة (٢٣). فكان الطرفان لذلك يتبادلان الوفود وإستمرت العلاقات على نفس الوتيرة في عهد الأمير نصرالدولة (أحمد بن مروان)، الذي تلقى سنة (٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) من القادر بالله والملك البويهي سلطان الدولة (شاهنشاه) بن بهاء الدولة، إترافهما بحكومته. وقد وصل وفدهما الى فارقين في اليوم السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، حاملاً الخلع والتشريف والمنشور بجميع دياربكر. وكان الوفد يتألف من خادم للخليفة وأبي الفرج محمد بن أحمد بن مزيد حاجب الملك البويهي. وكانت الخلع سبع قطع: العباءة، الفرجية، الجبة، العمامة السوداء، سوارين من الذهب المرصع، فرس بمركب من ذهب، والتوقيع بجميع دياربكر وحصونها وقلاعها، بالإضافة الى اللقب الذي لقبه به الخليفة وهو "نصرالدولة ومجدها ذي الصرامتين" (٢٤).

وقرئ كتاب الإتراف (التوقيع) في إجتماع كبير حضره الشهود والأكابر وسكان العاصمة. كما قرئت المناشير في الإحتفال الكبير، الذي أقيم في اليوم الرابع من عيد الأضحى، والذي حضره كبار رجال الدولة والشعراء والقراء وسكان العاصمة ووفود الدول الكبرى الثلاث. وجلس نصرالدولة في مكان الإحتفال على (التخت)، أي عرشه الملكي، وأجلس على يمينه رئيس وفد الدولة العباسية والبويهية، وعلى شماله رئيس وفد كل من الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية (٢٥).

ولما كان نصرالدولة تابعاً للدولة العباسية البويهية، فإنه كغيره من الملوك التابعين لها، كتب على بعض نقوده إسم الخليفة العباسي والملك البويهي كما سترى في موضوع (العملة الدوستكية).

وهكذا ظلت العلاقات قائمة مع الدولة البويهية، الى أن دخلت في دور الإنحلال وأقبلت على الأفول، فحذف حينئذ نصرالدولة إسم الملك البويهي من الخطبة وأحل محله إسم الملك السلجوقي (٢٦).

وتحت الضغط السلجوقي أنهت الدولة الدوستكية تبعيتها للدولة البويهية، بينما بقيت على

(٢٢) خطأ هنا الدكتور علي أكبر في كتابه تاريخ إسلام، ص ٢٣٦. حيث ذكر أن بني مروان هم الذين قضوا على الحمدانيين في الموصل.

(٢٣) الفارقي، ص ٨٦.

(٢٤) الفارقي، ص ١٠٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٧، ٢٦٢.

(٢٥) الفارقي، ص ١١٠.

(٢٦) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٩٢.

تبعيتها للدولة العباسية حتى عهد الأمير نظام الدين والأمير منصور، حيث كان على كافة الدول الإسلامية مهما كانت كبيرة وقوية الاعتراف بالخليفة، حتى تعتبر سلطتها شرعية من الناحية الدينية. وأن هذه التبعية لم تكن تقلل من السلطة الفعلية والمطلقة للدولة التابعة.

العلاقات مع الدولة الفاطمية

إن أول إتصال رسمي حدث بين الدولتين الدوستكية والفاطمية في مصر وبلاد الشام كان في عهد الأمير أبي علي حسن، إذ لم نجد في المصادر التاريخية ذكراً لأي إتصال سابق. ففي سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) أو بعدها أرسل الخليفة الفاطمي (العزیز بالله) بن المعتز وفداً من قبله الى الأمير حسن. أما مهمة الوفد حسبما ذكره عدد من المؤرخين، فكانت عرض شفاعة الخليفة عليه لإطلاق سراح أبي عبدالله الحمداني، الذي أسره الأمير أبو علي حسن للمرة الثانية أثناء زحفه مع أخيه أبي طاهر على البلاد الدوستكية، إثر مقتل الأمير ياد. فرحب الأمير الكردي بشفاعة الخليفة وأطلق سراح أسيره (٢٧).

هذا ومع أن المؤرخين لم يزدوا على هذا شيئاً آخر، إلا أن هناك احتمالاً قريباً بأن الوفد كان يحمل إعتراف الخليفة بالدولة الدوستكية وتأييده لها، وشملت المهمة أيضاً إبداء رغبته في إنشاء علاقات الصداقة معها كما كانت تقتضيه السياسة الفاطمية المنافسة للسياسة العباسية على الخلافة الإسلامية. إذ كانت سياستها تهدف الى التقارب مع الإمراء وأصحاب الأطراف وكسب تأييدهم لها وربطهم بالخلافة الفاطمية. ولاشك أن الدولة الفاطمية رحبت بقيام الدولة الدوستكية وإنفصال هذا الجزء من كردستان عن الحكم العباسي المباشر، وحاولت ضمه الى معسكرها. وفي الوقت نفسه كان التقارب والتأييد الفاطمي في صالح الدولة الكردية، التي أهدقت بها المخاطر عقب مقتل مؤسسها الأمير ياد، حيث هاجمها الحمدانيون والأرمن ثم البيزنطيون. فضلاً عن هذا فقد ورد في بعض المصادر أن الأمير حسن بايع الخليفة الفاطمي مدة من الزمن كما قال جرجي زيدان (٢٨).

بينما قال المؤرخان أبو الفداء الأيوبي وابن الوردي أن أبا علي قد سافر الى مصر وتقلد من الخليفة ولاية حلب وتلك النواحي (٢٩). أما العالم الكردي رشيد الياسمي والمستشرق لانيجر، فقد ذكرا بأن سيطرة هذا الأمير الكردي قد وصلت حتى حلب نفسها (٣٠). في الوقت الذي لا أستبعد فيه ما ذكره

(٢٧) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٥. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكردية، ص ١٠٠-١٠٢.

(٢٨) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص ١٨٧.

(٢٩) أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص ١٣٢. تاريخ ابن الوردي ج١، ص ٣٠٩.

(٣٠) رشيد الياسمي، كورد وبيوستكي نژاد، أو: لانيجر، موسوعة تاريخ العالم، ج٢، ص ٥٢٣.

جرجي زيدان أوكد عدم صحة ما ذكره الآخرون لما إن حلب كانت في أيدي الحمدانيين، الى أن أطاح بحكمهم خادمهم لؤلؤ بعد وفاة أبي الفضائل بن سعد الدولة (٣١).

أما العلاقات في عهد حاكم وكبير الكرد الملقب بباد، فلم أجد حولها نصاً ولكن لا أستبعد أن تكون بين الطرفين إتصالات للأسباب المذكورة. ولعل عدم إستجابة باد وهو في حالة حرب مع الدولة البويهية لطلب (بكجور) بالإنضمام إليه سنة (٣٧٧هـ = ٩٨٧م)، إنما كان مراعاةً لعلاقاته مع الخليفة الفاطمي (العزیز بالله)، حيث أن بكجور كان والياً على دمشق ثم عزله الخليفة، فأصبح يشير القلاقل في شمال سورية (٣٢).

في عهد الخليفة (الحاكم بأمر الله) ابن العزیز (٣٨٦هـ - ٤١١هـ) أصبحت العلاقات بين البلدين أوضح من السابق، حيث إهتم هذا الخليفة بالصدقة الكردية، فأرسل الهدايا الى محمد الدولة (٣٣).

كما وصل وفد من قبله الى العاصمة فارقين في اليوم السابع من ذي الحجة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م). وكان الوفد المصري يحمل بالإضافة الى الهدايا الغالية إعتراف الخليفة (الحاكم) بحكومة نصرالدولة، حيث أرسل إليه لقب "عزالدولة ومجدها ذي الصرامتين" (٣٤) رغبة في كسب صداقة نصرالدولة وإجتذابه الى جانبه. ولكن نصرالدولة تلقب باللقب الذي قدمه له في نفس الوقت الخليفة العباسي وهو "نصرالدولة". ولكن هذا التفضيل او الإنحياز لم يترك تأثيراً سلبياً على العلاقات بين مصر وكردستان. كما إستمرت العلاقات في عهد الخليفة (الظاهر) ابي حسن على ابن الحاكم، الذي تولى الحكم بعد فقد والده سنة (٤١١هـ)، والذي أرسل الى العاصمة الدوستكية وفداً بالخلع والتوقيعات والتشريف الى الملك الدوستكي (٣٥).

لقد تحدث نصرالدولة في رسالته الى المؤيد في الدين، التي وصلت اليه وهو يتوجه من حلب الى الرجة، عن العلاقات المتينة في عهد كل من الخليفة (الحاكم) والظاهر. وذكر كيف أنهما ينظران إليه بعين التقدير ويعثان إليه الدهايا و"بريانه له... ويسوقان اليه بالتحف والألطف من الحسنى وما كان جعل له بتنيس ودمياط في كل سنة من رسم الإستعمال" (٣٦).

(٣١) راجع موضوع العلاقات مع الإمارة الحمدانية.

(٣٢) محمد الحضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص ٤٠٢.

(٣٣) الفارقي، ص ٨٦.

(٣٤) الفارقي، ص ١٠٩.

(٣٥) الفارقي، ص ١١٧.

(٣٦) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة، ص ١١٢. أخذ المؤيد هذه الفقرة من رسالة نصرالدولة وأدخلها في رسالته الى نصرالدولة سنة ٤٤٧هـ، أما الشطر الأخير من العبارة وهو "وما كان جعل له... الخ"، فلم أعلم ما المقصود به. ولكن وبعد تفكير طويل في هذه العبارة وبعد مراجعة مصادر عديدة لمعرفة خصائص المدنيين، علمت أن المقصود من عبارة أو مصطلح (رسم الإستعمال) تعني الملابس الرسمية الخاصة بأمرء الدولة وقادتها، والتي عليها شعار الدولة مع إحتمال شعارات أخرى تميز بين رتب الأمرء وكبار المدنيين كالوزير والقادة العسكريين. كانت هذه الملابس وكميات من الثياب بإسم الدولة الدوستكية تُصنع في كل سنة في كل من تنيس ودمياط. علماً أن مدن بحيرة تنيس وهي تنيس ودمياط وشطا ودبيق كانت من أهم المراكز المصرية للنسيج، وكانت تنسب الى الأخيرة الأقمشة الدبيقية. =

وغير نصرالدولة من التطرق الى موقف هذين الخليفين وعلاقتيهما المتينة به هو إنتقاد الخليفة المستنصر على موقفه منه. أما المؤيد فإنه يردف هذا المقطع من رسالة نصرالدولة بالتعليق عليه وإنتقاد نصرالدولة على موقفه وخضوعه للسلاجقة. فيقول في رسالته الجوابية وهو يوجه الكلام الى نصرالدولة: إن هذا إنما هو إعتراف بالفضل للدولة الفاطمية وأما الهدايا والألطف، فقد "أخذ الى التركمانية فنأدى بشعارهم وغالى في رفع منارهم"، ويقصد أن نصرالدولة نسي تلك العلاقات والتقدير من الجانب الفاطمي، فأخذ يقدم ولاءه للسلاجقين وينادي بشعارهم بدل أن يقدم الولاء للدولة الفاطمية.

=وكانت تنيس تتفوق في صناعة نوع من الثياب يسمى بالبدنة يصنع للخليفة خاصة، ويكون الثوب الواحد من هذا النوع من أوقيتين من الغزل ثم ينسج بالذهب فكان ثمنه يبلغ ألف دينار.

وقد كتب ابن دقماق بحثاً مهماً عن نسيج هذه المدن الصغيرة وقال أنه كان يُصدر منها سنوياً الى العراق ما قيمته عشرون الى ثلاثين ألف دينار. وكان يُصنع في تنيس خاصة ثياب رقيقة مهلهلة ملونة تسمى بالقبص وتستعمل لعمام الرجال وملابس النساء، وذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وفي القرن التالي ظهر نوع جديد من القماش يسمى "أبو قلمون" يظهر للراني في ألوان متقلبة وكان يصنع في تنيس خاصة. ولا تزال نماذج أثرية من نسيج تنيس ودمياط والمدن الفاطمية الأخرى في العهد الدوستكي باقية وموجودة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهذه صورة قطعة منها (الصورة في الصفحة السابقة).

راجع بخصوص نسيج تنيس ودمياط: ابن دقماق، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ص ٧٩ - ٨٢. والمقدسي ص ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢١٣. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٤٥-٢٤٨. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ١١٩. كتب ابن حوقل عن نسيج تنيس ودمياط وقال ليس على وجه الأرض ما يدانيه في القيمة والحسن... راجع صورة الأرض ص ١٤٣. هذا وبعد أن علمنا أن تنيس ودمياط كانتا من أهم مراكز النسيج في الشرق الأوسط في عصر الدولة الدوستكية وفي العهد الفاطمي، أعود فأقول ان المقصود بهذه العبارة "وما كان جعل له بتنيس ودمياط في كل سنة من رسم الإستعمال" الواردة في رسالة المؤيد، والتي هي في الأصل مقتبسة من رسالة الملك الدوستكي نصرالدولة المرسله الى المؤيد، هو أنه كان يصنع لنصرالدولة في المدينتين المصريتين كميات من الأقمشة او الثياب. والمقصود بـ"رسم الإستعمال" هو المستعملات السلطانية، أي الملابس التي تعرف في المصادر أحياناً بهذا التعبير، أي الملابس الرسمية التي يُنقش عليها الطراز أي شعار الدولة أو الخليفة أو الملك. وقد جرت العادة كما قال الدكتور حسن الباشا في (الفنون الإسلامية ج ٢، ص ٦٨٦-٢٨٧) أن تتخذ كل دولة لنفسها طرازاً (أي شعاراً) أو عبارة مميزة. وكان طراز العرب في الشام منذ عهد عبدالمملك بن مروان هو "لا إله إلا الله" وكان الطراز يُنسج على الخلع التي يهديها الخلفاء الى رجال الدولة من باب التشريف... ولذلك سميت دور النسيج بـ"الطراز" وأضاف: "في العصر الفاطمي كان الطراز من الوظائف المدنية وكان يتولاها الأعيان... وكان مقامه بدمياط وتنيس وغيرهما من مواضع الإستعمال، ومن عنده تحمل المستعملات الى خزنة الكسوة". وهكذا نقل العبارة من (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٤) للقلقشندي.

أقول أيضاً إنه إستعمل في التعبير لفظ (الإستعمال) مكان لفظ "الطراز" كما أطلق لفظ الطراز على دور النسيج مجازاً، فيقصد بالإستعمال أحياناً شعار الدولة الذي يرسم أو ينقش على الثياب. وحسبنا دليلاً وثيقة عباسية رسمية، وهي كتاب (عهد) الخليفة الطائع لله الى الملك البويهى فخرالدولة بن ركن الدولة مؤرخ بشهر جمادى الأول سنة (٣٦٦هـ) وهو من إنشاء ابي إسحاق الصابي، فقد ورد في الوثيقة مايلي: "... وأن يتقدم (أي فخر الدولة) الى ولاية الطراز بأن يجروا الإستعمال في جميع المناسج على أتم النيقة... وأن يشبوا إسم أمير المؤمنين على طرز الكساء والفرش والأعلام والبنود...". فالمقصود بالإستعمال هنا الشعار. راجع نص الوثيقة في (صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٩-٣٠). وأخيراً هل ان تلك الملابس او الاقمشة كانت تصنع للدولة الدوستكية بشعارها وعلى نفقتها، او كانت على نفقة الدولة الفاطمية وهديتها منها. أما كيف كان شعار الدولة فلا نعلمه. بخصوص الطراز، راجع أيضاً محمد عبدالعزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، ص ٩٨-٩٩.

توتر العلاقات والحلف الثلاثي

رغم أن العلاقات الفاطمية-الدوستكية ظلت قائمة مدة غير قليلة من الزمن، إلا أنها توترت في فترة من عهد الخليفة (المستنصر)، الذي تولى الخلافة بعد والده (الظاهر) في سنة (٤٢٧هـ)، وذلك بسبب تهديد نائبه في بلاد الشام (أنوشتكين الدزيري) بغزو البلاد الدوستكية سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨م)، بعد أن عادت السيطرة الفاطمية الى شمال سورية. حيث احتل الدزيري حلب وأطرافها في السنة التي قبلها، بعد أن إنتصر على أميرها نصر بن مرداس بن صالح، الذي قتل في المعركة. وكانت السيطرة الفاطمية قد غابت في المرة الأولى عن شمال سورية سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م)، عندما إستولى صالح بن مرداس على حلب وأسس فيها إمارته المرادسية. ثم أصبحت سيطرة المرادسيين عليها تزول وتعود. وقد إنتشى الدزيري بسيطرته على حلب وإقترب نفوذه من كردستان، فأخذت أطماعه التوسعية تحدو به الى غزوها. ولكن الدولة الدوستكية لم تكن كفقاعة على الماء، بل كانت دولة راسخة الكيان لها قوتها المالية والعسكرية والسياسية ولها أصدقاؤها، وكان نصرالدولة دبلوماسياً محنكاً.

لما علم نصرالدولة بنوايا الدزيري العدوانية إستعد لمواجهة عسكرية وسياسياً، فقد حشد قواته وكون ما نسميه (الحلف الثلاثي) مع الدولة العقيلية في الموصل والإمارة النميرية في الرقة وحران وسروج. فقد كان شبيب بن وثاب النميري تابعاً للفاطميين، فخوفه نصرالدولة من سياستهم التوسعية وأقنعه بالإنضمام إليه وقطع الخطبة الفاطمية وإقامتها للخليفة العباسي (٣٧).

وهكذا وقفت الدولة العقيلية والإمارة النميرية الى جانب تلك الدولة الكردية ودخلتا معها في حلف ثلاثي أدى الى تعادل ميزان القوى في بلاد الشام (الفاطمية) وكردستان الوسطى وبلاد الجزيرة. أما النائب الفاطمي، فقد شعر بأنه إرتكب خطأ كبيراً بتهديد الأمير الكردي بغزو بلاده، وذلك حينما وجد أن الظروف تنقلب ضده وهو يواجه التحديات والمشاكل التالية، التي إستنتجتها من دراسة الموضوع وهي:

١- الحلف الثلاثي.

٢- مطالبة شمال بن صالح بن مرداس بمدينة حلب (وقد إحتلها فعلاً سنة ٤٣٤هـ = ١٠٤٢م).

٣- الإتصالات المستمرة بين البيزنطيين وشمال، الذي طلب تأييدهم ومساندتهم لإسترجاع حلب وهم يريدون إستمالته.

٤- إستفزازات البيزنطيين للجانب الفاطمي، مما يشير الى أنهم سينقضون المعاهدة التي إبرمتها معهم الدولة الفاطمية منذ سنوات قليلة. وقد نقضوا تلك المعاهدة فعلاً، فنشب القتال بينهم وبين الدزيري

(٣٧) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٦٠.

وإنتصر فيه الأخير وذلك في سنة (٤٣٢هـ = ١٠٤٠).

٥- لعل الدزبري شعر في هذه الأثناء بأن مركزه القوي لدى الخليفة (المستنصر) قد أقبل على التدهور عن طريق وزيره.

ولما رأى النائب الفاطمي قوة الدولة الدوستكية على الصعيد السياسي والعسكري وتكوينها الحلف الثلاثي، إضافة إلى المشاكل المذكورة. لم يتراجع عن خطته العدوانية نحوها فحسب، بل أقدم على التقارب منها أيضاً وإنشاء علاقات متينة معها ولاسيما المصاهرة. ولأجل ذلك عرض على نصرالدولة تزويج إبنته لابن نصرالدولة فرحب الأخير بهذا التقارب وبهذه المصاهرة. فأرسل الدزبري إلى مصر ليحضر زوجته وإبنته ولما سمع المصريون ذلك غضبوا عليه، ولم يرضوا بهذا الزواج ولم يسمح لهما الوزير بمغادرة مصر (٣٨).

لقد قال ابن العديم إن المصريين لم يرضوا أن يتقوى الدزبري بنصرالدولة، وأضاف أن قصده من تلك التقوية هو الحيلولة دون قيام شمال بن صالح بن مرداس بمهاجمة حلب. ولعل المصريين قد فسروا تقرب نائبهم التركماني من الدولة الدوستكية، بكونه تمهيداً لمحاولة إنفصالية ويحتمل أنه كان يحاول أن يجد له حلفاء ويتقوى بالحلف الثلاثي، كي يستقل ببلاد الشام. فسحب منه الخليفة ثقته بإفساد من الوزير أبي القاسم الجرجاني، الذي كان يكرهه وأثار عليه الجيش الفاطمي في الشام سنة (٤٣٣هـ = ١٠٤١م)، التي توفي فيها الدزبري واضطربت الأوضاع بعده في بلاد الشام.

(٣٨) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ٢٥٩. صرح ابن الأثير في الكامل، ج ٧، ص ٢٦١. بعضيان الدزبري، أي إستهدافه إليه وكذلك الدكتور محمد حمدي المناوي في الوزارة والوزراء ص ٢٠٠.

موقف الدولة الدوستكية من حركة البساسيري

أو النزاع الفاطمي العباسي

الموقف قبل معركة سنجان

حدثت في الفترة الممتدة من سنة (٤٤٧هـ = ٤٥١هـ) أحداث وتطورات هامة في منطقة الشرق الأوسط. فقد عبر نفوذ السلاجقة الفعلي جبال زاغروس ووصل الى العراق وسهول كردستان الجنوبية والموصل، وأصبح السلاجقة التركمان أكبر قوة عسكرية وسياسية. وفي هذه الفترة أيضاً زالت الدولة البويهية من الوجود، إذ سلم آخر ملوكها (الملك الرحيم) نفسه سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) الى السلطان (طغرل) السلجوقي، الذي سجنه في قلعة (سيروان) إحدى قلاع كردستان الشرقية، ثم نقله الى قلعة الري وتوفي فيها^(١).

ظهرت في العراق حركة مسلحة تهدف الى السيطرة على العراق وربطه بالخلافة الفاطمية. وكان يقود هذه الحركة أبو الحارث أرسلان البساسيري، الذي كان أحد قادة الجيش البويهي إزداد نفوذه حينما عينه الخليفة قائداً للجنود الأتراك ببغداد وأخذ لا ينفذ أمراً هاماً بدون رأيه. ولكن الوزير أبا

(١) سيروان: بالسین المهملة كانت مدينة تقع في منطقة (ماسبدان) أي منطقة (پشتکوه) الكردية. ويقع (تل سيروان) على الجهة اليمنى من وادي صيمره (سَيْمَهْرَه) في بقعة يتعرج فيها النهر من الجنوب الغربي الى الجنوب الشرقي. قال (دمرغان) أنها كانت المدينة العيلامية (هارداپانو). ومدينة سيروان كانت تقع في مضيق من جبل (مينشت) أمام (كبوته گفوره). وينبع نهر سيروان من هذا المضيق ويصب في نهر صيمره. وفي خرائب سيروان من الحجر والجص ما يعود الى العهد الساساني وهي الآن خربة. أما (ماسبدان) فليست مدينة سيروان، بل اسم المنطقة التي كانت مدينة سيروان مركزها. هذا حسبما حدد مكانها الدكتور (بهمن كرمي) في بحث له بالفارسية بعنوان (لرستان)، الذي ترجمه الى الكردية الأخ خالد رسول من السليمانية وذلك في عام ١٩٩٥، علماً إنه ورد في الترجمة الكردية اسم (شيروان) بالشين ولعل هذا الخطأ أحدثه المترجم. في المسالك والممالك ص ٢٤٤ لابن خرداذبه: ان (سيروان) و(إريجان) مدن (ماسبدان) وجبايتها، اي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مليون ومائة ألف درهم. أما الإصطخري، فقال (في مسالك الممالك، ص ٢٠٠) ان صيمره وسيروان مدينتان صغيرتان، وأن معظم أبنيتهما من الحجر والجص، تنبت فيها النخيل وأشجار الجوز. وفي صورة الأرض لابن حوقل.... أن أبنيتها كأبنية الموصل وتكريت من الحجر والجص. وفي مختصر كتاب البلدان للهمداني، ص ٢١٢، معلومات أكثر بخصوصها. وقد ورد خطأ في أحسن التقاسيم ص ٣٩٤ للمقدسي: أن صيمرة هي ماسبدان، والصحيح أن سيروان كانت قصبه ماسبدان وأن مدينة صيمره التي هي باسم (سَيْمَهْرَه) عند الكرد تبعد عنها بمسافة يوم من المشي، كانت قصبه منطقة (مهرجان قذق) أي منطقة (پيتشکوه). وقد خربت صيمره بالزلزال في أواخر العهد البويهي، أي في القرن الحادي عشر، على ما جاء في بحث (لرستان). مما تجدر الإشارة إليه هو إنه ورد خطأ في الجزء الأول من كتابنا ص ٢١٩، أن سيروان من مدن كردستان الجنوبية، والصحيح ما جاء هنا في الجزء الثاني من أنها إحدى قلاع كردستان الشرقية، التابعة لإيران، وإن بعضاً من الناس يلبسون بين اسم (سيروان) بالسین المهملة وبين (شيروان- قلعة شيروانه) بالشين المعجمة (أي المنقوطة)، الواقعة في مدينة (كلار) على ضفة نهر سيروان من محافظة السليمانية. وقد شيد محمد باشا الجاف قصرًا ذا هندسة بدیعة على (تل شيروانه) الأثري، فاشتهر القصر بـ(قلعة شيروانه- قتلای شيروانه)، وكان بناؤه في القرن التاسع عشر ولعله حوالي سنة (١٨٨٠م).

القاسم (علي بن مسلمة) أفسد بينه وبين الخليفة وعمل على إضعاف نفوذه. فترك بغداد وسار الى الخلة عند أميرها ديبس بن علي بن مزيد، وإتصل هناك بالمستنصر الفاطمي طالباً شد أزره مادياً للسيطرة على العراق وربطه بدولته. فأبدى له تأييده وصعد البساسيري الى إقليم الجزيرة أمام ضغط السلاجقة ومعه قوات ديبس الأسدي وقوات الأمير الكردي (أبي الفتح بن ورام) رئيس كرد جاوان في الخلة مع قوات أخرى إلتفت حوله، وإنضم إليه أيضاً الأمير النميمري ابن وثاب. وبدأت الدولة الفاطمية بمساندة الحركة بالمال والسلاح وأرسلت ممثلها داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي للإشراف عليها والإتصال بأمرء المنطقة لتأييدها.

إنتصرت الحركة وسيطرت على العراق وقبضت على الخليفة العباسي (القائم بأمر الله)، وذلك سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، ولكنها تلاشت أمام السلاجقة في السنة التالية. وهذه الحركة أو الصراع العباسي الفاطمي، هي التي نريد أن نوضح موقف الدولة الدوستكية منها. ولقد ذكرنا سابقاً أن الحياض كان من صلب السياسة الخارجية الدوستكية، حيث لم ترغب الدولة في أن تلقي بنفسها في المشاكل الخارجية للصراع، فتجبر على بلادها وشعبها الكوارث بعد أن غابت عنها مدة طويلة من الزمن، فلم يكن يهمها لذلك إنتصار هذا الخليفة أو ذلك. غير أنها واجهت واقعاً مريراً تمثل في الضغط الفاطمي لجرها الى جانبها ومطالبتها بضرورة تحديد موقفها الصريح والنهائي من ذلك الصراع وضرورة الإنضمام الى أحد الطرفين، كي تعرف الدولة الفاطمية عدوها من صديقتها.

وأزاء هذا الضغط، لجأ الملك الدوستكي نصرالدولة الى سياسة المراوغة والدخول في مخابرات ومفاوضات طويلة مع الدولة الفاطمية، لإغفالها والتخفيف من ضغطها، إنتظاراً لإنتهاء الموقف بإنتصار أحد الطرفين. ولهذا أرسل مندوبه (الشيخ أبا الحسن بن بشر) الدياربركري^(٢) الى مصر بإسم التفاوض، كما أرسل رسائل عديدة الى المؤيد الشيرازي بعد وصوله الى حلب فالرحبة مركز قيادة حركة البساسيري. وقد أوضح الشيرازي موقف نصرالدولة من الصراع أثناء إحتدامه في كتابه (سيرة المؤيد)، الذي دون فيه سيرته بنفسه وخلد فيها ثلاث رسائل كان قد أرسلها الى نصرالدولة. ويقول المؤيد أن ابن مروان أي نصرالدولة لما أحس إن السلاجقة يطعمون في بلاده، كونه أول من أطاعهم في المنطقة، ضاقت نفسه وحين رأنا مجدين في مجابتهم (أنعشت نفسه لأن يقوم معنا في إيهان كيدهم وهدم كُنْهم قياماً بما يكون عليه غاشية من اللبس ولا ينقسم جسمه الى صفتي اللين والخشن عند اللبس)^(٣).

(٢) يحتمل أن يكون الشيخ أبو الحسن بن بشر هذا هو القاضي أبو الحسن الأمدي، الذي ذكره الفارقي (ص١٨٢) من أنه أحد أكابر مدينة أمد (دياربركر) وكانت له أملاك وأموال كثيرة، هاجر الى مصر بسبب العداوة القائمة بينه وبين التاجر (أبي بكر بن جري)، ولم يرجع من مصر إلا بعد وفاته. تولى أبو الحسن قضاء فارقين سنة (٤٥٣هـ) ووصفه الفارقي بكونه "ذا رأي وعقل وسياسة". فالقاضي أبو الحسن بحكم مكانته ويقائه في مصر مدة وتعارفه مع بعض المسؤولين، كان أليق بأن يكون وسيطاً بين الدولتين في إستئناف علاقاتهما. لعل قول الشيرازي في وصف رسول نصرالدولة: "بالجامع في ذلك بين قضاء حق صحبته وخدمة الدولة العلية" إشارة الى كونه قاضياً.

(٣) سيرة المؤيد ص١٣٧.

ويشير الشيرازي في رسالته التالية، التي أرسلها الى نصرالدولة قبل معركة سنجار، الى أن أول اتصال حدث بين نصرالدولة والجانب الفاطمي كان بواسطة شخص لم يذكر إسمه، ولكنه وصفه بالمبارك والأستاذ الجليل، وذلك بعد أن قطع علاقاته بالدولة الفاطمية مغاضباً بدون سبب على حد تعبيره. كما يشير الى وصول رسالة من نصرالدولة الى يد الوزير الفاطمي (أبي حسن محمد بن عبدالرحمن اليازوري)، وأن الوزارة أمرته بالإتصال بنصرالدولة ومراسلته، ثم إطلاعها على سير الإتصالات ونتائجها. كما يشير أيضاً الى أن أولى رسائل الأمير الكردي التي وصلت إليه، كان يحملها حاجب مقرب من نصرالدولة. ويضيف الشيرازي في رسالته، أن نصرالدولة تهرب في رسالته من الجواب المطلوب والشيرازي يضع أمامه أحد أمرين لا ثالث لهما؛ إما الوقوف بجانب الفاطميين وإما بجانب السلجوقيين والعباسيين. ويؤكد له بأنه لا يمكن له الوقوف محايداً، لأنه في مدرجة طريق السلجوقيين الى البلاد التي تقع تحت السيطرة الفاطمية. فإما أن يسمح لهم بالعبور عليه، وبهذا يصبح نصرالدولة من أنصارهم ومن أعداء الفاطميين، وإما أن يمنعهم من العبور ويعتصم بقلاعه وحصونه، وفي هذه الحالة يصبح من أعداء السلاجقة ومن أنصار الفاطميين. وهكذا لا يتمكن نصرالدولة، كما يراه المؤيد، من الخروج من المأزق والوقوف على الحياد بين المعسكرين. ثم يحذره المؤيد، من الإعتماد على صداقة السلاجقة، ويضع أمامه تجربة (الملك الرحيم) البويهبي، الذي لم يكن يملك سوى قوته اليومي، بخلاف نصرالدولة الذي يملك الأموال والخزائن والقلاع والحصون، التي هي من أمهات الحصون في الشرق الأوسط ويملك البلاد المعمورة والمأهولة بشكل يجعله موضع طمع السلاجقة وهدف عدوانهم إن لم يكن اليوم فغداً. وهكذا يشير المؤيد في الدين الى ثروات وأموال الدولة الدوستكية الضخمة والى استراتيجية كُردستان من ناحية الموقع الجغرافي ومن الناحية الدفاعية، لما فيها من أمهات الحصون والقلاع. كما يشير الى أهمية كُردستان الوسطى من الناحية الإقتصادية أيضاً.

رسالة ممثل الدولة الفاطمية الى نصرالدولة

أدرج فيما يلي نص رسالة داعي الدعاة الفاطمي المؤيد في الدين الشيرازي والتي أرسلها الى نصرالدولة في النصف الأخير من سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) (٤) وفي شهر رمضان بالذات، لما لهذه الرسالة ورسالتيه الأخرتين من أهمية تاريخية كبيرة. إذ أنها تعتبر من الوثائق الهامة بصدد العلاقات الدوستكية - الفاطمية، أي الكُردية - المصرية في ذلك الوقت. ورغم ذلك، فقد إكتفينا برسالتين منها وتركنا الرسالة الطويلة علماً أنه يشير الى نصرالدولة عامة بضمير الغائب.

نص الرسالة:

"ولم أزل أراصد حالة تفتحني للمواصلة وتهمزي للمخاطبة، حتى ورد كتابه الى مجلس الوزارة السامي بما ورد، وأمرت بمكتابته ومكاتبة مجلس الإمارة. فكأنني نشدت في ذلك ضالّة وأصبت غنيمة. وكاتبتهما جميعاً بما ورد جوابه على يد حاجب متقرب وأنا - علم الله - مسرور بما وشجّه الله بيننا في المواصلة، من الحرمة وكشفه رتاج الحشمة. ولما إستقر علمه عندي من تعصبه وتدينه (٥) بدين الولاء لأهل البيت صلى الله عليه وسلم، وحرصه من خدمة الدولة العلوية - أدامها الله تعالى - التي من لبس حللها وتفيأ ظلّالها، فقد إتخذ مع الرسول سبيلاً ووجد الى قصد النجاة دليلاً. وبعد فإنني أريد الأخذ معه في الحقائق، التي لا يشوبها شيء من الإدهان. وذلك أن مجلس الإمارة كان حدث له رأي في مهاجرة الحضرة العلوية، كمثل رأيه في مواصلة الجهة التركمانية (٦)،

وكان التعجب من الإثنين يكثر، والقلب عن مصدر مثلهما عن معدن الفضل والرأي والقيام في الرياسة ينفر. فلما كان في هذه المدة القريبة، ورد كتابه بما هو بمثله أخلق وبفضله أليق، مظهرًا للعتبي

(٤) يظهر أن المؤيد حينما كتب هذه الرسالة كان متأهبا للسفر بدليل قوله: "مع عجلة خمرتني ومسيري لرتني وأمر يكاد ينكشف عنه الغطاء من دون شهر...". ويحتمل أنه كان يسير الى حلب ومن ثم الى الرحبة فأقليم الجزيرة. وقد ذكر الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه (سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٩٢)، أنه بينما كان المؤيد يتجه من حلب الى الرحبة وصله في الطريق كتاب نصرالدولة ابن مروان.

هذا ويحتمل أن المؤيد كتب رسالته هذه قبيل رمضان أو في رمضان نفسه، حيث يشير إليه في جملته المذكورة. كما يظهر أيضاً أن هذه الرسالة كانت الرسالة الثانية التي أرسلها الى نصرالدولة رداً على رسالته الجوابية. أما عدم وجود إسم نصرالدولة الصريح في رسالته الثلاث، فإما أن المؤيد وعند إدخالها في (سيرته) حذف مقدماتها، التي تشمل عادة إسم المرسل إليه وذكر التحيات والأدعية والمدح. وهذا هو الراجح. أو أنه لم يذكر إسمه في الرسائل حفاظاً على سرّيتها. غير أنه صرح بأن هذه الرسائل وجهها الى ابن مروان. وكان حتى القرن التاسع عشر يكتب إسم المرسل إليه وتاريخ الرسالة على ظهر أو ظرف الرسالة في كثير من الأحيان لا في متن الرسالة. ولذلك توجد الآن الكثير من الرسائل الشخصية والرسمية خالية من إسم المرسل إليه ومن التاريخ، لأن ظروفها فُقدت ولم يُنقل الإسم والتاريخ من ظهرها عند درجها في كتاب ما مما أحدث نقصاً كبيراً في هذه الوثائق وكان ذلك عادة سيئة.

(٥) يقصد نصرالدولة، ويذكره بصيغة الغائب تعظيماً.

(٦) يقصد بالتركمانية السلاجقة.

قائلاً للحسنى، ومشيراً بما يشير به الأملعي والمكين في مشورته والرأي القوي. فعلم أن الذي فاء به الى الحق، بعد أن ثنى عنه عطفه جانباً وكساه كسوة الرضا، عقيب أن ذهب بلا سبب مغاضباً، فهو الوسيط المبارك الأستاذ الجليل الجامع في ذلك بين قضاء حق صحبته وخدمة الدولة العلوية أدامها الله تعالى من ليس جميلها في صميمته (٧).

ثم إنني كوتبت من مجلس الوزارة بمكاتبتته متشكراً لذلك على حميد الرجعى، وله فيه على مشكور المسعى.

وأسوق الكلام الى ما أنا متوجه فيه من الأمر، الذي أستعين بالله تعالى فيه وأتوكل عليه، وكون ذلك متعلقاً بالصغير والكبير والحاضر والبادي "ولكل إمريء يومئذ شأن يغنيه" في خلوص الضرر اليه إن قعد عن النصرة، وسلك في وادي الغفلة والغرة. فورد الكتاب بما نكب فيه عن القصد الذي أردته والمعنى الذي قصدته، وهل له معنا يد تطول الى مكاشفة القوم ومناجزتهم، ومساعدة على ما لعل الله يتعس جدهم ويفلّ معه حدهم أم لا؟ وعدل في الجواب الى معاتبات ومشاورات وأمور قد ضاق الأمر عنها وإختنق الزمان فيما نحن بصدده دون الإعادة والإيداء فيها.

ولما كانت الصورة هذه ووجدتني لم أحصل على بيان من جهته، مع عجلة حفزتني ومسير لزني وأمر يكاد ينكشف عنه الغطاء من دون شهر، عظم الله للإسلام والمسلمين عائدته وصرف الى المفسدين في الأرض عاديته (٨). أجب عن كتاب حضرته بما هو واصل بوصول هذه المخاطبة. فتقدم الأستاذ الجليل بشرح مضمونه له.

والذي أقول له في هذا الجواب أن مجلس الإمارة، إن قبض عن مملالة الجماعة في هذا الوقت يد نصرته، وهم قوم حركتهم القرائح والنحائز لملايسة هذا الخطر وممارسته، وبعيد أن يجمع الزمان أمثالهم ويؤلف بين المتفرقين منهم من كان على عين الغلط. ثم أقول في هذا الفصل قولاً يجلو به برهان العقل، هب أن التركمانية لكم على ما يظهرون سلم والتواصل بينكم وبينهم حق وصدق، فما هنالك عدو يقصد غيرنا ولا مملكة تطلب سوى مملكتنا. ألستم في مدرجة طريقهم إلينا، وعبورهم عليكم إذا أرادوا قصدنا؟ وأنتم بين أمرين إما أن تلقوهم تلقي الخادم لمخدومه والصديق لصديقه، وتمكنوهم أن يجوسوا خلالكم، أو لاتأمنوهم فتعتصموا بحصونكم عنهم وتمنعوا منهم. فإن كانت العزيمة الخدمة والتلقي، فقد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين

ومعلوم ما جرى بالأمس على ابن الملك (أبي كاليجار) الملقب (بالرحيم)، عند تلقيه لهم واحفاناً بهم وقصده لخدمتهم، من بعد توثق مدعي الخلافة له بالإيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة (٩).

فحين دخل مخيمهم نشب في الشبكة من فوره، فما رعي فيه دين ولا يمين ولا عرف للخليفة، الذي

(٧) يظهر من قول المؤيد في نهاية الرسالة "صلاح صاحبه أيضاً": أن الوسيط كان عالماً من الدولة الدوستكية ومتقرباً من نصرالدولة له نفوذ ديني وإنه كان قاضياً من قضاتها.

(٨) يشير بذلك الى شهر رمضان.

(٩) يقصد الخليفة العباسي.

توسط الحال قدرأ مع المعلوم من حال الرحيم-المرحوم اليوم-(١٠) خلصه الله في كونه لاياوي الى سيد ولا لبد، وإنما له قوت لايميته ولا يحييه. فكيف من يؤذن بالأموال والخزائن ووراءه الحصون، التي هي من أمهات الحصون والبلاد المعمورة المأهولة فهذا باب.

وإن كانت العزيمة الباب الثاني في الإعتصام منه، فقد دمر الله تعالى اذن على المهادة والمشاركة تدميراً وصار كما قال الله تعالى "وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً". وإذا كان مفضي الأمر الى ذلك، فمالكم لاتستقبلون من الأمر ما توجب الضرورة أن لاتستدبروه، فتكون كما قال القائل:

رأى الأمر يفضي الى آخر فصيّر آخره أولاً

ولم لاتستغنمون هذا الوقت والأيدي معكم مجتمعة، ولكم في الأرض من أهل الموافقة والمرافقة مراغم كثيرة وسعة، ووراءكم من الدولة العلوية-أدامها الله تعالى- رء عظيم وقد قيل:

إنتهز الفرصة إما مرت فرمبا طلبتها فأعيت

وهذا مما لاخفاء به على عاقل ووجه العقل الذي لايجبه حجاب باطل والسلام. وأما نحن فنعتقد اننا الى أن نرت ديار الظالمين أقرب منهم الى أن يرثوا ديارنا، بحجة من قوله: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون". وما أرى وسم الصالحين أليق بأحد ممن جده محمد صلى الله عليه وسلم وأبوه عليّ عليه السلام ودياره روضة العدل والأمن، والحرمان متماسكات به وصدقاته فائضة على الكبير والصغير.

فإذا كانت النسبة هذه فلا خلاف لوعد الله سبحانه، فهذا باب من حيث الثقة بالله والتصديق لقوله وتجنب الشك في وعده ووعيده. فأما من حيث الرأي: فإن الذي أقدره الله سبحانه وله الحمد على أن يلبي دعوة الأجل أبي الحارث(١١) ومن صحبه لقبض المال والعدد والخيل بلا حساب ولا كتاب أقدر، أن ضغطه والعياذ بالله أمر ودنا من تلقائه شر، أن يفتح من خزائنه وخزائنه آباته عليهم السلام خلجان الأموال ويستتجر بها من الخيل والرجال ما يذر فضاء البراري بالقنا مشجراً وينشيء سحاب السيوف للدماء مطراً. وأسأل الأستاذ تأمل ما ذكرته بعيني بصيرته وتصور الأمر فيه بصورته. فإن علم تزييداً مني فيما أوردته، أو عدولاً عن حد نصفه فيما سردته فنندني فيه، وإن تكن الأخرى أشار فيه بالواجب الذي يتقرب الى الله بصلاح المسلمين فيه أولاً، وصلاح صاحبه ثانياً، والإستحمان الى الدولة أدامها الله ثالثاً، والإنتداب في ذلك لإعلاء بنيان ما أسسه وإستثمار ما غرسه إن شاء الله تعالى(١٢).

(١٠) لعل بعض القراء يفهم من هذه الجملة الدعائية المعترضة-المرحوم اليوم- أن الرسالة كتبت بعد وفاة الملك الرحيم سنة ٤٥١هـ، غير أن جملة "خلّصه الله" أي خلّصه الله من أيدي السلاجقة تدل على إن المؤيد لم يقصد بالجملة الأولى المعنى المتعارف المستعمل للموتى، بل إستعار به لزوال مملكته ودولته. فالمرحوم اليوم بمعنى الذي زال ملكه.

(١١) يقصد أبا الحارث البساسيري.

(١٢) سيرة المؤيد، ص ١١٣-١١٦.

الموقف بعد معركة سنجار

أحرزت القوات الموالية للفاطمين، التي كان يقودها البساسيري، إنتصاراً باهراً في معركة سنجار سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) على القوات السلجوقية والعقيلية بقيادة (قتلمش) ابن عم (طغرل) وقريش بن بدران أمير الموصل. وقد إندفعت تلك القوات الى الأمام حتى إحتلت الموصل بعد أن إنضم إليها قريش نفسه (١٣).

فزاد تأييد الحركة في العراق، حيث أقيمت الدعوة الفاطمية في الكوفة و(واسط) بالإضافة الى الموصل. وإثر هذا الإنتصار وإستفحال القوات الموالية للفاطميين، تقدم الملك الدوستكي نصرالدولة نحو الجانب الفاطمي بخطوة عملية بعد أن خرج الأمر عن مجرد كونه إتصالات ومراسلات لاتتبع هذا الجانب إثر هذا التقدم والإنتصار. فأرسل قوة من جيشه الى منطقة الجزيرة للإشتراك في الحركة، ولكنه في الوقت نفسه لم يقطع علاقاته نهائياً مع السلاجقة، حيث لم يقطع خطبتهم ولم يقم الخطبة للفاطميين رغم إلتحاحهم. فأراد نصرالدولة بذلك التناقض أن يبقى له طريقاً للإلتحاح لدى كل من الطرفين المتنازعين، غير إن الفاطميين لم يرضوا بهذه اللعبة. وعندما طالبه الممثل الفاطمي المؤيد الشيرازي بإلغاء الخطبة السلجوقية، إعتذر بأنه لا يستطيع أن يقرر أمراً كهذا قبل رجوع مندوبه (أبي الحسن بن بشر) من مصر بالضمانات اللازمة.

وكان نصرالدولة يهدف مما فعل لأن يكسب الوقت إنتظاراً لجلاء الموقف وإنتهاء الأزمة بإنتصار أحد الطرفين النهائي. وكان نصرالدولة يعلم أن السلاجقة، كقوة قوية ناشئة لايد أن يقوموا بهجوم مضاد من الصعب أن تصمد أمامه القوات الموالية للفاطميين. وقد تحدث المؤيد عن سياسة نصرالدولة هذه وإنتقده عليها بشدة، فقال: "ولما تكاثفت الجيوش من الأعراب والأكراد والأتراك بالجزيرة جرد (أي نصرالدولة) النجدة من رجاله، وتكلفت عليهم الكلف من أمواله. وهو مع فعله هذا لايقطع خطبة التركمانية عن منابر دياره... ويجعل الحججة فيه رسولاً أرسله الى مصر لأمر ببرمه وتقرير يقره، وأنه لا قبل له بأن يتعرض بغير نصبة حاله، حتى يعود رسوله. واضماره (أي غرضه) عن ذلك أن يكون معه إهمال حتى تخرج الأرض أثقالها في أمر الفريقين: فإن كان لنا كان وقوفه على إنتظار الرسول عذره في شأن الخطبة، وإن كان علينا إمتن على التركمانية (أي السلاجقة) بتفردده من دون الناس كلهم بحفظ النصبة وإعتذر عن النجدة التي أنفذها، لم ينفذها إلا رداً عن نفسه ومنافاة للجموع الكبيرة، التي لو لم يفتح لها باب المساعدة لأخذ عليه باب بيته. فكأنه أعد لكل المقامين مقالاً ورتب

(١٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث سنة ٤٤٨هـ. قال سبط ابن الجوزي: إن معركة سنجار وقعت في آخر شهر رمضان المبارك سنة ٤٤٨هـ. بينما ذكر ابن الأثير: أنها كانت في آخر شوال من السنة المذكورة. راجع الدكتور محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص ٢٠٧. راجع أيضاً المقرئزي، إتحاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ص ٢٣٤.

سؤالاً وجواباً (١٤).

ولما كان هذا هو موقف نصرالدولة وجه إليه المؤيد رسالة أخرى يحثه على الإنضمام الى الدولة الفاطمية، ويشيد فيه بقوة هذه الدولة مالياً وعسكرياً ويحذره من الإعتماد على السلاجقة (١٥). هذا وإذا نظرنا الى طبيعة تركيب القوات التي تكونت منها الحركة أو الى نفسية قادتها بصورة دقيقة، لظهر لنا أن نصرالدولة لم يكن خاطئاً في موقفه منها. لأنه كان يعلم جيداً بنفسية معظم قادتها المتقلبة وعدم قدرتهم على الإستمرار على المجابهة مع السلاجقة، لاسيما وأن الدولة الفاطمية لم تساند الحركة عسكرياً وإنما قامت بتمويلها فقط. كما إن نصرالدولة وجد أن الأموال التي تنفقها الدولة الفاطمية في هذا السبيل قليلة قياساً لجسامة الأمر، كما صرح المؤيد في رسالته عن إعتقاد نصرالدولة هذا حين قال: "فإنه (أي نصرالدولة) سمع إن الذي وصل معي من المال يقل عن ما يُبلغ به غرض... (١٦)".

(١٤) سيرة المؤيد. ص ١٣٧.

(١٥) نظراً لأهمية الرسالة التاريخية ندرج هنا نصها التالي، ويظهر أن مقدمتها قد حذفها المؤيد عند درجها في مذكراته (سيرته): "وأما إعتذاره عند التوقف في معنى الدولة الشريفة وإقامتها وقوع التبرص بها الى حين عودة الشيخ (أبي الحسن بن بشر) بالتقارير التي تظمن بها القلوب وتنشرح معها الصدور، فعذره في هذا الوجه يحتاج الى عذر. وذلك أنه قام في غيره من الأمور التي هي أشد وطأً وأثقل محملاً وأنكا نكاً القيام المشهور وسعى السعي المشكور. وإرجاء هذا الأمر فظواه في مطاوي الفتور، فإن كان التبرص به توقع ما يحدثه الزمان. فإن كان لنا فتح من الله (قالوا ألم نكن معكم)، وإن كان للكافرين نصيب قالوا (الم نستحوذ عليكم ومنعكم من المؤمنين) الذي هو نص قوله تعالى ومثل الخبر. فكذلك إن كان لنا فليس يفوتهم إذ ذلك إقامة الخطية، وإن كان علينا والعباد بالله كانوا إستبقوا مع العدو (خذله الله) في الأمر بقية وجعلوا الأمر على جملته لديهم مائة. فهذا رأي ينافي الصواب وطريق يباين الإستقامة، فهو يعلم يقيناً أن إقامة الدعوة لنا ونداءه لشعارنا لا يعظم موقعهما إلا مع إشراف العدو وإستوائه على مركب العتو. فأما إذا تفضل الله بفاكهة أسبابه وإستجابة الديار وأسعد على تذليل الصعب المقدار، فأى طعم يبقى لخطيته إذا خطب وقد غار ماء رونه ونضب. وأما ما يخرج حساب التوهم الذي لا يثبت مثله العقل ويمحوه لطف الله وجميل صنعه، من انه ربما وقف الأمر والعباد بالله فكان عنده مرموقاً بعين من إقتصد في الفعل ولم يمل معنا كل الميل. فذلك أيضاً قصد غير صحيح، لكون ذلك متعلقاً بامتداد باع العدو (خذه الله تعالى إليهم والله يعيدهم منه) أو قصرها. فإن قصرت باعه كان الفكر بإقامة الدعوة شفعاً للفكر بالإتجاد وتجريد العسكر الذي ليس يخاف أمره، وإذا لم يخلص ضرر من ذلك لم يخلص من هذا أيضاً. وإن طالت باعه (لا أطالها الله) فهم الذين قال الله فيه "لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة".

كان هذان الأمران أم لم يكونا ومع هذا كله فمعلوم أنه إن تفضل الله بالدفع في وجه هذا العدو المضل المبين، فما إلا جرثومته التي قُطعت وأنيابه التي قُلعت، لكون ذلك أمراً هو بنفسه حاضره وبخبط رقبته مباشرة. وإن (والعباد بالله) كان على أصحابنا (نصرهم الله)، فإن صاحب الأمر ولي النعمة (خُذ الله ملكه) على مسيرة خمسمائة فرسخ لا يحل به كثرة وهن، على تكاثر عدده ووفور عُدده وإتساع نطاق قدرته بحمد الله ومنه، لأن يردف جيشاً بجيش ومالاً بمال، فليس الحرب مما تضع أوزارها بوقفة تجري وكلا، بل هناك لزمتم ملازمها وتعين على الناس عامة وعلى المجلس الأميري خاصة، أن يتعلقوا بأذيال الدولة العلوية أدامها الله كل التعلق، ويتحققوا بخدمتها كل التحقق، عالمين علم اليقين أن الناس إذا عدموا (والعباد بالله) منها سنداً ومن ظلها ملتجداً، صاروا ملكة لهؤلاء الأشرار وصلوا في ظلهم وعدوانهم أحرّ ما يكون من النار والسلام.

(١٦) سيرة المؤيد، ص ١٠٨، الرسالة الأولى.

كما يشير المؤيد إثر هزيمة القوات من (القيارة) سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م)، رغم أن قوامها كان ثمانية آلاف فارس، الى ما تتصف به من "الخلاف والخذلان" (١٧)، في حين إن المعركة لم تكن ذات شأن في الموقع المذكور. كما إنه يتبادل مع قادة القوات رسائل مليئة بالمعاتبات. ويقترح فيها عليهم التوجه نحو بغداد وواسط والإلتقاء بجيوش واسط المؤيدة للفاطميين، بدلاً من التوجه الى دياربكر والتحصن بقلعها. حيث يقول في رسالته الى الأمير (أبي الفتح بن ورام) رئيس كُرد جاوان، في الحلة والمشارك في الحركة:

"وبلغني إستقرار العزائم المباركة الآن على قصد الحصون الآمدية والتحصن بها ريثما يتفرق الجمع الذي هو معكم اليوم، فتزدادون ضعفاً وتصل نجدة عدوكم فيتضاعف قوة فوجدت ذلك من الآراء الفاسدة..." (١٨).

وهكذا يظهر أن قادة الحركة كانوا يوجهون أنظارهم الى استراتيجية كُردستان ويريدون التحصن بالقلع الكُردية في إقليم دياربكر، وإتخاذ البلاد الدوستكية ميداناً للقتال والدمار. ولكن لا ندري هل كان نصرالدولة سيسمح لهم بذلك، أو هل حصلوا على إذن منه في ذلك، أم إنهم كانوا سيحاولون التحصن بها رغم إرادته؟ أو هل إن هذه الفكرة حدثت أثناء إستجداد نصرالدولة بالمؤيد حينما توجه طغرل نحو بلاده للإنتقام منه؟ والذي أرى إن الفكرة حدثت قبل هذا. ثم يأتي المؤيد فيهاجم الحيوانات التي ظهرت في الحركة بعد الهزيمة، وإتصال الوزير الكُندري وزير طغرل ببعض من قادتها كإبن مزيد وإبن ورام وإقناعهم بالإقطاعات، حتى إنهم كانوا يريدون القبض على زعيمهم البساسيري وتسليمه الى طغرل القريب منهم بمسافة حوالي يوم واحد فيما وراء نصيبين. فشعر البساسيري بذلك ففارقهم وتراجع الى الرحبة (١٩). وكذلك ذكر المؤيد خيانة إرتكبتها حليفهم عطية بن صالح المرادسي تمثلت في إخفائه مبلغاً كبيراً من المال، أرسلته الدولة الفاطمية للحركة وسلم إليه ليوصله الى المؤيد، وأعتبرت من أكبر أسباب تفرق القوات من حوله لأنه بذلك قطع رزقها. فضلاً عن هذا فإن الوزارة المصرية لم تكن مخلصه في مساعدتها الحركة، ولما أعتقل الوزير البازوري عُثر على مخابرات له مع العباسيين في بغداد. ومن بعده تولى الوزارة أبو الفرج عبدالله بن محمد البابلي لشهور فقط، ثم تولى أبو الفرج بن جعفر المغربي. فجمد الأخير مخابرات البساسيري لأنه كان يحقد عليه بسبب هروبه منه الى مصر (٢٠).

ورغم أن البساسيري سيطر على بغداد بقواته القليلة في فرصة إنشغال طغرل بإخماد تمرد أخيه إبراهيم ينال في إيران، وأقام الدعوة للمستنصر الفاطمي، إلا أنه تلقى مدة من الخليفة الفاطمي البرودة والإهمال. وسبب ذلك هو نفاق وزير المستنصر أبي الفرج محمد بن المغربي، الذي كان يكره

(١٧) نفس المصدر، ص ١٤٤. رسالة المؤيد الى أبي الفتح.

(١٨) سيرة المؤيد، ص ١٥٧.

(١٩) سيرة المؤيد، ص ١٥٢.

(٢٠) إبن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٨٣.

البساسيري وكان قد فرّ منه الى مصر. فحثّ المستنصر على عدم الإهتمام بالبساسيري وخوفه منه، على ما قاله المقرئزي في (إتعاظ الحنفا ص ٢٥٥). كما إن الأمراء الذين أيده تفرقوا من حوله في السنة التالية، عندما زحفت جحافل السلاجقة نحو العراق، بعد القضاء على تمرد إبراهيم ينال، الذي كان على إتفاق سري مع الدولة الفاطمية. وكانت النتيجة مغادرة البساسيري بغداد ومقتله في معركة مع قوة سلجوقية في منطقة الفرات. تلك كانت طبيعة الحركة وحقيقتها، الحركة التي لم تشترك فيها الدولة الدوستكية متخذة منها ومن الدولة الفاطمية موقفاً محايداً، وبذلك حافظت على سلامة شعبها من المآسي. ويرجع فضل هذا النجاح الى أميرها المحنك نصرالدولة، الذي لا يستبعد أن يُنتقد في موقفه هذا من قبل المشتركين في تلك الحركة المشروعة، التي قام بها أبناء المنطقة ضد غزو وتوسع السلاجقة القساة الغرباء، الذين وضعوا أيديهم على بلدان واسعة لم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل. وأخيراً كانت للدولة الدوستكية علاقات سياسية واقتصادية وحضارية مع الدولة الفاطمية، كعلاقتها مع الدولة العباسية. وقد تأثرت هذه الدولة الكردية بالأنظمة الفاطمية، لاسيما عن طريق الوزير أبي القاسم المغربي (٢١).

أما إيفاد الملك الدوستكي نصرالدولة بعثة من الطباقين من كردستان الوسطى الى مصر لتعلم فن الطبخ (٢٢) المتداول في مطابخ الفاطميين، فليس سوى مثال حي للروابط الحضارية بين البلدين. كما إن كميات من النسيج المصري الفاخر المصنوع في مدينتي تنيس ودمياط كانت تصل سنوياً الى الدولة الدوستكية (٢٣).

(٢١) الفارقي، ص ١٣٨.

(٢٢) الكامل، ج ١، ص ٦. في حوادث سنة (٤٥٣هـ). وأبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨٩. ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣١٩. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص ٢٤٨-٢٥٠. تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ٣٦٧. و (Basri Kunyar / Diyarbakir Tarihi).

(٢٣) راجع تفسيرنا لعبارة المؤيد السابقة في ص ١٧٣.

العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية

كانت الإمبراطورية البيزنطية^(١) إحدى الدول الكبرى الثلاث في ذلك العصر، وكانت بينها وبين الدولة الدوستكية علاقات وروابط سياسية وإقتصادية وحضارية. وتتجلى علاقاتهما من خلال المعاهدات والإتفاقيات، والتي كان لبعضها أهمية كبيرة للدولة الكرديّة في مرحلة نشوئها، ولبعضها الآخر أثر فعال في تمتع كردستان الوسطى بالسلام والإستقرار. وكان الأمير الذي لقّب نفسه بـ«باد» أي حاكم أو ملك الكرّد، في الفترة التي سبقت تأسيس الدولة، والتي عبّرنا عن توسع نفوذه فيها بـ"الإمارة الدوستكية"، يعادي الدولة البيزنطية المسيحية ويشن الغارات على حدودها المتاخمة لكردستان، سعياً وراء الشهرة والمال والسلاح والتفاف المقاتلين حوله. وقد اشتهر فعلاً بكونه رجلاً غازياً في سبيل الدين وفاز بمحبة الناس وعطفهم، كما شهد عليه تقدير سكان الموصل له ومظاهرهم ضد الحمدانيين، إستنكاراً للتمثيل بجثمانه وقولهم: "هذا رجل غاز لا تحلُّ المثلّة به"^(٢).

ولما إصطدم الأمير (باد) بعداء الملك البويهي عضد الدولة أثناء وفادته إليه بالموصل سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م) وعزمه بعدها على تحرير البلاد من السيطرة البويهية، حدث تحول في موقفه نحو الدولة البيزنطية. فإقترب منها وحسّن علاقاته معها ووقع معها معاهدة عدم الإعتداء. فكان يرسل سنوياً الى الإمبرطور (بسليوس) الثاني (باسيل) (٩٦٣هـ = ١٠٢٥م) الهدايا والألطف على سبيل الملاطفة.^(٣) وقد اعتبرت (دائرة المعاف التركية) تلك الهدايا خراجاً سنوياً مفروضاً، لأنه كان تحت حمايتها^(٤). وكذلك إعتبرها خراجاً الدكتور مصطفى جواد في رأيه، الذي وافانا به في رسالة خطية نشرناها في الجزء الأول في موضوع (معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية).

لقد كان لهذه المعاهدة أو الإتفاقية وقع سيء على الدولة البويهية، حيث خافت أن تساند الدولة البيزنطية الأمير باد في محاولاته التوسعية المرتقبة في الأراضي الواقعة تحت سيطرتها، أو أن تحميه

(١) إنقسمت الإمبراطورية الرومانية الى قسمين بعد وفاة الإمبراطور (ثيودوسيوس) سنة ٣٩٥م، حيث قسمها إبناه أركاديوس وهنوريوس وأصبحت مدينة القسطنطينية (إستانبول)، التي بناها قسطنطين سنة ٣٣٠م عاصمة القسم الشرقي الذي عرف بالدولة الرومانية الشرقية، بينما ظلت مدينة روما عاصمة القسم الغربي. أما بلاد الدولة الشرقية، فكانت تتألف من آسيا الصغرى (أناضول) واليونان وبلغاريا وبلاد أخرى. وقد دخلت كردستان الوسطى تحت حكم الدولة الرومانية الشرقية فترات عديدة وكانت ميداناً للنزاع بين الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية لقرون عديدة. وقد ترك الرومان آثاراً كثيرة في كردستان من قلاع ومدن. ولا يزال إسم "الروم" أي الرومان حياً، ولكن الكرّد يطلقونه حالياً على الجنود الأتراك، حيث حل الترك محل الروم البيزنطيين. والبيزنطيون ينسبون الى (جوز نطه)، وكانت مع مدينة خلكيدون تقعان على ضفاف بسفور الأولى في الجانب الغربي والثانية في الجانب الشرقي وإبتلعتهما مدينة القسطنطينية ووحدهما.

(٢) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم. ص ١٧٦. الكامل، ج ٩. ص ٢٤ و ٦٣.

(٣) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ٣٦ و ٣٩.

(٤) TURKIYE .ANSIKLUPEDIS

في حالة إندحاره. ولهذا فقد طالب الملك عضدالدولة سنة (٣٧٢هـ = ٩٨٢م) من بسليوس، في المفاوضات التي جرت بينهم، بإدخال الأراضي الواقعة تحت سيطرة الأمير باد ضمن أراضي الدولة البويهية والإعتراف بكونها جزءاً منها. وطالبه كذلك بالتخلي عن حماية باد (في حالة كونه تحت الحماية البيزنطية)، أو يقطع علاقاته معه. وقد وافق الإمبراطور بسليوس على هذا الشرط بعد مناقشة طويلة جرت بينه وبين (ابن شهرام) ممثل عضدالدولة في العاصمة البيزنطية. غير أن الدولة البويهية تنازلت عن هذا الشرط بعد وفاة عضدالدولة، حينما استؤنفت المفاوضات في عهد الملك صمصام الدولة، ولكنها إشتطت على الإمبراطور عدم تقديم المساعدة للأمير باد وعدم إعطائه حق اللجوء في حال إندحاره أمام قواتها في المعارك المرتقبة. وطالبت بإدخال هذا الشرط في بنود الهدنة بين الجانبين ليصبح بنداً من بنودها (٥).

وهكذا يظهر لنا مما جرى في مفاوضات الدولتين البويهية والبيزنطية، سواء كان الأمير باد تابعاً للدولة البيزنطية وتحت حمايتها (بحيث ربط نفسه بها عن طريق التبعية للإستفادة منها في تأسيس دولته الكرديّة) أو لم يكن تابعاً لها، مدى أهمية علاقاته بهذه الدولة وأهميتها في المجال الدولي، وتدويل شأن الأمير باد أو الإمارة الدوستكية أو في مجال تأسيس الدولة الكرديّة. ولهذا فقد إعتبرنا هذا التقارب والعلاقات من عوامل تأسيسها وإعتبرناه من العوامل العشرة لنشوتها التي مضت في الجزء الأول (٦).

هذا وإستمرت العلاقات الكرديّة - البيزنطية متينة في عهد الأمير باد. أما في عهد الأمير أبي علي حسن بن مروان وفي السنة الثالثة من حكمه، فقد أطاحت بها أطماع الدولة البيزنطية في الأراضي الدوستكية الواقعة في شمال (بحيرة وان). حينما إستغلت الأخيرة الظروف المرحجة التي أحاطت بالدولة الدوستكية، بعد مقتل مؤسسها من مهاجمة الحمدانيين ثم الأرمن. فقد هاجمت القوات البيزنطية سنة (٣٨٢هـ = ٩٩٢م) الأراضي المذكورة وحاصرت المدن الواقعة فيها، وهي مدن ملازگرت (منازجرت - مانيزكرد) وخلاط وأرديش. وقد أبدى جنود الحاميات الكرديّة فيها دفاعاً مجيداً، الى أن وصل الأمير حسن بقوات كبيرة فهزم البيزنطيين. وكان للحملة الإعلامية التي قام بها الأمير المذكور تأثير على هزيمة القوات البيزنطية، حيث أشاع أن القوات الإسلامية ستصل غداً الى أرض المعركة. فأثر بذلك على معنويات القوات البيزنطية، وتفاوض البيزنطيون معه على هدنة لمدة عشر سنين (٧).

(٥) راجع ذيل تجارب الأمم ص ٣٦ و ٣٩. وراجع ما ذكرناه من التفاصيل في الجزء الأول ص ٦٢-٧١.

(٦) راجع الجزء الأول: موضوع عوامل نشوء الدولة الدوستكية.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٥٦. الفارقي، ص ٦١. ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣١٦.

زيارة الإمبراطور بسليوس إلى الأراضي الدوستكية

في سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) عندما إقترب الإمبراطور بسليوس من بلاد الدولة الدوستكية في مهمة، زارها وإستقبله ملكها ممهد الدولة، في مكان غير معلوم لنا، وإنما قال الفارقي في (ص٨٤) أنه قدم إلى نواحي آمد وميفارقين وإجتمع بممهد الدولة أبي منصور وتحالفا وتعاقدا، وعاد من غير إضرار.

لقد تحدث عن هذه الزيارة إيليا النسطوري أشهر مطارنة الدولة الدوستكية، والذي حدثت تلك الزيارة في عهده، وكان عمره آنذاك ستاً وعشرين سنة. فقال لما مات داود ملك الغورزانيين، توجه الإمبراطور إلى ناحية (غورزان) و"دخل ممهد الدولة وداس بساطه وقبله ملكاً بفرح، فأعتبره معلماً وكان أمن في البلاد" (٨). أي أنه أعجب بممهد الدولة وبسياسته وعقله، فأعتبره معلماً (حكيماً). ويجدر بالذكر أن إيليا نفسه وصف ممهد الدولة بـ"الأمير المبارك" (٩). أما سعيد بن بطريق الأنطاكي، فقد قال إن بسليوس "جعل أمير الأكراد أبا منصور سعيد بن مروان ماجسترس ودوقس المشرق" (١٠)، أي أنه منحه لقبين بيزنطيين هما لقب (ماجسترس) و(دوق)، أي (مجملاً) حاكم

(٨) تاريخ إيليا، ص ٢٠١. تعريب الدكتور يوسف حبي من السريانية.

(٩) تاريخ إيليا. ص ٢٠٤. قال ذلك عند البحث عن قتله، والذي حدده في ليلة الخميس الخامس من جمادى الأولى في السنة الواحدة بعد الأربعمئة للهجرة، وكانت السنة الثالثة من مطرانية إيليا. وذكر تاريخ تولي الأمير نصرالدولة في نفس السنة. وقد وجدت صعوبة في تحديد سنة تسنمه الحكم. فكانت بنفس السنة في الجزء الأول، وذلك قبل إطلاعنا على كلام إيليا. وذكر أيضاً أنه عندما قُتل أخوه أبو علي كان حاكماً على مدينة الجزيرة، فأسرع إلى ميفارقين وأصبح ملكاً فيها يوم الخميس السابع من ذي القعدة سنة (٣٨٧هـ).

(١٠) سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص ١٨٤. ذكر إن الإجتماع كان في سنة (٣٨٩هـ)، وأن هدف الإمبراطور كان إحتلال بعض البلاد الإسلامية، غير إنه عاد لما سمع بوفاة داود القربلاط ملك الجزر. ويلاحظ هنا خلاف بينه وبين (إيليا)، ولا يُفهم من كلام إيليا وكذا الفارقي أنه جاء يقصد إحتلال الأراضي الإسلامية. ومن المحتمل أن لفظ الجزر تصحيف (خزر) ولفظ غورزان قريب منه، ولكن يظهر من كلام إيليا أن منطقة غورزان كانت قريبة من البلاد الدوستكية، بينما تبعد بلاد الخزر عنها كثيراً. فهل يمكن أن يكون داود هذا الأمير الأرمني داود الموالي للبيزنطيين.

أما لفظ (ماجسترس) فهو ماجستر (Magister)، وهو الشخص الذي كان يترأس الإدارة المدنية البيزنطية ويقوم بعمل وزير الخارجية. وقد أصبح اللقب في وقت ما أعلى لقب غير ملكي. وقد حدثت تغييرات على هذا المنصب. راجع رنيسمان (المدنية البيزنطية «و» الحروب الصليبية ص ٥٨ و ٦١). أما في عهد الرومان قبل الميلاد، فكان (الماجستر) واحداً من أربعة حكام من أصحاب السلطة العليا، و الذين أُعتبروا حكماً فوق العادة ولهم حق الجلوس على كرسي خاص في الدولة. وكان هؤلاء الحكام أحد العناصر الأساسية الثلاثة في النظام الجمهوري الروماني آنذاك وهي: الحكام ومجلس الشيوخ والهيئات الشعبية. والحكام هم: القنصل والبريتور (القاضي) والدكتاتور وماجستر وقد كان الأخير نائباً للدكتاتور، وكانا يُعينان لمدة ستة أشهر. راجع (مدخل إلى تاريخ الرومان وأدبهم، ص ٥٦ و ٦٠). أما (دوقس) فهو (دوق) أي أمير وأحد حكام الأقاليم (البنود) البيزنطية. وفي القرن الثاني عشر لما فُتحت أنطاكية وُضعت تحت إمرة دوق كان له سلطان نائب الملك، حيث كانت له سلطة جباية الضرائب. راجع ستين رنيسمان. ص ٦٧.

وأمر الشرق. ولا شك أن زيارة الإمبراطور الى الدولة الدوستكية والإجتماع بملكها، قد زاد في تحسين العلاقات بين كُردستان والبلاد البيزنطية. وقد كانت لتلك الزيارة أهمية تاريخية. وفي سنة (٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م) طلب محمد الدولة من بسليوس إرسال الأمير أبي الهيجاء الحمداني إليه ليسانده في إسترجاع إمارته حلب، حيث كان خادمه لؤلؤ قد أخذها منه وإلتجأ أبو الهيجاء الى الدولة البيزنطية. لقد حافظ بسليوس الذي كان من أقوى الأباطرة البيزنطيين على علاقاته بالدوستكيين في ظروفهم الحرجة إثر إغتيال محمد الدولة في قلعة هتاخ (أنتاخ - عتاق) سنة (٤٠١ هـ = ١٠١٠ م) من قبل حاجبه (شروه - شيروين). فلم يلتفت الى طلب شروة بحمايته وإرسال قواته الى مدينة فارقين العاصمة ليسلمها، وكان نصرالدولة يضيق الحصار عليه^(١١).

وأما الحديث عن الوفد البيزنطي، الذي وصل الى العاصمة فارقين في السابع من ذي الحجة سنة (٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) والذي أرسله بسليوس بالهدايا والتحف، فقد مر في مناسبات أخرى من هذا الكتاب. وأما إيفاد الدولة الدوستكية للعالم والشاعر أحمد بن يوسف المنازي، كاتب ديوان الإنشاء الى العاصمة البيزنطية مراراً في مهمات رسمية، فمما أكد عليه المؤرخون^(١٢).

كانت الدولتان تتبادلان الوفود وتحترمان علاقاتهما الودية وما بينهما من معاهدات وإتفاقيات، الى أن حدثت مشكلة الرها (أورفا) نتيجة بسط البيزنطيين سيطرتهم عليها سنة (٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م). وأدى ذلك الى تهديد السلام في مناطق الحدود والى إشتباكات عديدة بين القوات الكُردية والبيزنطية... كانت مدينة (الرها) صاحبة المقام المرموق في التاريخ المسيحي في يد رجل من بني نمير يدعى (عطير)، فأخرجتها من يده القوات الدوستكية بقيادة (زنك) بن أوان، وذلك في سنة (٤١٦ هـ

(١١) راجع ترجمة حياة المنازي في موضوع الحياة الثقافية.

(١٢) راجع ابن الأثير، ج ٩، ص ١٤٣. وإبن خلدون ٤/٣٧١. وإبن الوردى ١/٢٣٩. وأبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٢/١٦٥. وإبن أبيك: كنز الدرر، ٦/٣٣٣. وإبن بطريق، ص ٢٦٣. وإبن شداد الحلبي عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم المتوفي سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ - ١٢٨٦ م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة نسخة في مكتبتي مصورة على نسخة مكتبة بودليان المخطوطة المرقمة (٣٣٣)، كان هذا القسم يعرف سابقاً بـ"مخطوطة مارش/ لمؤلف مجهول" حيث لم يُعرف إسمها وإسم مؤلفها ثم عُرف بعد ذلك وطبعت في سورية لذلك ذكرتهما في الطبعة الأولى بإسم "مخطوطة مارش". ألف إبن شداد كتابه سنة ٦٧٩ هـ وكتب النسخة سنة (٧٨٩ هـ = ١٣٨٧ م) من قبل (سليمان بن غازي بن محمد بن أبي بكر الأيوبي)، على ما هو مكتوب في نهايتها. وسليمان هذا هو أحد الأمراء الكُرد من الفرع الأيوبي الحاكم في مدينة حصن كيفا (حسنكيف - نهسكيف). وكان هذا الأمير عالماً وشاعراً، حكم إمارة حصن كيفا من سنة (١٣٧٤ - ١٤٢٤ م). وفي (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٤٧٠ - ٤٧٧) لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ترجمة لهذا الأمير الكُردى وقال له علوم غزيرة وديوان شعر توفي (٨٢٧ هـ = ١٤٢٤ م)، وذكر بعض قصائده، وكان يلقب بالملك العادل أبي المفاخر. وقد ألف الحنبلي كتابه هذا للملك الأشرف أحمد بن سليمان. أما الموسيقار مظفر بن حسين الحصكفي (من سكان حصن كيفا)، فقد ألف للأمير كتابه في الموسيقى والأنغام المسمى (رسالة الكشاف في علم الأنغام) وهو مخطوط عندي نسخة مصورة منه. نظراً لأهمية معرفة كاتب مخطوطة قسم الجزيرة من (الأعلاق الخطيرة) زودت مكتبة بودليان بهذه المعلومات لتضيفها الى النسخة. للأمير سليمان ترجمة في (تاريخ طورعبدین ص ٣٥٦) للطبريك أفرام برصوم، وله ذكر في (تاريخ الدول والأسرات الحاكمة ص ١٥٢) للدكتور أحمد السعيد (والأسرات الحاكمة) لزامباور وفيه خطأ في وضع تاريخ (٨٧٠) أمام إسمه.

(= ١٠٢٥ م) بناءً على طلب من سكانها للخلاص من ظلم عطير. ثم إن نصرالدولة سلم المدينة الى ابن عطير وابن شبل، وذلك بتوسط من صالح بن مرداس. ولما باع ابن عطير حصته للبيزنطيين، وضع هؤلاء أيديهم على المدينة كلها، وذلك في عهد الإمبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م). فإضطرت الدولة الدوستكية الى الدفاع عن (الرها - أورفه) وإخراج البيزنطيين منها، مع ما هناك من احتمال كونها كانت تحت السيطرة الدوستكية. ولوأنها سلمت المدينة الى ابن عطير، والراجح عندي أن ابن شبل كان نائباً لنصرالدولة في الرها وإنه هو أبو الفوارس أحمد بن شبل بن إبراهيم الذي كان أميراً بارزاً في الدولة، فكانا يحكمان المدينة (١٣).

وفضلاً عن هذا، فإن سيطرة الدولة البيزنطية على الرها شكلت تهديداً على الدولة الدوستكية، لأن إمتداد نفوذها الى هذه المسافة جنوب وشرق نهر الفرات يؤدي الى تطويق الدولة الدوستكية من الغرب، إضافة الى كونها كانت مطوقة أصلاً من الشمال والشمال الشرقي بالدولة البيزنطية. فالإمارات الأرمنية المحيطة بها كانت مرتبطة بالدولة البيزنطية، كما إن سيطرتها عليها كانت تشكل حاجزاً بين الدولة الدوستكية وشمال سورية وتهدد الطريق الرئيسي، الذي كان يربط بين العراق وكردستان الجنوبية وموصل وبين سورية، والذي سيأتي البحث عن وصفه وأهميته في موضوع "التجارة". وكذلك إن بقاء الرها (أورفا) في أيدي البيزنطيين كان خطراً يهدد الإمارة النميرية ومنطقة الجزيرة كلها وشمال سورية، إذا ما إتخذوها قاعدة عسكرية أمامية قوية.

ولهذا السبب أرسل الملك الدوستكي نصرالدولة الى الرها في السنة المذكورة جيشاً إستطاع بمساندة بعض من النميريين أن يفتحها سوى قلعتين إعتصم بها الجنود البيزنطيون. بيد أن الدولة البيزنطية أرسلت جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل الى الرها وإنتصر على القوات الدوستكية في المعركة التي دارت بينهما وأحكم سيطرته على المدينة. بعدها تصالح الأمير النميري (ابن وثاب) مع البيزنطيين على حران وسروج. ثم هاجم الطرفان الأراضي الدوستكية سنة (٤٢٦ هـ)، إلا أنهما تراجعاً أمام القوات الدوستكية. كما إتخذ نصرالدولة إستعدادات كبيرة للزحف على الرها مرة أخرى، حيث حشد قواتاً ضخمة وتجمعت لديه نجدات عسكرية من أصدقائه كالأمير العقيلي قرواش بن المقلد. ولكنه تراجع عن خطته إثر تقديم الإمبراطور البيزنطي (ميخائيل الرابع) (١٠٣٤ - ١٠٩١ م) الإعتذار إليه مع الهدايا لتطيب قلبه وذلك رداً على رسالته. ولكن تلك الإتصالات لم تجدي في وضع حد للأزمة، حيث تذكر المصادر التاريخية ان قوات نصرالدولة وابن وثاب النميري، الذي رجع فإنضم الى نصرالدولة، هاجمت مدينة (السويداء) أي (سوترهك) (١٤)، وإحتلتها في سنة (٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م).

كما إنها حاصرت مدينة الرها وحطمت القوة البيزنطية المتكونة من خمسة آلاف مقاتل، والتي

(١٣) ذكره الفارقي، ص ١٨٠، وقال إنه كان زوج الست زبيدة بنت نصرالدولة، وإن مدينة أرزن إقطاع له. وذكر في (ص ١٨٨) إنه كان لزبيدة ولد إسمه أحمد.

(١٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٥٥، حوادث سنة ٤٢٦ هـ. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكردية. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ٤٢٧.

جاءت لفك الحصار دون أن تتمكن من تحريرها، حيث أقبل إحصان بن جراح الطائي على رأس قواته العربية وقوات بيزنطية للحيلولة دون ذلك (١٥).

والجدير بالذكر أن كنيسة (الرها) التي إعتبرت من عجائب الدنيا السبع قد أحرقت في هذه الأحداث، فكانت خسارة تاريخية لكونها بناية دينية قديمة كانت روعة في فن العمارة والزخرفة.

هذا وقبيل الفترة التي توسع فيها نفوذ البيزنطيين الى مسافة في شرقي الفرات بإقليم الجزيرة، كان نفوذهم الفعلي قد توسع الى الشرق من بحيرة (وان). حيث سلمت (إمارة واسبوركان) الأذربونية الأرمنية عام (٢١٠-١٢٠هـ) بلادها إليهم وهاجر قسم من سكانها الى غرب الفرات، فإزداد النفوذ الأرمني فيما وراء نهر الفرات وإقليم (كبادوكيا) (١٦).

كما إستولى البيزنطيون سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٤م) على مدينة مرادية (بدرغري)، التي كانت تابعة للدولة الروادية الكردية، غير أن الأخيرة إسترجعتها سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٩م) (١٧). ويظهر أن التفاهم والسلام قد حلا بين الدولتين وعادت العلاقات الى مجراها الطبيعي. فبعد أن فشلت محاولات نصرالدولة لتحرير الرها رضخ للأمر الواقع. ولم نجد أي إصطدام مسلح بين الطرفين بعد إنتهاء مشكلة الرها. ولكن حدث إعتداء بيزنطي على الحدود دوستكية أدى الى إحتلال ملازگر، ولكن لا أستطيع أن أحدد تاريخ ذلك، فكل ما نعلمه هو إن الإحتلال حدث قبل سنة (٤٤٦هـ = ١٠٥٤م)، بدليل إن الملك السلجوقي طغرل حاصر هذه المدينة في هذه السنة وكانت تحت السيطرة البيزنطية (١٨). كما إستولت الدولة البيزنطية على مدينة دوستكية أخرى وهي مدينة أرديش (أرجيش)، وهذا إن صح ماقاله سعيد بن بطريق من أن بسليوس إستولى على هذه المدينة سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م) (١٩)، ولكنني غير مقتنع من صحة قوله.

هذا وفي عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع قام أصفر التغلبي من منطقة رأس العين أو سروج بغارات على الحدود البيزنطية المتاخمة لكرديستان، مما أدى الى إزعاج الإمبراطور وتوجيهه كتاباً شديد اللهجة الى نصرالدولة سنة (٤٣٩هـ = ١٠٤٨م)، جعله فيه مسؤولاً عن أعمال أصغر وقال في كتابه: "إن كنت قد رجعت عن المهادنة فعرفنا لندبر أمرنا بحسبه" (٢٠). فإهتم نصرالدولة بالأمر وإستطاع أن يعتقل أصفر بواسطة جماعة من النميريين ويتخلص منه، وكان أصفر يدعي بأنه مصلح ديني ومن المذكورين في الكتب السماوية (٢١).

(١٥) الكامل، ج٩، ص١٥٥.

(١٦) راجع موضوع العلاقات مع الشعب الأرمني. الكامل، ج٩، ص٤٣٧. طبعة بيروت. راجع التفاصيل في الجزء الأول من الدولة دوستكية ص١٨٥-١٨٨ و ص٢٠٢-٢١١. وهناك صورة لمدينة أورفا وبرجها الأثري مع صورة لمقام إبراهيم الخليل وصورة لآثار حران.

(١٧) و(١٨) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٠٧. مدينة (مرادية) وإسمها الحقيقي الكُردي (بدرغري) وهي مركز قضاء تابع لولاية (وان) حالياً. ابن الوردي، ج١، ص٣٥٤.

(١٩) ابن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص٢٤٤.

(٢٠) ابن الأثير، ج٩، ص١٨٦. راجع ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص١٣٨.

ويُستفاد مما تقدم أن الدولة الدوستكية كانت وبموجب هدنة بينها وبين الدولة البيزنطية (ولعلها عُدت بعد حوادث الرها)، مسؤولة عن حفظ الأمن في الأراضي الواقعة شرقي الفرات، أو بتعبير آخر في منطقة حدود الدولتين. لقد عظم شأن نصرالدولة عند الإمبراطور قسطنطين، حينما أطلق الملك طغرل سنة (٤٤١هـ = ١٠٤٩م) سراح أسيره ملك (الأبخاز) بتوسط نصرالدولة، الذي أرسل إلى طغرل مندوبه شيخ الإسلام (أبا عبدالله بن مروان) لعرض وساطته عليه. وكان الإمبراطور يتخذ نصرالدولة وسيطاً لهذه الغاية (٢٢). وعندما هاجم طغرل الحدود البيزنطية شمال بحيرة وان وحاصر ملازگر (منازجر)، أرسل إليه نصرالدولة قوة عسكرية، إلا أن ذلك لم يكن موجهاً في الحقيقة إلى العلاقات الودية القائمة بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية، وإنما كان خوفاً من نقمة الملك السلجوقي.

وهكذا إستمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين في عهد الملكين نظام الدين وإبنة ناصرالدولة منصور، إذ لم نجد في المصادر التاريخية ما يلمح إلى أي توتر في العلاقات سواء كان تصادماً مسلحاً أو اعتداءً من أحد الطرفين، بل المتوقع إزدیاد التعاطف بينهما حينما طغى النفوذ السلجوقي في كردستان العراق وأصبح يهدد الدولتين. فالدولة البيزنطية لم تكن تطمع بعد في أي توسع في أراضي الدول الصغيرة المجاورة لها، أو الدخول في عداً معها، لأن الدولة السلجوقية أصبحت عدوها اللدود ومصدر مخاوفها، لاسيما بعد وقعة (ملازگر) التاريخية، التي حطم فيها (آلب أرسلان) السلجوقي سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) خيرة القوات البيزنطية وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع.

أما العلاقات والروابط الإقتصادية بين كردستان الوسطى والبلاد البيزنطية، فكانت هي الأخرى على مستوى رفيع. فقد كانت ترد إلى كردستان كميات غير قليلة من المنتجات والبضائع البيزنطية التي كان قسم منها يُصرف في كردستان، بينما كان التجار ينقلون القسم الآخر إلى أسواق الموصل وبغداد وغيرها عن طريق (نهر دجلة) بشكل رئيسي وذلك بواسطة الأكلاك.

وكانت مدينة دياربكر (آمد) الواقعة على ضفة نهر دجلة، وبحكم موقعها الجغرافي ومركزها التجاري، محطة مهمة لنقل المنتجات الكردية والشرقية إلى آسيا الصغرى. وكانت تلك المدينة سوقاً رئيسية في كردستان لإستقبال التجارة البيزنطية، حيث كان التجار الكرد وغيرهم ينقلون المصنوعات والبضائع البيزنطية من دياربكر إلى أسواق بغداد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حسبما

(٢١) أورد أبو العلاء المعري ذكر أصفر التغلبي في ديوانه (لزوم ما لا يلزم، ج ٢، ص ٦٤٣) في قصيدة بعنوان (كل عقل نبي)، وأشار إلى الأعمال السيئة التي كان يقوم بها وتغريه بالناس البسطاء، وقد ورد في قصيدته:
غرکم بالخلاف أصفر قيس برهه ثم أصفر تغلبي

ومطلعها:

صغريء من بعد رجبي فأنظرن أين جاء ذاك الحبي

والجدير بالذكر أنه ورد في الديوان "ثعلبي" بدل تغلبي، وهو خطأ مطبعي وإسم "أصفر" بالفاء.

(٢٢) إبن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٠٨.

ذكره المقدسي الذي عاش في القرن المذكور، حيث قال بصدد أموال التجارة التي كانت تصل الى بغداد: "... ومن آمد ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي" (٢٣). وقد أشار (إبن حوقل) معاصر المقدسي الى التجارة البيزنطية (الرومية)، التي كانت ترد الى كُردستان. فقد ذكر أثناء حديثه عن أهمية جزيرة بوتان (جزيرة ابن عمر) التجارية: إن هذه المدينة الواقعة على ضفة (دجلة) محطة للتجارة البيزنطية والأرمنية... (٢٤).

أما مدينة نصيبين (نصيبين)، فحديثها مشهور في كونها محطة لنقل التجارة الشرقية الى البلدان الغربية قبل الميلاد، وقد ورد إسمها في الإتفاقيات التجارية بين الفرس والرومان (٢٥).

ولا بد إن التجارة البرية من والى البلاد البيزنطية قد نشطت عن طريق كُردستان وسورية في العهد الدوستكي، لاسيما عن طريق كُردستان. والسبب كون ذلك الطريق أسلم الطرق للقوافل التجارية لإستتباب الأمن والإستقرار في الدولة الدوستكية وعلاقتها الودية مع الدولة البيزنطية. في حين أن هذين العاملين لم يكونا بنفس المستوى في شمال سورية أي نصيبين - حلب - الرقة - آسيا الصغرى (الأناضول) كما هو معلوم من تاريخ المنطقة في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

هذا فضلاً عن إن الذي ذكرناه ينطبق على ما قبل سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣٢م)، أي قبل سيطرة الدولة البيزنطية على الرها. فبعد إمتداد نفوذ تلك الدولة إليها أصبحت طريق نصيبين - الرها أقرب الطرق التجارية وأقصرها. كما ينطبق ذلك على فترة توسع السلاجقة في عهد آلب أرسلان في بلاد الشام وإحتلالهم بعض الأراضي البيزنطية المجاورة لشمال سورية، لأنهم بعد تغلغلهم هناك عرقلوا المواصلات وشلوا الحركة التجارية مع الدولة البيزنطية. وأخيراً فإن التعامل الواسع بالدينار البيزنطي في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي لهو خير دليل على الروابط والعلاقات الإقتصادية بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية (٢٦).

(٢٣) محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٤٠.

(٢٤) إبن حوقل محمد بن علي النصيبى، صورة الأرض، ص ٢٢٤.

(٢٥) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٧٠. ستيفن رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ١٩٦.

(٢٦) راجع موضوع النظام المالى.

العلاقات مع الدولة السلجوقية

إن تاريخ وصول أولى طلائع السلاجقة^(١) إلى كُردستان الوسطى كان في عام (٤٣٣هـ = ١٠٤١م)، حيث دخلت القبيلة السلجوقية المعروفة بالغز (أوغوز) إلى البلاد الدوستكية وقامت فيها بأعمال السلب والنهب، وكان من نتائج تلك الغارة بداية الإتصالات بين الدولة الدوستكية والسلجوقية. فقد أرسل نصرالدولة كتاباً إلى السلطان طغرل يشتكى من إغارة الغز على بلاده وإقترافهم أعمالاً شنيعة في السلب والنهب والتخريب... فرد طغرل على رسالته بأخرى رقيقة أظهر فيها العطف والتقدير نحو رسالته وجاء فيها:

"بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادكم وأنك صانعتهم بمال بذلته لهم وأنت صاحب ثغر ينبغي أن تعطي ما تستعين به على قتال الكفار"^(٢)، ووعده بأنه سيرسل من يطرد الغز من بلاده. ولم نعثر على إتصال آخر بعد التاريخ المذكور إلى سنة (٤٤١هـ = ١٠٤٩م). ففي هذه السنة أوفد نصرالدولة مندوبه الشيخ أبا عبد الله بن مروان لعرض وساطته عليه في إطلاق سراح ملك الأبخاز (قاريط)، وكان إبراهيم ينال قد أسره في إحدى حملاته على قفقاسيا، فأطلق طغرل سراحه دون مقابل^(٣) وإحتراماً لنصرالدولة وإستجاباً لصدقاته، ولعله كان ينوي تكليفه بالإنضمام إليه وربطه بحمايته. وقد تحقق له ذلك حيث أعلن رسمياً في نفس السنة تبعيته له. وشعار ذلك هو إقامة الخطبة لطغرل في بلاده^(٤). أما الأسباب التي دفعت بنصرالدولة إلى ذلك، في الوقت الذي كان نفوذ السلاجقة بعيداً عن بلاده ولم يعبر بعد جبال (زاغروس) ولم يصل حتى إلى كُردستان الجنوبية والعراق وأذربيجان، فمجهولة بالنسبة إليّ. ورغم إهتمامي بهذه النقطة الحساسة من تاريخ الدولة الدوستكية وتاريخ علاقاتها مع الدولة السلجوقية، إلا أنني لم أستطع أن أستنتج لها سبباً مقبولاً من خلال دراسة

(١) السلاجقة شعب طوراني نزح في القرن الربع الهجري (العاشر الميلادي) من أواسط آسيا إلى الشرق الأوسط واعتنق الإسلام وعُرف بهذا الاسم نسبة إلى زعيمه (سلجوق). كان السلاجقة قوماً ذوي بأس شديد متصفين بالشجاعة والصلابة، إستولوا على إقليم خراسان (أي أفغانستان) وإيران والعراق وكُردستان وبلاد الشام. وتوسعوا في آسيا الصغرى ومهدوا السبيل للأتراك العثمانيين للقضاء على الدولة البيزنطية. وقد لعب السلاجقة دوراً مهماً في سياسة الشرق الأوسط، ويعتبر (طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق) المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية، التي بلغت أوج عزها في عهد ألب أرسلان وإبنه ملكشاه. وبعد وفاة الأخير كثرت الخلافات العائلية على الحكم مما أدى إلى ضعف الدولة إلى أن زالت عن الوجود في إيران والعراق وكُردستان.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣٤. ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٢٦٠. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية ص١٣٦-١٣٩. (الثغر) الحدود أي يقصد بها حدود بلاد إسلامية متاخمة لحدود دولة غير إسلامية، كالمناطق الكُردية المتاخمة للدولة البيزنطية.

(٣) الكامل، ج١٠، ص٢٨. راجع أيضاً بصدد أسر قاريط زبني دحلان، الفتوحات الإسلامية. ص٣٣٨.

(٤) الكامل، ج١٠، ص٥٥٦، طبعة بيروت. وفي Türkiye Anasiklopedisi ج١٣، ص٣٨٤. ان الخضوع للدولة السلجوقية كان في سنة ١٠٤٧م (٤٣٩هـ) وهو غير صحيح.

الظروف الداخلية والخارجية للدولة الدوستكية. إذ لم أجد في أي من المصادر التاريخية ما يلمح الى وجود خطر خارجي على الدولة الدوستكية من قبل الدولة البيزنطية أو إحدى جاراتها في التاريخ المذكور، حتى يصح القول بأن نصرالدولة إضطر بسببه الى ربط دولته رسمياً بالدولة السلجوقية للإحتماء بها. وهذا على الرغم من إعتذاره للشيرازي بأنه أطاع السلاجقة "درءً لنفسه ومداراة لوقته".

أما توجيه الإمبراطور قسطنطين التهديد الى نصرالدولة قبل ذلك بسنتين بسبب أعمال (أصفر التغلبي) في الحدود البيزنطية وتوتر العلاقات بينه وبين الأمير قرواش سنة (٤٤٠ = ١٠٤٨م)، فلا أظن بأنهما دفعا بنصرالدولة لأن يكون أول من يقدم الطاعة للسلجوقيين بين ملوك المنطقة الصغار كإبن عقيل وقرواش والأميرين الكرديين الروادي والشدادي، وذلك لأنه كان قد حل خلافاته مع قسطنطين وقرواش. فأما أن يكون إستباق نصرالدولة الى تقديم الطاعة للدولة السلجوقية بعد نظر منه وتنبؤاً بالمستقبل القريب الذي سيجعل من السلاجقة سادة الشرق ويخسف بالدولة البويهية الى الزوال، أو أنه أراد أن يتقوى أمام الدولة البيزنطية وغيرها، أو أن ذلك خطأ إرتكبه إعترف به في كتابه الذي أرسله سنة (٤٤٨ = ١٠٥٦م) الى (المؤيد في الدين الشيرازي) ممثل الدولة الفاطمية في حركة (أبي الحارث البساسيري). فقد أشار الشيرازي الى بعض محتويات كتاب نصرالدولة في كتابه الجوابي الطويل، إذ ذكر نصرالدولة في كتابه: "انه كان في جملة من أجاب التركمانية الطاغية درءً لنفسه ومداراةً لوقته ظناً أنهم من أجناس البشر الذين يرعون حرمة ويرقيون في مؤمن إلا ذمة، فكشف له الزمان عن شرهم وظلمهم وجورهم وإطلاقهم الأيدي في الأموال والحريم... ما إقتضى التخلي عنهم والبراءة... منهم" (٥).

قد وأكد المؤيد إن نصرالدولة كان أول من قدم الطاعة في المنطقة للسلاجقة ومد نفوذهم الى بلاده، ثم ندم لما علم أنهم يطمعون في الإستيلاء على بلاده، حيث قال:
"وكان إبن مروان أول من إستجاب للدولة التركمانية في الديار وشرع في سطوع دخان هذا النار، فشخصوا بأبصارهم الى معاقله وحصونه ينصبون عليها في حيلة التملك الإرصاد وسلم المكر والفساد. وطار كرى الطمأنينة لما أحس ذلك من عينيه وعلم أنهم يحسنون المناغصة (المخاصمة) فيما يؤدي الى حينه، فنفض عن الرصد أمر مرابطها من الأعاجم قدمهم والأحداث ولم يدع بها إلا من لاتطول اليه يد الشبهة ولا يقع في كفة ميزان الظنة" (٦).

هذا وإنما أتيت بهذا المقتطف من كلام المؤيد الشيرازي لأنني أستنتجت منه نقطة هامة لم يشر إليها أي مصدر تاريخي، إذ يشير بقوله: "ينصبون عليها في حيلة التملك الإرصاد... " وقوله "فنفض (أي نصرالدولة) عن الرصد أمر مرابطها من الأعاجم... الخ". هو أن نصرالدولة جاء بمرتزقة من السلاجقة وجعلهم حراساً في المناطق الحدودية، أو أن الدولة السلجوقية أفنعت نصرالدولة بالسماح لقوات

(٥) سيرة المؤيد، ص ١٠٨. خطاب المؤيد الى نصرالدولة.

(٦) سيرة المؤيد، ص ١٣٧.

سلجوقية بالمجيء الى بلاده لحراسة الحدود الدوستكية المتاخمة للدولة البيزنطية. غير إن نصرالدولة لما عرف بسوء نوايا السلاجقة وأطماعهم في بلاده قام بحملة تطهيرية في (الأعاجم)، أي في صفوف أولئك السلاجقة، فطرد من إشتبه بهم منهم أو طردهم كلهم ولكن لا نعلم متى أرسلت الدولة السلجوقية تلك القوات أو متى قدم أولئك السلاجقة الى الحدود الدوستكية - البيزنطية. وهذا يذكرني بما قاله ابن الأثير من أن الملك البويهى (أبا كاليجار) توجه سنة (٤٣٩هـ = ١٠٤٧م) الى دياربكر لطرد السلاجقة الموجودين هناك، وإن الملك طغرلبك أخذ يهدد الملك البويهى لإيقاعه بأصحابه في دياربكر (٧).

بعد أن تبين لنصرالدولة ظلم السلاجقة ونواياهم السيئة تمنى التخلص من نفوذهم وتبعيته لهم، ولكنه كان يخاف من قوتهم وبطشهم. فقد كان غير واثق من نجاح حركة البساسيري وسمودها أمامهم، ولهذا فإنه في الوقت الذي أرسل فيه مندوبه (الشيخ أبي حسن بن بشر) الى مصر وتوالت إتصالاته بممثل الدولة الفاطمية المؤيد في الدين، لم يقطع إتصالاته نهائياً بالدولة السلجوقية. إذ لم يقطع خطبة الملك السلجوقي رغم ضغط الجانب الفاطمي متخذاً بذلك طريقاً للإلتسحاب في حالة إنتصار السلاجقة. فكان موقفه من النزاع ما مر ذكره بإسهاب، غير إن طغرل لم يقبل من نصرالدولة إتصالاته وتفاوضه مع الجانب الفاطمي وإرسال بعض قواته بعد (معركة سنجار) للإشتراك في الحركة، ولهذا فإنه إثر نجاحه في شلّ القوات الموالية للدولة الفاطمية، أي قوات البساسيري سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) وإلقائه مئات من الأسرى العرب تحت أرجل الخيل وقتلهم بهذا الأسلوب الشنيع في نصيبين، توجه نحو البلاد الدوستكية للإنتقام من نصرالدولة وحاصر مدينة الجزيرة (٨).

أما نصرالدولة، فقد إستخدم إمكانيته المالية والدبلوماسية لإقناع الملك السلجوقي بأعداره والخروج من بين يديه سالماً. فأرسل إليه مبالغ نقدية ضخمة وهدايا. ولكنه كان قد إتخذ أيضاً تدابير للمقاومة إذا ما دعت الضرورة، وذلك في حال عدم نجاح طريقته السلمية وفي حالة تصميم الملك السلجوقي على إحتلال كُردستان الوسطى. فقد إتصل نصرالدولة بالممثل الفاطمي وطلب منه المساعدة العسكرية، فأمر الأخير (إبن الوثاب) النميري بحشد قواته وأرسل الى أبي الحارث البساسيري للتهيؤ لمساعدة نصرالدولة، كما أطلع نصرالدولة على تلبية طلبه. غير أنه نجح في مفاوضاته مع طغرل بقوة المال، ففك هذا الحصار عن (جزيرة بوتان) ورجع عن البلاد الدوستكية. ولنسمع من المؤيد، وهو في غمرة الأحداث، يسرد علينا ما كتبه في هذا الصدد وهو ينتقد نصرالدولة على موقفه إنتقاداً لا ذعاً:

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤٦. طبعة القاهرة. يحتمل أن نصرالدولة إستخدم في سلك قواته المسلحة مرتزقة سلجوقيين لا عن طريق إرسال الدولة السلجوقية إياهم إرسالاً مباشراً.

(٨) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣١٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢١١. تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ٣٥٧. الدكتور علي أكبر، تاريخ إسلام، ص ٢٤٧ باللغة الفارسية. من الجدير بالذكر هنا التنبيه الى أن ابن الأثير ذكر الحادثة في حوادث سنة ٤٤٨هـ، ولكنه نبه على أنها كانت في السنة التالية. أما على أكبر، فقد ذكرها في سنة ٤٤٧هـ وأضاف الى أنه توجه الى دياربكر بعد أن أخذ الموصل من المروانيين فوقع هنا في خطأين.

"... وكان التركماني (أي طغرل) بعد أن فلّ الجمع بحد مكره لا بحد سيفه، أصدع الى دياربكر ليعصر (ابن مروان) عصراً يستخلص بها دهنه، فإتصلت كتبه ورسله يقول: "أدركوني من قبل التمزيق وخلصوني من هذا المضيق". فأصعدت الى تلقاء (الرقّة) فإستدعيت ابن وثاب ووافقته على الإحتفال والإحتشاد وجمع العشيرة ليرحل أبو الحارث في أترাকে وعريه وأكراده ويعبروا الفرات وتجمع الجموع لميقات يوم معلوم في مكان معلوم، لينفروا الى التركماني خفاً وثقلاً مستظهريين عليه بحول الله وقوته ومنتكليين عليه إتكالاً.

ولما تحرر هذا الأمر كاتبت ابن مروان بمشروع هذا التقرير، وأبا الحارث في معنى الحث على المسير. فورد الكتاب على ابن مروان وقد علقت النار ذيله ونال منه الدعك (أي الخضم) نيله، ولم يكن له جنان يصابره على الخسف والتوقع لأن يغسل عنه العار بالسيف، فجعل يمسك رسلنا على تواليهم عنده ويعقد للسلم مع التركماني عقده، بأن يخرج كرائم ما يملكه إتاوة ولا يباشر كرهية الحرب ما يجعل على بصره غشاوة، وذلك دأب طلاب السلام وأصحاب الزاوية والعافية" (٩).

ولما علم أبو الحارث البساسيري الذي تهيأ لمساعدة نصرالدولة بمفاوضاته مع طغرل، رجع من الرحبة الى (بالس) على مسافة يومين شرق حلب ومعه قريش بن بدران العقيلي. ورجع المؤيد الى حلب ومنها عاد الى مصر. أما السلاجقة فقد عاثوا في المنطقة فساداً وإلتفوا حول البلاد الدوستكية جنوباً وغرباً وشمالاً ووصلوا الى مدينة ملاطية ونهبوها وقتلوا فيها عشرة آلاف شخص (١٠).

وفي عهد الأمير نظام الدين تدخلت الدولة السلجوقية في الخلافات التي نشبت بينه وبين أخيه الأمير سعيد الذي لجأ إليها. ففي المرة الأولى أرسل طغرل قواتاً سلجوقية مع الأمير سعيد الى فارقين، ثم رجعت تلك القوات إثر حل الخلاف وبعد أن دفع نظام الدين مبلغ (خمسين ألف) دينار لقائدها. وفي المرة الثانية عاد الأمير سعيد بمعية السلطان ألب أرسلان سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م)، وكان السلطان قد وعده بإزاحة أخيه عن الحكم وجعله في مكانه، غير إن الوزير نظام الملك الطوسي أقنع السلطان بالعدول عن رأيه، وكان السلطان نازلاً في الحرشفية بقرب دياربكر وإنتهى الخلاف بإقطاع الأمير سعيد مدينة دياربكر (١١). وكان السلاجقة يطمعون في خيرات كُردستان الوسطى وأموال ومجوهرات العائلة الدوستكية الحاكمة، وكانوا يستحصلون من الدولة الدوستكية بين حين وآخر مبالغ من النقود. فقد قدم نصرالدولة الى طغرل مرة (١٠٠) ألف دينار. كما أرسل السلطان السلجوقي الأمير الكُردى أبا الهيجاء ابن موسك صاحب أربيل الى الأمير نظام الدين او ابنه

(٩) سيرة المؤيد، ص ١٦٩.

(١٠) تاريخ الرهاوي المجهول، ص ٢٣. نسخة مطبوعة بالآلة الطابعة بجمع اللغة السريانية ببغداد. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج ١، ص ٩٤.

(١١) الفارقي، ص ١٨١. في تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٩، لعماد الدين الأصفهاني. إختصار الفتح بن علي البنداري، أن نظام الدين قدم الى ألب أرسلان مائة ألف دينار فقبلها. وقيل أنه لما علم أن نظام الدين جمع ذلك المبلغ من الناس لم يقله وردة إليه.

ناصرالدولة، طالباً منه مبلغ (٣٠) ألف دينار (١٢).

وحيثما قطع عنهم ناصرالدولة ببخله الشديد الهدايا والأموال، التي تعودوا إستلام مثلها من أسلافه. إشتد غضب السلطان ملكشاه لاسيما بعد رفض الإستجابة لطلبه بإهدائه سبحة جده ناصرالدولة التي كانت أثنى وأعلى سبحة في التاريخ والتي تبلغ قيمتها (٢٢٥) ألف دينار وسيف الأمير البوتاني موسك بن المجلى المشهور (١٣). فما كان من ملكشاه إلا أن أرسل جيوشه الى كُردستان الوسطى سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) لإحتلالها والقضاء على الدولة الدوستكية، وأخذ يعزز جيشاً بجيش الى أن إنتهى الدفاع المجيد، الذي لم يكن في حسابان السلطان ووزيره وذلك في سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٦م). وإثر وفاة ملكشاه في (شوال ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) وصل الأمير ناصرالدولة الى كُردستان من منفاه بالعراق وإسترجع العاصمة فارقين وأحيا الدولة، ولكن السلاجقة قضا عليها بعد خمسة أو ستة أشهر وذلك في سنة ٤٨٦هـ = ١٠٩٤م (١٤).

وكانت هذه هي حقيقة السياسة السلجوقية، التي تميزت بالقسوة إزاء شعوب البلدان التي وقعت تحت سيطرتهم من الحدود الصينية (تقريباً) الى البحر الأبيض المتوسط. وقد تميزت تلك السياسة بجعل خيرة المناطق المحتلة إقطاعات عسكرية للقواد السلاجقة، ولكن سياسة الب أرسلان وإبنه ملكشاه كانت لينة الى حد ما.

في ضوء هذه الحقيقة أرى بأن ما قاله المقدم عبدالوحيد الپاكستاني بصدد العلاقات السلجوقية - الكُردية غير صحيح. فقد ذكر في كتابه (الأكراد وبلادهم) أن فترة حكم السلاجقة...حقبية عظيمة من تاريخ الشعب الكُرد. وفي خلال حكم ملكشاه أخذ الحكام السلاجقة يتوددون الى القبائل الكردية. كما قال إنه خلال العصر السلجوقي لم تُشن أية حملة ضد الأكراد ما عدا المناوشات بين الفينة والفينة، وإن الوزير نظام الملك قد أقطع أغوات الأكراد أراض مستقلة وتمتع هؤلاء بالإستقلال التام

(١٢) أسامة بن المنقذ، الإعتبار، ص ٨٧، ٨٨. تحدث بذلك لأسامة الأمير فضل بن أبي الهيجاء وقال إن ملكشاه هو الذي أرسل والده الى ابن مروان لما وصل الى بلاد الشام. ولكنه لم يذكر من هو ابن مروان صاحب دياربكر، هل كان نظام الدين أم منصوراً؟ علماً بأنني لم أجد في أي مصدر من المصادر التاريخية قيام ملكشاه بالسفر الى بلاد الشام في عهد نظام الدين أو منصور، ولعله كان غيره من السلاجقة البارزين أو تُتَشُّ بن ألب أرسلان أو ألب أرسلان نفسه. وقال أسامة الذي ذكر الحادثة بعنوان: (تعقل صاحب دياربكر) أن ابن مروان أحرأ أبا الهيجاء عنده لعدة أيام ثم سلمه المبلغ وقال له إنني أخرجتك إذ لو إستقبلت السلطان بهذا المبلغ لطلب مني حينما دنا من بلادي أضعاف ذلك فأردت أن يتجاوز السلطان من بلادي ثم تلحقه بالمبلغ كي لا يطلب المزيد.

(١٣) الفارقي، ص ٢١٨. راجع ذكر الأمير موسك في الدولة الدوستكية، ج ١، ص ٢٢٧. ورد في تاريخ الفارقي في وصف سيف موسك "يدب به البعير"، والصحيح يُقد به البعير أي يُقطع كما في مخطوطة الأعلاق الخطيرة (ورقة ٩٤).

(١٤) ذكر الفارقي في ص ٢٣٤، أن الأمير ناصرالدولة دخل فارقين في أول سنة (٤٨٦هـ) وكانت مدة ولاية الأخير خمسة أشهر. بينما قال في (ص ٢٣٦) أن تُتَشُّ بن ألب أرسلان) إحتل فارقين في ربيع الأول من نفس السنة. فعلى هذا أن مدة ولاية ناصرالدولة لاتبلغ خمسة أشهر. وقد ظهر لي أن تاريخ إحتلال تُتَشُّ ورد خطأ، لأن إحتلاله لفارقين كان بعد إحتلاله لنصيبين في ربيع الأول من نفس السنة.

في شؤونهم الداخلية. ويضيف المقدم عبدالوحيد نقطة أخرى غريبة حينما يقول: إن النهضة الثقافية في العصر السلجوقي قد تركت أثراً طيباً على لغة الأكراد (١٥).

(١٥) للرد على هذه النقاط لاجابة بنا لإعادة الكثير من المعلومات التي أسلفناها في هذا الكتاب، ويكفي أن نستشهد على حقيقة السياسة السلجوقية نحو الشعب الكردي، بقضاء السلاجقة على الحكومات الكردية العنابية والشداية والدوستكية، وسلخ أجزاء من الدولة الروادية وأهمها (تبريز) وتحديد مناطق نفوذها. وهكذا قضى السلاجقة على إستقلال كردستان في ظل تلك الحكومات الكردية وأخضعوا كردستان لحكمهم المباشر، ماعدا الجزء الكردي من أذربيجان الذي حكمته الدولة الروادية، والتي لم تعد منذ أواسط العهد السلجوقي تعتبر حكومة في الحقيقة بل إمارة فقط.

لعل الأمير تاج الملوك (هزارسپ بن بنكير بن عياض) المتوفي سنة ٤٦٢هـ هو الأمير الكردي الوحيد الذي وسعت الدولة السلجوقية وهي في شرح شبابها نفوذها، الى حد كبير مقابل خدماته وإخلاصه لها، فكان من كبار قادة طغرل وأمرائه المخلصين. ولهذا عينه طغرل سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) أميراً على مقاطعة اللور الكبير وخوزستان والبصرة وشيراز وضمته تلك البلاد بـ (٣٦٠) ألف دينار سنوياً، وسمح له بالخطبة لنفسه في الأحواز فقط دون المناطق الأخرى الداخلة في نفوذه. وهذا على ما قاله ابن الأثير في (الكامل، ج ٨، ص ٤٤٧). كانت زوجة (هزارسپ) أخت السلطان ألب أرسلان، كما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٢هـ، وسعيد الديوه جي في تاريخ الموصل، ج ١، ص ١٦٧، ثم تزوجها بعد وفاته مسلم بن قريش العقيلي.

ويصدد كتاب (الأكراد وبلادهم)، الذي يعد أول كتاب يؤلف عن الكرد في باكستان والذي أطلعني عليه في هذه الأيام (أدار عام ١٩٧٢) الأخ السيد محمد نوري فتاح الكركوكي أمين المكتبة العامة في بعقوبة، في نطاق مساعداته المشكورة لنا بالمصادر، نقول إنه ألف سنة ١٩٥٤ وصدراً أولاً باللغة الإنكليزية، ثم تُرجم الى العربية وقدم له محمد أيوب خان الرئيس السابق لباكستان. ورغم وجود أخطاء كثيرة فيه مع ضعف أسلوبه، إلا أنه جدير بالإهتمام ولا سيما ما يذكره بخصوص قبيلتي (باويندا) و(غيلزاي) الكرديتين على حد قوله في أفغانستان، وكذلك بخصوص تأكيده على أن شعب البلوج في باكستان وإيران من أصل كوردي. ويقارن المؤلف بين قبائل كوردية وقبائل أفغانستان وباكستان ويقول بالتشابه الكامل بين الكرد وشعب (باتان - بختان)، الذي يسكن المنطقة الشمالية الغربية من باكستان والذي يناضل منذ مدة في سبيل إستقلاله.

العلاقات مع الدولة العَقيلية

كانت الدولة العَقيلية^(١) بالموصل دولة صغيرة مجاورة للدولة الدوستكية، وكانت تربط بينهما روابط سياسية وإقتصادية. وإذا ما تصفحنا تاريخ الدولتين لمسنا تلك الروابط. ففي المجال الإقتصادي كانت عاصمتها (الموصل)، مثل مدينة حلب في شمال سورية، إحدى أسواق كُردستان. إذ كانت ترد إليها التجارة الكُردية والأرمنية عن طريق كُردستان لا في العهد الدوستكي فحسب، بل في شتى العصور التاريخية كذلك. والطرق التي كانت تربط بينهما بشكل رئيسي كانت ثلاثة: طريق دجلة المائي، طريق شرقي دجلة المار بالجزيرة وزاخو، وطريق نصيبين - الموصل هذا من جهة. ومن جهة أخرى كانت الموصل تزود كُردستان بالكثير من البضائع والأموال التجارية.

وأما من الناحية السياسية، فقد إتسمت العلاقات بين الدولتين بصورة عامة بالتعاطف والصداقة والتآزر، رغم ما كان يحدث بينهما أحياناً من التصادم نتيجة لأطماع العقيليين في الأراضي الدوستكية وتجاوزاتهم على حدودها.

ولما كانت للصداقة العَقيلية أهمية كبيرة للدولة الدوستكية، فقد قوى الأمير نصرالدولة علاقاته بها عن طريق المصاهرة، حيث تزوج بـ(السيدة) بنت اللأمير قرواش بن المقلد، الذي تولى الحكم من سنة (٣٩١-٤٤٢هـ). وكان كل من الأميرين ينبري لمساعدة الآخر أثناء تعرضه لتهديد خارجي أو داخلي. ففي سنة (٤١٧هـ = ١٠٢٦م) قدم نصرالدولة مساعدة عسكرية لصهره قرواش ضد أخيه بدران المنازع له على الحكم^(٢). وقد طمع بدران في نصيبين سنة (٤١٩هـ = ١٠٢٨م) وهاجمها وإشتبك مراراً بالقوات الدوستكية. ولما لم يرق لأخيه قرواش مهاجمة نصيبين وتكوين نفوذ له، فقد تحرك من الموصل لنجدة القوات الدوستكية غير أنه لم يدرك القتال بسبب تراجع بدران. وقد ذكر لنا إيليا برشنايا في تاريخه (ص ٢٠٥) ما يدل على أن العلاقات بين الطرفين ساءت ونشب قتال بين

(١) لمع نجم بني عقيل العرب نتيجة مساعدة أميرهم محمد بن المسيب للحمدانيين في حربهم مع مؤسس الدولة الدوستكية الأمير (ياد بن دوستك). وكان لمساعدته سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) أكبر الأثر في إلحاق الهزيمة بالجيش الكُردى وقتل الأمير ياد على أبواب الموصل. وكان الحمدانيون قد وعدوا ابن المسيب مقابل مساعدته بإقطاءات منها مدينة الجزيرة ونصيبين في حالة إنتصارهم على الأمير الكُردى والقضاء على الدولة الدوستكية. ولكن لم تتحقق آمالهم حيث سحق الأمير أبو علي بن مروان جيشهم وأسر للمرة الثانية أبا عبدالله الحمداني. فوجد ابن المسيب فرصة مؤاتية فقتل أبا طاهر الحمداني بنصيبين وتوجه نحو الموصل وإحتلها وأسس دولته العَقيلية، التي دامت من سنة ٣٨٠هـ حتى سنة ٤٨٩هـ. ولكن في فترات متقطعة نتيجة إحتلال أعدائهم لبلادهم مراراً. ولم تكن لدولتهم حدود ثابتة عدا حدودها المتصلة في الشمال بالحدود الدوستكية. وكان نفوذها في تمدد وتقلص بين حين وآخر. فقد توسعت حدودها في عهد المقلد بن المسيب (٣٨٦-٣٩١هـ) في الجنوب، كما توسعت في عهد مسلم بن قريش (٤٥٣-٤٧٨هـ) حتى شملت حلب وأعمالها. وكان نفوذها قد وصل نصيبين سنة ٤٢١هـ. وأخيراً قضى السلاجقة على الدولة العَقيلية في عهد ملكشاه، كما قضوا على الدولة الدوستكية.

(٢) ابن الأثير، الكامل، حوادث السنة المذكورة.

الجانبيين، تمكن خلاله القائد دوستكي (عيسى بن خلاط) من أسر الأمير العقيلي في طورعبدین وجلبه الى فارقين مكبلاً بالقيود، وذلك في ٢٨ ذي القعدة سنة (٤٠٤هـ = ١٠١٣م). غير إن نصرالدولة قابله بالحسنى وأكرمه وأعادته الى دياره بسلام. هذا ومن المحتمل جداً أن الأمير العقيلي المذكور كان الأمير (بدران)، الذي كان يطمع في نصيبين أو في أراضٍ دوستكية أخرى، حيث كانت نصيبين في يده آنذاك.

وقد ذكر إيليا مطران نصيبين في تاريخه (ص ٢٠٥) ما يدل على أن نصيبين كانت تحت سيطرة أبي الفضل (بدران) بن حسام الدولة (مقلد) سنة (٤٠٨هـ). حيث قاتل سكان نصيبين وتغلب عليهم وقتل منهم جماعة وصادر جماعة، وذلك بعد أن قتل سكانها (أبا الحسن بن يسرايل) الكاتب النصراني. فسخط لذلك على سكان نصيبين وبدأ في عمارة قلعتها في نفس السنة. ونستنتج مما قاله إيليا أن أبا الحسن كان نائباً لبدران في نصيبين أو كان في وظيفة أخرى من قبله، وأن سكان نصيبين ثاروا عليه وكانوا يريدون إعادة المدينة الى السلطة دوستكية هرباً من ظلم بدران. ولست أدري كيف إستولي العقيليون على هذه المدينة التي كانت تحت السيطرة دوستكية سنة (٣٩٧هـ). لأن مهادالدولة ضرب النقود في تلك السنة، كما سيأتي ذلك في موضوع (العملة دوستكية). كما توجد نقود للدولة العقيلية مسكوكة بنصيبين أيضاً بعد سنة الأربعمئة الهجرية. ومن المحتمل بأن العقيليين قد إستولوا على المدينة سنة (٤٠١هـ) عند اضطراب الوضع، إثر مقتل مهاد الدولة. ويتضح من (مجالس إيليا) (٣) إن نصيبين كانت تحت السيطرة دوستكية سنة (٤٧١هـ)، حيث ورد أن نصرالدولة زارها مرتين في تلك السنة، وكان وزيره أبو القاسم المغربي برفقته في إحدهما، وبأن الوزير أيضاً زار المدينة مرتين كانت زيارته الأولى في ٢٦ جمادى الأولى من تلك السنة، ومكث فيها خمسة وخمسين يوماً في الزيارة الثانية. وقد خاض الوزير العالم مناقشات علمية مع إيليا، الذي دون تلك المناقشات باسم (الرسائل الجدلية)، على ما مر بالتفصيل في الجزء الأول من ص ١٩٠-١٩٥. وزارها أيضاً سنة (٤١٨هـ) لذا فمن المحتمل جداً بأن الدولة دوستكية قد إسترجعت نصيبين سنة (٤١٧هـ) (٤).

(٣) مجالس إيليا: نسخة مخطوطة في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت الرقم (١٠٦٨)، الورقة الأولى. ذكر ابن الأثير في الكامل: حوادث سنة (٤٧١هـ) أنه حدث قتال بين قرواش وبدران في منطقة (بلد)، وكان ابن مروان أي نصرالدولة قد ساند قرواشاً بقوات. وكان لبدران أيضاً مساندة من آخرين. لكن الفريقين تصالحا أثناء المعركة الضارية وسلم قرواش مدينة نصيبين الى أخيه بدران. ومن المحتمل أن ذلك كان في أوائل السنة المذكورة، وأن نصرالدولة إستولى على المدينة إثر ذلك، حيث زارها الوزير أبي القاسم المغربي في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها. أو أن المعركة وتسليم نصيبين الى بدران كانتا قبل السنة المذكورة، والرأي الأول هو الأرجح. لأن الزيارات المتكررة من نصرالدولة ووزيره في نفس السنة ومكوث الوزير فيها مرة ما يقارب الشهرين، توحى بوجود أمر هام ووجود أخطار. لقد نقل هذه الحادثة أستاذي سعيد الديوه چي في تاريخ الموصل، ج ١، ص ١٦٠. وخاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص ١٢١. وذلك نقلاً عن ابن الأثير قوله أن نصرالدولة إستولى عليها سنة (٤١٨هـ)، وكان ياد الكردي أعطاها مع الجزيرة لمحمد بن المسيب ليساعده في الحروب وهو غير صحيح.

(٤) في الأعلات الخطيرة، ورقة ٤١، ان نصرالدولة إستولى عليها سنة (٤١٨هـ) وكان ياد الكردي أعطاها مع الجزيرة لمحمد بن المسيب ليساعده في الحروب ولكن هذا غير صحيح.

وكانت نصيبين تحت السيطرة الكرديّة حتى سنة (٤٢١هـ = ١٠٣٠م) حيث جرد الأمير قرواش (من عاصمة الموصل) جيشاً بقيادة أخيه بدران لمحاصرة نصيبين كما جرد جيشاً آخر على مدينة الجزيرة وحاصرها ولكنهما فشلاً في النيل من المدينتين. وإثر هذا الفشل توجه بدران إلى العاصمة الدوستكية معتدراً فسلم إليه نصرالدولة مدينة نصيبين كما أرسل خمسة عشر ألف دينار إلى قرواش (٥).

وهكذا إنتهت الخلافات وعاد الوثام بين الطرفين حتى نرى الأمير العقيلي قرواش يرسل إلى نصرالدولة قوات عسكرية لشد أزره، عندما أغار ابن الوثام التميري والقوات البيزنطية في أورفا (الرها) على بلاده سنة (٤٢٦هـ = ١٠٣٤م). وأدت مساعدة العقيلي وغيره إضافة إلى تحشدات القوات الكرديّة إلى هزيمة القوات المغيرة وتقديم الإمبراطور (ميخائيل الرابع) إعتذاراً إلى نصرالدولة (٦). كما إن الأمير العقيلي وقف إلى جانب الدولة الدوستكية عندما هددها نائب الدولة الفاطمية في بلاد الشام (أنوشتكين الدزيري) بالغزو، كما وقفت بجانبها الإمارة النميرية (٧).

فتكون لذلك من الأطراف الثلاث الحلف الثلاثي كما ذكرنا سابقاً. وفي سنة (٤٤١هـ) ساعد نصرالدولة والأمير الكردي (أبي الحسن بن عيسكان) أمير عقره، قرواش في قتاله مع أخيه أبي كامل (بركة) في معلثايا (ملطا الحالية بجانب مدينة دهوك).

وفي عهد الأمير قريش بن بدران (٤٤٣-٤٥٣هـ) ساءت العلاقات بين الطرفين، فقد قتل قريش في هذه السنة عمه العجوز قرواش، الذي كان نصرالدولة يعطف عليه، وهاجم مدينة الجزيرة أيضاً سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) إثر مقتل الأمير سليمان (أبي حرب) بن نصرالدولة من قبل الأمير الكردي عبيدالله بن الأمير أبي طاهر البشنوي أمير فنك، متهماً إياه بإعطاء السم لوالده. فقد وجد قريش هذه الحادثة فرصة للإتصال بالباشنويين والإتفاق معهم ومهاجمة الجزيرة، غير إن الأمير نصر (نظام الدين) بن نصرالدولة إنتصر في معركة حامية على قريش، الذي أصيب بجرح بالغ وألحق الهزيمة به وبمن ساندته من الكرد البشنويين (٨).

أما العلاقات في عهد الأميرين ناصرالدولة منصور وشرف الدولة مسلم بن قريش (٤٥٣-٤٧٨هـ)، فقد إتسمت بالتعاون والدفاع المشترك بين الطرفين ضد الغزو السلجوقي. فعندما زحفت الجيوش السلجوقية على الدولة الدوستكية وقف شرف الدولة بجانبها وخاض معركة عنيفة بالقرب من مدينة دياربكر (آمد)، وذلك سنة (٤٧٧هـ = ١٠٨٥م). بيد أن السلاجقة هزموا جيش الأمير شرف الدولة هزيمة وأسروا قسماً منه وسبوا النساء والأطفال. أما الأمير مسلم، فقد إعتصم بمن نجا من

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣٨. ابن خلدون، العبير، ج٤، ص٢٦١. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٧١. توفي بدران سنة (٤٢٥هـ).

(٦) ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة ٤٢٦هـ. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكرديّة، ص١١٣.

(٧) الكامل، ج٩، ص١٦٠. العبير، ج٤، ص٣١٨. سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٠.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢١٠. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨١. ابن خلدون، العبير، ج٤، ص٣١٩. زاد ابن خلدون على ابن الأثير وأبي الفدا إستمالة قريش للكرد الحسنية أيضاً، والمقصود بهم كرد زاخو (الحسنية)، التي كانت جزءاً من البلاد الدوستكية. راجع العبير حوادث سنة (٤٤٧هـ).

رجالها بالمدينة ثم خرج منها سراً بعد إتفاق سري مع القائد السلجوقي (أرتق) على مبلغ من المال^(٩). ولما سمع ملكشاه نبأ محاصرته لم يشك في أسره وبقاء بلاده بلا أمير كفاء. فتوجه على رأس قوات ضخمة من أصفهان في إيران نحو الموصل وكردستان الوسطى لإحتلال دولة بني عقيل والتعجيل بإحتلال الدولة الدوستكية. وكانت الدولة العقيلية آنذاك تمتد من الموصل حتى (حلب). فإحتلت طلائع جيش السلطان الموصل فعلاً، غير أنه بسماحه تمرد أخته (تكش) في إقليم (خراسان) وإفلات الأمير مسلم من الحصار إضطر إلى العودة إلى (البوازيج) الواقعة غرب كركوك من كردستان الجنوبية (كردستان العراق)، إلى إيران والتصالح مع الأمير مسلم وتطبيب خاطره^(١٠). ولعل الأمير مسلم لم ينس تأييد الدولة الدوستكية له في تسنمه الحكم إثر وفاة والده في نصيبين سنة (٤٥٣هـ)، وذلك حينما أوفدت وزيرها ابن جهير إلى بني عقيل لحل خلافاتهم حول من يتولى الحكم، وجمع آرائهم له^(١١).

كما إنه كان يقدر بدون شك مساعدة الكُرد له سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) في محاصرته (دمشق)، التي كانت تحت سيطرة (تُتَشُّ بن ألب أرسلان) أخي ملكشاه^(١٢). وقد إنتهى عهد الأمير مسلم الذي قُتل في معركة مع السلاجقة وكان أميراً مقدماً في سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٥م)^(١٣).

وقضى السلاجقة على الدولة الدوستكية أيضاً في السنة نفسها. ولما أحيا ناصرالدولة (الدولة الدوستكية) عقب وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٣م)، أبدى تعاوناً وثيقاً مع العقيليين كما تشهد به معركة (المضَيِّع) الشهيرة، التي خاضتها القوات العقيلية والدوستكية ضد غزو (تُتَشُّ). لقد أريققت في تلك المعركة الدماء العربية والكردية بغزارة، حتى قيل إن عدد القتلى من الطرفين المتقاتلين بلغ عشرة آلاف قتيل. وكانت الخسارة الدوستكية العقيلية كبيرة، حيث أسر فيها عشرون من الأمراء الذين لم يتوان (تُتَشُّ) عن قتلهم بين يديه ومن بينهم الأمير الدوستكي حسين بن نصرالدولة والأمير العقيلي إبراهيم بن قريش^(١٤).

- (٩) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٣٥. ابن إبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٦، ص ٤٧٦. عماد الدين الإصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٧٥-٧٦. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، ص ١١. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٩، ص ٦. ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٧. الفارقي، ص ١٩٣. ابن الوردي، ج ١، ص ٣٨١. خاشع المعاضدي، دولة بني عقيل، ص ١٠٨.
- (١٠) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٩. خاشع المعاضدي، دولة بني عقيل، ص ١٠٩.
- (١١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٩١، طبعة مطبعة الإستقامة.
- (١٢) نفس المصدر، ج ٨، ص ١٣٢. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٤.
- (١٣) قال عماد الدين الإصبهاني في تاريخ دولة آل سلجوق. إختصار البنداري، ص ٧٧. إن مشرف الدولة مسلم قُتل بيد خادم الدولة في الحمام.
- (١٤) ابن الأثير، تاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ١١٢. ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٢١. الفارقي، ص ٢٣٣.

العلاقات مع الإمارات العربية في شمال سورية

١- الإمارة الحمدانية

٢- الإمارة النميرية

٣- الإمارة المرداسية

إن علاقات الدولة الدوستكية بالإمارات العربية في شمال سورية تمثل جانباً من علاقات الشعب الكردي بالشعب العربي في القرون الوسطى، علماً بأن علاقات كردستان الوسطى بشمال سورية وبلاد الشام علاقات قديمة وذات أهمية تاريخية، وهي علاقات إقتصادية أكثر من كونها سياسية. فمدينة حلب كما هو معروف وتكررت الإشارة إليه سابقاً، كانت سوقاً كبيراً للمنتوجات الكردية حتى نهاية العهد العثماني.

العلاقات مع الإمارة الحمدانية في حلب

في الوقت الذي كان فيه الأمير ياد يواصل نضاله ضد الدولة البويهية، وفي خضم ظروفه الحرجة الناتجة من إندحار قواته في جنوب الموصل ووصول القوات البويهية الى الجزيرة ونصيبين (نصيبين)، تم الإتفاق بين الدولة البويهية والأمير سعد الدولة الحمداني إثر تمرد القوات البويهية على قادتها وإمتناعها عن مواصلة الزحف على البلاد التي بيد الأمير ياد ومواصلة القتال مع (١) أمير حلب ضد الأمير ياد. وكان الوزير البويهي ابن سعدان قد تعهد للأمير الحمداني بإعطائه إقليم دياربكر، إذا ما تعاون مع الدولة البويهية وإستطاع إخراج الإقليم المذكور من قبضة الأمير الكردي. وبموجب هذه الإتفاقية أرسل الأمير الحمداني قواته الى إقليم دياربكر، فأشتبكت مع القوات

(١) ينحدر الحمدانيون من قبيلة تغلب العربية، وأول خبر وجدته عنهم هو إن حمدان بن حمدون تمرد على الخليفة العباسي (المعتضد) في قلعة (ماردين) سنة (٢٨١هـ)، ولكنه إنهزم أمام قوات الخليفة، التي قادها بنفسه وبالتالي سُجن في بغداد. وبعد أن تولى (المكتفي) الخلافة جعل أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان والياً على الموصل، ثم إستقل ناصر الدولة بن عبدالله بن حمدان بالموصل، وإتسع نفوذه. ثم وسع أخوه سيف الدولة نفوذ الدولة حتى شمال بحيرة وان كما شملت معظم كردستان الجنوبية. ثم إستقل بحلب وقسم هو وأخوه البلاد بينهما. فكانت شمال سورية وكردستان الوسطى الى رستاق (أبين) المجاورة لمنطقة طورعبدين من حصّة سيف الدولة والباقي لناصر الدولة. وإنتهى حكمهم في حلب في العقد الأخير من القرن الرابع الهجري بينما إنتهى حكمهم في الموصل ودياربكر سنة (٩٧٨م = ٣٦٨هـ).

الكرديّة في قتال ولكنها إندرحت فيه وعادت من حيث أتت. وهكذا فشل الأمير الحمداني ولم يستطع أن يسيطر على إقليم ديار بكر، الذي كان في السابق تحت سيطرة والده إلى أن توفي والده سيف الدولة بفارقين سنة (٣٥٦هـ = ٩٦٦م) (٢).

هذا ما وجدناه من العلاقات (وهي عدائية) بين الدولة الدوستكية والإمارة الحمدانية في عهد ياد الكردي أي حاكمهم وملكهم وسعد الدولة، اللذان إنتهى عهداهما في سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م).

أما العلاقات في عهد الأميرين أبي علي بن مروان وأبي الفضائل بن سعد الدولة، فقد تحسنت إلى حد كبير وتطورت إلى حد المصاهرة. فقد وطد أبو علي علاقاته مع الإمارة الحمدانية عن طريق المصاهرة إذ خطب (ست الناس) أخت أبي الفضائل. ولكن بينما وصل أبو علي إلى مدينة ديار بكر لإقامة حفل زفافه فيها ونقل عاصمته إليها، ولدى وصول موكب العروس إلى المنطقة الواقعة بين ديار بكر وأورفا (الرها)، أغتيل أبو علي وأعيدت العروس إلى حلب (٣).

أما العلاقات في عهد ممد الدولة، فقد إستمرت على ما كانت عليه في عهد أخيه وتزوج بالأميرة الحمدانية المذكورة. وفي سنة (٤٠٠هـ = ١٠١٠م) قدم ممد الدولة يد المساعدة لأبي الهيجاء الحمداني لإسترجاع إمارته في حلب، التي أقصاه عنها لؤلؤ أحد موالى الأسرة الحمدانية (٤)

بعد وفاة أبي الفضائل سنة (٣٩٢هـ = ١٠٠٢م). غير أن مساعده لم تكن كافية لأنها كانت مقتصرة على مائتي فارس وخزانة (من النقود والخلع...) ومكاتبة بني كلاب أصحاب الحول والطول في حلب للإتضمام إلى أبي الهيجاء. ولعل ممد الدولة إعتمد على بني كلاب ولهذا إكتفى بهذه المساعدة القليلة. والسبب أن بني كلاب هم الذين طلبوا من ممد الدولة الإتصال بالإمبراطور البيزنطي لإرسال أبي الهيجاء إليهم ليساندوه في إسترجاع حلب. ولكن لؤلؤاً مغتصب الإمارة إتخذ تدابير موفقة. حيث تصالح مع بني كلاب ووعدهم بإقطاعات، كما إنه إتصل بالخليفة الفاطمي بمصر وطلب منه مساعدة عسكرية، فأمدّه هذا بقوات من طرابلس. ولما نشبت المعركة بين الطرفين تقاعس بنو كلاب عن نصره أبي الهيجاء، مما أدى إلى إندحاره ولجوئه مرة أخرى إلى الدولة البيزنطية، حيث توفي بالقسطنطينية (٥).

(٢) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ٨٦. ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٣. الدولة الدوستكية، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

(٣) الفارقي، ص ٧٢-٧٧.

(٤) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٢٦٠ "إبن لؤلؤ مرتضى الدولة" وهو غير صحيح.

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ١، ص ١٩٨. فيه أن أبا الهيجاء هو إبن سعد الدولة بن سيف الدولة، وفي بعض المصادر أنه إبن أبي الفضائل بن سعد الدولة.

بن مرداس وسأله الشفاعة له عند نصرالدولة، فشفع فيه وأعطاه (نصرالدولة) نصف البلد، أي الرها وهكذا تفاهم الطرفان. وبعد مقتل عطير ظلت المدينة كلها لنصرالدولة ثم إنه بتوسط من صالح بن مرداس سلمها إلى ابن عطير وابن شبل(٤).

ولما إستولى البيزنطيون على المدينة كلها، بعد أن باعهم ابن عطير حصته ونشب القتال بينهم وبين القوات الدوستكية، وقفت حينها الإمارة النيميرية إلى جانب البيزنطيين، الذين صالحهم شبيب ابن وثاب النيميري على حران وسروج وحمل إليهم الخراج(٥).

وهاجم شبيب والقوات البيزنطية الحدود الدوستكية سنة (٤٢٦هـ = ١٠٣٥م)، غير إن القوات الدوستكية طاردهم. كما إن نصرالدولة أخذ في تحشيد قوات كبيرة وتلقى مساعدات عسكرية من أصدقائه، وذلك إستعداداً لشن حملة عنيفة على الرها. ولكن نصرالدولة تراجع عن خطته بسبب إتصالات جرت بينه وبين الإمبراطور البيزنطي (ميخائيل الرابع)، حيث قدم الأخير إعتذاراً وهدايا إلى الأمير الكردي(٦).

وفي السنة التالية تحسنت العلاقات بين الدولة الدوستكية والإمارة النيميرية، حيث وقف كل من الأمير شبيب وابن عطير بجانب نصرالدولة. فقد هاجمت القوات الدوستكية والنيميرية سوية الحدود البيزنطية واحتلت سويره ك (السويداء)، كما هاجمت قوات الطرفين الرها وإشتبكت مراراً مع القوات البيزنطية.

ولما يئس الطرفان من طرد القوات البيزنطية وتحرير المدينة، تصالح الأمير النيميري مع البيزنطيين بيد أن علاقاته ظلت متينة مع الدولة الدوستكية. فقد وقف بجانبها عندما هددها نائب الدولة الفاطمية في بلاد الشام (أنوشكين الدزيري)، كما وقفت الدولة العقيلية بجانبها أيضاً وتكون من الأطراف الثلاثة الحلف الثلاثي لمجابهة الأطماع الفاطمية التوسعية أو أطماع نائبها المذكور(٧).

إستمر التعاون بين الكرد وعرب بني نيسر إلى ما بعد هذا التاريخ أيضاً، حيث تعاونوا مع نصرالدولة على تلافى أمر أصفر التغليبي حينما قبضوا عليه وسلموه إليه. وكان الإمبراطور البيزنطي قد هدّد نصرالدولة بسبب أعمال أصفر التخريبية في الحدود البيزنطية(٨).

وفي عهد الأمير منيع بن شبيب إستمرت العلاقات الودية بين الجانبين، وقد إستعد هذا الأمير

(٤) راجع موضوع العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية وأحداث الرها.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٥٣، طبعة مطبعة الإستقامة.

(٦) نفس المصدر، حوادث سنة ٤٢٧هـ. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكردية، ص١١٣. ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٧.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٦٠. زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، ص٣٣٥. ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٨.

(٨) سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص٢٤٤. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص١٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٨٦. وفي كتابنا المخطوط (الإمارة النيميرية في بلاد الجزيرة) معلومات أخرى عن أصفر.

لمساعدة الدولة الدوستكية عسكرياً عندما حاول السلطان السلجوقي طغرل الزحف على بلادها سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٨م). غير إن نصرالدولة نجح في مفاوضاته مع السلطان وكان المؤيد الشيرازي ممثل الدولة الفاطمية في حركة البساسيري هو الذي أوعز الى الأمير منيع بالإستعداد لنصرته^(٩). ولم نجد بعد هذا التاريخ شيئاً عن العلاقات الدوستكية - النميرية الى أن قُضي على هذه الإمارة (١٠) والتفاصيل في كتابنا المخطوط (الإمارة النميرية في بلاد الجزيرة).

العلاقات مع الإمارة المرداسية

أسست الإمارة المرداسية في حلب عندما أزال عنها صالح بن مرداس أمير بني كلاب النفوذ الفاطمي سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م). وفي سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) إحتل الملك السلجوقي ألب أرسلان مدينة حلب مركز الإمارة، ولكنه أعاد الأمير المرداسي الى إمارته. وأخيراً وبسبب مضايقة السلاجقة سلم سكان حلب مدينتهم سنة (٤٧٢هـ = ١٠٨٠م) الى الأمير العقيلي شرف الدولة مسلم بن قريش، وكان أميرها المرداسي آنذاك نصر بن محمد بن نصر بن صالح.

ولما كانت حلب مطمح أنظار الدولة الفاطمية، التي إشتبكت مراراً مع المرداسيين وفرضت سيطرتها على حلب أكثر من مرة، فقد كان المرداسيون على علاقات حسنة مع الإمارات العربية المجاورة ومع الدولة الدوستكية أيضاً. ورغم قلة المعلومات لدينا عن العلاقات الدوستكية - المرداسية، إلا أن إعادة نصرالدولة نصف مدينة الرها (أورفا) الى عطير النميري، ثم تسليمها كلها بعد مقتله الى ابنه (أي ابن عطير) وابن شبل بوساطة الأمير صالح بن مرداس في المرتين^(١١)، ليس سوى مثالاً حياً للصدقة المتينة بين الأميرين الكردي والعربي، ودليلاً على ما بين بلديهما من علاقات طيبة. ولعل سبب تهديد النائب الفاطمي في بلاد الشام بغزو البلاد الدوستكية سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨م) كان مرده إستنكار نصرالدولة إحتلاله لحلب وقتل الأمير المرداسي شبل الدولة نصر بن صالح في السنة التي قبلها وإمتعاضه من وصول نفوذ الدولة الفاطمية القوية الى شمال سورية وإقتراجه من كُردستان مخافةً من أطماعها التوسعية. كما إمتعض من ذلك الأمير النميري شبيب بن وثاب الذي كانت أخته

(٩) سيرة المؤيد، ص ١٦٩.

(١٠) في سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) إستولى عطية بن صالح المرداسي على مدينة الرقة، وكانت مركز الإمارة النميرية، ثم أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش في نفس السنة كما أخذ شرف الدولة مدينة حران من النميريين سنة ٤٧٤هـ. راجع الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٥. وابن الأثير، ج ٧، ص ٢٦١.

(١١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٦٠، طبعة القاهرة والأعلات الخطيرة ورقة ٢٨. تاريخ ابن الوردي، ص ٣٢٣. أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج ٢، ص ١٦٥. ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣١٧. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكرديّة، ص ١١٣.

زوجة الأمير نصر المرداسي. وبطبيعة ما أسميه (الحلف الثلاثي) وبحكم التناقضات بين الحكومات أو الإمارات الصغيرة وبين الدولة الفاطمية، لا يُشك في أن نصرالدولة أبدى تأييده المعنوي لـ(ثمال بن صالح) ضد الفاطميين في محاولاته لإسترجاع إمارته، التي إستعادها من الفاطميين فعلاً سنة (٤٣٤هـ = ١٠٤٣م).

وأخيراً أريد أن أشير هنا الى حادثة إستنكار في بعض المدن الدوستكية لما قام به صالح بن مرداس من إعتقال حوالي سبعين شخصاً من سكان معرة النعمان سنة (٣١٧هـ = ١٠٢٦م). وقد تمثل الإستنكار فيما قام به العلماء أو بالأحرى الخطباء بالدعاء للمعتقلين من على منابر دياربكر والعاصمة (فارقين)(٢).

ولا أعلم هل إن الإستنكار حدث بسبب الجمود في العلاقات الدوستكية - المرداسية (والناشيء عن عدم إرتياح صالح من إنتزاع الرها من النميريين، مع إننا لم نجد إشارة الى هذا من أي مؤرخ) علماً بأن نصرالدولة كان قد سلم المدينة إليهم بتوسط من المذكور. أو إن ذلك الإستنكار والتعاطف مع معتقلي معرة النعمان (البعيدة عن الأراضي الدوستكية والخاضعة للنفوذ المرداسي) كان بسبب الصداقة المتينة بين الوزير أبي القاسم المغربي والشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري (لأن أخا المعري كان من بين المعتقلين)، وكان أبو القاسم آنذاك وزيراً في الدولة الدوستكية. فهو دبر ذلك الإستنكار تعاطفاً مع المعريين وأبي العلاء بصفة خاصة. فضلاً عن ذلك، كان الإستنكار عملاً إنسانياً لأنهم إعتقلوا ظلماً ثم أفرج عنهم بتوسط من أبي العلاء نفسه، حينما قابل الأمير المرداسي. الجدير بالذكر أن ثمال بن صالح المرداسي كان قد أسكن الكُرد في (حصن السفح) من سهل البقاع، فعرف فيما بعد والي الآن بـ(حصن الأكراد) بمحافظة حمص من سورية، وذلك في سنة (١٠٣١م) لحماية طريق طرابلس(٣).

العلاقات مع الدول الكُردية

لقد أتاح ضعف الدولة العباسية وتفسخها في دورها الثالث الفرصة لولاة الأقاليم وأصحاب الأطراف، أن يعلنوا إستقلالهم في الأقاليم التي كانت تحت سيطرتها. أما الشعب الكُرد الذي يعيش في منطقة إستراتيجية خصبة وواسعة، فقد تأثر بإستقلال تلك الأقاليم وناضل من أجل التحرر من ظلم وإضطهاد الملوك الأجانب. وبرز زعماء كُرد أكفاء ليتصدروا مهمة القيادة. وقد حالف هؤلاء النجاح في تأسيس دول كُردية تضم كل واحدة منها جزءاً من الوطن الكُرد، وذلك في فترة القرنين

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأديباء. ج٣، ص٢١٦. ومحمد سليم الجندي: تاريخ معرة النعمان، ج١، ص١٣٢.

(٣) راجع المنجد، الأعلام، الطبعة الثانية عشرة في مادة (قلعة الحصن). لم يصرح المصدر بإسم ثمال لكني وجدت ذلك في بعض المصادر الأخرى.

الرابع والخامس الهجريين (القرنان العاشر والحادي عشر للميلاد)، تلك الفترة التي نعتبرها (العصر الذهبي) لكردستان، التي لم تتمتع في أية فترة أخرى من فترات العهد الإسلامي بمثل ما تمتعت به من حرية وإستقلال في ظل تلك الحكومات الوطنية الكردية. ومن بين تلك الدول الدولة الدوستكية.

أما الدولة الأيوبية فإنها لا تعتبر حكومة وطنية كردية لكونها تأسست خارج كردستان في مصر والمجزيرة العربية وبلاد الشام. ويمكن أن نعتبر جناحها الواقع في كردستان دولة وطنية كردية، أما (الدولة الرسولية) في اليمن (إذا ما ثبتت كردية الأسرة الرسولية) فشأنها شأن الدولة الأيوبية لكونها تأسست بعيدة عن كردستان وأسسها عمر بن رسول أحد قادة الأيوبيين^(١).

أما الحكومات الكردية فهى الدولة الروادية الهذبانيسية^(٢)، والدولة الشدادية^(٣)، والدولة الحسنوية^(٤)، والعنازية (أنازية)^(٥).

(١) إختلف في أصل بني رسول، فمن قائل بأنهم من أصل تركماني وآخر ينسبهم إلى أصل عربي من بني غسان هاجر أحدهم في زمن مجهول إلى بلاد ما وراء النهر (أو خراسان) وسكن هناك وترك ذرية منها عمر بن علي بن رسول، الذي جاء من البلاد الشرقية.... الخ، والتفاصيل في كتاب (العقود اللؤلؤية في الدولة الرسولية) تأليف علي بن حسن الخزرجي، وهي رواية ملفقة. أما المؤرخ تقي الدين المقرئ، فقد ذكر في موضعين من كتابه (الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك، ص ٧٨ و ٧٩) بأن عمر بن علي بن رسول كردي الأصل ووصفه بالهكاري، ثم ذكر كغيره من المؤرخين: أنه كان أحد الأمراء في الدولة الأيوبية وكان معتمد الملك مسعود بن الملك كامل الأيوبي، ثم إستقل ببلاد اليمن سنة (٦٢٩هـ) بعد وفاة الملك مسعود.... وقد ذهبت جماعات من الكرد إلى اليمن في العهد الأيوبي وسكنت سعد وزمار ونواحي صنعاء، وما زال بعض قبائلهم تحمل حتى الآن إسم الكرد.

(٢) أسس هذه الدولة في (٣٤٣هـ = ٩٥٤م) في أذربيجان محمد بن حسين الروادي، ثم حكم بعده ابن حسين، ثم أبو الهيجاء محمد بن حسين، ثم وهسوذان بن محمد (ملان) المذكور على ما في الكتاب القيم (لقاء الأسلاف، ص ٢١٢) للدكتور جمال رشيد. وبعد مقتل يوسف بن أبي الساج في (٣١٥هـ = ٩٢٧م) سيطر على أذربيجان من أتباعه (ديسم بن إبراهيم الكردي)، وإعتبره بعض المؤرخين مؤسس الدولة الروادية وهو رأي مشكوك فيه، وما زال أحد جبال تبريز بإسم ديسم إلى اليوم كما سمعت مؤخراً. أما عاصمة تلك الدولة فكانت تبريز ثم مراغة. وإنتهت بعد أن تقلصت الإمارة في (٦٢٧هـ = ١٢٢٩م - ١٢٣٠م) في عهد إحدى الأميرات، التي كانت تقيم في قلعة (روين دز)، غير البعيدة عن مراغة، من ذرية أحمدليل الروادي، على ما جاء في (إبن الأثير حوادث سنة ٦٢٧هـ). راجع أيضاً (ص ٦٢١) من كتاب (مراغه) بالفارسية لبيونس مرواريد، طبع ١٣٦٠ شمسي قمري. ولما كانت القبيلة الروادية فرعاً من القبيلة الهذبانيسية، فلا حاجة إلى تقسيمها إلى حكومتين روادية وهذبانيسية. فبعد أن حكمت الأسرة هذبانيسية القسم الغربي من بلادها إلى الشمال من (وان)، ومن الروادية صلاح الدين الأيوبي من روادبي شمال نهر آراس، حيث ولد والده (أيوب) في مدينة (دوين - دبيل)، التي تُشاهد أنقاضها في الجنوب الغربي من مدينة (بريقان) عاصمة أرمينيا الحالية، وليس في (دوين) الواقعة شمال أربيل، حسبما ذكر الأستاذ عبدالحال سراسم بخصوص منطقة أربيل والدولة الأيوبية سنة (٢٠٠٠) في كتاب بإسم (صلاح الدين الأيوبي من جديد). وقد كتبت في رده مقالاً في (٧٩) صفحة نشر في مجلة (ههزرميترد) العدد (١٢) سنة ٢٠٠٠. ثم كتبت رداً آخر عليه وعلى الأخر الدكتور محسن محمد الذي شجعه في هذا المجال في حوالي (٥٢) صفحة لم يُنشر بعد.

(٣) أسسها سنة (٣٤٠هـ = ٩٥١م) الأمير الكردي محمد بن شداد في أرمينيا، وإتخذ (دوين-دبيل) عاصمته. ثم توسعت حتى ضمت جورجيا وبلاد (آران - أذربيجان التي كانت من الإتحاد السوفيتي إلى عهد قريب). ووصل نفوذ هذه الدولة الكردية إلى مدينة (آني) جنوب نهر آراس. وفي بعض المراجع أن الأمير المذكور كان من القبيلة الروادية، راجع كتاب (مراغه) ص ٦١٦ لبيونس مرواريد نقلاً عن (شهريار كمنام) لمؤرخ إيران الكبير أحمد كسروي، و(الشداديون في بلاد آران من سنة ٣٤٠-٥٩٥ هـ) رسالة ماجستير للدكتور إسماعيل شكر من جامعة صلاح الدين.

(٤) أسس هذه الدولة الأمير الكردي حسنويه بن حسين من قبيلة بزرگان سنة (٣٤٤هـ-٩٥٩). ضمت هذه الحكومة جزءاً

العلاقات مع الدولة الروادية

رغم أنه كانت هناك دون شك روابط جغرافية وقومية وإجتماعية وإقتصادية قائمة بين الدولة الدوستكية والدولة الروادية والروادية فرع من القبيلة الهذبانية الكبيرة، إلا أن المعلومات التاريخية

=غير قليل من كردستان، حيث شملت منطقة شهرزور (منطقة السليمانية الحالية) وكرمانشاه (قرميسين) ونهاوند من (لورستان) و (كنكور-كنكاور- قصر اللصوص) الى القرب من همدان حتى حدود أذربيجان، أي كافة مناطق سنه وسقز. وكانت قد ازدهرت في عهد الأمير (بدر) بن حسنويه، الذي له في المصادر التاريخية أخبار طريفة في البر والعدل والسياسة الإقتصادية. كانت عاصمتها أولاً مدينة (سرماج) بجيم معجمة، وهي الآن تابعة لناحية جمجال التابعة لقضاء (صحنه) من محافظة كرمانشاه وفيها آثار من العهد الساساني. ثم نقل (بدر) العاصمة الى مدينة (دينور) الشهيرة التي تُشاهد آثارها بين قريتي (شيرخان) و(زيبا جوب) بخمسة وعشرين كيلومتراً شمال غرب مدينة (صحنه)، وبكيلومتر واحد غربي طريق (سنقر) وطريق كرمانشاه - صحنه، وقد نُهبَت آثارها وما زال إسم بدر حياً ومقروناً بقلعة بدر (قهلاي بهدر) في قرية (بالاجو) و(كوه بهدر) ومضيق بدر (تهنگ بهريان = بدربان)، وغيرها والتفاصيل عن دينور تجدّها في كتاب (كرمانشان - كردستان - الجزء الأول للدكتور مسعود گولزاري). هذا وفي سنة (١٠٦٦ هـ = ١٠٦٦ م) قضت الدولة البويهية على هذه الدولة الكردية في عهد طاهر بن هلال بن بدر. لقد وضع المؤرخ الفاضل الأستاذ الملا جميل الروزياني كتاباً في تاريخ هذه الدولة ودولة بني عناز باللغة الكردية بإسم (ميژووی حسنه ودهی و عهیبیاری) وفي (ص٩٦) صورة قلعة سهراماژ (سرماج).

(٥) أسس الدولة العنازية (الأتازية) أبو الفتح محمد بن عناز رئيس قبيلة (شاذنجان) الكردية الساكنة في منطقة حلوان (زهاب - زهاو)، وذلك في أواخر ثمانينات القرن العاشر الميلادي، أو في سنة (٣٨١ هـ = ٩٩١ م) بالذات. وكانت (حلوان) عاصمتها وتوسعت شمالاً حتى شهرزور وغرباً حتى مدينة خانيجار (طوز) و(دقوقا) حتى مدينة كركوك، وإمتدت حتى مندلي (بندنيجين) وتجاوزت الى شرق كرمانشاه حتى مدينة كنكور وقضت عليها الدولة السلجوقية في النصف الأول من القرن الثاني عشر. ولكن حتى القرن الرابع عشر كان لقبيلة (أتازي - شاذنجان) حول وقوة في شهرزور، كما أشار الى ذلك منصور بن صادق بن بلال من أجداد سادات سهركت (سركت) في شهرزور، وذلك في ملاحظات بخصوص تاريخ هذه الأسرة سنة (٧٧٠ هـ = ١٣٦٩ م). ثم كتبت هذه الملاحظات مجدداً على نسخة خطية من مصحف هي الآن في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم (١٦٤٢٥). ذكر منصور هذه القبيلة بإسم (أتازي)، ولا أستبعد أن يكون إسم (عناز) (عنازية) تعريباً ل(أتاز) أتازي. حيث ورد إسم (عناز) و(بني عناز) في المصادر العربية بالنون المشددة والزاء المفخمة، وفي بعضها بإسم (عبار) بالياء المشددة تصحيفاً، وفي الدول والإمارات الكردية بإسم (بني عنان) (ص٤١٧) باللغة الكردية. وذكر الأستاذ الملا عبدالكريم المدرس في كتابه (بنه مالهى زانباران، ص٣٦٨-٣٨٠) الأتازيين حسبما جاء في نص تلك الملاحظات أو المذكرات وأدخل بين قوسين (عناز). وقال إن قرية (گرده نازي) القريبة من (سيد صادق) بينها وبين نهر (زكم) تحمل إسم قبيلة (أتاز)، والأتازيون في تلك القرية من شهرزور وقرى أخرى يُسمون الآن (برازي). علماً أني زرت القرية وأجريت مقابلة صوتية مع (برازيين)، وبهذا ظهر أن عشيرة برازي الكردية الكبيرة المقيمة في ولاية (أورفا- الرها) من كردستان تركيا وفي الجانب السوري أيضاً هم أتازيون (بنو عناز- قبيلة شاذنجان). ولا ندري في أي زمن شردت الى (أورفا) وبقي القليل منها الآن في شهرزور. هذا وإن قسماً آخر منها موجود حالياً في منطقتين من محافظة كردستان (محافظة سنه) في كردستان إيران، قسم في منطقة (مهريوان) وآخر في (هوباتوقراتوره). وقال (علي أكبر وقاي نكار) في كتابه الفارسي (حديقه ناصریه، ص٣١٨-٣١٩) أن تيمورلنگ هجر رئيسها (كهيا صالح) مع ألفي أسرة من برازي من البلاد العثمانية الى منطقة (سنه)، وإن رجالها الشجعان ذوو همة وظهرت من بينهم شخصيات بارزة منهم حاجي يعقوب الذي، قاوم آزادخان الأفغاني وأخيراً أسره آزادخان وقتله. وبمرور الأيام تفرقت هذه العشيرة ورجع قسم منها الى البلاد العثمانية. هذا ويحتمل جداً أن القسم الأكبر قد تشرد أيضاً أمام تيمورلنگ الوحش الى أورفا ولعبت هذه القبيلة الكردية دوراً سياسياً في التاريخ. وقد ألف الأستاذ المؤرخ الملا جميل الروزياني كتاباً بعنوان (ميژووی=

قليلة. وقد ذكرت سابقاً أن حدود الدولتين كانت متصلة قبل سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٢م) في السواحل الشرقية لبحيرة وان، أي في الجزء الواقع بين مدينتي أرديش ومرادية (بركرا)، وإننا قلنا قبل السنة المذكورة أن البيزنطيين، كما ذكر ابن الأثير، إحتلوا مدينة بركرا (بهركري) (٦) التي تسمى الآن مرادية أيضاً وهي من أفضية (وان)، أو أنهم إحتلوا في الفترة الواقعة بين (٤١٠-٤٢٥ هـ). وكانت المدينة تحت سيطرة أبي الهيجاء بن ربيب الدولة الهذباني، الذي أخذها سابقاً من الأرمن. وأكثر الإحتمالات أن حدود الدولتين كانت متصلة في المنطقة الواقعة جنوبي شرق (بحيرة وان) وأيضاً من مقاطعة هكارية من بلدة (مكس) الى الحدود الإيرانية-التركية الحالية. وفي الوقت الذي لم أجد فيه معلومات عن وضع هذه المنطقة في العصر الدوستكي، فإني أستبعد أن تكون المنطقة غير مرتبطة بإحدى الحكومتين أو مقسمة بينهما. وإن كان ابن الأثير يقصد إن التوسع الذي حصل للإمارة البختية (إمارة القسم الشرقي من بوتان التي مركزها جردقيل = غورجيل) في وادي غويان الى منطقة خوشاب، (٧) كان في عهد الأمير موسك بن المجلى، فلا يُشك إذن أن حدودهما قد إتصلا فيما وراء خوشاب الداخلة ضمن الدولة الدوستكية، بإعتبارها كانت داخلة ضمن الإمارة البختية من إمارات الدولة الدوستكية.

لقد ذكرت بعض المصادر التاريخية وصول وفد رسمي من قبل الدولة الروادية الى الدولة الدوستكية في عهد الأمير پاد. فقد ذكر المؤرخ الإيراني أحمد كسروي أن: الأمير أبا الهيجاء الروادي أوفد أميراً كُردياً كان ابن أمير مدينة (خوي) الى (أباهونيك) سنة (٣٧٨هـ = ٩٨٨م)، أي الى الأمير پاد. ولما عاد الوفد وإقترب من خوي وجد رئيس الوفد في طرف إحدى القرى طفلاً أرمنياً جميل الصورة فأخذه، ولكن رجلاً أرمنياً يدعى (سركيس) جرد سيفه وقتله وأخذ الطفل الأرمني. فأعلم والد رئيس الوفد الأمير أبا الهيجاء بذلك وطلب منه مدينة خوي عن دم إبنة كما طالبه بأخذ ثأره من الأرمن. فجمع أبو الهيجاء الجيوش وزحف على منطقة (واسبوركان) الأرمنية، بيد إن أبا

=حسنة وهيهي وعهبيارى) أي (تاريخ الحسنويهه والعبارية)، وقد رجح فيه إسم (العبارية) بالعين المهملة والباء المشددة والراء المهملة على (العنازية) بالنون والزاء المعجمة والتي تعني بالعربية كثيرة العنز. وإستبعد الملا جميل وجود إسم بهذا المعنى لرجل كوردي (أو قبيلة كوردية خاصة في ذلك العهد)، ورأيه هذا سديد ولهذا رجح العبارية. وأظن أنه لو إطلع على إسم (آناز) في المخطوطة المشار إليها، لقال إن (عناز) تعريب للأسم الكُردِي (آناز). ويحتمل أن (آناز) كانت بطناً من شاذنجان وظهر منها حكام بني عناز أو إنه إسم حقيقي لوالد أبي الفتح محمد مؤسس تلك الحكومة، الذي هو والد الأمير أبي الشوك (فارس) الشهير، الذي ورد ذكره في الجزء الأول من كتابنا هذا. بخصوص إسم (عناز) أيضاً راجع هامش في موضوع (الزردشتية).

(٦) بركرا (بهركري) راجع ابن الأثير، ج٨، ص٧ طبعة مطبعة الإستقامة. زيني دحلان الفتوحات الإسلامية، ص٣٣٣. مدينة بركري (بهركري) تقع في شمال مدينة (وان) وهي مركز أحد أفضيتها وهي تتاخم قضاء أرديش (أرجيش) وكانت أرجيش تحت السيطرة الدوستكية. أما سبب ذلك فهو أنه حدث تنافر بين أبي الهيجاء وخاله وهسودان فطلب الأخير من البيزنطيين إحتلال المدينة ثم صالح بينهما الخليفة العباسي لكي يستعيدا المدينة لكنهما رغم مساندة المتطوعة لهما لم يتمكنوا من إستعادتها.

(٧) راجع باقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٦١. خوشاب الآن مركز لقضاء تابع لولاية وان وهي تقع في القسم الجنوبي الشرقي لوان.

الهيحاء توفي أثناء حملته وكان كبير السن فإضطر جيشه الى التراجع^(٨)، علماً إن كسروي قال: إن الأرمن كانوا يسمون پاد الكردي بـ"آباهونيك"، مع إنهم يطلقون هذا الإسم في الأصل على إقليم دياربكر والموصل، ولكنهم أطلقوه على پاد لكونه حاكم المنطقة.

أما العلاقات مع الدولة الشدادية، فكانت متينة وتشهد على ذلك المصاهرة بين الأسرتين الدوستكية والشدادية، حيث تزوج نصرالدولة بالأميرة "فضلونية" بنت أحد الأمراء الشداديين^(٩). من الجدير بالذكر أن الحدود الدوستكية والشدادية لم تكن متصلة، إذ أن الإمارات الأرمنية كانت تفصل بينهما.

أما عن العلاقات مع الدولة الحسونيهية، فلم نجد حولها أية معلومات ويحتمل جداً حدوث إتصال بين الأمير (پاد بن دوستك) والأمير بدر بن حسويه، وذلك في سنة (٣٧٣هـ = ٩٨٣م). وحينما إستولت الدولة الدوستكية على الموصل والمنطقة التابعة الى حدود تكريت وظلت تحت سيطرتها سنة وتقاربت حدودهما أو إتصلت (وكان الملك پاد يستهدف إحتلال بغداد وإخراج العراق من السيطرة البويهية) فلا يستبعد إذن حدوث الإتصال بأمراء المنطقة ومنهم الأمير (بدر) للحصول على تأييدهم.

أخيراً إن هذه الحكومات الكرديية ليست بمنأى عن الإنتقاد اللاذع بسبب عدم إندماجها وإتحادها في دولة كُردية شاملة. فلو كانت تلك الدول قد إتحدت في دولة واحدة، لأمكن لها الحفاظ على إستقلالها مدة أطول والتوسع الى خارج الوطن الكردي. فللشعب الكردي قوة جبارة إذا ما إتحد، غير إن الخلافات وعدم المناصرة والإتحاد هما اللذان أبقياه في جحيم التسلط والإستعباد من قبل الشعوب المجاورة. وهو ما عبّر القاضي (شهاب الدين ابن فضل الله العمري) المتوفي سنة (٧٤٩هـ) عنه خير تعبير حين قال: "الأكراد خلائق لا تُحصى وأمم لا تُحصر، فلولا أن سيف الفتنة بينهم مسلول يستحصد قائمهم وينبه نائمهم، لفاضوا على البلاد وإستفاضوا إليهم الطارف والتالد^(١٠) ولكنهم رُموا بشتات الرأي وتفرق الكلمة. ولا يزال بينهم سيف مسلول ودم مطلول وعقد نظام محلول وطرف باكية بالدماء مبلول"^(١١).

(٨) أحمد كسروي، شهرياران كمنام، ج٢، ص٤٢ نقلاً عن المؤرخ الأرمني أسوغيك.

(٩) الفارقي، ص١٢١-١٢٢. راجع موضوع (أولاد نصرالدولة....).

(١٠) الطارف: المال الجديد الذي يكسبه الشخص. والتالد: المال القديم أي الذي خلفه آباؤه. وتستعمل الكلمتان للدلالة على المجد الحديث والقديم.

(١١) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٧ طبعة مصر، سنة ١٣١٢هـ. أبو العباس أحمد يوسف القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٧، ص٢٨٣، نقلاً عن العمري.

العلاقات مع الشعب الأرمني

لقد صادف نشوء الدولة الدوستكية العصر الذهبي للشعب الأرمني. فرغم أن البلاد الأرمنية لم تكن موحدة، إلا أنها كانت في أوج نهضتها وقوتها، لاسيما بعد إنتقال العاصمة الى "آني"^(١)، وكانت أرمينيا آنذاك مقسمة الى إمارتين كبيرتين وهما الإمارة البكرادونية^(٢)، التي كانت تعتبر الحكومة الشرعية لأرمينيا. وكانت حدود الإماراتين تمتد حتى إقليم (كرين) وعاصمته قاليقلا أي (أرضروم)، وكانت تلتقي بحدود الدولة الدوستكية في منطقة ملازكر (منازجرد). ولعل نهر موراد (أرسناس) كان يشكل الحدود بينهما في هذه المنطقة.

أما الإمارة الثانية فكانت الإمارة الأرزرونية^(٣)، وتعرف أيضاً بإمارة (فاسپورگان). وكانت في

(١) توسعت مدينة آني وازدهرت بعد أن إتخذها الأمير البكرادوني آشوت الثالث (٩٦١-٩٧٧م) عاصمة لأرمينيا أو لإمارته. وتُشاهد الآن أطلال هذه المدينة على ضفة نهر آراس في الجانب التركي وبمسافة حوالي (٤٠ كم) الى الجنوب الشرقي من مدينة(قرص)، وتحولت الى قرية (آني) الحالية. ولا يزال بعض من اثارها خالدة مثل الكاتدرائية والكنيسة الصغرى والقلعة وأجزاء من السور.

(٢) لا نعلم بالتأكد في أي سنة أسست الأسرة البكرادونية (البغرادونية) هذه الإمارة أو الحكومة. ولعل مؤسسها هو الأمير (آشوت الأول) الذي عاش في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي، حيث كسب ود الخليفة العباسي الذي لقبه بأمير الأمراء وإعترف به حاكماً على أرمينيا. ولما توفي تولى بعده ابنه (سباط)، ثم ابنه آشوت (آن شوط)، ثم أخوه عباس الأول، ثم آشوت الثالث. ومن أمرائها سنباط الثاني (٩٧٧-٩٨٨م) وجاجيق - غاغيك الأول (٩٩٠-١٠٢٠م) أخو سنباط الثاني. ولما توفي هذا حدث نزاع بين وارثه الشرعي وآشوت الرابع، وزاد في حراجه الموقف تدخل الكُرج (المجورجيون) وغارات السلاجقة على أرمينيا. فإنتهز الإمبراطور البيزنطي (بسيليوس) الفرصة لإستعادة نفوذه في الشرق (أرمينيا)، ونجح في بسط نفوذه على أجزاء منها وخلع بعض أمرائها. ولما توفي آشوت الرابع سنة (١٠٤٠م)، وكان قد تغلب على (يوجنا) بمساعدة البيزنطيين، حاول الإمبراطور (ميخائيل الرابع) ضم أرمينيا الى الإمبراطورية البيزنطية. فهاجم إمارة بكرادوني وحاصر (آني) ولكنه لم يستطع أن يحتلها. غير إن الإمبراطور (قسطنطين التاسع) أنهى هذه الإمارة سنة (١٠٤٤م)، وأعطى الأمير جاجيق الثاني أراض واسعة في إقليم كبادوكيا. وكانت الدولة البيزنطية قد وجدت من الضرورة بسط سيطرتها المباشرة على أرمينيا وتحصينها لتصبح ترسانة بيزنطية أمام الخطر السلجوقي. راجع: پول أميل، تاريخ أرمينيا، ص٢٧. راجع أيضاً رنسيمان، الحروب الصليبية، ص١٢٨. ودائرة المعارف الإسلامية، مادة أرمينيا. فيها أن (آني) تقع في الجانب الروسي وهو خطأ. وراجع أيضاً ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٥٧. و ك. ل. إستاجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، ص١٩٤-١٩٦.

(٣) كانت أرمينيا متحدة في حكومة واحدة الى أن حدث إنشقاق بتأسيس الأسرة الأرزرونية إمارة في إقليم فاسپوركان، وحدث هذا في عهد سنباط الأول البكرادوني ملك أرمينيا. ودامت هذه الإمارة حتى سنة (٤١٢هـ = ١٠٢١م) أو الى هذه السنة بالذات، حيث لم يستطع آخر أمراءها سنحاريب (سنكريم) أن يحافظ على بلاده نتيجة المشاكل الخارجية، فسلمها الى الدولة البيزنطية وهاجر الى إقليم كبادوكيا ماوراء الفرات، حيث أعطاه بسيليوس أراض هناك مقابل بلاده. ولا نستطيع أن نحدد بلاد هذه الإمارة تحديداً دقيقاً، وفي دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٦٤٧-٦٤٨ إن إقليم (فاسپوركان) يمتد من نهر (موراد) الفرع الشرقي لنهر الفرات الى آرات ونهر آراس والى مرند في شمال تبريز. وفي بعض المصادر الإسلامية أن (بسفرجان) وورد أيضاً (إسفرجان) وهو تعريب (فاسپوركان)، كورة من أرض آران ومن مدنها نشوى. راجع معجم البلدان، ج١، ص٤٢٢. ولعل حدود هذه الإمارة كانت تتصل بحدود =



كنيسة أني

أرمينية إمارات أخرى (٤)، منها إمارة السناسنة. وقد توصلت بعد بحث طويل الى أن السناسنة الأرمن كانوا يسكنون موش ومشارف الجبال الواقعة في جنوبها وغربها، والتي سماها الفارقي وغيره من الجغرافيين والمؤرخين بإسم السلسلة التي هي جزء من سلسلة طوروس (٥).

=الدولة الدوستكية في الشمال الشرقي من أريديش. وعلى كل إن منطقة (بايزيد) الى آراس كانت ضمن هذه الإمارة. وفي كتاب تاريخ الأمة الأرمنية تأليف الدكتور ك.ل. إستاجيان (ص١٩٣)، أن واسبوركان هي ولاية وأن الحالية وكانت تشمل مدينتي (وان) و(وسطان). وقد شيد الأمير الأرزروني (جاجيك) دير آختمار وزينه بأكثر من (٤٠٠) تمثال ورسوم آدمية وحيوانية ونباتية، وذلك في جزيرة آختمار الواقعة في بحيرة وان في غرب وسطان في فترة (٩١٥-٩٢١م). وقد زرته في آب عام ١٩٧٧ ونشرت بحثاً جيداً بخصوصه في مجلة (دهوك) العدد (٧) سنة ١٩٩٩.

(٤) ذكر بو أميل في تاريخ أرمينيا (ص٢٧): أن أرمينيا كانت الى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي مقسمة الى أربع إمارات وهي: الإماراتان المذكورتان وإمارة قار (ولعلها قارس) وإمارة لوري. غير إنه لم يحدد مناطق الإماراتين الأخيرتين ولعل إحدهما كانت إمارة السناسنة. وفي (الحروب الصليبية، ج١، ص٥٧) قال رنسيما أن أنه في سنة ١٠٦٤م سلم أمير قارس إمارته الى الدولة البيزنطية.

(٥) الفارقي، ص٤٦. بصدد السلسلة راجع مقدمة ابن خلدون، ص٦٧. ٦٨. ٦٩. راجع أيضاً ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة (٤٢٧هـ)، حيث ذكر أن بلاد السناسنة مجاورة لخللاط وقريبة من الروم (البيزنطيين). ولهذا ظننت (وأخطأت) في الجزء الأول بقولي أن السلسلة التي ذكرها الفارقي هي جبل سيبان (سبحان داغ) وإن غاب الجوز هي مدينة (الجواز) الواقعة في سفح هذا الجبل العظيم والواقعة على شاطئ بحيرة وان. ولكن حسين سراج أوغلو الجغرافي التركي حدد مملكة غاب الجوز بمنطقة ساسون وموتكي في غرب بدليس وهو الصحيح، راجع كتابه: Dogho Anadolo ج١، ص٧٢. وفي شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ سمعت من بعض سكان ساسون من عشيرة (شيگو) أن مدينة ساسون تسمى حالياً بغاب الجوز، وسنذكر السلسلة وغاب الجوز في موضوع الحياة البشرية: العرب.

أما علاقات الدولة الدوستكية مع الإمارات الأرمنية، فكانت علاقة طيبة منذ نشوئها في عهد الأمير باد بن دوستك. ولاشك أن علاقاته قبل تأسيس دولته لم تكن جيدة مع الأرمن، لأنه كان يشن الغارات على حدود الإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لحدود الأرمن وكردستان. ولهذا أتوقع أن علاقاته لم تكن حسنة مع الأرمن المرتبطين بالدولة البيزنطية الى حد كبير، ولعل بعض الأرمن في تلك الحدود كانوا يتعرضون لغاراته. ولكنه ومنذ أن عزم على تحرير كردستان الوسطى من سيطرة الدولة البويهية قام بتحسين علاقاته مع الشعب الأرمني، لكي يتفرغ لمجابهة الدولة البويهية القوية. هذا فضلاً عن أن تغيير سياسته العدائية مع الدولة البيزنطية وعقده إتفاقاً ومعاهدة معها كان له بدون شك تأثير طيب على علاقاته مع الشعب الأرمني والإمارات الأرمنية المرتبطة بالدولة المذكورة. فتأييدها للأمير الكردي ضد الدولة البويهية لا يتوقع بعده بقاء الأرمن في موقف عدائي منه. كما إن صداقة الأرمن له كانت على جانب كبير من الأهمية، إذ أن عداؤهم له كان يتطلب تجميد قسم كبير من قواته في مناطق أريش وخلاط وملازكر المتاخمة لأراضيهم خوفاً من إعتداءاتهم. و لم نعثر في الواقع على أي إشارة على سوء علاقة بين الطرفين أو أي إعتداء من الإمارات الأرمنية على حدود الدولة الدوستكية، في حين أنه كان منشغلاً بمجابهة البويهيين^(٦).

إثر مقتل الملك باد على أبواب الموصل، وفيما كانت فيه الدولة الدوستكية في ظروف حرجة بسبب المخاوف المتعلقة باحتمال تعرض البلاد للهجوم من الجنوب أو من الحمدانيين بمساعدة من العقيليين على بلادها وإجتياحها الى أبواب فارقين وديار بكر، وفي هذا الوقت هاجم الأمير الأرمني (داود) مدينة ملازكر (منازرد) الواقعة شمال بحيرة وان واحتلها في سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) بداية عهد الأمير حسن (أبي على بن مروان) ابن أخت باد^(٧).

في رأيي أن العلاقات الكردية-الأرمنية تحسنت فيما بعد، ولعل للهدنة التي أبرمها الأمير حسن مع الدولة البيزنطية بعد ذلك بسنتين تأثير في تحسين تلك العلاقات^(٨).

أما علاقة المصاهرة فيمكن إعتبارها أمراً حيوياً في العلاقات الدوستكية-الأرمنية، حيث تزوج الأمير حسن بنت (سنحاريب) ملك السنانة، وبعد مقتله تزوجها نصرالدولة على ما قاله الفارقي في ص ١٦٩.

لقد ظلت العلاقات في جو من الصداقة أكثر من أربعين سنة على ما يبدو، إذ لم نعثر على حادثة إعتداء واحدة من كل من الجانبين. وكان للسياسة الديمقراطية الدوستكية إزاء المسيحيين وبضمنهم

(٦) راجع الجزء الأول من موضوع معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية، ص ٦٢-٧١.

(٧) حسين حزني موكرياني، كردستان موكريان، ص ٢٤٥-٢٤٧، في هذا المصدر أنه كانت لداود إمارة في (دايك) الواقعة في شرق ملازكر. وفي سنة (٣٨٨هـ) هاجم الأمير الكردي مملان الهذلياني أرمنية بجيش كثيف إستهدف بالدرجة الأولى إحتلال منطقة دايك إنتقاماً من داود لهدمه جامع ملازكر ومستهدفاً تجديد عمارة مدينة غارن (أرضروم) التي هدمها البيزنطيون. ومن المحتمل أن داود هذا كان تابعاً للإمارة البكرادونية.

(٨) راجع الفارقي ص ١٦٩ موضوع: العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية.

الأرمن دور كبير في ترسيخ العلاقات بين الشعبين الكردي والأرمني. أما توتر العلاقات مع السناسنة، فكان أثناء النزاع الكردي - البيزنطي على الرها (أورفا) في سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٥م). فقد إعتدى السناسنة على الحجاج المسلمين القادمين من البلدان الشرقية والمارين بکردستان. ووقع الإعتداء أثناء مرور الحجاج بالمنطقة الواقعة بين أرديش وبدليس، حيث سلبوا ما بحوزتهم إضافة الى قتل بعضهم. فإستاء نصرالدولة من ذلك وأخذ يتخذ الإستعدادات اللازمة لغزو بلادهم، ولكن السناسنة خافوا العواقب الوخيمة وبدأو في التفاوض معه على أن يترك غزو بلادهم مقابل إعادة ما أخذوه من الحجاج، وإتفق الطرفان على ذلك وتصالحا^(٩).

في رأيي أن هذا الإعتداء وقع بإشارة من الدولة البيزنطية لتهديد الدولة الدوستكية من الشمال الشرقي أيضاً بتحريك الأرمن ضدها وللضغط عليها للتنازل عن الرها. ونستدل على هذا بما قاله ابن الأثير من أن السناسنة سلموا ما أخذوه من الحجاج الى الملك البيزنطي. ووقعت حادثة أخرى يعود سببها الحقيقي في رأيي الى السياسة البيزنطية. والحادثة هي قيام الوالي الدوستكي في الجزيرة بحملة تأديبية على الأرمن الذين كانوا تحت السيطرة الدوستكية في جنوب بحيرة وان على أغلب الإحتمالات. وحدثت هذه الحادثة أيضاً أثناء النزاع على الرها. ولذا نعتقد أن الدولة البيزنطية هي التي أشارت عليهم بالقيام ببعض الأعمال التي كانت السبب وراء الحملة المذكورة، وكان ذلك أيضاً أثناء النزاع على أورفا.

هذا وكانت إمارة السناسنة على جانب من القوة، فقد كان شعبها يثير مخاوف الدولة الدوستكية. ولهذا نرى مثلاً أن نصرالدولة صادر التاجر أبا بكر بن جري وإعتقله بتهمة التواطؤ مع ملك السناسنة. كما شيد نصرالدولة حصناً على حدوده مع السناسنة ليصبح سداً أمامهم. كما أن وفد فارقين المطالب بعزل الوالي أبي علي البلخي خوفاً ملكشاه من أن إقليم دياربكر متاخماً للسناسنة والسكان مستدمرون من البلخي على ما ذكره الفارقي في (ص ٢٢٣). والجدير بالذكر أن نفوذ السناسنة قد توسع نحو الجنوب إثر سقوط الدولة الدوستكية، حيث إستولوا على ثلاثين قرية من منطقة (غاب الجوز)^(١٠)، أي من منطقة ساسون وموتكي في غرب وشمال غرب بدليس وجنوب موش.

(٩) ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة ٤٢٧هـ.

(١٠) الفارقي، ص ١٦٨، ٢٨٤. مخطوطة الأعلق الخطيرة، ورقة ٩١.

الفصل الثاني

النظام السياسي والإداري

الإمارة، ولاية العهد، الوزارة، الحجابة، ديوان الرسائل والإنشاء، الحسبة، الأوقاف.

القضاء، الخطابة، النظام المالي، العملة الدوستكية، القوات المسلحة

النظام السياسي والإداري

إن الدولة الدوستكية الكردية كآية دولة متقدمة في عصرها كانت لها أنظمتها السياسية والإدارية والعسكرية. وكانت أنظمتها بطبيعة الحال متأثرة أو مستمدة من الأنظمة المتعارف عليها في الدول المعاصرة لها، ولاسيما الدول الإسلامية وفي مقدمتها الدولتان العباسية والفاطمية. فكما معروف أن الدول وفي أي عصر كان، حتى في عصرنا هذا، تتأثر بأنظمة وقوانين الدول المعاصرة لها وتستمد منها ما تراه مناسباً وذو فائدة لها ولشعبها. وقد ذكر الفارقي أن الوزير أبي القاسم المغربي وكان عالماً وفاضلاً: "قد جمل ولاية نصرالدولة وجعل لها الشأن العظيم ورتبها وقررها على قرار مصر والعراق" (١).

أي إن هذا الوزير بالرغم من قصر مدة وزارته نظم شؤون الدولة الدوستكية الإدارية وإرتقى بها الى مستوى الدولة الفاطمية في مصر والدولة العباسية في العراق. فأدخل فيها من النظم والقوانين الفاطمية والعباسية ما لم يكن فيها سابقاً. يذكر أن الوزير المغربي كان ذا خبرة واسعة في الشؤون الإدارية والدولية والنظم والقوانين السياسية والعسكرية في عصره. وقد إكتسب تلك الخبرة بحكم ممارسته العملية وتوليه المناصب العالية، حيث كان رئيساً لديوان الزمام في الدولة الفاطمية عندما كان أبوه وزيراً فيها وتوليه الوزارة في الدولتين البويهية والعتيلية. ولكن ذلك لايعني أن الوزير المغربي أدخل كافة النظم والقوانين الموجودة في الدولتين الفاطمية والعباسية الى الدولة الدوستكية، وأن هذه الأخيرة قد أخذت حتى القوانين الجائرة أو أنها فرضت على شعبها الضرائب التي كانت موجودة في مصر والعراق. فلاشك أنه كانت للدولة الكردية قوانين وأعراف خاصة بها مستمدة من بيئة كردستان الإجتماعية والإقتصادية والعقائدية (الدينية). أي كانت لها قوانين وسياسة خاصة تجاه المسلمين والمسيحيين والزردشتيين (البرسيين) واليهود والأقليات القومية، ولاسيما القوميتين الأرمنية واليونانية غير الموجودتين في مصر والعراق. كما كانت للدولة الدوستكية نظم وأعراف تختلف في جوانب عديدة عن الموجودة في الدول الأخرى، كسياستها المالية والإقتصادية. فالتعامل بالدينار

(١) الفارقي، ص ١٣٨.

البيزنطي على نطاق واسع في الدولة الدوستكية من أبرز أمثلة ذلك الإختلاف، الذي إتسم بوجود أنظمة وقوانين خاصة مرنة وديمقراطية ومنسجمة مع سياستها الداخلية، التي لم يكن لها مثيل في سياسات الدولة الفاطمية أو العباسية أو البويهية وكذلك السلجوقية، لاسيما في عهد الأمير نصرالدولة وإبنه نظام الدين البالغ مدة (٧١) سنة.

هنا تبرز مسألة يجب شرحها بشكل موجز، ألا وهي أن الدولة الدوستكية كانت تابعة للدولة العباسية وشعار التبعية التقليدي والقانوني هو إقامة الخطبة للخليفة العباسي، أي ذكر إسمه والدعاء له في خطبة الجمعة من قبل الخطيب بجانب إسم الأمير الحاكم وكتابة إسم الخليفة كذلك على النقود. وكانت الدولة الدوستكية تقيم شعار التبعية إذ نجد مثلاً إسم الخليفة العباسي على النقود الدوستكية. ولكن هذه التبعية لم تكن من الناحية الشرعية والقانونية الإسلامية سوى تبعية نظرية. فالدولة لم تكن تخضع للخلافة أو الدولة العباسية في تخطيط سياستها وإدارة شؤونها. وتفسير ذلك أن الشريعة الإسلامية كانت تلزم المسلمين كافة، بمن فيهم أمراء وولاة الأقاليم، تقديم الطاعة لإمام المسلمين الذي كان يمثله الخليفة، ولو أن شروط الخلافة لم تكن موجودة فيه.

في الواقع كان الملوك والأمراء المسلمون في شتى أرجاء البلاد الإسلامية يعتبرون طاعة الخليفة بعد تأسيس الدولة العباسية أمراً شرعياً من الناحية الدينية، وكانوا يقيمون شعار الطاعة. وبخلاف ذلك كان الملك أو الأمير وحكمه يعتبر خارجاً على الشرع وحكمه غير شرعي. ولهذا فإن الدول التي نشأت في البلدان الإسلامية كانت تقيم الخطبة للخليفة وتعترف بزعامته من الناحية الروحية، ولو كانت غير خاضعة له في إدارة شؤون بلادها. ومن هذه الدول: الدولة السلجوقية والغزنوية والطورونية والأيوبيية من الدول الإسلامية القوية. فهذه الدول إضافة إلى إقامتها الخطبة للخليفة العباسي، كانت تنقش إسمه على نقودها. وكان إرسال الخليفة بدوره اللقب والتوقيع والخلع إلى ملوك وأمراء الأقاليم الإسلامية، يعد إقراراً منه بشرعية حكوماتهم. وكانت تلك الدول والإمارات تكتب على أثارها أحياناً إسم الخليفة أو صفة "أمير المؤمنين" فقط. فبالقرب من باب الرض في فارقين مثلاً كتابة لصالح الدين وصف نفسه فيها بـ(مغيث الخلافة) و(محيي دولة أمير المؤمنين) أي دولة الخليفة العباسي (٢).

وهناك في كتابات دياربكر وفارقين أمثلة كثيرة من هذا، وعلى هذا الأساس كانت تبعية الدولة الدوستكية للدولة العباسية. فالأولى وإن لم تكن من الدول كبيرة الحجم، إلا أنها كانت دولة مستقلة وذات سيادة كما مر التفصيل في بداية الفصل الأول. والجدير بالذكر أن الملوك الدوستكيين أطلق

(٢) نص الكتابة وهي كوفية مزخرفة جميلة: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله مما أمر بعمله مولانا الملك الناصر العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد المرابط... صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين باسط العدل في العالمين مجد الأمة مغيث الخلافة صاحب ديار مصر وزبيد وعدن ويمن والشام ودياربكر أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين". الكتابة من (ص٣٦٦) من Diarbakir Tarikhi، لبيسان أوغلو.

عليهم لقب (الأمير)، مثل كثير من ملوك الدول المختلفة كالطولونيين والإخشيديين في مصر والغزنويين، رغم تلقب (السلطان) محمود الغزنوي بملك الملوك وكذلك السامانيين والحمدانيين والأمويين في الأندلس. إلا أن مؤسس الدولة الدوستكية أطلق على نفسه لقب پاد (PAD) بمعنى الملك أو الحاكم.

الإمارة

كان الأمير الشخص الأول في الدولة والحاكم الأعلى المهيمن على السلطة وله أوسع السلطات، وله الحق وحده في إقرار أمور عديدة هامة: كإعلان الحرب وعقد الصلح وتعيين ولي العهد وإيفاد الممثلين الى الدول ورسم سياسة الدولة بصورة إجمالية وينتهي اليه حسم ما يعرض عليه الوزير من القضايا الهامة. وكان الإعلان عن تنصيب الأمير الدوستكي في الإمارة يتم في إجتماع كبير واسع يحضره الوزير، وقائد الجيش، والأمراء، وكبار شخصيات العاصمة، وأبناء الأسرة الدوستكية الحاكمة كما كان يحضره القاضي، والشهود، وكذلك الشعراء والقراء لينشدوا أناشيد التهئة بالولاية والحكم^(١).

أما المنجمون فكانوا يحضرون مراسيم تنصيب الأمير في بعض الأحيان، ويكون للمنجم رأي بعد أن يأخذ الطالع في تحديد يوم الإعلان الرسمي وجلس الأمير في الحكم، كما حدث في تنصيب الأمير ناصرالدولة منصور. حيث أخذ المنجم الشهير (إبن عيسون) الطالع، فلم ير الإعلان عن تأميره وتعيينه في الإمارة إلا بعد ثلاثة أيام من وفاة والده نظام الدين^(٢). فتم فعلاً إرجاء جلوس الأمير على التخت (حسب تعبير الفارقي) الى اليوم الذي حدده المنجم إعتقاداً برأيه.

وكان الوزير أو الحاجب (أي للملك السابق) هو الذي يعلن عن تأمير الأمير الجديد ويخلع عليه زي الإمارة ويجلسه على التخت أي عرش الإمارة. ثم كان المجتمعون يسلمون عليه بالإمارة ويوسم بالملك، كما أجلس الحاجب مَم (مهم) (مهد الدولة) في الإمارة^(٣)، والوزير ابن جهير (نظام الدين)، والوزير أبو طاهر الأنباري (ناصرالدولة) منصور، ثم إن الأمير كان يغير ثيابه ويلبس ثياب العزاء ويترك السرير ويجلس على الأرض بدون بساط، فيعود الشعراء والقراء من غناء أناشيد الهناء الى إنشاد المراثي^(٤)، ثم يُشيع جثمان الأمير المتوفي الى مشواه الأخير. والراجح أن الأمير كان يؤدي

(١) تاريخ الفارقي، ص ١٢٨، ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) تاريخ الفارقي، ص ٢٠١.

(٣) بين لنا إيليا برشنايا مطران نصيبين اليوم الذي تولى فيه مهد الدولة الحكم، وهو يوم الخميس السابع من ذي القعدة من سنة (٣٨٧هـ). وذكر إنه كان حاكماً في مدينة الجزيرة، ولما سمع نبأ إغتيال أخيه (في أوائل ذلك الشهر) أسرع منها الى فارقين. أما الفارقي فذكر انه كان يرافقه أثناء سفره الى ديار بكر (آمد) ولم يشر الى أنه كان حاكماً في الجزيرة. ولعل ما قاله إيليا هو الصواب لأن الحادثة وقعت في زمنه. راجع ص ٢٠٠-٢٠١ من تاريخ إيليا ترجمه من السريانية الى العربية الدكتور يوسف حبي.

(٤) الفارقي، ص ٧٧، ١٢٨، ٢٠١، ٢٠٢. من المحتمل ان يكون المقصود بالقراء في كلام الفارقي (ص ٢٠٢) ما هو=

اليمن أمام الحاضرين بضمنهم القاضي والشهود، الذين كانوا يسجلون كما أرى كتاباً بتولي الأمير، على أن يكون مخلصاً للدولة والشعب وأن يعمل لخيرهما. وكذلك أدى (نصرالدولة) في مدينة (أرزن - غرزن) اليمن أمام خواجه أبي القاسم الأصفهاني وبحضور والده مروان وأمه (فهم)، كما أداها أمام الجموع المحتشدة في أرزن والمتكونة من سكانها والأمراء وقادة وأفراد الجيش الحاضرين هناك، ورؤساء ورجال العشائر المسلحين الذين تقاطروا على أرزن لنصرة الأمير على (شيروه). كما إن أبا القاسم والحاضرين أدوا اليمن أيضاً وحلفوا أن يكونوا مخلصين للأمير والدولة (٥).

هكذا كانت مراسم تنصيب الأمير الدوستكي أميراً على كردستان الوسطى، وقد خلدها لنا المؤرخ الكرديستاني أحمد بن يوسف الفارقي. وقد ذكرنا نص ما قاله بصدد تنصيب كل من الأمير محمد الدولة ونصرالدولة ونظام الدين ومنصور، فراجع هذه المواضيع في الجزء الأول. يذكر أن اثنين فقط من الملوك الدوستكيين توليا الحكم في ظروف إعتيادية إثر وفاة الأمير السابق وهما نظام الدين ومنصور. أما أبو علي حسن ومهد الدولة سعيد ونصرالدولة، فقد أخذوا بزمام الحكم في ظروف غير إعتيادية أي إثر إغتيال الأمير السابق. يذكر أن الأمير الدوستكي كان يُلقب أحياناً من قبل الخليفة أو الوزير أو الحاجب كالأمير أحمد بن مروان بن كك (كهك) الذي لقبه الخليفة العباسي القادر بالله سنة (٣٠٤ هـ = ١٠١٣ م) بنصرالدولة، كما لُقّب الحاجب مَم (مهم) الأمير سعيد بن مروان بمهد الدولة. وقال الفارقي أن الأمير سعيد هو أول من لُقّب من بني مروان (٦). وتجدر الإشارة إلى أن كل من تولي الحكم من الدوستكيين وصف بـ(الأمير) سواء في المصادر التاريخية أو في الوثائق، أي كما ورد في الكتابات الموجودة على الآثار العمرانية مثل سور دياربكر وجسر دجلة عند دياربكر، كما سيأتي نص الكتابات في موضوع الآثار العمرانية (٧).

ونستثني من التعميم المذكور نظام الدين فإنه وبالإضافة إلى وصفه بالأمير، فقد وصفه الفارقي بـ"السلطان" وذكر أن الوزير نظام الملك الطوسي لقبه بسلطان الأمراء، وذلك حين قدم إلى فارقين سنة

=متفق مع ما قاله الفلقشندي في صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٨، أي أن المقصود بهم من يسمون قراء الحضرة، إذ كان للخلفاء العباسيين قراء يرافقونهم في سفراتهم ومجالسهم، وكان هؤلاء يأتون في مجالس الخلفاء بأبيات قرآنية مناسبة للمقام.

(٥) الفارقي، ص٩٥.

(٦) نفس المصدر، ص٧٧.

(٧) وُصف العديد من ملوك الدول الإسلامية بالأمراء، فقد أطلق لقب (الأمير) على الطولونيين والإخشيديين، رغم تمتع مصر بالإستقلال في عهدهم. كما أطلق اللقب على الغزنويين رغم تلقيب محمود الغزنوي بملك الملوك، وكذا أطلق على السامانيين والحمدانيين وكذا على الأمويين في الأندلس إلى القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي. راجع حسين الباشا، الفنون الإسلامية، ج١، ص١٢١ و١٣٢، ومادة (الأمير) من ص١١٥-١٩١. الجدير بالذكر إن أول من تلقب بلقب (الملك) كان عضد الدولة البويهية. لقد وصف الأمير الدوستكي بـ(الملك) من قبل بعض المؤرخين، ولكن لم يقرنوه مع إسم الأمير وإنما قالوا مثلاً "كان نصرالدولة ملكاً حازماً". وعلى سبيل المثال راجع عبارة الخزرجي التي أدرجناها في الجزء الأول ص٢٦٥. ولهذا وصفناه أحياناً بالملك مثل قولنا "الملك الدوستكي".

(٨) (١٠٧١ = ٤٦٣ هـ).

لم يكن نظام الحكم في الدولة الدوستكية كما يظهر وراثياً في عهد كل من الأمير ياد بن دوستك مؤسس الدولة والأمير أبي علي والأمير محمد الدولة. ولكن الملاحظ أن حكم كل واحد من هؤلاء لم ينته بطروف إعتيادية، بل إنتهى بقتل كل واحد منهم. هذا فضلاً عن أن محمد الدولة لم يعقب ذرية، أما الأمير ياد فلم أجد إشارة فيما إذا كان قد ترك ذرية أم لا؟ أما الأمير أبو علي حسن فقد خلف ابنه الفضل أو (سنحاريب) الذي لم يتولّ الحكم بعد مقتل والده، لأنه عمه محمد الدولة هو من تولى الحكم، وأغلب الظن أنه كان غير قادر على الأخذ بزمام الحكم لصغر سنه (٩).

أما الأمير الرابع نصرالدولة بن مروان، فإنه جعل الحكم وراثياً. إذ أنه عهد بالحكم من بعده الى ابنه الثالث نصر (نظام الدين) وجعله ولياً للعهد، لأنه كان "ذا عقل ورأي وحزم وتدابير فولاه عهده من بعده لعقله ورأيه" (١٠). وقد عهد نظام الدين بالحكم الى ابنه الأكبر منصور (١١)، الذي تولى الحكم سنة (٤٧٢ هـ = ١٠٨٠ م) والذي سقطت الدولة في عهده.

لقد إقتدت الدولة الدوستكية بالدول المعاصرة لها كالدولة العباسية والفاطمية في إستحداث الحكم الوراثي المتمثل في (ولاية العهد). ولعل نصرالدولة وجد أن من الضروري إستحداث ولاية العهد، لذلك عهد بالحكم الى أحد أبناءه ورشحه ليحكم من بعد وفاته، وذلك خوفاً من احتمال نشوب نزاع على الحكم بين أبنائه لكثرتهم، لأنه كما قال الفارقي رزق أكثر من أربعين ولداً ذكر وخلف أكثر من عشرين منهم عند وفاته. (١٢)

الوزارة

إستحدثت منصب الوزارة في الدولة الدوستكية في السنة الثانية من تأسيسها. فعندما إحتل الأمير (ياد) مدينة الموصل سنة (٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م) إتخذ (أبا المطرف) عامل الدولة البويهية على الموصل، وزيراً له، وكانت لهذا مخبرات سرية مع الأمير ياد (١).

(٨) الفارقي، ص ١٨٨.

(٩) بين المطران إيليا يرشنايا اليوم الذي تولى فيه محمد الدولة الإمارة وهو اليوم السابع من ذي القعدة من سنة (٣٨٧ هـ) وكان يوم الخميس. راجع تاريخ إيليا، ص ٨٣.

(١٠) الفارقي، ص ١٧٧، ١٧٩.

(١١) الفارقي، ص ٢٠١، ٢٠٢.

(١٢) الفارقي، ص ١٧٨.

(١) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ٨٥.

فأبو المطرف هو أول من تولى الوزارة في الدولة الدوستكية، ولكننا لا نعلم عن مصيره شيئاً بعد إندحار القوات الدوستكية في السنة التالية. إذ لا نعلم هل رافق ياد أم إنه وقع في أيدي البويهيين؟ ومن هذا التاريخ الى نهاية عهد محمد الدولة لا نجد ذكراً لمنصب الوزارة أو للوزير، ما يدفعنا للإعتقاد بأنهما قد ألغيا. وخلال تلك الفترة كان الأمير أبو الفوارس بن دوستك (أخو ياد) يقوم بالمهام التي كانت من إختصاص الوزير عادة. أي كان يشرف على شؤون الدولة بعد الأمير، فكان يدير الشؤون الإدارية للدولة، كما كان والياً على العاصمة فارقين، بينما "كان ياد منشغلاً بفتح البلاد والعساكر، وبقي أبو الفوارس بميفارقين"^(٢). كما قام بنفس تلك المهمة في تلك الفترة الحاجب مَم (مهم)^(٣).

ومن بداية عهد نصرالدولة من نهاية سنة (٤٠١ هـ = ١٠١١م) وحتى سقوط الدولة للمرة الثانية في سنة (٤٨٦ هـ = ١٠٩٤م)، تولى الوزارة على التوالي: أبو القاسم الأصفهاني، وأبو القاسم المغربي، وإبن جهير، وكذا أبو نصر المنازي عند معظم المؤرخين. غير أن الفارقي ذكر أن (إبن بركة ناظر ديوان الجباية)، هو الذي قام مقام الوزير بعد وفاة المغربي الى أن تولى الوزارة إبن جهير^(٤)، وتولى هؤلاء الوزارة لنصرالدولة.

وتولى الوزارة لنظام الدين أيضاً إبن جهير، وأبو الفضل بن عبدالكريم الأنباري المتوفي سنة (٤٥٨ هـ)، ثم إبنه زعيم الدولة أبو طاهر سلامه. بينما شغل الوزارة أيضاً أبو طاهر مدة لناصرالدولة منصور، ثم شغلها الطبيب المسيحي أبو سالم (الفضل)، وأخيراً تولاها العالم والشاعر إبن الأسد الفارقي^(٥).

أما الوزارة من حيث سلطتها ودائرة أعمالها، فإنها وكما وردت في المصادر التاريخية على نوعين:

١ - وزارة تفويض

وهي أن يفوض الملك الى الوزير سلطات واسعة جداً في إدارة شؤون البلاد، فلوزير التفويض مثلاً الحق في تعيين الولاة والموظفين وعزلهم وصرف الأموال والرواتب لمن يحب ومنعها وقطعها عن من يريد. وله كذلك إطلاق سراح المسجونين ومصادرة الأموال (وله حق النظر في المظالم، وتقليد متول، وإقامة متصرف، وتدريب جيش وحرب، والتصرف في بيت المال) ولكن لا بد من عرض كل هذه الأمور على السلطان للموافقة وله رفض ما يشاء. ويرى قاضي القضاة الماوردي أن هذه الوزارة أفضل كي يشارك الوزير الإمام في إدارة الشؤون، وأصح من أن يتفرد الإمام (الملك) برأيه فيكون بهذه الوزارة أبعد عن الوقوع في الخطأ^(٦).

(٢) الفارقي، ص ٥٢.

(٣) الفارقي، ص ٦١. ٧٧.

(٤) الفارقي، ص ١٤٧.

(٥) راجع التفاصيل في مواضع وزارات هؤلاء كل على حدة في الجزء الأول.

(٦) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٢.

٢ - وزارة تنفيذ

ليس لهذه الوزارة سوى تنفيذ أوامر الملك. وليس لوزير التنفيذ سلطات واسعة كوزير التفويض ووزارته ضعيفة، لأن الوزير ليس إلا واسطة بين الملك والناس. كما إن وزير التنفيذ واسطة بين الملك وبين الولاة، فهو لذلك معين على تنفيذ الأمور وليس بوالٍ عليها. ويجب أن تجتمع في وزير التنفيذ سبع صفات وهي: الأمانة والصدق وقلة الطمع وأن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء وأن يكون يذكر ما يؤديه ويعلم الخليفة أو الملك لأنه شاهد وعليه أن يكون ذكياً فظناً وأن لا يكون من أهل الأهواء^(٧).

هذا وكان البعض من وزراء الدولة الدستورية وزراء تفويض، كما يفهم من كلام الفارقي بصدد وزاراتهم كأبي القاسم الأصفهاني، الذي منحه نصرالدولة سلطات واسعة "وردّ الأمور كلها إليه وحصل الأمير لا يفعل شيئاً إلا بأمره ورأيه"^(٨).

فهذا الوزير الذي لم يكن نصرالدولة يقدم على أمر هام أو يقره إلا بموافقته ليس إلا وزير تفويض. وكان الأمير الدستوري يثق به ويعتمد عليه إلى أبعد الحدود، وكيف لا فالأصفهاني كان صاحب الفضل الأول في إنقاذ الحكم الدستوري من الزوال على يد (شيرويه بن مم)، كما مر بالتفصيل في الجزء الأول. أما الوزير أبو القاسم حسين بن علي المغربي، فقد ذكر الفارقي أن نصرالدولة "ردّ الأمور جميعها إليه"^(٩). ولكن لم تكن ثقته به في مستوى ثقته بالأصفهاني، لاسيما أن المغربي كان معروفاً بحبه لإثارة الفلاقل والفتن، لذا لا أستطيع أن أقول بأنه كان وزير تفويض ولا أستطيع أن أجزم بذلك. أما فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير الموصلية، فقد قال الفارقي أيضاً أن نصرالدولة "ردّ إليه الأمر فحصل العقد والحل وفوضت إليه جميع الأشغال..."^(١٠). مع العلم إن ورود كلمة "فوضت" ومشتقاتها ليست دليلاً على أن الوزير وزير تفويض، حتى وإن قال الملك للوزير عند تعيينه "فوضتكم وزارتي". لأن وزارة التفويض تحتاج إلى كتابة عقد بذلك بين الملك والوزير^(١١).

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٥-٢٦. راجع أيضاً الوزير أبو سالم النصيب، محمد بن طلحة، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٤٦، طبع سنة ١٣١٠هـ. وأبو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي (ت ٤٥٨هـ) الأحكام السلطانية، طبع ١٩٣٨: موضوع الوزارة. وابن خلدون، مقدمة، ص ٢٣٩. وراجع كذلك: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٣٧. حسن إبراهيم وعلي إبراهيم، النظم الإسلامية، ص ١٥٣. ناجي معروف، المدخل إلى الحضارة العربية، ص ٣٥. توفيق البيزكي، الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية، ص ٢٨٦. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ١٤١.

(٨) الفارقي، ص ١٠٢.

(٩) الفارقي، ص ١٣٠.

(١٠) الفارقي، ص ١٥١.

(١١) الوزير أبو سالم، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٤٦.

وعلى هذا فإن ما نقوله في كون الوزير وزير تفويض أو تنفيذ، إنما هو رأي نستمدّه من سلطات الوزير دون أن يكون لدينا دليل قاطع على ذلك. وهنا وصلت الجولة الى الوزير الطبيب أبي سالم، الذي قال الفارقي أن الأمير ناصرالدولة: "ولّى الأمور كلها أبا سالم الطبيب نال ثقة الأمير وزوجته والدولة كلها بحكم أبي سالم وزوجته" (١٢).

ولما سمع ناصرالدولة منصور بإقتراب الجيوش السلجوقية من البلاد لإحتلالها سنة ٤٧٦هـ = ١٠٨٤م)، سلم أمر الدولة الى وزيره وجعله نائباً عنه وتوجه الى بلاط السلطان (ملكشاه) في أصفهان للتفاوض معه "...رتب أمر البلاد وسلمها الي أبي سالم وزوجته وأمر الجند والناس بالإنتياد الي أمره وألا يُخالف" (١٣).

وأخيراً كانت الدولة تختار لمنصب الوزارة شخصيات إدارية وسياسية كفوءة. وكان كل من الوزير أبي القاسم المغربي وابن جهير من الشخصيات المعروفة في التاريخ وقد تولى كلاهما الوزارة في بغداد. وقد أثنى الفارقي على الوزير أبي القاسم الأصبهاني وأبي الفضل الأنباري وأبي طاهر الأنباري. وكان أبو الفضل قد مارس وظيفة إدارية في الدولة العقيلية، وأما الأصبهاني فكان يُلقب بـ"شيخ الدولة" حتى قبل أن يتولى الوزارة وكان ذا رأي وكفاءة. وأما الشاعر (ابن الأسد الفارقي) فكان شهماً جسوراً محبباً من قبل الطبقة الوسطى والكادحة في فارقين وبين المعنيين بالأدب والعلوم العربية، وكان له تلاميذ يشدون أزره. أما أبو سالم فكان من أطباء الدولة، ولكن الفارقي ينتقده على سياسته. ولعل ذلك غير خالٍ من تعصب الفارقي الديني، حيث إن أبا سالم كان مسيحياً. إلا أن الفارقي كان صائباً في إنتقاده ذلك، وذلك بسبب تقدير الوزير الخاطيء في مقاومة الجيوش السلجوقية الى مدى أبعد، حتى إذا دام الحصار السلجوقي عشر سنين أخذ الأمير ناصر بتقديره فرفض إقتراح السلطان ملكشاه بتقسيم البلاد الدوستكية (١٤).

وكان أبو سالم يكره السلاجقة مثل سيده، لأنهم كانوا يضطهدون المسيحيين ويحرمون عليهم إشغال الوظائف في دولتهم.

٣- الحجابة

يدعى صاحب هذه الوظيفة بـ"الحاجب" وهو الواسطة بين الملك والناس، وهو الذي يعد مواعيد مقابلات الملك وماهو من هذا القبيل، وربما يستشير الملك في قضايا هامة ويوسع سلطاته. لقد إتسعت سلطات الحاجب الى سلطات الوزير في بعض الدول في القرون الوسطى. وقد وجدت بأن هذه الوظيفة قد تطورت في دول مختلفة حتى صارت في فترة من فترات العهد السلجوقي واسطة بين

(١٢) الفارقي، ص ٢٠٦.

(١٣) الفارقي، ص ٢٠٨.

(١٤) راجع الجزء الأول، ص ٣٠١ و ٣٠٥. والأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (ورقة ٩٤) لابن شداد الحلبي.

السلطان والوزير، حيث كان الحاجب يتلقى الأوامر منه رأساً ويبلغه الى الوزير (١٥). ويقابل الحاجب في عصرنا هذا السكرتير أو رئيس التشريفات.

لقد إعتبر المفكر ابن خلدون هذه الوظيفة مثل الوزارة والوظائف الأخرى من حضارة الدولة. فقال إنه لم يكن "في دول المغرب وأفريقيا ذكر لهذا الإسم (أي الحاجب) للبدأوة التي كانت فيهم" (١٦). وكانت وظيفة "الحجابه" موجودة في الدولة الدوستكية الكُردية، ولعل أول حاجب فيها هو (عبدالله) الملقب بـ(عروس الخيل). وكان هذا كما يظهر من لقبه من خيرة الفرسان الكُرد ومن خيرة قادة الجيش الدوستكي. وقد صرح الوزير أبو شجاع الروذراوي بأنه كان حاجب ياد وجزع عليه الأمير لما سمع بمقتله في معركة الموصل سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م)، وأثر عليه مقتله وكان من نتائج المعركة الفاشلة قتل الأمير ياد نفسه، بعد سقوطه على الأرض أثناء إنتقاله من ظهر فرس الى أخرى وكسر ترقوته (١٧) وكان ضخيم الجسم.

وفي عهد الأمير حسن (أبي علي) كان الحاجب (مَم-مهم) و"كان شيخاً قد حنكته التجارب" (١٨)، ويُفهم من كلام الفارقي أن ابنه (شيره) كان حاجباً هو الآخر للأمير حسن (١٩). أما في عهد الأمير محمد الدولة، فقد ذكر الفارقي أنه لما تولى الحكم إستحجب شيره، أما مَم الذي "أجلس الأمير سعيد في الإمارة ولقبه بمهد الدولة" (٢٠)، فيُحتمل أنه ظل حاجباً أيضاً. علماً إنه حدث أن كان للأمير أو الملك الواحد أكثر من حاجب. فقد كانت وظيفة (حاجب الحاجب) موجودة في الدولة العباسية (٢١)، أي إن أحد الحاجب كان يصبح في مركز أعلى، خلافاً لما ذكرته في الجزء الأول (ص ١٣١) من الدولة الدوستكية.

أما في عهد كل من الأمير نصرالدولة ونظام الدين ناصرالدولة، فلم نجد ذكراً للحاجب ما عدا إشارةً وردت في إحدى رسائل المؤيد في الدين الشيرازي المرسله الى نصرالدولة، وفيها إنه إستلم

(١٥) الدكتور حسن باشا، الفنون الإسلامية، ج ١، ص ٣٨٥.

(١٦) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٤١. بخصوص الحجابه راجع ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، ج ١، ص ٢٦٩-٢٧٤.

(١٧) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ١٧٦. معنى عروس الخيل بالكُردية (بوكاسواران) يحتمل أن لقب عروس الخيل تعريباً للقب الكُرد (بوكاسواران) الذي يطلقه الكُرد على من هو أكثر كفاءة من كافة الفرسان وهو لقب مازال حياً في كردستان تركيا حتى الآن.

(١٨) الفارقي، ص ٦٦ و ٦٧.

(١٩) نفس المصدر، ص ٧٥ و ٧٦. ذكره إيليا برشنايا بإسم (شيروين). راجع تاريخ إيليا برشنايا، ص ٨٤، المسمى (كتاب الأزمنة).

(٢٠) الفارقي، ص ٧٧.

(٢١) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج ٣، ص ٣٨٠.

رسالته أي رسالة نصرالدولة من أحد حجابيه المقربين (٢٢). مع أن هذا لا يعني هنا الحجابة الرسمية وأنه كان حاجباً رسمياً.

أما إذا نظرنا إلى سلطة الحاجب في الدولة، فسنترى بأنها كانت واسعة كسلطة الوزير بحيث يصعب التمييز بينهما. فالفارقي قال مثلاً أن مم "بقي يسوس دولة أبي علي ويدبرها أحسن تدبير" (٢٣). وهذا الوصف يطابق وصف المؤرخين عادة لمجمل سلطات الوزير بكونه مديراً لسياسة الدولة. ويطابق كذلك وصف الفارقي نفسه للوزير الأصبهاني والمغربي، ولهذا ظننت أولاً أنه كان وزيراً لأبي علي ووصفته بالوزير ولكن مع وضع علامة الإستفهام (٢٤). لقد كان لشيروه بن مم أيضاً سلطة واسعة كسلطة الوزير، كما يظهر من كلام الفارقي الذي قال إن: "مهد الدولة إستقر في المملكة وشيروه صاحب الرأي والمشورة ونديم الأمير وصاحبه وأقرب الناس عنده والدولة بأسرها والبلاد بأمره" (٢٥). ولعل كلام الفارقي لا يخلو من مبالغة. وأخيراً يُحتمل أن الدولة ألغت وظيفة الحجابة ابتداءً من عهد نصرالدولة، حيث لم نجد ذكراً لهذا المنصب بعد ذلك أو أنها حددت من شأن الحجابة.

٤- ديوان الرسائل والإنشاء

من دواوين (دوائر ووظائف) الدولة المهمة ديوان الإنشاء الخاص بكتابة الرسائل. ويُعرف بديوان الرسائل والإنشاء وكذلك بديوان الرسائل والكتابة أيضاً. وسمي في الدولة السلجوقية بإسم (ديوان الطغراء) ولم يكن موجوداً في مصر قبل العهد الفاطمي. أما الموظف المختص والإنشاء فيعرف بصاحب ديوان الرسائل والإنشاء وبكاتب الإنشاء أيضاً. من شروط هذه الوظيفة أن يكون صاحبها أديباً لامعاً وكاتباً بارعاً يجيد فن الإنشاء والتراسل متقناً لأساليب البلاغة وفنونها. وأن يكون من أهل المروءة ومنتصفاً بالإحتشام والأمانة لأنه كاتب سر الملك. أما أهمية ومكانة هذه الوظيفة فقد، إعتبرها الوزير أبو سالم ثاني وظيفة في الدولة، أي أنها تأتي بعد الوزارة من حيث الأهمية. وقال أبو سالم في ذلك: "وكتابة الإنشاء من مقومات الدولة وقواعد المملكة وصاحبها المباشر لها في خدمة السلطان معدود من أكابر الأعضاء والأعوان.... نازل منزلة القلب واللسان من الإنسان، فإنه المطلع على الأسرار والمجتمع لديه خفايا الأخبار" (٢٦).

وقد إقتبس أبو عبدالله بن الأزرقي في (بدائع السلك في طبائع الملك، ج ١، ص ٢٧٦) قولاً لأرسطو (موجهاً إلى الملك) بخصوص أهمية دور الكاتب، فقال: "إنه يترجم عن إرادتك ويطلع على أسرارك"،

(٢٢) سيرة المؤيد، ص ١١٣. راجع نص الرسالة في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية.

(٢٣) تايخ الفارقي، ص ٦١.

(٢٤) راجع الدولة الدوستكية، ج ١، ص ١٣١.

(٢٥) الفارقي، ص ٨٠.

(٢٦) أبو سالم محمد بن طلحة النصيبي، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٤٧.

ووصاه بتقدير الكاتب وإحترامه. ولهذا يرى البعض أن مركز صاحب ديوان الإنشاء لا يقل عن مركز الوزير (٢٧).

وقد إستغنت " كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة، التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا إستحكام الصنائع..." (٢٨).

أما واجبات صاحب ديوان الرسائل وأعماله حسبما حددها المؤرخون في القرون الوسطى، فتتمثل في: القيام بكتابة رسائل الملك الرسمية الى الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة، وكتابة الإتفاقيات والمعاهدات بين دولته والدول الأخرى. وكان صاحب ديوان الإنشاء في العصر العباسي "يكتب في آخرها إسمه ويختتم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه إسم الملك أو السلطان أو إشارته، ويغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل (أي الرسالة) عند طيه والصاقه" (٢٩).

وربما كان صاحب ديوان الإنشاء يقوم بمهمة السفارة الى الدول الأجنبية لمهمات رسمية تتعلق بالسياسة الخارجية للدولة. وهكذا نرى أن صاحب هذه الوظيفة كان بمثابة وزير الخارجية أيضاً. وكان هذا الديوان يتسلم الرسائل من ديوان البريد، وكان لصاحب الديوان كاتب يرتب الكتب (٣٠).

لقد كانت هذه الوظيفة المهمة موجودة في الدولة الدوستكية، فقد أعطانا الفارقي إسم صاحب ديوان إنشاء الرسائل في عهد نصرالدولة والوزير أبي القاسم الأصبهاني، وهو أبو السعيد الكبير الكاتب ابن بختيشوع الخازن، الذي تولى تجديد جامع فارقين سنة (٤١١هـ = ١٠٢٣م). أما صاحب هذه الوظيفة في عهد الوزير أبي القاسم المغربي، فكان الأديب الشاعر أبا نصر أحمد بن يوسف المنازي، وعنه قال الفارقي: "وبقي الوزير في الوزارة... وكان نظر الديوان مردوداً الى بن بركة بين يدي الوزير وكاتب الإنشاء والرسائل المنازي الشيخ أبو نصر وكان من أهل منازجرد وكان فاضلاً شاعراً فيه الكفاية وترسل الى القسطنطينية مراراً الى ملك الروم..." (٣١).

وصلنا إسم شخص ثالث تولى هذا المنصب وهو أبو (الفرج الزهرجي) الذي كان كاتباً لامعاً. ويُفهم من رسالة ابن القارح الى أبي العلاء المعري أن أبا القاسم كان كاتباً لنصرالدولة حوالي سنة (٤٢٤هـ) على ما سنذكره.

وهكذا نجد أن هذه الدائرة المهمة (ديوان الرسائل والإنشاء)، التي إعتبرت من مقومات الدولة ومن أوجه الحضارة، كانت موجودة في الدولة الكردية وأن المنازي تولاه في عهد الوزير المغربي، وأن الدولة أرسلته في مهمات دبلوماسية الى الدولة البيزنطية. وقام المنازي كما قال المؤرخون بزيارة لبلاد

(٢٧) الدكتور حسن إبراهيم وعلى إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ١٨٠.

(٢٨) ابن خلدون، مقدمة، ٢٤٣.

(٢٩) ابن خلدون، مقدمة، ص ٢٤٣.

(٣٠) الدكتور حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم شريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ١٤٤.

(٣١) الفارقي، ص ١٣١.

الشام وأخرى لبغداد (٣٢). وزار بلاد الشام مرتين على الأقل قبل عهد الأمير نصرالدولة، وكانت الأخيرة في عهد الأمير محمد الدولة والأولى في عهد الأمير حسن، وذلك على ما يظهر من إشارة المؤرخين إلى إجتماعه في الزيارتين بأبي العلاء المعري، الذي أبدى إعجابه بالمنازي كما سيأتي في موضوع الحياة الثقافية. وكان بين الزيارتين مدة خمس عشرة سنة، ومن المحتمل أنه أرسل بمهمة دبلوماسية إلى الدولتين الفاطمية والعباسية.

٥- الحسبة (النقابات)

دعي صاحب وظيفة الحسبة (بكسر الحاء سكون السين وفتح الباء) بد (المحتسب)، وتنقسم واجبات هذه الوظيفة إلى قسمين:

- ١- ما يتعلق بالأمر الدينية؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
 - ٢- ما يتعلق بحقوق الناس والمعاملات ومراقبة السوق والإشراف عليها ومراقبة المكاييل والموازين لمنع الناس من الغش فيها وتحديد أسعار بعض المواد، ومراقبة كل ما يكون عرضة للغش والتلبس من أنواع المركبات وأصناف المخلطات كالأشربة والمعاجين... والأدهان والحلويات والشموع وأنواع الوبر وأصناف المأكولات والأطعمة والكسوات... (٣٣).
- وكان المحتسب ورجاله يعملون على: "حفظ أموال التجار والغرباء الواردين من الأمصار، الرعايا فيما تدعوهم إليه حاجة الإضطرار بإقامة الضمان للسماسرة والدلالين والباعة والنقلة والحمالين والمكارية والجمالين..." (٣٤). ومن واجبات وظيفة الحسبة أيضاً مراقبة نظافة شوارع المدينة، ومراقبة البناءات المتداعية المشرفة على السقوط لهدمها تجنباً من سقوطها على الناس وما ينشأ من ذلك من أضرار. ولهم أن يمنعوا الحمالين من حمل الشيء الثقيل ومنع أصحاب الدواب من تحميلها بأحمال ثقيلة، ومنع معلمي صغار الأولاد من ضربهم ضرباً مبرحاً (٣٥).

(٣٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤٤. العماد الأصبهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٣٤٨. الحموي، معجم البلدان، ج ٧، ص ١٦٧. ابن الوردي، ج ١، ص ٣٤٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٥٤. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٣، ص ٢٥٩. فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠، ص ٢٥٣. حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج ٢، ص ٣٦٧.

(٣٣) أبو سالم النصيبي، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٨٠.

(٣٤) نفس المصدر، ص ١٨٠. راجع أيضاً ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، ج ١، ص ٢٦٢-٢٦٣. والدكتور عبدالعزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي، ص ٦٩.

(٣٥) ابن خلدون، مقدمة، ص ٢٢٥. راجع المصادر الآتية: الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ٥٧٨. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ٢٣٣، الطبعة الثانية ١٩١٤. الدكتور ناجي معروف، المدخل إلى الحضارة العربية، ص ٤٦. الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج ٣، ص ١٠٣١.

ويراقب المحتسب أيضاً الأطباء والصاغة والنساجين والصباعين والقصابين وأصحاب السفن (٣٦)، والمعلم والحاكمة والمختص بمعاملة النساء في مجال ما، وتجاوزات الأبنية على الطرقات العامة في المدينة، وله أن يهدمها حتى وإن كانت مسجداً. كما يمنع المحتسب إحصاء الأدميين والبهائم ومن خضاب الشيب بالسواد، إلا في حالة الحرب (الجهاد)، وكذلك تصيغ النساء. كما يمنع المحتسب من التكسب بالكهانة واللاهو. وقد وردت خلاصة مهام المحتسب في عدد من الوثائق الرسمية، منها مرسوم صادر عن الخليفة العباسي الطائع (٣٦٤-٣٨١هـ) سنة ٣٦٦هـ يضم إقراره بسلطة الملك البويهبي فخر الدولة (٣٧). ومنها وثيقة رسمية مصرية من إنشاء القاضي الفاضل (تولى الوزارة لصالح الدين الأيوبي) عبارة عن مرسوم بتعيين شخص في الحسبة (٣٨).

أما سلطات المحتسب فتتدرج من التعريف والبيان إلى العظة والتخويف إلى الضرب وحبس المخالف، إن لم تنفعه محاولاته السابقة (٣٩). وللمحتسب أن يستعين بقوات الشرطة في تنفيذ أوامره عند الضرورة. كما إنه يساعد القاضي في تنفيذ الأحكام بسرعة لدى الحاجة. وكانت الحسبة في بعض الدول تابعة للقضاء، لاسيما في الفترات الأولى من نشوئها.

هذا وكان المحتسب يعين له نواباً، أي نقيباً في سائر المدن، ويعين لكل سوق رئيساً يدعى بـ"شيخ السوق" أو رئيس السوق يقوم بمراقبة سوقه في المجالات التي مر ذكرها، ويحل مشاكل السوق ويبلغ المحتسب أو نائبه بالمشاكل المستعصية عليه كبعض السرقات والخصومات والجرائم، وذلك ليحلها المحتسب نفسه.

أما الشروط الواجب توفرها في المحتسب ورجاله فمنها؛ التحلي بالورع والأمانة والنزاهة وليس شرطاً أن يكون كل واحد منهم عالماً، بل يكفي أن يكون مجرد قاريء. أما تاريخ نشوء هذه الوظيفة، فقد تحددت معالمها في نهاية القرن الثاني للهجرة، وذلك بعد ظهور المذاهب الفقهية وإزدهار التجارة وتقدم الصناعات وظهور الحاجة إلى مراقبة التجار والصناعات ومختلف العاملين في الأسواق. وذهب البعض إلى أن الحسبة هي استمرار لوظيفة (الأجورانوم) الموجوة في الدولة البيزنطية. وحاول البعض إيجاد صلة بين كتب الحسبة الإسلامية، أي المؤلفات في قوانينها، وبين كتب أخرى مشابهة عند البيزنطيين. أما الباحث الدكتور حسن الباشا، فيرى خلاف ذلك ويقول بأنها وظيفة إسلامية صرفة، ولعلها إنتقلت إلى بيزنطة عن طريق الحروب الصليبية (٤٠). ولكن ذلك غير صحيح فالعرب المسلمون

(٣٦) القاضي أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢٩٠-٢٩١ وفيه بحث مطول في الحسبة من ص ٢٦٨-٢٩٢. قاضي القضاة الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٥٥-٢٥٦ و ٢٥٨.

(٣٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٣٠ نص المرسوم.

(٣٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٤٦٠-٤٦٢: نص المرسوم.

(٣٩) الموسوعة العربية، ص ٧١٧، بإشراف محمد شفيق غربال.

(٤٠) الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج ٣، ص ١٠٢٨-١٠٢٩. راجع أيضاً الدكتور حمدان عبدالمجيد الكبسي، أسواق بغداد، ص ٣١٤-٣١٩.

أخذوا تنظيم الحرف والأسواق من الدولتين البيزنطية والساسانية وخاصة من الأولى (٤١).

وكانت دائرة أو وظيفة الحسبة موجودة في الأنظمة الحضارية والإدارية الدوستكية، كما كانت موجودة في الدولتين العباسية والفاطمية. وكانت نظم الوظيفة وقوانينها في هذه الدولة الكُردية مشابهة لتلك الموجودة في الدولتين المذكورتين. فقد نظمت الدولة الكُردية ووزعت المهن والحرف على أسواق مختلفة ومختصة. ونحن نستند إلى وجود هذه الوظيفة في الدولة الدوستكية على ما أورده المؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف الفارقي من أن (عبد البر)، الذي ترأس مؤامرة إغتيال الأمير أبي علي في مدينة ديار بكر، كان "شيخ سوق الطعام" (٤٢).

ولا يخفى بأن مصطلح "شيخ السوق" إصطلاح معروف في نظام الحسبة، ويُطلق على رئيس السوق العامل في الحسبة. ونحن نستدل في تفسيرنا هذا لـ "شيخ سوق الطعام" بما ورد في بعض المصادر في هذا الصدد. حيث قال الدكتور حسن الباشا مثلاً في مادة (شيخ): "... ومن جهة أخرى استخدم (الشيخ) كإسم وظيفية مدنية كان يطلق على رؤساء طوائف الحرف والصناعات. ذلك أنه جرت العادة في العصور الوسطى أن يعين لكل حرفة أو مهنة رئيس يسمى الشيخ... وكان هذا الشيخ يهيمن على أصحاب هذه الحرفة، وهو الذي يجيز للصانع مزاولة صناعته بعد إختباره. وكان يتخذ له معاونين. وكان يساعد المحتسب في رقابة الصانع... وهكذا وجد لكل حرفة أو صناعة شيخ مثل شيخ النجارين وشيخ الدباغين" (٤٣). وكان فوق شيوخ الأسواق نقباء وفوق النقباء المحتسب.

لم يرد في تاريخ الفارقي ذكر لإسم أحد المحتسبين في مدينة ما من مدن الدولة الدوستكية إلا مرة واحدة، حيث قال في (ص ٢٤٧): "إن قاضي فارقين أبا بكر بن صدقة عين أبا الحسن علي بن محمد بن صافي في الحسبة". ولكن لا نعلم بالتأكيد هل إنه تولى الحسبة في العهد الدوستكي، أو كان تعيينه في العهد السلجوقي، أو إنه مارس هذه الوظيفة في الدولتين؟ وكان والد المذكور عبداً لبني نباته. كما نعلم أن أبا الحسن تولى الحسبة في فترة قضاء ابن صدقة الممتدة من (٤٦٨-٤٩٠هـ) والمقسمة بين العهدين المذكورين. ويذكر الفارقي في (ص ٢٤٧) أنه لما أصبح وزيراً للأمير ألتاش السلجوقي أمير فارقين، أذى سكان فارقين كثيراً حتى أنه هدم بيوت عدد منهم، ثم قتله الرئيس أبو عبدالله ابن موسك.

(٤١) راجع صباح إبراهيم سعيد الشخلي، الأصناف في العصر العباسي: نشأتها وتطورها، ص ٧٠-٧٢ و١٤٢. وهو كتاب قيم في التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي.

(٤٢) الفارقي، ص ٧٥.

(٤٣) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج ٢، ص ٦٠٣-٦٣١ و٦٣٦. وفي هذا المصدر كتابات أثرية على المنشآت تحمل إسم بعض المحتسبين. في (الأصناف في العصر العباسي، ص ١٠٨) لصباح إبراهيم الشخلي، شرح لإصطلاح "الشيخ" قال فيه بأن لكل صنف من (الحرف والمهن) شيخ. فللبزازين شيخ وللنحاسين شيخ وللملاحين شيخ وللأطباء شيخ. ويسمى الشيخ بالرئيس أيضاً، حيث نجد للخياطين رئيساً وللتجار رئيساً وللخدم رئيساً. والشيخ أو الرئيس هو أحد أفراد الصنف. وأما إنتخابه، فيكون من قبل أعضاء الصنف وتعترف السلطة بتعيينه أو يعينه المحتسب. وهو الموظف الحكومي المسول عن الأصناف، فهو يمثل الصنف في كافة القضايا العامة ويتدخل في تحديد الأسعار بالتشاور مع المحتسب.

ومن الباحثين من يعتبر (الحسبة) نقابة عامة تضم في نظامها نقابات شتى. فتفويض كل سوق الى رئيس "شيخ" يشرف عليها وينظم شؤونها الإقتصادية والعلاقات القائمة بين أصحاب الحرف في كل سوق، مثل اسواق الحدادة والتجارة والنجارة والبز وسوق الطعام... إنما هو نقابة في حد ذاتها . فمثلاً كان التجار ينخرطون في تنظيمات مهنية خاصة بهم، فكانوا يؤلفون نقابات بحسب السلع أو يتجمعون في طوائف حسب السلع أو الأسواق أو المدن. وكان لكل نقابة رئيسها أو نقيبها ولكل طائفة شيخها... (٤٤). وهكذا كان "الصناعيون ينتظمون في نقابات تشبه النقابات الحديثة تحمي حقوقهم وتشرف على تأييد واجباتهم على الوجه الأكمل... إذ كان رئيس كل حرفة أو شيخ الصنعة هو المهيم على أفراد مهنته" (٤٥).

وهكذا نرى الباحثين يجزمون في دراساتهم بوجود النقابات في كل من الدولة العباسية والفاطمية، بل في معظم الدول الإسلامية (كالدولة الدوستكية) في القرون الوسطى. ومن المؤرخين من يرجع نشوء النقابات الى عصور أبعد. ومن هولاء (ويل ديورانت) الذي يقول بأنه كانت في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد نقابات لصناع المعادن والعاج والجلود وغيرها. وكانت النقابات تفرض النزاع بين الصناع وحتى بينهم وبين زوجاتهم (٤٦).

والدولة الدوستكية كدولة متقدمة وذات أنظمة حضارية لم تختلف عن مثيلاتها في هذا المجال، بل وضعت جهازاً للتنظيم الإقتصادي وتنظيم العلاقات الإنتاجية بين مختلف أصحاب الحرف والصناعات والعاملين في السوق. ونشأت في المدن الكردية، لاسيما الكبيرة منها كديار بكر والعاصمة فارقين نقابات مختلفة. وكانت المدن تضم أسواقاً عديدة يشرف على كل واحدة منها رئيس مثل عبد البر "شيخ سوق الطعام" في مدينة ديار بكر (آمد) ذات الأسواق الكثيرة. وقد ذكر الدكتور (أديب معوض) في كتابه (الأكراد بين أمس واليوم)، أنه كانت في هذه المدينة في العهد الدوستكي بضعة وستون سوقاً مختلفة ومنظمة. وسنذكر في موضوع الطب أن زاهد العلماء منصور بن عيسى كان رئيس الأطباء، وهو كإصطلاح الشيخ (شيخ السوق ورئيس السوق) يعبر عن نفس التنظيم الحرفي. وكانت في فارقين كذلك أسواق مختلفة ذكر الفارقي أسماء ثلاثة منها هي: سوق القبة التي تقع في وسط المدينة بالقرب من الجامع الكبير من جهة الغرب، وسوق البز أي سوق القماش، وسوق العطارين. وكان في السوق الأخير حانوت (صيدلية) للطبيب أبي سالم الوزير للعقاقير والأدوية الطبية (٤٧). وأن نظام الحسبة كان موجوداً في هذه الدولة الكردية.

وكانت الأسواق تعنى بتنظيمها ونظافتها، وبعضها الى حد بعيد. ويتجلى هذا فيما قاله الفارقي من أنه "كانت سوق البز (في فارقين) لها من الحرمة والناموس شيء كثير، بحيث أنه لا يدخل إليها

(٤٤) حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، ج ١، ص ٣٣١.

(٤٥) الدكتور محمد عبدالعزيز، الفن الإسلامي تاريخه وحضارته، ص ١٧٠.

(٤٦) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ج ٣، ص ٢٦.

(٤٧) الفارقي، ص ٦٦، ١٠٠، ١٦٥ و ٢٠٦.

راكباً البتة" (٤٨).

وأضاف أن أحداً من بني عم الأمير أبي علي دخل سوق البز (أي سوق القماش) راكباً، فشق ذلك على أصحاب السوق. ثم عاد بعد أيام ودخلها راكباً مرة ثانية "فراث فرسه في السوق، فأنزله من الفرس وألزمه حتى حمله في ذيله ورمى به خارج السوق". ولما سمع أبو علي بهذه الإهانة غضب فإستشار حاجبه العجوز "مهم" في وضع خطة للإيقاع بهم وبغيرهم من المعارضين. فبطش بهم فعلاً يوم العيد سنة (٤٨٤هـ = ٩٩٤م) (٤٩).

أخيراً إن نظام الحسبة نظام قديم، فقد كان موجوداً في العهد الجمهوري الروماني قبل الميلاد. وكان المحتسب (Aedile) و(الرقيب) والمدعي العام والقسطور (موظف المالية)، هم من طبقة (الحكام) من الدرجة الثانية. وكان زي المحتسب ورداؤه الرسمي يسمى (توكا پريتكتستا) الذي تنتهي أطرافه بشريط أرجواني (٥٠). وكان موجوداً في الدولة الساسانية أيضاً ولعلمهم أخذوها عن الرومان وأخذها المسلمون كذلك عن الدولتين البيزنطية والساسانية والأولى منهما خاصة.

٦- الأوقاف

كانت الأوقاف دائرة هامة من دوائر الدولة الدوستكية ومؤسسة دينية إقتصادية ذات شأن كبير. لما كانت تمتلكه من قدرة مالية واسعة والكثير من الأراضي والعقارات في مختلف المناطق، التي جعلها أصحابها وقفاً على الفقراء وأهل العلم والمباني الدينية والجسور وحراس المناطق الحدودية وأسوار المدن. وقد توسعت الأوقاف في عهد الدولة، فأصبحت تمتلك قرى بكاملها. وكان نصرالدولة يشجعها ويهتم بتوسيعها وتحسين إدارتها، وقد جعل شخصياً كثيراً من العقارات والأراضي وقفاً على الفقراء والجسور والمنشآت الدفاعية وعلى مستشفى فارقين.

ففي سنة (٤٠٨هـ = ١٠١٧م) أو التي قبلها أمر نصرالدولة وزيره أبا القاسم الأصبهاني ومدير الأوقاف الشيخ أبا محمد (الحسن بن محمد بن المحور)، أن يختارا قرية ذات دخل كبير بحيث تبلغ وارداتها السنوية من الخنطة ثلاثمائة وستين جريباً (٥١)، ليجعلها وقفاً على الفقراء والمساكين. فإختاروا له قرية (العطشا) فوقفها. وكان نصرالدولة يفرق وارداتها في جامع فارقين كل سنة على الفقراء والمساكين، وكان قد نذر في سنة قحط وغلاء في عهد م عهد الدولة، إذا تولى الحكم أن يتصدق بجريب من الخنطة كل يوم. فكان يفي بنذره أي يتصدق يومياً بالمقدار المذكور في جامع فارقين الى

(٤٨) الفارقي، ص ٦٦.

(٤٩) الفارقي، ص ٦٦ نص الحادثة في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص ١٣٣.

(٥٠) راجع آ. بتري، المدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم، ص ٥٦، ٥٨، ٦٠.

(٥١) الجريب: مكبال قدره أربعة أقفزة، والقفيز ثمانية مكاكيك، كما قال ابن منظور في (لسان العرب، ج ١، ص ٢٦١). والبستاني في (محيط المحيط، ج ١، ص ٢٣٠).

حوالي سبع سنوات. وخشي أن يغفل عن ذلك في يوم من الأيام، فوقفها في السنة المذكورة (٥٢)، أي إتخذها وقفاً. وكذلك جعل نصرالدولة وقفاً على سور مدينة فارقين عدداً من القرى والعقارات، حيث قال الفارقي: "... وفعل الخير وعدل في الناس وقف على سور ميفارقين ضياعاً ومواضع وفعل الخير ما لم يفعله أحد من بيته وأهله" (٥٣)، "ووقف على السور القرايا وغيرها" (٥٤). ووقف نصرالدولة أراض وعقارات على سبعة من الجسور في كُردستان، هي جسور "الحسنية و الحميدية وتل بنان وقطينيتا وبابودين والإبراهيمية وبرسدی" (٥٥). وبنى نصرالدولة حماماً أو حمامي العقبة، ووقفهما على السور. كما إنه بنى حمام الجديد في صحراء الشورجان ووقفها على السور أيضاً (٥٦).

كما إنه وقف على "جامع المحدثه" خارج سور العاصمة وقد جدد عمارته سنة ٤٢٣هـ = ١٠٣٢م، أما مستشفى فارقين (بیمارستان) الذي شيده نصرالدولة سنة ٤١٤هـ = ١٠٢٣م (٥٨) فقد "وقف له أملاكاً تقوم بكفايته" (٥٧).

ووقف التاجر (ابن البهات) قرية (بني نوح) الواقعة في سلسلة فتراثا والتي إشتراها بمبلغ (٥٠٠) دينار بيزنطي الذي ربحه في يوم واحد، ووقفها على حراس ثلاثة من الحصون الواقعة في منطقة دياربكر وهي حصون آكل وجاتره واليماني (٥٨).

أما إدارة الأوقاف، فقد أعطانا الفارقي معلومات قيمة عنها. فقد ذكر أن الموظف الذي تولى إدارتها في عهد كل من الأمير أبي علي ومهد الدولة، كان رجلاً مسيحياً يدعى (ابن شَلَيْطَا) (٥٩) وذكر إسمه في عدة مناسبات. ولما تولى نصرالدولة الحكم عينَ الشيخ أبا محمد الحسن بن محمد بن المحور مديراً للأوقاف (٦٠).

(٥٢) تاريخ الفارقي، ص ١١٥. وفيه قال إن القرية تقع في غرب فارقين وإنها لا تزال وقفاً إلى عهده أي في النصف الأخير من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي). وما زالت هذه القرية موجودة بنفس الإسم إلى القرن العشرين. فقد ورد إسمها في (ج ٣، ص ٣٢٣ من كتاب Diyarbikir) من تأليف (بسري كونيار Besri Kunyar). وورد فيه أيضاً ذكر قرية بإسم (تلمين) وأعتقد أنها قرية (ترمين) التي ورد إسمها في الفارقي، ص ١٨٤ ومضى ذكرها في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص ٢٧٥.

(٥٣) الفارقي، ص ١١٠.

(٥٤) الفارقي، ص ١٦٤.

(٥٥) الفارقي، ص ١٤٣ ورد في إحدى النسخ بابوزين وبرشدي وقطينيتا.

(٥٦) لم أستطع تحديد مكان الحمامين، الفارقي، ص ١٦٤.

(٥٧) الفارقي، ص ١٣٨.

(٥٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٥٩) الفارقي، ص ١٦٧. من المحتمل أنها قلعة الجبابرة واليماني. تقع (آكل) في شمال مدينة دياربكر بمسافة حوالي ٤٠ كلم، كما إنها تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة. وهي الآن مركز ناحية تابعة لقضاء مركز دياربكر تتبعها سبع عشرة قرية.

(٦٠) تاريخ الفارقي، ص ١٦٤.

وفي سنة (٤٠٩ هـ = ١٠١٨ م) عين في إدارتها بجانب ابن محور القاضي (أبا عبد الله الحسين بن سلمه المالكي) (٦١)، وذلك إهتماماً بشؤون الأوقاف وتقوية لإدارتها. وفي سنة (٤٣٥ أو ٤٣٦ هـ) فوض نصرالدولة إدارة الأوقاف الى القاضي (أبي منصور محمد بن شاذان الطوسي) (٦٢). وفي سنة (٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م) أناط الأمير نظام الدين إدارة الأوقاف والسور بـ(أبي الحسن أحمد بن القاضي أبي علي بن البغل) (٦٣).

أما جباة الأوقاف، فلم نطلع سوى على إسم واحد منهم فقط هو (أبو الحسن علي بن محمد بن صافي)، الذي كان جده مملوكاً لبني نباته، ثم صار محتسباً في عهد القاضي أبي بكر بن صدقة، على ما ذكره الفارقي في (ص ٢٤٦). وتوليه الوظيفتين يحتمل أن يكون في العهد الدوستكي أو في العهد السلجوقي أو في كليهما. وكان الشيخ أبو سالم يحيى بن الحسن بن المحور عينه جابياً. ويُفهم من ذلك أن أبا سالم كان مديراً للأوقاف بعد أبي الحسن بن البغل في عهد الأمير منصور، والإحتمالات المذكورة جارية بخصوص أبي سالم أيضاً.

وهكذا نستنتج من المعلومات التي وصلت إلينا حول الأوقاف بفضل الفارقي، أنه كان للأوقاف في كردستان الوسطى في العهد الدوستكي طابع يختلف في بعض الوجوه عن طابعها في العصر الحالي. فالوقف على الشخصيات الدينية أو المشايخ لم يكن موجوداً في ذلك العهد، بل كان الوقف على الفقراء وذوي الحاجة الماسة، وكذلك على المنشآت الدفاعية كأسوار المدن والقوات المسلحة (حراس الحصون)، وعلى الجسور والمنشآت الدينية كالمساجد والربط. أما الوقف على الشخصيات الدينية ومشايخ الطرق الصوفية، فقد نشأ بعد العهد الدستكي، عقب طغيان التصوف وانتشار الطرق الصوفية في كردستان، مثل الطرق القادرية والعدوية والسهروردية والخلوتية والنقشبندية. ولا تزال هناك في كردستان أوقاف كثيرة للمساجد والمدارس الكبيرة، ولكن بصورة أقل. لأن تلك الأوقاف قد أصبحت على العموم خربة مهجورة. وكانت تلك المدارس تعتبر فيما مضى معاهداً للعلم في كردستان، كمدرسة (مير آقديلي) و(مدرسة سور) أي المدرسة الحمراء في جزيرة بوتان. وفي المدرسة الأولى يقع قبر العاشقين (مهم وزين)، وفي الثانية قبر الشاعر الكبير "مهلاي جزيري".

كانت حتى العشرينات من هذا القرن توجد قائمة قديمة بأسماء أوقاف المدرستين المذكورتين أعلاه لدى العالم المرحوم (الملا عبدالسلام) الجزري، وكانت تضم عدداً من القرى بكاملها، والتي تقع الآن وراء الحدود السورية ومنها قرية "عين ديور". وما زالت هناك أملاك غير قليلة من بقايا أوقاف مدرسة طانزه "مدرسة مير ناصر" في بوتان ومدرسة (مير حسني ولي) في مدينة (مكس). أما مدرسة (شرفيه) وجامع شرفيه، اللذين بناهما في مدينة بدليس الأمير شرفخان (جد الأمير شرفخان

(٦١) الفارقي، ص ١١٥ كان بنو المحور من كبار أغنياء ورؤساء فارقين.

(٦٢) الفارقي، ص ١١٦.

(٦٣) نفس المصدر، ص ١٦٢.

المؤرخ)، فما زالت أوقافهما موجودة وكذلك زاوية "تكيه" الجامع منذ أن شيدهما الأمير في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي) (٦٤).

مازالت الأسرة الشرفخانية في بدليس تحتفظ بسجل الأوقاف المذكورة، والذي يضم أسماء أملاكها والذين تولوا إدارة تلك الأملاك من سلالة شرفخان جيلاً بعد جيل حسب وصيته. وقد سمعت بمسألة الإحتفاظ بالسجل عن طريق السيد ضياء شرفخان اللاجيء السياسي حينها، والذي توفي في قبرص. الجدير بالذكر أن وقف الكثير من الملوك والأمراء مثل نصرالدولة الأملاك على آثارهم العمرانية، يعود الى صفة البقاء للوقف. لأن الملك الموقوف يحرم بيعه وشراؤه بموجب الشريعة الإسلامية، ولهذا فإن واردات الوقف كانت تبقى لقرون تُصرف على الموقوف عليه أو في طريق الخير. إن تأمين وقف كاف للمساجد والمدارس الدينية والجسور معناه تأمين البقاء لها مدة طويلة. وذلك لأن الموارد المالية لتلك الأوقاف كانت تُصرف على تلك المنشآت وتُرمم بها عند الحاجة مما يوفر لها سبباً من أسباب البقاء قروناً طويلة في الغالب.

تجربة الدولة الدوستكية في السيطرة المباشرة على الأوقاف

رغم أن الأوقاف تعتبر أموالاً دينية لا تباع ولا تشتري، إلا أنها لم تكن في الدولة الدوستكية مستقلة إستقلالها اليوم في الدول الإسلامية. فقد كانت الأوقاف تحت إشراف الدولة المباشر وتستخدمها كمصدر من مصادرها المالية الأخرى تقريباً في أمور غير دينية أيضاً، كالمشاريع العمرانية والمنشآت الدفاعية. كما كانت تصرفها على القوات المسلحة المرابطة في الحدود الكرديّة - البيزنطية. وعلى سبيل المثال شرع نصرالدولة سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٤م) أو ما يقاربها بحفر قناة مائية عظيمة من (رأس العين) الى العاصمة، ووزع ماها على جداول فرعية في مدينة فارقين. وكان نصرالدولة قد حفر سابقاً قناة أخرى. وذكر الفارقي أن تكاليف هذه القناة كانت "مالاً كثيراً" وكلها من أموال الأوقاف الفائضة (٦٥).

ومن هذا نستدل بأن أموال الأوقاف لم تكن تصرف في الأمور الدينية فقط، بل كانت تصرف في مصالح الشعب العامة وفي خدمة البلد أيضاً كالقناة الثانية. هذا علاوة على أن طبيعة الوقف على الجسور السبعة ومستشفى فارقين، وعلى القوات المسلحة في الحصون المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية، ليست ببعيدة عن قولنا أن الدولة الكرديّة كانت تصرف الأوقاف في مصالح البلاد العامة... وهكذا كانت تسيطر على الأوقاف سيطرة مباشرة.

ونعلم من هذه الحقيقة بأن وضع الأوقاف في الدولة الكرديّة كان يختلف عن وضعها حالياً في

(٦٤) راجع، ص ٥٢٥-٥٦١ من "شرفنامه" طبعة القاهرة باللغة الفارسية، وفيه تفاصيل عن حياة الأمير شرفخان الذي قُتل سنة (٩٤٠هـ في معركة مع قوات الدولة العثمانية التركية). وتاريخ بناء الجامع الذي بجواره قبة شرفخان يعود الى سنة (١٥٢٨م) كما في: Hayat Turkiye Ansiklopedisi .

(٦٥) تاريخ الفارقي.

الدول الإسلامية كالعراق مثلاً. حيث إن الأوقاف مستقلة الآن عن سيطرة الدولة المباشرة، فمالياتها غير خاضعة لوزارة المالية وميزانية الدولة. ولهذا لا تستطيع الحكومة أن تستخدم أموال الأوقاف في مشاريعها العمرانية والصناعية وفي مصالح البلاد العامة غير الدينية. وبإمكان الحكومات الإسلامية الآن الأخذ بتجربة الدولة الدوستكية، وإحيائها في السيطرة المباشرة على الأوقاف التي تملك في كل دولة إمكانات مالية واسعة، لإستخدامها في مصالح البلاد العامة وفي الأمور الدينية. وبالسيطرة المباشرة على الأوقاف والإستخدام المباشر لوارداتها المالية تكون الإستفادة منها أكبر وأوسع.

أخيراً إن تعيين موظف مسيحي هو (إبن شَلَيْطَا) مديراً ولمدة طويلة لهذه المؤسسة الدينية الإسلامية (الأوقاف)، لهو خير دليل على مدى ديمقراطية الدولة الدوستكية وتسامحها الديني ومساواتها بين المسلمين والمسيحيين في ظل الحكم الكردي.

٧- إدارة السور

كانت إدارة السور وظيفية من وظائف الدولة الدوستكية. ولشدة الإعتناء بأسوار المدن الكردية وإعتبارها من أهم المنشآت الدفاعية وحاجتها الى الترميمات وما تتطلبه من أشغال (ولاسيما سور فارقين وذلك لأنه أصبح متداعياً عندما أخذ الشعب الكردي بمقاليد الحكم في كردستان الوسطى)، أفردت الدولة الدوستكية لإدارة شؤونها دائرة خاصة. ولهذا اضطرت الدولة الدوستكية الى ترميم سور فارقين وإعادة بناء معظمه. وعن ذلك قال الفارقي: "واتفق إن سور ميفارقين مسك نفسه في جميع الدول وإنهدم منه أقرب شيء وبقي الى ولاية بني مروان (أي الدوستكيين)، فإستهدم فيه مواضع كثير، فبنى الأمير أبو الفوارس بن دوستك أخو باد بعضها (واسمه على السور في مواضع كثيرة)" (١).

أمّا الأمير أبو علي فقد بنى فيه مواضع وإسمه عليها، وبنى نصرالدولة ونظام الدين مواضع كثيرة من أبرجة ویدانات وغيرها وعمرت أحسن عمارة (٢).

وقد وجد الفارقي إسم م مهد الدولة على إثنين وخمسين موضعاً بناها في السور ظاهراً وباطناً (٣). وعدد الفارقي أيضاً الأقسام التي بناها نصرالدولة في سور العاصمة، فكانت أكثر من أربعين قسماً من ظاهره وداخله وقد وجد عليها إسمه (٤).

إن الحاجة الى الترميمات لم تكن مقتصرة على سور فارقين وحده، لأن الدولة الدوستكية رمت وبنّت أقساماً من أسوار مدن أخرى. ولدينا الآن صور لأربعة عشر موضعاً من سور مدينة دياربكر يعود الى الدولة الدوستكية ويحمل أسماء بعض من ملوكها، مثل نصرالدولة وناصرالدولة منصور،

(١) الفارقي، ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر، ص ١٦٣ وفي ص ١٩٩، أن نظام الدين زاد في إرتفاع مواضع عديدة في سور فارقين ودياربكر.

(٣) نفس المصدر، ص ٨٦.

(٤) نفس المصدر، ص ١٦٣-١٦٤.

كما سيأتي بالتفصيل في موضوع العمران.

أما الموظف المسؤول عن إدارة السور، فإنه إذا وجد ضرورة في ترميم وإعادة بناء بعض الأقسام أو زيادة إرتفاعها، كان يعرض ذلك على الأمير ويهييء العمال والبنائين والمواد الإنشائية ويشرف على الأعمال ويقوم بصرف الأجور وما إلى ذلك ما يدخل ضمن واجباته.

لقد كانت إدارة السور تُفوض أحياناً إلى مدير الأوقاف نفسه وأحياناً إلى القاضي. وقد ذكر الفارقي أن أبا حسن أحمد بن القاضي أبي علي بن الحسن بن علي البغل، كان أحد المرشحين لقضاء فارقين، ولكن بعد فوز أبي بكر بن صدقة بالقضاء عين أبو الحسن "في الوقف والسور" (٥).

وذلك سنة (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م). وهذا دليل على إن إدارة السور كانت تعتبر من الوظائف المدنية. وكان إسم المشرف على ترميمات السور يُكتب أحياناً بجانب إسم الأمير الدوستكي، إذ يوجد الآن على سبيل المثال إسم القاضي أبي علي الحسن بن علي بن أحمد (بن البغل) على موضعين من سور دياربكر أشرف على بنائهما بتاريخ (٤٣٧هـ = ١٠٤٦م و٤٤٤هـ = ١٠٥٢م) (٦).

والكتابتان الموجودتان على هذين الموضعين تعتبران من أجود الأفاريز الكتابية الكوفية المزخرفة الموجودة على سور دياربكر، تناولها الباحثون، وفي مقدمتهم العالم السويسري (فلوري)، بالدراسة والتحليل كما سيأتي ذكره بالتفصيل في موضوع الكتابة الكوفية المزخرفة وموضوع الآثار العمرانية. كما يوجد إسم القاضي أبي الحسن المذكور على ما شيده في أيام نظام الدين من البرجين الصغيرين داخل الباب الشرقي لميافارقين أي باب (قلوفح)، وكان إسمه في الجامع المذكور فوق طهارة الحدادين وعلى البناء الخمس في فارقين كما سيأتي. وكذلك يوجد إسم القاضي أبي الحسن عبدالواحد بن محمد بن علي على موضع من سور دياربكر، حيث تولى بناءه من قبل الأمير نظام الدين سنة (٤٦٠هـ). كما تولى المذكور في سنة (٤٥٧هـ = ١٠٦٥م) الإشراف على تشييد الجسر الكبير الواقع على نهر دجلة عند مدينة دياربكر، والذي نشرنا صورته في الجزء الأول. ويوجد إسمه الآن على الجسر أيضاً كما سيأتي في موضوع العمران. ويوجد إسم القاضي أبي الحسن عبدالواحد على قلعة دياربكر (٧).

وفي سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) تولى القاضي أبو نصر محمد بن عبدالواحد من قبل الأمير منصور بن نظام الدين إعادة بناء قسم من سور دياربكر في منطقة باب خربوت كما يوجد عليه إسمه. وإضافة لذلك يوجد إسمه على ثلاثة مواضع أخرى من السور أعيد بناؤها بعد سقوط الدولة وفي العهد السلجوقي. والموضع الأول تولى بناءه سنة (٤٨٢هـ = ١٠٨٩م) في عهد ولاية أبي علي البلخي، والثاني سنة (٤٨٤هـ = ١٠٩١م) في عهد ولاية عميد الدولة محمد بن الوزير ابن جهير،

(٥) تاريخ الفارقي، ص ١٩٨.

(٦) فان برشم، ص ٣٢. بسري كونيبار Diar Bakir Tarihi AMIDA، ج ٢، ص ٣١. الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج ٢، ص ٨٣٨. ورد فيه خطأ إسم أبي الحسن بن عبدالواحد.

(٧) الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج ٢، ص ٣٨٩.

والثالث سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) في عهد ولاية كافي الكفاة جهير بن الوزير ابن جهير^(٨).

وبهذه المناسبة نقول إن إسم أبي الفتح عبدالواحد بن محمد (أي حفيد عبدالواحد الأول) يوجد على موضع من نفس السور، أعيد بناؤه سنة (٥١٨هـ = ١١٢٤م). هذا ويمكن لنا أن نستنتج مما تقدم أن إدارة السور في ديار بكر كانت منوطة بالقضاة بصورة دائمية وفي أغلب الأحيان. والخلاصة أننا نعلم بالإستناد الى كلام الفارقي المذكور، أنه كانت لشؤون السور دائرة خاصة. أما حقيقة إناطة مسؤولية إدارة السور مع إدارة الأوقاف في وقت واحد الى شخص واحد، وهو أبو الحسن أحمد بن القاضي أبي علي في التاريخ المذكور، فلا تغيير من الأمر شيئاً. إذ أن تعيين شخص واحد في إدارة وظيفتين مستقلتين شيء مألوف. هذا علاوة على أنه لم تصل إلينا معلومات مفصلة عن بعض مجالات التاريخ الدوستكي، ما اضطرنا الى دراسة الإشارات الواردة عنها في بعض المصادر، وبالأخص تاريخ الفارقي، كي نبني عليها أحكامنا. فكنا نعتبرها تارةً جزئيات تنتقل منها الى التعميمات عن طريق (الإستقراء)، وتارةً أخرى نعتبرها تعميمات نستنتج منها معلومات جزئية، أي نستنتج جزئيات عن طريق (الإستنباط).

٨- القضاء

القضاء هو الحكم بموجب الشريعة الإسلامية، لكن الذي نريد أن نبحث عنه في هذا الموضوع هو المحاكم الشرعية في كردستان في العهد الدوستكي وذكر العلماء الذين تولوا القضاء فيها. إن القاضي عادة يكون من العلماء البارزين ومن ذوي الإطلاع الواسع على الكتاب والسنة وعلى الفقه الإسلامي وعلوم الدين كلها، إضافة الى العلوم العربية وغيرها. ومن صفات القاضي التحلي بالأخلاق الفاضلة وبالعدل كما هو مفصل في كتاب الفقه وغيرها، مثل كتاب (الأحكام السلطانية) للقاضي أبي يعلى بن الفراء، و(أدب القاضي) للخصاف، و(أدب القاضي) للماوردي. أما مهمة القاضي فهي الفصل بين الخصوم والحكم في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وغيرها. وكان للقاضي كاتب يساعده في تنظيم جلسات القضاء وتدوين الأحكام كما ينوب أحياناً عن القاضي في حالة مرضه أو غيابه. وقد ذكر الفارقي الشاعر (الفطيري) وعدّه من شعراء الدولة الدوستكية، وكان كاتباً للقاضي أبي المرجي^(٩).

وكان يساعد القاضي أيضاً (العدول) كما سيأتي. أما (الشروطي) فكانت وظيفة مرتبطة بالقضاء، حيث إن الموظف الشرطي كانت له واجبات متقاربة لواجبات الكاتب، إن لم يكن هو الكاتب نفسه. وقد أورد ابن الصابوني إسم أحد الشرطيين في الدولة الدوستكية وهو (أبو الحسن

(٨) فان برشم، AMIDA، ص ٣٥-٣٨-٩١. الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج ٢، ص ٣٨٩. وأضاف انه يوجد أسمه على موضع من الجامع الكبير في ديار بكر. بسري كونيار Diar Bakir Tarikhi، ج ٢، ص ٣٨-٤٠.

(٩) الفارقي، ص ٦١. بصدد الشروط الواجب توفرها في كاتب القاضي، راجع وثيقة تاريخية صادرة من قبل الخليفة العباسي الطائع، ومرسوم آخر للخليفة المسترشد بالله. الوثيقتان في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ١٠، ص ٢٨٢ وحوالي ص ٢٧٤.

علي بن السند) الفارقي الشروطي. وقد عرّف العلامة الدكتور مصطفى جواد في الحاشية (الشروطي) نقلاً عن (كشف الظنون) لحاجي خليفة بأنه "علم الشروط والسجلات وهو علم كيفية ثبت الأحكام الثابتة عند القاضي على وجه يصح الاحتجاج به عند إنقضاء شهود الحال..."^(٢). وعلى كل، إن وظيفة الشروطي كانت موجودة في الدولة الدوستكية.

هذا وكان لكل مركز من مراكز ولايات الدولة قاضٍ يعين من جانب الدولة الدوستكية بموجب مرسوم خاص يُقرأ يوم الجمعة على الحاضرين من قبل خطيب الجامع، كما قرأ ابن عقيل خطيب دياربكر عهد القاضي أبي القاسم بن القاضي أبي علي بن البغل على منبر الجامع الكبير بفارقين^(٣). إن المسألة التي تطرح نفسها هي كيف كان القضاء في البلاد الدوستكية وعلى أي مذهب كان يحكم القاضي من المذاهب الإسلامية الأربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية؟ وما هو المذهب الرسمي بالنسبة للقضاء؟

في الحقيقة لم تصل إلينا معلومات حول المذهب الفقهي السائد في كردستان الوسطى قبل العهد الدوستكي وحتى النصف الأول من عهدها، أي إلى فترة من القرن الحادي عشر الميلادي. ولكن مع هذا فلي رأي أئديه، وهو أنه لم يكن في كردستان الوسطى مذهب سائد ورسمي من المذاهب الفقهية الأربعة.. إذ لم يستقر أي منها بين الشعب الكردي حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي). أما المذهب الشافعي، فلم يستقر في هذا الجزء من البلاد الكردية قبل سنة (٤٢٨ هـ أو ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م). وان (الشيخ أبا عبدالله الكازروني) هو الذي نشر المذهب الشافعي في كردستان الوسطى من مدرسة فارقين ودياربكر الفقهية بعد التاريخ المذكور. ويُحتمل أن أول قاضٍ شافعي كان أبا بكر صدقة السعدي، الذي تولى القضاء بفارقين سنة (٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م). وكان المذكور من كبار تلامذة وأصحاب (الكازروني). ولعل القضاء على المذهب الشافعي أصبح رسمياً من عهد هذا القاضي. أما قبل هذا التاريخ، فلم يكن القضاء كما يظهر لي مقتصرًا على مذهب واحد، بل كان القاضي حراً بين المذاهب الفقهية الأربعة وغير مقيد فيحكم بما يراه أرحح وأقوى. أو أن كل قاضٍ كان يحكم بالمذهب الذي ينتمي إليه هو. وفي رأيي أن القضاء في معظم العهد الدوستكي كان كالقضاء في مصر في العهدين الطولوني والإخشيدي، حيث لم يكن القضاء تابعين لمذهب واحد، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذي ينتمي هو إليه^(٤).

لهذا من المحتمل أن القاضي المالكي (أبا عبدالله الحسين بن سلمه) كان يحكم بالمذهب المالكي والقاضي أبا منصور محمد بن شاذان الطوسي بالمذهب الشافعي.

(٢) ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص ٢٠٢: تعليق العلامة مصطفى جواد في حاشية هذه الصفحة. راجع أيضاً بصدد الشروطي (لب الأبواب) ص ١٥٣ للسيوطي. وفيه إن الشروطي منسوب إلى كتابة الشروط وهي الوثائق.

(٣) الفارقي، ص ١٩٨.

(٤) بصدد القضاء في مصر، راجع الدكتور حسن إبراهيم وعلي إبراهيم، النظم الإسلامية، ص ٣٤٥. نذكر التفصيل في موضوع الحياة الثقافية.

في الوقت الذي نجد فيه ذكراً لعدد من قضاة الدولة الدوستكية، فإننا لم نجد أي ذكر لقاضي القضاة، والراجح عندي أن منصب قاضي القضاة لم يكن موجوداً في هذه الدولة، بينما كان موجوداً في دول إسلامية أخرى. ولكن القاضي الدوستكي لم يكن محصوراً ضمن القضاء فقط، بل كانت تناط به أحياناً واجبات ووظائف أخرى. حيث كان بعضهم يعمل في دائرة الأوقاف ويشرف على إدارة السور ويقوم ببعض المنشآت العمرانية.

إن أول من عثرنا على ذكره من القضاة هو القاضي (علي بن أحمد النسوي)، الذي كان في القضاء بفارقين في عهد الأمير أبي علي حسن وتوفي سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م). وتولى القضاء من بعده أبو القاسم حسن بن حسن بن منذر وإستمر في القضاء إلى أن توفي سنة (٤٠١هـ = ١٠١١م)، وكان عالماً صادقاً وعلامة في علم الفرائض روى عن ابن البخري وإسماعيل الصفار (٥).

بعد وفاة هذا القاضي تولى قضاء فارقين علي بن حامد، وكان ينوب في القضاء عن القاضي النسوي. وبعد عزل المذكور أو وفاته تولاها أبو عبدالله حسين بن سلمه المالكي، والذي فُوض إليه النظر في الأوقاف بجانب الشيخ أبي محمد. وكان هذا القاضي عالماً جليلاً مخلصاً وعادلاً ودقيقاً في أحكامه وقراراته (٦).

بالنظر لكفايته العالية حصل على تقدير فائق من نصرالدولة، فأناط به القضاء في مدينة دياربكر (آمد) أيضاً إضافة إلى وظيفتيه السابقتين، وذلك سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م). فكان ذلك القاضي يحكم بفارقين شهراً ودياربكر شهراً. وكان يحب الغناء حباً جماً، على ما ذكره الفارقي في برنامج تنقله الشيق بين المدينتين (٧).

ظل القاضي المالكي في قضاء المدينتين إلى أن توفي سنة (٤٢٨هـ = ١٠٣٧م) أو التي بعدها، ثم تولى القضاء بعده (أبو المرجي سعادة بن الحسين بن بكر) وكان عالماً بارعاً في الفقه (٨)، ولكن

(٥) الفارقي، ص ١١٦ و ١٢٧ و ٧٩ وقع في كلام الفارقي اضطراب بصدد علي بن حامد، إذ يُفهم مما ذكره في (ص ١٠٩) أنه تولى القضاء مرتين. راجع بصدد القاضي أبي القاسم تعليقاً للشيخ عبدالوهاب النجار على ما ذكره ابن الأثير في (الكامل حوادث سنة ٤١١هـ). ذكر النجار أنه توفي في هذه السنة وزاد له نسبه البغدادي، ولكن يظهر من كلام الفارقي ص ٧٩ أنه لم يكن من أهل بغداد، ولكن سكن فيها ثم عاد وتولى القضاء بفارقين إلى ما يقارب سنة (٤٠٠هـ)، وذكره بكنية أبي علي.

(٦) الفارقي، ص ١١٦ و ١٢٧.

(٧) الفارقي، ص ١٢٧ قال بصدد برنامج تنقل القاضي المالكي: "وكان يحكم بميفارقين شهراً وبآمد شهراً وكان له قرار ملبح، وذلك أنه كان يخرج من ميفارقين ليلة الرابع عشر من الشهر عند كمال القمر ويخرج كل الشهود (أي العدول) من ميفارقين والمغنيين ومعهم كل ما يحتاج إليه من المأكول والشمع والطيب وغيره. فيصل إلى (القاسمية) في وسط الطريق فيصادفون عدول آمد (دياربكر) قد خرجوا بأسرهم ومعهم المغنون وما يحتاجون إليه فيجتمعون ليلتهم في أطيب عيش إلى غدوة، ثم يسير مع عدول آمد ويرجع الفارقيون ويبقى في آمد إلى مثل ذلك الوقت. ويخرج من آمد ومعهم جميع مقدمي آمد ومعهم ما يحتاجون إليه، فيصادفون الفارقة قد خرجوا إلى القاسمية فيجتمعون ليلتهم في أطيب عيش ويسير هو (أي القاضي) مع الفارقة. وكان هذا قانونه في مدة ولايته قضاء البلدين".

(٨) الفارقي، ص ١٤٦.

إتهموه بممارسة الأمير قرواش أمير الموصل، في وقت كانت العلاقات بينه وبين نصرالدولة متوترة، فعاقب نصرالدولة هذا القاضي البريء عقاباً فظيماً حتى مات. وقد أصبح هذا الأمر نقطة سوداء في تاريخ نصرالدولة^(٩).

تولى القضاء بعد القاضي أبي المرجي (أبو منصور محمد بن شاذان الطوسي)، الذي كان فقيهاً عالمياً فوّضت إليه إدارة الأوقاف أيضاً سنة (٤٣٥هـ = ١٠٤٤م) أو التي بعدها. وكان هذا القاضي من أهل مدينة طوس الواقعة في إيران كما يظهر من نسبته إليها ولا يعلم تاريخ قدومه إلى كردستان، وقد كان أحد المدرسين البارزين في فارقين ومن أساتذة القاضي أبي بكر بن صدقة. وبقي الطوسي في القضاء إلى أن عُزل بمحاولات الوزير فخر الدولة بن جهير سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م)^(١٠).

ثم عُيّن في قضاء العاصمة أبو القاسم علي بن القاضي أبي علي بن البغل الأمدي (الدياربيكري) وإستمر في القضاء إلى أن عُزل سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م)^(١١). ثم تولى القضاء أبو الحسن الأمدي وعُزل سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م) و"كان من البيوت الكبار والمقدمين وكان رئيساً وفي نفسه كرمياً، وكان له المال الكثير والأموال الكثيرة، وكان بينه وبين التاجر ابن جرى عداوة. فسار إلى مصر وأقام بها ولم يرجع إلى ميفارقين حتى مات ابن جرى. وعاد وأقام إلى هذه المدة وولي القضاء، وكان ذا رأي وعقل وسياسة"^(١٢).

ويحتمل أن يكون القاضي أبو الحسن هذا هو الشيخ أبي الحسن بن بشر، الذي أوفده نصرالدولة إلى مصر سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) للإتصال بالوزير أو الخليفة الفاطمي. وذلك أثناء حركة البساسيري وإلحاق ممثل الدولة الفاطمية في الحركة، وهو داعي الدعوة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي على نصرالدولة، كما مر بالتفصيل في موضوع (العلاقات مع الدولة الفاطمية). وأظن أيضاً أنه هو المقصود بالوسيط والأستاذ في رسالة المؤيد فراجع هناك.

والقاضي أبو الحسن الأمدي هذا هو غير أبي الحسن الأمدي علي بن محمد بن عبدالرحمن الحنبلي البغدادي الأصل، الذي قدم إلى كردستان سنة (٤٥٠هـ = ١٠٦٨م)، وسكن آمد (دياربيكر)، ودرس

(٩) ذكر الفارقي تفصيل الحادثة في ص ١٦٦-١٦٢ فقال: أمر القاضي أبو المرجي كاتبه الشاعر ابن الفطيري أن يكتب له رسالة إلى أحد أصدقائه في الموصل ليرسل إليه كتاباً في الفقه غير موجود في فارقين. فكتب الرسالة وسلمها إلى رجل يسافر إلى الموصل ووعدته بخمسة دنانير إذا رجع بالجواب. وكانت بين نصرالدولة وقرواش وحشة في ذلك الوقت. فرأى أحد جنود نصرالدولة ذلك، وأخبر بأن القاضي قد كاتب إلى الموصل. فأحضره وسأله عن الرسالة، فأنكر وأحضر كاتبه فقال كاتب إلى فلان في الموصل ليرسل إلى القاضي كتاباً في الفقه. فلم يصدق منه ووقعت الشبهة لإنكار القاضي وبمينه، فأخذ أبو المرجي إلى القصر وأجلس في برج وطبّن عليه بابه حتى مات. إن هذا العقاب بهذا الأسلوب الفظيع الذي سبق وإن أقدم على مثله الخليفة العباسي (القاهر) يعتبر نقطة سوداء في تاريخ نصرالدولة.

(١٠) الفارقي، ص ١٧٥.

(١١) الفارقي، ص ١٧٦.

(١٢) الفارقي، ص ١٨٢.

بها الى أن مات سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٥م). وهو صاحب كتاب "عمدة الحاضر وكفاية المسافر" الواقع في أربع مجلدات في الفقه (١٣).

من قضاة الدولة الدوستكية أيضاً القاضي (إبن جرجور) وهو (أبو نصر هبة الله إبن جرجور الشاذي المشرقي) (١٤)، الذي لم يذكر الفارقي تاريخ توليه قضاء فارقين. ولكن يحتمل أنه تولاه بعد عزل القاضي أبي الحسن الأمدي في التاريخ المذكور. وفي سنة (٤٦١هـ = ١٠٦٩م) فوض السلطان نظام الدين (حسب تعبير الفارقي) الى هذا القاضي الإشراف على بناء الطبقة الرابعة من برج الملك (١٥)، أي القصر الدوستكي. وإستمر إبن جرجور في القضاء الى أن توفي فجأة سنة (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م). فأتتدب للقضاء جماعة من العلماء في فارقين، منهم إبن عامر والشيخ أبو عبدالله بن زيدان وأولاد القاضي أبي علي بن البغل. وقد عنى الوزير أبو طاهر الأتباري بالقاضي (أبي بكر بن محمد بن صدقة)، وكان عالماً من أصحاب الفقيه الكازروني وقرأ على القاضي أبي منصور بن شاذان الطوسي. وكان ينوب في القضاء عن القاضي أبي نصر إبن جرجور فرتبه (أي الوزير) في القضاء. وكان الناس يميلون إليه بحكم نيابته عن القاضي أبي نصر بن جرجور ومعرفته بالناس، فوكله الموضوع. ونظر إليه الوزير وإستقر في المنصب وخرج منه رجلاً جلدلاً مقداماً من الرجال، ودخل دركات السلطان (أي ملكشاه السلجوقي) وناظر "المشطب" مدرس أصفهان وحضر ديوان الخلافة" (١٦).

إستمر القاضي أبو بكر في قضاء فارقين حتى بعد سقوط الدولة، أي في العهد السلجوقي وزار بلاط السلطان ملكشاه في أصفهان مرتين. الأولى كان ضمن وفد مكون من عدد من كبار أهالي فارقين منهم أبو الهيجا الروادي والرئيس أبو عبدالله بن موسك (الدوستكي) وبنو غالب وأبو القاسم بن نباته وعلي بن الأزرق جد مؤرخنا (الفارقي) (١٧)، وكان ذلك في سنة (٤٨٢هـ = ١٠٩٠م). وكان الوفد قد طلب من السلطان عزل (أبي علي البلخي) عن ولاية إقليم دياربكر فعزله. أما المرة الثانية، فكانت حينما رافق جماعة من رؤساء فارقين وجد الفارقي الوالي على مدينة أرزن (غرزان)، الذين ذهبوا بصحبة عميد الدولة إبن فخر الدولة إبن جهير (وكان والياً على كُردستان الوسطى بعد البلخي فإستدعاه السلطان الى أصفهان سنة ٤٨٤هـ = ١٠٩١م). فناظر القاضي هذه المرة "المشطب" في مدرسة أصفهان وإزداد القاضي بذلك شهرة، حيث إستطاع أن يدخل في مناقشة علمية عنيفة مع العلامة (مشطب بن أحمد بن أسامة). وكان مشطب هذا من بلاد ما وراء النهر (تركستان) ورد مع الوزير خواجه نظام الملك الطوسي الى بغداد وناظر أتمتها وجرت له معهم قصص

(١٣) لإبن الحسن البغدادي الأمدي ترجمة في شذرات الذهب لإبن عماد الحنبلي، ج٣، حوادث سنة ٤٦٥هـ، التي توفي فيها وله ترجمة أيضاً في الأعلام للزركلي، ج٥، ص١٤٧.

(١٤) الفارقي، ص١٩٧.

(١٥) الفارقي، ص١٩٧.

(١٦) الفارقي، ص١٩٧-١٩٨. في مخطوطة الأعلام الخطيرة (ورقة ٩٣) أن إبن صدقة كان من سكان (سعد).

(١٧) الفارقي، ص١٩٨. قال الأستاذ الدكتور بدوي عبداللطيف محقق. وناشر تاريخ الفارقي في تعليق له على كلام الفارقي: إن المشطب ولد سنة ٤١٤هـ وتفقه ببلاد فرغانة على مذهب الإمام (أبي حنيفة) والخلاف والجدل.

من المناظرات العلمية (١٨).

كان القاضي أبو بكر عميد المذهب الشافعي في كردستان الوسطى بعد أستاذه أبي عبدالله الكازروني، وكان له أنصار. وقد ذكر الفارقي أن القاضي أبا المرجح يحيى بن الضرير الفقيه الجيد كان من أصحابه.

كما يجدر بالذكر أنه بعد وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) أرسل رؤساء فارقين إلى ابنه (بركياروق) ليرسل إليهم من يتولى البلاد. ولما لم يرسل الأخير أحداً... انقسم سكان فارقين إلى فريقين؛ فريق مؤيد للحكم السلجوقي وآخر مؤيد لإعادة الحكم الوطني الدوستكي. كان الفريق الأول يتكون من كبار رجال الدين وبعض وجهاء فارقين المتدينين يتزعمهم القاضي أبو بكر. فكلف الشيخ أبا سالم يحيى بن حسن المحور بتسليم مفاتيح البلدة رغم رفض الأخير. ثم توجه مع جماعة إلى تاج الدولة (تُنش) بن آلب أرسلان، وكان قد وصل من بلاد الشام إلى نصيبين يريد فتح البلاد ليحل محل أخيه ملكشاه وطلب منه القاضي الحضور إلى فارقين وتسليمها. بينما كان الفريق الثاني المؤيد لإعادة الحكم الدوستكي عبارة عن معظم سكان المدينة من الطبقات الشعبية والمتعلمين والشباب، الذين نشأوا أحراراً في ظل الدولة الدوستكية. وكان يتزعم هؤلاء الشاعر الجسور (حسن بن أسد) الفارقي، الذي سيطر على المدينة أثناء غياب القاضي وأرسل إلى ناصرالدولة منصور للحضور إلى فارقين. وكان في مدينة الجزيرة فقدم وتسلم المدينة وأحيا الدولة (١٩).

ولكن تُنش جاء بعد ستة أشهر ورفقة القاضي المذكور واحتل فارقين وذلك في سنة (٤٨٦هـ = ١٠٩٣م)، وخلق على القاضي وجماعته وأعطاه قرية (قلوفج) إقطاعاً منه زيادة على إقطاعه (٢٠) مقابل ما بذله من نشاط في إعادة الحكم السلجوقي إلى كردستان الوسطى. وفي سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م) توفي هذا القاضي المتنفذ وهو غير متزوج (٢١).

من قضاة الدولة الدوستكية الذين تولوا القضاء في غير العاصمة فارقين، أبو علي الحسن بن علي المعروف بـ(إبن البغل)، الذي كان من أكابر مدينة امد (ديار بكر) و"كان له من الأملاك والأموال

(١٨) سمع ببخارى وأصفهان والري. كان حنفي المذهب وقال إبن الأثير في الكامل، حوادث سنة ٤٨٦هـ: أنه توفي في هذه السنة بالكحيل بالموصل وكان الخليفة قد أرسله إلى السلطان بركيارق وقال: كان شيخاً كبيراً مكرماً عند الملوك.

(١٩) الفارقي، ص ٢٣٢.

(٢٠) نفس المصدر، ص ٢٣٦ راجع أيضاً الجزء الأول: أسباب سقوط الدولة ص ٣٢٦-٣٢٩.

(٢١) الفارقي، ص ٢٦٦. أضاف الفارقي أنه لما توفي القاضي، شق "المحتسب" والي فارقين ثيابه ونشر عمامته وسار خلف جنازته حافياً ونشر أكابر فارقين عمامتهم أيضاً. وأتتدب للقضاء جماعة منهم ابن مساعد والشيخ أبو عبدالله (إبن زيدان) وشريف بن أبي السخا، ولكن فاز به أبو القاسم يحيى بن طاهر (بن نباته). وكان هذا خطيباً في فارقين منذ حوالي خمسين سنة وعزل سنة (٥٠٣هـ). وتولى القضاء قاضي الجزيرة المعزول فخر الدين أبو علي ابن عمر. وفي السنة التالية عين هذا القاضي والياً على الجزيرة من قبل خاتون زوجة الأمير سگمان القطبي، وكانت عاصمتها مدينة (خلاط). ثم تولي قضاء فارقين علم الدين أبو الحسن بن القاضي أبي القاسم بن نباته، وعزل في نفس السنة أي سنة (٥٠٧هـ). ثم تولي القضاء أبو المرجح يحيى بن ضرير، ولكنه قبض عليه وقتل في السنة التالية، وتولى القضاء بعده أحمد بن عمار بن مظفر البديسي وإثر عزله في نفس السنة تولي القضاء مرة ثانية علم الدين بن نباته.

والعقارات ظاهر البلد وباطنه ماليس لغيره، فأكرمه نصرالدولة إكراماً كثيراً وكانت له من الحرمة والمنزلة عند الأمير وأرباب الدولة ما لا يوصف". تولى القضاء في مدينة دياربكر بعد وفاة القاضي المالكي في سنة (٤٢٨هـ)، وإستمر في القضاء الى أن أعتقل من قبل نصرالدولة سنة (٤٥١هـ = ١٠٥٩م) ومات في السجن. وسبب إعتقاله حسبما يفهم من كلام الفارقي (٢٢) هو مخافة نصرالدولة من طغيان نفوذه في مدينة دياربكر. ولكن وبشاية من وزيره المنافق وناكر الجميل ابن جهير الموصل، الذي كان لهذا القاضي فضل كبير عليه لتوسطه عند نصرالدولة كي يسمح له بالمجيء الى بلاده، غير أن نصرالدولة رفض ذلك أولاً وقال: "... ولو كان فيه خير لما خرج من بلاده". ولكنه وبعد مدة طلب من القاضي أبي علي إخباره بالحضور الى فارقين، فجاء الى دياربكر وأعطاه القاضي هدايا كبيرة وإستوزره نصرالدولة (٢٣).

لم يذكر الفارقي من قضاة آمد (دياربكر) سوى القاضي المالكي والقاضي أبي علي، ولكن إستناداً الى الكتابات الموجودة حالياً على سور دياربكر، نعلم بأنه أنه تولى قضاءها كل من القاضي أبي الحسن عبدالواحد بن محمد وإبنه القاضي أبي نصر محمد. ولعل أحداً غيرهما لم يتول القضاء في الفترة الواقعة بين وفاة القاضي أبي علي وسقوط الدولة. وقد وصل إلينا إسم قاض آخر من قضاة الدولة الدوستكية وهو (أبو العلاء المتكلم)، الذي كان في سنة (٤١٧هـ = ١٠٢٦م) قاضياً لمدينة نصيبين (نصيبين). وقد إجتمع بالوزير أبي القاسم المغربي أثناء زيارته للمدينة، وعرض الوزير عليه ما دار بينه وبين المطران مار إيليا النسطوري من النقاش العلمي في الجلسات الأربعة (٢٤).

ويوجد إسم قاض آخر في كتابة على أثر من آثار نصرالدولة بتاريخ (٤١٦هـ) في فارقين هو (أبو... الحسن بن محمد). ويحتمل أنه الشيخ أبو محمد الحسن بن محمد بن المحور مدير الأوقاف الذي ذكرناه في موضوع الأوقاف.

وأخيراً يظهر أن منصب قاضي القضاة لم يكن موجوداً في الدولة الدوستكية، حيث لم نجد أية إشارة الى وجوده. أما وظيفة "نائب القاضي" فكانت موجودة ووصلتنا أسماء بعض النواب كما مر ذلك.

(٢٢) الفارقي، ص ١٧٦، أضاف الفارقي أن نصرالدولة أخذ من القاضي أموالاً عظيمة وأطلق سراح أولاده إثر وفاته، مما ينص على أنه سجن أولاده أيضاً. ولم يذكر هنا أية إشارة الى سبب نكبة هذا القاضي، ولكنه ذكر في (ص ١٧٥) بصدد تولي إبنه قضاء فارقين، مما يدل على أن الوزير هو الذي خوَّف نصرالدولة من نفوذه. ولكن الفارقي حمل ذلك على حسن نية من الوزير، لأنه حاول أن يعين أبا القاسم في القضاء. فلجأ الى تخويف نصرالدولة من نفوذه ليقنعه بالموافقة على تعيينه في القضاء وإعتباره رهينة عنده بهذه الطريقة. ولا نعلم ما حدث بعد ذلك ويظهر أن نصرالدولة فقد الثقة من ذلك الوقت بالقاضي.

(٢٣) الفارقي، ص ١٤٧ و ١٥١.

(٢٤) مجالس إيليا، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب جامعة بغداد تحت الرقم (١٠٦٨). التفاصيل في الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص ١٩٠، ١٩٣.

٨- العدالة

العدالة وظيفة تابعة للقضاء والذين يتولون هذه الوظيفة يسمون بالعدول، ومهمتهم القيام بإذن من القاضي بالشهادة بين الناس. ولهم سجلات خاصة يسجلون فيها أملاك الناس وديونهم ومعاملاتهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ولهم دكاكين خاصة يراجعهم الناس من أصحاب المعاملات والعقود. وقال ابن خلدون بصدد هذه الوظيفة: "ومن شروط العدول أن يتصفوا بالعدل والأمانة، وبالإطلاع والمعرفة بقسط من أحكام الشريعة والمعرفة بتنظيم السجلات. والعدول يساعدون القاضي ويمدونه بالمعلومات أثناء النزاع والمرافعات، حيث يتفحصون أحوال الناس في مدينتهم ويعلمون بسلوك الكثيرين منهم وبحقوقهم. كما يجب على القاضي في نفس الوقت أن يكون مطلعاً بسلوك العدول ويراقبهم رعايةً لشرط العدالة فيهم، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس... وإذا تعين هؤلاء (أي العدول) لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفي عدالته على القضاة، بسبب إتساع الأمصار وصعوبة إطلاعهم على أحوال الناس فيستعينون بالعدول" (٢٥).

وقد عرفت هذه الوظيفة في مختلف الدول الإسلامية، كالدولة العباسية والإخشيدية والسلجوقية والفاطمية وفي الأندلس. وقد جرت العادة (أن يجلس العدول حول القاضي يمينه ويسرة بمجلس الحكم على ترتيب الأقدمية في تعديله لهم). (٢٦) وكان بعض هؤلاء يتولى مناصب هامة كالحسبة ووكالة بيت المال. (٢٧)

إن هذه الوظيفة، التي هي من مستلزمات توفر العمران وإتساع المدن وتقدمها حضارياً ومن متطلبات العدل ودقة وصواب الأحكام والقرارات التي تصدرها المحاكم الشرعية، كانت موجودة في الدولة الدوستكية. وقد إستنتجنا ذلك مما ذكره الفارقي من أن كلاً من (أبي الحسن أحمد بن وصيف البزاز) و(ابن البهات) كانا من العدول (٢٨)، ومن كبار تجار مدينة فارقين وأغنياها. وكان ابن وصيف أحد مقدمي سوق القماش (سوق البز) ووجهاء المدينة البارزين. تولى رئاسة فارقين مدةً أثناء محاصرة نصرالدولة لها بعد إغتيال مههد الدولة، وتفاوض مع نصرالدولة وسلم إليه المدينة. فعينه

(٢٥) ابن خلدون، مقدمة، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٧٠. فيه نص مرسوم (المسترشد بالله) بتعيين القاضي الزينبي. بخصوص هذه الوظيفة راجع أيضاً ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، ص ٢٥٨-٢٦٢ من الجزء الأول.

(٢٧) الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج ٢، ص ٧٧٦. فيه أن الخطوة الأولى لنشوء وظيفة العدالة كانت من قبل القاضي المفضل بن فضاله في القرن الثاني الهجري (القرن الثامن الميلادي) حين عين عشرة رجال شهود. والخطوة الثانية من قبل القاضي مالك أبو نعيم إسحاق بن الفرات قاضي مصر. راجع أيضاً آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣١٨.

(٢٨) الفارقي، ص ١٠٠. ١٦٦. ذكر الشهود بدل العدول عدة مرات لترادفهما كما في ص ٩٥، ١٠٨، ١٧٧، ٢٠٢. وأطلق على العدول أيضاً إسم الشهود في وثائق رسمية، مثل المرسوم الصادر عن الخليفة العباسي المسترشد، راجع نصه في صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٧٠.

والياً في بلدة طانزه (طنزه) على القسم الشمالي من بوتان. ولكنه إنهزم من هناك الى بغداد، إثر مقتل شبروه وبعض الذين ساندوه في مؤامرتة وقتل الممهد كما مر بالتفصيل في الجزء الأول. أما ابن البهات، فهو التاجر الذي حطم الرقم القياسي في الريح، حيث ربح في يوم واحد (٥٠٠) دينار بيزنطي، ثم إشتري بها قرية (بني نوح) وجعلها وقفاً على حراس ثلاثة من قلاع دياربكر. ولدينا إشارة ثالثة حيث ذكر الفارقي إن عدول فارقين ودياربكر كانوا يرافقون القاضي أبي عبدالله المالكي أثناء تنقله بين المدينتين (٢٩).

مما هو حريّ بالذكر أيضاً أن العدول كانوا من هيئة المحكمة يعمل برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمتقاضين. وكان من إختصاصهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام وأنها غير مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية. وهذا النظام (أي نظام العدالة) أشبه بنظام المحلفين في أوروبا في العصور الوسطى وما زال في إنكلترا الى اليوم، وإن كانت أعمال المحلفين تختلف الآن بعض الإختلاف عما كانت عليه في العصور الوسطى (٣٠).

ويمكن الإطلاع على واجبات العدول ومدى العلاقة بينهم وبين القاضي من الوثائق الرسمية، مثل المرسوم الصادر من الخليفة العباسي (الطائع لله) بتعيين القاضي أبي محمد عبيدالله بن أحمد (٣١).

٩- الخطابة

الخطابة وظيفة دينية معروفة وذات أهمية كما هي اليوم، والخطيب يلقي خطبة دينية على المسلمين الذين يحضرون الى الجامع لأداء فريضة صلاة الجمعة من كل أسبوع. وكان الخطيب يذكر في خطبته إسم الأمير الدوستكي ويدعو لبلاده وشعبه بالخير والتقدم. وفي سنة (١٠٤٦م) دخل الرحالة الفارسي ناصر خسرو كردستان الوسطى في العهد الدوستكي، فوجد أن الخطباء يذكرون إسم سلطان الولاية في الخطبة هكذا "الأمير الأعظم عز الإسلام سعد الدين نصرالدولة شرف الملة أبو نصر أحمد" (٣٢).

ولما كانت الخطبة من شارات الحكم كالسكة والطراز، فإن إدراج هذه الوظيفة في مؤسسات الدولة أمر في محله. وقد وصلت إلينا أسماء بعض ممن تولوا الخطابة في المدن الكردية في العهد الدوستكي وهم (ابن عقيل) خطيب الجامع الكبير في دياربكر (٣٣).

وقد حضر الى فارقين بمناسبة تعيين أبي القاسم علي بن القاضي بن أبي علي ابن البغل في قضاء فارقين، فصعد منبر جامعها يوم الجمعة وقرأ مرسوم تعيين القاضي (٣٤).

(٢٩) الفارقي، ص ١٢٧.

(٣٠) الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ص ٥٧٦.

(٣١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٨٢: نص المرسوم.

(٣٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٢. وصل الى فارقين يوم الجمعة المصادف ٢٦ جمادي الأول ٤٣٨هـ = ٢٣ تشرين الثاني ١٠٤٦م.

(٣٣) الفارقي، ص ١٧٥.

(٣٤) نفس المصدر والصفحة.

أما الخطيب أبو طاهر محمد بن الخطيب عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباته الفارقي، فكان خطيباً عندما توفي الوزير أبو القاسم المغربي سنة (٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م). ومنهم الخطيب أبو القاسم يحيى بن طاهر، أي حفيد الخطيب أبي طاهر. تولى أبو القاسم الخطابة سنة (٤٤٠ هـ = ١٠٤٩ م) أو التي بعدها، وإستمر خطيباً لجامع فارقين حوالي خمسين سنة إلى أن تولى القضاء سنة (٤٩٠ هـ = ١٠٩٧ م). أما الخطابة فتولاها إبنه علم الدين أبو الحسن علي. وكان أبو القاسم أول من تولى القضاء من أسرة بني نباته (٣٥) التي أشتهرت بخطباتها.

وكانت الخطابة في فارقين مقصورة على هذه العائلة منذ أكثر من قرن وفي العهد الدوستكي كله. وتولى عبدالرحيم إبن نباته الخطابة في عهد سيف الدولة الحمداني في حلب أولاً، ثم في فارقين وتوفي فيها سنة (٣٧٤ هـ = ٩٨٤ م). ويحتمل جداً أنه إستمر خطيباً في أوائل عهد الدولة الدوستكية. وكان عبدالرحيم من أشهر الخطباء في التاريخ الإسلامي، حيث أوتي قوة في البلاغة وبراعة في الأدب، وإتفق المؤرخون على أنه لم يؤلف مثل خطبه (٣٦).

وكان ولد في فارقين سنة (٣٣٥ هـ) وتشقف وتلقى الأدب حتى صار إماماً في الأدب. ومازالت خطبه المدونة والمطبوعة مستعملة ومتداولة في كُردستان تركيا إلى اليوم. حيث يختار الخطباء منها ما يريدونه ويلقونها يوم الجمعة.

أخيراً ظلت الخطابة في فارقين مقتصرة على بني نباته مدة لاتقل عن قرن ونصف ثم أخذت عنهم، حيث نرى في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) كلاً من يحيى بن سلامة الحصكفي الطانزي (الطنزي) وإبنه مجد الدين أبي عمران موسى، يتوليان الخطابة فيها (٣٧).

(٣٥) تاريخ الفارقي، ص ٢٦٧.

(٣٦) إبن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمة حياة (عبدالرحيم). في الأساس في الأدب العربي للصفوف الرابعة الإعدادية (ص ٣٨٥) تأليف الدكتور مصطفى جواد ومحمد بهجة الأثري وكمال إبراهيم، وفيه بحث مستقل عن إبن نباته مع نموذج من خطبه. ورد في الأساس إسم شخص آخر من بني نباته نقلاً عن إبن الفوطي، وهو الخطيب علم الدين أبو الفضل عبدالرحيم بن إبراهيم بن يحيى بن عبدالرحيم. وفي تاريخ الفارقي (ص ٢٤٧) إسم شخص آخر منهم هو القاضي تاج الدولة أبو طاهر علي بن نباته. وقال أنه ولد سنة (٤٨٦ هـ) ولم يذكر شيئاً من أحواله. وورد خطأ في الأساس في عبارة إبن الفوطي وهو أنه بعد وفاة الخطيب أبي القاسم تولى إبنه علم الدين القضاء والخطابة، وهذا يناقض المعلومات التي ذكرناها نقلاً عن الفارقي، وهو أعلم من غيره بأحوال بني نباته من سكان مدينته، لكونه عاصر شخصيات منهم وآهم، مثل أبي الفتح محمد بن علي بن نباته قاضي ماردين وخطيبها بها علم الدين بن علي بن نباته.

(٣٧) راجع ترجمة حياة الحصكفي في موضوع "التشيع".

النظام المالي والنقد المتداول

إن التعامل في الدولة الدوستكية كان بالدرهم والدينار، وكانت المقايضة أيضاً شائعة في المعاملات الداخلية الصغيرة، لاسيما بين سكان الأرياف. وكان الدرهم متداولاً على نطاق واسع وقد تكرر ذكره في تاريخ الفارقي، حيث رُود فيه مثلاً: إن الأمير أبا علي حسن بن مروان قد تزوج ست الناس بنت سعد الدولة الحمداني على صداق قدره (٢٠٠) ألف درهم، وإن عبد البر المستولي على ديار بكر تصالح مع ممهد الدولة على خراج سنوي قدره (٣٠٠) ألف درهم وأن تكون السكة والخطبة بإسمه. ثم تفاوض معه ابن دمنة على نفس المبلغ والشروط (١).

أما الدينار الذهبي، فكان عملة متداولة في التجارة والمعاملات الداخلة والخارجية، وقد تكرر ذكره في تاريخ الفارقي أيضاً، فقد ذكر مثلاً: أن التاجر ابن جرى حفر قناة ماء إلى فارقين كلفته إلى أن أوصلها إلى السور (٥٠) ألف دينار، وأن نصرالدولة صادره على أربعمئة ألف دينار (٢).

وذكر في (٩٢) أنه حدث قحط في إحدى سنوات حكم ممهد الدولة (٣٨٧-٤٠١ هـ = ٩٩٧-١٠١١ م) حتى بلغ سعر الجريب من الحنطة "عشرة دنانير حمراء". ولعل الدينار المتداول والأكثر شيوعاً كان الدينار البيزنطي، حيث تكرر ذكره من قبل الفارقي، حيث أشار إلى أن الخمسمئة دينار التي ربحها التاجر ابن البهات في يوم واحد كانت أرمانوسية (٣). كما إن الراتب اليومي الذي خصصه نصرالدولة للسيدة أم الخليفة العباسي (القائم) وابنه الذخيرة اللاجئين لدى الدولة الدوستكية كان خميس ديناراً أرمانوسية (٤).

هذا في الوقت الذي لم يورد فيه أي ذكر للدينار العباسي وكذلك الفاطمي المعروف بالدينار المغربي. ولكن عدم ذكره لهما لا ينفي احتمال تداولهما، بل يحتمل جداً أنهما كانا متداولين أيضاً نظراً لما تطلبته العلاقات التجارية بين كردستان والعراق من جهة، وبينها وبين بلاد الشام ومصر من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن حجم التبادل أو العلاقات التجارية بين كردستان الوسطى والبلاد البيزنطية هو الذي تحكم في شيوع الدينار البيزنطي في التعامل. والذي يحتمل جداً على ما يلاحظ من الإشارتين السابقتين، أنه كان في قوته الشرائية أقوى من الدينار العباسي والفاطمي أيضاً. وفي

(١) تاريخ الفارقي ص ٧٢، ٧٩. ثم إتفق أبو طاهر يوسف بن دمنة مع نصرالدولة على نفس الشروط.

(٢) نفس المصدر، ص ١٦٥، ١٦٨.

(٣) أرمانوس (رومانوس) إسم لثلاثة من أباطرة الدولة البيزنطية من الأسرة المقدونية: رومانوس الأول (٩١٩-٩٤٤ م)، رومانوس الثاني حكم حوالي (٩٥٩-٩٦٤ م)، رومانوس الثالث أرجيروس (١٠٢٨-١٠٣٤ م) وكان معاصراً للملك الدوستكي نصرالدولة. وأرجح أن تكون الدنانير الأرمانوسية البيزنطية منسوبة إلى رومانوس الثالث. راجع نورمان بينيز، الإمبراطورية البيزنطية حوالي ص ٣٣٨.

(٤) الفارقي، ص ١٥٩، ١٦٧.

الصفحة (١٠٣) ذكر الفارقي أنه أثناء فتنة (شروه) سنة (١٠١١م) ثار سكان فارقين عليه واحتلوا دار الإمارة ونهبوا ما فيه. ولما إسترجع نصرالدولة المدينة إسترجع ما أمكنه من الذهب المنهوب من خزينة الدولة. فمن المحتمل أن يكون ذلك الذهب دنانير وعينات ذهبية أخرى. ولكننا لم نجد أيضاً ذكراً للدرهم العباسي الفضي والنقود النحاسية البيزنطية كالد(أس) مثلاً وهو عشر الدينار، ولكن ذلك لايعني عدم وجودها للسبب المذكور. وهناك احتمال أن تكون النقود النحاسية التي وجدها ناصر خسرو متداولة في مدينة خلاط نقوداً بيزنطية(٥).

أما حساب الدولة الدوستكية، فقد كان في رأيي بالدرهم حتى عهد ممهد الدولة، ثم أصبح حسابها بالدينار في عهد نصرالدولة وما بعده. وهو ما إستنتجته من الإتفاق الرسمي بين ممهد الدولة وعبدالبر على المبلغ المذكور المقدر بالدرهم. يضاف الى ذلك تكرر ذكر الدرهم حتى عهده وعدم وجود أي ذكر للدينار. أما الدينار فنجدته بعد عهده هو الشائع في التعامل وقد تكرر ذكره.

إن شأن الدولة الدوستكية في التعامل بالدرهم ومن ثم بالدينار شأن الدولة العباسية، التي كان حسابها بالدرهم لفترة طويلة قبل أن يتحول الى الدينار في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي). ولكن التعامل به لم يصبح شائعاً إلا في القرن الحادي عشر، الذي شاع فيه الدينار في كُردستان أيضاً. وقد طبقت الدولة الدوستكية ذلك النظام النقدي في حسابها مواكبة لذلك التطور الذي حصل في المجال النقدي، ونظراً للتوسع التجاري في عهد نصرالدولة وبعده.

معلوم أنه كان لدار الضرب (أي لسك) النقود دائرة خاصة، فيها موظفون يحددون العيار ويراقبون النقود في الأسواق للحيلولة دون تسرب النقود المغشوشة إليها. وكان في دار الضرب موظف يتأكد من صحة المعدن من الغش والشوائب الى جانب سبائك يحضّر وزن المعدن قبل طرحه في البوتقة، ونقاش يحفر الكتابات المزعم إبرازها على النقود ويتولى الضراب الضرب على السبيكة والختم على السكة. وهناك موظف آخر مختص بحفظ جميع محتويات دار ضرب العملة من معدن وآلات صنع العيار، سواء كان الصنج زجاجاً أو حجراً يقرر به وزن السكة ويحفظ ختم الأقداح. وفوق كل هؤلاء الموظفين المدير (المتولي). وكان القاضي يشرف رسمياً على دار الضرب لضمان شرعية النقود.

كانت دور الضرب تدر أموالاً للدولة (لذلك كانت عليها ضريبة)، حيث كانت تقوم بسك ما يقدمه الأفراد من سبائك طبقاً للوزن المقرر وتحويلها الى نقود وذلك مقابل أخذ رسوم معينة منهم. وكان سك النقود غالباً ما يبدأ، كما في الدولة العباسية، في عيد النوروز في بداية الربيع، حيث تبدأ السنة المالية وكذلك في عيد (مهرجان) في بداية الحريف(٦)، وهما من الأعياد القديمة في كُردستان وإيران.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧.

(٦) كانت الدول تراقب سك النقود المزيفة وتمنعها من التداول وتوقع على المزيّف عقوبات. قال الدكتور محمد باقر الحسيني في، النقود الإسلامية، ص ٥ من سلسلة الموسوعة الصغيرة ١٦٨: أن العقوبات على مدى العصور هي الإعدام أو الحرق بالنار أو السجن المؤبد أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو مصادرة الأموال وغيرها في أسواق بغداد الى بداية العصر البويهّي، ص ٢٢٧ و ٢٥٦ موضوع مهم عن النظام النقدي إستفدنا منه بخصوص الحديث عن دار ضرب النقود.

العملة الدوستكية

لم تصلنا من نقود الدولة الدوستكية لحد الآن سوى الدراهم الفضية، لذا سيقصر بحثنا عليها. لقد ضربت النقود المختلفة في أوزانها وأحجامها وتواريخها لتكون العملة المتداولة من قبل أبناء الشعب. وكانت في البلاد عدد من دور الضرب، أي الدور والمنشآت الخاصة بسك النقود. لقد سكت الدولة الدوستكية النقود في عدد من المدن والأماكن وهي: ميفارقين وآمد (دياربكر) والجزيرة ونصيبين (نصيبين) وخلاط ودينيسر (قزل تهبه) (٧) وأنبر (٨).

(٧) كانت دنيسر مدينة واقعة في السهل الكائن في الجنوب الغربي من مدينة ماردين بمسافة حوالي (٢٠) كلم وتسمى الآن (قزل تهبه)، كما سميت بد (قوج حصار) وهي الآن مركز قضاء تابع لولاية ماردين تتبعها (٩٦) قرية. كان نفوسها (٦٦٠٠) نسمة بموجب الإحصاء التركي لسنة ١٩٦٥. أما إسم دنيسر، فهو كوردي مركب من "دني" و"سهر" بفتح السين أي رأس الدنيا. وكانت هذه المدينة تمتاز بموقعها الجغرافي لخصوبة أراضيها ووقوعها في السهل الزراعي الواقع بين أورفا وماردين وأورفا ونصيبين، وكذلك لوقوعها على طريق القوافل الرئيسي الذي كان يربط بين العراق وبلاد الشام وبين العراق وآسيا الصغرى. ولم أجد ذكراً لمدينة دنيسر قبل العهد الدوستكي، إذ لم يذكرها البلدانون القدماء كالإصطخري والمسعودي والهمداني والمقدسي وابن حوقل، علماً أن الأخير كان أعلم من غيره بهذه المنطقة، لكونه كان من سكان نصيبين (نصيبين) أصلاً. ولهذا أظن أن الدولة الدوستكية هي التي إختطتها وإهتمت بنهوضها وضربت فيها النقود، ولكنها بلغت أوج توسعها في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، حيث إهتم بها الأرتقيون (حكام ماردين) ومازال عدد من آثارهم باقياً فيها حتى الآن من جامع ومنازة وخان وغيرها.

نشأ منها علماء لهم تراجم في مصادر تاريخية. وقد زارها الرحالة الأندلسي ابن جببر سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٥م)، فأعجب بأسواقها ومزارعها وبساتينها وسائر مرافقها إضافة إلى أزدحامها بالسكان. وقال أنها محطة لأهل بلاد الشام ودياربكر وبلاد الروم. وأضاف أن أسواقها تقام أيام الخميس والجمعة والسبت والأحد. وزارها ياقوت الحموي أكثر من مرة، ووجدها في صباه متقلصة إلى قرية. ولما زارها بعد ثلاثين سنة وصفها بكونها مصرّاً لا مثيل لها في الكبر وكثرة السكان وعظم الأسواق. وقال الحموي أنها تسمى أيضاً بقوج حصار ووصفها أيضاً في حوالي سنة (٥٨٠هـ) ناسخ كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل في تعليق له بأنها: كان في السابق قرية تقام في سوقها كل يوم أحد، ثم توسعت في وقته وإنغمرت بالعمارة والحانات والفنادق والحمامات والأسواق. ثم تأخرت هذه المدينة مرة أخرى إلى أن أصبحت قرية لا أهمية لها في عهد الرحالة التركي أوليا جلبي في القرن السابع عشر. ونهضت مرة أخرى في القرن العشرين. راجع رحلة ابن جببر، ص ١٩٣-١٩٥. ومعجم البلدان، ج ٢، ص ٦١٣. وصورة الأرض لابن حوقل، ص ٢٠٢. ودائرة المعارف الإسلامية، ج ٩، ص ٣٠٣. وأوليا جلبي: سياحته، ص ٦٠، ١٣٥، Hayat An-siklopidisi لسنة ١٩٧٠.

(٨) أنبر، هكذا ورد هذا الإسم على بعض نقود الدولة الدوستكية، كما ورد في (مسكوكات قديمة إسلامية، ص ٢٦٧ لإسماعيل غالب) الذي قال إنها مدينة الأنبار العراقية. أما ستانلي پول، فقد ذكرها "بانبر" كما يأتي. وهذا خطأ لأن الباء ليست من أصل الكلمة، بل هي حرف جر والعبارة على النقود هكذا "ضرب بانبر". مع إني لم أجد ذكراً لأنبر في أي مصدر تاريخي أو جغرافي قديم، سواء كانت مدينة أو قلعة أو مجرد قرية، فإني لم أقتنع بما قاله إسماعيل غالب، لأن مدينة الأنبار لم تكن تحت السيطرة الدوستكية حتى تسك فيها نقودها ولا حاجة لها بمدينة أجنبية لتسك فيها نقودها. وقد كتبت هذا الإنتقاد في حينه وواصلت البحث عن أنبر إلى أن عثرت على هذا الإسم في الخرائط التركية الحديثة إسماً للنهر القادم من مدينة الحانبي، والذي يمر في شرق دياربكر بمسافة (٢١) كلم، ويسمى الآن بد (Anbarcayi). فلا بد أن أنبر كانت بلدة صغيرة أو قرية مهمة في ذلك العهد، وهي قرية (عتبار) الشهيرة هناك اليوم. ويوجد إسم Anbarcayi في كتاب Dogho Anadolu (ص ٤٦٨) تأليف حسين ساراج أوغلو ويسمى النهر بإسم القرية. ومن الجدير بالذكر أن نهر أنبر هو نهر "سالات"، حسبما في الكتب الجغرافية القديمة =

وقد عُثر على نماذج عديدة من نقود الدولة الدوستكية، وفي كل من المتحف البريطاني بلندن ومتحف موزه همايون في إستانبول نماذج عديدة منها. ويتناول ستانلي لان پول بعض النماذج الموجودة في المتحف الأول^(٩). بينما يتناول إسماعيل غالب ما في المتحف الثاني^(١٠).

لقد إتصلت بهذين المتحفين، فزودني المتحف البريطاني بصور لثلاثة نماذج منها من الوجه والظهر، بينما إعتذر متحف إستانبول عن تزويدنا بها، مدعياً أنها قديمة وكتابتها غير واضحة. في حين إن كتابتها قد قُرئت من قبل ذوي الإختصاص قبل الحرب العالمية الأولى، كما نجدتها في (مسكوكات قديمة إسلامية). وقد إتصلت أيضاً بمتحف اللوفر بفرنسا ومتاحف أخرى في العراق وسورية ومصر، فكانت كلها خالية من النقود الدوستكية.

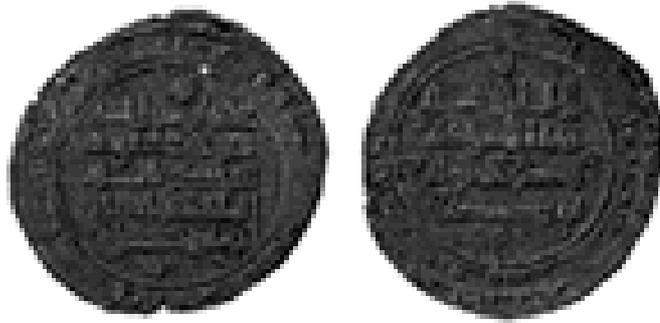
أما النقود التي زودنا بصورها المتحف البريطاني مشكوراً، فكانت عبارة عن ثلاثة دراهم الأول منها ضُرب في مدينة الجزيرة سنة (٣٨٥هـ = ٩٩٥م) وعليه إسم الأمير أبي علي الحسن بن مروان، وهو أقدم النماذج التي نتطرق إليها في بحثنا هذا.

أما الدرهم الثاني فإنه ضُرب بمدينة نصيبين (نصيبين) سنة (٣٩٧هـ = ١٠٠٧م) وعليه إسم الأمير مهاد الدولة أبي منصور (سعيد بن مروان). بينما ضُرب الدرهم الثالث بالجزيرة أيضاً في سنة (٤١٢هـ = ١٠٢١م)، وهو يحمل إسم نصرالدولة أبي نصر (أحمد بن مروان). وقد عرضت الصور على الأستاذ الدكتور محمد باقر الحسيني الباحث العلمي والمسؤول عن قسم المسكوكات الإسلامية بمديرية الآثار العامة ببغداد، فقرأ لنا مشكوراً كتاباتها، أي الكتابات المنقوشة على الدراهم الثلاث كما وجهني الى تنظيم جدول النقود. أما الدرهم الرابع، فمن إسماعيل غالب من نماذج (موزه همايون) وندرج فيما يلي صورها مع الكتابات المنقوشة عليها:

=نهر "حو" على ما في تاريخ الفارقي (ص٧٤). راجع موضوع التجارة. وفي (ص٣٤٨) من Dyarbakir Tarikhi لشوكت بيسان أوغلو، نقلاً عن الفارقي أن نصرالدولة شيد جسراً على هذا النهر في طريق فارقين سنة (٤٣١هـ = ١٠٤٠م)، ثم جدده مودود الأرتقي. ثم جدده في سنة (٦٢٠هـ) (محمد بن أحمد...) والبناء عثمان بن طاكاك غلام الأستاذ (أي البناء) جعفر بن محمود الحلبي، حسب الكتابة الباقية لـ(محمد بن أحمد) المذكور وصورة الكتابة في المصدر المذكور. وفي تاريخ الفارقي كلف نصرالدولة القاضي أبا علي الأمدي (ابن البغل) ببناء الجسر، وبناء أحسن بنية وعليه إسم نصرالدولة وإبته الأكبر سعد الدولة أبي الحسن محمد وذلك سنة (٤٣١هـ) راجع الفارقي ص١٤٦ و١٤٧.

(٩) Lane Pool, Catalogue Of Oriental Coins In The British Museum, VolT 1/8, P.27.274

(١٠) راجع إسماعيل غالب، مسكوكات قديمة إسلامية قتالوغي، ص٣٦٥، ٣٧٣.



درهم رقم (۱)



درهم رقم (۲)



درهم رقم (۳)



درهم رقم (٤)

جدول المسكوكات:

درهم رقم (١) ضُرب بالجزيرة سنة ٣٨٥هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
-----	-----
لله	
محمد رسول الله	لا إله إلا الله
صلى الله عليه وآله	وحده لا شريك له
القادر بالله	الملك بهاء الدولة
الأمير أبو علي	أبو نصر
الحسن بن مروان	حرب
الهامش	الهامش
-----	-----
... ولو كره المشركون	ضرب هذا الدرهم بالجزيرة
	سنة خمس وثمانين وثلث مائة.
وزنه ٧٥,٨ حبة	
قطره ١,٠٥ إنج	

درهم رقم (٢) ضرب في نصيبين سنة ٣٩٧هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
لا إله إلا الله	لله
وحده لا شريك له	محمد رسول الله
مهد الدولة	صلى الله عليه وآله
أبو منصور	القادر بالله
	الملك بهاء الدولة
	وضياء الأمة
الهامش	الهامش

... نصيبين	ممسوح
سنة سبع وتسعين وثلث مائة	
وزنه ٩٩,٦ حبة	
قطره ١,٠٥ إنج	

درهم رقم (٣) ضرب بالجزيرة سنة ٤٢١هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
لا إله إلا الله	لله
وحده لا شريك له	محمد رسول الله
نصر الدولة	صلى الله عليه وآله
أبو نصر	القادر بالله
	الملك شاهنشاه
	أبو شجاع
	(d)
الهامش	الهامش

محمد رسول الله
أرسله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون

بسم الله ضرب هذا
الدرهم بالجزيرة سنة
إثنتين عشر وأربع مائة
وزنه ٧٩ حبة
قطره ١,٠٥ إنج

يحتوي هذا النموذج على زخرفة كتابية نتكلم عنها فيما بعد.

درهم رقم (٤) ضرب في ميفارقين سنة ١٠٤٥ هـ

الظهر

الوجه

المركز

المركز

لله

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

وحده لا شريك له

صلى الله عليه وآله

نصر الدولة

القادر بالله

أبو نصر

الملك شاهنشاه

أبو شجاع

ص

الهامش الداخلي

الهامش الداخلي

محمد رسول الله أرسله
بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ولو
كره المشركون

بسم الله ضرب هذا الدرهم
مافرقين سنة وأربع مائة*
الهامش الخارجي
لله الأمر من قبل ومن بعد
ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله
الهامش الخارجي ممسوح*

وبعد أن أدرجنا هذه النصوص والصور لأربع قطع مختلفة، نرى من الأفضل وضع جدول عام

* ورد اسم مدينة ميفارقين (سليفان) على النقود الدوستكية بشكل ميفارقين ومافرقين. الصورة من إسماعيل غالب، مسكوكات قديمة إسلامية لوحة (٥).

بالنقود الدوستكية الكُردية، التي وصل إليها بحثنا. علماً أننا بخصوص ما هو موجود منها في (موزه همايون) بإستانبول إعتدنا على (مسكوكات إسلامية قديمة قتالوغي) لإسماعيل غالب باللغة التركية، وهو دليل هذا المتحف الخاص بالمسكوكات الإسلامية. وقد تناولها هذا الدليل من الصفحة ٣٦٥ إلى ٣٧٣.

أما النقود التي أشرنا إلى وجودها في المتحف البريطاني بلندن، فما عدا النماذج التي حصلنا عليها من هذا المتحف مباشرة، فقد إعتدنا على دليل هذا المتحف ل(لان پول) وهو:

Catalogue Of Oriental Coins In The British Meuseum الذي تناول نقود بني مروان (الدوستكيين) في المجلد التاسع صفحة ٢٧٢-٢٧٤. كما تناول أحمد عطية ذكر درهم ضُرب بالجزيرة لأبي علي سنة (٣٨٥هـ)، وأورد صورته وهو مطابق في تاريخه الدرهم رقم (١) الذي مر البحث عنه، وأورد أيضاً ذكر وصورة درهم لنصرالدولة ضُرب في خلاط سنة ٤٠٢ هـ (١١).

أما المستشرق زامبارو، فقد أشار الى درهم بإسم نصرالدولة وقال إنه ضُرب سنة (٤٠١ هـ)، (١٢) ولعل الصحيح هو (٤١٠ هـ).

جدول النقود الدوستكية

التاريخ	إسم الأمير	الوزن	القطر	المصدر	مدينة الضرب
٤١٠ هـ	نصرالدولة	٥٠م	٢٥ ملم	المتحف البريطاني	أمد
٤١٢ هـ	أبو نصر أحمد بن مروان	٥٠م	٢٥ ملم	موزه همايون	أنبر
٤٠٩ هـ				المتحف البريطاني	
٤١١ هـ		١٣م	٢٥ ملم	موزه همايون	الجزيرة
٣٨٥ هـ	أبو علي حسن بن مروان	٧٥.٨ حبة	١.٠٥ إنج	المتحف البريطاني	
٤١٠ هـ	نصرالدولة	١٠.٤ / ١ ط	٢٦ ملم	موزه همايون	
٤١٢ هـ		٧٩ حبة	١.٠٥ إنج	المتحف البريطاني	
٤١٢ هـ			٢٨ ملم	موزه همايون	
التاريخ	إسم الأمير	الوزن	القطر	المصدر	مدينة الضرب

(١١) راجع أحمد عطية، القاموس الإسلامي، ج٢، ص ٨٨ وص ٢٦٧.

(١٢) زامبارو، الاسرات الحاكمة، ج٢، ص ٢٦٥.

		خلاط	
القاموس الإسلامي ج ٢، ص ٨٨		٤٠٢هـ	نصرالدولة
المتحف البريطاني		٤٠٦هـ	
المتحف البريطاني		٤١٠هـ	
			دنيسر
المتحف البريطاني		٤٠٨هـ	نصرالدولة أبو نصر
موزه هـمايون	٢٤ ملم	١٤١٠هـ	م ١/٢ ط ٤
موزه هـمايون	٢٧ ملم	٤١١هـ	
	٢٧ ملم	٤١٢هـ	
			ميافارقين
	٢٧ ملم	٤٩٦هـ	محمد الدولة أبو منصور
المتحف البريطاني		٤٠١هـ	نصرالدولة أبو نصر
زاميارو/الأسرات الحاكمة		٤٠٢هـ	
		٤٠٥هـ	
موزه هـمايون	٢٥ ملم	٤٠٧هـ	
	٢٤ ملم	٤٠٨هـ	
	٢٥ ملم	٤٠٩هـ	
موزه هـمايون	٢٧ ملم	٤١٠هـ	م ١/٤ ط ٨
	٢٥ ملم	٤١٠هـ	نصرالدولة
	٢٧ ملم	٤١٠هـ	
	٢٧ ملم	٤١١هـ	م ١ ط ٧
المتحف البريطاني		٤١١هـ	
موزه هـمايون	٢٩ ملم	٤١٢هـ	م ١ ط ١٤
المتحف البريطاني		٤١٢هـ	
موزه هـمايون	٢٦ ملم	٤١٣هـ	م ١/٢ ط ١٤
			نصيبين
المتحف البريطاني	١٠٠٥ إنج	٣٩٧هـ	محمد الدولة أبو منصور
المتحف البريطاني		٤٠٠هـ	بعد سنة

بعد إدراج نصوص لنماذج من النقود الدوستكية وبعد تنظيم جدول بنقودها، علينا الآن دراسة تلك النقود دراسة تتمثل فيما يأتي:

١- إن النقود التي سكتها الدولة الدوستكية لم تكن كلها من حيث المجموع نقوداً تذكارية مسكوكة بخصوص مناسبات وطنية، مثل مناسبة تولي بعض أمرائها الحكم، أو بمناسبة الانتصارات أو غيرها، بل أصدرت تلك النقود لتكون العملة الكردية المتداولة في البلاد لأغراض التعامل

والتجارة، كما كان الدينار الأرمانيوسي البيزنطي متداولاً في البلاد كما ذكرنا. والدليل على ما نقول هو أن الدولة الدوستكية سكّت نقوداً مختلفة في تواريخ إصدارها لا نجد فيها أية إشارة إلى مناسبة وطنية تستحق إصدار نقود تذكارية. بينما نجد مناسبات ولا نجد نقوداً، مثل مناسبة الإنتهاء من تشييد القصر الدوستكي سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، والذي كان محتويًا على فنون معمارية وزخرفية (١٣).

وقد صادفت هذه المناسبة وصول وفود الدول الكبرى الثلاث العباسية والفاطمية والبيزنطية إلى البلاط الدوستكي للإعتراف بحكومة نصرالدولة. وقد قدم إلى نصرالدولة كل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي لقباً فتلقب بلقب الخليفة الأول وهو نصرالدولة وأقام الأمير احتفالاً كبيراً بالمناسبة (١٤).

ومع أننا لم نجد نقوداً دوستكية سكّت بهذه المناسبة أي بتاريخ السنة المذكورة، إلا أن من المحتمل جداً أن الدولة سكّت فيها نقوداً رغم أننا لم نطلع على كافة نماذج نقودها. ونستدل أيضاً على أن نقودها كانت عملة لغرض التداول، بإصدارها النقود في سنوات متتالية أحياناً. فمثلاً إن جدولنا يتضمن نقوداً مسكوكة في العاصمة فارقين (ميفارقين) من سنة (٤٠٥هـ) حتى سنة (٤١٣هـ) بدون إنقطاع، وحتى في دنيسر غير المهمة لسنوات متوالية أيضاً.

٢- إذا ألقينا نظرة على محتويات جدولنا المتقدم، نرى إن الدولة كانت حريصة على تنوع نقودها من حيث الأحجام والأوزان وأماكن السك. فمثلاً أنها سكّت في العاصمة فارقين في تاريخ واحد أي في سنة (٤١٠هـ) أحجاماً مختلفة، وسكّت في نفس التاريخ نقوداً أخرى في أربع مدن أخرى وهي الجزيرة ودنيسر وخلاط وأمد. وفي الوقت الذي لم نطلع فيه على أحجام المسكوكات الأخيرة، نجد إن مسكوكات الجزيرة ودنيسر مختلفة الأحجام، أي إن مسكوكات كل مدينة تختلف في حجمها عن مسكوكات المدينة الأخرى. إن سكّ النقود في تاريخ واحد وفي خمسة أماكن مختلفة وبسبعة أحجام مختلفة أو بخمسة أحجام على أقل تقدير كان كما هو متوقع لأجل جعل العملة صعبة التزوير. ولهذا لم تكتف الدولة بجعلها مختلفة في أماكن ضربها فحسب، بل في أحجامها، وأغلب الظن في أوزانها أيضاً. فمثلاً إن مسكوكات الجزيرة ودنيسر مع مسكوكة فارقين من التاريخ المذكور كانت مختلفة الأوزان، في حين لم نطلع على أوزان البقية من مسكوكات ذلك التاريخ. وهناك وسائل أخرى للتمييز بين بعض النماذج، كالكتابات وتقييد أماكن بعض كتابات النقود التقليدية والرموز التي سنتحدث عنها. أما أوزان النقود الدوستكية الموجودة في متحف إستانبول وحسيما بيّتها إسماعيل غالب، فإنها تقع بين (١/٢م ١٤ ط) وبين (١/٣م ١٤ ط)، أي بين مثقال واحد وأربعة قراريط ونصف قيراط (١٥)، وبين مثقال واحد وأربعة عشر قيراطاً

(١٣) راجع التفاصيل في الجزء الأول، ص ١٧٠. والفارقي، ص ١٠٧.

(١٤) راجع الفارقي، ص ١٠٨-١١٠، والجزء الأول، ص ١٧٣-١٧٧.

ونصف قيراط، عدا قطعة واحدة كان وزنها (١/٢ ١٤ ط) ولعل الرقم ورد مبتوراً في (مسكوكات إسلامية لإسماعيل غالب) ويكون الصحيح (١ م ١/٢ ١٤ ط). أما أحجام النقود من حيث القطر وحسبها في المصدر المذكور، وكما يلاحظها القاريء من الجدول، فإنها تقع بين (٢٤ و ٢٩ ملليمتر) أي إن قطر أكبر درهم منها هو (٣سم) إلا ملليمتر واحد.

٣- توجد رموز على بعض تلك النقود الدوستكية، وهي عبارة عن حروف منقطة في الغالب وواقعة في نهاية كتابة الوجه أو الظهر ومن تلك الرموز (ر، د، ن، ص، ف، "ج سم"؛ (I)، و(D) والرمز الأخير ليس حرفاً عربياً وإنما هو حرف الدال اللاتيني أو ما يشبهه. ويُشاهد هذا الرمز الأخير على الصورة رقم (٣). وتوجد رموز مشابهة على نقود بعض الدول الإسلامية الأخرى، وأخص بالذكر الدولة البويهية. ولم يستطع الباحثون المختصون بالمسكوكات الإسلامية حل هذه الرموز، فمنهم من يقول أنها رموز دالة على وزن السكة. وكذلك إن الرمز (I) ليس حرفاً عربياً، بل الحرف اللاتيني المعروف بهذا الشكل أو ما يشبهه. ومن المحتمل أن الغرض من الرمز هو للتمييز بين مسكوكة وأخرى متطابقتين في التاريخ أو الكتابات، مثل الدرهم رقم (٣) والدرهم رقم (٤)، فإنهما ورغم اختلافهما في التاريخ متطابقان في كتاباتهما. ونلاحظ من صورتيهما وجود الرمز (D) تحت كتابات ظهر الرقم (٣)، ورمز(ص) تحت كتابات مركز الظهر من الرقم (٤).

٤- إن النقود الدوستكية ليست خالية من العنصر الزخرفي الكتابي فنهاية بعض الحروف من كتابات الهامش الداخلي الداخلي تمتد من الى داخل الوجه من أربعة جهات متقابلة وبنسب متساوية تنتهي بزخرفة حيوانية على هيئة رأس بطة. وكل من الدرهم رقم (٣ و ٤) مزخرف بهذه الزخرفة وفي الدرهم رقم (٣) ينتهي حرف الراء من كلمة (أبو نصر) بزخرفة تمثل رأس (الوز) تمتد باتجاه رأس البطة، في حين إن حرف الراء من نصرالدولة لا ينتهي بالزخرفة الأخيرة. ونلاحظ هذه الزخرفة من صورة الدرهمين المذكورين بشكل واضح.

أما الكتابة التي إستعملتها الدولة الدوستكية على نقودها، فهي من نوع الكتابة الكوفية البسيطة أي غير المورقة أو المخملة أو المضفرة من الأنواع الكوفية. علماً أن الدولة إستعملت الكتابة الكوفية المورقة والمخملة على آثارها العمرانية، وإستعملت بجانب زخرفتها النباتية زخرفة حيوانية كما سيأتي ذكره في موضوع "تطور الكتابة المزخرفة في الدولة الدوستكية".

(١٥) المثقال درهم وثلاثة أسباع الدرهم، والدرهم ستة دوانق، والدانق قيراطان، والقيراط طسوجان، والطسوج حبتان من شعير. وهذا حسب ما في كتب اللغة والموازن مثل، الصحاح للجوهري، ج ٤، ص ١٦٠٩. وعقد المنير، للسيد موسى المازندراني راجعه بصدد الأوزان من ص ١٣٠-١٤٢. وعلى هذا الأساس فإني شخصياً قد أجريت تحديداً للمثقال فبلغ (١٦٩) حبة شعير متوسطة، ووزنت الحبوب هذه عند الصاغة فكانت غرامان. فالمثقال إذن غرامان أما القيراط فثمان حبات شعير. راجع موضوع الأوزان والمكاييل. ومن الجدير بالذكر أن الحبة كانت مستعملة في العهد السومري بإسم (شي)، وكانت (٤٦,٧٥) ملليغراماً كما في مقال (التجارة والصناعة قديماً) للدكتور فوزي رشيد المنشور في جريدة (الإتحاد) العراقية العدد الصادر في ١٩٨٨/٦/٥. في مقال محمد الخطيب بعنوان (الأحجار الكريمة والمجوهرات) المنشور في مجلة (الفصل) العدد (١٠٨) سنة ١٩٨٦: القيراط = ٢٠٠ ملليغرام والحبة ربع قيراط- (٥٠) ملليغراماً.

٥- يوجد في عدد من النماذج إسم "محمد" في نهاية مركز الوجه بعد لقب وكنية "نصرالدولة أبو نصر" (١٦)، مما يوهم أنه إسم هذا الأمير، في حين إن إسمه هو (أحمد). وقد علّق على هذا كل من زامباو وإسماعيل غالب ومحمود ياسين (١٧).

حيث قال الأول بأن محمداً هو إسم الأمير الذي ولد سنة (٣٧٦هـ)، بينما قال إسماعيل غالب أن هذا الإسم يتعارض مع ما ذكره المؤرخون من إن إسمه أحمد. وقال يحتمل أن يكون المؤرخون على خطأ فيما ذكروه. أما السيد محمود ياسين، فقال بإحتمال كون الخطأ واقعاً في نقش الدرهم، حيث كُتِب محمد بدلاً من أحمد خطأ وليس على سبيل التزوير. والثلاثة مجتمعون على أن "محمد" قُصد به الأمير نصرالدولة.

أما أنا، فأرى من المحتم أن إسم محمد الموجود على عدد من النماذج من عهد نصرالدولة لم يُقصد به هذا الأمير، بل قُصد به النبي محمد والغرض من كتابة إسمه هنا هو التيمّن. ولعل ما يؤيد ما نقوله هو كتابة كلمة (لله) على نماذج عديدة من النقود الدوستكية في أعلى مركز الظهر، مثل الدارهم المرقمة ٢ و ٣ و ٤ أو في أعلى مركز الوجه مثل الدرهم رقم ١-١. ولعل كلمة (لله) كتبت على كافة الدراهم، أما محمد فعلى بعضها والغرض جعل إسم الأمير أي لقبه وكنيته بين لفظتي (لله) ومحمد للتيمّن والإستحفاظ. أما إحتمال وقوع الخطأ في نقش الدرهم فبعيد جداً لأنه:

- أولاً؛ إن وقوع هذا الخطأ في كتابة قليلة ومهمة للغاية من قبل الكاتب أو النقاش بعيد جداً.
- ثانياً؛ في حال وقوع هذا الخطأ تمنع الدولة إنتشار النقود التي تحمل ذلك الخطأ الفاحش.
- ثالثاً؛ إن وجود إسم محمد في نماذج متعددة ومختلفة في تواريخها... لا يمكن أن يكون خطأ. إذ كيف يتكرر هذا الخطأ، أو كيف تسمح الدولة بإنتشار نقود تحمل إسم الأمير الحاكم خاطئاً المرة تلو المرة وخاصة في ثلاث سنوات أو دفعات متتالية؟ هذا في حين ليس هناك شك أو خلاف على أن إسم هذا الأمير هو (أحمد) كما إتفق عليه المؤرخون وكما هو موجود على آثاره في ديار بكر وكما سنأتي على ذكره في موضوع (الآثار العمرانية). وقد تم الإكتفاء بلقب وكنية الأمير دون إسمه لإشتهاره بهما، كما أكتُفي بلقب وكنية الأمير ممهد الدولة على نقوده، حيث لم يصرح بإسمه (سعيد). وكان معظم الملوك يكتفون بألقابهم في مراسلاتهم ونقودهم. وهناك إحتمال آخر وهو أن يكون للأمير المذكور إسمان أحمد ومحمد، فإختار الثاني غير المشهور على نقوده مفضلاً إياه على الأول لمطابقتها إسم النبي، وهو إحتمال بعيد نوعاً ما.

٦- يوجد على النقود الدوستكية إسم الخليفة العباسي القادر بالله (١٨)، والملكين البويهيين بهاء الدولة (١٩)، والملك شاهنشاه أبي شجاع (٢٠)، وهذا دليل على أن الدولة الدوستكية كانت تابعة

(١٦) من النماذج التي عليها إسم "محمد" النموذج المضروب في آمد سنة (٤١٢هـ) والذي قطره (٢٥ملم) ونمذج دنيسر لسنة (٤١١هـ) والمضروب في ميفارقين سنتي ٤٠٨ و ٤٠١هـ.

(١٧) راجع زامباو، الأسرات الحاكمة، ج ٢، ص ٥٦٥. وإسماعيل غالب، مسكوكات قديمة إسلامية: موضوع نقود بني مروان. ومحمود ياسين، الإمارة المروانية، ص ١٦٩-١٧٤.

للخلافة العباسية والدولة البويهية في العراق، وهي تبعية من الناحية الشرعية أو النظرية فقط. إذ أنها كانت مستقلة في كافة شؤونها شأنها في التبعية العباسية شأن معظم الدول الإسلامية، التي نشأت في العصر العباسي حتى الدولتين الكبيرتين السلجوقية والأيوبية، حيث توجد أسماء الخلفاء منقوشة على بعض من نقودهما. فعلى سبيل المثال يوجد اسم الإمام المقتدي على دينار ملكشاه مسكوك في سنة (٤٨٦هـ) (٢١).

هذا وقد ناقشت هذه المسألة بتفصيل أكبر في موضوع النظام السياسي فراجع هناك. وأخيراً إن النماذج التي إطلعنا عليها من النقود الدوستكية تعود الى ثلاثة أمراء فقط ومن المتوقع أن الدولة سكّت النقود في عهود الأمراء الآخرين.

ديوان الجباية (المالية)

هو الدائرة التي تقوم بجمع واردات الدولة وإستيفاء أموالها السنوية وصرفها في رواتب الموظفين ورواتب وأرزاق القوات المسلحة والخدمات الإجتماعية والأوجه الأخرى. ولدى هذه الدائرة سجلات بأسماء الجنود والشرطة والموظفين ومقدار الراتب الذي يستحقه كل فرد منهم.

"... وهذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف عطاءاتهم في إباناتهم، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها القيّمون على تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحساب لايقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب (أي السجل) بالديوان مكان جلوس العمال المباشرين لها" (١). وإعتبر المفكر واضع علم الاجتماع إبن خلدون هذه الدائرة والوظيفة ثالث أركان الدولة، بينما إعتبرها الوزير أبو سالم الركن الرابع (٢). وهذه الدائرة تمثلها في عصرنا وزارة المالية، أما الموظف الكبير الذي كان يشرف عليها أو يديرها، فكان يعرف في الدولة العباسية والدوستكية ودول أخرى بـ(ناظر الديوان)، بينما كان يُعرف بـ(رئيس ديوان النظر) في الدولة الفاطمية (٣).

(١٨) القادر بالله هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، تولى الخلافة بعد القبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١هـ = ٩٩١م.

(١٩) تولى بها الدولة بن عضد الدولة الحكم في العراق سنة (٣٧٩هـ = ٩٨٩م) بعد وفاة أخيه شرف الدولة.

(٢٠) تولى الملك شاهنشاه الملقب بسلطان الدولة الحكم بعد وفاة والده بها الدولة سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، وإستولى أخوه مشرف الدولة على الحكم وخطب له رسمياً في السنة التالية، ونتيجة للتفاوض بينهما إنتقل شاهنشاه ملكاً الى إقليم فارس. وتوفي سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٣م).

(٢١) راجع مجلة "سومر" مجلد ٢٥ لسنة ١٩٦٩ الجزء الأول: مقال الأستاذ الدكتور محمد باقر الحسيني بعنوان دراسة تحليلية للعناصر الزخرفية على النقود السلجوقية.

(١) إبن خلدون، مقدمة، ص٢٤٣.

(٢) الوزير أبو سالم محمد بن طلحة النصيبي، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٥٨.

وكان لديوان الجباية في الدولة الدوستكية كغيرها من الدول فروع، أي دوائر تابعة له في الولايات. لقد كان ديوان الجباية موجوداً في الدولة الدوستكية، حيث أشار الفارقي في موضعين إلى وجوده وذكر لنا إسم "ناظر الديوان" وهو "إبن بركة" (٤). وكان إبن بركة بمثابة وزير المالية في الدولة في عهد الوزير المغربي، وإستمر في منصبه بعد وفاة هذا الوزير. كما أنط به نصرالدولة القيام بشؤون الوزارة إلى أن تولاه ابن جهير.

أما في ولايات الدولة، فكانت فيها أيضاً دواوين جباية تابعة للديوان (العام) في العاصمة فارقين. فمثلاً تولى ديوان الجباية في دياربكر سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م) موظف مسيحي يعرف بـ(إبن الخمار) وتولاها في عهد واليها الأمير أبي الحسن سعد الدولة محمد بن نصرالدولة (٥). أما في دياربكر، فقد تولى ديوان الجباية أيضاً الشاعر إبن الأسد الفارقي آخر وزراء الدولة الدوستكية (٦).

وتجدر الإشارة إلى أن الموظفين التابعين لديوان الجباية من الذين كانوا يجيبون أموال الدولة من وجوهها المختلفة في الدولة الدوستكية، كانوا يدعون بـ(العمال) كما في الدول الأخرى. ولعل لفظ (النواب) كان يطلق عليهم وعلى غيرهم من الموظفين الكبار وإستعمله إبن الأثير، حيث قال إن معظم "نواب بني مروان" في دياربكر كانوا من المسيحيين (٧).

هذا وكان العمال يقومون بأعمال إضافية أخرى، كالإشراف على بناء المنشآت العمرانية إذ يوجد مثلاً إسم أحد عمال الدولة الدوستكية، وهو أبو طاهر العلاء بن (كاغد؟)، على إحدى تلك المنشآت بجانب إسم الأمير نصرالدولة. وفيما يلي صورة للأثر العمراني وهو قسم من سور دياربكر مع نص الكتابة الموجودة عليه:

نص الكتابة:

"بسملة... مما أمر بعمله مولانا الأمير السيد الأجل المؤيد المنصور عز الإسلام سعد الدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء أبو نصر أحمد بن مروان (؟) شهوز سنة (؟) عشرين وأربعمئة وجرى ذلك على يدي عامله أبي طاهر العلاء بن كاغد (؟) بن سهل".

الصورة والكتابة من (Amida - ص ٢٥) لثان برشم. وموجودتان أيضاً في بسري كونيار،

(٣) الدكتور محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص ٥١. ذكر القلقشندي في صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٣ أن: صاحب (نظر الديوان) هو رأس لكل ولاية وله الولاية والعزل وإليه عرض الأرزاق على الخليفة والوزير.

(٤) الفارقي، ص ١٣١ و ١٤٧ قصداً بالإسم الكنية أما إسمه الحقيقي فلم يذكره الفارقي وذكر أيضاً في ص ١٤٧ أنه كان "إبن بركة ناظر الديوان".

(٥) الفارقي، ص ١٤٧، ذكر هنا أن إبن الخمار تولى أمر الديوان بينما قال في (ص ١٢٦) أن نصرالدولة عينه كاتباً للأمير محمد. ويمكن الجمع بين القولين بكونه كان مدير المالية وكاتباً للأمير المذكور في وقت واحد.

(٦) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٢٩، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. بغية الوعاة في طبقات النحاة، ص ٢١٨، الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ١٩٨. لا نستطيع أن نحدد تاريخ تولي إبن أسد ديوان الجباية.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٥.

ج ١، ص ٢٥ من (Diyarbakir Tarihi).

من الجدير بالذكر أنه لم نعثر على معلومات حول المصادر المالية للدولة الدوستكية، إلا أن تلك المصادر كانت بلاشك تتكون من ضريبة الأرض وبعض العقارات والواردات الزراعية والجزية والغمرك والمكوس وغيرها. كما لم نعثر أيضاً على معلومات حول الضرائب المختلفة ومقاديرها والمتوقع بالنظر لسياستها العادلة، إنها لم تفرض ضرائب ثقيلة على الشعب، كالتى فرضتها سابقاً الدولة الحمدانية، والموجودة في قائمة ابن حوقل، وكذا الضرائب الكثيرة التى فرضتها الدولة البويهية مثل ضريبة الحيوانات والمنسوجات والطواحين والأسواق والحوانيت والمراعي والملح والإرث. هذا بالإضافة الى مواردها المستحصلة من الجزية والمكوس وغيرها، مما تجده في (العراق في العصر البويهي ص ١٢-١٣ للدكتور محمد حسين الزبيدي). ولكن مع هذا، فقد أشار الفارقي الى بعض الضرائب في أواخر أيام الدولة، حيث قال إن تاج الدولة (تُتَش) لما احتل فارقين أسقط عن سكانها "المؤن والأعشار والأقساط والكلف وجميع البوائق" (٨).

وكان من عادة الملوك أن يسقطوا بعض الضرائب إذا تولوا الحكم، ولكنهم (باستثناء من عدل) سرعان ما يعودون لفرضها أثقل من قبل، وخاصة أمثال الملك تُتَش المعروف بظلمه وقسوته. ولا يخفى أن الدولة الدوستكية قد ورثت من الدولة العباسية والبويهية أراض أميرية وإقطاعات غير قليلة إنتقلت ملكيتها الى تحت تصرفها، وأصبحت مصدراً من مصادر ماليتها.

في الوقت الذي لم نعثر فيه على أرقام إحصائية لإيرادات الدولة الدوستكية، فإن لدينا أرقاماً لمقدار الخراج السنوي لعدد من مناطق ذلك الجزء من كُردستان. إذ تبين مقادير الأموال التي كانت تجبى من ضريبة الأرض الزراعية والجزية (التي كانت تؤخذ من أهل الذمة) وضريبة السوق والطواحين والعصير وغيرها. ولدينا بهذا الصدد ثلاث قوائم الأولى قائمة قدامة بن جعفر المتوفي سنة (٣٣٧هـ)،

(٨) الفارقي، ص ٢٣٦. المؤن: أصلها هدايا ثم إكتسبت مثل رسوم مقررة. راجع ص ٢٣ من تاريخ الضرائب العراقية لعباس العزاوي. الأعشار: الضريبة التي تؤخذ من الأموال التجارية في الطرق التجارية في أماكن معينة وفي الأسواق، وهي (المكس) ولا تعني الكلمة أن مقدار الضريبة هو العشر، أي عشر قيمة المال التجاري، بل كان يؤخذ مقدار ما من الدراهم ويسمى به (المآصر)، إذا أخذ من الأموال التجارية التي تنتقل عن طريق الأنهار. والمآصر هو السلسلة الحديدية التي تربط على جانبي النهر ممتدة في النهر لسد الطريق على السفن والأكلاك من العبور، إلا بعد أخذ الأعشار أي الضريبة منها. راجع أيضاً نفس المصدر، ص ٢٣.

الرصد، المرصد، المراصد: هي النقاط والمعابر البرية التي كانت تؤخذ فيها الضريبة من القوافل التجارية وبالكرديّة (باجكه). وكان نصرالدولة قد وضع قوة مرتزقة من السلاجقة في (الرصد)، على ما ذكرناه في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية. وقد فسرت الرصد هناك بمنطقة الحدود مع الدولة البيزنطية، أي مراقبتها كحراس حدود لا بمعنى نقطة الضريبة (الغمرك) نظراً لأن المقام إقتضى ذلك.

الأقساط: الوارد في كلام الفارقي هو نوع من الضريبة التي كانت تؤخذ من الموائع كالزيوت ودهن السمسم والديس. وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن عياض غنم، عندما فتح القسم الذي كان بيد الفرس من ديار ربيعة من سهل ماردين ونصيبين حتى سنجان، فرض على كل رجل سنوباً ديناراً و(مدى) قمح و(قسطي) زيت و(قسطي) حل أي دهن السمسم. والقسط مكبال وهو نصف صاع أي حوالي نصف كيلوغرام. راجع الرجبي، فقه الملوك. ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، ج ١، ص ٣٠٤.

وتعود الى زمن المعتصم، أي الى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي). والثانية قائمة الوزير على بن عيسى، التي وضعها لخراج الدولة العباسية لسنة (٣٠٦هـ = ٩١٨هـ)، أي قبل الدولة الدوستكية بـ ٦٦ سنة. والثالثة قائمة ابن حوقل النصيبي وهي أهمها باعتبارها قريبة العهد من الدولة الدوستكية، إذ أنها تعود الى سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٨م) حين زار ابن حوقل مدينة نصيبين (نصيبين) والموصل من إقليم الجزيرة، أي قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة في عهد الحمدانيين.

إن إدراج قائمة ابن حوقل وما ورد في القائمتين المذكورتين هنا في الحاشية لا يخلو من فائدة، إذ يمكن عن طريقهما أخذ فكرة تقريبية عن مالية الدولة الدوستكية ومصادرها، وكذلك فكرة عن تلك المناطق نفسها من حيث الإنتاج، وعلى الخصوص بالإطلاع على قائمة ابن حوقل (٩). مع العلم أن الأخير ذكر بعض الأرقام بالدرهم والبعض الآخر بالدينار، فحولنا الدرهم الى الدينار مع العلم أن الدينار في وقته كان (١٥) درهماً (١٠).

(٩) مقدار الخراج السنوي بالدرهم من قائمة قدامة بن جعفر الموجودة في مؤلفه: كتاب الخراج، ص ٢٥١:
 ٣.٢٠٠.٠٠٠ (أي ثلاثة ملايين ومائتا ألف درهم) قردي وبازيدي (أي القسم الجنوبي من بوتان والمنطقة الواقعة في غرب وجنوب غرب مدينة الجزيرة، وتوجد حالياً ثلاثة مدن في منطقة بازيدي وهي الجزيرة وههزهخ ضمن الحدود التركية ومدينة ديريك في الجانب السوري).
 ٤.٢٠٠.٠٠٠ أرزن وميفارقين (أي منطقة غرزان وفارقين). أي أربعة ملايين ومائتا ألف درهم.
 ٢.٠٠٠.٠٠٠ آمد (دياريكر). أي مائتا ألف درهم
 ٩.٦٣٥.٠٠٠ ديار ربيعة. أي تسعة ملايين وستمئة وخمسة وثلاثين ألف درهم.
 ١٩.٠٣٥.٠٠٠ درهم أي ١.٢٦٩.٠٠٠ دينار مقدار الخراج السنوي بموجب قائمة على بن عيسى حسبما ذكرها جرجي زيدان في (تاريخ التمدن الإسلامي) ج ٢، ص ١٠٩ - ١١٦. فالحساب كان بالدينار وهي:

٥٤٧٨	آمد سوى ما جمع في إقطاع كاسه وبعد الإحتسابات
٨٢٤٢٢	مال (من آمد)
٥٦٧٥٠	أرزن وميفارقين بعد الإحتسابات
٨٢٤٢٢	مال
٢٢٧٩٧	ديار ربيعة بعد الإحتسابات

المجموع: ٥٥٣٩٦٢ ديناراً

والجددير بالذكر أن كلاً من قدامة وعلي بن عيسى أدخلتا كغيرهما عدداً من مناطق كردستان الوسطى تحت إسم أرمنية، معتبرين إياها جزءاً منها مثل مناطق بدليس وخلاط وملازغر وأرديش، التي كانت ضمن الدولة الدوستكية. فيمكن إذن أن تقدر خراج هذه المناطق بحوالي مليوني درهم، إذا ما أخذنا بقائمة (ابن خرداذبه) العائدة الى القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي). حيث ذكر بأن خراج أرمنية أربعة ملايين ونصف مليون درهم. راجع قائمته في تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ج ٢، ص ١٠٩-١١٦ وراجع المجموع الكلي في المسالك والممالك لابن خرداذبه، ص ١٢٥.

إن خراج المناطق المذكورة يعادل ثلث خراج أرمنية حسب قائمة ابن خلدون الموجودة في مقدمته ص ١٨٠ وهو ثلاثة عشر مليون درهم، عدا وراحت أخرى غير داخلية ضمن هذا المبلغ، وهو مطابق لما ورد في كتاب الوزراء للجهمشباري ص ٢٨٦ وهما قائمة واحدة مختصة بزمان هارون الرشيد.

وإن القدرة الشرائية للدينار الواحد آنذاك كانت تعادل حوالي خمسين ديناراً عراقياً في سبعينيات القرن العشرين.

=هذا وقد اعتبرنا ديار ربيعة ضمن كردستان هنا، لأن قائمة قدامه حصرتها في منطقة نصيبين (نصيبين) وماردين ودارا وكفرتوتا ورأس العين من المناطق الكردية. وفصل على بن عيسى في قائمته أيضاً بين ديار ربيعة والموصل ومردين، وبهذا فهي تشمل زاخو ودهوك أو من ألقوش الى ماوراء زاخو. مع العلم إن مردين غير ماردين وبهذا يطابق تحديده لديار ربيعة تحديد قدامه لها.

والمقصود بعبارة "بعد الإحتسابات" في قائمة على بن عيسى، هو بعد خصم مبلغ من أصل الخراج من المجموع الكلي. إذ كان يخضم من مجموع إيرادات الدولة مبلغ يرصد لرواتب الموظفين والجنود وللخدمات الإجتماعية العامة للمنطقة. ومن ثم يرسل الباقي الى خزينة الدولة ببغداد وهذا الباقي هو الذي ينظم بقائمة الخراج. أما المقصود بكلمة "المال" الواردة في القائمة فيحتمل أنه مال (الضياح السلطانية) والإقطاع وتعرف الضياح السلطانية الخاصة بالخلفاء بالضياح الخاصة.

(١٠) قائمة ابن حوقل حسبما ذكرها في كتابه صورة الأرض ص ١٩٣-١٩٤، ١٩٦، ١٩٧ وكانت هذه الضرائب موجودة في العهد الحمداني. وهي كما يلي بالدينار:

نصيبين وأعمالها

وارداتها الزراعية من الحنطة والأرز والشعير والحبوب خمسة ملايين درهم.	٣٣٣ . ٣٣٣
الجزية.	٥٠٠٠
ضريبة الشراب وهي العشر.	٥٠٠٠
ضريبة السوق، أي ما يؤخذ عن الغنم والبقر والبقول والفواكه.	٥٠٠٠
ضرائب الطواحين في القصبه والضياح المقبوضة والمشتراة والعقارات المسقفة كالحانات والحمامات والدور في رستاق أبين (الواقعة في الشمال الغربي من نصيبين، وهي المنطقة التي فيها الآن قرية (بنيبين) الواقعة بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً الى الشرق ماردين والتي تحمل اسم (أبنين) وكانت تمتد الى قرية (محصرتي) الكبيرة الحالية.	١٦٠٠٠
من الحبوب مليون درهم.	٦٦٠ . ٦٦٦
من الضرائب المفروضة على العصير (أي الدبس) والطواحين وغيرها، والجزية.	٣٠٠ . ٠٠٠
قردي - باعيناثا - طنزه - شاتان	
من الحنطة والشعير.	١٠٠٠ . ٠٠٠
من الأموال التي تجبى من الجزية ومن ضرائب الطواحين.	٣٠٠ . ٠٠٠
بازبدي	
من الحنطة والشعير مليون درهم.	٦٦٠ . ٦٦٦
من الجزية والضرائب	٢٠٠٠
باهدرا	
من الحنطة والشعير.	١٠٠٠ . ٠٠٠
وبها من المال عن وجوه إسقائها ومياهاها.	٣٠٠ . ٠٠٠
دينار مجموع إيرادات الدولة من المناطق الكردية المذكورة.	٧٨٩ . ٦٦٥

ومن الجدير بالذكر أن عبارة ابن حوقل بصدد قيمة واردات الدولة الزراعية من نصيبين وردت "خمسة آلاف درهم" والصحيح "خمسة آلاف ألف درهم" أي خمسة ملايين درهم قيمة لعشرة آلاف (كر) والخطأ مطبعي أو إستنساخي وقد وقع في نفس الخطأ المذكور الدكتور فيصل السامر إذ لم ينتبه الى معرفته وتصحيحه وذلك في كتابه الدولة الحمدانية، ج ١، ص ٣٢٩. وقال ابن حوقل أن قيمه (الكر) كانت خمسمائة درهم.

الخازن

كانت وظيفة الخازن هي الإشراف على الأموال الخاصة بالملك، وأن هذه الوظيفة كانت موجودة في أنظمة الدولة الكُردية. فقد ذكر الفارقي عند البحث عن تجديد جامع فارقين في عهد نصرالدولة في سنة (٤١٤هـ)، أنه أشرف على التجديد أبو السعيد الكبير بختيشوع الخازن وذلك في (ص١٢٣) من تاريخه. وقد ذكر ابن الجوزي في المنتظم، حوادث سنة (٤٥٥هـ) إسم خازن آخر هو (أبو الفرج الخازن) بمدينة آمد (ديار بكر)، والذي يحتمل أن يكون (أبا الفرج الزهرجي). راجع موضوع (الأدب).

الطرّاز

الطرّاز كالحظية والسكة من شارات (علامات) الدولة، وهي العلامات التي تنسج على شعار الدولة وعلى ملابس الملوك والأمراء ورجال الدولة لتدل على مناصبهم، من خيوط ملونة ورسوم أو كتابات كإسم الملك أو نحو ذلك. ويطلق لفظ الطراز على نفس الملابس وعلى الدار (أي المعمل) الذي ينتجها أيضاً. وكان للطرّاز دائرة خاصة يشرف عليها موظف يسمى (صاحب الطراز).

كان الطراز موجوداً في الدولة البيزنطية والساسانية قبل الإسلام، وأول من أدخله إلى الإسلام كان عبدالمك بن مروان، حيث كتب عبارة (لا إله إلا الله) بدلاً من عبارة (بإسم الأب والإبن والروح القدس)، التي كانت تكتب على الملابس الرسمية للدولة الأموية المصنوعة في مصر. وكان الصانع مسيحيون وكان التقليد بيزنطياً. ولما علم عبدالمك بمعناها غيرّها بالعبارة المذكورة، وإستنكر الإمبراطور البيزنطي (ملك الروم) ذلك، لأن الطراز كان من حق الدولة البيزنطية وهي التي تختار ما تريده من العبارات المنسوجة على الملابس.

كان لكل دولة إسلامية طرازها الخاص بها، كالدولة الفاطمية التي كانت تمتلك في عهدها (دار الكسوة) الخاصة بالطرّاز وكانت قيمة ما يخرج منها في السنة (٦٠٠) ألف دينار. وفي سنة (٥١٦هـ) بلغ عدد القطع التي صدرت منها (١٤٠٣٥) قطعة من ملابس الطراز. أما الدولة العباسية، فكانت تصنع ملابس طرازها في مصر. ثم أنشأ خلفاؤها في قصورهم دوراً خاصة بنسج ملابس الطراز، ثم سُمح للنسّاجين في الأسواق بصنعها. وكانت ملابس الخلفاء والملوك من الحرير، وكان الطراز ينسج على الستائر أيضاً.

أما الدولة الدوستكية، فكان لها أيضاً طرازها الخاص بها، وكان شعار الدولة يُنسج على الملابس وعلى منسوجات أخرى. وكانت ملابس الطراز الدوستكي على الأقل في عهد نصرالدولة تصنع في مصر كل عام في معامل (تنيس) و(دمياط). وقد وردت الإشارة إلى ذلك في رسالة لداعي الدعاة الفاطمي (المؤيد في الدين الشيرازي)، الذي إقتبسه من رسالة نصرالدولة وهو يشيد بتقدير كل من



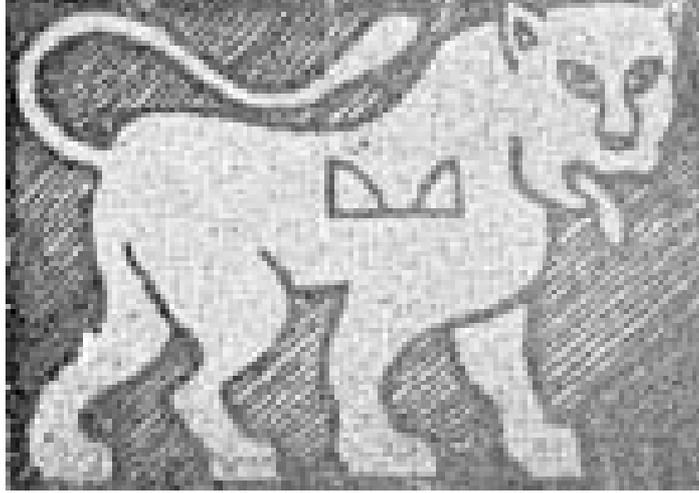
نموذج من نسيج تنيس- المتحف الإسلامي بالقاهرة

الخليفة الحاكم وإبنة الظاهر له وإرسالهما الهدايا والألطف إليه، من قوله: "وما كان جعل له بتنيس ودمياط من رسم الإستعمال". وقد ذكرنا ذلك في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية. وقد شرحنا هناك مصطلح "رسم الإستعمال" و"الإستعمال". وكان يُطلق على تلك الملابس إسم "المستعملات" وقد إستعمل الخليفة العباسي لفظ "الإستعمال" بدلاً من (الطراز)، أي الشعار في كتاب إعترافه بحكم فخر الدولة البويهية سنة (٣٦٦هـ). حيث سمح له الخليفة بنسج "الإستعمال في جميع المناسج على أتم النيقة... وأن يثبتوا إسم أمير المؤمنين على طرز الكساء والفرش والأعلام والبنود".

شعار الدولة

كان لكل دولة شعارها الخاص المنقوش على علمها وعلى غيره. أما شعار هذه الدولة الكردية، فلم نجد نصاً مؤكداً بخصوصه، ولكن يوجد رسم لصورة أسد مازال باقياً على جسر آمد (دياربكر)، الذي شيده نظام الدين بننصرالدولة سنة (٤٧٢هـ = ١٠٧٩-١٠٨٠م) وسيأتي ذكره في موضوع الآثار العمرانية. الصورة عبارة عن رسم (أسد) لبوءة قد أخرجت لسانها ومنقوش على الصورة مثلثان قاعدتاها مرتبطان بخط واحد. تناول الصورة بالدراسة (قان برشم) في كتابه القيم (Amida، ص٣٤) وتسأل عما إذا كان هذا شعار (بني مروان). وذكر أنه يوجد رسم مماثل على برج عند باب خربوت في آمد، كان الأمير ناصرالدولة منصور بن نظام الدين قد بنى وجدد (أو عمّر) هذا البرج سنة (٤٧٦هـ)، وعليه كتابة بإسمه. كما ذكره أيضاً بسري كونييار (ج٢، ص٣٦) وأكد على أن هذه الصورة مماثلة للصورة الموجودة على الجسر.

إن تكرار الصورة في أكثر من آثار الدولة الدوستكية يعطي ترجيحاً لملاحظة قان برشم، بكونها



شعار الدولة الدوستكية

شعاراً لها، مع أن ملامح الأسد بصورة عامة تعبر عن القوة (كما إن الأسد رمز للقوة والشجاعة). إلا أن نقطة واحدة توحى بالضعف الذي لا ينسجم ووظيفته التي هي شعار الدولة. وتلك النقطة هي لسان الأسد الخارج من فمه، إن كان تعبيراً عن حالة اللهث والنظر الى الماء وهو عطشان. ولكن تكرار اللسان الطالع في الصورة الموجودة على برج باب خربوت (باب الجبل) لا يشير الى هذا المعنى، إذ لا وجود للماء هناك. فيحتمل أن يكون لذلك معنى آخر فجهله، إن لم يكن إشارة الى المعنى التنجيمي وهو: أن لبرج الأسد الفلكي الفم و اللسان أي أن ما يتعلق بالفم واللسان له علاقة بهذا البرج من الناحية الطبية القديمة. كما إن لبرج الجوزاء العينين، ولبرج الثور الجبهة وبرج الجدي البطن. أما الرمز المنقوش على الجنب الأيمن للأسد وهو مثلثان ربط بين قاعدتيهما بخط، فيحتمل أنه رمز تنجيمي آخر. فالشكل المثلث في التنجيم القديم (وكذلك التنجيم في العهد الإسلامي) رمز للسعد كالشكل السداسي. بينما كان الشكلان المربع والمستطيل علامتي نحس. كما كان للشكل المثلث علاقة ببرج الأسد وبرج الحمل أيضاً. وهذا على ما كتبه (ماني) في كتابه (كفلايا) (١) أن برج الأسد الذي هو بطبيعته (ناري) من نوع الأبراج التي لها صفة (السعد)، وهو مرتبط بفلك السماء الرابعة أي أن الشمس سلطان الكواكب، وهي من كواكب (السعد) لا النحس ونسبتها للإنسان القلب (٢).

والمثلث يعود أيضاً الى كوكب المشتري السعيد، الذي هو أكبر كوكب في المجموعة ورمز (آهورامزدا) عند الزردشتيين.. فضلاً عن هذا، إن المثلث أصل الأشكال الهندسية وأقواها في

(١) پرويز ورجاوند، مرصد مراغه، ص ٥١-٥٢.

(٢) ذيل تذكرة أولي الألباب لداود الأنطاكي، ص ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٤ والذيل لأحد تلامذة الأنطاكي لم يُعرف إسمه.

العمارة، ولذلك إختاره الفراعنة في بناء أهراماتهم. أي أن الشكل المثلث تعبير عن الخير والحظ السعيد وعن القوة وله إرتباط بالأسد. أما في علم (السيمياء) فالمثلث هو رمز له علاقة بالماء. وهو يرمز الى إخضاع الماء لسيطرة الإنسان حتى إمكانية المشي عليه، كالمشي على الأرض عن طريق (السيمياء). ففي ذيل تذكرة أولي الألباب الصفحة (٦٣) أن فرخ طائر الخطاف إذا أحرق وكُتب برماده رموز معينة ثم خط الشخص على الماء "فإنك تمشي على الماء ويبري منك ذلك عياناً". والكتابة عبارة عن إثنين وثلاثين رمزاً، إثنى عشر منها مكتوبة بأوضاع مختلفة مشابهة للرمز المنقوش على الأسد، ولكنها أصغر في الكتاب طبعاً مما هو منقوش على حجر الجسر أي على رسم الأسد. فيُستفاد منه أن ذلك الرمز هو من جملة الرموز السيميائية، التي تستخدم في العملية المذكورة مع قراءة دعاء معين لإخضاع الماء لسيطرة الإنسان والمشي عليه بدون خوف من الغرق. وهذا الرمز بمعناه السيميائي منسجم مع مدلول الجسر والغرض منه وكذلك مع الماء. ومما هو قمين بالذكر، أن الملوك الدوستكيين كانوا يعتقدون بالتنجيم كما سيجد القاريء ذلك أكثر من مرة في كتابنا هذا. وبناءً على ما تقدم من الرموز والمعاني المتعددة السامية التي ترمز إليها هيئة الأسد ونظراً لتكرار الصورة بنفس الهيئة على أثرين من آثار الدولة أرجح أيضاً أن الأسد بتلك الهيئة كان شعار هذه الدولة الكرديّة.

القوات المسلحة

أ- الجيش

كان للدولة الدوستكية جيش نظامي يتسلم أفراده أرزاقهم ورواتبهم من الدولة. وكان يساند الجيش النظامي في حالات الطوارئ وأيام القتال متطوعون من أبناء الشعب دفاعاً عن الوطن. وكانت للجيش قيادة عليا في العاصمة فارقين تتكون من عدد من كبار القادة والقائد العام، الذي ذكره الفارقي بإسم "صاحب العسكر". وقد أطلق هذا الإسم على القائد العام في عدد من الدول الإسلامية في القرون الوسطى، غير إن الفارقي لم يذكر إسم القائد العام للجيش الدوستكي. وهذا في الواقع شيء غير مهم. فقد قال ذلك حينما ذكر أنه لما توفي نصرالدولة أرسل الوزير "صاحب العسكر الى الأمير نظام الدين فأحضره من داره بالمدينة"^(١).

وأعطانا أيضاً مورخنا الجليل (الفارقي) إسم وظيفة هامة في قيادة الجيش الدوستكي وهي وظيفة (عرض الجيش) أو (إستعراض الجيش). وكان صاحب هذه الوظيفة يدعى بـ(عارض الجيش). وكان العارض هو (أبو الحكيم بن الحديثي)، وذلك في فترة من عهد نصرالدولة. وقال بصد ذكر الأسباب التي دفعت بنصرالدولة لإناطة منصب الوزارة بفخر الدولة إبن جهير: "أن أبا الحكيم بن الحديثي الذي كان عارض الجيش جلس ذات يوم يلعب بالشطرنج مع بعض الخدم فتشاجرا فضرب أبو الحكيم رأس

(١) الفارقي، ص ١٧٨.

الخادم فشجّه..."(٢).

يظهر مما قاله الفارقي أن نصرالدولة عزله بسبب هذه الحادثة، ثم أعاده الى وظيفته. أما وظيفة العارض فهي القيام باستعراض الجيش في كل فترة معينة ليدفع الى كل من الجنود والقادة راتبهم وأرزاقهم، وعندما يمرون أمامه يتفقد ملابس كل واحد منهم وسلاحه ودابته إن كان خيلاً، وكان إستعراض الجيش على هذه الصورة في العهد العباسي(٣).

كانت للجيش دائرة عسكرية خاصة تسمى (ديوان الجند) تشرف على الشؤون العسكرية من تنظيم سجلات بأسماء الجنود، ونوعهم من المشاة أو الفرسان ونوعية سلاح كل واحد منهم وما إلى ذلك. هذا بالإضافة الى واجبات التموين والتسليح وغيرهما، وهي عموماً تشابه واجبات وزارة الدفاع في العصر الحالي.

أما بالنسبة لتنظيمات الجيش الدوستكي، فقد وصلت إلينا إشارات قليلة عنه، منها أن الجيش كان ينقسم الى مشاة (رجالة) والى خيالة، كما يتضح من كلام الفارقي عن عارض الجيش والحادثة التي ذكرناها باختصار(٤).

وكانت للجيش أيضاً وحدات (رماة السهام)، كما يظهر من كلام الفارقي بصدد ثورة سكان فارقين على شيروه، وكيف أنه أمر الجنود الكُرج بأن يرشقوهم بالنشاب، فرشقوهم بالسهام وقتلوا منهم جماعة(٥).

ومن ناحية أخرى يُتوقع أن الجيش كان ينقسم، كما في الدول ذات الجيوش في القرون الوسطى أو معظمها، الى وحدات مؤلفة من عشرة جنود ومئة وألف وعشرة آلاف. وكان القادة أي الضباط وضباط الصف بالترتيب عريف ونقيب وقائد وأمير(٦).

أما سلاح الجيش، فكان السيوف والرماح والخوذ والدروع والتروس (مهتال). وأسلحة الرماة هي السيوف والتروس وأقواس النشاب (تير وكهقان). وكانت هذه الأسلحة التقليدية للجيوش في القرون

(٢) الفارقي، ص ١٤٩-١٥٠ ندرج هنا بعضاً من كلام الفارقي لما لا يخلو من فائدة وهو إن أبا الحكيم بعد أن إشتكى عليه الخادم لدى نصرالدولة، إنهمزم وإلتجأ الى الأمير مرزيان بن پلاش بن كك، وكان ابن عم نصرالدولة وزوج بنت عمه هند بنت علي بن منصور بن كك... فطلبه نصرالدولة فلم يسلمه. فنفذ جماعة فلم يلتفت إليهم. فأعلم الأمير فنفذ خياله ورجاله. فلبس الأمير مرزيان السلاح وخرج لقتالهم. فعادوا وأعلموا الأمير فخرج بنفسه... الى دار الأمير مرزيان. فلما سمع خرج إليه وقال: أحسنت يا ابن عمي قد جئت تأخذ أبا الحكيم وهو عند بنت عمك وفي دار ابن عمك كأنك قصدت (خرشنة) أو بعض حصون الروم فإستحى الأمير وعاد...".

(٣) راجع جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٦٣.

(٤) الفارقي، ص ١٤٩.

(٥) الفارقي، ص ٩٨.

(٦) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٩١، الطبعة الثانية. كان ذلك نظام الوحدات في الدولة العباسية وفي (الفنون الإسلامية والوظائف، ج ٢، ص ٨٨٠). أن القائد في العصر العباسي يطلق على من يتولى إمرة (١٠٠٠) جندي ولعل الصواب (١٠٠٠) جندي وقال: لم يقصر إستعمال لفظ القائد على الدولة العباسية، بل إستخدم في الولايات المتفرعة عنها.

الوسطى، علماً أنه كانت هناك أسلحة أخرى لا يمتلكها بعض من جيوش المنطقة، كالمنجنيق والدبابات والنفط. حيث كان النفط يستخدم في الحروب أيضاً، إذ تُعجن به المواد لتُقذف بها القلاع والى ما وراء الأسوار.

أما عناصر الجيش الدوستكي، فكانت متكونة من الكُرد ومن غيرهم. فكان في صفوفه جنود غير قليلين من الكُرد - الجورجيين. ولما قام حاجب شيروه بن مه م بمؤامرتة وإغتيال مههد الدولة سعيد بن مروان في قلعة هتاج سنة (٤٠٠ هـ = ١٠١١ م) وإستولى على عاصمة الدولة، أصبح هؤلاء الجنود قوة مخلصة له. ولكن لا نعلم ما آل إليه مصيرهم بعد أن إسترجع نصرالدولة العاصمة وقضى على شيروه. وقد ذكر الفارقي بأن هؤلاء الجنود وكانوا "جماعة كثيرة"، قد أتوا الى البلاد مع أمير كُردجي يدعى (إبن أبي الليث)، كان قد إنهزم أمام ملك الكُرد، وقال: إن نسلهم (أي نسل هذا الأمير) "الى الآن بتفليس بخدمة ملك الكُرد" (٧)، علماً أن الفارقي قد زار جورجيا سنة (٥٤٨ هـ) وأقام في تفليس مدة عند ملكها (ديمتري بن داود) وسافر برفقته الى ولاية دربند خزران وغيرها (٨).

لقد إستخدمت الدولة الدوستكية في جيشها أيضاً (إبن خان) التركي مع قوته البالغة ألف فارس من الأتراك (التركمان)، ثم إستدعاه أمير حلب عطية بن صالح بن مرداس وإستفاد من قواته في منازعة إبن أخيه وفي قتال القوات البيزنطية. ولكن عطية غدر به، فإلتحق إبن خان التركي بقوات إبن أخيه محمود وساعده على إحتلال حلب سنة (٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م) (٩).

هذا ونستنتج من عبارة مغلقة من كلام داعي الدعاة الفاطمي (هبة الله الشيرازي)، بصدد علاقات الملك الدوستكي نصرالدولة بالسلاجقة، أنه كانت ضمن القوات المسلحة الكُردية قوة سلجوقية إستخدمتها ووصفها بـ(الأعاجم). ولما شعر نصرالدولة بسوء نية السلاجقة، قام بحملة تطهيرية. فأبعد بذلك كافة أو معظم تلك القوة التركمانية من المراكز التي كانت تتمركز فيها (١٠) ولا يُستبعد أن تكون هذه القوة هي قوة إبن خان.

كانت في صفوف الجيش الدوستكي عناصر عربية ومسيحية من الأرمن والسريان، الذين كانوا في البلاد الدوستكية، إذ يستبعد جداً عدم إنخراط عناصر من الأقليات القومية، التي كانت تعيش مع الشعب الكُرد في الجيش الدوستكي. علماً بأن الفارقي ذكر أن المسيحيين إستولوا على أجهزة الدولة وتمكنوا منها في الفترة الواقعة بين وزارة أبي القاسم المغربي ووزارة فخر الدولة إبن جهير (١١).

وإن ذلك الإستيلاء أو الإنخراط الواسع في أجهزة الدولة لم يكن مقتصرأ على الأجهزة الإدارية فقط، بل تعداها الى الأجهزة العسكرية أيضاً. وقد أشار إبن الأثير الى ذلك الإنخراط بقوله، إن معظم عمال بني مروان كانوا من المسيحيين (١٢)، حتى إن عارض الجيش الدوستكي (أبا الحكيم بن

(٧) الفارقي، ص ٩٧، ٩٨.

(٨) الفارقي، ص ٤٢: مقدمة الناشر.

(٩) إبن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ١، ص ٢٩٤.

(١٠) المؤيد في الدين، سيرة المؤيد، ص ١٣٨. راجع كلامه في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية.

(١١) الفارقي، ص ١٤٩.

الحديثي) كان مسيحياً، على ما يظهر من سياق كلام الفارقي، الذي يردف كلامه بصدد إستيلاء المسيحيين على أجهزة الدولة بذكر أبي الحكيم والشجار الذي وقع بينه وبين خادم لنصرالدولة. أما عدد القوات الدوستكية الزاحفة على الموصل فلم يصل إلينا بصددها الرقم النهائي. إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نذكر أن عدد القوات الدوستكية الزاحفة على الموصل سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) بقيادة الأمير باد بن دوستك كان ستة آلاف مقاتل (١٣)، بينهم متطوعون كثيرون من الكرد البشنويين التابعين لإمارة فنك في بوتان (١٤).

أخيراً إطلعنا على إسم قائد آخر من قادة الجيش الدوستكي هو (عيسى بن خلاط)، الذي تمكن من أسر أحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدين قرواش أو أحد إخوته في القتال الدائر في منطقة طورعبدین (طوری)، وذلك سنة (٤٠٤هـ = ١٠١٣م) (١٥).

ب - الشرطة

كانت للدولة الدوستكية بجانب قوات الجيش قوات الشرطة، التي كانت واجباتها كما هو معروف المحافظة على الأمن داخل المدن ومنع وقوع الجرائم والقبض على المجرمين، ومساعدة القاضي في تنفيذ الأحكام ومساعدة المحتسب أحياناً في جمع الضرائب وما إلى ذلك. وقد ورد نص في تاريخ الفارقي بخصوص الشرطة ما ذكره أن (إبن فليوس) كان مدير الشرطة أو أحد ضباطها وكانت أعماله غير محبذة لدى الأمير مههد الدولة ولذا أراد قتله مراراً غير إنه كان يتراجع عن ذلك حباً لشيره (١٦).

وقد أطلق الفارقي إسم (الحراس) على القوات المسلحة المرابطة في حصون آكل وجاتره واليماني من حصون دياربكر، حيث ذكر أن التاجر بهات إشتري قرية بني نوح في سلسلة فتراثا وجعلها وفقاً على حراس هذه الحصون الثلاثة (١٧).

ولا نعلم هل إن الحراس كانوا من قوات الجيش النظامي، أم كانوا يعتبرونهم قوة خاصة مستقلة

(١٢) إبن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٥.

(١٣) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ١٧٦.

(١٤) إبن الأثير، ج ٩، ص ٤٢.

(١٥) إيليا برشنايا، تاريخ إيليا، ص ٨٤.

(١٦) الفارقي، ص ٨٧. في الأعلات الخطيرة إبن فيلوس بتقديم الباء على اللام.

(١٧) نفس المصدر، ص ١٦٧. تقع قلعة آكل في شمال مدينة دياربكر بمسافة حوالي (٥٠ كلم) على ضفة نهر دجلة الغربية، وأكل (ناغل) الآن مركز ناحية تابع لقضاء مركز دياربكر وفيها الكثير من المواقع الأثرية، في مقدمتها القلعة المشرفة على دجلة التي جعلت قرية بني نوح وفقاً على حراسها. وهذه القلعة موجودة آثارها الآن وتعود الى تاريخ أقدم من العصر الدوستكي، بل الى ما قبل الإسلام. وعلى الجانب الشرقي من القلعة صورة لرجل طوله متران مع كتابة مسمارية تعود الى العهد الآشوري. وتوجد في آكل أيضاً قبور منحوتة في الصخور. وفيها كذلك آثار =

عن الجيش والشرطة؟

=إسلامية منها مزار النبي ذي الكفل (حسب إعتقاد السكان)، وهو مزار قديم توجد فيه كتابات كوفية ببناء المزار تعود الى سنة (٤٨٧هـ) من قبل أبي بكر بن مودود. وفي آكل أيضاً مزار هارون بن يبري جان، وقبة عالية لأحد أمراء بني نيسان، الذين حكموا دياربكر وأطرافها فترة من القرن السادس الهجري. أما مزار (ذي النون)، فهو عبارة عن كهف فيه كتابة مشوهة. كما يوجد كهف آخر عند قرية (حاجي) القريبة من آكل فيه كتابة لاتينية قديمة. ومن آثارها أيضاً مدرسة قديمة متروكة عليها كتابة وقفية بتاريخ ١٠١٦هـ وجامع على قبته كتابة كوفية. راجع بسري كونيبار، ج٣، ص ٢٧٠-٢٨٤ من Diyarbakir Tarihi. وراجع أيضاً أوليا چلبي، سياحتنامه، ج٤، ص ٢١-٢٢. أما قلعتا الجاترة واليماني، فلم أتمكن من تحديد موقعيهما. وفي فتوح الشام للواقدي، ج٢، ص ٨٩ أن إسم الحصن الأخير كان (انكل) وسميت باليماني بعد أن فُتح على يد حذيفة بن اليمان بعد فتح فارقين. ولعل انكل هي آكل وهو غير حصن اليماني.

الفصل الثالث

الحياة البشرية والإجتماعية

كان سكان كردستان الوسطى في العهد الدوستكي يتألفون من عناصر قومية هي: الكرد، الأرمن، السريان، العرب، اليهود والروم.

الكرد

كان الكرد هم العنصر السائد في كردستان الوسطى، وكان يعيش معهم أبناء القوميات الأخرى في أخوة وسلام. ورغم أنه لم تصل إلينا معلومات مفصلة وكافية عن القبائل الكردية العاشية في نطاق الدولة الدوستكية، إلا أن أسماء بعضها قد وصلت إلينا منها قبيلة (حاربختي)، التي كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين سعرد وهيزان أي في منطقة شيروان، وهي التي أسست الدولة الدوستكية. وقد ذكر الفارقي أن ياد بن دوستك ومروان أبا الأمراء كانا من هذه القبيلة، وأن مروان كان من قرية كرماس،^(١) التي ما زالت حتى الآن موجودة بإسم (كورماس). أما إسم حاربختي فيظهر أنه مندثر. ويظهر من الإسم إنها طائفة من كرد (بختي) أي بهتان وهذا معروف حتى اليوم بين كرد بهتان وشيروان، مثل إسم (دنبلي بخت) الذي ورد في (الشرفنامه، ص ٤٠٠، طبعة القاهرة). ومنها أيضاً قبيلة (الجوبية)، التي لم تكن إلا قبيلة كبيرة ذات قوة استطاعت تأسيس إمارة لها في القسم الجنوبي من إقليم دياربكر كان مركزها قلعة (شاتان). ودام حكم تلك الإمارة حتى أوائل النصف الأخير من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي). وقد ورد ذكرها في عدد من المصادر التاريخية، ولكن دون أن تعطينا معلومات مفصلة عنها. ولكن في الإمكان الأخذ عن أصلاتها ونفوذها ومكانتها بين القبائل الكردية، ودورها في المجال الثقافي. ونستطيع بفضل المعلومات القليلة التي جمعناها من هنا وهناك أن نحیی إمارة كردية منسية ونضيفها الى قائمة الإمارات الكردية. فالإمارة الجوبية (الشوبيه)، هي إحدى الإمارات الموجودة ضمن الدولة الدوستكية، كالإمارة البشونية والإمارة البختية. ومن بين المؤرخين الذين أوردوا ذكراً لهذه القبيلة إبن الأثير الجزري حين قال: "الجوبي قبيلة من الأكراد نسبة الى جوب الكردي وهم قبيلة كثيرة الخلق"^(٢)، وذكرها إبن

(١) الفارقي، ص ٤٩، ٥٩، ورد إسم حاربختي في تاريخ الفارقي المطبوع والذي حققه الدكتور بدوي عبداللطيف بالحاء المهملة وأورده بصيغة (چاربوختي - Charbokhti) المؤرخ Kirzioglu في كتابه (Kurorler / ص ٥٤)، وفسر الكلمة الكردية "چار" بالأربع تأكيداً على ضبط الإسم المذكور، علماً إنه اعتمد على مخطوطة تاريخ الفارقي. وفي صيف عام ١٩٧٧ سافرت الى تركيا وتجولت في معظم المناطق التي كانت ضمن الدولة الدوستكية وزرت قرية (كرماس)، التي ينحدر منها أبو الأمراء مروان بن كك (كهك) وشاهدت آثار الطاحونة التي كان يشغلها.

(٢) إبن الأثير، الباب في الأنساب، ج ١، ص ٢٤٧.

الصابوني أيضاً فقال: "الجوية قبيلة من الأكراد ويقال لها الشوية أيضاً". (٣) وقد سمع ذلك من صديقه العالم الجوبي أبي عمران موسى. وذكرها أيضاً ياقوت الحموي وسيأتي كلامه. كما ورد إسمها أيضاً بين أسماء عدد من القبائل الكردية في تعليق النسخة الخطية من كتاب (السلوك، ج ١، ص ٣٠) للمقرزي. أما أقدم من أتى بإسمها، فهو عماد الدين الاصبهاني والمؤرخ الكرديستاني أحمد بن يوسف الفارقي وكلاهما من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي).

أما المنطقة التي كانت تسكنها القبيلة وأسست فيها إمارتها الجوية، فكانت منطقة (شاتان). غير أن المؤرخين الذين أوردوا ذكراً لقلعة شاتان، مركز الإمارة لم يحددوا موقعها ومن هؤلاء: عماد الدين الاصبهاني، وابن الأثير، والحموي، وصفي الدين البغدادي، وابن خلكان، وجلال الدين السيوطي، وتاج الدين السبكي، والزركلي والباحث الكبير المحرم الدكتور مصطفى جواد. فكل ما قاله هؤلاء الأعلام في تحديد موقع شاتان هو أنها قلعة بديار بكر أو بنواحيها (٤).

وهذا التحديد غير كاف، لاسيما إذا علمنا أن المؤرخين لا يقصدون بديار بكر ولاية بديار بكر الحالية، وإنما يقصدون إقليماً واسعاً لا تقل مساحته عن (٥٠) ألف كيلومتر مربع يشمل ولايات: بديار بكر، ماردين، سعرد (سيرت) وخرپوت وأجزاء أخرى. فلا ندري أهي منطقة (شوفان) في بوتان الواقعة خلف سلسلة طنزى (طانزه) التي تسكنها الآن عشيرة (شوفي - شوفان) وهي تابعة لقضاء (أروه) من ولاية سعرد مع التقارب بين إسمي (شوبي) و(شوفي)؟ ويفهم من عبارة ابن حوقل في الصفحة (١٩٧) أن (شاتان) كانت مجاورة لطنزى وواقعة وراءها أو غربها، حيث قال: "وقردي هي الجزيرة المعروفة بإبن عمر وجبل باسورين ونواحيه الى باعيناثا الى طنزى الى شاتان...". ويلاحظ التسلسل الجغرافي من الجنوب الى الشمال في كلامه. أو هل إن قلعة شاتان كانت تقع في شرق دجلة في المنطقة الواقعة في غرب آقابوتان (نهر الرزم كما في المصادر القديمة) الى نهر غرزان (أرزن) أي المنطقة الواقعة في شمال دجلة؟ وتقع هذه المنطقة في شمال وشمال شرق حسنكيف (٥).

أما تاريخ تأسيس هذه الإمارة فغير معلوم، لأن كل ما نعلمه هو أنها كانت موجودة في العهد الدوستكي وعقد الدوستكيون معها علاقات المصاهرة. فقد ذكر الفارقي أن كلاً من الرئيس أبي عبدالله محمد بن موسك بن محمد بن كك وموسك بن منگلان بن آفشين قد تزوج بإمرأة جوية (٦).

أما الأمراء الجوبيون فلم يصل إلينا من المعلومات سوى القليل عن إثنين منهم فقط، هما الأمير

(٣) ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص ١٠٤.

(٤) الاصبهاني، خريدة القصر، ص ٥١٠. ياقوت الحموي، معجم البلدان مادة (شاتان)، ج ٣، ص ٣٠٤. صفي الدين البغدادي، مراصد الاطلاع، ج ٢، ص ٨٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٥١. السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، ص ١٤٧. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١١٠. الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٢٠٦. ابن الفوطي، مجمع الألقاب، ج ٤، القسم الأول، ص ٥٧٥. تعليق للدكتور مصطفى جواد.

(٥) بين لجنى وخطو قرية بإسم (شاتح) على جبلها قلعة ودير قديمين بإسم دبرا سبي و(ديرا شاتح)، وهي قرية من هتاخ وإسمها قريب من شاتان.

(٦) الفارقي، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(أبو منصور حسين بن شبل) وإبنته الأمير (بهاء الدولة محمد). وكانا من ذوي العلم والفضل وكانا شاعرين. وقد أورد الإصهباني مقطوعات شعرية للأمير بهاء الدولة أفاده بها صديقه الشاعر الكردي الشهير علم الدين الشاتاني (٧).

كان للإمارة الجوبية دور في المجال الثقافي، حيث كانت ترعى العلماء وأصبحت شاتان في عهدها مركزاً للعلم. وقد نشأ منها علماء أفاضل منهم: علم الدين حسن بن سعيد بن عبدالله بن بندار (٨) وأخوه أبو إسحاق إبراهيم، الذي أصبح وزيراً لشاه أرمن بن سگمان في خلاط وكان من السلاجقة. أما نهاية الإمارة الجوبية فكانت على يد الأمير الأرتقي قره أرسلان، الذي جرد حملة قوية على شاتان واحتلها وخرّبها وذلك سنة (٥٥٦هـ = ١١٢١م). (٩)

بشنوي (بهژنوی)

كانت القبيلة البشوية من القبائل الكردية القوية وتمكنت في تاريخ لا نستطيع تحديده من تأسيس إمارة قوية لها في بوتان (بهتان)، كان مركزها بلدة (فنك) في شمال الجزيرة وقلعتها الحصينة. وكانت هذه الإمارة تحكم القسم الشمالي منها وساهمت في تأسيس الدولة الدوستكية باعتبارها شدة أزر الأمير ياد بكل قواها، ولها تاريخ حافل ودامت الى القرن (٧ هجري = ١٢ ميلادي). وإمتدت بعد هذا القرن أيضاً الى أن تمكن أمراء بوتان من أسرة (آيزان) من بسط نفوذهم على (فنك) وبوتان بأجمعها، وشرّدوا البشويين الى منطقة حصن كيف (حسنكيف). وقد ذكر أخبارها الأمير شرفخان

(٧) الاصبهاني، خريدة القصر، ص ٥٤٥، قسم الأكراد الفضلاء. راجع أيضاً ص ٣٦١-٣٨٤ منه.

(٨) ولد علم الدين في شاتان سنة (٥١٠هـ). نشأ ودرس فيها ثم سافر في طلب العلم الى الموصل وبغداد ورجع الى شاتان وأقام فيها. ثم غادر الى الموصل ودمشق ومصر. كان علم الدين من كبار شعراء عصره وكان يقدره ملوك ووزراء مثل نورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والوزير ابن هبيرة وجمال الدين الاصبهاني. مدح نورالدين بقصيدة عزاء أولها:

ما نال شأوك في المعالي سنجر كلا ولا كسرى ولا إسكندر

كما قصد صلاح الدين ومدحه بقصيدة رائعة أولها:

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا فسر وأملك الدنيا فأنت له أحرى

وكان الشاتاني صديقاً حميماً لعماد الدين الاصبهاني وزوده بمعلومات كثيرة عن شعراء وأدباء كرد ومات بالموصل سنة (٥٧٩هـ).

(٩) تقطن قبيلة (شوقى - شوفان) منطقة بوتان شرقي (نهر الرزم - نالفا بوتان)، أي الفرع الشرقي لدجلة وخلف السلسلة الجبلية الواقعة خلف طانزه (طنزة) وسهل مشار. وتقع جنوب غرب مدينة دهه (نهره) ومنها (خدهلفن شوقى) أشهر قادة الأمير بدرخان الذي ما زال يُضرب به المثل في الشجاعة. كما أعتبر بعض المؤرخين (بهرام جويين - بهرام شويين) الذي ثار على كسرى وحتى قيل فيه أنه رستم الحقيقي شجاعاً - من هذه القبيلة الكردية. وكانت لبهرام أخت باسم (كرديه) كانت شجاعة أيضاً، وكانت زوجة كسرى مسترجلة. ومن قرى شوفان (ديراود) و(سبهندكا) وقد درست فيها على العالم الفاضل الملا عمر العيني، كما درس عليه والدي أيضاً والذي قتله الأتراك حوالي سنة ١٩٧٢. علماً أن شرفخان لم يذكر إسمها بين أسماء قبائل بوتان، وخاصة قبائل ذلك الجزء من بوتان وكانت إثنى عشرة قبيلة، ولكن ذكر منها (شيرويان). فمن المحتمل أنها شوفان وفي (شرفنامه) المخطوطة نسخة مكتبة بودليان التي بخط المؤلف ورد (شيرويان) أيضاً.

البديسي. (١٠) وفي الجزء الأول من كتابنا هذا ذكرنا معلومات عن هذه الإمارة وعن بوتان في مواضع متعددة، فلا حاجة بنا لإعادتها هنا. (١١)

يسمى الكُرد حالياً البشنية (بهژنۆیی)، والبشنية هي الصيغة العربية لها أي الواردة في المصادر العربية، مع إن حرفي (ژ) و(ش) متقاربان في الكُردية ويتبادلان مكانهما (١٢).

بختي - بوهتي

كان المورخون حتى القرن (٧ الهجري = ١٣ الميلادي) يطلقون إسم بختي، أو الأكراد البختية، على الكُرد القاطنين في القسم الشرقي من منطقة بوتان. وكانت لهم إمارة مركزها قلعة (جردقيل)، أي گورگیل، الواقعة في وادي (گۆبان) شرقي الجودي. بينما كانوا يذكرون كُرد القسم الاخر من بوتان بالأكراد البشنية باعتبار أن القبيلة البشنية كانت هي الحاكمة على القبائل الأخرى في ذلك القسم.

وكانت الإمارة البختية من الإمارات القوية في الدولة الدوستكية، ووصلت إلينا معلومات عن أمير واحد من أمرائها هو الأمير موسك بن المجلي، الذي سجنه الأمير أبو الحرب سليمان بن نصرالدولة في الجزيرة وتوفي في السجن أو قُتل من قبله (١٣).

وكانت هذه الإمارة باقية حتى زمن المؤرخ ابن الأثير (المتوفي سنة ٦٣٠هـ). ويتضح مما ذكره القلقشندي أن الإمارة الهكارية قد استولت على الإمارة البختية، حيث كان أمير گورگیل في فترة من القرن (٨ الهجري = ١٤ الميلادي) هو بهاء الدين عمر بن إبراهيم الهكاري، وكان يُكتب من قبل دولة المماليك في مصر (١٤). وفي تاريخ لاحق تمكنت إمارة بوتان في الجزيرة من بسط سيطرتها على

(١٠) راجع (شرفنامه) ص ٢٠٨ طبعة القاهرة الفارسية.

(١١) راجع (شرفنامه) ص ٢٠٨ طبعة القاهرة الفارسية.

(١٢) في شرفنامه (بجنوي) بالجيم ولعله بجنوي بـ(ج) الكُردية. وما زالت أسر من قبيلة (بهژنۆیی) في مواطنها الأصلية متفرقة بين قرى قبيلة (ولاتي) التي حلت محلها، وهي القرى الواقعة شرقي دجلة وفي سفوح وأودية السلسلة الواقعة في شرقه حتى قرية (هيتما) نفسها في سهل هاروتان جنوب (باسا). وكان عدد من تلك القرى عبارة عن كهوف. في سنة ١٩٧٧ لقيت بعضاً من البشنيين في قرية (خه ندهك - خندق) قبالة (فنك). وفي (هيتما) عدد من الأسر أيضاً. وفي الثامن من تموز من السنة المذكورة سافرت إلى قرية (بانان) من قرى عشيرة (ولاتي)، المنسوبة إلى (ولاتي فنك)، وكنت ضيفاً مع فقيده التراث الكُرد في كردستان الشمالية الملا خلف البافهبي ومع الملا عثمان الفندي والمرحوم الملا أحمد بن فقه رسول بن محمد بن عرب الفندي إمام (بانان). فسألت رجال القرية عن البشنيين، فقالوا أن هذه القرية كانت لهم قديماً، وكانوا يسكنون آنذاك (گه ليوكان) عند منبع نهر (بانان) في شرق القرية وقد وجدنا هناك آثار دور. وأضافوا بأنه توجد لهم حالياً أملاك عندنا، وكان بعض من البشنيين يأتون من ماردين إلينا حتى السنوات القليلة الماضية، فهم الآن يسكنون حي (داشني) من مدينة ماردين التي كانت قريتهم، وقد دخلت الآن ضمن المدينة وسموها بإسمها القديم (داشني) إحدى بطون بهژنۆیی. بعد التشرّد سموا القرى التي أقاموا فيها بماردين بنفس قراهم السابقة هنا، مثل قرية (عهوينا) و(بونسرا) والتفاصيل في كتابنا (گه شته كي نهركيژلوجي دكورستانا باكوردا).

(١٣) راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية، الطبعة الأولى، ص ٢٢٧، ٢٣٠، ٣٠٩.

(١٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٨٩.



قلعة فنك

گورگیل والأراضي التابعة لحدود هكاري (١٥).

أما قبيلة (كيبكان)، فكانت أيضاً موجودة في كُردستان الوسطى في العصر الدوستكي وقبله. وقد ذكرها المسعودي من بين القبائل الكُردية ولكنه لم يحدد مكانها. كما لم يرد ذكرها بين قبائل كُردستان الشرقية والجنوبية، التي ذكرها ابن خرداذبه والأصطخري وابن حوقل وابن البلخي والمقدسي (١٦).

ولهذا فنحن نرجح أنها كانت في كُردستان الوسطى وعلى الأغلب في منطقة ماردين، حيث أنها لم تنزل منذ زمن غير قليل فيها. ويقوم فرع منها الآن في السهل الواقع شمالي الموصل وفي أماكن أخرى

(١٥) في شرفنامه، ص ١٩١-١٩٦ بحث خاص عن إمارة گورگیل وهي فرع من إمارة الجزيرة، حيث ذكر المؤلف شرفخان أن أول من تولى إمارتها من أسرة أيزان هو الأمير حاجي بدر، ومن أبرز أمرائها الأمير سيد أحمد بن الأمير شمس الدين، الذي اشتهر بالشجاعة والإقدام. وقال إنه لما رجع سليمان القانوني من فتح بغداد سنة (٩٤١هـ = ١٥٣٤م) إستقبله المذكور فأناط به إمارة الموصل. ولكن أجد بأن ما قاله شرفخان بعيداً ومن المحتمل أن هذه الإمارة عاشت مع تضاؤل شأنها الى أوائل القرن التاسع عشر، ثم ألحقت بإمارة بوتان التي مركزها الجزيرة وانتقل بعض من سلالة أمراء گورگیل الى الموصل، وعائلة شريف باشا المعروفة حتى الآن في الموصل هي من سلالة گورگیل. وكان لأحفاده زيارات الى منطقة (گۆيان)، وفي الموصل مسجد بإسمه أي بإسم شريف باشا.

(١٦) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٨٨. أورد في مؤلفه هذا أسماء قبائل أخرى لم يوردها في مروج الذهب وهي: جروغان، هذباني، جلالی، لر، بوذیکان، نشاوره، باذنجان وهذه الأخيرة هي ماذنجان، وكانت في منطقة بهدينان. بينما كانت باذنجان من القبائل الكُردية في إقليم فارس. وأوردها بإسم باذنجان (بالزاء) الإصطخري في مسالك الممالك ص ١٤٥، وابن خرداذبه في المسالك والممالك ص ٤٧، والهمداني في مختصر كتاب البلدان ص ٢٠٣، وابن البلخي في فارسنامه ص ١٦٨، وذكرها خطأ ابن حوقل ص ٢٣٩ بإسم ماذنجان.

من كُردستان وهي من قبائل ماردين القديمة.

وقد أورد ابن خلدون ذكر "الأكراد الحسنية" في حادثة حملة الأمير قريش العقيلي على البلاد الدوستكية، حيث ذكر أنه إستمال الكُرد البشنوية(١٧). ومن المحتمل أن تكون الحسنية إسم قبيلة كُردية كانت تقطن زاخو أو في شمالها، على أنه توجد الآن قبيلة كُردية بإسم حسنان (ههسنان). ومن المحتمل أيضاً أن القصد من الحسنية هم الكُرد المنسوبون الى مدينة (الحسنية)، أي زاخو أي كُرد زاخو وأطرافها(١٨).

ولاشك بأن قبيلة (دُنْبلي) كانت هي الأخرى في كُردستان الوسطى في أيام الدولة الدوستكية وقبلها. وقد أورد الفارقي ذكر عبدالرحمن بن أبي ورد الدنبلي، وقال إن (شبروه) إثر إغتياله للأمير ممد الدولة أوفده الي أبي القاسم الاصبهاني والى أرزن (غرزان) يدعوه الى تأييده(١٩). وهو ما يفيد بأنه كان شخصية بارزة. ومن المحتمل أن إسم "الدبابلة" الذي ذكره المسعودي بين أسماء القائل الكُردية هو تصحيف للدبابلة أو خطأ نشأ من قبل النساخ(٢٠). ولم يذكرها غيره من جغرافيين القرن العاشر الميلادي، علماً إن قسماً من الدنبلية تقطن ولاية دياربكر وأورفا. وقد ذكر الفيروز آبادي أن هذه القبيلة تقطن في منطقة جبل المقلوب في شرق الموصل(٢١). وكان فرع منها يقيم في بوتان وكان يزيدياً، ومنها أنتقل الى هكاري ثم الى منطقة (خوي) في غربي آذربيجان(٢٢) وإستقر فيها (الإمارة الدنبلية).

(١٧) إبن خلدون، العبر، ص٣١٩. راجع موضوع علاقات الدولة الدوستكية مع الدولة العقيلية.

(١٨) تقطن هذه القبيلة في غربي دجلة في منطقة زمار المتاخمة لمنطقة زاخو ودهوك. والمعروف أنها قدمت من (دهشتا ههسنان)، الواقعة غرب مدينة الجزيرة المنطقة التي لا زالت تحمل إسمها. وهي قبيلة قديمة أورد إسمها العمري في القرن (٨ الهجري = ١٤ الميلادي) في مسالك الأبصار.

(١٩) الفارقي، ص٩٣، ورد "الدبلي" بدل الدنبلي في إحدى نسخ الفارقي المخطوطة.

(٢٠) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٢٢ وأضاف أن الدبابلة من الكُرد الذين نزلوا ببلاد الشام ولعله يقصد بذلك شمال سورية. وورد "ديابلة" بالياء في طبعة أخرى من مروج الذهب، وهي طبعة مطبوعة دار الرجاء. وأورد العمري ذكر الدنبلية في مسالك الأبصار. راجع أيضاً إبن الصابوني تكملة إكمال الإكمال، ص١٠٥ تعليق للدكتور مصطفى جواد.

(٢١) الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، الذي ذكر المؤرخ المرحوم الملا جميل الروزيباني في (ص١١) من كتابه (جوار دهوله تي كورد)، أن الفيروز آبادي من أبناء عشيرة شبانكاره الكُردية، ذكر الفيروز آبادي في قاموس المحيط، ج٣، ص٣٧٧ أن من القبيلة الدنبلية العالمين أحمد بن نصر وعلى بن أبي بكر بن سليمان. وكان الأول من علماء القرن الثاني عشر الميلادي، كما في طبقات الشافعية للسبكي، ج٤، (ص٥٧)، وتولى نيابة القضاء ببغداد عن القاضي الشهرزوري. وذكر إبن الفضل العمري أن القبيلة الدنبلية تقطن جبل مقلوب والمختار شرقي الموصل. راجع محمد أمين زكي، تاريخ الكُرد وكُردستان، (ص٣٦٨) تعليق للمرحوم محمد علي عوني الدنبلي. وفي سنجان الآن قسم من الدبابلة وهم يزيديون. وكانت هذه القبيلة الكبيرة يزيدية في غابر الزمن.

(٢٢) في شرفنامه، ص١٥٩، ١٩٩، ٤٠٨، أن الهجرة حدثت في القرن الخامس عشر. وفيه معلومات غير قليلة عن الإمارة الدنبلية في خوي، التي دامت الى القرن التاسع عشر. وألف في تاريخ هذه الإمارة ميرزا حسين الخويي كتابه المنظوم رياض الجنة في ثمانية مجلدات، وتوجد نسخة مخطوطة منه لدى بعض متولي مسجد (كوهرشاه) بمدينة مشهد الإيرانية. إهتم المؤرخ الكُرد المرحوم الأستاذ ملا جميل الروزيباني بتاريخ الإمارة الدنبلية، وأصدر في سنة (٢٠٠٠) كتابه (جوار دوله تي كورد) أي الدول الكُردية الأربع منها دولة الدبابلة في تبريز وأطرافها.

أخيراً، أن القبائل الكرديّة إنتشرت قبل العهد الدوستكي في إقليم دياربكر وشمالى سورية. وقد ذكر المسعودى الشام والثغور من بين المناطق التى كانت توجد فيها القبائل الكرديّة، وأشار الى وجود لهجات عديدة للغة الكرديّة في عهده (أى في القرن العاشر الميلادى الذى نشأت فيه الدولة الدوستكية) حيث قال: "ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكرديّة" (٢٣). هذا ويجب أن لا ننسى أن العهد الدوستكي قد أتاح فرصة أكبر لتوسع الكرّد نحو الغرب، علماً أن الهجرة الكرديّة كانت غالباً متجهتاً من الشرق الى الغرب.

السريان

إن وجود السريان في كردستان الوسطى أمر لا جدال فيه وتشهد عليه المصادر المسيحية والإسلامية على حد سواء. وكانت كشافة القومية السريانية تقع في منطقة ماردين ونصيبين وطورعبدین والسريانيون هم من أحفاد الآراميين القدماء.

الأرمن

كان في كردستان الوسطى في العهد الدوستكي وقبله وبعده كذلك قسم غير قليل من الشعب الأرمني، ولاسيما في منطقة أرديش وخراب وبلدليس وملازگرد (منازگرد). وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذى مر بالبلاد الدوستكية، أن سكان مدينة خراب يتكلمون بالفارسية والأرمنية والعربية (٢٤).

وعند البحث عن أرديش (أرجيش)، قال ياقوت الحموي بعد العهد الدوستكي بأكثر من قرن، إن أكثر أهلها أرمن نصارى (٢٥)، وكذلك قال صفي الدين البغدادي (٢٦). بينما قال القزويني بصدد خراب: أن سكانها مسلمون ونصارى وأنهم "يتكلمون بالعجمية والأرمنية والتركية" (٢٧)، وذلك في القرن الثالث عشر الميلادى. وقد إنتشر التركمان في خراب إثر إحتلال الدولة السلجوقية للبلاد الدولة الدوستكية. وكان في أورفا (الرها) كثير من الأرمن، ويرى رنسيما أنهم إستقروا فيها قبل مستهل العصر المسيحي (٢٨).

وبصدد ملازگرد قال ياقوت: "أن أهلها أرمن وروم" (٢٩). هذا علماً بأن وجود الأرمن في المدن

(٢٣) مروج الذهب، ج٢، ص١٢٢.

(٢٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤١. يساند قوله ما ذكره المقدسي من أن لهجة إقليم الرحاب قريبة من اللهجة الخراسانية علماً أن خراب إعتبرت ضمن هذا الإقليم.

(٢٥) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٩٦.

(٢٦) البغدادي، مرصد الاطلاع، ج١، ص٤٣.

(٢٧) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٤.

(٢٨) رنسيما، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٩٠.

(٢٩) معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٨.

المذكورة في عهد الحموي والقزويني لم يكن طارئاً بعد العهد الدوستكي، بل كان قديماً سيما إذا علمنا أن قسماً غير قليل من الشعب الأرمني نزح من منطقة بحيرة (وان) في العهد الدوستكي إلى إقليم كبادوكيا في غربي الفرات، إثر تسليم الأمير سنكريم منطقة فاسبوركان المتاخمة للأراضي الدوستكية إلى الإمبراطورية البيزنطية، كما مر بالتفصيل في موضوع العلاقات مع الشعب الأرمني. ولأستبعد أن تكون نفوس الأرمن في المناطق المذكورة معادلة لنفوس الكُرد أو أكثر. ومن الجدير بالذكر أن الجغرافيين والمؤرخين في القرون الوسطى أدخلوا المناطق المذكورة ضمن أرمينية. وقد بالغ بعضهم فوسع حدودها إلى نهر دجلة، وهكذا اعتبروا قسماً غير قليل من البلاد الكُردية ضمن أرمينية القديمة. وكان الأرمن والكُرد يعيشون مختلطين في العديد من المناطق الكردية وفي أرمينيا.

العرب

كانت في بلاد الدولة الدوستكية أقلية عربية. ويعود تاريخ وصولها إلى ما قبل العهد الدوستكي، ومن المحتمل جداً أن أسراً قد إستوطنت بعض المدن الواقعة في هذا الجزء من كُردستان من القرن الأول الهجري، أي إثر الفتح العربي الإسلامي. كما إستوطنت جاليات عربية في كثير من المدن الواقعة في الأقطار التي فتحها العرب، كإيران وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر من بخارى وغيرها كما هو معلوم. لقد ساعد العهد الحمداني على إنتشار العرب في بعض مدن إقليم دياربكر، خاصة بعد أن إتخذ سيف الدولة الحمداني مدينة فارقين عاصمة له، وذلك إثر إحتلال الدولة البيزنطية لعاصمته حلب. فلا يُستبعد إذن إنتشار اللغة العربية فيها، وقد ذكر ناصر خسرو الذي مر بمدينة خلط في العهد الدوستكي أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الثلاثة المنتشرة فيها (٣٠).

لقد ذكر الفارقي أن طائفة من العرب إنهزمت أمام إبراهيم بن الأشر النخعي إلى ولاية ميفارقين. فأرسل لمحاربتهم عبدالله بن مساور، فإنهزموا أمامه إلى جبل السناسنة فوق ميفارقين، وقاموا عند الملك سنحاريب ملك السناسنة وهم طائفة من الأمويين. وقال الفارقي أيضاً "أخذت السناسنة مقدار ثلاثين قرية من غاب الجوز وماحوله داخل رأس السلسلة" (٣١)، وكانت تابعة لولاية فارقين في العهد الدوستكي، ولكنهم إستولوا عليها إثر سقوط الدولة الدوستكية.

والسلسلة التي ذكر أن تلك الطائفة من العرب فرّت إليها والتي كانت معقل إمارة السناسنة، إنما هي السلسلة الجبلية العالية الحصينة التي تقع بين موش في الشمال وبين مدينة ساسون في الجنوب. ويسمى القسم الشرقي منها بجبل موتكي وتقع ساسون وبلدة (حزو) في سفوحها الجنوبية. وهي جزء من (السلسلة) التي سماها بها الجغرافيون المسلمون، والتي تمر في شمال شرق وشرق ولاية دياربكر

(٣٠) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤١.

(٣١) الفارقي، ص ٤٦. أضاف إن طائفة أخرى من العرب إنهزمت مع هذه الطائفة أي أمام العباسيين، وأنها وصلت إلى الدربند (داغستان) من قفقاسيا وأن الفارقي عندما سافر إلى هناك وجد أحفادها ودون الحديث الذي دار بينه وبينهم.

وتنتهي في شرق بدليس بالقرب من النهاية الغربية لبحيرة وان. وتقع في سفوح السلسلة وإمتداداتها الجنوبية مدن حزو وساسون وقلب (كولب) ولجى، وتقع في شمالها مدن موش وبنگول وگهنج. أما (غاب الجوز) فإنها كانت مدينة ساسون نفسها ومازالت تسمى بـ(غاب الجوز) أيضاً(٣٢).

والراجح أن إسم (ساسون) قد جاء من إسم (السناسنة)، وكان هناك أرمن الى أواخر العهد العثماني حينما تعرضوا للمذابح. ويؤيد الفارقي ما ورد في شرفنامه (ص ٣٤٠ و ٣٤٨) من أن طائفة من العرب هاجرت مع ثلاثة من أبناء (مروان الحمار)، آخر الخلفاء الأمويين، أي في القرن الثامن الميلادي الى منطقة (قلب)، وإستقرت في وادي (خوخ) التابع لناحية (غزالي)(٣٣).

هذا مع العلم بأن قضاء قلب التابع لولاية دياربكر يجاور قضاء ساسون من الشمال الغربي. وفي قضاء ساسون التابع لولاية سعرد أربع قبائل عربية حالياً. وقد وجدت بعضاً منهم في إستنبول في شتاء (١٩٩٥-١٩٩٦)، وهي قبيلة بلكان (بهلهكان) وشيگو وصارمي وبدرى، وهم يتكلمون العربية والكردية أيضاً. وهذه القبائل تماماً مثل القبائل الكردية تشارك في الحركة القومية الكردية. فقد شاركت تلك القبائل سابقاً في الثورة الكردية سنة (١٩٢٥) بقيادة الشيخ سعيد، ثم في (حركة ساسون) التي كانت إمتداداً للثورة المذكورة، حيث لم تستطع تركيا أن تقضي على المقاومة في منطقة ساسون الجبلية الوعرة وإستمرت حتى سنة (١٩٢٩). ومن ثم إستؤنفت من ١٩٣١-١٩٣٨ وكانت بقيادة محمد آغا بن (عاهليي يونس). ثم قاد الثورة بعد وفاته أخو عبدالرحمن آغا الى أن إضطروا الى اللجوء الى سورية أثناء الإحتلال الفرنسي. وقد زودني المعمر حسين بن أحمد بن محمد آغا بن عاهليي يونس، بتفاصيل هذه الحركة والمقاومة البطولية وما إرتكبتها القوات التركية من فظائع ضد سكان ساسون والتي كان يتذكرها.

أما السنة التي نزحت فيها هذه القبائل العربية فأرجحها أن تكون سنة سبع وستين من الهجرة، حيث قدم إبراهيم بن أشتر النخعي من الكوفة الى منطقة الموصل والجزيرة لقتال الأمويين وكان من أكبر قادة المختار الثقفي(٣٤).

فعلى هذا أن القبائل المذكورة نزحت من منطقة الجزيرة، التي كانت تشمل أيضاً منطقة الموصل. وأما ما قاله شرفخان في شرفنامه، فيحتمل أنها كانت جماعة أخرى من العرب أو أن تاريخ نزوحهم

(٣٢) في DUGO ANADULU ص٧٢ وكتاب خاص بجغرافية شرق أناضول: أن منطقة ساسون وموتكي هما مملكة غاب الجوز. في شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ عندما كنت في أستنبول تحدثت الى عدد من سكان ساسون وذكروا لي أنها تسمى أيضاً من قبلهم بغاب الجوز.

(٣٣) وفي ج٣، ص٣٧٥ من DIARBAKIR TARIHI لبسري كونييار: أنه يوجد قبر في منطقة باديكان من قولب في الجزء المسمى بالغزالي، يدعي السكان أنه قبر الإمام الغزالي الذي يقدره. لا أعلم بحقيقة صاحب القبر كما أن الإمام الغزالي دفن في بغداد.

(٣٤) كان المختار قد ولي إبراهيم على الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان. وكان المختار يطالب بدم الحسين. ولما قُتل المختار في هذه السنة من قبل مصعب بن الزبير بن العوام، الذي أرسله أخوه عبدالله بن الزبير المستولي على الحجاز للإستيلاء على العراق، إنضم إبراهيم الى مصعب حيث قُتل الإثنان في المعركة الفاصلة بين مصعب وعبدالملك بن مروان في سنة إحدى وسبعين الهجرية، وكانا من خيرة أبطال العرب.

مع ثلاثة من أبناء مروان الحمار غير صحيح وأن النازحين كانوا من القبائل المذكورة. وما قاله الفارقي هو الصحيح.

سكن العرب في مدينة سعرد وأطرافها منذ عهد بعيد لا أستطيع أن أحده. وحسبما سمعته منهم فإن أجدادهم قدموا من لبنان، وليت شعري هل إنهم نزحوا الى هناك إثر سقوط الدولة الأموية أو أثناء الحروب الصليبية، وما زالوا في سعرد وأطرافها. ويحتمل أنهم شردوا الى سعرد مع القبائل العربية الأربع في ساسون إثر سقوط الدولة الدوستكية.

هذا ومع إن ما قاله شرفخان من وصول طائفة من العرب الى هذه المنطقة متفق مع قاله الفارقي، إلا أن تفاصيل ما ذكره شرفخان غير مقبولة عندي. والسبب لأنه إعتبر مثلاً بعض القبائل الكردية اليزيدية الخالصة في المنطقة المذكورة (منطقة سليقان)، أي منطقة فارقين من جملة العرب الذين حلوا هناك. وأضاف شرفخان أن الطوائف المذكورة أخذوا تلك المنطقة من الكرج والأرمن.

أما ياقوت الحموي فقد نص على أن نزوح العرب كان من قبائل من تنوخ وغيرها الى أرمينيا، وذلك بسب القتال الذي نشب بينهم وبين سكان حلب وبسبب عداوات أخرى، وكذلك أثناء فتننة الأمين بن هارون الرشيد (حسب تعبيره)، أي في القرن التاسع الميلادي وقال منهم قوم بأرمينية (٣٥).

وذكر أيضاً في مادة "باجنسيا": أنها ديار بني سليم (٣٦)، وذلك نقلاً عن مسعر بن مهلهل. وفي دائرة المعارف الإسلامية الجزء الأول الصفحة ٦٥٨: أن فرعاً من قبيلة قيس قد نزل في منطقة باجانوس. علماً أن باجنسيا - باجانوس هي باتنوس الحالية (٣٧). وفي نفس المصدر أن العرب قد تغلبوا وأصبحوا كثرة في المدن (الحواضر) من أرمينية، مثل دبيل (أي دوين الواقعة خلف نهر آراس) وقاليقلا (أي أرضروم) وبرذعة وآران وتفليس، وإستوطنت القبائل العربية بنوع خاص "الجنوب الغربي من إقليم الزنيق أرزنان وذلك إبان الفتح الإسلامي" (٣٨).

لقد ذكرنا سابقاً بأن أرمينية عند الجغرافيين المؤرخين القدماء كانت تشتمل على قسم غير قليل من كردستان. ذكر اليعقوبي: أن سكان نصيبين في أواخر القرن التاسع الميلادي كانوا من عرب ربيعة من بني تغلب (٣٩). لقد حدث نزوح قبيلة بني نمير وبني عقيل الى منطقة حران والرها وسروج في القرن العاشر الميلادي. ونزح الى إقليم الجزيرة كذلك في نفس الفترة كثير من بطون قيس عيلام وبني قشير وبني كلاب، وذلك في عهد الجغرافي ابن حوقل (٤٠).

(٣٥) الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٥.

(٣٦) نفس المصدر: مادة باجنسيا.

(٣٧) باتنوس هي الآن مركز قضاء تابع لولاية آغري التي مركزها مدينة (قهرهكۆسه) من كردستان تركيا، وتتبع هذا القضاء أربع نواح هي ناحية المركز ونواحي (دهدلى، وساريسو، وسلطان موت). ومجموع القرى التابعة لها ثمانون. أما نفوس مدينة باتنوس فيبلغ (٣٤٨٧) نسمة حسب الإحصائية التركية لسنة ١٩٦٠. وهي تبعد عن بحيرة وان بمسافة حوالي (٦٠) كلم من الجهة الشمالية، كما إنها تقع في شرق ملازگر (منازجر) بحوالي (٥٠) كلم.

(٣٨) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، ص ٨٥٨.

(٣٩) اليعقوبي أحمد بن واضح، كتاب البلدان، ص ١١٣.

(٤٠) ابن حوقل، ص ٢٠٤، ٢٢٧.

والجدير بالذكر أن سكان مدينة سعرد وعدد من القرى في أطرافها كقرية تلوة الكبيرة يتحدثون باللغة العربية، كما يتكلم بها قسم من سكان بعض القصبات في ولاية ماردين، وأخص بالذكر (كهرجوس) إضافة الى بعض من سكان ماردين نفسها، حيث كان العرب قد إنتشروا فيها. في الوقت الذي يحتمل أن يكون قسم كبير من هؤلاء من أصل عربي، هاجر أجدادهم في فترة أو فترات (الى هذا الجزء من كُردستان)، فإن هناك احتمالاً لأن يكون بعضهم كُرداً إنتشرت اللغة العربية بينهم تحت تأثير الدين. فمن الثابت تاريخياً أن اللغة العربية إنتشرت في العديد من المدن والقصبات الكُردية، كما إنتشرت في إيران وغيرها من البلدان الإسلامية في القرون الإسلامية الأولى. ونذكر على سبيل المثال مدينة أربيل التي إنتشرت العربية فيها وأخذ سكانها يتكلمون بها في عهد ياقوت الحموي، أي الى العقد الثالث من القرن الثالث عشر. فقد قال ياقوت عند البحث عن أربيل ".... وأكثر أهلها أكراد قد أستعربوا وجميع ساكنيها وفلاحيها وما يُضاف إليها أكراد" (٤١). وهكذا نعلم بأن اللغة العربية قد إنتشرت بين سكان بعض المدن الكُردية من الكُرد المسلمين الذين فضلوا لغة الدين على لغتهم القومية، مثلما إنتشرت السريانية لغة الكنيسة الشرقية بين الكُرد المسيحيين وبين المسيحيين من غير السريانيين (الآراميين) في جنسياتهم.

ويجب أن لانستغرب مما ذكرنا إذا علمنا مدى إنتشار اللغة العربية في الأقطار الإسلامية الى درجة إستعربت بعضها كلياً وتعد الآن من البلاد العربية مثل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب. فاللغة العربية كانت هي اللغة السائدة والمتداولة في المدن الكبيرة في شتى أو معظم البلدان الإسلامية حتى زمن العلامة ابن خلدون، أي حتى أوائل القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي)، الذي قال مستعرضاً ومعللاً لذلك الإنتشار: "... كانت لغة الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية... والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم... والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب... فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تتبع السلطان... وهجر الأمم لغاتهم وألستهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغةً في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية (أي غير العربية) دخيلة فيها وغريبة" (٤٢).

وأضاف ابن خلدون أنه بعد الغزو المغولي والتتري للبلاد الإسلامية الشرقية فسدت اللغة العربية (المضربة الفصحى) وضعفت حتى إن الكتب كانت تؤلّف بغير اللغة العربية.

والحاصل أن سقوط الدولة العباسية كان ضربة عنيفة سببت تقلص اللغة العربية وإنحسارها في كُردستان وإيران وبلاد السند وغيرها حتى لم يبق لها سوى أثر قليل. وعلى ضوء هذه الحقيقة إنتشرت اللغة العربية في بعض مناطق كُردستان، ثم إنحسرت عنها كمدينة خلاط التي كان بعض

(٤١) الحموي، ج ١، ص ١٨٧.

(٤٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٧٩-٣٨٠ تحدث عن إنتشار اللغة العربية في أذربيجان وأرمينية كل من الإصطخري وابن حوقل. راجع على الترتيب مسالك الممالك، ص ١٩٢. وصورة الأرض، ص ٢٩٩.

سكانها يتكلمون العربية في العهد الدوستكي كما ذكرنا، ولكنها انحسرت عنها. فلم يذكر القزويني لها أثراً فيها بينما ذكر أن اللغة التركمانية كانت مستعملة فيها في القرن الثالث عشر الميلادي، كما لا توجد فيها الآن غير اللغة الكردية.

اليهود

كانت في الدولة الدوستكية جاليات أقلية يهودية تقيم في المدن، وكانت في العاصمة فارقين محلة بإسم (زقاق اليهود) تقع في النصف الغربي منها وفي غرب (سوق القبة). وكان كنيس اليهود في هذه المحلة وكانت فيها أيضاً البيعة الكبرى للمسيحيين (٤٣).

والجدير بالذكر أنه بعد سقوط الدولة الدوستكية بأقل من قرن زار الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين مدينة نصيبين وقال: إن فيها نحو ألفي يهودي (٤٤). أما الجزيرة فإنه وإن لم يزرها، ولكنه قال أن فيها (٤) آلاف يهودي. وكنا قد ذكرنا في الجزء الأول من الدولة الدوستكية في الصفحة ٣٣٥، بأن آخر الملوك الدوستكيين قد سُجن في دار أحد اليهود في الجزيرة وتوفي فيها سنة (١٠٩٦م). ومن المحتمل جداً أن اليهود في العهد الدوستكي كانوا يقيمون في المحلة المعروفة الآن بإسم "مهحلا جوهيا" الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة وفي يسار السوق. وكان يسكنها يهود إلى أن هاجروا إلى فلسطين.

ذكر بنيامين أيضاً أن في رأس العين نحو ألفي يهودي، أما في العمادية فنحو (٢٥) ألف يهودي، وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع إلى خفتيان وتخوم مادي ويتفاهمون بلسان الترجوم (٤٥)، أي السريانية الشرقية.

لقد ذكرنا رأس العين والعمادية هنا لأنهما كانتا ضمن الدولة الدوستكية في أوج توسعها على أقل تقدير ووصول نفوذها اليهما بعد ذلك، كما ذكرنا في الجزء الأول (ص ٢٢ و ٢٥). والخلاصة أن عدد اليهود في الجزيرة ونصيبين وكذلك في رأس العين والعمادية في العهد الدوستكي لم يكن أقل من العدد الذي ذكره بنيامين حسب التخمين. أما أصل هؤلاء اليهود، فهم أخلاف اليهود الذين أجلاهم الآشوريون إلى كُردستان في القرن الثامن قبل الميلاد، حينما غزا الملك الآشوري (تجلات بلاصر) مملكة إسرائيل في فلسطين وإحتلتها عام (٧٣١ ق.م). فقد أجلى الملك الآشوري المذكور عدداً كبيراً من اليهود إلى (كُردستان الجنوبية) كُردستان العراق. وفي عام (٧٢٢ ق.م) قضى الآشوريون نهائياً على مملكة إسرائيل وشردوا قسماً آخر من اليهود إلى كُردستان (إلى منطقة حران وخابور وجبال ميديا). ثم غزا نبوخذ نصر مملكة اليهود مرتين في سنتي ٥٩٧ و ٥٨٦ قبل الميلاد وأسر الكثير من (٤٣) الفارقي، ص ١٦٥. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٠٥. القزويني، آثار البلاد، ص ٥٦٥. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص ٧٩.

(٤٤) رحلة بنيامين، ص ١٢٥.

(٤٤) الدولة الدوستكية، ص ٧٩.

(٤٥) رحلة بنيامين، ص ١٢٦، ١٥٤.

اليهود ونقلهم الى منطقة بابل حسبما ورد في (ص ٩٠١ من مفصل العرب واليهود في فلسطين للدكتور أحمد سوسة، الذي كان يهودي الأصل وله زوجة كُردية من عشيرة ساله بي "صالحى").

ظل اليهود منتشرين في كُردستان وقلما وجدت مدينة أو قسبة كُردية تخلو منهم، بينما كانت قلة منهم في بعض القرى أيضاً. ولا أستبعد شخصياً قيام بعض الكُرد بإعتناق الديانة اليهودية، وخاصة في الجبال الواقعة بين كرمانشاه وزهاو وشهرزور. وظل اليهود في كُردستان الى أن نُقلوا الى فلسطين خاصة سنة ١٩٤٨. كان اليهود بصورة عامة يشتغلون بالتجارة والصناعات بعيدين عن الحيلة والغش في معاملاتهم والصناعات التي يعملونها.*

* في نفس كتاب أحمد سوسة في الصفحات (٥٩٣-٦٠٣) بحث عن اليهود في كُردستان يقول فيه أن (اليهود الكُرد) كانوا يتكلمون بلغتهم وهي اللهجة الآرامية الغربية القديمة لغتهم الأصلية ويتكلمون اللغة الكُردية أيضاً. وقد ذكر أيضاً أن قسماً من يهود كُردستان إعتنقوا المسيحية وإعتقد المبشر الأمريكي الطبيب جرانت الذي سكن بين النساطرة، أي الآثوريين المسيحيين عدة سنوات وألف كتاباً بالإنكليزية بعنوان "النساطرة أو الأسباط المفقودة" الآثوريين من اليهود، أي القبائل العشرة (الأسباط العشرة) التي شردها الآثوريون الى كُردستان وكذلك الإيزيديين. وفي زيارة لي لأحمد سوسة في داره ببغداد أبدى لي رأيه هذا وقال: إن إسم (آثوري) حديث أحدث من قبل الإنكليز والفرنسيين. فقلت إن ذلك غير صحيح بدليل أن إسم (أسوري) قد جاء مراراً في (شرفنامه). وطلب مني معلومات عن الآثوريين واليهود ليستفيد منها في كتابه هذا الذي كان يؤلفه. فقلت: إن أول من دخل المسيحية من سكان أربيل، ثم أصبح أول أسقف لها كان يهودياً يدعى (بقيدا). فسُرُّ الدكتور أحمد سوسة بذلك وكتب إسمه لديه لكي يعقب الموضوع، ثم عقبه كما يتضح من هامش (ص ٦٠٠). وفي نفس الصفحة قال أن اليهود الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية يُطلق عليهم إسم (مين - Min) من قبل اليهود. وقد ذكرني هذا أن اللفظ مستعمل حالياً بين الكُرد (في اللهجة الكرمانجية الشمالية) حيث يطلق الكُرد لفظ (مسلمين/ مسلميني) على اليهود والمسيحيين الذين دخلوا الإسلام. فالكلمة إذن مخفف من (مسلم مين). وأعتبر أحمد سوسة من حيث الديانة لا القومية (دولة أديابين) إمارة يهودية وكانت عاصمتها مدينة أربيل. وكانت دولة أديابين تابعة للدولة الأشكانية وشملت كُردستان الجنوبية حتى (الفرات) في أوج توسعها. وقال إن «إيزاط» الأول من أمراء أديابين «حدياب» كان يهودياً وإعتلى عرش الإمارة سنة (٣٦ م)، وإعتنق اليهودية في صباه كما إعتنقت أمه «هيلانة» اليهودية. وكانت أمه قد تزوجت من أخيها «مونوباسس»، فولدت من أخيها «إيزاط الأول»، وكان حاكم الإمارة الأول «مونوباسس» وتنبأ. والظاهر أن الوثنيين كانوا يحللون الزواج من الأخت. وحسب إعتقادي فقد كان أرامياً وتنبأ وإن سكان إقليم حدياب (أي منطقة أربيل) من الأراميين لغتهم وجنساً. وقال إشتهرت «هيلانة» عندما جلبت القمح من مصر ووزعته على سكان أورشليم أثناء المجاعة. وقد أيدت هذه الإمارة ثورة اليهود ضد الرومان سنة (٦٦ و٧٠ م). هذا وإن صح أن إيزاط كان من حيث الديانة يهودياً، فإن بعضاً من ملوك أديابين من هذه الأسرة قد إعتنقوا المسيحية ومنهم «رقبخت».

أما الوثنية التي ذكرها سوسة ناقلاً عن المصادر الكنسية، فإنها (الزردشتية) التي كثيراً ما إستخدمت لفظ (الوثنية). فكانت (الزردشتية) توصف بعبادة (الشياطين). أما سكان أربيل آنذاك فكانت أكثريةهم من الكُرد أو نقول من العنصر الآري. وفي (الآشوريون في التاريخ، ص ١٠٤) لمؤلفه إيشو مالك خليل نقلاً عن الدكتور منكانا أن: "الأكثرية الساحقة لسكان حدياب كانت نصارى وغالبية أولئك النصارى تنتمي الى أصل فارسي وليس الى أصل آرامي، وكان بينهم أيضاً أناس ينتمون الى أبوين مسيحيين كانا في الأصل ينتميان الى الزرادشتية".

لقد نشرنا بالعربية مقالاً مفصلاً بخصوص حكومة أديابين في جريدة (خهبات) العدد الصادر في ١٠/١٩٩٢، وذلك بعنوان (حكومة كُردستان الجنوبية - حكومة أديابين- في العهد الأشكاني). وبخصوص أصل حكام أديابين قال المرحوم الأستاذ توفيق وهبي في كتابه (سفرة من دهريه ندى بازيان الى مله ي تاسلوجه، ص ٢٦) وفي بحثه المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الرابع بخصوص ألتون كويري، أنهم من القبيلة السيكائية. ويقصد (ماسكت - اسكت) من القبائل الآرية التي تكون منها ومن الميديين والمناثيين وسكان كُردستان الأقدمين الشعب الكُرد. ولا أستبعد أن تكون قبيلة ماسكي (ماسك) الإيزيدية الكُردية، والتي أسلم قسم منها (وأنا من أبنائها) تحمل إسم تلك =

الروم (البيزنطيون)

لم أقتنع في السابق بما ذكره ياقوت الحموي من وجود قسم من الروم (البيزنطيين) في مدينة (ملازغر) (٤٦)، وإستبعدت ذلك لأنني لم أجد في مصدر آخر ما يؤيد قوله. ولكنني الآن مقتنع بذلك، بعد أن إطلعت على ما ذكره الرحالة الأندلسي ابن جبير والعالم الروسي مينورسكي وهو يؤيد ذلك. ولم أشك في أن قسماً من الروم قد سكن قبل العصر الدوستكي في مناطق تعتبر الآن من البلاد الكرديّة، وذلك بسبب إحتلال الدولة الرومانية والبيزنطية لها مراراً وبقائها تحت سيطرتها فترات عديدة، وخاصة في العصور المسيحية. وقد كان في المناطق الواقعة شمال دياربكر كمنطقة شمشاط وملاطية طائفة من الروم حتى أواخر القرن الثالث الهجري أو أوائل القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)، وكانت موالية للمسلمين تقف الى جانبهم بسبب خلافات عقائدية بينها وبين الروم الآخرين. غير أن هذه الطائفة اضطرت الى الجلاء عن تلك المناطق بسبب سوء تصرف المسلمين إزاءهم، على ما قاله قدامة بن جعفر (ت. ٣٢٠هـ = ٩٣٢م) وإنتشر الأرمن في أماكنها (٤٧).

ويظهر أن أقليةً بيزنطيةً ظلت في كردستان الى عصر الدولة الدوستكية، بل حتى النصف الأول من القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) وحتى القرن التاسع عشر. وتفصيل ذلك أن ابن جبير بات ليلة في قرية الجسر الواقعة بين بلدة دنيسر (قزل تپه) ورأس العين، وهو في طريقه الى بلاد الشام سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٦م)، فوجد إن سكانها من الروم (٤٨).

إن ابن جبير لم يتوهم في قوله المذكور، لأنه إضافة الى مبيته ليلة في قريتهم ذكر أنه مر بين دنيسر وقرية الجسر بقرية تل العقاب، الشبيهة في جمالها بقرى الأندلس (أسبانيا، وكان يسكنها النصارى). فلم يقل أنهم من الروم، بينما نبه على سكان القرية الأخرى كانوا فرقة من فرق الروم.

أما مينورسكي، فقد أشار الى وجود أقلية يونانية في كردستان في القرن التاسع عشر، حين قال: إن حركة إيزدين شير أمير بوتان لم تكن ضد المسيحيين، لأن النسطوريين واليونانيين الذين كانوا يعيشون في كردستان حاربوا تحت راية إيزدين شير (٤٩).

وكذلك قال ميجر سون عند ذكر زيارته لمدينة دياربكر: "إن من بين مسيحيي دياربكر بقية إغريقية من أيام حكم البيزنطيين" (٥٠)، علماً إن مدينتي آمد (دياربكر) وفارقين بنيتا من قبل الروم ماعدا

=القبيلة أو مجموعة القبائل الماسكتية.

أما ما قاله گرانز ونقله عنه الدكتور سوسة من أن القبائل الإيزيدية (الكرديّة) كانت من أولئك اليهود، فإنه لا يستحق الرد عليه. وكان (گرانز) عنصر التخريب بين الآثوريين والثورة الكرديّة بقيادة بدرخان في إربعينيات القرن التاسع عشر ورجلاً غير منصف ويكره الكردي.

(٤٦) الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠٢.

(٤٧) قدامة بن جعفر، كتاب الخراج، ص ٣٥٤.

(٤٨) رحلة ابن جبير، ص ١٩٥.

(٤٩) مينورسكي، الأكراد ص ٢٦، ترجمة الدكتور معروف خزنه دار، كانت حركة إيزدين شير ضد الأتراك سنة ١٨٥٥م.

(٥٠) ميجر سون، رحلة متكر الى بلاد ما بين النهرين كردستان، ص ٨٧.

قلعة دياربكر (إيج قلعه) فإنها تعود الى العهد الحثي كما سيأتي.
وهكذا يتضح لنا بأن أقلية من الروم كانت تعيش في كُردستان الوسطى أيام الدولة الدوستكية،
وأنها كانت تشكل إحدى أقلياتها القومية آنذاك كالأرمن والسريان والعرب، وإنها ظلت في كُردستان
وعاشت مع الشعب الكُردى الى أواسط القرن التاسع عشر بل الى أوائل القرن العشرين، لحين قيام
الحكومة التركية بتشريد المسيحيين وإرتكاب المذابح التي لن ينساها التاريخ بحقهم.

الحياة الإجتماعية

طبقات المجتمع

يمكن لنا أن نقسم مجتمع كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي الى الطبقات التالية:

الطبقة الغنية:

وكانت تتكون من ذوي الدخل الكبير كأبناء الأسرة الدوستكية والأمراء والقادة الكبار وكبار
الموظفين من وزراء وكتّاب وقضاة وبعض من رجال الدين وكذا تجار وإقطاعيين. وكانت توجد في
العهد الدوستكي طبقة من الأثرياء من كبار التجار والأسر البارزة في العاصمة فارقين، أمثال التاجر
أبي بكر بن جري، وابن بهات، وأبي الحسن بن وصيف، وبنو المحور، وابن أبي الريحان، وأبي طاهر
بن الحمامي، وبنو غالب، والقاضي أبي بكر بن صدقة السعدي، وبنو عيسى وبنو نباته.
وكانت في دياربكر أيضاً طبقة من الأثرياء، منها القاضي أبو علي ابن البغل، والقاضي أبو الحسن
الأمدي الذي سكن فارقين، والشيخ عبد البر، وابن دمنة، والقائد مرتج، وبيت النخوار المسيحي^(١)،
وكذلك بيت سابا المسيحي في باسبرينا من طورعبددين^(٢)، وبنو وهبان في الجزيرة^(٣)، وآل توما

(١) كان بيت النخوار أسرة مسيحية في دياربكر منها ابن الخمار، الذي كان من أبرز أبنائها ومن أبرز شخصيات
دياربكر في وقت ما من العهد الدوستكي، وكان كاتب الأمير محمد بن نصرالدولة والي المدينة المذكورة. وذكر الفارقي
أن إسم أسرة الخمار الأصلي والقديم كان (بيت الخمار) حيث جرى تبديل الإسم لإبعاد صفة الخمار عنها، وظلت الأسرة
تتمتع بمركزها الإجتماعي حتى عهد الفارقي. راجع تاريخ الفارقي، ص ١٢٦ و ١٤٧. وورد ذكر بيت النخوار أيضاً في
كتاب أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجلد، ص ١٣١ لماري بن سليمان.

(٢) تكرر ذكر آل سابا (أي آل الشيخ) في (تاريخ طورعبددين) وفي (اللؤلؤ المنشور) لأفهام برصوم. راجع على سبيل
المثال، ص ٢٩ من الأخير. أما (باسبرينا) - والنسبة إليها السبريني - فإنها قرية تقع في شرق مديات في منطقة
طورعبددين. لهذه القرية تاريخ حافل لما نشأ منها كثير من رجال الدين المسيحيين. زارتها أوائل هذا القرن مس
(گرتروود بيل) وكتبت عنها وعن بعض آثارها: راجع كتابها Amorath To Amorath. فصل من زاخو الى دياربكر.

(٣) راجع ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٩.

المسيحي الشرقي في بلدة حصن كيفا(٤). وكانت هذه الطبقة تعيش عيشة رخاء وترف. أما الأمراء الدوستكيون ومعهم بنو أعمامهم، فقد ملكوا الأراضي والعقارات والقصور والجواري والخدم وتفننوا في أسباب الترف، ولاسيما نصرالدولة الذي بلغت قيمة مسبحته (٢٢٥) ألف دينار(٥)، أي ربع مليون دينار، علماً أنها تعتبر أكبر وأثمن سبحة في التاريخ. وبلغ فن الطبخ حداً كبيراً من التقدم، إقتضاه إرتفاع مستوى المعيشة، ولاسيما بعد أن عاد الطباخون الذين أرسلهم نصرالدولة الى مصر لتعلم فن الطبخ المتداول في مطابخ مصر، وخاصة مطابخ الخليفة الفاطمي وأمرائه وأرباب الترف هناك(٦).

الطبقة المتوسطة

كانت هذه الطبقة تتكون من الموظفين الصغار والتجار المتوسطين وأصحاب الملكيات الصغيرة من الأراضي الزراعية، وكذلك من أصحاب الحرف التي تدر دخلاً متوسطاً.

الطبقة الكادحة

كانت تتكون من ذوي الدخل المتدني من الفلاحين، الذين لايملكون أرضاً زراعية، ومن العمال الذين يشتغلون بأجرة قليلة في الأعمال المختلفة. وكانت تتكون أيضاً من أصحاب الحرف كالحداذة والنجارة والباعة المتجولين من ذوي الدخل الواطيء. وفي سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٣م) إثر وفاة ملكشاه وفراغ السلطة في فارقين، ظهر أن هذه الطبقة ومعها الشباب كانت أخلص الطبقات وأشجعها وأصدقها وطنية وأبعدها نظراً. فقد إلتفت حول الشاعر الوطني الجسور (إبن الأسد) الفارقي، الذي أخذ قيادة المدينة من الأغنياء، وفي مقدمتهم القاضي أبو بكر بن صدقة السعدي، الذين كانوا يحفظونها ليسلموها الى السلاجقة مرة أخرى.

فقد أرسل الأغنياء وفداً الى الملك (بركيارق) بن ملكشاه ليرسل معهم والياً كي يسلموا المدينة إليه. ولما يسوا منه أرسلوا وفداً برياسة القاضي المذكور الى (تُتَش) أخو ملكشاه، وهو يحاصر مدينة نصيبين، ليحضر هو أو يرسل أحد رجاله ليسلموا المدينة إليه. لكن الطبقة الكادحة بزعامة إبن الأسد كانت ضد الإحتلال السلجوقي الأجنبي وعملت على إحياء الدولة الدوستكية. فقد أرسل الشاعر الخالد إبن الأسد الى الأمير ناصرالدولة منصور، وكان قد قدم من قرية (حربى) القريبة من بغداد الى مدينة الجزيرة وإفتتحها- للمجيء الى فارقين ليسلم إليه المدينة. فحضر وإستلمها، وإستوزر إبن الأسد وأحيا الدولة. ثم إحتلها تُتَش ومنح قرية (قلوفح) للقاضي إبن صدقة السعدي المذكور مكافأة لإخلاصه للحكم السلجوقي ولحياتته البلاد وشعبها الذي عاش سعيداً خلال الحكم الوطني الدوستكي،

(٤) أفرام برصوم، تاريخ طوععبدین، ص٣٤٨. حدد تاريخ إشتهار هذه الأسرة بالفترة ١٠٥٠-١٢٩٢م.

(٥) التفاصيل في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص٣١٠ وتاريخ الفارقي، ص٢١٤-٢١٦.

(٦) راجع التفاصيل في الجزء الأول أيضاً، ص٤٤٨ - ٢٥٠ موضوع نصرالدولة يوفد بعثة من الطباخين الى مصر.

كما ذكرنا بالتفصيل في الجزء الأول. وقد ذكر الفارقي في الصفحات ٢٣٢-٢٣٣ أنه كان لابن الأسد "جمع وتلامذة وجماعة إلتقوا به وإجتمع إليه جماعة من السوقة والشباب والجهال وجعل يدور في المدينة ويحفظ السور والبلد...". وقال في الصفحة (٢٣٨): أن ابن الأسد عندما إحتل تُتَش فارقين إنهزم وإختفى، ثم توجه الى تُتَش في حرآن لعله يعفو عنه، ولكن بعض الحاضرين حرّضوه عليه وقالوا إنه هو الشخص الذي "جمع الغوغاء والجهال وإستدعى ابن مروان وسلم إليه فارقين فأمر بضرب عنقه بحرآن في سنة سبع وثمانين وأربعمائة".

إن حركة ابن الأسد هذه كانت حركة فتوة شعبية شبيهة بحركة الفتوة الشعبية التي ظهرت في العهد العباسي في بغداد وكانت تعادي الإحتلال الأجنبي، والتي وصف المؤرخون رجالها آنذاك بالسوقة والغوغاء والجهال والعيارين، والتي سحقها المغول بعد مقاومة عنيفة منها. وكان الغزاة والمحتلون يستهدفون سحق هذه الحركات الشعبية بالدرجة الأولى.

الجدير بالذكر أنه كان يوجد في الدولة الدوستكية الرقيق الذين لا يملكون أي شيء ويباعون ويُشتررون كما في سائر الدول في ذلك العصر. وكانوا يجلبون الرقيق من الخارج، وكان نصرالدولة نفسه يمتلك الكثير من الخدم الرقيق والجواري، حتى قيل أنه كان يملك ألف جارية للأغراض المختلفة. وكان يشتري بعضاً منهن بألاف الدنانير فقد إشتري إحداهن بـ (١٤) ألف دينار (٧).

وكانت بعض الأسر الغنية تملك الخدم المملوك مثل بني نباته في فارقين، فقد كان (صافي) جد المحتسب علي بن محمد بن صافي الذي أصبح الأمر والنهي في يده في فارقين لسنوات بعد سقوط الدولة الدوستكية- كان مملوكاً لبني نباته (٨). وكان ابن فليوس، الذي إرتقى الى منصب كبير في الشرطة غلاماً مملوكاً لشيره بن مهم (٩).

ومع هذا كانت نسبة الرقيق قليلة في الدولة الدوستكية مقارنة بالدول بالأقطار الأخرى، حيث كانت بعض الأسر الغنية تملك عبداً أو جارية للإستخدام، عدا نصرالدولة أو عدد قليل من الأمراء أو من الأغنياء، الذين يحتمل تملكهم لعدد أكثر من هذا حسب توقعنا.

المرأة

لم تصلنا معلومات كافية عن حياة المرأة الكرديّة في العهد الدوستكي. لذا لا نعلم عن عاداتها وتقاليدها وزيتها، عدا التقاليد الدينية أي ما له علاقة بالإسلام وروابطها العائلية مع زوجها وأطفالها... حيث إنها لم تتغير حتى الآن. ولكن هناك أمور أخرى مجهولة بالنسبة لنا، إذ لم نجد حولها نصوصاً تاريخية. ولو أننا نعتقد بأن المرأة الكردية في الوقت الحاضر قد ورثت من جدتها زيتها الشعبي والكثير من تقاليدها وعاداتها، وكذا الحال بالنسبة للمرأة غير الكرديّة مسلمة كانت أو

(٧) راجع الجزى الأول، ص ٢٦٣-٢٦٥.

(٨) الفارقي، ص ٢٤٦. هناك احتمال تملكهم إياه قبيل العهد الدوستكي أيضاً.

(٩) نفس المصدر.

مسيحية. إن بعض نساء الأسرة الحاكمة شاركن في الحكم وتدخلن في أمور الدولة وفي مقدماتهن الأميرة الديلمية زوجة الأمير باد بن دوستك. فقد كانت المذكورة في قلعة حصن كيفا (حسنكيف) عندما زحف زوجها الى الموصل سنة (٩٩٠م)، ولما عاد الأمير أبي علي حسن بن مروان بجيشه المندحر وخشي أن تتمرد عليه إذا أخبرها بمقتل خاله قبل دخوله القلعة. ولما دخلها أخبرها بالأمر وطلب منها مساعدته في تسليم كافة المدن والقلاع التي كانت تحت سيطرة خاله ووعداها بالزواج منها وإشراكها في الحكم والإستشارة برأيها في أمور الدولة. فوافقت على شروطه فذهبا معاً بالجيش الى فارقين ودخلاها وتسلما باقي المدن والقلاع بدون أي تمرد من أحد. وهكذا وجدت هذه الأميرة لها دوراً في توطيد حكم الأمير حسن وفي سلامة الدولة. وهناك أيضاً الست عزيزة بنت (زنك) بن (أوان)، التي إحتفظت بمدينة دياربكر بعد وفاة زوجها الأمير سعيد بن نصرالدولة سنة (٤٦٤هـ = ١٠٧٢م)، الى أن أقنعها الأمير نظام الدين ووعداها بالزواج منها وبإحترامها فسلمت إليه المدينة (١٠).

كما ذكر الفارقي بعض الأعمال التي قامت بها المرأة، فذكر أن (ست الملك) بنت نصرالدولة وكبرى أختيها الست زينب والست زبيدة، قد شيدت القبة المروانية في ضاحية فارقين التي ضمت قبر والدها (١١)، ثم قبر الأمير نظام الدين وإبنه الأمير أحمد، والأمير سليمان بن الأمير بهرام بن نظام الدين (ت ٥٥٦هـ)، والأمير إبراهيم بن أبي الفوارس بن إبراهيم بن نصرالدولة (ت ٥٥٩هـ). كما شيدت (ست الناس) بنت الأمير سعيد قبة بدياربكر على ضريح زوجها ناصرالدولة منصور تطل على دجلة عند رأس القصر (١٢). وإعتزلت في بلدة فنك بعد وفاة زوجها وإشترت ديراً حولته الى مسجد، وأقامت فيه متعبدة ومنتزهة الى أن توفيت ودفنت في القبة التي شيدتها بجانب زوجها (١٣).

وكانت فريحة بنت فلسطين، زوجة الوزير أبي سالم الطبيب، امرأة مسيحية ذكية لبقة ساعدت زوجها في الوصول الى منصب الوزارة في الدولة. حيث إستطاعت أن تتقرب الى (ست الناس) زوجة الأمير ناصرالدولة منصور وتؤثر عليها. وقد إنتقد الفارقي الأمير وزوجته لخصوعهما لفريحة وأبي سالم، وقال أنه لما سافر الى أصبهان وسلم البلاد إليهما. وذكر ابن العماد الأصبهاني أن هذه المرأة وذكرها باسم "رحيمه" قابلت الوزير نظام الملك الطوسي، وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي، لما قدم الى فارقين سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م). وقال لها الوزير وقد بلغته شهرتها: أنت ألسنت رحيمه؟ فأجابته على الفور: بل الأمة المرحومة. ففرح بجرأتها الأدبية وحاضر بديهتها (١٤)، وعبارته تدل على ان خبر قابلية هذه المرأة قد وصل إليه سابقاً.

وقد وصل إلينا من عادات المرأة في العهد الدوستكي عادة تجميل النساء في حفلات الزفاف من قبل امرأة ممتهنة خاصة تدعى (ماشطة). وقد ذكر ذلك أبو العلاء المعري حين قال بأنه: "كانت في

(١٠) الفارقي، ص ١٩١-١٩٢.

(١١) نفس المصدر.

(١٢) نفس المصدر، ص ٢٧٣.

(١٣) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٨٨.

(١٤) عماد الدين الأصبهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٣٤٩. الفارقي، ص ٢٠٦، ٢٠٨.

مدينة آمد (ديار بكر) في زمنه إمراة مقينة ماشطة تمتهن تزيين النساء في الأعراس. وكانت زوجة رجل أعمى ينجم للناس وكان لهذه المرأة ذوق أدبي في معرفة أوزان الشعر وحينما يخلُ زوجها بأبيات شعرية كانت تحس بذلك وتنبهه وتحث بينهما مناقشة" (١٥).

الأعياد والمناسبات

كان الشعب في البلاد دوستكية يحتفل كباقي الشعوب بالأعياد والمناسبات الدينية. وكان سكان فارقين يخرجون في العيد للنزهة الى خارج المدينة كما هو معلوم من (الفارقي، ص ٦٨). ويحتمل أن هذه العادة كانت عامة في المدن الأخرى أيضاً. ومما يتوقع أن الإحتفال بعيد نوروز كان يقام في كُردستان على النطاقين الرسمي والشعبي، وذلك أن الدول الإسلامية كانت تحتفل به آنذاك. ولإحتفال بعيد نوروز في الدولة العباسية حديث طويل في المصادر التاريخية، حتى أن المؤرخين إعتبروا هدايا نوروز الكثيرة الى الخليفة من جملة المصادر المالية. ومن المعلوم أن الدولة العباسية إتخذت عيد النوروز بدايةً للسنة المالية، وكانت تسك النقود في نوروز وكذلك في عيد (مهرجان) في بداية الخريف، حينما كانت الدولة تحتفل بالمهرجان أيضاً. وكانت الدولة الفاطمية في مصر أيضاً تحتفل بنوروز، وإستمر هذا عيداً كبيراً معروفاً في مصر الى أن ألغاه الملك الظاهر برقوق في القرن الرابع عشر (١٦).

وعلى الأغلب فإن الدولة دوستكية، التي كانت تقتبس النظم المدنية والعسكرية من دول عصرها ولاسيما الدولتين العباسية والفاطمية، إقتدت بهما في الإحتفال بهذين العيدين على نطاق رسمي، علماً بأن نوروز ظل مستمراً في كُردستان الى الآن. وقد ذكر العالم والمفكر الشاعر الكُردي أحمدى خاني بأن أمراء بوتان مع سكان الجزيرة كانوا يحتفلون به. وقد حدث في يوم نوروز اللقاء الأول بين (مهم وزين) وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي، فإلتهب بينهما الحب الصادق (١٧).

(١٥) المعري، رسالة الغفران، ص ٥٧٢. النسخة التي حققتها الدكتورة بنت الشاطيء، وفيها زيادة حوالي ثلاث صفحات على النسخة التي حققها ونشرها كامل جيلاني وتبدأ الزيادة بالعبارة التالية "وحدث رجل ضرير من أهل آمد..." أي بقصة الماشطة وزوجها، علماً إن المعري ألف رسالة الغفران في أواسط العهد دوستكي دفاعاً عن وزيرها أبي القاسم المغربي كما سيأتي في موضوع الحياة الثقافية.

(١٦) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٨٩.

(١٧) أحمد خاني، مهم م وزين، ص ٥٢-٥٤ طبعة هوليبر ١٩٦٨. علماً إن ذلك كان في سنة (٨٥٤هـ = ١٤٥٠م) أو التي قبلها، حيث أن العاشقين مهم م ثلاثان والأميرة زين توفيا في السنة المذكورة، حسبما هو مكتوب على شاهد قبر زين. وقد بقي لقبها شاهد واحد كُتب عليه ما يلي حسبما قرأته: "توفيت في سنة أربعة وخمسين وثمانمائة رحمة الله عليها وعلى جميع المسلمين". وقد ذكرنا التاريخ في كتابنا ديوانا كرمانجي (ص ١٤٥-١٦٠). هذا وأشار الى النوروز أيضاً الشاعر الكُردي ملاي جزيري الذي عاش ما بين القرنين ١٦ و١٧ الميلاديين وقد قال:

ئهو نارو سيقالا دله داتم دنيث داقتا دلسه

نهوروز و سهر سالا دله ودهختي كو هلبت ئهو سيراج

راجع ديوانه، ص ٥٨ طبعة هوليبر ١٩٦٤. وقد ورد ذكر نوروز أيضاً في دعوة الأطباء للطبيب بن بطلان، وقد ألفه للأمير دوستكي نصرالدولة. ولكن هذا لا يكون دليلاً قاطعاً على إحتفال الدولة به. راجع مقدمة دعوة الأطباء.

ومعروف أن الكُرد يعتبرون نوروز الآن عيدهم القومي، حيث ذكر المؤرخون أن كاوة الحداد الذي قاد الثورة على الملك (الميدي) الضحاك في الحادي والعشرين من آذار كان كردياً. ولكن ذلك غير صحيح. إذ ليس لنوروز أي علاقة بالضحاك (أزي دهاك - أستياك) بن كيخسرو آخر ملوك الدولة الميدية الكُردية وليس لكاهه أي وجود. وقد صححنا هذا الخطأ التاريخي في كتابنا (شوتينه واره كاني نوي له شاخي سورين). والإحتفال بنوروز إحتفال بسقوط الدولة الكُردية (دولة ماد)، وعيد نوروز إنما هو عيد الربيع فقط.

وبصد الإحتفال بالأعياد الدينية ذكر الفارقي أن نصرالدولة جلس لهنا عيد على التخت في اليوم الرابع من عيد الأضحى لسنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) وحضر الشعراء والقراء، وجلس على يمينه مندوبا الخليفة العباسي والملك البويهي وعلى شماله مندوب الإمبراطور البيزنطي، وكان يوماً عظيماً وعيداً مشهوداً^(١٨). ومعلوم إن مهمة الشعراء كانت إلقاء القصائد في مدح الأمير بهذه المناسبة ومهمة القراء قراءة آيات من القرآن والأناشيد الدينية.

وكان للمسيحيين في كُردستان أعياد ومناسبات دينية يحتفلون بها ويحضرها المسلمون أيضاً، مثل عيد (دير مرقوما) القريب من فارقين. وقد ذكر الشابشتي المتوفي في العهد الدوستكي بأن: "لهذا الدير عيداً يحتفل به الناس ويقصد به أهل البطالة والخلاعة للشرب فيه"^(١٩).

وكان لدير الكلب أيضاً عيد في يوم معلوم من السنة، وكان المسلمون من الرجال والنساء يشاركون فيه المسيحيين للإحتفال ويستمتعون بالأغاني والملاهي، على ما ذكره العمري في (مسالك الأبحار، ج ١، ص ٢٥٤). وذكره الشابشتي في (الديارات، ص ٢٦٢)، والمقدسي في (أحسن التقاسيم، ص ١٤٦) وغيرهم. ويعود الدير إلى ما قبل الإسلام ويسمى الآن بـ(دير مار ياقسو)، وفي ١٩٩٥/٦/٢٣ إكتشفت في قرية (قه شه فر)، الواقعة في الجبل الأبيض بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً أو أكثر شمال غرب دهوك. فصور آثاره وعشرات من الصوامع والكهوف المنحوتة في الصخور، بينما كان مكانه مجهولاً للمؤرخين المعاصرين. ويعد (دير الكلب) بصوامعه من أهم أديرة كُردستان وسأنتشر بحثاً بخصوصه.

ومن المناسبات الأخرى تنصيب الأمير الدوستكي في إحتفال يحضره الأمراء والقادة ورؤساء العشائر والشعراء والمنجمون ووجهاء العاصمة إضافة إلى القاضي والشهود، أي هيئة المحكمة الشرعية أي القضاء إضافة إلى العلماء. وكان الوزير يخلع على الأمير الملابس الرسمية ويقبل الأرض بين يديه ويخاطبه بالإمارة، أي يعلن تأميره، ثم يبدأ الشعراء والقراء بقراءة أشعار وأناشيد التهنئة.

أما العزاء بمناسبة وفاة الأمير، فكان يعلن عنه الوزير وسط الجماهير التي تحضرت مراسم التأمير. فيبدأ بشق ثيابه ونشر عمامته والبكاء، كما يخلع الأمير الجديد ملابسه الرسمية بعد ساعة من لبسها، ويلبس ثياب العزاء ويجلس على الأرض ويبدأ القراء بقراءة المراثي.

(١٨) الفارقي، ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠.

(١٩) راجع الشابشتي، الديارات: دير برقوما.

لقد أعطانا الفارقي صورة صادقة عن تنصيب الأمير نظام الدين والأمير منصور، كما أعطانا صورة عن تنصيب نصرالدولة وكذا عن العزاء بوفاة الأخير ونظام الدين (٢٠). ويظهر لي إن الضرب على الصدور وخاصة من قبل النساء بصورة جماعية لم يكن شائعاً في كردستان الوسطى في ذلك العصر، حتى إن الكرد ينسبون هذا النوع إلى العرب ويسمونه "شينا عه ره بان"، ولكنه إنتشر بين الكرد المجاورين لهم في كردستان العراق، مثل كرد مندلي وخانقين. وهذا النوع من العزاء بمناسبة وفاة الأمراء إنتشر في لورستان من كردستان إيران منذ قرون. وقد ذكر ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) صورة حية للعزاء بمناسبة وفاة ابن الأمير الكردي أفراسياب بن السلطان أحمد، وذلك بمدينة (إيدج) عاصمة لورستان وكان ابن بطوطة حاضراً فيه (٢١).

وكان من المناسبات المسرة السفر إلى قلعة هه تاخ ومدينة النصرية. كان الأمير ممد الدولة قد إتخذ قلعة هه تاخ (عقاق، أتاق، إيتاخ) (٢٢) مربعاً له. إذ كان يسافر في الربيع مع حاشيته وبني عمه

(٢٠) الفارقي، ص ٩٥، ١٧٨، ٢٠٢. وراجع أيضاً الأعلاق الخطيرة ورقة ٩٣.

(٢١) رحلة ابن بطوطة، ص ١٩٦. أضاف إنه رأى الناس فرقتين في العزاء لابسين جلال الدواب والتلابيس جاعلين فوق رؤوسهم التراب والتين، وهم يضربون على صدورهم تزحف فرقة إلى أخرى. وأما القضاة والخطباء والأشراف، فعليهم ثياب خام غليظ غير محكمة الخياطة يلبسونها مقلوبة ويستمر العزاء أربعين يوماً. وقال إنه لم يشهد منظرًا فظعاً مثل هذا العزاء علماً أن ذلك كان سنة (١٣٢٩م). تقع إيدج (إيدج ج) في شرق مسجد سليمان.

(٢٢) تقع هه تاخ في جنوب شرق مدينة لجي بمسافة حوالي (١٣) كلم ويسمىها الكرد الآن إيتاخ. وهي قرية جميلة واقعة في أحضان جبل والقلعة تقع فوق الجبل. وفي إيتاخ مسجد ومنارة أثريين يعودان إلى العهد الأرتقي. أما تاريخ القلعة، فيرتقي إلى العهد الروماني على ما في كتاب (Butun Cebheleri Diarbakir)، ص ٦٦ باللغة التركية والإنجليزية لعادل تكين). راجع أيضاً شوكت بيسان أوغلو: Diarbakir ص ٢١٨. وقد حدد لي مكان هه تاخ الشاب المثقف (ملا خالد لجي). أما لجي (ليجه)، فمدينة نفوسها كان في سنة ١٩٧١ (٨١٩٠) نسمة، وهي مركز قضاء يبعد عن ديار بكر بمسافة حوالي (٩٥) كلم من جهة الشرق. وفي هذا القضاء آثار تاريخية مهمة منها مدينة (دقيانوس) وتشاهد خرائبها في (فيس) بين ديار بكر وليجه. وكهف برليان في قضاء لجي (ليجه) يضم آثاراً آشورية. ولكن مما يؤسف له أن مدينة لجي قد أصيبت يوم السبت المصادف ٦ أيلول ١٩٧٥ بزلزال عنيف دمرها، وبلغ عدد القتلى فيها أكثر من ألف شخص. ويقال أنه بلغ عددهم ما يقارب الـ (٣) آلاف شخص. وفي الواحد والعشرين من آب ١٩٧٧ سافرت من ديار بكر إلى هه تاخ لمشاهدتها وتصويرها، وهي تقع في شرق مدينة ديار بكر بمسافة حوالي (٩٥) كلم ويسمىها الكرد (أنتاخ) وإيتاخ. تقع القرية في أحضان جبل غير عال، وكانت تعيش فيها ثلاثين أسرة، وأمامها واد فسيح فيه ينبوعان قليلي الماء ولذلك حُفرت في القرية آبار وبساتينها قليلة. أما القلعة، فعبارة عن سنام صخري حاد وضيق جداً فوق القرية، ولكنه حصين جداً وعليه آثار أبنية قليلة وحوض ماء، ويحتمل وجود حوضين آخرين مطمورين تحت التراب، إلا أن مياههما لا تكفي لمئات المقاتلين إن حوصروا مدة طويلة. والقلعة ليست كبيرة ولضيق مساحتها لا تسع مقاتلين كثيرين. ويمكن من القلعة مشاهدة منطقة واسعة من الجبال ومن مدينة لجي سهلها (سهل بامه تنج)، الذي ينتهي من الشمال بجبل القلعة. وبالنسبة للنزهة تتمتع هه تاخ بموقع خلاب وكانت إبان العهد الإسلامي مدينة، وكذلك في العهدين الدوستكي والأرتقي. وقد شيد فيها أمير أرتقي لعله نجم الدين ألبى بن حسام الدين تمرتاش، الذي حكم من (٥٤٧-٥٧٢هـ)، منارة مربعة جميلة لا زالت باقية حتى الآن. وكانت هه تاخ مركز تلك المنطقة في العهود المذكورة. وفي كتاب (فتوح الشام، للواقدي، ب ٢، ص ١٦٥-١٦٨) أن: "عباض بن غنم بعد فتح مدينة آمد سنة ١٨ هـ توجه بجيشه لفتح قلعة هه تاخ، وكان أميرها المتحصن بالقلعة (يانس بن كليوس)، وهو مسيحي تابع للروم قد جمع رجال القرى المجاورة في بلدة هه تاخ إستعداداً للقتال. وكان عنده مجانيق وعرادات وتحدي عباض بأنه لن يستطيع الإستيلاء على هه تاخ حتى إذا حاول ذلك مدة سنة. ولكن زوجته (ميرونه) سبطة (بريول بن كالوص)، أمير (قلب) و(الحصن الحديد)، وقعت في يد رجال عباض أثناء عودتها من عند جدها وكانت في غاية الجمال، فجزع لها =

إليها، ليقضي فيها أحلى الأيام بين المروج والمناظر الطبيعية الخلابة ملازماً الصيد والشرب هناك في ضيافة حاجبه شيروه، الى أن أغتيل فيها بيده (٢٣).

أما نصرالدولة فلم يتخذ من ههناخ مربعاً له بسبب تلك الذكرى الأليمة، أي ذكرى مقتل أخيه. ففكر في إختيار موقع آخر يمتاز بحلته القشبية أيام الربيع. فإختار موقعاً على الضفة الشرقية من نهر باطمان الكبير، وبنى فيه مدينة باسم (النصرية) تضم القصور والأسواق والبساتين وأحواض المياه. فكان نصرالدولة يسافر في فصل الربيع سنوياً إليها مع نسائه وجواريه ومغنياته وغلماؤه وأولاده وبنو عمه وحراسه. وكان يسافر معه وزيره وكتابه و كبار الشخصيات. كانت (النصرية) لذلك عاصمته الربيعية، وكان يجعل المسافة بينها وبين فارقين أربعة أيام، رغم كونها حوالي (٢٥) كلم، وذلك لأنهم كانوا ينتقلون من بقعة الى بقعة ويقمون في الفنادق والبنيات، التي شيدها نصرالدولة في الطريق، ليتمتعوا بمناظر الطبيعة والمروج الخضراء. وكانوا يقيمون بالمدينة في فصل الربيع ثم يعودون الى فارقين. ولهذا كانت السفارة الى العاصمة الربيعية من أجمل المناسبات (٢٤).

أما فيما يتعلق بالألعاب، فلم يصل إلينا سوى لعبة الشطرنج وكانت لعبة معروفة في كردستان. وقد ذكر الفارقي حادثة لعبة الشطرنج بين عارض الجيش (أبي الحكيم) وأحد خدم نصرالدولة التي كادت أن تؤدي الى كارثة (٢٥).

لاشك بأنه كانت هناك في كردستان ألعاب أخرى كالنرد (كوك) وسباق الخيل، ومازال النرد لعبة شعبية شائعة دخلت كردستان على أغلب الاحتمالات قبل الإسلام. وكان الصيد كذلك شائعاً بين الكُرد منذ آلاف السنين لكثرة الحيوانات البرية في كردستان، وأهمها بالنسبة للصيد الأروية أي المعز الجبلي (پهزئ كوفى)، والذي توجد له صورة منحوتة في كهف (گوندك)، الواقع في شرقي قرية شوش الشهيرة في منطقة (ناكرئ) في كردستان العراق. ويرجع علماء الآثار أن مشهد الصيد المنحوت هناك يرجع الى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد (٢٦).

ولا يزال هذا الحيوان موجوداً في المناطق الجبلية من كردستان، وكان يتم إصطياده في العهد الدوستكي بالسهم وبالشبكة التي يمدونها في الأودية الضيقة. وقد شاهد أسامة بن منقذ الصيد في

=(يانس). فطلب من عياض إرسال سبعة من رجاله إليه للتفاوض لعله يكون بينهم خالد بن الوليد. فأرسلهم وعندما دخلوا القلعة وإستقبلهم يانس قتله خالد رأساً لأنه توقع أن يانس يقبض عليهم كرهائن. وحدث قتال وأرسل عياض أربعمائة من رجاله لنجدة خالد وتمكنوا من الإستيلاء على القلعة، وأبقى مولاه (سالماً) مع مائة رجل لحماية ههناخ ورجع. وفي كتابنا المخطوط (گهشته كئ نهر كيزلوزئ دكوردستانا باكورد)، ص ٨٠٦-٨٢٧) معلومات مفصلة بخصوص ههناخ.

(٢٣) أنظر ص ١٤٧ من الجزء الأول من كتابنا هذا.

(٢٤) راجع موضوع الآثار العمرانية.

(٢٥) راجع موضوع: وزارة ابن جهير، ص ٢٢٤ من الجزء الأول. والفارقي، ص ١٤٦-١٤٨. وموضوع الجيش من الجزء الثاني.

(٢٦) طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الثالثة، ص ٤٥.



هه تاخ

جبال (حصن كيفا) الواقعة في منطقة ماردين وجنوب دياربكر، حينما خرج للصيد مع الأمير الأرتقي قره أرسلان بعد مرور نصف قرن على إنتهاء العهد الدوستكي. وقال ابن منقذ إن الصيادين هناك يمدون شباكاً في الأودية ويتردون الماعز فتقع في تلك الشباك، وهي كثيرة عندهم وسهلة المنال وكذلك الأرناب. وذكر ابن المنقذ من طيور الصيد في تلك البقعة من البلاد الكرديّة الحجل (كهو) والزرخ والدراج وطير الماء الذي يلازم نهر دجلة(٢٧).

أما الغزلان فكانت تكثر في السهول الكرديّة آنذاك، ولكنها قليلة الآن وتكاد تنقرض، كما قلت أعداد الماعز الجبلي لكثرة صيده من قبل الصيادين. وإنقرض كذلك الأسد، الذي كان موجوداً في العصر الدوستكي. وقد روى لنا التاريخ أن الأمير الكردي بدر بن حسنويه كان شجاعاً قوياً يقتل الأسد بيده، وأنه أخذ يتحذر من قوة وشجاعة ابنه (هلال)، حينما قتل أسداً وكان قد خرجاً معاً إلى الصيد(٢٨).

وكان الأمير نصرالدولة يخرج في أكثر الأيام للصيد لمدة حوالي ساعتين(٢٩) تسليةً وتريفاً. ومع حبه للصيد فإنه كان يمنع الناس من صيد الطيور التي كانت تضطر في فصل الشتاء، حينما تغطي الثلوج الأرض، إلى النزول إلى القرى فيصطادها الناس. ومع هذا فإنه كان يأمر بإلقاء الحب لها من

(٢٧) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٩٦.

(٢٨) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٤٧.

(٢٩) الفارقي، ص١٧٠. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية: موضوع برنامج نصرالدولة اليومي، ص٢٤٦.

مخازن الحبوب العائدة للدولة (فكانت في ضيافته طوال الشتاء) على ما ذكره بعض المؤرخين (٣٠). أما م مهد الدولة، فكان هو الآخر يحب الصيد ويمارسه ولاسيما حينما كان يسافر الى هتاخ، وعند رجوعه من الصيد كان يتقدمه فراشه (مشرق) ويأمر الحراس بفتح باب المدينة لأنه أمرهم بعدم فتحه لأية جماعة مسلحة أثناء خروجه للصيد، إلا إذا رأوا وجه فراشه (مشرق). ولهذا إقتاده شيروه حينما إغتال الأمير م مهد الدولة، فوجده حراس باب فارقين وفتحوه، ثم شعروا بالخدعة لما لم يجدوا الأمير (٣١).

والنثار كان عادة في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي في مناسبات الزفاف وزيارات الأمراء، حيث كانوا ينثرون النقود على العروس وعلى الأمير. وقد إلتجأ عبد البر الى النثار كجزء من خطته في إغتال الأمير حسن (أبي علي) حيث نشر عليه كمية من الدنانير وصوبها الى وجهه بقوة فغطى الأخير وجهه بكمه فناوشوه عندئذ بالطعن، وذلك عند دخوله مدينة دياربكر (٣٢).

ومازال النثار في الزفاف عادة جارية في كُردستان الى اليوم. أما إستقبال الضيوف وإحترامهم فإن إكرام الضيف من إحدى الخصال البارزة للكُرد كما أكد عليه المؤرخون. وكان الملوك الدوستكيون يحترمون الضيف ويوفرون له طيب الإقامة في بلادهم، وكانوا يستقبلون الوفود الرسمية بأنفسهم. حيث كان الأمير يخرج مع الوزير وكبار رجال الدولة الى خارج المدينة لإستقبالها، كإستقبال نصرالدولة في اليوم الثالث من عيد الأضحى سنة (٤٠٣ هـ) لوفود الدول الكبرى الثلاث: العباسية والفاطمية والبيزنطية (٣٣).

وقد خرج نصرالدولة بنفسه أيضاً لإستقبال السيدة أم الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) وإبنه (الذخيرة) ومن معهما، وذلك أثناء قدومهم الى الدولة الدوستكية كلاجئين في سنة (٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م)، بسبب إحتلال أبي الحارث البساسيري لبغداد وبالغ نصرالدولة في إحترامهم (٣٤). ووفر أيضاً طيب الإقامة في بلاده للملك العزيز البويهبي الملتجئ إليه وأنفق عليه أكثر من عشرين ألف دينار (٣٥).

وما إحترام نظام الدين للأمير الكُردي أبي الهيجا أمير أربيل إلا مثال بارز لإحترام الضيف وتقديره (٣٦).

(٣٠) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٨. ابن كثير، البداية ولا نهاية، ج ١٢، ص ٨٧. الخرجي، المسجد المسبوك، ورقة ٢٨ مخطوطة.

(٣١) أنظر الجزء الأول، ص ١٥٦.

(٣٢) الفارقي، ص ٧٦-٧٧. ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٥. وفيه نشروا عليه الدراهم.

(٣٣) الفارقي، ص ١٠٩-١١٠.

(٣٤) راجع الجزء الأول، ص ٢٣٤. والفارقي، ص ١٥٣.

(٣٥) التفصيل في الجزء الأول، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٣٦) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ٨٧-٨٨. راجع التفصيل في موضوع الزراعة الاتي.

أما الأمير منصور، فكان من عادته أن لا يستقبل شاعراً قدم إليه إلا في اليوم الثالث من قدومه، ويمهله حتى يجمع قريحته ويؤلف قصيدته في مدحه. وقد حدثت له قصة طريفة مع شاعر يدعى بالغسانی (٣٧).

أخيراً أعتذر للقراء إن لاحظوا عدم تطرقنا إلى أمور حساسة بالنسبة للحياة الاجتماعية وليصفحوا بسبب عدم الحصول على معلومات بصددها.

الفنون الجميلة

بلغ الغناء والرقص والموسيقى والتمثيل من (الفنون الجميلة) درجة عالية في كردستان الوسطى، أو في البلاط الدوستكي، وذلك بسبب إهتمام الدولة بها وخاصة في عهد نصرالدولة. وهو إهتمام إقتضاه الرخاء والإزدهار في البلاد والميل إلى الترف. حيث ذكر المؤرخون بأن نصرالدولة، الذي تربع على كرسي الحكم مدة (٥٢) عاماً، إشتري من المغنيات والراقصات وأهل الطرب من الجوارى بأثمان عالية بلغت آلاف الدنانير. فقد إشتري إحدى المغنيات بمبلغ أربعة عشر ألف دينار. وكان في بلاطه من "الآلات" (أي الآلات الموسيقية ووسائل التمثيل والزينة) ما يزيد قيمتها عن (٢٠٠) ألف دينار^(١)، أي ما يعادل حوالي عشرة ملايين دينار في الوقت الحاضر. وذكر الفارقي بأنه كان لنصرالدولة: "من المغنيات والراقصات والعمالات وأصحاب سائر الملاهي (كالموسيقى والتمثيل) ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين وكلما سمع بجارية مليحة أو مغنية مليحة نفذ وبالح في مشتراها ووزن أضعاف قيمتها... وكان رسمه أن يجلس للجند والعساكر يوماً يأكل ويشرب معهم إلى الليل ويجلس يوماً لبني عمه وأولاده وأقاربه وخاصته فيأكل معهم ويشرب إلى الليل ثم يخرج للمغنيات والراقصات وجماعة أصحاب الملاهي... ويرقصون ويلعبون بسائر الملاهي..."^(٢).

وكان محمد الدولة الأمير سعيد يحب الغناء أيضاً، وكان يلازمه المغنون في سفراته إلى هتاخ^(٣). وكان الغناء يلقي تشجيعاً كبيراً من أحد أكبر قضاة الدولة وأعلامهم منزلة، وهو القاضي حسين بن سلمه المالكي، الذي كان قاضياً للعاصمة فارقين ودياربكر في وقت واحد. وكان هذا القاضي يأخذ معه المغنين أثناء تنقله بين المدينتين^(٤).

(٣٧) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٣، ص٤٧-٥٤. أنظر الجزء الأول، ص٢٣٦-٢٣٧.

(١) راجع ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٢٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٦ حوادث سنة ٤٥٣هـ. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٣٦٧. الخزرجي، العسجد المسبوك، ورقة ٢٨. ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٩. بدرالدين العيني السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص٧٦. راجع أيضاً الجزء الأول من الدولة الدوستكية ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٣، ٢٦٧ التي تضم التفاصيل والمقتطفات من المصادر المذكورة.

(٢) الفارقي، ص١٧٠. ذكرنا التفاصيل في الجزء الأول.

(٣) نفس المصدر، ص٨٩.

(٤) راجع التفصيل في موضوع القضاء.

وبما أن المغنيات والحواري والراقصات قد عشن في بلاد مختلفة مع إنتمائهن الى أكثر من جنسية واحدة، فنظن أن الغناء في العهد الدوستكي كان بلغات مختلفة وأهمها الغناء العربي وكذلك شأن الرقص والتمثيل. أما الغناء الكردي فكان هو المنتشر في كردستان، ولكن لم يصل الينا شيء عن الأغاني والرقصات الشعبية الكردية، أو عن أغاني ورقصات القوميات الأخرى في البلاد الدوستكية. ولا أستبعد العثور على أغانٍ وقصص فولكلورية تمتد جذورها الى العهد الدوستكي، إذا ما بحث عنها بدقة في مناطق فارقين وديار بكر، مثل قصة زمبيل فروش وقصة زواج الأمير أحمد بن نظام الدين في الأسر^(٥). فالقصة الأولى تعود الى العهد الدوستكي، أما الثانية فإنها وإن وقعت بعدها إلا أنها تعد جزءاً من التاريخ الدوستكي.

أما الموسيقى، فقد كانت ملازمة للغناء وحظيت بالإهتمام هي الأخرى. ولاشك بأن نصرالدولة قد إشتري كثيراً من الآلات الموسيقية المختلفة المعروفة آنذاك، كالعود، والطنبور، والصنج، والرباب، والأوهر، والقانون، والناي (شمشال - بلور). والآلة الأخيرة، التي تعد من أقدم الآلات الموسيقية ذات الثقوب، عرفتها أغلب المدن القديمة^(٦)، وكانت موجودة في كردستان قبل العهد الدوستكي بمئات بل بآلاف السنين. ولا يزال الكردي يعتبرونه آلتهم الموسيقية الشعبية. أما العود تلك الآلة الشرقية القديمة المعروفة لدى المصريين القدماء والآشوريين والفرس والصينيين، فقد كان من الآلات الموسيقية الموجودة في كردستان في العصر الدوستكي وقبله. ويرى بعض الباحثين من ذوي الإختصاص في الموسيقى القديمة، بأن العود من إختراع الحوريين سكان كردستان القدامى وإنتقل من كردستان الى العراق وغيره. وإستندوا في رأيهم هذا الى آثار لآلة العود تم إكتشافها في كردستان تعود للحوريين، منها لوحة طينية عليها رسم عازف على عود وقد أمسك عوده بشكل أفقي. لقد إكتشفت هذه اللوحة في (نوزي) القريبة من كركوك، التي كانت عاصمة إقليمية للحوريين في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. ولكن الدكتور صبحي أنور رشيد أثبت بأن العود في العراق كان أقدم من العهد الحوري^(٧).

وقد ورد نص تاريخي حول كون العود من الآلات الموسيقية في كردستان في العهد الدوستكي من قبل الفارقي. فقد ذكر بأنه قدمت من مصر الى فارقين مغنية مع أستاذ لها يسمى فرج: "لم ير مثلها في الحسن والجمال ولا مثل صناعتها الغناء بالعود". وقد إستهامها نصر الدولة وتزوجها، وكانت تعرف بالفرجية^(٨). ولاشك أن الآلات الموسيقية المذكورة كلها أو بعضها أو أكثر منها كانت موجودة في البلاد الدوستكية إضافة الى الآلات ووسائل التمثيل، التي كان يستعملها الممثلون "أصحاب

(٥) راجع موضوع الطب: تأسيس مستشفى فارقين: الحاشية.

(٦) يوسف زكريا، الموسيقى العربية، ص ٣١.

(٧) صبحي أنور رشيد، الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، ص ٥٢.

(٨) في رأي البروفيسور شتاور أستاذ الموسيقى بألمانيا والباحث في تاريخ الآلات الموسيقية القديمة في الشرق القديم، أن العود من إختراع الحوريين وتبعه تلميذه أيجن في ذلك بالإستناد الى آثار العود المكتشفة العائدة لهم في منطقتهم الممتدة من بحيرة وان حتى شمال العراق حسب تحديده. والتفاصيل في تاريخ الآلات الموسيقية للدكتور صبحي أنور. وراجع أيضاً كتابه الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، ص ٥١، ٥٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٠ و ٧٣ وفيه صورة للوحة المذكورة شكل (٣٤).

الملاهي" في ذلك العصر.

وفي رأي أن التقدم الذي حصل في الفنون الجميلة لم يكن تأثيره منحصرأً على البلاط الدوستكي، بل دخل الى قصور الأغنياء في فارقين ودياربكر وغيرها، وتسرب الى الأوساط الشعبية وخاصة في مجال الرقص. ولعل آثاره قد بقيت في كردستان حتى بعد زوال البلاط الدوستكي (٩).

وبشير الجغرافي ابن سعيد المغربي الى إشتهار مدينة دياربكر بالفنون الجميلة بقوله: "إنها مشهورة بأغنياء التجار وكثرة الملاهي والمساحر (١٠)". وقد أبدى المذكور إشارته هذه بعد مرور حوالي مائة وستين عاماً على العهد الدوستكي. وإن تفوق الكرد في كردستان تركيا الآن في الرقص والغناء على سائر الأقاليم الكردية، ربما يعود سببه الى تأثيرات العهد الدوستكي.

أما الزخرفة والنحت من الفنون الجميلة في الدولة الدوستكية، فلم نجد لهما أثراً سوى ما كان على سور دياربكر. كما إن الزخرفة توجد على سور فارقين والجامع الكبير في فارقين. وكذلك على قصر نصرالدولة، الذي بناه سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢-١٠١٣م). وقد ذكر الفارقي في الصفحة (١٠٨) أنه زوق القصر (أي نقشها بالزخارف) وأجرى في حيطانه وسقفه الذهب، أي كانت بعض الزخارف من الذهب. وسيأتي البحث عنهما في موضوع فن العمارة.

الإقطاع

لقد كان الإقطاع موجوداً في الدولة الدوستكية، فمثلاً أن قرية العطشى، التي ما زالت موجودة بهذا الاسم في منطقة فارقين، كانت إقطاعاً إشتهرها نصرالدولة من بعض الإقطاعيين لا من الفلاحين وجعلها وقفاً على الفقراء. وكذلك قرية بني نوح، التي إشتهرها التاجر ابن البهات وجعلها وقفاً على حصون آكل واليماني والجاتره، كانت من الأراضي الإقطاعية ومعروضة للبيع (١). أما هتاخ (أنتاخ، عتاق)، فكانت إقطاعاً لشيروه أقطعه إياها ممد الدولة (٢)، كما أعطى أخاه الأمير أحمد (نصرالدولة) قرية (سعد) على سبيل الإقطاع (٣). وفي عهد نظام الدين، كانت (أرزن) إقطاعاً للأمير أبي الفوارس أحمد بن شبل بن إبراهيم زوج الأميرة زبيدة بنت نصرالدولة (٤). كما كانت بدليس إقطاعاً من نظام الدين للأمير هبة الله بن موسك بن محمد بن كهك (٥) الذي وكان من العائلة

(٩) الفارقي، ص ١٢٢. وفي كتاب للأستاذ محمد توفيق ووردي "نماذج التراث الشعبي الكردي" ذكر لأسماء (٢٤) رقصة كوردية لدى الكرد الكرمانج. راجع ص ١٣٧ منه.

(١٠) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ١٧١.

(١) الفارقي، ص ١١٥، ١٦٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٨٨ ورد إسمه شيروين في كتاب الأزمنة، لإيليا برشنايا ورقة ٤٩ باللغة السريانية. نسخة مخطوطة محفوظ في مكتبيتي.

(٣) نفس المصدر، ص ٩١.

(٤) نفس المصدر، ١٨٠.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٠٣.

المروانية الحاكمة. كما منح نظام الدين أخاه الأمير سعيد إقطاعاً كثيراً^(٦). وهكذا أعطانا الفارقي نماذج كافية من الملكيات الإقطاعية في كردستان في العهد الدستوري. أما طبيعة هذا الإقطاع، فلا بد أنها لا تختلف بصورة عامة عن طبيعة الإقطاعات التي كانت موجودة في الدول الإسلامية في ذلك العصر. وقد كان للإقطاع أنواع مختلفة هي:

١- إقطاع عن طريق إحياء الأرض الموات: أي التي لم تُستغل مطلقاً أو استُغلت في زمن ما، ومن ثم تُركت بعده ونُسي صاحبها. وقد اختلفت المذاهب الفقهية في تملك هذا النوع من الإقطاع.

٢- إقطاع إستغلال (الطعمة): وهو أن يقطع الملك أرضاً لأمير أو غيره يستغلها مدى حياته حتى إذا مات إسترجعت بعده..

٣- إقطاع إيفار: وهو عبارة عن ضيعة ممتازة يحميها الملك من العمال بحيث تُعامل بصورة إستثنائية ويُفرض عليها سنوياً مقدار معلوم يؤدي إلى خزينة الدولة.

٤- الإقطاع العسكري: كان الإقطاع من حيث التملك يختلف بعضه عن بعض، فمن الإقطاعات ما كان وراثياً ينتقل إلى ورثة الإقطاعي بعد مماته، ومنها ما كان لمدى الحياة تسترجعه الحكومة بعد وفاته، ومنها ما كان وقتياً ومرهوناً بإخلاص صاحب الإقطاع للحكومة وبقائه في منصبه^(٧).

لقد نشأ الإقطاع في كردستان في العهود السابقة، ولهذا فإن بعض الأراضي السلطانية والأميرية التي كانت من نوع (إقطاع الإجماع)^(٨) أُمست في حوزة الدولة الدستورية. فكانت تقطع قسماً منها لمن تشاء ويبقى القسم الآخر تحت سيطرتها المباشرة، وتعطيها للفلاحين كي يستغلوها بطريق (المقاسمة) بالنصف أو بأقل منه في أغلب الأحوال. وقد ورثت الدولة الدستورية هذه الإقطاعات من الدولة البويهية، علماً أن الكثير من الأراضي الزراعية من الملكيات الخاصة تحولت إلى ملكيات إقطاعية في عهد الحمدانيين، الذين إستولوا عليها وأخذوها من الفلاحين بأساليب مختلفة، كقسم

(٦) نفس المصدر، ص ١٨١.

(٧) راجع القاضي أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢١٢-٢١٣. مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢٠، مقالة بعنوان نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية للدكتور عبد العزيز الدوري. الدكتور حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٢١٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١١٣، وفيه أن لإقطاع الإستغلال حالات ثلاث منها أنه يبقى لورثة الإقطاعي بعد وفاته. علي أمير، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٧١. جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٢٢، مجلة المورد، مجلد ٤، عدد ١، ١٩٧٥، مقال بعنوان التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق. إيران، بقلم المستشرق س. أي. بوزوروث.

(٨) إقطاع الإجماع هو أن يسجل الفلاحون أراضيهم بإسم الملك أو أحد الأمراء تخلصاً من ظلم عمال الحكومة، الذين يجمعون الخراج السنوي ويأخذون منهم معظم حاصلاتهم. وبهذا كانوا يصبحون مزارعين بدون أرض، كما سجل أهل زنجيان أراضيهم بإسم والي القاسم بن الرشيد، فكانوا يدفعون له العشر. وكما سجل سكان مراغة في أذربيجان أراضيهم بإسم مروان بن محمد الأموي. ويسبب ظلم العمال، فإن قسماً كبيراً من الأراضي الزراعية تحولت بهذه الطريقة من أراض زراعية إلى ضياع سلطانية خاصة. راجع جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٢٢. راجع ما يأتي بهذا الصدد في موضوع الزراعة.

أراضي نصيبين^(٩). وإستولت الدولة البويهية على إقطاعات الحمدانيين. ويحتمل أن الإقطاع العسكري^(١٠) نشأ في الدولة البويهية وأخذته الدولة الدوستكية عن الدولة البويهية. ومن المحتمل أن الدولة أقطعت بدليس للأمير أبي الفوارس وأرزن للأمير هبة الله على سبيل الإقطاع العسكري.

(٩) راجع ما يأتي بهذا الصدد في موضوع الزراعة.

(١٠) الإقطاع العسكري هو أن يقطع الملك ضياعاً أو مقاطعة كبيرة أحياناً لأحد الأمراء مقابل إرساله مقداراً من المال الى خزينة الدولة سنوياً، ومقابل إعطائه رواتب ونفقات الجنود، الذين يقودهم لنصرة الحكومة عند الضرورة، في تلك المقاطعة. ومن هذا الإقطاع تلك الأراضي التي تعطى للجنود أنفسهم. وكان الإقطاع العسكري موجوداً في الدولة الساسانية قبل الإسلام، أما في العهد الإسلامي، فتذكر المصادر التاريخية بأن الإقطاع العسكري نشأ في العهد البويهي وإستكمل في العهد السلجوقي في القرن العاشر والحادي عشر للميلاد، حيث كانت الدلة السلجوقية توزع المناطق التي تحتلها على الأمراء وقادة الجيش وتصبح المدن والمناطق إقطاعات لهم يتصرفون بها تصرفاً مطلقاً بالسلب والنهب، كما فعلوا ذلك بالبلاد الدوستكية إثر إحتلالها.

الفصل الرابع

الديانات

الديانة الإسلامية

الديانة المسيحية

الديانة اليهودية

الديانة الزردشتية

كانت هذه الديانات الأربعة موجودة في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية. وبالنظر لوضوح كيفية إنتشار الديانة الإسلامية، لا حاجة بنا الى البحث عنها، ولكن نبحت عن التشيع فيها. أما الديانة اليهودية، فقد دخلت كُردستان مع المهاجرين من اليهود، الذين رحلتهم الدولة الآشورية من فلسطين الى كُردستان كما سلف في موضوع الحياة البشرية، فلا حاجة بنا لهذا الى البحث عنها أيضاً. أما الديانتان المسيحية والزردشتية، فأرى البحث عنهما ذا فائدة غير قليلة، علماً أن البحث عن الديانة الزردشتية في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي غير مطروق أيضاً.

التشيع

كان التشيع كمذهب موجوداً في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية، ولو على نطاق ضيق، لما نجد له أثراً في عهدها. فالأمير (البهتي) أبو عبدالله حسين بن داود البشنوي، الذي وصفه ابن الأثير بشاعر بني مروان (الدوستكيين)، كان شيعياً من فرقة الإمامية (الإثنى عشرية)^(١)، وله أشعار كثيرة في التشيع. ولهذا إعتبره مؤرخو الشيعة أحد أعلامهم وشعرائهم ودونوا له قصائد عديدة في هذا المجال، لاسيما (ابن شهر آشوب) المتوفي سنة (٥٨٨هـ = ١١٩٢م)، والقريب من العصر البشنوي. ولا حاجة أن ندرج هنا قصائده بهذا الخصوص، بل يكفي الإستدلال بالبيت التالي، الذي ورد في إحدى المقطوعات الكثيرة الواردة في كتاب المناقب لابن شهر آشوب، ثم نقله عنه آخرون مثل السيد محسن العاملي في (أعيان الشيعة، ج٢٦، ٢٨-٣٣). والبيت هو:

(١) كانت للشيعة فرق كثيرة مختلفة تزيد على الخمسين، ولكنها تتجمع في خمس فرق رئيسية هي: الإمامية والزيدية والإسماعيلية والكيسانية والغالية. وكل فرقة منها تنقسم الى فرق عديدة. فالغالية مثلاً، أي الفرقة التي تغالي في الأئمة وتحكم فيهم بأحكام الألوهية، تنقسم الى (١١) فرقة عند الشهرستاني و(١٥) عند أبي الحسن الأشعري و(٢٤) عند شاه عبدالعزيز الدهلوي صاحب كتاب التحفة الإثنى عشرية. ولم يبق الآن إلا عدد قليل منها، وأكثرها إنتشاراً الآن هي (الإمامية) التي تعتبر المذهب الرئيسي للدولة الإيرانية.

"أتيت ربي بالهدى متمسكاً بإثني عشر بعد النبي مراتباً

وله مقطوعات في (الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج ١، ص ٢٥٤. تأليف آغا بزرك الطهراني). ومن الطبيعي أن نتوقع من الأمير الشاعر محاولة نشر عقيدته أيضاً، سيما وأنه كان يمتلك إمكانية نشرها بفضل مركزه الاجتماعي المرموق كأمر بارز وشخصية مقربة من الأسرة الدوستكية الحاكمة، وبفضل مكانته العلمية والأدبية وبفضل قصائده الرقيقة المؤثرة وكان شاعراً مقلداً.

أما العالم الكردي يحيى بن سلامة الحصكفي خطيب فارقين، فكان هو الآخر يعتقد بمذهب الشيعة الإمامية وله قصائد في التشيع. وقصيدته الدالية التي توجد في (المنتظم) وفي (البداية والنهاية) وغيرهما، خير دليل على ذلك. فقد نظم تلك القصيدة في مدح أهل البيت ومقتل الحسين وذكر أسماء الأئمة الإثني عشر. وبعد ذكره لأسماء الأئمة الإثني عشر صرح باعتقاده بإماميتهم وكونهم حجة الله على خلقه... حيث قال:

فلا يظن رافضي أنني وافقته أو خارجي مفسد

ولكن مع هذا كان الحصكفي شافعي المذهب. والجدير بالذكر أن مؤرخي الشيعة يعتبرونه أيضاً من مشاهير الشيعة، ولذا نجد له ترجمة في تواريخهم. ومما تجب الإشارة إليه، هو أن الحصكفي قد أدرك العهد الدوستكي، ولكنه كان تلميذاً وظهر نبوغه بعد سقوطها (٢).

(٢) ولد يحيى بن سلامة بن حسين في قرية طانزه (بلدة طنزة)، الواقعة في القسم الشمالي من بوتان، وذلك سنة (٤٦٠هـ = ١٠٦٨م). وسكن مدينة فارقين وتولى الخطابة فيها وأصبح مفتياً. نشأ في بلدة حسنكيف (حصن كيفا)، ولقب الحصكفي نسبة الى مدينة حصن كيفا في إقليم ديار بكر. لقد كان الحصكفي من كبار مشاهير عصره لا في الشعر والأدب والخطابة فحسب، بل في الفقه واللغة وعلوم أخرى أيضاً. وقد وصفه عماد الدين الكاتب الاصفهاني بمعري عصره وأطنب في وصفه وأبدى إعجابه به، ودون ترجمة له في (خريدة القصر، ج ٢، ص ٤٧٢، ٥٤٠)، أي في ثمان وستين صفحة، وأورد كثيراً من قصائده ومقتطفات من رسائله. ولم يكن الحصكفي من الطراز الأول في الشعر والأدب فقط، بل كان مبتكراً لكثير من التعابير في هذا المجال أيضاً. وكان له أسلوب خاص في الشعر ومذاهبه كما قال العماد، وإستدل على ذلك بمقطوعته الخمرية، التي شاعت في حياته في العراق واصفهان وبلاد أخرى والتي أولها:

وخليع بت أعزله ويرى عزلي من العبت

وله مقطوعة شعرية يقول فيها:

أشكو الى الله من نارين واحدة في وجنتيه وأخرى منه في كبدي

ومن سقمين سقم أحل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي

أعطاه المؤرخون مكانته اللائقة في التاريخ ووصفوه بما يستحقه. ومن هؤلاء ابن الجوزي الذي أدرك عصره، حيث قال: "هو إمام فاضل في علوم شتى وكان ينسب الى الغلو في التشيع". وللحصكفي من المؤلفات: عمدة الإقتصاد في النحو، والرسائل، وديوان خطب وديوان شعر. وكان يوجد له ديوان شعر مخطوط في جامع الباشا بالموصل. وله أيضاً كتاب المقامات. وذكر ابن الجوزي أنه لما ورد الى بغداد قرأ شيئاً من مقاماته على أبي زكريا التبريزي، المتوفى سنة ٥٠٢هـ، فكتب التبريزي على كتابه: "قرأ علي ما يدخل الأذن بلا إذن" أي إعجاباً منه بمقاماته. ويقال أنه قرأ الأدب على التبريزي تلميذ المعري. وذكر الاصفهاني له مقامة طويلة أولها "كنت لفرط الهيام في بعض الأيام صدري ضيق وفؤادي شيق". أنشأ على لسان "القصار والصيد" وكتبها الى بعض القضاة كرسالة الى الحضرة القاضية والشامل الرضية، ولعلها هي مقاماته التي ذكرها ابن الجوزي أو جزء منها. هذا وإشغل الخطيب يحيى =

ونقف بعد العهد الدستوري بفترة قصيرة على إنتشار المذهب الإسماعيلي الشيعي (٣) في دياربكر، ونرى كثرة معتنقيه. فقد ذكر المؤرخون أن في سنة (٥١٨هـ = ١١٢٥م) حدثت مذبحة في مدينة دياربكر، كانت نتيجتها قتل سبعمائة رجل من الإسماعيلية (٤). وفي الوقت الذي قال عدد من المؤرخين إن الذين قاموا بالمذبحة هم سكان دياربكر (٥)، أي إن القتال حدث بين السنة والشيعية الإسماعيلية، قال الذهبي أن الجيش هو الذي قام بالمذبحة في مدينة دياربكر والمناطق التابعة لها (٦). وفي نفس السنة مات حسن بن الصباح صاحب قلعة (الموت) في إيران، ومؤسس الفرقة الإسماعيلية النزارية، وكان هذا ينظم الدعوة الإسماعيلية في إيران وسورية ودياربكر (٧)، أي إنه كان ينظم الدعوة في كردستان أيضاً. إن الحادثة المذكورة التي وقعت بعد الدولة الدستورية بأربعين سنة بالضبط تدل على مدى إنتشار الشيعة الإسماعيلية في دياربكر. وأن هذا الإنتشار لم يحدث بين عشية وضحاها. والأكثر توقعاً أن بدايته تعود الى العهد الدستوري إن لم تكن قبله، لاسيما إذا علمنا أن الدولة الفاطمية في مصر والشام كانت دولة إسماعيلية وعملت على توسيع مذهبها في البلدان الواقعة شرقي الأبييض المتوسط. وكانت لها علاقات صداقة مع الدولة الدستورية، إلا في فترة أشرنا إليها سابقاً. ولا أرى أن الدولة الدستورية كانت تكافح مذهبها وإعتناق بعض أفراد شعبها إياه، في حين أنه دخل معظم مدن المنطقة سراً أو علناً. ومن المحتمل أيضاً بأن التشيع قد دخل كردستان في عهد الدولة الحمدانية الذي سبق العهد الدستوري، حيث إن الحمدانيين وعلى رأسهم سيف الدولة كانوا يميلون الى التشيع. لذا سمحوا بإنتشاره في البلاد التي تحت حكمهم "ودخل الشيعة حلب قبل عهد الحمدانيين وإنتشر وقوي في عهدهم" (٨).

ومن غير المعقول أن نقول أن الشيعة لم تدخل كردستان، في حين إنها دخلت الأراضي المتاخمة لها جنوباً وغرباً. فقد "إرتفع شأن الشيعة بالحمدانيين في الموصل وحلب، وكان أهل حلب سنةً حنفيّة، ولما

=بن سلامة بالتدريس في فارقين أيضاً، فدرس وتخرج عليه كثير من العلماء. ومن تلامذته المشاهير الأعلام سلامة بن قيصر السنجاري، وعسكر بن أسامة النصيبي، وخضر بن ثروان. وتوفي في فارقين سنة (٥٥٣هـ = ١١٥٩م) عند معظم المؤرخين. وكان له ابن فاضل وهو الخطيب (مجد الدين أبو عمران موسى)، ذكره أسامة بن منقذ في (كتاب العصا) وإجتمع به في ضاحية فارقين، وقال أنه توفي سنة (٥٦١هـ = ١١٦٧م). وكان أخوه أبو محمد حسن بن سلامة أيضاً عالماً. أما والده أبو نصر سلامة، فيظهر من قصيدة يحيى التي أرسلها الى أخيه يعزبه عن أبيه، أنه من كبار العلماء. وهذه القصيدة وقصائد أخرى في (المنتظم) لابن الجوزي، ج ٩، ص ١٩٣-١٨٨. وله ترجمة في العديد من المصادر التاريخية، كمشاهير الكرد وكردستان، ج ٢، ص ٢٢١ لمحمد أمين زكي وغيره.

(٣) الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة تقول بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق، ومن هنا إفتقرت عن الإثنى عشرية. وإشتهر الإسماعيلية بالباطنية أيضاً، لأنهم يقولون أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، كما عرفت بالقرامطة والمزدكية. ويوجد الآن معتنقو هذا المذهب في سورية ولبنان وإيران وباكستان وغيرها.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٩، ص ٢٤٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣١٧. ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٢٢٦.

(٦) الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ٣١.

(٧) مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص ١٦٩.

(٨) محمد جواد مغنیه، الشيعة والتشيع، ص ٢٢٠.

جاء سيف الدولة صار فيها شيعة وشافعية" (٩). فكما إن حلب والموصل كانتا عاصمتين للحمدانيين، كذلك أصبحت مدينة فارقين عاصمة سيف الدولة، بعد إحتلال البيزنطيين لعاصمته (حلب) ولم يرجع الى حلب، بل ظل في فارقين الى أن مات فيها.

إن الدولة الدوستكية وإن كانت سنية المذهب، إلا أنها لم تكن متعصبة له ولم تكن ضد الشيعة، فأحد وزرائها كان شيعياً، وهو الوزير أبو القاسم حسين بن علي المغربي. وكانت الدولة الكرديّة ديمقراطية تجاه الأديان والمذاهب الأخرى. أما مذهب (علي إلهي) الذي كان يعتنقه قسم كبير من الكُرد، وخصوصاً كُرد زازا من كُردستان تركيا من ولاية دياربكر وولاية تونجلي (ديرسم) وألعزير وغيرها، فراجع ما كتبناه في موضوع الحياة البشرية.

الديانة المسيحية

إن تاريخ إنتشار الديانة المسيحية في كُردستان يعود الى القرن الأول للميلاد، فقد وصلت الى كُردستان في عهد المسيح. والذي قام بالتبشير بها ونشرها هو مار أدي "تداوس" تلميذ المسيح، وذلك حينما أرسله الى مدينة الرها (أورفا) حوالي سنة (٢٩م)، وكانت عاصمة الملك أيجر الخامس، الذي كانت حكومته آنذاك جزءاً من الإمبراطورية الفرثية (١).

ولما شفى الملك أيجر المريض على يد أدي، إعتنق الديانة المسيحية مع عدد كبير من سكان عاصمته. واصل مار أدي رحلته شرقاً، فبشّر بالدين الجديد في نصيبين وأشور وحدياب (٢)، التي مركزها مدينة أربيل. وكان لأدي عدة تلاميذ منهم ماري وأكاي. وجاء في تاريخ أربيل لمشيحا زخا (القرن السادس الميلادي)، أن أدي بشّر بالإنجيل في حدياب (٣). وأول من تنصّر، أي آمن

(٩) نفس المصدر، ص ١٨٦.

(١) الرها هي مدينة أورفا الحالية، وهي إحدى المدن الكرديّة الواقعة في كُردستان تركيا. بلغ نفوسها (٧٣) ألف نسمة حسب الإحصائية التركية لسنة ١٩٦٥. وهي مدينة تاريخية قديمة كان إسمها باليونانية (أدسا - أوديسا) وبالسريانية (أورهاي) وبالأرمنية (أورهي). فإسم أورفا منحدر من الإسم السرياني، وكانت عاصمة لمملكة صغيرة عُرفت ببلاد (أوسرهوين). وقد أسست دولة (أوسرهوين) الصغيرة قبل (١٣٣) سنة قبل الميلاد ودامت (٣٥٢) عاماً وهناك خلاف حول بدايتها ونهايتها وأول ملوكها هو (أورهاي برحوبا) وقيل (اربو). وكانت مملكة أوسرهوين تقع في منطقة الحدود، والنزاع بين الفرس والرومان. فكانت تخضع للجانب المنتصر منهما حسب الظروف. وكان ملوكها إرتباط مصاهرة قوية منذ أواخر القرن الأول للميلاد بدولة (أديابين) التي كانت تحكم آنذاك مدينة نصيبين حتى منطقة كركوك وكانت عاصمتها أربيل. وكان اليونان يسمونهم طورباخ أو فولارخ. أما سكان أورفا قبل إعتناقهم المسيحية، كانوا يعبدون الكواكب مثل سكان حران كما كان على نقود دولة أوسرهوين قبل المسيحية رسم القمر والكواكب الثلاثة رمزاً لعقيدتهم. راجع دائرة المعاف الإسلامية، ج ١، ص ٢٦٦ وإيشو مالك خليل، الآشوريون في التاريخ، ص ٧١. أدرجنا صورة المدينة وصورة مقام إبراهيم الخليل في الجزء الأول، ص ٢٠٤، ٢٠٨.

(٢) أفرام برسوم، المورد العذب في موجز تاريخ الكنيسة، ص ٢٩، ٩٣. إيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ٦٩، ٧٠. راجع أيضاً بطرس نصري الكلداني، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشاركة والمغاربة السريان، ج ١، ص ٣٦.

بالمسيحية، في أربيل على يد أدي كان يهودياً إسمه (بقيدا)، الذي أصبح مطراناً عليها بعد أن تنصر أناس من سكانها ومن سكان جبال أربيل(٤).

وسافر أدي وبرفقته تلميذه ماري الى بيت كرماي (منطقة كركوك)(٥) ونشر المسيحية هناك. ولما توفي أدي تداوس خلفه تلميذه أكاي، الذي قتل بأمر من إبن الملك أيجر، الذي تولى الحكم بعد وفاة والده وكان متعصباً للوثنية. وكان (أكاي) أول من تولى أسقفية الرها. أما ماري فقد أصبح أكبر مبشر بالمسيحية في كُردستان بعد وفاة أستاذه، ومما بشر فيها أرزون (أرزن - غرزان)، حيث كانت مركز إقليم دياربكر ونصيبين آنذاك(٦). وجعل ماري أخيراً مركز تبشيره في ساليق، أي عند المدائن في (سلمان بك) في العراق. وكان له عدة تلاميذ من بينهم (توماس) و(فيليبوس)، وقد فوض إلى الأول مهمة التبشير في داسان(٧)، أي جبال داسن في منطقة بهدينان، وعلى رواية في زوزان وكوار

(٣) حدياب إسم أطلق على المنطقة الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير وبين نهر دجلة وحدود أذربيجان الجنوبية، أي على منطقة أربيل. وسماها العرب (حزة). وحسبما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٥٧٨، أن لفظ حدياب متدرج من إسم أديابين التاريخي القديم. وعند بعض المؤرخين القدامى، كالمؤرخ البيزنطي أميانوس، تشمل أديابين أيضاً منطقة الموصل. حيث أطلقها على بلاد آشور وإسم حدياب عنده مشتق من إسم نهر حدياس. راجع مجلة سومر مجلد ٢٦ ج١ ص١٤٣: مقال للدكتور سامي سعيد الأحمدى بعنوان: العراق في كتابات اليونان والرومان. وسعيد نفيسي: تاريخ تمدن إيران ساساني، ص٣٧ باللغة الفارسية. وطه باقر وفؤاد سفر: المرشد الى مواطن الآثار، الرحلة الخامسة، ص٤.

(٤) ميشحا زخا: أحوال كنيسة أربيل، مخطوط سرياني قديم نشره بطرس عزيز مطران زاخو في مجلة النجم، راجع عدد ٩-١٩٢٩ و٨ من نسخة إبن المترجم التي أهداها بطرس عزيز للباحث الكبير المرحوم كورجيس عواد وعندي نسخة مصورة عليها.

(٥) بيت كرماي: وياكرما إسم سرياني للمنطقة الواقعة بين الزاب الصغير ونهر ديالى، وبين جبل أوروخ (سلسلة جبل حمرين - جبل بارما) وجبل لارب وشنعار، وقاعدتها كرخ سلوك (كركوك). وورد الإسم أيضاً بصيغة باجرمي وياجرمق وهي تعريب باكرما. ويعتقد أن باجرمي مشتق من لفظ كرمكان، الذي كان يطلق على المنطقة نفسها في لغة فارس الوسطى. وهذه الصيغة مشتقة من إسم كرمو (كهرمو)، وهم قوم رحل ورد ذكرهم في النقوش السامرية وفي كتاب بظليموس، كما في دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص٢٥٩. أما جبل لارب فهو (سلسلة جبال بازيان) وأما شنعار فسلسلة جبال (سه گرمه) الحد الجنوبي لمنطقة قهره داغ. هذا وإذا صح أن الفرس كانوا يطلقون في العصور المسيحية إسم كرمكان - كهرمكان - على منطقة كركوك، فإن هذا الإسم مازال حياً في كُردستان، إذ يطلق الكُرد إسم كهرميان على نفس المنطقة، والحقيقة أنه جاء من إسم القوم (كهرمو) وليس من الكلمة الكُردية (كهرم) بمعنى الحار، نقبض (كوتستان - زوزان) الذي يطلق على المناطق المعتدلة صيفاً والتي تترادها القبائل الرحل على ما يتوهمه الكثيرون. راجع بصد بيت كرماي إيشو مالك خليل، الآشوريون في التاريخ، ص٩٧ وروفاثيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١١ وكتابتنا، المنهج التاريخي لكتابة تاريخ المدن، مخطوط. هذا وفي المصادر المسيحية أسماء أماكن تاريخية في منطقة باكرما: مثل (شهر قرد - شهر كرد)، (حر بغلال) في ناحية لارب شرق كركوك أو (دراباد) و(لاشوم) قرب داقوق، و(تحل) جنوب غرب كركوك، و(ماحوزأريون- ماحوز أرنون) وهي بوازيح على ضفة الزاب. وبيت نيكاتور في شمال كركوك في خانيجار، و(بوزان) ومحلها مجهول.

(٦) في المورد العذب في موجز تاريخ الكنيسة، ص٩٣ لأفرام برصوم: أن أدي أدخل المسيحية في إقليم دياربكر وحتى حدود الجزيرة أي (بازيدا).

(گهفهري) (٨)، بينما فوّض الأخير مهمة التبشير في قردو أي (بوتان) وأرمينيا (٩). وهكذا بدأت الديانة المسيحية تنتشر في كردستان منذ القرن الأول للميلاد. ونشأت في كردستان ثلاث مراكز مهمة لنشر الديانة المسيحية، ليس فيها فحسب بل في البلدان الأخرى أيضاً كبلاد فارس، وهي: الرها ونصيبين وأربيل. ولمدينة الرها (أورفا) مكانة مرموقة في التاريخ المسيحي، لما أسلفنا ولأن اللهجة الآرامية السريانية الشرقية، التي أصبحت اللغة الدينية للمسيحيين في كردستان العراق وإيران والبلدان الشرقية الأخرى، قد إنطلقت من أديسا (الرها). كما إن الكتاب المقدس (الإنجيل) قد كُتب ونُقل بالسريانية السائدة في أديسا أيضاً (١٠). وكان لمدرسة أديسا فضل كبير في هذا المجال، إذ كان يؤمها الطلاب من أقطار شتى. وكان أكثر أساقفة الفرس من خريجيها. وقد تم في تلك المدرسة ترجمة كتب يونانية إلى اللغة السريانية (١١)، وأدخلت على منهجها السرياني في القرن الخامس الميلادي تعليم اللغة اليونانية والفلسفة وسميت أثينا سورية (١٢).

(٧) داسان كما تحددها المصادر الإسلامية هي جبال داسن الواقعة شمال شيخان وأطلق على اليزيديين إسم الداسنيين كما سيأتي ذلك. ولا بد من الإشارة إلى أن بعض المؤرخين أطلقوا إسم جبال داسن على كافة الجبال الواقعة بين شيخان والعمادية. أما المصادر الكنسية فتطلق (دسان - داسان) العليا على الجبال الهكارية الواقعة جنوب (گهفهري)، وبضمنها منطقة تيارى كما في (مجلة الشرق، مجلد ١٢، ص ٥٠٠)، فكانت داسان العليا وداسان السفلى. وداسان السفلى هي منطقة بهدينان وهذا التحديد أو التقسيم الكنسي يقابله في المصادر الإسلامية القديمة هكاري العليا - كلها تقريباً - وهكاري السفلى أو الجنوبية، أي منطقة بهدينان الحالية حتى القرن الثاني عشر. أما أصل كلمة (داسان) فمن (ديوسنا، ديوهسنا) أي عبادة الديو (دئو) أي أهرمين. وكان عند الأريين قبل زمن زردشت ديانتان رئيسيتان هما (مزديسنا) أو (مهزديهسنا) بالإملاء الكردي، أي عبادة الإله العاقل وإله الخير والنور. وكانت عبادته منتشرة بين الحضرة سكان المدن وبين الفلاحين. بينما كانت عبادة (ديو - أهرمين - الشيطان) أي إله الشر والظلام منتشرة بين القبائل المحاربة المتأخرة. ولما كانت ديانة القبائل الكردية في بهدينان بصورة عامة في وقت ما، أي قبل المسيحية، (ديوسنا) أي يزيديون، فقد سميت المنطقة بإسم (ديوسنا، دسان وداسان) كما سنذكر ذلك في موضوع الديانة الزردشتية. نشأ إسم داسن لتلك الجبال بعد العهد الآشوري وبعد إنتشار (ديوسنا) بين سكانها، أو بعد نزوح قبائل كوردية متدينة بهذه الديانة إليها. لأن إسمها كان جبال مسوري (مسري) على ما جاء في كتابة لسرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) بخصوص بنائه لمدينة خرساباد (دور شاروكين) ونص الكتابة في ص ٢٢-٢٣ من (بلاد آشور) لأندريه بارو، ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبع بغداد ١٩٨٠. وما زال إسم (مسوري - مزوري) يطلق على قبيلة كوردية كبيرة هناك.

(٨) الأب ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج ١، ص ١٩.

(٩) إيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ص ٧٠. المقصود ب(كردو) هو على ما في المصادر الكنسية (قردو - قردا)، وهي منطقة سلوبي والجودي وبوتان، وليست كردستان كلها.

(١٠) نفس المصدر، ص ٦٠.

(١١) دي لاسي أولبري، علوم اليونان وسبل إنتقالها إلى العرب، ص ٦٥، أفرام برصوم، المورد العذب، ص ٣٢٩.

(١٢) أنشأ مدرسة الرها اللاهوتية مار أفرام مدرس مدرسة نصيبين، الذي فر منها بعد إحتلال الفرس لها سنة (٣٣٦م). ونشأ منها كثير من العلماء وإشتهر فيها أساتذة، مثل هيبيا وإسمه في اليونانية إيباس، الذي ترجم كتاب (إيساغوجي فور فورسيون) إلى السريانية، وكان المدخل إلى المنطق، كما ترجم كتاب العبارة لأرسطو، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. بخصوص مار أفرام ومدرسة الرها، راجع (مهرجان أفرام وحنين) من مطبوعات مجمع اللغة السريانية ببغداد ١٩٧٤، والكتاب يحتوي على مجموعة من البحوث التي كتبها مجموعة من الباحثين الشرقيين والمستشرقين بمناسبة مهرجان أفرام وحنين، الذي أقامه المجمع المذكور في السنة المذكورة. راجع أيضاً البطريك يعقوب الثالث، الحقائق الجلية، ص ١١.

أما نصيبين (نصيبين)، فقد أصبحت منذ أوائل القرن الرابع مركزاً للكرسي الأسقفي. وتوسع نفوذها بمرور الزمن، حتى صارت المركز الديني الأعلى في كُردستان الوسطى، من سنجار الى مكس وخلاط، أي حتى السواحل الشمالية لبحيرة وان. فقد أصبحت كرسياً ميترولوجياً ومركز أبرشية تدعى (أبرشية بيت عريابي) وكان يتبعها عشرون كرسياً أسقفياً^(١٣).

وكانت نصيبين تضم مدرسة ذات شأن خطير أنشأها الأسقف يعقوب، الذي خلف الأسقف الأول يهوذا بن باثيرا. وقد أنشأ يعقوب المدرسة على نمط مدرسة الإسكندرية، لتكون مركزاً لنشر اللاهوت اليوناني بين المسيحيين. وتوسعت حتى أصبحت في القرن الخامس أكبر مدرسة نسطورية عملت على نشر المذهب النسطوري في كُردستان العراق وإيران وغيرهما من بلدان الشرق. وبلغ عدد طلاب تلك المدرسة أحياناً ما لا يقل عن ثمانمائة طالب من أقطار عديدة. وكانت تضم أيضاً مستشفى (بيمارستان) في القرن السادس الميلادي^(١٤).

ويظهر أن نصيبين ظلت كرسياً ميترولوجياً للنساطرة حتى عهد الدولة الدوستكية. فقد كان المطران يقيم فيها في عهدها. ولكن لانعلم هل كانت كافة المراكز المسيحية النسطورية في البلاد الدوستكية تابعة لها أم لا؟ وكان مطرانها في عهد نصرالدولة (إيليا بن عيسى)، الذي كان يتمتع باحترام فائق في الدولة الدوستكية، ولاسيما وإنه كان أخصاً للطبيب زاهد العلماء أبي سعيد منصور بن عيسى رئيس أطباء الدولة الدوستكية ومدير مستشفى فارقين، وكان عالماً كبيراً ومؤرخاً أيضاً.

إن البحث عن الديانة المسيحية في كُردستان في العهد الدوستكي يجرنا الى مناقشة مسألة هامة، وهي إن قسماً غير قليل من الكُرد إعتنق الديانة المسيحية ومن ثم إنتشار تلك الديانة في كافة مناطق كُردستان. إذ تذكر المصادر المسيحية القديمة بأن الديانة المسيحية إنتشرت في ماداي وبلاد فارس منذ القرنين الأول والثاني الميلاديين^(١٥)، وإن (بقيدا) قضى خمس سنوات في جبال كُردستان، في جبال أربيل، يدعو الناس الى المسيحية^(١٦).

ولاشك بأن سكان تلك الجبال لم يكونوا سوى من الكُرد، وإن أغلب المسيحيين في أربيل، كما قال الدكتور منكانا، كانوا منتمين الى أصل فارسي (بل الى أصل كُردى) وليس الآرامي. وكان بينهم كذلك أناس ينتمون الى أبوين مسيحيين كانا في الأصل ينتميان الى الزردشتية^(١٧).

وفي عام ١٩٠٩ عندما زار كونراد لويسر (دير عمر) في طورعبيدين وصف المسيحيين هناك بـ(المسيحيين الكُرد)، وذلك في (ص ٥٠ و ٥٣) من كتابه (المباني الأثرية في شمال بلاد الرافدين).

والخلاصة أنه كان في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية قسم غير قليل من المسيحيين

(١٣) راجع دي لاسي، علوم اليونان وسبل إنتقالها الى العرب، ص ٦٣. وإيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ص ٧٥. راجع أيضاً أفرام برصوم، تاريخ طورعبيدين، ص ٢٠١.

(١٤) التاريخ السعدي، ص ٥٣٠، لمؤلف مجهول، نشره أدي شير.

(١٥) أدي شير، تاريخ كلدو وآشور، ج ٢، ص ٢. يُقصد بماداي (ميديا) هنا القسم الجبلي الغربي من إيران الذي هو جزء من كُردستان.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) إيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ص ١٠٤.



كنيسة هَزَّح

من قوميات مختلفة كالكرد والأرمن والسريان واليونان. وكان هؤلاء حتى القرن العشرين منتشرين في كل منطقة منها. ولا يزال في ولاية ماردين في منطقة طورعبدین وفي (دهشتا ههسان) في قضاء (ههزهخ) الواقع في غرب الجزيرة، قسم كبير من المسيحيين وهم في غاية من الشجاعة والإقدام، وقد واجهوا ببطولة فائقة الكثير من محاولات الإبادة ولاسيما سكان مدينة (ههزهخ).

أماكن دينية (مسيحية)

كانت توجد في البلاد الدوستكية الكثير من الأديرة والكنائس، نشير الى بعضها ونبدأ بكنيسة آمد، التي كانت كنيسة كبيرة تقع بالقرب من الجامع الكبير. دخل الكنيسة الرحالة الفارسي ناصر خسرو في عهد الأمير نصرالدولة، فوجدها كنيسة غنية بالزخارف فُرشت أرضيتها بالرخام المنقوش، ورأى فيها باباً من الحديد المشبك أعجب به كل الإعجاب، وذكر أنه لم ير مثله في أي مكان آخر (١٨). وكانت في فارقين البيعة الملكية التي وجد فيها المؤرخ الكرديستاني أحمد بن يوسف (بن الأزرق) الفارقي مخطوطة سريانية باسم (التشعيث) ألفت في تاريخ بناء مدينة فارقين، فإستفاد منها في تاريخه (١٩).

وقد دُفن في هذه البيعة الطبيب زاهد العلماء رئيس مستشفى فارقين وكبير أطباء الدولة الدوستكية وأخوه المطران إيليا برشنايا النسطوري. ولم أجد لها أثراً سنة ١٩٧٧. وكانت تقع شمال

(١٨) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤١.

(١٩) الفارقي مقدمة الدكتور بدوي عبداللطيف، ص ١٥ نقلاً عن القسم غير المطبوع من تاريخ الفارقي.

الجامع الكبير. وفي فارقين كنيسة واحدة سالمة تقع في جنوب غرب الجامع الكبير، ولكن لم يبق فيها الآن مسيحيون.

دير أحويشا

كان من الأديرة الكبيرة في كُردستان، وكان قريباً من مدينة سعرد (٢٠). شيدّه مار يعقوب، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي. وكان من الأديرة الموجودة في العهد الدوستكي (دير مار أوجين) (٢١) ودير الزعفران (٢٢)، ودير قرتمين الذي كان من أشهر الأديرة في كُردستان، والذي تخرج منه كثير من الفضلاء المسيحيين. وكان هذا الدير في العهد الدوستكي يشتمل على مكتبة زاخرة بالمخطوطات. وهو من أديرة اليعاقبية في قرية قرتمين الشهيرة الواقعة شرق (مديات) في طورعبدین (٢٣). أما دير زقنين القريب من دياربكر، فكان ذا مكانة بارزة في العهد الدوستكي أيضاً،

(٢٠) بصدد دير أحويشا، راجع التفاصيل في الشابشتي: الديارات، ص ١٢٦، ١٤٢. وابن فضل الله العمري، مسالك الأبخار، ج ١، ص ٣١٠. وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩٧. عزيز بطرس، الرعاة الكلدان، ج ١، ص ١٤ مخطوط. وكتابتنا التاريخي لكتابة تاريخ المدن، مخطوط.

(٢١) يقع هذا الدير في جبال طورى (طورعبدین) الواقعة في سفح جبل أزلا (جياين هلز) / يسميه الكُرد بهذا الاسم لما بنيت فيه من نبات هلز) على بعد حوالي خمس ساعات مشياً إلى الشرق من نصيبين. وقد أنشئ في القرن الرابع الميلادي ويحمل اسم مار أوجين القبطي، الذي قدم من مصر مع أخته وبعض الرهبان إلى كُردستان، الذي نشر نظام الرهبنة فيها وفي البلاد الشرقية الفارسية. ويضم هذا الدير ضريحه وضريح أخته. وقد مرّ الدير بأدوار تجديدية، حيث رُمه في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن ناسك باسم إبراهيم ابن المعريين، وخلفه في رياسته روزبهان الذي أصبح أسقفاً لنصيبين والمتوفى سنة ٧٢٦م. وجدد عمارته أيضاً في صيف ١٢٧١م من قبل عبدشوش الثالث المجلوني مطران نصيبين. ثم جدده السريان اليعاقبية وكان قبل ذلك منذ القرن السادس في يد النساطرة. وكانت تُدرّس في هذا الدير الفلسفة واللاهوت والمنطق والجغرافيا والهندسة، حيث كان فيها مدرسة إعتنق نساطرتها الكتلركة في القرن السابع عشر. راجع بحثاً للأستاذ غورگيس عواد في ذيل، ص ٢٣٨ من الديارات للشابشتي. والشماس عزيز بطرس، كتاب الرعاة الكلدان، ج ٤، ص ٣ مخطوط. وفي اللؤلؤ المنشور، ص ٥٠٨، لأفرام برصوم، أنه شُيد في أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلادي. وسبق أن ذكرنا حسب رواية أنه دفن في (دير كمون) تحت الجودي، وفي عصر أوجين هناك شك حول نشره الرهبنة للمرة الأولى في كُردستان. راجع تاريخ الكنيسة الشرقية، ص ١٧٥، ١٨٢ من الجزء الأول للأب ألبير أبونا.

(٢٢) يقع دير الزعفران على أنقاض دير وقلعة قديمين وهو مسورٌ بسور حصين. الدير مشهور بجمال موقعه حتى قيل فيه أنه أحد متنزهاة الدنيا. ولهذا ألف الشعراء: الخالدي والبيغاء ومصعب الكاتب في وصفه مقطوعات شعرية. وعظم شأن هذا الدير منذ أن أصبح كرسيّاً للبطريك اليعقوبي سنة ١٢٩٣م. فأصبح المركز المسيحي الأول لليعاقبية (أتباع المذهب اليعقوبي). ولأهميته أهدته الحكومة البريطانية سنة (١٣٠٤هـ = ١٨٨٧م) مطبعة يمكن أن تعتبرها أقدم مطبعة في كُردستان. وفي كُردستان دير آخر بهذا الاسم وهو دير الزعفران (الزعفرانية) الواقع في السفوح الجنوبية لجبل بيخير بمنطقة زاخو. وقد زرتّه وصورت آثاره في ١٩٩٩/٩/٢٢. كانت الزعفرانية معسكراً بيزنطياً مهماً، وقد كتبت مقالاً عنه ولكن لم أنشره بعد. هذا وقد ألف في تاريخ دير الزعفران أفرام برصوم كتاباً بعنوان (نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران)، وقد طبع بمطبعة الدير نفسه سنة ١٩١٧. وألف أيضاً الراهب أيوب الأمدي (الدياربكري) كتاباً باسم (تاريخ دير الزعفران) وكان المؤلف حياً سنة ١٧١٧م. وفي ١٩٠٧ زاره كونراد وكتب له وصفاً قيسماً في كتابه (البياني الأثرية في شمال بلاد الرافدين، ص ٦٩، ٧٣).

(٢٣) كان دير قرتمين الذي كان كان يضم في وقت ما (٨٠٠) من النساك، يعود إلى تاريخ قديم، ثم أعاد بناءه الملك البيزنطي أنسطاس على طراز جميل. فأرسل سنة (٥١٢ م) المهندسين (تيودا) و(تيودوس) والنحاتين والمعماريين المهرة لبنائه. وأرسل معهم الكثير من الذهب كما أرسل معهم صاغة للذهب والفضة والنحاس والحديد والرسامين =



دير عمر

وكانت مدرسته مهمة. تم تشييد الدير في سنة (١٠١٨م) في عهد نصرالدولة من قبل المار شمعون، الذي أصبح أسقف الرها للكنيسة الأرثوذكسية في نصيبين من أموال دير قرقميين (٢٤). وكان دير عمر (عمر - عهـ) المشيد في القرن الرابع الميلادي والواقع شرق مدينة مديات في طورعبدین بمسافة حوالي (١٨) كلم، من الأديرة الشهيرة أيضاً (٢٥). وفي عهد الدولة الدوستكية إنتقلت الكنيسة اليعقوبية (السريانية الغربية) (٢٦) من أنطاكية الى مدينة آمد (ديار بكر). ونقلها البطريرك

=ومشاطي الرخام والخبراء في عمل الفسيفساء. فشييد هؤلاء ديراً وزينوه بالزخارف والرسوم الحيوانية والأدمية منها وجوه الأسد والثور والنسر ورسوم آدمية. وفرشت أرض المذبح بالرخام الأسود والأبيض والأحمر والأخضر والأرجواني والأزرق. وصنعت فيه شجرتان من نحاس وبولغ في وصفهما. وظل هذا الدير سالماً الى أن أتلف التتر رواه. وكان قد تعرض الدير الى النهب من قبل السلاجقة سابقاً. وفي سنة (١١٠٠ م) اي بعد العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة (راجع التفاصيل في أفرام برصوم، تاريخ طورعبدین، ص ٢١٩٣، ٢٧٥. واللؤلؤ المنشور، ص ٢٢، ٢٧١. نقلاً عن التاريخ الكنسي لابن العبري، أن الدير شييد في السنة الأولى من حكم الأمبراطور أركاديوس.

(٢٤) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدین، ص ٢٦٧.

(٢٥) ألف حنا دو لاپونو مطران ماردين المتوفي سنة ١٩٦٩ كتاباً خاصاً بتاريخ هذا الدير بعنوان (تاريخ دير عمر) ترجمه الى التركية مار جبرائيل، وطبع طبعة ثانية بإستنبول سنة ١٩٧١. وأشكر صديقي الحوري (إبراهيم القصاب) من مديات على تزويدي بنسخة منه. كما زودني بمعلومات قيمة عن النقاشين والبنائين المهرة لمديات. لقد ألف بسبيلوس چاتليك شمعون من رهبان دير عمر كتاباً في الفولكلور الكردي بعنوان (لافتز)، وذلك في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ولعله أول كتاب من نوعه. وقد قُتل الراهب بسبيلوس من قبل المجرم عبدال آغا سنة (١٧٤٠م)، ودفن في كنيسة (باسيرينا). راجع ترجمة حياته في (تاريخ دير عمر، ص ١١٣-١١٤).

(٢٦) اليعقوبية منسوبة الى المذهب اليعقوبي القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة جمعت بين اللاهوت والناسوت إمتزج فيه عنصر الإله وعنصر الإنسان. وكانت كنيسة القسطنطينية الرومية تعتقد أن للمسيح أقنوماً واحداً وطبيعتين، أي إن المسيح هو ابن الله وله طبيعة ألوهية مساوية لله وطبيعة إنسانية مساوية للإنسان، وأن مريم هي أم الله. ومؤسس المذهب اليعقوبي هو ديسقورس بطريرك الإسكندرية في القرن الخامس الميلادي، ولكن يعقوب البرادعي هو الذي وطد أركانه في القرن السادس، ولذا ينسب إليه. وقد إنتشر المذهب المذكور في كُردستان وأرمينية وسوريا ومصر.

ديونيسيوس بسبب إنشقاق في الكنيسة، أو بسبب إضطهاد الإمبراطور البيزنطي لليعاقبة وإصداره أمراً بالقبض على البطريك. وهكذا أصبحت مدينة ديار بكر مقراً لكروسي البطريك اليعقوبي.

مجمع الجزيرة

بعد وفاة البطريك ديونيسيوس سنة (١٠٤٢م) أو بسنتين بعدها، حدث خلاف بين اليعاقبة الغربيين والشرقيين. وذلك لأن اليعاقبة الغربيين عينوا مكان البطريك المذكور يوحنا تاودوروس دون أن يأخذوا موافقة بسليوس مفران (رتبة دينية تلي البطريكية) المشرق والأساقفة الشرقيين. فإستاء من ذلك الشرقيون واجتمعوا في مدينة الجزيرة ليحدثوا إنشقاقاً. ولكن البطريك لما سمع بذلك جمع الأساقفة الغربيين وتوجه الى الجزيرة للتفاهم. فعقد المجمع في الجزيرة مجمعاً عاماً وتصلح الطرفان وكتبوا قرارات مجمعية بضمنها وجوب إستشارة البطريك بالمفران، وإعطاء الشرقيين مناطق نصيبين وقلت ودارا. وكتبوا ثلاث سجلات مجمعية حفظت نسخها في الجزيرة ودير قرتمين وتكريت.

وبعد وفاة البطريك في مقره بديار بكر سنة (١٠٥٧م)، عين أثناسيوس (حياً) خلفاً له، ولكن الأساقفة الشرقيين وبعض من الأساقفة الغربيين لم يرضوا بتعيينه. فجاء المفران الى مدينة ديار بكر وعين مع الأساقفة (يوحنا بن شوشان) (إيشوعيب) بطريكاً، لذلك حدث إنشقاق في الكنيسة. وفي ملاطية ألقى القبض على أثناسيوس بأمر من الإمبراطور البيزنطي، وتوفي في الطريق الى القسطنطينية. فعاد ابن شوشان الى كروسي البطريكية وكان قد إنعزل الى حران. وفي سنة (١٠٧٤م) أصبح بسليوس بطريكاً خلفاً لابن شوشان، وتوفي بعد سنة ودفن في كنيسة اليعاقبة في فارقين. ثم عين ديونيسيوس الخامس بطريكاً وتوفي سنة ١٠٧٨م (٢٧).

لقد تمتع المسيحيون في هذه الدولة بسبب سياستها الديمقراطية تجاههم بحرية تامة لم يتمتعوا بمثلاها في العهود اللاحقة قاطبة. لقد نشط المسيحيون ودخلوا في وظائف الدولة المختلفة حتى الوزارة، حيث أصبح أبو سالم وزيراً للأمير منصور، وأصبح ابن شليطا مديراً للأوقاف في عهد الأمير بن أبي علي ومهد الدولة، كما أصبح أبو الحكيم الحديشي عارض الجيش وهي وظيفة عسكرية مهمة.

لقد خدم المسيحيون الدولة الدوستكية خدمات جليلة وبإخلاص، ومثال ذلك إخلاص الوزير أبي سالم، الذي صمد وكانت في يده القيادة في وجه القوات السلجوقية سنتين. أما خدماتهم في حقل الطب، فكانت كبيرة. فالأطباء المسيحيون كانوا يسيطرون على الطب في كردستان كما سيأتي ذلك بالتفصيل في موضوع الطب.

لاشك أن المسيحيين ينالون حرية عظيمة في عهد أمير عادل كعهد الأمير نصرالدولة، الذي إمتد

(٢٧) راجع تاريخ الرهاوي المجهول، ص١١٨. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص٣٦٧. بطرس نصري، الذخيرة، ج١، ص٤٧١-٤٧٧. أ. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص٨٨. طه الهاشمي، مفصل جغرافية العراق، ص١٠٥. راجع أيضاً ترجمة حياة ابن شوشان في موضوع الحياة الثقافية.

لإثنتين وخمسين سنة. وعلى قول الفارقي لم يأخذ هذا الأمير درهماً واحداً من أبناء شعبه سواء المسلمين منهم أم المسيحيين (٢٨). وقد وصف المؤرخون المذكور بأن سيرته في رعيته وشعبه كانت أحسن سيرة (٢٩).

وقد زالت حرية وسعادة المسيحيين بعد سقوط الدولة الدوستكية وأثناء الحكم السلجوقي، حتى هدم ابن جهير البيعة المدورة القريبة من باب الربيض في فارقين، على ما قاله الفارقي في (ص ٢١٤). كما أن أبا علي البلخي الذي تولى بعد ابن جهير إقليم دياربكر من قبل الدولة السلجوقية حول (دير عباد) المشرف على فارقين الى مسجد سماه بمسجد الفتح. وقال حينما سمع ذات صباح صوت ناقوس آت من هذا الدير: "يضرب في بلاد المسلمين على رؤوسهم الناقوس، فإذا نحن بالقسطنطينية" (٣٠)، فحوكه الى مسجد. ودفع له المسيحيون خمسين ألف دينار كي يعدل عن قراره فرفض. وكانت لهذا الدير أوقاف حولها الى أوقاف للمسجد. كما أوقف عليه أراضي قرية (باروما) أو ياروما. وكان هذا المسجد باقياً الى عهد الفارقي. وقد ذكر الفارقي أيضاً أن فخرالدولة ابن جهير بعد إحتلال فارقين، حول (دير عباد) الى مسجد، ولكن المسيحيين من أهل ميفارقين دفعوا له "ثلاثين ألف دينار أرمانونسية فأعاده ديراً"، أي عدل عن قراره بعد أخذ المبلغ.

ويظهر من كلام الفارقي بأن حرية المسيحيين الدينية قد أزيلت أثناء الإحتلال السلجوقي لكرديستان الوسطى حتى منعوا من ضرب الناقوس، خاصة في عهد الوالي أبي علي البلخي. وكان السلاجقة يضطهدون المسيحيين ويسومونهم سوء العذاب. فعندما أغار السلطان طغرل سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) على البلاد الجنوبية للدولة الدوستكية وحاصر مدينة الجزيرة، سار جماعة من جيشه "الى دير (عمر أكن) وفيه أربعمئة راهب، فذبحوا منهم مائة وعشرين وإفتدى الباقون أنفسهم بستة مكايك ذهباً وفضة" (٣١). وسبق أن ذكرنا أن هذا الدير هو (ديرا كه موني) أي دير كمون، وإكتشفه المرحوم الملا خلف البافه يي فقيده التراث الكردي.

الزردشتية

كان زردشت ابن (پورو شسپ) وأمه (دغدو - دغدودا) بنت فراهيم من الميديين، ولم يحدد عصره تماماً. فبينما تحده الروايات التاريخية بصورة عامة بالقرن السابع قبل الميلاد، يرى بعض الباحثين أنه عاش في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. وأما ما قيل من أنه كان قبل ستة أو سبعة آلاف سنة

(٢٨) الفارقي، ص ١٦٨. وراجع أيضاً ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٧. وقد إستثنى الفارقي من ذلك مصادره للتاجر ابن جرى كما نستثنى مصادره لابن بغل.

(٢٩) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٦. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٣، ص ٢٩. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٨٧.

(٣٠) الفارقي، ص ٢٢٢. ومخطوطة الأعلام الخطيرة، ورقة ٧١ نسخة مصورة في مكتبتي.

(٣١) ابن الأثير الكامل، ج ٩، ص ٢١١ (حوادث السنة المذكورة) ظن بعض المؤرخين أن الحادثة وقعت في دير أحوشا والصحيح ما قاله ابن الأثير.

فغير صحيح مطلقاً. وأما المنطقة التي ولد فيها، فهناك روايات تاريخية إسلامية تفيد بأنه ولد في (أورميه)^(١) من كردستان التابعة لإيران. ويرى بعض الباحثين أنه ولد في منطقة تقع شرق إيران وحدود خوارزم، وذلك إستناداً إلى ما جاء في آبستا، من أنه ولد في (إيريهن ويج) Airyan - Vaeja، حيث حدد (إيريهن ويج) بتلك المنطقة^(٢).

أما المؤلف الكردي محمد أمين هورامي، فقد شرح بالتفصيل معنى (إيريهن فاج) وخلصه أنه بمعنى اللغة الآرية أو المتكلمين بالآرية، وأن لفظ فاج أصبح في الكردية (فاژ، واژ، بيژ و ماچۆ) بمعنى القول والتكلم. وإن الكتب الكردية المدونة بلهجة جوران مثل (سرنجام) وهي كتب دينية ل(مذهب أهل الحق) تُعرف بكونها ألفت بلهجة (ماچۆ) الكردية. كما إن الكردي يطلقون اسم (ماچۆ) على الكردي الهوراميين بسبب تكلمهم بلهجة ماچۆ (كوزان). وحدد ل(إيريهن ويج) بالمناطق الكردية الواقعة في غرب أو شمال غرب إيران، والتي هاجر إليها الميديون. والتفاصيل في كتابه (فهرهنگی ئيريهن فاج) أي قاموس إيرين ويج.

بعد أن أضطهد زردشت في موطنه بسبب إعلانه الدين الجديد، هاجر إلى إقليم (باختر) أي خراسان. ولجأ إلى ملكها ويشتاسپ، فأمن بدينه هو ووزيره جاماسپ. وتزوج الأخير ب(پوروچيستا) ابنة زردشت. وانتشر دينه هناك وقتل في حرب دينية.

لقد كانت للآريين قبل ظهور زردشت ديانتين رئيسيتين الأولى (مزدیسنا)، أي عبادة الإله العاقل العارف، وهو إله الخير والنور. وكانت هذه الديانة منتشرة بين الحضرة والفلاحين. والثانية ديانة (ديويسنا) أي عبادة الديو إله الشر وهو (أهرمين - إبليس)، وكانت القبائل المحاربة غير المستقرة وغير المتحضرة تعتنق هذه الديانة. فجاء زردشت نبياً لدين (مزدیسنا) وأبطل عبادة الآلهة الآرية الكثيرة غير عبادة الإله الواحد (مزدا - أهورا مزدا). فكان موحداً وحرماً ذبح الحيوان للقربان الديني وحرماً حرق جثث الموتى. وكانت الآبستا مكونة من مليوني بيت من الشعر في غاية البلاغة، ولكن وقع فيها تحريف للمرة الأولى في العهد الأشكاني ومرتين في العهد الساساني. حيث أدخلت فيها الآلهة الآرية القديمة وحوادث تاريخية وقسم غير قليل من التاريخ الجغرافي. هذا وساندت الدولة الميديّة الديانة الزردشتية وعملت على نشرها وحاربت ديانة (ديويسنا). لقد إنتشرت الزردشتية في البلاد

(١) في دائرة المعارف الإسلامية نقلاً عن البلاذري وابن خرداذبه: أنه ولد في أورميه. وفي الملل والنحل، ص ٢١٦-٢١٧ قال الشهرستاني أن والد زردشت من أذربيجان وأمه من الري (التي تمثلها حالياً طهران). وأضاف بأن المجوس يقولون إن الله جعل روح زردشت في شجرة في أعلى عليين غرسها في قمة جبل (باسمو بذخر) في أذربيجان. وذكر أنه جاء إلى مدينة دينور (الكردية). أما الباحثون فيقولون بأن مكان ولادته غير معلوم أكان في ميديا الشرقية التي تقع فيها مدينة (رغه - ري) أو ما وراءها من خراسان (باختر) أو خوارزم؟ ويقول بعضهم أن نسبته إلى (أورميه) نشأت من كثرة الإهتمام بالزردشتية فيها في العهد الأخير. راجع هاشم رضا، أوستا، ص ٥٠-٥٢. وكريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ١٩-٢٠. وقد تحدث لي عدد من الكرد الذين زاروا في السنوات الماضية الزردشتيين في (بزد)، أنهم يقولون بأن زردشت كان من أورميه وأن نبينا كان كوردياً.

(٢) راجع هاشم رضا، أوستا، ص ٢٣.

الميدية أي كردستان، وكان الشعب الكردي بصورة عامة زردشتياً، بينما بقيت قلة منهم تدين بالوثنية وديويسنا حتى بعد ظهور الإسلام. أما إعتناق قسم كبير من الكرد للديانة المسيحية، فقد أوضحناه. وفي عهد الدولة الدوستكية، كان بعض الكرد لا يزالون على الديانة الزردشتية في هذا الجزء من البلاد الكردية. ولم يزل يحتفظ بهذه الديانة بعد عدة قرون من ظهور الإسلام.

ويُستدل على وجود الديانة الزردشتية في الدولة الدوستكية بكلام الرحالة الفارسي المشهور ناصر خسرو، الذي وجد الزردشتيين (البرسيين) أثناء مروره بالبلاد الدوستكية، وإطلع على سعر العنب الذي كانوا يبيعونه في مدينة (أرزن - غرزان) في الخريف. وقد شاهدهم ناصر خسرو في هذه المدينة الواقعة في قلب البلاد الكردية، والتي وصل إليها في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة (٤٦٠م) (٣).

فقد ذكر وهو قادم من بدليس: "ثم سرنا الى مدينة أرزن وهي مدينة عامرة جميلة فيها أنهار جارية ويساتين وأشجار وأسواق جميلة وبيع البرسيون هناك مائتي مَنٍ عنباً بدينار واحد في شهري نوفمبر وديسمبر ويسمون هذا العنب رز أرماتوس" (٤).

إن لفظ "البرسيون" نص على إن قسماً من سكان أرزن أو أطرافها كانوا زردشتيين، لأن لفظ البرسي أو البرسيين كان يطلق على أتباع الديانة الزردشتية. وهذا الإسم ما زال حياً في إيران والهند. ولكي يطمئن القاريء الى صحة ذلك أحيله الى تعليق المترجم الدكتور يحيى الخشاب حيث قال: "البرسيون هم الفرس الذين حافظوا على دين زردشت ولم يسلموا بعد الفتح الإسلامي" (٥).

كما أحيله الى كتاب (فجر الإسلام) حيث ورد فيه البرسيون أكثر من مرة إسماً للزردشتيين. فمثلاً قال المؤلف بصدد الديانة الزردشتية: ويقول البرسيون أن الآقسنتا كانت في عهد الدولة الساسانية مؤلفة من إحدى وعشرين سورة (٦).

وتكرر ذكر الكلمة أيضاً في كتاب (الفندياد)، ففيه أن الفرس الزردشتيين في الهند يقال لهم البارسيون (البارسي) (٧).

(٣) قطع ناصر خسرو المسافة بين فارقين وخلط في ستة أيام. فقد خرج من خلط في عشرين من جمادى الأولى سنة ٤٣٨هـ المصادف ٢٤ تشرين الثاني، ووصل فارقين في ٢٦ جمادى الأولى أي في ٣٠ تشرين الثاني. فكان في أرزن في ٢٩ تشرين الثاني، فوصله إليها في اليوم الذي سبقه على أغلب الاحتمالات ومغادرته في ٢٩ منه. ومن الجدير بالذكر أنه وردت هنا في سفرنامه الترجمة العربية أخطاء في أرقام تاريخية. ففيه قيل أنه دخل فارقين في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٣٣٨ أي ٢٣ تشرين الثاني ١٠٣٦م والصحيح هكذا: ٤٣٨هـ = ٣٠ تشرين الثاني ١٠٤٦م، ولم أفطن الى هذه الأخطاء سابقاً، إذ أدرجتها في الجزء الأول في موضوع تحديد سنة مقتل مهدي الدولة، فأعود لأنبه القاريء الى هذا.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٠.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٢٤ وتكرر نفس اللفظ في ص ١٤٠.

(٧) كتاب الفندياد، ص ٣ و ١٣، ترجمة الدكتور داود الجلبي من الفرنسية.

وفيه أيضاً يقال لهم الفرسيون وكذلك قال أحمد أمين (٨).

فلفظ برسي أو بارسي أو فرسي يطلق في وقتنا هذا على الزردشتي، سواء كان من القومية الفارسية أو من قومية أخرى. هذا مع العلم بأن قوميات متعددة قد إعتنقت الديانة الزردشتية. فتحديد الدكتور يحيى الخشاب لفظ "البرسيون" الوارد في كلام ناصر خسرو المذكور، بالفرس الذين حافظوا على دين زردشت، هو في غير محله. فهناك برسيون فرس وبرسيون هنود وبرسيون كُرد... فالزردشتيون الذين شاهدتهم ناصر خسرو في غرزان كانوا دون شك كُرداً ولم يكونوا فرساً.

ورغم خضوع الكُرد للفتح الإسلامي سلماً أو حرباً، لم ينتشر الإسلام بينهم دفعة واحدة، وإنما بالتدريج. فظل قسم منهم على الديانة المسيحية حتى الآن، بينما بقي قسم آخر على الديانة الزردشتية حتى العهد الدوستكي في البلاد التي كانت تحت سيطرتها، ويحتمل بقاؤها في جبال هورامان الواقعة في شرقي سهل شهرزور الى القرن الثاني عشر الميلادي (٩).

(٨) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٢٨.

(٩) نشر الأستاذ الملا عبدالكريم المدرس في كتابه (بنه مالهى زانباران، ص ٣٥٨ - ٣٧٩) شجرة لسادات قرية (سرگت - سرگهت): أسرة ملا جلال الخرمالي في شهرزور، وهي فارسية وعربية تشتمل على معلومات من تاريخ الأسرة. والنسخة التي نشرها كانت بخط المرحوم الملا محمود بن عبدالرحمن السرگتي كتبها عندما أراد بيع نسخة من القرآن الكريم كان مكتوباً في أواخرها. وقد باعها لمكتبة المؤسسة العامة للآثار في بغداد بتاريخ (١٩٧٥/٨/٢٥) وهي تحت رقم (١٦٤٢٥) في المكتبة المذكورة حسبما كتب في نهاية نسخة الشجرة. وقال أن جده محمد بن مصطفى بن الملا جلال كتبها في المصحف سنة (١٢٩٠هـ = ١٨٧٣ - ١٨٧٤م). وما في الشجرة عبارة عن معلومات كتبها جد الأسرة إبراهيم بن عباس الحسيني سنة (٥٤٥هـ = ١١٥٠ - ١١٥١م) على مصحف بخطه ثم نقلها واحد من أحفاده سنة (٧٧٠هـ). أما القسم الآخر من المعلومات التي في الشجرة، فقد كتبها محمد السرگتي من المعلومات التي وجدها بخط أجداد له ومن معلوماته الشخصية.

جاء في القسم المنسوب الى إبراهيم الحسيني: أنه قدم من قرية (خدر آباد) من منطقة شهریان الى شهرزور ومنها سافر الى قرية أورمان (أي بلدة هورامان مركز منطقة هورامان الجبلية الواقعة في شرق سهل شهرزور) لتحصيل العلم عند مدرسها السيد مصطفى العريض. وكان رئيس هورامان (شاليار سياه) المجوسي. وقال إن الديانة الإسلامية تتعزز فيما لو أسلم المذكور. (ما زال إسم پير شالياري ردهش) حياً حتى اليوم وقد أسلم فيما بعد. وكلامه هذا دليل على قوة الزردشتية آنذاك في منطقة هورامان الوعرة. وفي هذا القسم والقسم الآخر معلومات تاريخية. ومن حيث أن الشجرة تحتاج الى دراسة دقيقة تثبت صحة ما نُسب الى الحسيني كله أو بعضه. طلبت من صديقي المحب للعلم والشغوف بالإطلاع على المخطوطات والمصادر المرحوم جمال مفتي (جمال بن محمد بن الملا عزيز المفتي) الذي توفي في (١٩٩٦/١١/١٠) في السلمانية، طلبت منه أن يصور لي ما هو مكتوب على تلك النسخة من المصحف. فصور لي الصفحة الأولى فقط، التي كُتبت عليها ما هو خاص بالحسيني. وعندما قابلته بالنسخة التي هي بخط المرحوم الملا محمود من الشجرة، والتي تكرر فيها هذا القسم أيضاً. إتضح لي أنه كُتبت حديثاً ومنقول (مع إختصارات) مما في الشجرة وليس قديماً. وذلك إستناداً الى الخط وإملاء بعض الأسماء مثل (خدرآباد) و(سرگرد) و(گورانية) بالكاف (G) الكُردية وتعابير عربية حديثة. وفي الشجرة أخطاء وتناقضات شتى، مثل المدة (٢٢٥) سنة بين وفاة الحسيني سنة (٥٤٥هـ) وسنة إستنساخ المذكرات سنة (٧٧٠هـ) من منصور صادق بن بلال أو منصور بن صادق (الإبن) بن صادق (الأب) بن بلال بن إبراهيم الحسيني. فهي طويلة جداً بالنسبة لثلاثة أو أربعة أجيال وهو ما يثير الشك. أما ما ورد في الشجرة من أن نسخة المصحف هذه بخط الحسيني فغير صحيح بالنظر الى رسم خطها.

وقد نشر الأستاذ الملا عبدالكريم الشجرة بكل هذه الأخطاء دون أن يشير إليها مع حذف عبارات منها. وكذلك نشرها محمود أحمد محمد في مجلة (كاروان، العدد ٢٦، أيلول ١٩٨٥)، وأضاف إليها محمود أخطاء كثيرة. ففيما نشره أكثر من أربعين خطأً. وأخيراً لا يمكن دراسة ونقد مذكرات الحسيني والشجرة بصورة كاملة إلا بعد الحصول على نسخة مصورة مما هو مكتوب في آخر المصحف.

في الطبعة الأولى قلت أن أولئك الزردشتيين الذين شاهدتهم ناصر خسرو هم الإيزيديون، أي بعد إسلامهم على يد الشيخ عدي بن مسافر ثم إنحرفهم عن الإسلام، وذلك لأن العديد من الذين ألفوا أو كتبوا عن العقيدة الإيزيدية إعتقدوا أن الكُرد الإيزيديين كانوا زردشتيين ثم أسلموا على الشيخ عدي بن مسافر (١٠)، ومن هؤلاء صديق الدمولوجي مؤلف أضخم وأهم كتاب عن الإيزيديين وعبدالرزاق الحسني. بينما إعتقد أستاذي سعيد الديوه جي الذي ألف في الموضوع أيضاً، أنهم كانوا مسلمين من أنصار الأمويين إنحرفوا عن الإسلام. وهناك آراء أخرى (١١).

أما أنا فكنت أعتقد حتى السبعينات بأنهم كانوا زردشتية ثم تغير رأيي في السنوات الأخيرة، أي بعد إهتمامي بالزردشتية وإكتشافي لعشرات المعابد الخاصة بها. ولهذا فإني أرى الآن أنهم كانوا (دبو يسنيين).

(١٠) ولد عدي بن مسافر في قرية بيت فار من منطقة (شوف الأكراد) من سهل البقاع. أي أنه كان من منطقة يقطنها الكُرد. وهناك رواية أيزيدية تدعي أنه لما جاء إلى المنطقة كان يتكلم مع الناس بالكردية. فلم يكن الكُرد لذلك غريبين عن الشيخ عدي الذي توجه إلى جبال هكاري (أي بهدينان) وإختار البقاء بين الكُرد وإستقر هذا المتصوف في قرية (لالش) وإلتف حوله آلاف الكُرد وإنتشرت الطريقة العدوية الصوفية المنسوبة إليه في كردستان. ومع هذا فهناك رواية أخرى تقول بأن الشيخ عدي كان كوردي الأصل، وإني لا أستبعد ذلك لكونه نشأ في (شوف الأكراد)، أي بين الكُرد هناك. وقد نُقل عن ابن المستوفي قوله، نقلاً عن لسان الشيخ حسن بن عدي (الثاني) بن أبي البركات، (أن عم جده) الشيخ عدياً "ولد في بلاد الشام في موضع يعرف بشوف الأكراد بالشين المعجمة والفاء من ضبعة تسمى بيت فار"، راجع ج ١، ص ١١٦ من تاريخ إربل لإبن المستوفي، وفي ج ٢، ص ١٧٠ قال ناشره الباحث سامي السيد خماس الصقار، أن بيت فار من أعمال بعلبك نقلاً عن ابن خلكان. ونقل أيضاً عن ابن كثير أنها تقع في البقاع غربي دمشق. علماً أن بعلبك تقع في لبنان. وقال الحسني في (اليزيديون، ص ٢١) وأنها تسمى الآن (أنافار) وهي خربة تقع بين مشغرة وكتب الباس في البقاع الغربي وبها قبر الشيخ مسافر. أما وفاة الشيخ عدي، فالأرجح أنه توفي في سنة (٥٥٧هـ = ١١٦١-١١٦٢م)، وقد روي ذلك عن أبي البركات في سنة (٥٥٥هـ)، التي قالها الشيخ أحمد لابن المستوفي، كما رجح أستاذي الديوه جي وآخرون غيره التاريخ الثاني على الأول.

(١١) راجع صديق الدمولوجي، اليزيدية، ص ١٧٣. وعبدالرزاق الحسني، اليزيديون، ص ١٤. والديوه جي، اليزيدية، ص ٢٤-٢٥ وغيرهم.

الفصل الخامس

الحالة الإقتصادية

لاشك أن كُردستان الوسطى قد شهدت تقدماً كبيراً في عهد الدولة الدوستكية في الحالة الإقتصادية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة بشكل نستطيع أن نعبر عنه بالنهضة الإقتصادية) بمقاييس ذلك العصر. والسبب الرئيس لذلك التطور يعود الى ما حققته الدولة للشعب من حياة الأمن والإستقرار والإبتعاد عن الحروب وكوارثها. ويمكن أن نلمس هذه الحقيقة بعد إجراء مقارنة بين وضع كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي ووضعها في العهد الحمداني السابق. ففي العهد الأول (الحمداني) تعرضت كُردستان الى الدمار جراء الغارات والهجمات البيزنطية المتتالية، بسبب العداء المستحکم بين الحمدانيين والبيزنطيين. فقد دُمرت مدن مثل مدينة أرزن ودارا وأحرقت القرى. أما المزارع فكانت تتلف، وفوق ذلك كله كان السكان يتعرضون للقتل والأسر والتشريد، مما كان يؤدي بدوره الى تخطيم وتدمير إقتصاد المنطقة. فقد ذكر ابن حوقل الذي عاش في عهد الحمدانيين وعاصر تلك الأحداث وذلك الدمار، حينما أشار الى هجومين لجيوش الدولة البيزنطية يساندتهما الآلاف من فرسان بني حبيب (من بني تغلب)، الذين شردهم ظلم الحمدانيين من منطقة نصيبين الى البلاد البيزنطية تاركين دينهم وأصبحوا مسيحيين، بقوله: "... فشنوا الغارات على بلاد الإسلام وإقتحموا حصن منصور (أديمان) وحصن زياد (العزیز- ثالازاك) وساروا الى كفر توماثا، ودارا في (سهول ماردین) فأتوا عليه بالسبي والقتل... فصار لهم عادة... يخرجون في كل سنة عند أوان الغلات الى ان أتوا على ريبض نصيبين... وتعدوا ذلك الى أن وصلوا الى جزيرة ابن عمر فأهلكوا نواحيها وسحقوا رأس العين... وعادوا الى ميفارقين وأرزن فخربوا قراها وعضدوا أشجارها وزروعها الى أن جعلت كالخاوية على عروشها"^(١).

ولاشك إن حالة الحرب والدمار التي عاشتها كُردستان مدة حوالي نصف قرن من العهد الحمداني، قد أدت الى تأخر الزراعة والصناعة والتجارة والعمران والحالة الثقافية أيضاً. وبخلاف العهد الحمداني، فقد أنقذ العهد الدوستكي البلاد من الدمار، حيث أقبل عهد السلام والإستقرار. فبعد إنتهاء المرحلة التأسيسية لم تحدث مصادمة مع دولة أو إمارة مجاورة (من بداية سنة ٣٨٣هـ وحتى نهاية ٤١٧هـ) أي خلال (٣٥) سنة. كما لم تحدث مصادمة من (٤٢٧هـ الى ٤٧٦هـ) أي خلال

(١) ابن حوقل، صورة الأرض: موضوع نصيبين، ص ١٩٢، لا نعلم بالتأكيد تاريخ الهجومين، فقد تكررت هجمات البيزنطيين على فارقين وأرزن ودمرتا مرات عديدة، كما شمل التدمير مراراً مناطق نصيبين ودارا وبالس وغيرها، منها هجومان في سنة (٣٣١هـ) وهجوم آخر في السنة التالية وفي سنة ٣٣٩ سنة ٣٣٥ و٣٣٦ و٣٦١ وغيرها ولعله يقصد بهما ما حدث في سنة ٣٣١ و٣٣٢. ومن أراد الوقوف على تفاصيل الهجمات البيزنطية على كُردستان بسبب سوء سياسة الحمدانيين، فليراجع المصادر التاريخية وأخبار سيف الدولة في حوادث السنوات المذكورة والسنوات الأخرى من فترة العهد الحمداني، كما أحيل القاريء الى أوائل هذا الجزء، موضوع أسس وطبيعة السياسة الخارجية للدولة الدوستكية.

(٤٩) سنة، وحتى زحف الجيوش السلجوقية على الدولة الدوستكية للقضاء عليها، هذا عدا إعتداء من مسلم بن قريش العقيلي(٢).

وقد كانت هذه حالة نادرة جداً بالنسبة لدول ذلك العصر المليء بالمعارك والحروب الدامية. فالإستقرار الذي لم تشهده أية دولة أو إمارة أخرى بالمنطقة، أدى الى إنصراف الشعب الى الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية والعمرانية. وهو ما أدى بدوره الى إزدهار الوضع الإقتصادي ورفع مستوى المعيشة.

لقد عملت الدولة الدوستكية في الواقع على بناء حياة جديدة في ذلك الجزء من كُردستان. وقد أشار الفارقي في تاريخه مراراً الى ما كان يتمتع به الشعب من الرخاء والرفاهية والحياة السعيدة والغنى فقال: "... وإستغنى الناس في أيامه (أي أيام نصرالدولة) وكان أحسن الأيام ودولته أحسن الدول"(٣).

وقال إن حالة فارقين وسكانها لم ترجع بعد سقوط الدولة الى زمانه، أي الى حوالي قرن كامل، الى (١/٢) مما كانت عليه في عهد الملك الدوستكي نظام الدين(٤). ومما يؤكد على هذا التقدم، أن كثيراً من الناس والتجار قدموا الى مدينة فارقين وإستوطنوها، مما أدى الى إزدياد عدد سكانها وعمارتها(٥).

ومن أشار الى هذا التقدم الإقتصادي إبن الجوزي، حيث قال في ترجمة حياة نصرالدولة أحمد بن مروان: "... رخصت الأسعار في زمانه وتظاهر الناس بالأموال"(٦)، وهكذا قال إبن الأثير(٧).

لقد كانت أيام الدولة الدوستكية عصراً ذهبياً لذلك الجزء من البلاد الكُردية من كافة النواحي الإقتصادية والإجتماعية والعمرانية، وبزوالها زال ذلك العصر. وقد اعتبر (أبو طلحة النعماني) زوالها عمىً ونكبة نزلت بسكانها، فقال في مقامة له: "قلت فدياربكر، قال بلد فقر وجبل وعمر. عمي إنسانها مذ ذهب مروانها"(٨)، أي منذ ذهبت دولة بني مروان الدوستكية. فرخص الأسعار للمواد الغذائية وغير الغذائية وتظاهر الناس بالغنى والثروة، إنما هو تعبير صادق عن إنتقال البلاد من حالة

(٢) وقعت بعض الحوادث خلال الفترة الثانية عبارة عن إستفزازات وتهديدات السلاجقة، التي أشرنا إليها في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية، والتي لم يكن لها تأثير على الحالة الإقتصادية للبلاد. وحدثت أيضاً إغارة (الغز) السلاجقة ذات التأثير السيء والتي مر ذكرها بالتفصيل في الجزء الأول، ص ٢١٣-٢١٥. كانت غارتهم عامة وشملت شهرزور ومنطقة الموصل وأذربيجان وغيرها.

(٣) الفارقي، ص ١٦٦.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٠٤.

(٥) نفس المصدر، ص ١٦٦.

(٦) إبن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٢٢٢.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦.

(٨) العماد الاصبهاني، خريدة القصر، قسم العراق ج ٢ ص ٦. عن مقامة لأبي طلحة بن أحمد الذي كان حياً سنة ٥١٧هـ.

الحرب والبؤس والمجاعة... وعن تحول مناطق فارقين وأرزن وغيرها من الخراب والدمار الى الإعمار والبناء.

وبسب التقدم الذي شهدته كُردستان الوسطى في كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والإجتماعية وفي مجال السلام والإستقرار وغيرها، قال ابن كثير وبدر الدين العيني، أن بلاد نصرالدولة كانت "آمن البلاد وأكثرها عدلاً"^(٩).

والأفضل أن نختتم هذه المقدمة بعبارة للطبيب ابن بطلان، الذي عاش في العراق وتحول في الشام ومصر والبلاد البيزنطية وقد وردت العبارة في مقدمة كتابه (دعوة الأطباء) الذي ألفه للأمير الدوستكي نصرالدولة. فقد أشار الطبيب الى ما شهدته البلاد من التقدم الإقتصادي في مجالات التجارة والزراعة والصناعة والعمارة أيضاً. وأشار الى كثرة الأعمال وفقدان البطالة، مما سبب رفع المستوى المعيشي والحالة الصحية، إضافة الى تقدم الطب فيها، فقال على لسان طبيب فارقين مايلي: "اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والأمصار وإشتغل أكثرهم في الروزجار وسوق العجل والفدان ونقل الجبصين من رؤوس الجبال... الناس متشاغلون بتصنيف الأقداح والقناني واختيار الملاهي والغواني..."^(١٠).

إلا أن عهد الإستقرار والعدل والسعادة هذا أقل بزوال الدولة الكُردية. فجم على البلاد وشعبها السعيد عهد من الإضطرابات والظلم بكله في ظل الحكم السلجوقي. ففي خلال عشرين سنة فقط من زوال الدولة الدوستكية في (٤٧٨هـ الى ٥٠٢هـ) حكم البلاد تسعة ولاة من قبل السلاجقة، كان معظمهم قاسياً، حتى هدمت بيوت جماعة من سكان فارقين وتشردت منها جماعة وتفككت ولاية فارقين. ويشير الفارقي في (ص ٢٨٤) الى ذلك بقوله: "وكل قليل يليها واحد وينهب ويصادر ويأخذ لأنه يتيقن أنه ليس بمقيم فأخذوا بلدها من دايرها وصادروا أهلها وخرت بيوتهم وإفتقروا". وفي سنة (٤٨٥هـ) أقام الوحش (تُتَش) بن ألب أرسلان مذبحه فطيعة في نصيبين حتى قال الفارقي في (ص ٢٣٤) أنه: "قتل من أهلها ما لا يحصى ونهب البلد أجمع وسبى الناس وجرى على أهل نصيبين

(٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٨٧.

(١٠) ابن بطلان، دعوة الأطباء، المقدمة. (الروزجار) العمل في البناء والروزكاري عمال بناء الدور أي عمال المبانى. وقد ذكر المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص ١٢١) ان (المنصور) عندما بنيت مدينة السلام كانت أجرة الأستاذ (أي البناء) وأجرة الروزكاري (أي العامل) الذي كان يشتغل على بناء المدينة - حبتين. وفي ص ٣١: أن روزكاري و (فاعل) مترادفان، ومعلوم أن الفاعل هو (العامل) والروزجار هو تعريب العامل. (روزگار) في المنجد الراز والجمع رازة وهو رئيس البنائين. أما (الفدان) فيقصد به الزراعة كما يقصد بالحفارين والحمالين حفاري القبور وحمالي جثث الموتى، كما يدل عليه سياق كلامه على لسان طبيب فارقين، الذي يشتكي من قلة الوفيات بسبب ارتفاع مستوى المعيشة وفتح الناس بالصحة في عهد الأمير نصرالدولة. أي أن حفاري القبور ظلوا عاطلين عن العمل فأخذوا يمارسون أعمالاً أخرى كالإشتغال في أعمال البناء والتجارة بالعجول والزراعة وجمع كبريتات الكلس لبيعها لأغراض صناعية.

(جبصين): ويقال أيضاً جبسين وجفصين، وهو الكلس الحجري المصنوع من الكبريتات المائية الطبيعية المتبلورة. أيضاً راجع المهندس إدوارد غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ١، ص ٢٥٠. يشير ابن بطلان بنقل الجبصين الى توسع أعمال الإنشاء والبناء أيضاً في العهد الدوستكي.

ما لم يجر مثله على الكفار". وفي سنة (٤٨٨هـ) ثار سكان آمد على حكم (تُتَشُّ) الظالم ولكن الثورة أخمدت. ولكن سياسة ملكشاه كانت بخلاف أخيه لينة كسياسة والده ألب أرسلان الى حد ما.

الزراعة

تعتبر كُردستان أقدم البلدان الزراعية، وقد أكد عدد من علماء الآثار أن قرية (جرمو) الواقعة في شرق چمچمال من محافظة كركوك، والتابعة الآن لمحافظة السليمانية، تعد أقدم القرى الزراعية في العالم. فقد عُثِرَ فيها نتيجة التنقيبات الأثرية على آثار زراعية من الحنطة والشعير والعدس والحمص تعود الى تسعة آلاف سنة (١١).

كما تمثل آثار قرية (زهقيا چه مي) في قرية شانهدر في بارزان أقدم قرية ظهرت فيها بوادر الزراعة وتدجين بعض الحيوانات قبل جرمو بثلاثة آلاف سنة. لقد حدث في كُردستان أول إنتقال للإنسان من مرحلة جمع القوت باليد الى الزراعة (١٢)، وهو يعد تطوراً كبيراً للحياة البشرية. لقد شهدت كُردستان الوسطى إنحطاطاً وتأخراً كبيرين في الزراعة في القرن العاشر الميلادي، أي في الفترة التي سبقت تأسيس الدولة الدوستكية. إذ عايش الفلاح الكُردى وضعاً سيئاً وإستغلالاً لم يشهد لهما مثيل من قبل. وبإمكانني القول بأن هذا الجزء من البلاد الكُردية لم يشهد ذلك التأخر الزراعي في القرون الثلاثة الماضية من الفتح الإسلامي للأسباب التالية:

١- الغارات البيزنطية المتتالية على هذا الجزء من كُردستان، ولاسيما مناطق دياربكر وفارقين وغرزان، وماردين. وكانت تلك الغارات تؤدي الى قتل وتشريد الفلاحين والى إتلاف المزارع والبساتين.

٢- سوء سياسة الحمدانيين: إذ كانوا يستغلون الفلاحين إستغلالاً فاحشاً، وفضلاً عن عدم تشجيعهم على الزراعة رفعوا مقدار الخراج الى نصف المحصول الزراعي والى أكثر من أربعة أخماسه في بعض الأحيان. وهو ما أدى الى فقر الفلاح وحرمانه. وكان كل من الأمير الحمداني ناصرالدولة وإبنه أبو تغلب يتفقان مع المزارع في نصيبين على نصف الوارد، ولكنهما كانا يقدران حصة المزارع حسب تقدير مجحف في البيدر، ويدفع عنها مقابل حصته مبلغاً قليلاً من النقود، بحيث كانت حصة الفلاح تنزل الى أقل من خمس المحصول الزراعي كله (١٣).

والى هذا أشار أيضاً الدكتور عبدالعزيز الدوري، حيث قال: "وفي زمن الحمدانيين قاست الجزيرة (أي بلاد الجزيرة) من كثرة الضرائب، فقد جعل ناصرالدولة نسبة المقاسمة النصف. ثم إنه كان في

(١١) طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الحضارة، الرحلة الرابعة، ص ١٦. بوشر في سنة ١٩٤٨ بالتنقيبات في جرمو من قبل بعثة تابعة لجامعة شيكاغو.

(١٢) نفس المصدر، الرحلة الخامسة، ص ٢٠.

(١٣) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص ١٩٣. والدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ص ٣٣٥.

بعض الأحيان يقدر ثمن الغلة ويعطي الزارع ثمن حصته حسب تقديره فتكون النتيجة أن نصيب المزارع يكون أقل من الخمس" (١٤).

وهكذا كان الفلاح يعاني ظلماً كبيراً على أيدي الحمدانيين خلال حكمهم الذي دام في كردستان حوالي نصف قرن. إذ كانوا يفرضون ضرائب ثقيلة متنوعة، ويغتصبون من الفلاحين أراضيهم، أو يجبرونهم على بيعها بثمن بخس. حتى إن ناصرالدولة إستملك البساتين والأراضي الزراعية في نصيبين كلها إلا قليلاً، فأصبح بذلك من أكبر الإقطاعيين في عصره. وبهذا الصدد قال ابن حوقل النصيبي: "ولم تزل (أي نصيبين) على ما ذكرته منذ أول الإسلام معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار، تتضمن بمائة ألف دينار إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة (٣٣٠هـ)، فأكبّ عليها بنو حمدان بصنوف الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم وتجديد كلف لم يعرفوها ورسم نواب ما عهدوها إلى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار". وبعد أن ذكر تشرد بني حبيب فراراً من ظلم الحمدانيين إلى البلاد البيزنطية، قال إن: "ناصرالدولة (الحسن بن عبدالله بن حمدان) إكتسح الأشجار المثمرة في بساتين نصيبين وزرع مكانها الحبوب. وإشترى من قوم وإغتصب من آخرين... وسلمها إلى من بقي من أهلها ولم يمكنهم النهوض عنها وأثروا فطرة الإسلام ومحبة المنشأ وحيث قضوا لبيانات الأيام والشباب على مقاسمة النصف من غلاتها إلى أي نوع كان على أن يُقدّر الدخل وقيمتها عيناً إن شاء أو ورقاً، ويعطي الحراث ثمن ما وجب له بحق المقاسمة، فيكون دون الخمسين ولم يزالوا على ذلك معه ومع ولده الغضنفر (أي أبي تغلب) إلى أن لحقا بأسلافهما الدجالين..." (١٥).

أما الزراعة في فترة السيطرة البويهية القصيرة على كردستان الوسطى (التي دامت من ٣٦٨هـ - ٣٧٢هـ) فقد ظلت على تأخرها وإنحطاطها، حيث لم تبذل الدولة البويهية جهداً في تقدمها وتحسين وضع الفلاح وتخفيف الضرائب وتخفيض نسبة الخراج (ضريبة الأرض) عنه، بل سارت على الطريقة الحمدانية نفسها. فمثلاً كان عامل البويهيين بنصيبين (ابن الراعي) يطبق ما سار عليه ناصرالدولة وأبو تغلب. فكان يدفع للفلاح ثمناً قليلاً عن حصته ولا يسمح له بأخذ شيء من المحصول إلا للبذار فقط، كما أوضح ابن حوقل (الذي عاصر الحمدانيين والبويهيين) ذلك. فقد قال بصدد البحث عن نصيبين، التي تتاخم الآن مدينة (قاميشلي) السورية الحديثة وكلا المدينتين تقعان على ضفة نهر هرماس (جغجغ): "وأهلها وقتنا هذا على أقيح ما كانوا عليه وفيه من تقدير وليهم عليهم كابن الراعي لا رحمه الله ومن يشبهه يستغرق أكثر الغلة وتقويم ما يبقى من سهم المزارع بثمن يراه وحمل ما وقع بسهمه إلى مخازنهم وأهراثهم ويرضخ له منه ما يسمح به لبذره ويقدر أنه ممسك لرمقه وعيشه في قوته" (١٦).

(١٤) الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ١٩٠.

(١٥) ابن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص ١٩٣. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في حلب والموصل، ج ١، ٣٣٥. وقد قتل أبو تغلب سنة ٣٦٩هـ وكانت الدولة البويهية قد أخرجت كردستان الوسطى والموصل من يده في السنة السابقة.

(١٦) الفارقي، ص ١٦٨.

أما زراعة الحنطة والشعير والعدس والحمص وغيرها وزراعة أشجار الفواكه والخضراوات في العهد الدوستكي، فلا بد بأنها شهدت تقدماً كبيراً. وذلك بسبب الإستقرار وسياسة البلاد الناجحة في الداخل والخارج، والتي إتسمت بالمرونة تجاه الفلاحين وغيرهم. وإنطلاقاً من هذا فإنها (أي الدولة الدوستكية) لم تكلف الفلاحين بالخراج الثقيل الذي كان يؤخذ منهم في العهود السابقة، وهذا هو المتوقع، رغم أنه لم يصل إلينا نص حول مقدار الخراج أو ضريبة الأرض الزراعية. كما ونلاحظ التقدم وتحسين وضع الفلاح في مواضيع عديدة من تاريخ الفارقي، وقد أشرنا في بداية هذا الموضوع الى بعضها مثل كون نصرالدولة لم يظلم طوال فترة حكمه البالغة أكثر من خمسين سنة أحداً، ولم يأخذ درهماً واحداً من أبناء شعبه، سوى قيامه بمصادرة أموال التاجر ابن جري (١٧)، وأخذ أموالاً كثيرة من القاضي أبي علي بن البغل (١٨) على سبيل المصادرة، حيث شك في إخلاصهما للدولة وذلك بوشاية من بعض المنافقين. ونلاحظ ذلك أيضاً مما ذكره الفارقي وغيره مما شاهدته البلاد من رخص الأسعار وتظاهر الناس بالغنى والأموال كما سلف. ونلاحظ ذلك التقدم الزراعي وغيره أيضاً في مباحة وتفاخر الملك الدوستكي نظام الدين بكثرة فلاحي بلاده وبضياعتها ومزارعها العامرة، وكثرة بساتينها وخيراتها من زراعية وغير زراعية، وسروره بعمارة بلاده وتقدمها. وقد أبدى نظام الدين سروره هذا وتفاخره وذكر مزايا بلاده للأمير الكردي أبي الهيجاء أمير (أربيل)، الذي بعثه السلطان السلجوقي الى نظام الدين لتزويده بمبلغ من المال. فقال نظام الدين لأبي الهيجاء وظن أن لايسلم إليه المبلغ مما يجلب نقمة السلطان عليه: "... يا ولدي ما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيراتها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعتها؟ أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار" (١٩). ثم سلم إليه المبلغ المذكور في اليوم الرابع.

ومما يدل على كثرة الإنتاج الزراعي ووفرة الحبوب ما ذكره عدد من المؤرخين من أن نصرالدولة كان يأمر في الشتاء بفتح الأهراء، أي مخازن الحبوب وإلقاء الحبوب للطيور البرية، فتكون في ضيافته طوال الشتاء (٢٠). وذكر الفارقي في (ص ٩٥) مخازن الحبوب في مدينة أرزن (غهرزان) بـ(بيوت الغلال).

(١٧) الفارقي، ص ١٧٤.

(١٨) ابن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص ٢١٣. قتل ابن الراعي سنة (٣٧٢هـ) حيث ثار عليه سكان نصيبين وانضموا الى الأمير باد. وقد مر التفصيل في الجزء الأول: موضوع ثورة نصيبين.

(١٩) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ٨٧-٨٨، تحدث لأسامة بذلك الأمير فضل بن أبي الهيجاء وذكر أن السلطان كان ملكشاه. ولكنني أرى أنه والده ألب إرسلان، الذي توجه سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) الى بلاد الشام عن طريق ديار بكر. أما ملكشاه فلم يحدث له ذلك وذكر الحديث تحت باب (تعقل صاحب ديار بكر)، فقال إن الأمير نظام الدين أبقى أبا الهيجاء عنده أربعة أيام، وفي كل يوم كان نظام الدين يأمر بإدخال أبي الهيجاء حماماً كانت جميع أدواته من الفضة وتهدي إليه في كل يوم أدوات الحمام الفضية مع بدلة ثياب فاخرة كل منها أفضل من أدوات الحمام وثياب اليوم السابق. أما أبو الهيجاء فهو الأمير الكردي ابن الأمير (موسك) الهذباني أمير أربيل، الذي قاتل سنة (٤٩٩هـ) بجانب الأمير جكرمش (جگهر مژ) أمير جزيرة بۆتان (جزيرة ابن عمر)، جيش السلطان محمد بن ملكشاه حينما زحف على الموصل.

أهم المناطق الزراعية

كانت في البلاد الدوستكية سهول خصبة جداً لزراعة الحنطة والشعير وغيرها من الحبوب، مثل السهول الواقعة في شرق دجلة، وتلك الواقعة بين مدينة دياربكر ومدينة حاني (هينتي) ولجتي وسهول فارقين وبشيري وأرزن إلى سعرد، وسهل مشار في شرقي (طنزه) وسهل (قردا) بين دجلة وجبل الجودي (سهل سلوي)، وسهل (باهدرا) أي سهل سليقاني الذي يمتد من بيشخابور حتى مدينة دهوك. وفي غرب دجلة سهول فسيحة في ولاية أورفا (الرها) وماردين ورأس العين (سهروكاني)، التي تنبع منها أكثر من (٣٠٠) عين ماء، وسهول نصيبين (نصيبين) وماردين وقسم من سهول قاميشلي السورية، التي كانت ضمن سهول نصيبين والتي كانت تمتد من مدينة نصيبين وحتى الجزيرة بطول (٩٠) كلم، وإلى جنوب مدينة دترك (مركز قضاء المالكية) السوري الذي كان يدخل ضمن سهل (بازيدا)، كما كانت مديني الجزيرة و(هزهخ) ضمن ذلك السهل، والحد الغربي لبازيدا كان جبل إيلم (علم السلطان أو علم الشيطان) في حدود منطقة طورعبدین (طورئ) وحده الشمالي والشرقي نهر دجلة. وهي سهول خصبة جداً بسبب تربتها البركانية. أما سهول خلاط ومنازجرد (مهلازگر) وموش فمعروفة أيضاً بخصوبتها. وتعتمد كافة تلك السهول في زراعة الحبوب على مياه الأمطار، إذ تسقط عليها كميات كافية من الأمطار لمناخها وقربها من الجبال، كما تكثر فيها عيون الماء إضافة إلى مجموعة من الأنهار منها: نهر بليخ في أورفا، وخابور رأس العين وهرماس في نصيبين أي نهر (جغجغ) الذي يلتقي بالخابور، وسقلان (سهقلانئ مهما) الذي يتكون من عيون ماء منطقة بازيدا الكثيرة ويصب في دجلة أسفل مدينة الجزيرة.

أما أهم أنهار شرق دجلة فنهر عنبار (أنبر- نهر الحو) شرقي دياربكر ب(٢١) كم والقادم من مدينة حاني)، ونهر باطمان (ساتيدما)، ونهر غهريزان (أرزن) وهو نهر (سربط)، ونهر بؤتان (الرزم) ويعرف أيضاً بالفرع الشرقي لنهر دجلة، ثم نهر (روسؤز)، ونهر بينات (باعيناثا) في جنوب شرق فندك، ثم نهر فنك، وبوري (بويار) الذي يصب في دجلة بالقرب من مدينة الجزيرة، ثم نهر نيردوش (نهر دوشا) الذي يكون الحد الغربي من سهل (سلؤزي) (سهل قردا)، ثم نهر هيزل وخابور زاخو.

ومن المحتمل بأن حرارة الأرض التي شاهدتها أنا بإسم (كوتان) كانت موجودة في العهد الدوستكي في المناطق الواقعة ما وراء بدليس، في سهول موش وخلاط ومهلازگر وأرديش (وان) وغيرها، هي الحرارة بأربعة ثيران أو جواميس أو أكثر وكانت حرارة فعالة. وقد ذكر المقدسي هذا

(٢٠) هؤلاء المؤرخون هم: ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٨، حوادث سنة ٤٥٣هـ. وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٨٧. والخزرجي، التبر المسبوك، مخطوطة، ورقة ٢٨. الأهرار: جمع هري وهو بيت كبير تُخزن فيه الحنطة. وهي كلمة لاتينية كما في المنجد مادة (هري). ومن الجدير بالذكر أن الكُرد يحفظون الحنطة والشعير في حفر عمودية بعمق حوالي مترين ويقطر حوالي متر واحد، ثم يغطون فوهة الحفرة بالطين والتبن كيلا يؤثر المطر فيها. وتسمى (جاله گهنم). وفي عام ١٩٧٧ رأيت في منطقة فارقين الزراعية نوعاً آخر لم أجده في أي مكان آخر، حيث كانت الحفرة على شكل خندق بطول حوالي عشرة أمتار أو أكثر يغطي بهيكل جملوني (زنجي) تتم تغطيته بطبقة من الطين.



باعيناثا

النوع من الحراثة في منطقة دبيل من أرمينيا وكانت تحت نفوذ الكُرد آنذاك. وقال بأن الفلاحين كانوا يزرعون ويحراثون بثمانية ثيران وأربعة سواق وذلك في (ص ٣٨١، من كتابه أحسن التقاسيم). وكان هذا النوع من الحراثة موجوداً حتى خمسينيات القرن العشرين، وقد شاهدها شخصياً في بعض تلك المناطق.

هذا وكانت تُزرع في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وقبلها الخنطة والشعير والأرز والسمسم والقطاني (جمع قطنية أي الحبوب ذات الفلقتين) من العدس والحمص والبقول، الى جانب القطن الذي كان يزرع في تلك البلاد.

أما مقدار الإنتاج الزراعي السنوي في البلاد الدوستكية فلم تصل إلينا أرقام إحصائية بشأنه، إذ لم يذكرها المؤرخون حتى الفارقي نفسه. لكن الجغرافي ابن حوقل النصيبي ذكر أرقاماً للإنتاج الزراعي السنوي لعدد من المناطق الكُردية (وهي تعود الى العهد الحمداني والى سنة ٣٥٨هـ = ٩٦٨م بالذات التي زار فيها ابن حوقل الموصل ونصيبين) وتتعلق بمقدار (الحاصل) السنوي أي حصة الدولة حسب نظام المقاسمة بالنصف. فهي إذن لنصف الإنتاج الذي يعلم منه مقدار الإنتاج الكلي لتلك السنة، أي قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة، وتلك المناطق هي نصيبين، ورستاق،

و(أبين) (٢١) الواقعة شمال غرب نصيبين داخل ولاية ماردين والمجاورة لطورعبدین، ومنطقة بازیدی ومنطقة قردی الى حدود باعینا (٢٢) الى طنزی (٢٣) وشاتان (٢٤) وبادرا (٢٥)، أي المنطقة الممتدة من دهوك الى النهاية الشمالية أو الشمالية الغربية من بوتان، أي الى نهر الرزم (نهر بوتان) الذي يجري في جنوب مدينة سعرد ويلتقي بدجلة عند قرية (تلاتيف روبا - تل فافان) وطول المنطقة حوالي

(٢١) يسميها الكُرد حالياً (بنيين) وهي قرية مسيحية بين مدينة ماردين أي في شرقها وبين محصرتي (مهحسرتي) الواقعة بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً شرق ماردين باتجاه طورعبدین. فرستاق (أبين) تشمل قرى في الجبل والسهل الواقع أمامه وبمحاذاته.

(٢٢) باعینا: هي غير باعینا الواقعة في غرب دجلة في شمال غرب الموصل، وهذه هي باعینا بوتان الواقعة في شمال غرب (فنگ)، وفي شرق دجلة بحوالي أربع كيلومترات جنوب شرق (فنگ)، وهي تقع عند النهاية الشمالية لواد جميل وتسمى بالكردية (بينات). ينبع منها عند عهونا التي بجنبها الأيسر نهر يصب في دجلة مقابل قرية (بافي). وهذه القرية (باعینا) كانت في عهد المقدسي مدينة مكونة من خمس وعشرين محلة كما وصفها. ويسمى نهرها حالياً بنهر (زبوی) (روبارا زبوی)، وفي واديها غابة كبيرة من أشجار الصنوبر الطبيعية وعلى جانبيه أيضاً، وفيه كذلك الكثير من أشجار الزيتون وبساتين كثيرة لقرى بينات وعهونا وبونسرا وزبوی. وبالقرب من بينات في الوادي آثار جامع (٥٠، ١٢×١٥م) ومنازة ومدرسة من القرون الوسطى، مما يدل على صحة قول المقدسي في (ص١٣٩، أحسن التقاسيم). وقد صورت هذه الآثار في التاسع من تموز ١٩٧٧، وكذا كهوف زبوی (نوليتي شيتان) وهي على شكل أربعة طوابق وإعتبرها (لايارد) مقبرة من العهد الأشكاني في كردستان (١٢٧ ق.م الى ٢٢٧ ب.م). وتقع قريتي ومسقط رأسي (زفنگ - زفنگا حاجي عهليان) في شمال باعینا. وقد سمى بعض الجغرافيين نهرها بد (نهر باسانفا) وهو خطأ، ولعلمهم يقصدون نهير شوي (شهوي) الذي يجري شرق مدينة قرية (باسا) وبين مصب النهريين أكثر من (٥) كلم. جذير بالذكر أن الطريق يمر في نفق صخري أسفل الكهوف كُتب عليه (هذا ما نقب الحاجي؟ بن محمد).

(٢٣) طنزی - طنزه: هي قرية (طانزه) الحالية الواقعة غرب (سهل مشار) وشرق نقطة إنتقاء نهر الرزم بدجلة. كانت فيها مدرسة شهيرة نشأ منها علماء أفاضل مثل يحيى بن سلامة الحصكفي، مفتي فارقين في القرن الثاني عشر، ومروان ابن سلامة تلميذ الغزالي. زرت القرية في ١٦/٨/٩٧٧ وشاهدت مدرستها القديمة، التي كان فيها في عهد الأمير بدرخان أمير بوتان سنة (١٢٦٣هـ = ١٨٤٧م) بالذات مائة وثلاثون طالباً منهم الشيخ خالد الزبياري على ما كتبه في نهاية مخطوطة بخطه. صورت مدرستها التي فيها قبور بعض من أمراء بوتان فرع طانزه. أما سهل مشار، فيمتد من شرقها نحو الشرق. وطانزه مشهورة بكثرة بساتينها وكانت مركز هذا الجزء من بوتان في عهد إمارة بوتان، والتفاصيل في كتابي المخطوط (كهشته كن نهركيولجي دكورستانا باكورد- هافينا ١٩٧٧).

(٢٤) شاتان: راجع بخصوصها موضوع الحياة البشرية.

(٢٥) باهدرا: حددها ابن حوقل في (ص١٩٧، صورة الأرض) بأنها تمتد من (المغيثة) الى الحابور، ومن معلثايا (ملطا)- الواقعة حالياً بالقرب من النهاية الغربية لمدينة دهوك كانت في العهد الآشوري مركز المنطقة وفيها تل أثري وآثار سور المدينة تُشاهد على الجانب الشمالي من وادي دهوك، وقد صورته في (١٩٩٥) الى (فيسنخابور) أي بيشخابور حيث مثلت الحدود العراقية التركية السورية. فكل من دهوك وزاخو تدلان ضمن باهدرا مع جبل (بيخير) وسلسلة الجبل الأبيض (جياي سيبي). والإسم جاء من بيت هدر- بيت حضرا أي (دار الحضارة). وكان فيها (مرعيث) مسيحي. وكانت توجد في ملطا مدرسة مسيحية نشأ منها علماء أفاضل وكان (نرسي) الملقب بد (لسان المشرق) من قرية (عين دهلي- عين الدالية) الواقعة في غرب ملطا بحوالي خمسة كيلومترات. أما دهوك وهي مركز محافظة دهوك الآن الممتدة من زاخو الى الزاب الكبير، فلم تكن سوى قرية في العهد الإسلامي. وفي ١/٤/١٩٨٢ اكتُشف أصلها للمرة الأولى من قبلي، وهو تل على الجانب الشرقي للنهر داخل المدينة. كانت المدينة في العهد الأشكاني مركزاً للمنطقة. وفي ١٩٩٥/٥/٢٥ اكتُشفت آثارها في الجانب الشرقي من مضيق دهوك لأول مرة أيضاً، واكتُشفت أسوارها أيضاً إضافة الى معبدها الزردشتي (شكهفتا جارستون) العظيم، الذي ألفنا كتاباً بخصوصه لم ينشر بعد. وقد نُحتت على واجهة الكهف (المعبد) رموز زردشتية وأعتبر ذلك من أهم إكتشافاتي الأثرية.



تل فافان

(٢٥٠) كيلومتراً وتل فافان كانت موجودة في العهد الآشوري.

نظراً لأهمية إحصائية ابن حوقل التي ذكرها في (صورة الأرض، الصفحات: ١٩٤-١٩٥، ١٩٧-١٩٨). للإنتاج الزراعي للمناطق المذكورة قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة، ندرجها فيما يلي بشكل قائمة. علماً أن الإنتاج مقدرٌ بالـ(كُرّ)، الذي كان أكبر كيل و يساوي طناً وثمانين كيلوغراماً، وكان سعر الكُرّ من الحنطة والشعير (٥٠٠) درهم وتساوي (١٢, ٣٣) ديناراً، بما أن الدينار كان يساوي حينذاك خمسة عشر درهماً.

المنطقة	حصة الدولة بالكُرّ	الإنتاج الكلي بالكر
نصيبين	١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
رستاق أبنين	٢٠٠٠	٤٠٠٠
بازيدا	٢٠٠٠	٤٠٠٠
قردا-باعيناثا		
طنزي-شاتان	٣٠٠٠	٦٠٠٠
باهدرا	٣٠٠٠	٦٠٠٠

أما بالنسبة للإنتاج السنوي من القمح لبعض القرى، فقد ذكر الفارقي في (ص١١٥) أن إنتاج قرية (عطشا) كان (٣٦٠) جريباً أي ما يساوي (٢٥) طناً و(٩٢٠) كيلوغراماً. وقد جعل نصرالدولة إنتاجها وقفاً للفقراء والمساكين كان مستمراً حتى زمن الفارقي، الذي ألف تاريخه (تاريخ ميفارقين وأمد) سنة ٥٧٢هـ، أي بعد وفاة نصرالدولة بـ(١١٩) سنة. أما ابن حوقل فقد ذكر في (ص١٩٦) أن بعض القرى في قردا وبازيدا تنتج ألف كُرّ سنوياً من الحنطة والشعير والقطن أي

العدس والحمص والبقول وغيرها من ذوات الفلقتين، والذي يساوي ألفاً وثمانين طناً.

القطن

كانت زراعة القطن موجودة في العهد الدوستكي وقبله بكثير وقد ذكر ابن حوقل في (ص ١٩٣-١٩٦) في منطقة نصيبين على ضفاف هرماس (٢٦) ويازيبا وقردا، وكذلك في رأس العين والمدن

(٢٦) لم يبق حول نصيبين الآن شيء من بساتينها التي اشتهرت بها في القرون الوسطى، بل أصبحت تُستغل لزراعة القطن. وفي ١٩٩٥ و١٩٩٦ مكثت فيها أياماً، فوجدت البساتين تنحصر فقط في الوادي الجميل الواقع خلف المدينة، الذي يجري فيه النهر وينبع من نهايته الشمالية المسماة (سهرةكاني) فرع من النهر وهو صاف رقيقا ويلتقي بالنهر في أسفل منبعه فرع آخر ينبع من الوادي الواقع في بين الوادي الأول ويسمى (كهلي ديتشكج)، إلا أن ماءه غير صاف فيه بعض المعادن. وفي وادي سهرهكاني شاهدت قناطر في طرفه الشرقي تسمى (بازنئ تاقان)، ولعلها هي نفسها القناطر الرومانية البيزنطية التي ذكرها اليعقوبي في القرن التاسع في كتابه (كتاب البلدان، ص ١١٣) وقال فيه أن: "نصيبين مدينة عظيمة كثيرة الأنهار والجنان والبساتين وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلب"، وسكان المدينة حالياً جلهم من الكرد. وكان أبناء عشيرة (نومهرى) أقوى سكانها، ولكن قسماً منهم تشردوا إلى المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. كما تشرد إلى نصيبين الكثير من سكان بوتان. ولايفصل نصيبين عن القامشلي الكردية في سوريا سوى خط الحدود. هذا وقد تم إدخال قسم من المدينة ضمن الحدود السورية، ويوجد الآن بعض من آثار سورها في القسم الجنوبي من المدينة الحالية عند الحدود إلى جانب وجود جزء آخر من السور المذكور على الضفة الغربية للنهر عند نقطة دخوله الأراضي السورية. كانت المدينة القديمة تبعد بحوالي (١٨) كلم جنوباً عن جبل هرماس، الذي يسمى الآن بجبل (باغوك). وعلى الجبل قلعة تسمى (كهلهالدين) التي تقع شمالي (سهرةكاني). وفي تاريخ الفارقي (ص ٢١٠) أن قلعة (بالوصا) على رأس الهرماس، أي على الجبل المطل على منبع النهر. فلا نعلم هل أن المقصود بقلعة (الدين) هي قلعة بالوصا التي كانت تشكل حدوداً بين ديار ربيعة وديار بكر، أم أنها قلعة (بارين) هذا علماً بأن هناك قرية باسم (مارين) تقع في سلسلة باغوك وبمسافة حوالي (٢٥) كلم إلى الشرق من نصيبين، تسكنها حوالي (٦٠-٥٠) أسرة. وهي قرية قديمة حيث يعثر فيها على مواد أثرية إضافة إلى كون إسمها قريباً من إسم (بعرين)، التي كانت تعد من ضمن ديار بكر لا ديار ربيعة كما ورد في الصفحات المذكورة من تاريخ الفارقي. وبخصوص المعلومات المذكورة إستفدت من المعلومات الشخصية للسيد بشير محمد طاهر من سكان نصيبين في ١٥/٣/١٩٩٨. وفي شباط عام ٢٠٠٠ ذكر لي السيد عبدالهادي محمد نوري شيخ عمقاني معلومات قيّمة عن القلاع والآثار الموجودة فوق نصيبين، أي على جوانب وادي نصيبين (وادي هرماس-كهلي بونسرين) الذي يبلغ طوله سبعة كيلومترات وينتهي بمنبع النهر. ومن تلك الآثار قلعة بونسرا (كهلهالدين بونسرا)، التي تقع على تل مرتفع في قرية بونسرا الواقعة على الطرف الغربي من نهر جفجف (هرماس). وتعتبر القرية المذكورة ثاني القرى بعد قرية (شانشين) في وادي هرماس من الجهة الغربية، سكانها من عشيرة (دهك شوري). وقلعة أخرى هي قلعة (شيخ عثمان) القريبة والواقعة في شمال بونسرا بنفس اتجاه النهر. وتسكن في قرية شيخ عثمان عشرون أسرة من عشيرة ههويركي، وفي شمالها الغربي قريباً هناك قلعة (قهرة تازين) المبنية بالحجر والجص. وفي شمالها قلعة (ماساري) المبنية هي الأخرى بالحجر والجص والتي تقع في قرية (ماسار) التي في شمالها واد يسمى (كهلي ديتشكج) الذي ينبع منه (ناقا رهش - الماء الأسود) الحاوي على المعادن، ويلتقي هذا ب(ناقا سبي - الماء الأبيض) في أسفل (سهرةكاني - سهري كههينئ). أما (سهرةكاني - رأس العين) فينبع من نهاية وادي نصيبين الجميل وهو منبع (هرماس) كذلك. وفوق المنبع المذكور قلعة بييري (كهلهالدين) في الجبل، حيث يصعد طريق قديم من المنبع في الجبل إلى دزاه ويتجه إلى منطقة طورعبددين (طوري). الطريق المذكورة منحوتة في صخور الجبل في بعض أقسامها وذلك باستخدام المتفجرات، ولا بد بأن ذلك تم في العهد العثماني لغرض توسيعه، كي تسير فيه العربات التي تجرها الخيول. مدينة (مديات) تقع خلف الجبل المذكور بمسافة حوالي (٣٠) كلم. ولنعد إلى أسفل الوادي، حيث توجد قرب نصيبين على الجانب الشرقي للوادي قرية (باوهرنئ) وفوقها قرية (گورين) وفوقها (بازنئ تاقان)، حيث توجد على الجانب الشرقي للوادي أقواس لبنانية قديمة كنت قد صورتها وقال عنها عبد الهادي بأنها معروفة ب(دير). وبالقرب من المكان شرقاً ثلاثة كهوف فيها مساطب لوضع الخث، أي أنها قبور قديمة ربما من=



سهره كاني

الواقعة على خابورها مثل ماكسين، والمجدل، وعرابان، وحران. وقد ذكر الأصبخري في (مسالك الممالك، ص ٨٢) بأن أغلب زراعة رأس العين هي من القطن، مع كثرة أشجار الفواكه فيها لخصب أرضها. معظم الأراضي الواقعة حالياً حول نصيبين تزرع قطناً وتُسقى من مياه (هرماس). وقد إعتبر الأصبخري نصيبين "أنزه بلد بالجزيرة وأكثرها خضرة" وبأن لها "مباخس كثيرة"، ويقصد الأراضي الديمية الكثيرة التي لاتصلها مياه نهر (جغجغ - چقچق) النابع من جبل بالوسا (أي جبل باغوك). وذكر أيضاً بأن مدينة خلاط تستورد كميات كبيرة من قطن مدن خابور. كما أشار حمد الله المستوفي أيضاً في (نزهة القلوب، ص ١٠٣) الى زراعة القطن في منطقة أرزن (غهرزان) ووصف قطنها بالجودة.

كانت زراعة القطن في كُردستان قديمة، فقد ذكر أستاذي سعيد الديوهجي المؤرخ الموصللي الجليل في كتابه (أعلام صناعة المواصله، ص ٣٤) أن: الآشوريين جلبوا بذور القطن والكتان من الهند وزرعوها. أما آدم متز فقد ذكر في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٣٥٦) أن القطن حُمل من الهند شمالاً مباشرة قبل أن ينتقل غرباً وشرقاً بزمن طويل، وأنه لم يكن يُزرع في العراق وإنما نُقل إليه من شمال فارس وما بين النهرين (أي من المناطق الواقعة بين دجلة والفرات في شمال العراق ومعظمها مناطق كُردية). ويقصد متز بذلك أن زراعته إنتشرت في القرن العاشر الميلادي وقد نشره الحمدانيون على الفلاحين رغم ما عُرف عنهم من الجور وعدم الإكتراث بالأشجار، كما إنتشر في القرن المذكور في شمال أفريقيا. وأشار الى أن القطن لم يكن معروفاً في الصين في القرن الثالث عشر.

=العهد الأشكاني، وفي شرقها آثار لقرية (عيني) وفيها (١٥) كهفاً. أما جبل (باغوك) فيمثل القسم الشرقي من الجبل المطل على وادي (سهره كاني) وهو يمتد شرقاً. وكانت (نصيبين الروم) تقع على الجانب الشرقي من الفرات وتابعة لآمد.

أما بالنسبة لزراعة الرز، فكانت موجودة في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وقبله بكثير فقد ذكر عالم الآثار (ليو أوبنهايم) في كتابه (بلاد ما بين النهرين، ص ٥٧) أن: أهالي فارس على ما يقال أدخلوا زراعة الرز الى بلاد بابل. وعلى ذلك يُتوقع وصوله الى كُردستان في ذلك العصر، أي في القرن السادس قبل الميلاد أو قبله. أما السمس فزراعته قديمة، حيث كان موجوداً في العراق في الألف الثالث قبل الميلاد.

الفواكه

أما الفواكه فكانت كما هي اليوم منتشرة وكانت تجري زراعتها في كافة مناطق الدولة الدوستكية. وأهم مناطق زراعة الكروم هي المناطق الجبلية وبالدرجة الأولى منطقة طوري (طورعبدین) الواقعة في غرب دجلة وشرق ماردين، وفي مناطق بوتان، وشيروان وهيزان ومناطق حاني، ولجي، وكولب (قلب)، وبدليس وزاخو وغيرها وكانت توجد في كُردستان أنواع عديدة من الفواكه كالعنب بمختلف أنواعه والتين والتفاح والكمثرى والإجاص والخوخ والمشمش والرمان والسفرجل. وقد أشار الفارقي في (ص ٢٢٤-٢٢٥) الى ما كان حول مدينة فارقين من الكروم وبساتين الفواكه والخضروات والبقول. وقد جلبت كثرة العنب ورخص أسعاره إلتباه الرحالة الفارسي ناصر خسرو في مدينة أرزن في العهد الدوستكي. فقد قال المذكور أن البرسيين أي الزردشتيين كانوا يبيعون مائة (مَن) من العنب بدينار واحد في شهر تشرين الثاني (أي في أواخر الخريف). وقال إنهم يسمون العنب بـ(رز أرمانوس) (٢٧). من الجدير بالذكر أن الفاكهة كانت موجودة في كُردستان منذ العهد الآشوري (٩١١-٦١٢ ق.م) لوجود رسوم للعنب وكذا التين على العديد من الآثار الآشورية (٢٨)، وبدليل وجود العنب البري في كُردستان. ويذكر أن الخمر كان يستخرج من العنب في المناطق الكُردية شمال بلاد الرافدين ومنها في منطقة طورعبدین (أسالوا القديمة) ويصُدر الى بابل في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، وكان خمر عنب (كورانو) أغلى سبعة أضعاف من خمر التمر (٢٩). وبهذا الدليل ندحض ما ذكره آدم متز

(٢٧) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٧. ومن المحتمل بأن ناصر خسرو خطأ في تسمية العنب المذكور، لأن (رَز) بالكُردية تعني بستان الكرم وليس بمعنى العنب، وأظن بأن (رز أرمانوس) هو إسم لبستان أو بساتين كروم معينة في غرزان (تهرزن). أما إذا كان حرف الباء من أصل الكلمة، فتكون (برز) فإنها تعني بالفارسية بستان الكرم.

(٢٨) راجع اللوحات ٥٤. ٥٥. ١١٠ من (D.R. BARNET/ ASSURIAN PALACE RELEIFE. LONDON.) راجع أيضاً جورج كوتنينو، الحياة اليومية في بلاد آشور وبابل، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، طبعة بغداد ١٩٧٩. وفي ص ٩١ أن: أشجار الكروم وصلت حديثاً الى بلاد آشور أي خلال العهد الآشوري. وفي ص ١٤٣ و ٩٠: كانت فواكه الرمان وثمر المشملة والتفاح والأجاص والمشمش والكمثرى والفسق والرمان والخوخ موجودة في العهد الآشوري بشمال بلاد الرافدين، أي في كُردستان.

(٢٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٩٨. يعزو آدم متز الى الإصطخري في (مسالك الممالك، ص ٢٦٦) قوله بأن العنب الطائفي نُقل بالأصل من الطائف بالجزيرة العربية الى العراق وخراسان في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. ولكنني راجعت كتاب الإصطخري المذكور، فلم أجد فيه أية إشارة الى ما نسبته إليه آدم متز، الذي أخذ بقوله باحثون في وقتنا هذا. فالإصطخري لا يزيد على قوله (والزبيب الطائفي الذي يُحمل الى الآفاق معظمه يرتفع من مالن وكروخ) من مدن خراسان. ولعل إسم هذا النوع من العنب هو الذي يوهم بأنه إنتشر في الأصل من منطقة الطائف بالجزيرة العربية، والذي يكثر في كُردستان بعدة أنواع.

من أن الذين أدخلوا العنب الى بلاد العراق وإيران هم المقدونيون، وقد عناه متز الى سترابو (٣٠).
ومن الفواكة النادرة التي كانت موجودة في كردستان في العهد الدوستكي (شاه بلوط) أو
(كستناء) وكانت موجودة في نصيبين، فقد أشار إليها المقدسي (٣١). ولا زالت موجودة الى الآن،
ولكن لاندري هل إن الفواكه النادرة الموجودة في هيزان (حيزان) (٣٢) من شاه بلوط وبنديق وفسنتق
كانت موجودة في العهد الدوستكي أم لا؟ هذا علماً بأن الأنواع الثلاثة الأولى غريبة عن كردستان،
إذ لم نسمع بوجودها في منطقة أخرى منها ما عدا الشاه بلوط (كستنائي) الموجود في نصيبين آنذاك
(علماً أنه غير موجود الآن حيث لم تبق أشجارها) ومن المحتمل أنها نقلت الى كردستان من بعض
البلدان الشرقية أو من أذربيجان أو من آسيا الصغرى حيث يتوفر فيها. وقد صرح كل من ياقوت
الحموي والقزويني وعبد اللطيف البغدادي بوجود الشاه بلوط والبنديق في هيزان (٣٣)، بينما أشار أبو

(٣٠) راجع جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ص ١٦٨.

(٣١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٠.

(٣٢) تقع مدينة هيزان في المنطقة الجبلية الواقعة في جنوب شرق بدليس وجنوب غرب بحيرة وان، وتبعد عن سواحلها
بحوالي (٤٥) كلم. كانت مدينة صغيرة محفوفة بالساتين الكثيرة. وفي شرفنامه، ص ٢٧٤ يقول المؤلف أن بانيها
في عهد المغول يحتمل أن يكون نصيرالدين الطوسي. وقال أيضاً أن كل الفواكه الموجودة في أذربيجان وإيران موجودة
فيها، ولكن ما قاله شرفخان خطأ، حيث أنها كانت موجودة قبل ذلك العهد بكثير. فمثلاً ذكرها المقدسي وياقوت
الحموي وغيرهما. وقد أورد شرفخان بحثاً لأمرائها وأول من ذكر منهم هو الأمير سليمان، الذي كان حياً سنة ٨٢٤
كما يفهم من كلامه، ومنهم أيضاً الأمير داود بن الأمير ملك، الذي شيد في هيزان المدرسة الداودية التي تخرج منها
علماء أفاضل. وتولى الإمارة بعده ابنه السلطان أحمد، ثم أبناء الأخير محمد وملك خليل والمير محمود ثم الأمير
حسن بن ملك خليل. وذكر أن أمراء هيزان ومكس وأسباير من عائلة واحدة في الأصل.

جدير بالذكر أنه نشأ في منطقة هيزان الكثير من العلماء من ذوي العلم والفضل. وقد نبغ من هؤلاء ملا خليل
السعدي صاحب المؤلفات الكثيرة. لقد عظم شأن هذه المدينة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حينما
أصبحت إحدى أكبر مراكز العلم والطريقة النقشبندية في كردستان في عهد الشيخ صبغة الله المعروف عند الكرد باسم
(غوث هيزان)، الذي أخذ الطريقة النقشبندية من (السيد طه) الكبير الشمزي خليفته مولانا خالد السليمان. وقد
احتفظت هيزان بشأنها في عهد أبنائه الشيخ شهاب الدين ومحمد شيرين وابن أخيه السيد علي، الذين أعدموا في
مدينة بدليس من قبل الأتراك سنة ١٩١٣ لقيادتهم ثورة كردية ضد الحكم العثماني التركي إنتهت بإخادها من قبل
القوات التركية وإعدامهم. أما أستاذهم (خليفه سليم) فقد لجأ الى القنصلية الروسية في بدليس. ولما نشبت الحرب
العالمية الأولى في السنة التالية أخرجه منها الأتراك وأعدموه. وبهذا فقدت هيزان مركزها العلمي ومدرستها، التي
كانت تضم الكثير من الطلبة والأساتذة الذين كانت أسرة هيزان تنفق عليهم من مالها الخاص. ومن أشهر أساتذة
المدرسة المذكورة (ملا خالد أوله كى) وكان من أمثال الملا خليل السعدي ومحمد بن آدم. هذا وقد تفرعت أسرة هيزان
من الأسرة الأرواسية المشهورة بالعلم، والتي نبغ منها الشيخ فهيم الأرواسي وابنه الشيخ محمد أمين الذي ألف كتاباً
عديدة باللغة الكردية على ما يذكر. وتجدر الإشارة هنا الى شاعر معاصر وهو ملا أحمد الهيزاني وله ديوان نشر باللغة
الكردية وشعره جيد وهو من أسرة مشايخ هيزان. وفي ١٠/٨/١٩٧٧ زرت هيزان وكانت توجد فيها حينها (١٨)
أسرة، وقمت بتصوير آثارها ومنها السور والقلعة وقبر الفتاة (سينهم) التي شاعت بصدها بين الكرد أغنية مشهورة.
وقد كتبت بخصوص هيزان معلومات مفصلة في كتابي المخطوط (گهشته كين نهركيولزجي دكوردستانا باكورد)،
(١٩٧٧).

(٣٣) الحموي - معجم البلدان ج ٢ ص ٣٣١. القزويني - آثار البلاد ص ٣٦٠. البغدادي - مراصد الإطلاع ج ١ ص ٤٤١.

الفداء والقلقشندي وسباهي زاده الى وجود البندق فقط (٣٤). وقد قال الثلاثة الآخرون بعدم وجوده في أي مكان آخر من بلاد الجزيرة والعراق والشام. كما لم يشير ابن حوقل الى وجود الشاه بلوط في نصيبين بينما هو من سكانها أصلاً، كما لم يشير اليه غيره من جغرافيين القرن العاشر الميلادي ممن كتبوا عن نصيبين، فمن المحتمل أنه زرع فيها في الفترة الواقعة بين زمن ابن حوقل وياقوت التي تمتد حوالي قرنين، بضمنها العهد الدوستكي، هذا ولم يهتم الكرد بزراعة البندق والفسق و شاه بلوط وعنب كشميش من الفواكه النادرة الموجودة في هيزان، فلا نجد لها منتشرة في كردستان الوسطى.

أما الزيتون، وهو من نباتات البحر الأبيض المتوسط فقد كان موجوداً في كردستان في العهد الأشوري (٩١١-٦١٢ ق.م) ولكن على نطاق ضيق. أما في العهد الدوستكي فقد كانت موجودة ولكن بقدر قليل أيضاً، رغم وجودها في نصيبين وماردين. هذا بالإضافة الى أشجار الزيتون والبندق والفسق التي زرعت من قبل (مار حنانيا) مطران ماردين في دير الزعفران في أواخر القرن السابع الميلادي (٣٥). وتوجد أشجار الزيتون في شمال غرب مدينة الجزيرة في بوتان في (فك) ووادي بينات (باعيناتا) وفي قرية دهوك في منطقة (شرنخ) ماوراء جبل الجودي. إلا أن الكرد بصورة عامة لم يهتموا بزراعة الزيتون.

ومن الفواكه التي كانت الموجودة في كردستان في العهد الدوستكي (التفاح) وتوجد الآن عدة أنواع محلية منه في كردستان وهي قليلة المقاومة، ولعل النوع الخلاطي كان موجوداً في عهدها. ويشبه هذا النوع التفاح اللبناني الأحمر ويمتاز عن الأنواع الأخرى بمقاومته للبقاء، حيث يبقى الى الشتاء، ويوجد أيضاً في غير مدينة خلاط من الأماكن الواقعة على سواحل بحيرة (وان) مثل وان وأرتميت (أدرميت)، ويسميه الكرد أينما وجد هذا النوع بالتفاح الخلاطي نسبة الى مدينة خلاط

(٣٤) أبو الفداء- تقويم البلدان ص ٣٧٣. القلقشندي- صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٧٤. سباهي زاده- أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك ص ١١٧- مخطوط. والشاه بلوط يشبه البلوط في قشرته ولبه ولكنه يختلف عنه في طعمه الحلو وحجمه الصغير. ويوجد الشاه بلوط في قبرص والبندقية بإيطاليا.

(٣٥) الشهابشي، الديارات، ص ٢٤١، تعليق للأستاذ غورگيس عواد. وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب، ج ١، ص ٢٥٨، بأن الزيتون تم غرسه في العراق أول مرة في عهد الملك الساساني شابور الأول وذلك من قبل أسيره الإمبراطور الروماني فاليريان في سنة (٢٦٠م) أو السنوات التي تلتها، وهذا غير صحيح. وتجدر الإشارة الى أنه كانت هناك (٩٠٠٠) شجرة زيتون في عصرنا هذا في الخمسينات في قرية (فزيك) الواقعة شرقي سعد وشمال بوتان، كما في (ج ١، ص ٨٦ من DOGU ANADOLU) تأليف حسين سراج أوغلو، ولعلها عُرس في المنطقة قديماً كما في بوتان. إنتشرت زراعة الزيتون حديثاً في كردستان تركيا. ففي سنة ١٩٧٠ بلغ الإنتاج من الزيتون (٧٠) ألف طن في ولاية عينتاب المتاخمة لمحافظة حلب السورية. وتوجد في (بينات) غابة طبيعية لأشجار الصنوبر، كما توجد غابتان في زاويته وأتروش من كردستان العراق، ولم نسمع بوجود تلك الأشجار في مكان آخر من البلاد الكردية عدا مكان واحد في لورستان. والنوع الموجود في (بينات) يستخدم السكان أخشابيه اليابسه في الإضاءة بدلاً من الشمع لإحتوائها على الدهن. وقد ذكر العالم الكردستاني المشهور أبو حنيفه الدينوري (القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي) أن هذا النوع من الصنوبر يسمى (أزرد كرد)، وهو لفظ آري. وذكر بأن الخشبة تستعمل كالمصباح للإضاءة وتسمى (دازين) وقال إنه لفظ رومي (يوناني). راجع القطعة المطبوعة من الجزء الخامس لكتاب النبات، ص ٢٠٣ لأبي حنيفه طبع ليدن.

الكردية، وقد نُقل هذا النوع من كُردستان الى بلاد الشام وزرع هناك. وقد ذكر البديري (٣٦) التفاح الخلاطي (الأخلاطي) من بين أنواع التفاح الموجودة في دمشق. وأضاف حبیب زيات بأنه مازال موجوداً بنفس الإسم لحد الآن (٣٧).

الخضراوات

كانت خضراوات البصل والثوم والكرث والقرع والبطيخ والمجزر تزرع في العهد الدوستكي لكونها خضراوات قديمة موجودة في كُردستان منذ العهد الآشوري. أما القثاء فكان موجوداً هو الآخر. وأما (الترعوزي) فقد ذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة (١٢٢٩م) بصدد قرية (ترع عوز) الواقعة في منطقة حران (من ولاية أورفا) أنه: يزرع بها نوع من القثاء عذياً (ديماً) يسمى (ترعوزي) نسبة الى هذه القرية. ويلاحظ من كلامه أن ترعوزي الذي كان يزرع ديمماً لم يُشاهده في مكان آخر رغم تجواله في كثير من بلدان الشرق الأوسط، وإن زراعته لم تكن منتشرة فيها. ولاندرى مدى إنتشاره في الأماكن الأخرى من كُردستان آنذاك، لكنني أشك أن الترعوزي لم يكن منتشراً في الشرق الأوسط إذذاك.

أما البطيخ الأخضر (الرقبي - وبالكردية شوتي، زه به ش) فلا ندرى هل إنه كان موجوداً في كُردستان في العهد الدوستكي أم لا؟ هذا مع العلم بأن بطيخ دياربكر من هذا النوع حاز إعجاب زوار المدينة لضخامته، حيث كان وزن البطيخة الواحدة منها يبلغ أحياناً سبعين كيلوغراماً، وهو ما لم نسمع بوجوده في البلدان الأخرى (٣٨). أما بطيخ دياربكر الأصفر فكان وزن البطيخة منه يبلغ عشرات الكيلوغرامات أحياناً، ولكن بضخامة أقل من النوع الأول (٣٩). لقد أشار الفارقي في (ص ٢٢٥) الى ما كان يزرعه الناس حول مدينة فارقين من "جميع الفواكه والخضر والبقول".

الثروة الحيوانية

قام سكان كُردستان بتربية أنواع الماشية من أغنام وأبقار وماعز قبل عشرة آلاف سنة. وقد بدأوا بالماعز أولاً قبل الكلب ومن ثم الأغنام فالأبقار، وذلك إستناداً الى إكتشاف عظام هذه الحيوانات الداجنة في (زاوي چه مي) والصحيح (زهقيا چه مي) في قرية شاندر الواقعة على الزاب الكبير قرب كهف شاندر في محافظة أربيل، وكذلك ما عُثر عليه في موقع (چرمو) الواقع في جنوب سلسلة

(٣٦) البديري: هو أبو البقاء أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أحمد له مؤلفات عديدة كما في (الأعلام، الزركلي، ج ٢، ص ٤١). ورد إسمه في كشف الظنون، ج ٢، ١٩٤١ عبدالله بن محمد وهو خطأ، حيث صححه الزركلي إستناداً الى وجود إسمه بخطه على كتابه نزهة الأنام. وتوفي سنة (٨٩٤ هـ = ١٤٨٩م).

(٣٧) حبیب زيات، الخزانة الشرقية، ج ٢، ص ١٧، نقلاً عن نزهة الأنام في محاسن الشام للبديري.

(٣٨) راجع: HAYAT- TURKIYE ANSIKLUPEDISI

(٣٩) قال أبو النناء الألويسي مفتي بغداد في القرن التاسع عشر في كتابه (نشوة المدام، ص ٦١) أنني شاهدت في حضرة الوزير دياربكر بطيخة خضراء تكاد تظل القاعة، فإستغربت ذلك جداً وأمرت قبانوي أن يزنها فوزنها فبلغ وزنها ثمان وعشرين حقة. وقال لي الوزير أنه وزن واحدة مرة فبلغ وزنها أربعين حقة ووزن بطيخة صفراء فكانت ثلاثين حقة.

بازيان (جبل لارب) من محافظة السليمانية^(١).

وقد عبّر الطبيب ابن بطلان عن الثروة الحيوانية والتجارة في هذا الباب في الدولة الدوستكية بد(سوق العجل) والإشتغال فيه، كما مر نص كلامه في أوائل موضوع (الحالة الإقتصادية).

إشتهرت كُردستان بثروتها الحيوانية نظراً لكثرة المراعي الصيفية والشتوية فيها، فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة (٦٢٤هـ) أن: منطقة (الزوزان) هي سوق لبيع الأغنام والماشية، فالتركمان والكرد والكيلكان هم رعاة ماشية يتنقلون في فصلي الربيع والصيف من الأماكن التي أشتوا فيها الى الزوزان، فيبيعون الغنم رخيصاً^(٢).

وقد وصف الثعالبي الصوف الأرمني بأنه من أجود الأصواف بعد صوف مصر، وهو أحمر على ما ذكره آدم منتر في (الحضارة الإسلامية، ص ٣٥٤)، وكانت تصنع منه الفرش التي كانت من أجود أنواع الفرش. يشار الى أن معظم الأغنام حالياً في المناطق الكردية في ولايات بدليس وموش ووان وصولاً الى نهر آراس صوفها أحمر كثيف وقصير، وهو ما يسمى بالصوف الأرمني.

وكانت البغال القوية والحمير والأفراس كثيرة في كُردستان، إذ كانت تستخدم لأغراض النقل. وكانت أعداد البغال والأفراس أكبر لدى القبائل الرحل بسبب إستخدامهم لها في نقل متاعهم من مكان لآخر. وقد ذكر ابن حوقل ذلك بقوله: وبهذه البلاد (أي أرمينية الى فارقين) وفي أضعافها من التجارات والمجالب وأنواع المطالب من الدواب والأغنام. وقال أيضاً: ويجلب من الزوزان ونواحي أرمينية والران من البغال والحمير الموصوفة بالصحة والجلد والفراهة والصبر - والى العراق والشام وخراسان وغير ذلك ما يستغنى بشهرته عن وصفه. وقال أيضاً: الزوزان ناحية وقلاع لها ضياع الغالب عليها الجبال ويكون بها الشهاري الحسنة الموصوفة بالجمال والفراهة ما يقارب شهاري طخارستان وربما زاد عليها وعلى نتاج الجوزجان^(٣).

كما قال في صفحة (٢٠٢-٢٠٣) في بحثه عن مدينة الجزيرة وتجارها: وليست الجزيرة كأرزن وميفارقين من قلة الماشية والكراع. أي أن منطقة الجزيرة (منطقة بهتان - بوتان) تفوق منطقة أرزن وفارقين في كثرة الغنم والماعز والبقر، والكراع أي الخيل والبغال والحمير. وكانت فرس الجزيرة من أجود الأفراس^(٤) وكان في فارقين خارج السور من جهة القبلة سوق خاص لبيع وشراء الخيل وقد سمي (سوق الخيل).

(١) راجع طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواقع الآثار والحضارة، الرحلة الخامسة، ص ٢٠، والرحلة الرابعة.
(٢) زوزان: كلمة كردية تطلق على المضارب الصيفية الباردة جداً شتاءً والمعتدلة صيفاً. وتمتد منطقة زوزان من القسم الأعلى الشمالي من بوتان من (دهشتا ميرا) و(ههههكول) الى بحيرة وان وهكاري، وهي المنطقة المحددة باسم (زوزان) كإسم جغرافي محدد. ولكن إسم (زوزان) يطلق أيضاً على المضارب الصيفية في موش وبنكول. كيلكان: لم أجد الإسم في غير ابن الأثير ومن المحتمل أنها عشيرة أو عشائر أرمينية رحالة. والإسم قريب من إسم (كيلكويين) وكانت مدينة في أرمينية على ما في (صورة الأرض، ص ٣٠٠) لابن حوقل، ويفهم منه أنها كانت تقع في أرمينيا العليا، أي ما وراء نهر آراس (نهر الرس)، وفي ابن الأثير، حوادث سنة (٦١٩هـ). ويفهم بأن (جبل كيلكويين) بفتح اللام يقع في منطقة (كنجه) من أذربيجان السوفياتية سابقاً (بلاد آران) ويحتمل أن يكون هذا بعيداً عن موضوعنا.

(٣) ابن حوقل، ص ٢٩٦ و ٢٩٧: الشهاري: الأفراس

(٤) راجع الأضطخري، مسالك الممالك، ص ١٢٥.

أما الإبل فكانت توجد في مناطق دياربكر والرها، وقد جاء ذكرها أكثر من مرة. ففي تاريخ الفارقي (ص ٦٨) أن الأمير أبا علي حسن بن مروان عندما تظاهر سنة (٣٨٤ هـ) بالخروج الى خارج البلد للمشاركة مع سكان العاصمة في الإحتفال بعيد الأضحى: "أخرج من النجائب والزينة ما لم يُر مثله" والنجائب هي الإبل وكانت تستخدم في مواكب الأمراء كما توجد حالياً في دياربكر وأورفا وكما كانت موجودة في سعرد في النصف الأول من القرن العشرين.

النحل والعسل

كان النحل البري يتواجد بكثرة في المناطق الجبلية الكُردية ذات الغابات الكثيفة، وكان يبني خلاياه في جذوع الأشجار وثقوب الصخور في شتى العصور. ولكن وجود ذلك النحل قلّ في الوقت الحاضر بسبب قطع الأشجار بكثرة من قبل السكان وبسب جهل وطمع الذين يجنون العسل، إذ لا يبقون منه شيئاً في الخلايا ليقتات عليه النحل شتاءً، مما كان يؤدي الى موته جوعاً.

أما النحل الداجن فكان منتشراً بكثرة هو الآخر، وكان الكُرد يحصلون منه على كميات كبيرة من العسل يصدرونه الى خارج بلادهم. وفي العهد الدوستكي كان كثيراً ورخيصاً جداً فقد ذكر ناصر خسرو (في سفرنامه، ص ٤٣) الذي سلك بلاد الدولة الدوستكية في طريقه الى مصر: أن الشخص الواحد في (بدليس) يجني في السنة الواحدة من العسل ثلاثمائة وأحياناً أربعمائة جرة عسل. وكان مائة (من) من العسل تباع بدينار واحد. وقد أشار المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص ١٤٥) الى وجود العسل في حران، كما أشار ابن حوقل الى العسل في مدينة الجزيرة كمادة تجارية تحملها المراكب (في دجلة) ويُشحن الى العراق مع المواد التجارية الأخرى وذلك في (صورة الأرض، ص ٢٠٢).

المعادن

كُردستان بلد غني بمختلف أنواع المعادن، وقد ثبت لدى علماء الآثار معرفة سكانها القدماء بالنحاس وإستخدامه عن طريق الطرق منذ تسعة آلاف سنة (إذ لم يثبت لحد الآن إكتشاف أقدم من ذلك التاريخ في أماكن أخرى)، وذلك في قرية (جاينون)، الواقعة على مقربة من قرية (هالار) الحالية الواقعة على مسافة (٨) كلم جنوب غرب مدينة (معدن- أرغن) وهي مركز قضاء تابع لولاية دياربكر يقع على مسافة (٥٨) كلم شمال مدينة دياربكر، القريبة من منبع نهر دجلة. كما عرف سكان كُردستان النسيج أيضاً في جاينون^(١). وكان يتم تصدير النحاس من منطقتي دياربكر والقفقاس الى أوروبا قبل وصول الآريين الى أوروبا، أي قبل (١٦٠٠) سنة قبل الميلاد^(٢).

تعود بدايات إستغلال منجم النحاس في مدينة أرغن (معدن) الى العصر الحجري الحديث، وإمتد إستغلاله مروراً بالعصور التاريخية اللاحقة حتى اليوم. ويعتبر المنجم المذكور أكبر منجم للنحاس في

(١) راجع، سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ص ٣٠.

(٢) جورج رو، العراق القديم، ص ٣٠٨.

تركيا اليوم. وكان يجري تصدير النحاس من كُردستان كذلك الى العراق من هذه المنطقة في الألف الثالث قبل الميلاد (٣).

يذكر بن الآشوريين إستفادوا هم أيضاً في عصرهم من منجم (معدن-أرغن) المذكور. ومن المرجح أن الدولة الدوستكية قد إستفادت هي الأخرى من هذا المنجم للحصول على النحاس، الى جانب مناجم كثيرة أخرى كانت موجودة في القسم الأعلى من بوتان وحتى منطقة (شاخا ههكاريا) الواقعة في جنوب بحيرة وان، حيث توجد الآن آثار المئات من ال(كُور) التي إستخدمت لصهر الحديد والنحاس في هذه المنطقة والتي لم تكتب عنها المعلومات (٤).

وعندي أنها هي المقصودة بالإشارات التاريخية الواردة حول وجود النحاس في أرمينيا، وكذلك

(٣) يقول الدكتور فوزي رشيد في، ترام سين ملك جهات العالم الأربع، ٣٨، بأن القوافل التجارية في عهد ترام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) كانت تنقل النحاس من آسيا الصغرى. وكانت قرية (باستكي) الواقعة بين دهوك وزاخو، التي عُثر فيها على تمثال لترام سين، محطة للقوافل التجارية. وقد ذكر في ص٧٣ بأن التجار كانوا يحصلون على القصدير من مناطق تقع على نهر دجلة من بلاد آشور، هذا علماً أن المؤرخين والآثارين المتأخرين يدخلون كُردستان تركيا ضمن اسيا الصغرى وأحياناً الأناضول، بحسب الحدود التركية الحديثة. وذكر المؤلف أيضاً أن التجار العراقيين كانوا يصدرون القصدير الى الأناضول، لإفتقار المنطقة الى هذه المادة، الى جانب المنسوجات الصوفية. وفي العهد الآشوري كانت نفس التجارة موجودة.

(٤) ذكر لي أخي الملا أحمد يوسف، وهو قوي الذاكرة، وسكن مدة في قرية (خومار) الواقعة في جنوب مدينة (شاخا ههكاريا) مركز إحدى أفضية (وان) في آخر حدود الولاية من الناحية الجنوبية، وتجول في تلك المنطقة المتصلة بأعالي بوتان وله معرفة نوعاً ما بالمعادن- ذكر لي عن مشاهدته (كور) الحديد (كورين هسن) على ما يسمى هناك - في خومار ووادي (سكوتيت) بين خومار وقرية (فرجينس) وفيها قلعة عليها كتابة مسمارية وتقع في حدود بوتان وهكاري، وكذلك (ههروخ) وسفوح جبل (كوره نديل) وقرية (هيتشهت - هيتشهت) بهري سبي - براسيبيا كانت عشيرة قديمة) وجبل (كاتو) المنيع. وتوجد في الجبل غابات كثيفة من الأشجار كانت تقطع لإستخدامها في إيقاد النار في الكور الموجودة بكثرة هناك لصهر خامات الحديد والنحاس. وأضاف بأن إنتاج الحديد والنحاس كان يتم في تلك المنطقة. وتوجد الآن الألاف من قطع الحديد والنحاس المبعثرة فيها إضافة الى قطع الرصاص. وأضاف الملا أحمد، الذي تجول في المنطقة مع أحد خبراء المعادن (وإستفاد من معلوماته)، بأن ماوراء حزام الغابات هذا باتجاه الشمال من مناطق وان وما سمي قديماً بأرمينية، مناطق خالية من الأشجار الطبيعية، ولذلك لم تكن هناك كور لصهر الحديد فيها لإحتياجها الى مقادير كبيرة من الخشب لإيقاد النيران في الكور. وعلى هذا، فإن إنتاج الحديد والنحاس المنسوب قديماً الى أرمينية، كان يتركز في هذه المنطقة المشجرة من بوتان والى حدود مدينة (شاخ) من منطقة هكاري. وزاد الملا أحمد بأن هذا العدد الهائل من الكور قديم، وإن السكان قبل حوالي سبعين سنة كانوا يستخرجون عروق الرصاص من المنطقة في حدود قرية (بيرخو) شمال شرق مدينة (شاخ) في وادي (كاكان)، حيث كانوا يستخرجون تلك العروق الضخمة من الرصاص ويستخدمونها في صنع الذخائر لبنادقهم. ويحتمل أن الرصاص كان يستخرج قديماً أيضاً من هذه المنطقة.

وقد ذكر أندريه بارو في كتابه (بلاد آشور، ص٢٥١) أن هناك إشارات متواصلة في الألف الثالث قبل الميلاد وفي عهد سرجون الأكدي بالذات (٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م) في النصوص المسمارية الى "جبال الفضة"، التي تقع في هذه المنطقة على وجه الدقة في أرمينيا وآسيا الصغرى. وذكر أيضاً النحاس والرصاص في أرمينيا وآسيا الصغرى، اللذين كان العراقيون يستوردونهما (ص٢٤٨، ٢٥٠). وقد وجدت في بعض المصادر إشارة الى منجم للفضة في منطقة (شاخ). وفي سنة (١٩٥٥-١٩٥٦) سكنت في منطقة شاخ وتحديداً في قرية (گوران دشت) التي يقال أن الذهب موجود فيها، حيث قامت الحكومة التركية بفحص أطراف القرية للعشور عليه. وكان السكان قد أخفوا عنها الأمر رغم شيوعه بينهم. والخلاصة أن مناجم النحاس والحديد والرصاص، والتي نسبت فيما بعد الى أرمينية إنما هي المناجم الواقعة في هذه المنطقة الكُردية التي كانت تحت سيطرة الدولة الدوستكية وكان الأرمن والكُرد يعيشون مختلطين هناك، لكن الأرمن هم الذين كانوا يستخدمون المناجم.

الحديد والرصاص والفضة. علماً أنه يوجد منجم للحديد أو النحاس بالقرب من مدينة (مكس) الواقعة في الشمال الغربي من تلك المنطقة. وقد ذكر المؤرخ الملا أنور المائي في (الأكراد في بهدينان، ص ٣٩) بأن السكان المحليين في بهدينان كانوا يستخرجون الحديد والنحاس حتى عام ١٨٧٩م، ثم تركوا الأمر حينما فرضت عليهم الدولة العثمانية ضرائب باهضة. ولا تزال آثار إستخراج الحديد موجودة بكثير في جبال المنطقة أي جبال اعمادية وزاخو. وهناك منجم آخر في قرية قهشان (كشان) في شمال شرق زاخو. والمجدير بالذكر أن تلك الأماكن كانت كلها تحت السيطرة الدوستكية. هذا وقد تم إكتشاف منجم آخر للنحاس في شمال دياربكر بالقرب من (قلعة ذي القرنين) في سنة (٥١٦هـ = ١١٢٢م)، على ما ذكر ابن الأثير في حوادث تلك السنة وكذلك ابن شاعر الكتبي في (عيون التواريخ، ج ١٢، ١٣١) (٥).

وذكر الهمداني في (كتاب البلدان، ص ٢٩٧) أن معادن الزئبق والقلند (أي الزاج المائل للخضرة)، والقلقطار (أي الزاج الأصفر الذي فيه حمرة)، والأسرْب (أي الرصاص الرديء) موجودة في أرمينية. وقد ألمحنا سابقاً الى أن العديد من الجغرافيين القدماء والمؤرخين أطلقوا إسم (أرمينية) على المناطق الواقعة شرق دجلة، كمنطقة بوتان وغيرها من المناطق الكُردية غير الأرمينية، ولهذا فقد سجلت مصنوعات ومنتجات تلك المناطق الكُردية بإسم أرمينيا، لكون الكُرد والأرمن لهم تاريخ مشترك. ولاشك بأن إستخراج وإستغلال تلك المعادن لم يتوقف خلال العهد الدوستكي، بل شهد توسعاً بسبب حالة الأمن والإستقرار وإزدياد السكان وتوسع التجارة آنذاك.

أما أحمد بن التيفاشي التونسي فقد شاهد في جبال منطقتي دهوك وزاخو وجبل الجودي الواقعة على الطريق بين الموصل ومدينة الجزيرة (تخوم بلاد أرمينية)، أي حدود أرمينية وذلك على ما مرّ بها، أحجار (بازهر) من الأحجار الكريمة، وذلك في النصف الأول من القرن الثالث عشر (٦). وفي موضوع (البأور) ذكر التيفاشي وجوده في أرمينية وهو للمصفرة الزجاجية كأنه مطبوخ بالنار وذلك في

(٥) يأتي ذكر حصن ذي القرنين في كثير من المصادر التاريخية والجغرافية القديمة، ويأتي ذكره أحياناً بإسم رباط ذي القرنين. ورغم أنني لا أستطيع أن أشخصها، إلا أنها كانت تقع في شمال لحي بمسافة حوالي (٢٠) كلم، وقد سلكها ابن حوقل في طريقه من فارقين الى ملاطية. وقال إن المسافة من فارقين الى هتاخ Atak (القريبة من لحي) مرحلة ومن هتاخ الى حصن ذي القرنين مرحلة خفيفة. أما لحي Lige فإنها تقع في شمال شرق مدينة دياربكر بحوالي (٩٠) كلم وفي شرق حاني بمسافة حوالي (٢٥) كلم أو أكثر.

(٦) التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص ١١٧-١١٨، تحقيق ونشر الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمد بسيوني خفاجي. توفي التيفاشي سنة (٦٥١هـ = ١٢٥٣م). زار المذكور كُردستان باحثاً عن المعادن والأحجار الكريمة، وذكر أن حجر (بازهر) أبيض فيه نقط من ألوان صفر وهو رخو المحك سريع الإنحكاك، تصنع منه قبضات السكاكين كما يستخدم للأغراض الطبية، حيث يحك بالماء ويُطلى به موضع الضربة أو السقطة، فيبرأ المصاب. وقد تناول أنستاس الكرملي (باد زهر) أيضاً في معجمه (المساعد، ص ١٠٩) وإعتمد على التيفاشي بالدرجة الأولى ثم على ابن البيطار، وقال إن إسمه العلمي هو (بيزوليثس). في القاموس الفارسي (برهان جامع) لمؤلفه محمد كريم: أن (باد زهر) يذكر من قبل العوام (بازهر) وبالعبية (حجر التيس). ويسمى الكُرد في زاخو هذا الحجر بإسم (بهري) بازي) أي حجر (بازي).

كتابه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص ٢٠١). وفي القرن العاشر الميلادي الذي ظهرت فيه الدولة الدوستكية، كانت معادن النحاس والمغنيسيا معروفة في باجنسيا (باتنوس) الواقعة شمال شرق بحيرة وان (٧).

كما عرف فيها أيضاً عدد من النباتات الطبية، فقد ذكر ياقوت الحموي نقلاً عن مسعر بن مهلهل، الذي زار هذه المنطقة في القرن المذكور: "أن في باجنسيا معدن الملح الأندرائي (٨) ومعدن مغنيسيا ومعدن نحاس وبها الشيح الذي يستخرج الدود من الجوف، إلا أن التركي خير منه وبها أبستين وأستوخودوس" (٩).

ويحتتمل أن منجم الحديد أو النحاس الواقع في قرية (هلال) في وادي غويان في شرقي الجودي، والذي كان يستغله سكانه المسيحيون حتى وقت قريب، أن يكون مكتشفاً منذ زمن قديم. وهذه القرية قريبة من جورجيل (جردقيل) مركز الإمارة البختية في العهد الدوستكي. أما الرصاص، فكان يستخرج من نصيبين ويصدر الى الخارج على ما ذكره الجاحظ في القرن التاسع الميلادي (١٠).

وفي جبل ماردين كان يوجد حجر زجاج جيد كان يُصدر الى سائر بلاد الجزيرة والعراق والبلاد البيزنطية، وكان مفضلاً على سواه (١١).

(٧) راجع بصدد باتنوس - باجنسيا موضوع الحياة البشرية: العرب.

(٨) في تذكرة أولي الألباب، ج ١، ص ٣٢٣ لداود الأنطاكي أن الملح الأندرائي هو من أجود أنواع الملح، وهو على شكل صفايح بلورية. وفي محيط المحيط للبيستاني، ج ٢، ص ٢٠٥٦، أنه الملح شديد البياض المستعمل في الطعام.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، مادة: باجنسيا. الشيح نوعان: الشيح الأرميني الذي ينبت في أرمينية ومن ضمنها باجنسيا من كردستان، وهو أصفر زهره يشبه السذاب في ورقه، والنوع الثاني هو الشيح التركي وهو أحمر الزهرة عريض الورق. ويستعمل النوعان لأغراض طبية في مجال معالجة أوجاع الظهر والورك وضيق النفس وداء الثعلب والرمد وعسر البول... راجع الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب، ج ١، ص ٢٢٠ وهو كتا مؤلف في الطب.

أبستين: يعرف أيضاً بأفستين ودمسيسة وشيح رومي وحترق، وهو عشبة معمرة من فصيلة المركبات الأنوبية الزهر تنبت برياً في الأصفاء المعتدلة. وأفستين كلمة يونانية. والنبات معروف بإستخدامه للأغراض الطبية في معالجة آلام الأذن وفي تنقية الرئة والإختناق وسوء الهضم وطرد الديدان وعسر البول وأمراض أخرى. راجع داود الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب، ج ١، ص ٤٩، ٥٢. وإدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ١، ص ٥.

ويجدر بالذكر أن نبات اسفنتين كما يسميه الكُرد معروف الآن في كردستان، حيث يجمعه الناس في بعض المناطق ويغولونه ويشربون ماءه لمعالجة أوجاع البطن، ولإزالة الكُرد يستعملون نباتات كثيرة في طبهم الشعبي. وذكر الأنطاكي نباتاً طبيياً بإسم الكُرد وهو (بخور الأكراد)، وهو يرباطوده له أزهار صفراء فوق ساق دقيقة، راجع المصدر المذكور، ص ٧٠.

أسطوخودوس: كلمة يونانية، ويسمى أيضاً الكمون الهندي وبالعربي الضرم، وهو نوع من الخزامى يبلغ طوله من ٢٠-٤٠ سم، أوراقه خيطية رمداء اللون أزهارها سنابل. وهو نبات طبي أستخدم قديماً في علاج أمراض كثيرة وهو مفيد للقلب وتنقية الكلية والطحال والمعدة والكبد. ويستخدم أيضاً في حالات الربو. ويستعمل بخور الأكراد كذلك في حالات الصداع والصرم. راجع الأنطاكي المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢-٤٣. وإدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ١، ص ٣٥٥ وفي كتاب النبات للعالم الكُردستاني أبي حنيفة الدينوري، ج ٣، ص ٢١٠. أن الضرم أي أسطوخودوس طيب الرائحة يتشمم به وكذلك دخانه طيب ويدلك به أجواف الخلايا فتألفه النحل.

(١٠) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٢٦.

(١١) إبن حوقل، صورة الأرض، ص ١٩٤.

وقد ذكر ذلك كل من ابن حوقل والأصطخري في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). أما الزرنیخ فكان يستخرج في نفس القرن من أحد الجبال القريبة في جنوب بحيرة وان، ويجلب منه إلى البلدان الخارجية وهو أصل الزرنیخ ومنه الأحمر والأصفر (١٢).

ومن الجدير أن أولیا چلبی تحدث ولو في وقت متأخر عن وجود الزرنیخ في السواحل الشمالية لبحيرة وان (١٣).

لقد كانت للزرنیخ المستخرج من هذه المناطق شهرة عالمية في القرون الوسطى بضمنها العصر الدوستكي نظراً لجودته وأهميته في المجال الطبي (١٤).

وكان الزنجبيل يصدر في القرون الوسطى من منطقة هكاري الواقعة في جنوب بحيرة وان، بنوعيه الأصفر والأحمر إلى العديد من البلدان الخارجية (١٥). كما إكتشف في هكاري أيضاً معدن اللازورد (١٦). ومن بين المعادن التي ذكرت أيضاً في القرن العاشر الميلادي البورق، الذي كان يجلب

(١٢) الإصطخري، مسالك الممالك، ص ٧٣. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٧٩.

(١٣) ذكر أنه توجد في خلاط وقد زارها في القرن السابع عشر وفي سنة (١٠٦٥م) بالذات، معادن مختلفة منها الزرنیخ الأحمر ويستعمل في الغسل (بطريقة يعرفها السكان) فيجعل البشرة لينة كالقطن، ويستعمل أيضاً دواءً للجذام والبرص، ومرض داء الشعلة وذلك بتناول المريض مقداراً قليلاً منه كالدائق. وذكر أيضاً أنه يوجد الزرنیخ الأصفر في الجبل الواقع شمال خلاط ويصدر إلى بلاد العرب والعجم وأوروبا، حيث يستعمله الكيميائيون. كما ذكر أنه يوجد مختلطاً بالماء في أحد الينابيع في الجانب الشمالي الشرقي من جبل الجواز (عادل جواز)، أي جبل (سبحان- سيبانن خه لانتن) المطل على بحيرة وان. هذا وما ذكره أولیا چلبی من استخدام الزرنیخ في كردستان في الطب صحيح، لأنه يستعمل الآن في دول مختلفة في الطب لتقوية البنية وفي علاج بعض الأمراض الجلدية باعتبار مادة سامة وكذلك في مكافحة الحشرات الزراعية. علماً أن الزرنیخ عنصر شبه معدني، والأحمر منه هو كبريتوز الزرنیخ الطبيعي. راجع موسوعة علوم الطبيعة، ج ١، ص ٤٨٧، تأليف المهندس الزراعي إدوار غالب.

(١٤) يمكن أن نلاحظ شهرة الزرنیخ العالمية مما مر ذكره داود الأنطاكي في كتابه الطبي، تذكرة أولي الألباب، ج ١، ص ١٧٧ من أن (كل الزرنیخ يتكون بجبال أرمينية وجزائر البندقية). ومن هذا يتضح أن قسماً كبيراً من الزرنیخ العالمي كان يستخرج من كردستان. ونكرر الإشارة أيضاً إلى أن معظم الجغرافيين والمؤرخين القدماء وغيرهم أدخلوا مناطق كثيرة من كردستان تحت اسم أرمينيا حتى فارقين وحدود نهر دجلة. راجع على سبيل المثال ابن حوقل، ص ٢٩٥. فالمقصود إذن بجبال أرمينيا التي كانت تضم معادن الزرنیخ إنما هي الجبال الواقعة في السواحل الجنوبية أو الشمالية الغربية لبحيرة وان، والتي كانت ضمن الدولة الدوستكية من البلاد الكردية، ولم نسمع بوجوده في منطقة أخرى من أرمينيا. وكان للزرنیخ في القرون الوسطى أهمية كبيرة كمادة طبية وصناعية. راجع التفاصيل في المصدر المذكور. أرادت الدولة العثمانية على إستخراج الزرنیخ في هكاري في أواسط القرن التاسع عشر، وفي الأرشيف العثماني وثائق بهذا الخصوص كالوثيقة (A.A MD-29: 88 و A.A. M-26:11).

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧٦ نقلاً عن مسالك الأبصار للعمري. الزنجبيل: نبات له أوراق عريضة يفرش على الأرض وأغصان دقيقة. وفي كتاب النبات لأبي حنيفة أحمد بن داود وتند الدينوري الكردي: أن للزنجبيل عروقاً تسري في الأرض، يؤكل رطباً ويستعمل يابساً وأجوده ما يأتي من الصين وبلاد الزنج. ويستعمل الزنجبيل في العقاقير الطبية فهو مدرر ويدفع الغازات ومهيج، وهو دواء لأوجاع الرأس وأمراض أخرى. راجع تذكرة داود، ج ١، ص ١٨٠، وكتاب النبات، ج ٣، ص ٢١٤، طبع بيروت ١٩٧٤. وكانت عمان مشهورة فقط من بين بلدان الشرق الأوسط بنبات الزنجبيل.

(١٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧٦. اللازورد: معدن يتخذ للحلي، أجوده الأزرق الشفاف الضارب إلى حمرة وخضرة وهي كلمة فارسية. وأشار إلى وجد اللازورد في جبال أرمينيا داود الأنطاكي كذلك كما ذكر فوائده الطبية. =

من سواحل بحيرة وان ويصدر الى العراق وغيره (١٧) من البلاد المجاورة حتى بلاد الشام ومصر (١٨) ولاشك أنه كان يستغل في عهد الدولة الدوستكية وقد أشار الطبيب ابن بطلان الى إستغلال معدن آخر في العصر الدوستكي وهو (جبصين) أي كبريتات الكلس المائي الطبيعي المتبلور، وذكر أنه كان ينقل من المناطق الجبلية (١٩). أما مجال إستخدامه فلم يذكره، ولاشك بأنه كان يستخدم في الأعمال الإنشائية وفي مجال الصناعة.

الفضة

أشار الدكتور جمال رشيد في كتابه القيم (دراسات كُردية في بلاد سوبارتو) الى وجود معدن الفضة في بلاد (تابال) المشهورة التي تقع شمال (كينكوار) مركز (أنزفيجك) في الزوزان أي على منابع نهر (بهتان)، بمعدن الفضة (في التاريخ القديم)، وذلك على ما ورد في أخبار حملة شلمنصر الآشوري عام (٨٣٨ ق.م).

يتضح مما تقدم أن معدن الفضة كان يوجد في المنطقة التي كانت تكثرت فيها مناجم الحديد والنحاس. إذ أن (كنكور) كانت تقع في منطقة (كوه قه نديل - كور قنديل) وقلعة أروخ وهي قلعة من قلاع البختية، أي قلاع بهتان المجاورة لمنطقة (شاخا هه كاري). وقد ورد ذكر كنكور في معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٦ وكذلك في الأعلام الخطيرة، ورقة ٦١ لإبن شداد (٢٠).

ومن المحتمل أن (كنيخوانو) كانت كينكور و(شالاخوانو) هي (شاخ - شاخا هه كاري)، حيث ورد الإسمان في الكتابات الآشورية الخاصة بأخبار الحملة الثالثة ل(شمس أدد ٨٢٣-٨١١ ق.م). يحتمل أن منجم الفضة هذا، الذي كان معروفاً في القرن التاسع قبل الميلاد، كان معروفاً في العصور التالية

=راجع تذكرة أولي الألباب، ج ١، ص ٢٧٧. وقد فاتني أن أذكر أن القلقشندي أرخ لإكتشاف اللازورد في هكاري القرن الرابع عشر، وأضاف بأن الأمير الكُرد الهكاري أسد الدين بن عماد الدين بن أسد الدين أخفى معدن اللازورد، كي لا يسمع به ملوك التتر (ولعل الصواب المغول) فيستولوا عليه.

(١٧) ابن حوقل، ص ٢٩٧. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣١٠. البورق: ملح معدني مركب مع الصوديوم، يكثر وجوده في التبت وإيران وكاليفورنيا. فوائده الإقتصادية كثيرة حيث يستعمل في عدة صناعات. راجع إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج ١، ص ١٧٤، ذكر أيضاً في ج ٢، ص ٥١١ نوعاً من البورق وهو المسمى بالبورق الأرمني، وقال إنه كيميائياً نترات البوتاسيوم يتجمع على الصخور الكلسية ويستعمل في صنع البارود. وقال آدم متز في كتابه المذكور: إن البورق لم يوجد في غير بحيرة وان وكان الخبازون يستعملونه في القرن العاشر في تلميع الخبز. وذكر نوعاً من البورق نقلاً عن ابن حوقل وهو المسمى بورق الصاغة، حيث كان الصاغة يستعملونه في لحام الذهب والفضة. وكان يستخرج من سواحل بحيرة كبوذا أي (بحيرة أورمية) وهو ما يستحجر من مياه البحيرة المذكورة الشديدة الملوحة. والبورق الأول نوع من الملح أقوى من الملح العادي. ولعله الملح الأندرائي الذي سبق أن ذكرناه.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، ص ٦٦٢.

(١٩) ابن بطلان، دعوة الأطباء: مقدمة. راجع معنى آخر لجبصين في أوائل موضوع الحياة الإقتصادية.

(٢٠) ورد إسم كنكور في العديد من المصادر والمراجع منها كتاب (عمادالدين زنكي، ص ١١٣) للدكتور عمادالدين خليل، وهي غير مدينة (كنكور) التابعة لأستان كرمانشاه والإسم بالكردية وبالإملاء الكردي الحديث (كهنگيوهر أو كنگيوهر).

حتى العهد الدوستكي أيضاً. وكان في كُردستان الوسطى منجم للفضة في الألف الثاني قبل الميلاد، إذ يلاحظ مما كتبه المؤرخ الدكتور جمال أيضاً أن معدن الفضة كان موجوداً في ساديبار، وإسمها (شالاتوار)، في العهد الحيثي وإسمها في اليونانية (سارديوارا) وبالآشورية (سارديواري)، وكانت تقع بين دياربكر و(كوخ توشينيا) وكانت ضمن البلاد الميتانية. ويوجد معدن للفضة عند قرية أتنان (تهتهنان) في طرفها الجنوبي الشرقي، والقرية تقع على ساحل بحيرة وان بحوالي كيلومتر أو أقل وفي الطرف الشرقي من مدينة (وسطان) على الطريق العام، وكان الناس يستخرجونه في ستينات القرن العشرين والقرية تعود لعشيرة (بروكي) الكُردية.

الصناعات

النسيج:

لقد تعلم سكان كُردستان صنع النسيج للملابس قديماً، فقد عثر في (جايونو) شمال دياربكر على قطعة من النسيج ملفوفة بقرن أحد الحيوانات، وذلك في الألف السابع قبل الميلاد. وبسبب التطور الحاصل في عهد الدولة الدوستكية كما سلف، شهدت الصناعات التي كان يزاولها السكان تطوراً هي الأخرى. ومن هذه الصناعات: الصناعات اليدوية التي كانت صناعة النسيج القطني إحداها وتمثلت في صناعة الأنسجة الصوفية والقطنية والستائر الفاخرة المطرزة بعضها بالذهب، وكذلك المقارم والمناديل والسبنيات، وصناعة تجفيف الأسمال وصنع الموازين والأقفال والأواني الخزفية والعمود وغيرها. وكان تصنع في مدينة آمد (دياربكر) الستائر الجيدة، وكانت بعض الستائر موشاة بخيوط من الذهب في حين كان بعضها الآخر منسوجة بخيوط الذهب، وكانت الموصل تشاركها في هذه الصناعة^(١)، فكانت تصدر ثيابها الموشية الى الخارج^(٢). وعرفت مدينة فارقين عاصمة الدولة الدوستكية بصناعة السبنيات والمقارم والمناديل^(٣).

وكانت صناعة النسيج قديمة أصيلة في مدينة دياربكر، فقد كانت مركزاً هاماً لها وانتقلت منها ومن مدن إقليم الجزيرة صناعة النسيج الحريري الى بلاد إيران. فقد ذكر المؤرخون وفي مقدمتهم المسعودي أن الملك الساساني شاپور الأول غزا في المدة (٢٥٨ - ٢٦٠ م) بلاد الجزيرة وأمد، حينما كانت في أيدي الرومان، ونقل الكثيرين من صنّاع النسيج الى إقليم خوزستان من إيران، وأسكنهم في السوس (شوشتر - شوش). فانتقلت صناعة النسيج من مدينة آمد (دياربكر) الى هناك، وأصبحت تعتبر أكبر مركز لصناعة نسيج الحرير^(٤) في بلاد الإمبراطورية الساسانية، ثم في البلدان

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ١٣٤. سعيد الديوهجي، الموصل.

(٢) أحمد ممدوح حمدي، معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ص ٢٥. في العهد الأتابكي، ص ٤٦. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل، ج ١، ص ٣٤٧.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٤٥. السبئية إزار أسود للنساء والمقارم الثياب الرقيقة والستائر الحمراء أيضاً.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٢٥٩. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٥٢. الدكتور زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصور الإسلامية. سعيد النفسبي، تاريخ تمدن إيران ساساني، ص ٤٤. أضاف الأخير أن الساسانيين ورثوا من الآشوريين تهجير الأمم المغلوبة وإسكانهم في أماكن بعيدة عن أوطانهم.

الإسلامية كافة حتى القرن العاشر الميلادي. وقد نقل العباسيون صنّاع النسيج هؤلاء من تُستَر إلى بغداد، لكي تنتشر فيها صناعة نسيج الحرير، وكانت في الجانب الغربي من بغداد محلة بإسم التُّستَرين(٥). وقد حدث نقل لسكان كُردستان الوسطى إلى خوزستان ولورستان أكثر من مرة(٦). وتشتهر آمد (ديار بكر) بعدة صناعات تقليدية كالأقمشة الحريرية ومشغولات الجلود والنحاس(٧)، وهي صناعات قديمة ولعل صناعة الحرير لم تنقطع منها منذ عهد البيزنطيين وحتى القرن العشرين. وتجدر الإشارة إلى وجود حرير بري في كُردستان يسمى (قز) والثياب المصنوعة من هذا القز تسمى ثياب القز(٨)، وثياب الصوف وثياب الكتان(٩).

أما مدينة نصيبين فكانت أيضاً مركزاً لبعض الصناعات ومنها صناعة الموازين (جمع ميزان) ودوايات الحرير والكوازين، على ما قاله المقدسي الذي دون معلوماته سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م)، أي في أوائل العهد الدوستكي(١٠). كما إشتهرت هذه المدينة أيضاً بصناعة الستور والفرش(١١)، وإعتبر الثعالبي الذي عاش في العهد الدوستكي ستور نصيبين من أجود وأشهر أنواع الستور(١٢). ومن صناعات نصيبين أيضاً ماء الورد(١٣). وقد أبدى ابن بطوطة إعجابه بعطور نصيبين وقال لا نظير لها في الطيب، علماً أن وردها كله أبيض بحيث لا يوجد فيه ورد أحمر(١٤).

ويظهر أن صناعة ماء الورد قد إنتقلت من نصيبين إلى منطقة (الباب) من حلب، حيث ذكر ابن الشحنة أن ما يصنع في الباب من ماء الورد الجيد الذي يستعمل في الطب وأغراض أخرى يسمى بماء الورد النصيبي(١٥).

(٥) ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، ص٤٠. علماً أن تستر هي مدينة (شوش) في لورستان الكُردية.

(٦) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج١، ص١٤٣ أن الملك الساساني فيروز بن قباد هجر سكان ديار بكر وفارقين إلى إيران، وبنى لهم مدينة أُرْجان بين فارس والأهواز. راجع أيضاً، تاريخ الكُرد وكُردستان، ص١١٧ لمحمد أمين زكي.

(٧) أحمد عطية القاموس الإسلامي، ج٢، ص٤١٤.

(٨) في كُردستان شجيرة تسمى (قازك - قازك - قازك) ترتفع عن الأرض بمقدار متر أو أكثر بقليل كثيرة الفروع أوراقها شبيهة بأوراق الريحان وثمارها تشبه الباقلاء وحياتها تشبه حيات الفاصوليا بلون بنفسجي. تأكل دودة القز أوراق هذه الشجرة وتضع عليها شرانقها. كانت النساء تصنع منها ثياباً من الحرير السميك تسمى ثياب القز (كراسن قهز). وكانت النساء في بوتان تلون القماش بلون أسود. وهذا الحرير الكُردى بري أي لاتعتمد صناعته على تربية دودة القز وأوراق التوت.

(٩) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص١٩١.

(١٠) المقدسي، ص١٤١.

(١١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٥٩.

(١٢) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٣٥٨.

(١٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٨٣.

(١٤) رحلة ابن بطوطة، ص٢٣٧.

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢١. راجع أيضاً لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٥. حمد الله المستوفي، نزهة القلوب، ص١٠٦ باللغة الفارسية.

ومما كان يصنع في نصيبين وأعمالها أيضاً الشراب بكميات كبيرة، وقد فرض عليه الحمدانيون ضريبة بمقدار العُشر، وسموا هذه الضريبة بأموال اللطف. وقد جُبي من ضريبة شراب نصيبين سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٨م) مبلغ خمسة آلاف دينار، وهذا يدل على أنه صُنِعَ من الشراب في تلك السنة ما قيمته (٥٠) ألف دينار (١٦).

لأننا نعلم هل إن الشراب ظل خاضعاً للضريبة في العهد الدوستكي أم لا؟ لقد ذكرنا سابقاً أن الخمر كانت تصنع من العنب في منطقة طورعبدین المجاورة لنصيبين، وذلك في العهد البابلي الحديث. ومن المدن الكُردية التي اشتهرت ببعض الصناعات مدينة أرزن (غهرزان)، التي كانت تصنع فيها المنسوجات من الأزر (مفردها إزار) المرفاع والأبراد والبطائن والنصافي، وكانت هذه المنتجات تصدر الى البلاد الأخرى. أما ماردين فكانت مركزاً لصناعة نسيج (المرعز) على ما قاله ابن بطوطة (١٧).

وكان يصنع من شعر الماعز من نوع مرعز (چور، مهريز)، ومنه يصنع الكُرد زيهم الوطني (شال وشهيك-رانك وچۆخه). ويمكن أن يُفهم من إشارة ابن بطوطة هذه أن صناعة الشال والشيك الخاص بالكُرد من بين شعوب منطقة الشرق الأوسط كانت موجودة في القرن الرابع عشر. وهي صناعة قديمة خاصة بكُردستان وغير مستوردة من الخارج، وأغلب الظن أنها كانت ترجع الى تاريخ قديم. هذا مع العلم بأنه تُصنع الآن في ولاية ماردين عدة أنواع من هذا النسيج بألوان مختلفة، منها المطرز بأشكال هندسية والذي يسمى في كُردستان العراق بإسم (شرنخي). وفي بعض المصادر ذكر لـ(النسيج المارديني الأبيض)، وهو الخام القطني السميك المعروف لدى الكُرد بـ(جاو). وتعتبر ولاية ماردين أكبر منتجة لهذا الخام، وخصوصاً القصبات التابعة لها مثل نيستل، كهدهجوس، حسنيكف (حصن كيفا). وما كان ينسجه الحاكة المهرة هناك أفضل بكثير من حيث المتانة والبياض مما ينسج في مناطق أخرى من كُردستان، ولهذا فإنه كان يُصدر الى المناطق الأخرى مثل بوتان حتى خمسينات القرن العشرين. وصناعة الجاو القطني قديمة جداً في كُردستان، وكانت تعد بلاشك من أهم الصناعات الوطنية في العهد الدوستكي، كما كان يصنع نوع أقل سمكاً يسمى (مهقروم)، ولاشك بأن صناعة هذا النوع الأخير كانت موجودة في العهد الدوستكي.

أما مدينة خلاط الواقعة على ساحل بحيرة وان، فكانت مركزاً لبعض الصناعات منها الجباب، وذلك في أيام الدولة الدوستيكية. وأشار الى الجباب الخلاطية الأمير الشاعر حسين بن داود البشنوي الفنكي أحد شعراء الدولة الدوستيكية (١٨).

وكانت خلاط تستورد في القرن العاشر الميلادي، الذي تأسست فيه الدولة الدوستيكية، كميات

(١٦) إين الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص ٢٥١.

(١٧) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٨. وصل ماردين سنة ٧٢٨هـ. راجع لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٦. ورفيال داود، المنسوجات العراقية الإسلامية، ص ١٨٥. وأضافت أن ماردين كانت تنتج نسيجاً قطنياً حسن الملمس كان يستخدم للبطانة عرف بإسم (بوكاسيني) أو بكرام.

(١٨) أشار البشنوي الى ذلك في قصيدة جميلة في البيت التالي:

"ولا عيب فينا غير أن جبابنا خلاطية ما ديجتها النواسج"

راجع خريدة القصر، ج ٢، ص ٥٤١: قسم الأكراد الفضلاء.

كبيرة من القطن من القصبات الواقعة على خابور رأس العين (١٩)، لإستخدامها في صناعة النسيج وفي المجالات الأخرى. علماً أن خلاط كانت من أكبر وأهم مدن حوض بحيرة وان. ومن المحتمل أن الصبغ بد (قرمز) كان معروفاً بين سكان المناطق الشرقية من البلاد الدوستكية. وكان الكُرد بدون شك في منطقة (ديبيل) من إقليم آارات كالأرمن هناك يصبغون الثياب وغيرها بالقرمز الأحمر.

وقد اشتهرت ديبيل (دوين) ومنها أبوب والد صلاح الدين الأيوبي وكانت تحت نفوذ الكُرد (٢٠) إبان، وفي، العهد الدوستكي، بإستعمال القرمز في صبغ الثياب المرعزية و بالبسط والأنماط والتكك وغيرها (٢١) من منسوجات ديبيل (٢٢). وصنع القرمز كان يتم بتجفيف دود القرمز ثم سحقه لتصبغ به الأقمشة، وإسم (القرمز) شائع الآن في كُردستان. وقد إستعمل الكُرد قديماً كالتشعوب الأخرى الزعفران في صبغ المنسوجات باللون الأصفر والبرتقالي لوجود هذا النبات بكثرة في كُردستان. وقد

(١٩) الإصطخري، مسالك الممالك، ص ٧٤.

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٧٧.

(٢١) الإصطخري، مسالك الممالك، ص ١٨٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٩٤. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٠٩. ذكر كال من الإصطخري وابن حوقل أن سكان ديبيل يصنعون القرمز من دودة تنسج حول نفسها كدودة الفز، أي تصنع شرائق.

(٢٢) طلبت من السيد ألكساندر خجاتريان الأرمني من سكان أرمينيا أن يحدد لي موقع مدينة ديبيل. فكتب الي رسالة مؤرخة في ١٩٧٩/٧/١٢ قال فيها، أنها الآن خرائب وهي تخضع للتنقيبات منذ الخمسينات وتبعد عن العاصمة يريفان بحوالي (٢٥) كلم وعن مدينة (أرطاشات) بـ (٥٠؟) كلم، وتسمى الآن بـ (دوفاين) وديبيل أيضاً. وفي الجانب السوفييتي شيدت حديثاً هناك مدينة بإسم (دوفاين) تحمل إسم تلك المدينة. والنهر الذي بينها وبين (أردشاط) يدعى نهر (جوني) وعُرف أحياناً بـ (نهر الكُرد). وديبيل إسم مستعرب. وقد كتب لي عنها في رسالة أخرى أيضاً وكان يعد رسالة دكتوراه وقد توفي الدكتور ألكساندر خجاتريان في يريفان عام ١٩٩٩، حسبما ذكر لي الدكتور شاكو خدو في ٢٠٠٠/١١/١٢ عندما قدم الي السلمانية. فيكيت لوفاته، وكنا نتبادل المعلومات الأثرية والتاريخية. وفي دائرة المعارف الإسلامية الجزء التاسع بحث بصدد (ديبيل) حيث كانت ديبيل من كبريات مدن أرمينيا في القرون الوسطى، وكان الكُرد يشكلون قسماً من سكانها، وكانت تحت نفوذ الكُرد في القرن العاشر الميلادي حسبما قاله المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص ٣٧٧). وقد ذكر ابن حوقل في (صورة الأرض، ص ٢٩٤) أنها أكبر من (أردبيل) وإنها عاصمة أرمينية. هذا وكان قسم من قبيلة الروادية الكُردية الكبيرة أو قسم منها (الذي أسس دولة كوردية في أذربيجان في القرن العاشر الميلادي وكانت فرعاً من الهذبانة) يقيم في (ديبيل). وكانت في أول الأمر عاصمة للدولة الشدادية الكردية التي قال بعض المؤرخين أن الشداديين كانوا من الرواديين أيضاً. والكُرد يسمونها (دوين). وهناك عدد من القرى بإسم (دوين) في كُردستان ومنها (دوين) الواقعة في شمال أربيل. كانت بلدية ويقول كُردا أن صلاح الدين منها (أي من دوين أربيل)، علماً أن عشيرة روادى (روهوند) التي منها عشيرة (روهوندوك) التي تقيم في برادوست حالياً- كانت تتردد بين أربيل وأذربيجان، وكان قسم منها في (ديبيل) وإدعاهم غير صحيح. راجع صورة الأرض، ص ٢٩٠. ومعجم البلدان، ج ١، ص ١٤٦. ومن الواجب العلمي أن ننبه هنا القراء الكرام الي أن الأستاذ عبدالحالقي سرسام، قد ذكر بأن صلاح الدين الأيوبي من قرية (دوين) الواقعة شمال أربيل. وقد نشر ذلك في الجرائد والمجلات وقنوات التلفزيون وفي كتاب بإسم (صلاح الدين الأيوبي من جديد) سنة (٢٠٠٠). فرددت عليه بمقال مفصل نشر في مجلة (ههزار ميتر) العدد (١١) الصادر في آذار ٢٠٠٠. وذلك بعد أن قمت بجولة في (دوين) والقرى المحيطة بها ليومين متتاليين وسجلت مقابلات صوتية وصورية مع العديد من سكانها، وصورت كذلك آثارها. ويشتمل مقالتي على دراسة للرسوم الموجودة على مجموعة من شواهد القبور في دوين وبابا جيسجك، كرسوم السيوف والخناجر والبنادق والمسدس وغيرها. وقد قال السيد سرسام بأن صلاح الدين قاتل الصليبيين بتلك السيوف دون أن ينتبه للأسلحة النارية الحديثة المجتمعمة مع رسوم السيوف والخناجر... على تلك الشواهد التي تعود الي الفترة الأخيرة من عهد إمارة سوران.

وردت إشارة تاريخية الى أن بلاد ميديا القديمة (أي كُردستان) كانت أكبر موطن للزعفران. وفي القرن العاشر الميلادي كان الزعفران يزرع في بلاد الشام وإيران لإستعماله في الصباغة(٢٣). كما إستفاد الكُرد في صباغة المنسوجات من مجموعة من النباتات كقشور الرمان والعفص ومن ثمرة نفس الشجرة المسماة بالكُردية بـ(كلور) وعرق السوس وكذلك الصباغة ببول وروث الحيوانات(٢٤). لقد ذكرنا في معرض الحديث عن النسيج والأقمشة في موضوع (العلاقات مع الدولة الفاطمية) أنه كانت تصنع في مدينتي (تينيس) و(دمياط) سنوياً في عهد نصرالدولة الملابس الرسمية الخاصة بالأمراء وكبار رجال الدولة، وكان يُنقش عليها أو على بعضها شعار الدولة الدوستكية. وكانت المدينتان تنتجان أفخر أنواع الأقمشة والملابس وهما من الوجه البحري في مصر.

صناعات أخرى

كانت توجد في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي صناعات أخرى كصناعات الأحذية ودباغة الجلود والصابون. ومازال الكُرد يصنعون الصابون حتى الآن بكميات كبيرة في كُردستان تركيا وخاصة في بوتان. إذ يصنعونه من زيت الحبة الخضراء (كهزوان - قهزوان) لوجود تلك الشجرة بكثرة في كُردستان، ومنها ما هو بري وملكيته مشاعة. والمعتقد بأن الكُرد عرفوا صناعة الصابون من الحبة الخضراء المذكورة منذ عهود بعيدة. وتجدر الإشارة الى أن مدينة (الرقه) القريبة من كُردستان الوسطى كانت في العصر الدوستكي من أكبر مراكز صناعة الصابون، وكانت تصدر كميات كبيرة منه الى الخارج. ولا بد بأن الدولة الدوستكية كانت تستورد منها الصابون عند الحاجة وقد جاء إسم صابون (الرقمي) من المدينة نفسها. أما بالنسبة للصابون في تأريخ كُردستان القديم، فقد إستعمل سكانها نبات (ئهسبون) في تنظيف الملابس وغيرها كنوع من الصابون. وقد إكتشفت المديرية العامة للآثار في العراق أثناء التنقيب في تل (جراغ) في سهل شهرزور بمحافظة السليمانية (الذي يرجع تاريخ الإستيطان فيه الى الألف الرابع قبل الميلاد) آثاراً لنبات (ئهسبون) من ذلك العصر(١).

(٢٣) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣١٠.

(٢٤) في ١٩٩٩/٤/٦ سجلت معلومات صوتية للسيد خوشناو أمين عزيز من السليمانية بخصوص مواد الصباغة عند الكُرد، وللمذكور معرفة جيدة بالفرش وكيفية نسجها خاصة في منطقة (بيجار) الكُردية التابعة لسندج، والتي سمعت من الكثيرين بأن فرشها تعد من أفضل أنواع الفرش في إيران. وذكر السيد خوشناو بأنه يوجد الآن في بيجار فرش بحجم مترين ونصف بعشرين ألف دينار. وأن صنّاع الفرش الكُردية في (سنه) و(بيجار) كانوا يستخدمون في صباغة أصواف فرشهم روث الحيوانات وبولها وخاصة الأبقار. إذ كانوا يبدلون نوعية علف تلك الأبقار كل شهر لإحداث تغيير بسيط في لون بولها، وكان التغيير حساساً ودقيقاً وذلك للحصول على الدرجات اللونية المطلوبة. كما إستخدم هؤلاء في تلميع المنسوجات نباتاً إحتفظوا بسرية إسمه بحيث لايعرفه الصنّاع الفرس كما لايعرفه قسم من الصنّاع الكُرد أنفسهم. وتلميعهم للفرش تلميع عجيب يعطيه لمعة الحرير. وقد إستخدموا مع نبات التلميع المذكور قلنسوة البلوط الأخضر. كما إستعملوا في الصباغة أيضاً غدد الحيوانات بعد ذبحها، كما إستخدموا الماء (ماء المطر) الذي يبقى في سيقان الأشجار الهرمة مدة طويلة ويتحول لذلك الى نوع من الحمرة. وتوجد أحياناً سبع درجات (تونات) من اللون الأحمر تطلّى به الفرش (مافور)، كما إستفادوا من نباتات أخرى للصباغة.

(١) راجع مقال (Hans Helbeek) من متحف كوبنهاغن والمترجم الى الكُردية من قبل (كُردستان) والمنشور في مجلة (هزار ميتد) العدد ٣ سنة ١٩٩٨ ص ٧٧. علماً أن السومريين كانوا يمزجون رماد نبات الحلفا بالزيت والطين كنوع من الصابون.

هذا وقد إستخدم الكُرد في سهل رانية، والمناطق الأخرى، نبات أسبون في غسل ملابسهم وأجسامهم حتى عشرينات القرن العشرين أثناء فترات شحة الصابون. وكان ناصر خسرو قد رأى أثناء مروره بالبلاد الدوستكية الكُرد وهم يصنعون القطران من الأخشاب الرطبة بالقرب من موقع (أويس القرني) عند مدخل (كهلى بدليس)، وذكر أنهم يصدرونه الى الخارج(٢)، وكان ذلك القطران يستخدم لأغراض طبية مختلفة(٣).

تمليح وتجفيف الأسماك

من الصناعات الموجودة في كُردستان في العهد الدوستكي، صناعة تجفيف وتمليح أسماك بحيرة وان(٤)، وكان لصيد أسماكها من نوع الطريخ(٥) ولتجفيفه أهمية كبيرة، حيث كانت مصدراً من

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٠.

(٣) ذكر داود الأنطاكي في كتابه الطبي (تذكرة أولي الألباب الجامع للعجب العجائب، ج ١، ص ٢٦١) كيفية صنع = القطران فقال: هو نوعان، النوع الغليظ البراق الحاد المعروف بـ(البرقي) ويصنع من شجرة (الشربين- نوع من العرعر) (أي ههفرست بالكُردية) والتي تتواجد بكثرة في كُردستان، وخاصة في الجبال العالية شبه الباردة. أما النوع الثاني، فيصنع من شجرة الإرز أو السدر. حيث تقطع الأشجار وتجعل في قبة مبنية على بلاط سوي فيها قناة الى الخارج، وإذا ما أوقدت حولها النار فإنها تقطر. أما مجال إستخدامه الطبي، فقد ذكر بأنه يستخدم لعلاج أوجاع الأذن والصدر والسعال والربو وتقوية الكبد وطرده الديدان ووضع الجنين ومنع الحمل وللحساسية (الحكة) والجرب. كما يستخدم لمنع توليد القمل وهو مفيد للبرد والطاعون والوباء ولتحنيط أجساد الموتى حيث يحفظها من التلف، ولهذا سمي بـ(حياة الموتى)، بالإضافة الى أغراض طبية أخرى ولغير ذلك من الأمراض.

(٤) بحيرة وان: مثلثة الشكل إرتفاعها (١٧٢٠) متراً ومساحتها (٣٧٦٤) كم^٢ وطولها من تطوان غرباً الى بندي ماهي شرقاً (١٢٥) كلم، وعمقها من (١٠ - ١٠٠) متر. يرى الجيولوجيون أن بحيرة وان وكذلك أورميه والبحيرات المرة في إيران هي من بقايا بحر (تتش)، الذي غطى كُردستان ثم إنحسر عنها عدة مرات في العصور الجيولوجية. وكان البحر يترك في كل مرة طبقة رسوبية، كانت تمتد في بعض العصور من أسبانيا الى جبال خنكان في الصين. وبعد إنسحاب بحر تشس إنحصرت المياه بين التعاريج الجبلية، التي تكونت بسبب الحركات الأرضية التكتونية وإنعدم وجود منفذ لخروجها. وهكذا تكونت بحيرتا وان وأورميه. وتوجد في أطراف بحيرة وان مجموعة من البحيرات الصغيرة أكبرها بحيرة (أرجاك) الواقعة في شرقها ومساحتها (١٠٠ كم^٢)، وبحيرة (نازك - نازوك)، وبحيرة (بولانق - بلانوخ). وتقع نازوك في شمال شرق جبل غرود البركاني، بينما تقع بولانق في غرب ملازگر وماؤها عكر دائماً. وهذه البحيرات الواقعة في أطراف بحيرة وان تتجمد في الشتاء لعدة أشهر فيسير الناس وتسير القوافل فوقه. وتقع على سواحل بحيرة وان مجموعة من المدن الكُردية الجميلة ذات المواقع الجذابة منها: وان، وسطان، أرديش، الجواز، خلاط، تطوان ورشادي. وأكبر تلك المدن وان، وحولها مواقع أثرية منها (قلعة وان) الأثرية المنبئة التي يعود تاريخها الى عهد حكومة أورارتو (الخلديين)، أي الى ما يقارب ثلاثة آلاف سنة، وتوبراق قلعة عاصمة أورارتو التي عثر فيها على كثير من الآثار القديمة. وفي شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ عندما كنت في إستنبول حدثت ظاهرة جيولوجية في بحيرة وان، حيث إرتفع مستوى مائها وغطى أرضية مينائها، وقسماً من شارع الميناء. فخاف سكان وان من غرق المدينة في حالة إستمرار إرتفاع منسوب المياه. وأحدثت الظاهرة ضجة في الصحف والإذاعات ومحطات التلفزة التركية. ولم يعرف سبب لذلك الإرتفاع، ولكن قيل بأن نهراً إنفجر في قاع البحيرة. إلا أن منسوب مياه البحيرة أخذ بعد فترة بالهبوط. وذكرت وسائل الإعلام بأنه حدث مثل هذا الإرتفاع في منسوب مياهها مرات أخرى في التاريخ، كما أذيع بأن مياه البحيرة قد أغرقت إحدى المدن في التاريخ البعيد. وقد سمعت مرات عدة من كثيرين من سكان منطقة وان في الخمسينات حينما كنت هناك، عن وجود آثار إحدى المدن في قاع البحيرة بالقرب من ساحلها عند مدينة وان، وهو خبر متواتر بين الناس.

مصادر الرزق. وكان السكان يصطادونه بكميات كبيرة ويصدره التجار الى بلاد الشام والعراق وإيران وأفغانستان. وقد ذكر ياقوت الحموي بأنه رأى أسماك بحيرة وان في بلخ، وسمع أنه توجد في غزنه أيضاً^(٦)، أي في بلاد أفغانستان. كما ذكر القزويني أنها تصل الى الهند^(٧). أما المقدسي فعدها من بين واردات وصناعات أرمينية، وذكرها ضمن التجارة القادمة من الموصل^(٨). هذا مع العلم بأن صناعة تمليح وتجفيف الأسماك كانت موجودة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في العراق^(٩).

وكان عدد من المؤرخين والجغرافيين القدماء قد ذكروا ذلك بإعجاب ناشيء من كون الأسماك لا تظهر في البحيرة مدة عشرة أشهر، ولكنها تخرج في شهرين وبكثرة تتيح للسكان إصطيادها بأيديهم. وما قاله أولئك المؤرخون صحيح لأن الأسماك لا تظهر هناك إلا في موسم التناسل. فتخرج حينها الى الأنهار التي تصب في البحيرة مثل نهر (حافة سور) الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للبحيرة. وعندئذ يقوم السكان بإصطيادها بالأيدي وبالزناجيل ويملؤون سلالهم دون عناء يذكر، وكنت قد شاهدت ذلك في الخمسينات. وقد عرفت أسماك تلك المنطقة بالطريخ في المصادر الإسلامية، حتى إن المصادر الإسلامية ذكرت البحيرة بإسم (بحيرة الطريخ) أيضاً. ومما يدل على الأهمية الاقتصادية لصيد أسماكها، إستملاك البحيرة من قبل محمد بن مروان الأموي والي أرمينية. وظلت البحيرة مستملكة بينما كانت مشاعة سابقاً لكل الناس حتى عهد الخليفة الأموي مروان الثاني، ثم إستولى عليها العباسيون مثل ممتلكات مروان الأخرى^(١٠). وفي الحقيقة ظلت البحيرة خاضعة للضريبة العباسية، فقد ورد مقدار ضربيتها في قائمة كل من الجهشباري وإبن خلدون لخراج أرمينية في العصر العباسي الأول. وكانت ضربيتها عشرة آلاف رطل من الطريخ^(١١). وتقابل طريخ باليونانية كلمة (Thrisa) وهو يقوم مقام الأسماك المعلبة ويقابله سمك (نن)، الذي كان يتم إصطياده في شواطئ إسبانيا وشمال أفريقية^(١٢).

ولاشك أن تمليح وتجفيف أسماك هذه البحيرة للحفظ كان موجوداً في العهد الدوستكي أيضاً، أما الآن فلا يجففها إلا قليل من الناس. وتفيد المصادر التركية بأن ما يتم إصطياده سنوياً من أسماك

(٥) الطريخ : جنس من الأسماك له (١٥) نوعاً منتشرة في بحار العالم، رؤوسها كبيرة مصفحة هرمية الشكل وأجسامها من ١٢-٢٠ سنتيمتراً، ومنها الطريخ الأشهب والرمادي والصغير والكبير. راجع الموسوعة في علوم الطبيعة للمهندس الزراعي إدوار غالب، ج٢، ص٩٧.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٨.

(٧) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٥.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٨٠، ١٤٥.

(٩) ليو أوبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ص٥٩.

(١٠) الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص٢٩٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٠٣. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢١٢.

(١١) الجهشباري، الوزراء والكتاب، ص٢٨٦. إبن خلدون، مقدمة، ص١٨٠.

(١٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص٣٠٦.

بحيرة وان يبلغ (٥٠-٦٠) طناً. أما بحيرة نازوك الواقعة في شمال غرب بحيرة وان، فإنها شبيهة تماماً في موسم أسماكها ببحيرة وان. وقد تحدث عن أسماك نازوك المؤرخ والرسام شرفخان أمير بدليس في (ورقه ١٢١ من شرفنامه، مخطوطة مكتبة بودليان، رقم ٣١٢)، وهي بخط المؤلف وهي النسخة الأولى من الكتاب، حيث ذكر بأنه وضع يده على صيد أسماكها وأجر صيده لعدة سنوات لصالح مالية إمارته، ولكن صادف ذلك عدم ظهور الأسماك في تلك السنين.

الصناعات المعدنية

يعود تاريخ الصناعات المعدنية في كردستان الى تسعة آلاف سنة. فقد كان سكان (جاينونو) الواقعة في شمال مدينة دياربكر بـ (٥٠) كلم والقريبة من منبع نهر دجلة، يصنعون أدوات من النحاس على ما سنذكره. ولعل ذلك من أقدم الإكتشافات الأثرية في مجال التعدين والصناعات المعدنية. فقد سبق سكان كردستان غيرهم في مجالات معرفة المعادن والزراعة والنسيج والعمارة، وجميعها تعد من أسس الحضارة البشرية.

لقد أشار الفارقي في (ص ١٤١ و ١٤٥) الى باب النحاس الذي تم صنعه بشكل فني بديع لنصر لدولة بمدينة (النصرية)، التي وضع تخطيطها واختار موقعها على ضفة نهر ساتيدما (نهر باطمان) سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م). وقد تم نقل هذا الباب بعد زوال الدولة الدوستكية الى جامع فارقين. وقد وجدته الفارقي ووجد اسم نصرالدولة مكتوباً عليه واعتبره، نظراً لأهميته من الناحية الفنية، من جملة آثار نصرالدولة. ولما قدم ناصر خسرو الى فارقين في عهد نصرالدولة، شاهد باباً حديدياً مشبكاً في كنيسة دياربكر وأبدى إعجابه به على ما ذكره في (سفرنامه، ص ٤٨).

وتجدد الإشارة الى أن مدينة دياربكر أشتهرت بصناعاتها وتحفاتها المعدنية، وقد أعجب بها أوليا چليبي، الذي زارها في القرن السابع عشر. وقال إن عدد الحدادين وصنّاع التحفيات الذهبية والفضية والمعدنية المكفنة بالذهب والفضة أكثر من سائر أصحاب المهن والصناعات الأخرى. وأن رساميها ونقاشيها تفوقوا على (ماني) و(بهزاد)، وأن ما يصنع في دياربكر من السيوف والخناجر والرماح والنشاب وطبرزين والمسدسات مشهورة في العالم. وإن الحدادين يضربون أثناء العمل بمطارقهم على أنغام مقامات (سيگاه) و(الحسيني) وغيرها، وهم بأنفسهم يغنون هذه المقامات أثناء العمل ومن يسمعهم يقف عن الحركة (١).

ولاشك أن صنّاع دياربكر قد ورثوا الكثير من صناعاتهم ومهاراتهم من أسلافهم الذين عاشوا في عهود مختلفة من القرون الوسطى، منها العهد الدوستكي عهد الإستقرار والإزدهار التجاري والصناعي والعمراني الذي أشار إليه (ابن بطلان) وغيره. وقد سبقت الإشارة اليه في أوائل موضوعنا (الحالة الإقتصادية). وتوجد الآن نماذج راقية من تلك الصناعات التي تعود الى القرون

(١) أوليا چليبي، سياحنامه، ج ١، ص ٤٩، ٦٢: الترجمة الكردية لسعيد ناکام.



طبل

الوسطى، وهناك صور لبعضها في كتاب (ديار بكر تاريخي) لبسري كونيبار. وفي تموز ١٩٧٧ وجدت في متحف الأوقاف بإستنبول طبلاً من الحديد (تورك إسلام صنعتلري موزهسي، رقمه ٢٨٣٢) تزئنه الزخارف الجميلة مع كتابة كوفية، ويعود الطبل الى القرن الثاني عشر على ما جاء في تعريفه. صورة الطبل في الصفحة التالية.

ومما لاشك فيه أن صناعات العالم الفيزيائي والمهندس الميكانيكي والرسام والفلكي ابن رزاز الجزري، الذي عمل في مدينة حصن كيفا ومدينة ديار بكر (آمد) في القرن الثاني عشر، وألف في آمد أعظم كتاب في الميكانيك في العهد الإسلامي على الإطلاق، تركت تأثيرها في صناعات ديار بكر وتقدمها وفي مهارة صنّاعها ولا بد أن يكون له تلاميذ فيها منهم على ما أرى الأمير الأرتقي الملك الصالح محمود بن نورالدين بن قره أرسلان. كما إن ابن الرزاز نفسه قد تأثر بالصناعات التي خلفتها الدولة الدوستكية، سواء كانت ساعة بنكام في جامع فارقين، أو الباب الذي عمله نصرالدولة لقصره في مدينة (النصرية)^(٢)، الذي ذكره الفارقي المعاصر لابن الرزاز بإعتباره من أحد الأعمال المهمة لنصرالدولة. وكان هذا الباب في زمن ابن رزاز أمام باب جامع فارقين ويستبعد جداً عدم رؤيته إياه. صنع ابن الرزاز باباً فنياً لقصر الأمير الأرتقي الملك الصالح محمود بن نورالدين في مدينة ديار بكر وإفتخر بذلك الباب بقوله: "والى رؤيته تُشد الرحال، إذ كان في الحقيقة الدرة اليتيمة والمتاع نفيس القيمة..."^(٣).

(٢) بخصوص مدينة (النصرية)، راجع موضوع الآثار العمرانية.

(٣) راجع (مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة العربية، ج ١، ص ١٠١، لماجد عبدالله الشمس).

لقد عمل ابن رزاز الباب من النحاس وأذاب النحاس الأصفر وصنع منه أجزاء الباب ونقوشه. وفي أواخر كتابه شرح لكيفية صنع ورسم أجزاء منه، فثمان صفحات من الورقة (٢٢٩-٢٣٢) من كتابه (الجامع بين العلم والعمل في صناعة الحيل) النسخة المخطوطة في أياصوفيا بإستانبول والمرقمة (٣٠٦٠٦) وعندي نسخة مصورة عليها - تتحدث عن الباب. مع أن الصفحات الأخرى بصدده غير موجودة في النسخة التي كانت تحتوي على الوصف العام للباب. ومن المحتمل جداً أن المستشرقين الذين سرقوا عدداً من الرسوم الموجودة في هذه النسخة، سرقوا ذلك المقدار أيضاً. وهذه بعض الرسوم من أجزاء الباب وزخارفه ومطرقة الباب في صورة شعبانين يحاولان إلتهام رأس أسد وقد مدا لسانيهما إلى عنقه. وقد أشار المؤلف في الورقة (٢٣٢) إلى أن طريقة صنع بعض ما صنعه من الباب كان معروفاً عند "أصحاب هذه الصناعة". وقد ذكر القزويني أن الحدادين في مدينة خلاط كانوا يصنعون أقفالاً لا يوجد مثلها في البلدان الأخرى (٤).

أما المقدسي فقد ذكر الموازين والدوايات (أي دوايات الحبر) التي كانت تُصنع بنصيبين، كما كانت الموازين تصنع بحرآن (٥). وكانت الآلات الفلكية تصنع في حرآن أيضاً (٦).

الصناعات الميكانيكية

وصل إلينا من الصناعات الميكانيكية في الدولة الدوستكية، التي كانت حركتها تعتمد على الآلات المتحركة، ما يلي:

١- دولاب صنعه نصرالدولة ونصبه على نهر باطمان لضخ المياه إلى مدينة (النصرية)، التي خططها هناك على ما قاله الفارقي (ص ١٤٥) من تاريخه، مع إنه لم يكتب وصفاً لذلك الدولاب الذي كان يرفع مياهاً كثيرة من نهر باطمان تكفي لسد حاجة المدينة من حمامات ودور وحدائق وأحواض. ولاشك بأنه لم يكن الدولاب المعروف بـ(الناعور) الشائع ذي القدرة المحدودة الذي يدار بالحيوانات، وإلا لما إستحق الذكر، وإنما لا بد أن يكون مضخة ميكانيكية من نوع الدواليب (المضخات) العمودية الميكانيكية الموجودة في كتاب ابن رزاز الجزري (١).

(٤) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٢٤. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن رزاز الجزري قد عمل قفلاً يقفل على صندوق بائني عشر حرفاً. وقال هو عبارة عن "أربع دوائر على مربع مستطيل، ودون كل دائرة دائرة وبينهما ستة عشر خطاً، وبين الخطوط ستة عشر حرفاً تقوم مقام ثمانية وعشرين حرفاً". وقد كتب إثنتي عشرة صفحة في كيفية صنعه (ورقة ٣٢٤-٣٣٠ من نسخة أياصوفيا) وأوضحها بالرسوم. فهذا القفل الفني شبيه بأقفال الحقائق التي تغلق وتفتح بالأرقام السرية في الوقت الحاضر ولانعلم هل أن ابن رزاز كان أول مخترع لهذا النوع من الأقفال أم لا؟

(٥) أحسن التقاسيم، ص ١٤٥.

(٦) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٣٦٢.

(١) خصص الجزري ثمان صفحات من كتابه (ورقة ٢٢٤-٢٢٨ من نسخة أياصوفيا) لشرح كيفية صنع مضخة (الدولاب) بعدة أنواع لرفع الماء الجاري من عمق عشرة أمتار أو أكثر من النهر عن طريق أنبوب وآلات ميكانيكية حيث قال: "الشكل الخامس من النوع الخامس وهو آلة ترفع نحواً من عشرين ذراعاً بدولاب من ماء جارٍ وينقسم إلى =

ساعة بنكام

من المعالم الحضارية للدولة الكردية ساعة كبيرة صنعتها في العاصمة فارقين بموجب قوانين ميكانيكية ورياضية وفلكية دقيقة. وكان وجود مثل تلك الساعة نادراً في الشرق الأوسط حتى ذلك التاريخ. لقد ذكر الفارقي في (ص ١٤٥) من تاريخه أن "عمل نصرالدولة البنكام بجامع فارقين وغرم عليه من ماله وكتب عليه إسمه"، وكرر الفارقي ذكر البنكام (٢) لأهميته وذلك ثلاث مرات في تاريخه، لكنه لم يبين تاريخ صنعها ولا إسم العالم الذي صنعها. ومن المحتمل جداً أنه كان في

=فصول ثلاثة، الفصل الأول أقول أن هذا الشكل يصنع على ضربين أحدهما بأن يتخذ الدولاب وهو مدير الآلة فرجات في محور منتصب والماء يدير الفرجات كأرجاء، وهي في الطريق الأسفل من المحور، وهو يدور على سكرجه على ما جرت به العادة وطرفه الأعلى يدور في حلقة ثابتة، وعلى نهاية هذا الطرف قرص مستوي الوجه وعلى حافة القرص وتد منتصب وهذا التود مدير آلة ترفع الماء... الفرجات: پروانات، مراوح. والسكرجه: وعاء معدني في أسفل الدولاب. وهذه صورة نوعين من دوليب الجزري حيث تشاهد الأجزاء فيها من العمود الحديدي والفرجات (بشارة - پروانات) التي تدفع الماء إلى أعلى والتي تكون داخل الأنبوب وقد رسم في الفصل الثاني الأنبوب (بربخ) الواسع من الأسفل والضيق من فتحته العليا، ليكون دفع الماء إلى الخارج قوياً. إن الآبار الإرتوازية حالياً تعمل بنفس الأسلوب. أما الدولاب الذي يدير من فوق عمود الفرجات، فكان يدار بواسطة الحيوانات أو بطريقة أخرى.

(٢) لفظ بنكام على وزن (سندان) بكاف فارسية أي (بنكام) وكذا بنكان وفنكان وفنجان ومنجانه ومنتانه - أطلق على الساعات بأنواعها: الرملية، والمائية والشمسية والدورية، أي التي تعمل بالدوليب أي الآلات الميكانيكية. واستعمل المؤلفون لفظ (بنكام) إسماً لعلم يبحث عن الآلات المقدر للوقت (أي الساعات) أي علم الساعات. وأصل الكلمة (منكته) أي الآلة المسننة أو غير المسننة التي تدور. بخصوص البنكام راجع، حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص ٢٥٥. وطاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج١، ص ٣٧٨. ومحمد علي التهانوني، كشف اصطلاحات الفنون = ج١، ص ٥٣. والدكتور مصطفى جواد، بحث بعنوان "علم البنكامات عند المسلمين في القرون الوسطى وهو علم الساعات". وقد نشر البحث بعد خمسة أيام من وفاته في جريدة الثورة (أو ملحقها) في ١٩٩٩/١٢/٢٢. وقد توفي مصطفى جواد علامة زمانه في السابع عشر من ذلك الشهر، وأصبح بحثه هذا مفتاحاً لي للبحث عن هذا الفن والبحث عن الجزري والحصول على نسخة مصورة من كتابه. ومن ثم البحث عن الفن التشكيلي في كردستان الوسطى والبحث عن رسوم (شرفنامه) للمؤرخ والرسام الكردي الأمير شرفخان البديسي، التي نشرت دراستي حولها في كتاب باسم (تابلوكانی شهرهفنامه، الذي طبع سنة ١٩٩١ بالسويد بالكرمانجية الشمالية بالحروف اللاتينية وفي أبريل سنة ١٩٩٨ بالكرمانجية الجنوبية"، والذي أعتبر من أجود دراساتي فأنا مدين لمصطفى جواد، وقد كنت معجباً به أيما إعجاب وهو الذي قال لي: "أنا بين الأكراد والتركماني وذلك في دور التحقيق...". وكان أصله من (قره تپه) إحدى نواحي قضاء كفري الكردي. هذا وأستعمل (منكام) بدل بنكام أيضاً والجمع (مناكيم)، راجع شمس الدين محمد بن أبي الفتح محمد الصوفي، الاعلام بشد المنكام. الذي ألفه في الساعات الرملية: نسخة مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة بغداد تحت الرقم (٤٠٦). لكي يحصل القاريء على فكرة عن الساعات القديمة، علينا بكتابة سطور قليلة بهذا الخصوص. فنقول إن الساعة المائية كانت معروفة لدى السومريين وكانوا يسمونها (دب دب)، وكانت الساعة المائية مكونة من إسطوانة مدرجة يجري منها الماء إلى خزان تحتها وكمية الماء المنساب كانت هي التي تعطي مقياس الزمن وكانت موجودة لدى المصريين أيضاً. أما الساعة الشمسية (المزولة)، فكانت كالساعة الرملية قديمة. وهي عبارة عن قصبه أو عود تُغرس في سطح مستو لتعكس القصبه أو العود ظلاً يتغير بتغير مسار الشمس، فيعرف بها الوقت. أما الساعة الرملية، فكانت تعمل بإستعمال الرمل بدلاً من الماء لمعرفة ساعات الليل والنهار ويعملية مشابهة. أما مصطلح الساعة الزمانية التي تسمى «الساعة الشمسية» أيضاً، فيعني الساعة ذات الوحدة العددية الثابتة وهي (١٢) ساعة لكل من الليل والنهار بالتساوي سواء كان اليوم أطول من الليل أو بالعكس، صيفاً كان الوقت أم شتاءً، ولذلك سميت أيضاً الساعة المستوية. راجع ماجد عبدالله الشمس، مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية، ج١ ص ٤٥-٤٨. ومرغريت روشن، علوم البابليين، ص ١٠٩.



دولاب ابن رزاز

سنوات (٤١١هـ = ١٠٢٣م) حيث جدد نصر الدولة فيها عمارة الجامع الى سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨- ١٠٣٩م)، إذ ذكر ذلك بين حوادث هذه الفترة. ولم يذكر الفارقي أيضاً وصف لساعة (البنكام) هذه التي شاهدها مراراً في مدينته، رغم أهميتها بالنسبة لذلك العصر لندرتها في البلاد الإسلامية وغيرها. ولاشك أنها كانت ساعة كبيرة ربما كانت تعمل بالماء أو الشمع المذاب أو بواسطة آلات ميكانيكية كثيرة، وبمقاييس رياضية وفلكية أيضاً مرتبطة بحركة الشمس في درجاتها والقمر بمنزله. وربما كانت مرتبطة بالبروج الفلكية الإثني عشر في دورانها. وكل ذلك لضبط قياس الزمن في الليل والنهار والأوقات الفلكية أيضاً. وما قاله الفارقي من أن نصرالدولة "غرم عليه من ماله" يدل على أنها كلفت مبلغاً كبيراً من المال. وهذا بدوره يدل على أن الساعة كانت كبيرة ومن نوع البنكامات المعقدة، التي كانت في شكل غرفة مثل ساعة كنيسة أياصوفيا في العاصمة البيزنطية (قسطنطينية) التي صنعت قبلها، وساعة (باب جيرون) بدمشق التي صنعت بعدها، وساعة كنيسة أنطاكية التي أشار إليها الطبيب (ابن بطلان) في كتابه (دعوة الأطباء- الذي ألفه سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، أو أنها من نوع بعض ساعات وإختراعات العالم ابن رزاز، التي وردت أوصافها في كتابه (الجامع بين العلم والعمل في صناعة الحيل)(٣).

(٣) لكي تتكون لدى الفاريء فكرة عن ساعة الدولة الدوستكية ندرج فيما يلي وصفاً لكل من ساعة كنيسة أياصوفيا وساعة باب جيرون. فالساعة الدوستكية كانت مشابهة للساعات المذكورة القريبة منها زمنياً، فالأولى أقدم من الساعة الدوستكية، أما ساعة باب جيرون فمتأخرة عنها. كانت ساعة أياصوفيا حسب (ابن رسته أحمد بن محمد في القرن التاسع في الأعلاق النفيسة، ونقل عنه بايجاز السيد ماجد في كتابه المذكور، ص٤٩: كان في مدخل الكنيسة مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً، وكلما مضت ساعة من الـ٢٤ ساعة يفتح أحد هذه الأبواب ثم ينغلق تلقائياً. أما ساعة باب جيرون (باب الساعات) التي صنعها محمد بن علي بن رستم الساعاتي الخراساني عام (٥٦٥هـ = ١١٦٩م) فقد شاهدها ابن جبير سنة ٥٨٠هـ=١١٨٥م ووصفها في رحلته (ص٢١٨ و٢١٩، طبعة بيروت ١٩٦٨) وكانت بالمدسة المستنصرية ببغداد أيضاً ساعة أخرى مشابهة صنعت سنة ٦٣٣هـ=١٢٣٥-١٢٣٦م.

ولم يشير الجزري الى ساعة فارقين، كما لم يذكر إسم الأستاذ أو الأساتذة الذين درس عليهم الميكانيك والرياضيات والفلك وكذلك فن الرسم وعلم الساعات. ولم يذكر كذلك إسم المعنيين بها عدا (يوسف الأخطولابي) والملك الصالح محمود الأرتقي، الذي يحتمل كونه أحد تلاميذ الجزري. وكان في عهده علماء آخرون في هذا المجال، مثل الطبيب فخر الدين (محمد بن عباس السلام المارديني) المتوفي سنة (٥٩٤هـ = ١١٩٩م) (٤)، وتلميذه سديد الدين الحاني (محمد بن عمر) المعروف بابن رقيقة وهو من سكان مدينة حاني (هيتين)، وهي الآن مركز أحد أقضية دياريكر. فقد عمل بعض الصناعات الميكانيكية والآلات الفلكية وإخترع آلة لسحب الماء الأسود والأبيض من العين. ولسديد الدين أكثر من عشر مؤلفات أكثرها في الطب، وقد سافر الى الشام وأصبح أحد أطباء المستشفى الكبير بدمشق وتوفي فيها سنة (٦٣٥هـ = ١٢٣٧م) (٥).

لقد قدم الى كردستان عالم كبير في الرياضيات والهندسة والفلك هو (نجم الدين أحمد بن السري الهمداني)، الذي إستدعاه الأمير حسام الدين قمر تاش الأرتقي (٥١٦هـ - ٥٤٧هـ) وكان أستاذ فخرالدين المارديني وله ترجمة في (عيون التواريخ، ج ١٢، ص ٤٠٠) للكتبي. إن الجزري وإن لم يذكر هؤلاء لكنه أشار الى وجود ميكانيكيين مثله، وقال إنه إستفاد منهم في بعض أعماله الميكانيكية. وقد أشار إليهم في (الفصل الأول من الشكل الثاني من النوع السادس) من أواخر كتابه (ورقة ٢٣٢، من نسخة أياصوفيا). هذا ولا ندري من أين أخذت الدولة دوستكية فكرة صنع هذه الساعة، والتي كان لها تأثير على تقدم ورواج علم الميكانيك بما فيه علم الساعات في دياريكر، وعلى الأرتقيين الذين عملوا على تقدم ذلك العلم في القرن الثاني عشر. كما كان لمستشفى تلك الدولة الكردية في العاصمة فارقين ومدريستها الطبية تأثير مماثل في تقدم الطب في ذلك الجزء من كردستان خلال العهدين دوستكي والأرتقي. ولما كانت ساعة يوسف الأخطولابي لا تخلو من احتمال كونها ساعة الدولة دوستكية، وإن ثبت في يوم ما أنها ليست كذلك فهي مشابهة لها بصورة عامة على ما نتوقع لذا من الأفضل أن ندرج هنا وصفها الذي أورده الجزري في كتابه (٦) (ورقة ٥-٦ من نسخة

(٤) راجع ترجمة فخر الدين المارديني في (طبقات الأطباء، ج ١، ص ٢٩٩-٣٠٠) لابن أبي أصيبعة، و(تاريخ الحكماء، ص ٢٩٠-٢٩١) للقفطي. نشرت نبذة عن حياته في جريدة العراق، عدد ١١/٢٧/١٩٨٢.

(٥) لسديدالدين (ابن رقيقة) ترجمة في طبقات الأطباء (ص ٧٠٦ وغيرها) وكان قد عمل مع مؤلفها ابن أبي أصيبعة في المستشفى الكبير. وابن العماد، شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٧٧. والزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ٥٦. وقد نشرنا بخصوصه مقالاً في جريدة العراق عدد يوم ٢١ و ٢٨ تشرين الأول ١٩٨٢.

(٦) أعتبر كتاب الجزري أكبر كتاب في الهندسة الميكانيكية في العهد الإسلامي، وفي بعض نسخه خمسمائة رسم لصناعاته. وآلاته منقولة بدقة من رسومه، لذلك أعتبرت الرسوم الموجودة في نسخ الكتاب المختلفة زمناً ونسخاً رسوم الجزري، فكأنما رسمت من قبله مباشرة وذلك عند مؤرخي الفن. فأعطوها نفس الإعتبار والقوة في دراساتهم الفنية. كما إعتبروا رسومه ورسوم مهرا بن منصور بن مهرا أساساً ل(مدرسة بغداد للفن). والأفضل تسميتها ب(مدرسة دياريكر للتصوير) في العهد الإسلامي، لكون الفنانين من سكان هذا الإقليم الكردي. فإبن رزاز كان من مدينة الجزيرة (جزيرة ابن عمر - جزيرا بؤتان). أما مهرا فكان من سكان مدينة فارقين. وقد عاش الجزري في مدينتي حصن كيفا وأمدك (رئيس الأعمال) لثلاثة من الأمراء الأرتقيين لمدة ثلاثين سنة أو أكثر. لقد نُشرت في الغرب أبحاث عن كتاب الجزري وتراثه، وترجمت من قبل (دونالد هل) الى اللغة الإنكليزية. وقد نشر السيد ماجد عبدالله الشمس قسماً منه =

أياصوفيا)، وذلك دون أن يذكر في أية مدينة صنعها الأضرلابي. وكان الجزري قد شاهدها. علماً بأنه لم يشير في كتابه الى أنه قد زار بلاد الشام أو العراق أو أي بلد آخر. ولهذا فمن المعتقد بأن

=كجزء أول بعنوان (مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية) وذلك سنة ١٩٧٧. ولا أدري هل نشر قسمه الثاني أم لا؛ لقد إعتد المذكور على نسخة (توب قايي) بإستنبول رقم (٣٤٧٢)، التي كتبها الرسام وتلميذ الجزري (محمد بن يوسف بن عثمان الحصكفي) الذي إنتهى من كتابتها سنة (٦٠٢هـ). وكتب في أوله: "قال الشيخ رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل الجزري...". وحسب تحقيقنا فإن على هذه النسخة ختم الأمير الكردي (شمس الدين) بن ضياء الدين الروشكي، من أجداد المؤرخ شرفخان البديسي، الذي كان حياً سنة (٨٢٤هـ = ١٤٢١م)، مما يدل على أن المخطوطة كانت ضمن مخطوطات مكتبة أمراء بديليس، مثلما يوجد نفس الختم (الإهليلجي أو شبه البيضوي بطول ١٦ ملم) على مخطوطة (منافع الحيوان) لعبيد الله بن بختيشوع أحد أطباء الدولة الدوستكية، وقد ألفه للأمير نصرالدولة. وهي النسخة الأولى من الترجمة الفارسية والمصورة وهي نسخة (السلطان محمود عازان) من أحفاد هولوكو، الذي أمر بترجمة الكتاب الى الفارسية وتصويره من قبل عدد من الرسامين. وهذه النسخة موجودة الآن في مكتبة (مورگان) في نيويورك تحت الرقم 500 m ومن المحتمل جداً أن هاتين المخطوطتين الثمينتين كانتا من جملة آلاف الكتب التي كانت موجودة في مكتبة أمير بديليس عبدالخال بن ضياء الدين بن شرفخان المؤرخ، والتي نهبها الوالي العثماني الوحش ملك أحمد باشا سنة (١٠٦٥هـ = ١٦٥٤-١٦٥٥م)، أثناء الإطاحة بإماره عبدالذي وصفه أوليا جلبي في (سياحتنامه، ج ٤، ص ١٠٢-١٠٣) بأنه كان عالماً في سبعمئة علم وفن كالفلسفة والكيمياء والسيما والطب = والتصوير والخط والزخرفة والغناء والميكانيك. فكان يصنع بنفسه الساعات اليومية والشهيرة والسنوية وساعات الأبراج الكبيرة والمصوتة، ويصنع ساعات صغيرة تدخل في الأصبع كخاتم. وقد شاهده أوليا جلبي وشاهد = صناعاته، وذكر أنه كان له ستة وسبعون مؤلفاً. علماً أن مؤلفاته تعتبر كلها مفقودة منذ هجوم ذلك الوالي القاسي على هذا الأمير العالم والعبقري.

وتجدر الإشارة الى أن السيد ماجد عبدالله موضع إنتقاد لعنوان كتابه الحالي من إسم الجزري وكتابه. إذ كان من الواجب أن يكون العنوان بإسم (كتاب الجامع بين العلم والعمل) لإين رزاز، لأن الكتاب عبارة عن نشر قسم من كتاب الجزري. وهو (السيد ماجد عبدالله) موضع إنتقاد كذلك لتعصبه العربي رغم كونه صائباً وليس عربياً. فقد جرّ الجزري الى جنوب العراق وعده عراقياً من أحفاد السومريين والبابليين. حيث قال في (ص ٤٥) من مقدمته ما يلي: "لا شك أن عالمنا العراقي إبن الرزاز الجزري قد قام بكل ما يستطيع من مجهود لإخراج إبداعه في الميكانيك... فإنه لم يدر بخلده أن أجداده السومريين والبابليين هم أصحاب الحق عليه بالدرجة الأولى...". وهكذا جرّ الجزري من مدينة الجزرية وآمد (ديار بكر) أي من كردستان الى العراق. هذا في القوت الذي لا يوجد فيه دليل على أن الجزري قد رأى العراق بعينه في يوم من الأيام. فأخذ ماجد الشمس منه جنسيته الكردية أو الكردستانية على الأقل. ولم أجد في كتابه إسم الكرد أو كردستان، مع إني نيهته الى ذلك في أكثر من لقاء. وهذا تحريف للتاريخ.

وقد كتب السيد عبدالله باشن الجزري رسالة لي في ١٩٩٩، وهو الآن مدير متحف الجزيرة ومؤلف كتاب بالتركية في تاريخ الجزيرة ذكر فيه أن عمه المرحوم الملا عبدالرحيم الوسطاني (وهو من ذرية المفكر الكردي أحمد خاني حسب ما كتبه وكان طري الفكر) قد عشر في سنة ١٩٥٧ على شاهد قبر بن الرزاز في (مسجد النبي نوح)، القريب من قبة (مقلاي جزي)، وذلك أمام الشيخ محمد قدري شيخ المسجد والكثيرين من سكان الجزيرة. وكان قد كُتب عليه "رئيس الأعمال بديع الزمان إسماعيل بن رزاز الجزري"، حسبما كتبه عبدالله باشن. وأضاف أن شاهد القبر قد أدخل فيما بعد الى أحد الجدران مقلوباً. وقد طلبت منه إخراجها وتصويره لنا. من المحتمل أن الجزري قد أقام في أواخر حياته بالجزيرة وتوفي فيها، أو أنه توفي في مكان آخر كأمد أو حصن كيفا وأوصى بنقل جثمانه الى أقدس مكان في الجزيرة، وهو (مسجد النبي نوح) القريب من باب السور (دهرگه هي طوري) أي (باب طورعبددين) في القسم الجنوبي من المدينة، وأنه توفي سنة (٦٠٢هـ = ١٢٠٥-١٢٠٦م)، أي السنة التي إنتهى فيها من تأليف كتابه.

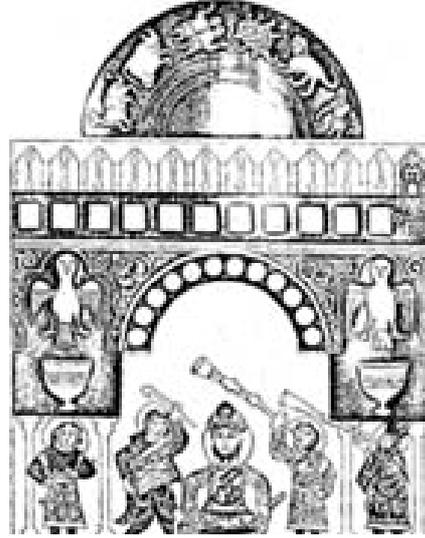
لقد أشار الجزري الى أنه علم الآخرين فنونه، أي كان له تلاميذ، وذلك في مقدمة كتابه (ورقة ٢١ من نسخة أيا صوفيا)، لكنه لم يذكر أسماءهم. ومن المحتمل أن الملك الصالح محمود بن نور الدين بن قره أرسلان الذي حكم من سنة (٥٩٧هـ - ٦١٩هـ = ١٢٠٠ - ١٢٢٢م) كان في مقدمة هؤلاء، والذي كان الجزري رئيس الأعمال عند والده =

الأصطرابي صنع تلك الساعة في إحدى مدن إقليم ديار بكر. وقال الجزري ما نصه: "صفة صورة الساعة ومعناه:

أما الظاهر فهو بيت مرتفع عن الأرض نحو قامتين والذي يجتمع منه ما يعلم من مضي الساعات هو باب في هذا البيت طول الباب نحواً من تسعة أشبار وعرضه نحواً من خمسة أشبار ونصف. وقد سد هذا الباب بحجاب من الخشب أو صفر، وفي أعلاه على خط مستقيم عرضاً اثنا عشر باباً، لكل باب مصراعان مطبقان من أول النهار، ودونها موازياً لها إثني عشر باباً لكل باب مصراع واحد ملون بلون واحد في أول النهار، ودون الأبواب الثاني إفريز خارج عن وجه الحجاب بعرض الإصبع وعلى أول الإفريز هلال شبيه بالدينار متى تحرك الهلال على الإفريز سار مع وجوه الأبواب الثواني إلى آخر الإفريز، وفي طرفي الحجاب خسفتان كأنهما محرابان فيهما طائران باسطان أجنحتهما ثابتان على أرجلهما، وفيما بين المحرابين إثني عشر جامعة من زجاج مصفوفة بعضها إلى بعض كأنهما نصف دائرة محدبها إلى فوق، وأمام كل طائر قنديل ثابت على ركن زجاج، وفي كل قنديل مرآة مغلقة وفي أسفل الحجاب صور طبالين وبواقين وصناج، وفيما علا عن هذا الحجاب نصف دائرة محدبها إلى فوق يجمع محيطها ستة بروج من إثنتي عشر برجاً، ودون ذلك فلك فيه شمس وهي قرص من ذهب، ودون ذلك فلك فيه قمر وهو قرص من زجاج.

وهذه الصورة وأما المعنى فإنه في أول النهار يتحرك الهلال على الإفريز ويسير سيراً منتظماً خفياً حتى يقطع بمسيره باباً ويستوي بين البابين الأول والثاني، فحينئذ يفتح المصراعان من الباب الأول من الأبواب العليا ويخرج منه شخص على ما يختار الصانع ويقف بحاله كأنه مطلع، ثم ينقلب الباب الأول الذي قطعه الهلال بمسيره إلى لون آخر، وينقض الطائران حتى يقاربا القنديلين ويطرحا من متقاربهما كرتين على المرأتين فيسمع صوتهما من بعيد، ويعود الطائران إلى مقامهما وذلك عند إنقضاء (كل) ساعة. ولا يزال كذلك إلى أن يبلغ الساعة السادسة، فهناك يطبل الطبالون ويبوق البواقون ويلعب الصناج بالصنج هنية، وكذلك في الساعة التاسعة والثانية عشرة. وأما حال الأفلاك فإن مركز الشمس يكون في أول النهار على الدرجة التي فيها الشمس في ذلك اليوم على أفق المشرق، تزيد الطلوع والدرجة النظيرة لها على أفق المغرب تزيد الغروب. وكلما طلعت درجة من برج غابت نظيرتها، والشمس ترتفع إلى نصف النهار، ثم تنخفض إلى آخره ومركز الشمس حينئذ يريد

=وأخيه سگمان مدة خمس وعشرين سنة في حصن كيفا ثم في آمد، قبل أن يتولى محمود الحكم. وقد أشار إلى كون الملك الصالح عالماً في الفنون والصناعات التي ضمنها كتابه. فقال أنه عندما كان يقوم بصنع بعض أعماله للملك الصالح، الذي أشار عليه بتأليف كتابه - يبدي له ملاحظات دقيقة بخصوصها. فمن المحتمل جداً أنه درس عليه. وقد أشار المؤرخون إلى معرفة الملك الصالح بعلوم الفلاسفة، ومنهم ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ١٢٧)، حيث قال أنه كان "متظاهراً بمذهب الفلاسفة". ولا أستبعد أن تكون للجزري رئيس أعمال الملك الصالح تأثيرات فنية أيضاً في البرج المدور المسمى (يدي قرداش)، وهو أول أو ثاني أضخم أبراج سور ديار بكر الحالية، والذي وضع تصميمه (ترسيم) أي تصميم البرج الملك الصالح نفسه على ما هو مكتوب عليه، وتأثيرات كذلك في البرج المسمى (أولي بدن) المشابه ل(يدي قرداش) في الرسوم الحيوانية المنقوشة عليه، المشيد من قبل نفس الملك سنة (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م). وهما من أجمل أبراج سور ديار بكر، وكان بناء الأول يحيى بن إبراهيم الصرفي والثاني إبراهيم بن جعفر.



الساعة

الغروب والبروج الستة، التي كانت طالعة قد غربت والستة التي كانت غاربة قد طلعت وبحسب الزمان إن كان نهار السرطان، فتكون الشمس في غاية إرتفاعها. وإن كان نهار الجدي فتكون في غاية إنخفاضها. وأما حال الليل، فإن القمر يرى في برجه ودرجاته على ما هو عليه القمر في تلك الليلة. وإن كان هلالاً فهلالاً ذاهباً الى الإمتلاء، وإن كان ممتلياً فذاهباً الى المحاق. ثم يبدو في أول الليل في أول جامة من الجامات الزجاج ضوء كالعلامة ويتزايد حتى يكمل الضوء في جامة فيكون الماضي من الليل ساعة. ثم يبدو في الجامة ويتزايد حتى يكمل الضوء في جامة، فيكون الماضي من الليل ساعة. ثم يبدو في الجامة التي تليها حتى يكمل ست جامات مضبئة، فتخدم أرباب الملاهي في الليل كخدمتهم في النهار. وكذلك في الساعة التاسعة من الليل وفي الثانية عشرة وفي آخر الليل، عند تكامل الجامات بالضوء وهذه صورة ما وصفته واضحة.

الخلاصة أن الساعة كانت كانت بشكل غرفة إرتفاعها أكثر من ثلاثة أمتار في أعلاها دائرة البروج، وهي تدور وتتحرك ببطيء بحيث يختفي كل برج منها في نهاية الشهر، لأن لكل برج شهراً. وتحت دائرة البروج فلك الشمس وتحت هذا فلك القمر، ثم يأتي إثنا عشر باباً ذا مصراعين في صف أفقي تعرف بها ساعات النهار. إذ عند تمام كل ساعة ينفتح باب ويخرج منه رجل آلي علامة لتتمام الساعة، ثم يتراجع الرجل وينغلق الباب ويتحرك الرجل نحو الباب الآخر داخل الساعة. وتحت هذا الصف من الأبواب صف ثان من الأبواب ذات مصراع واحد ويلون مغاير، وتحت هذه الأبواب إفريز يتحرك عليه هلال على شكل دينار. ثم تأتي إثنتا عشرة جامة، أي نوافذ مدورة مغطاة بالزجاج خاصة بمعرفة ساعات الليل، حيث يظهر الضوء في كل منها تدريجياً. وعندما يعم الضوء النافذة

(الجامه) تكمل الساعة. وعلى كل جانب من قوس الجامات خسفة (حنيّة) في كل منها طائر أمامه قنديل عليه مرآة، يقذف الطائران عند تمام كل ساعة كرتين معدنيتين من منقارهما على المرآة فيسمع الصوت من بعيد. في القسم الأسفل من واجهة الساعة خمسة موسيقيين، وعند تمام الساعة السادسة والساعة والثانية عشرة ينفخ البواقان في بوقيهما، ويضرب الصنّاجان على صنجهما ويضرب الطّبّال على طبله ويحدث لذلك صوت يسمع من بعيد. فحركة البروج والشمس والقمر هي وفق درجاتها الفلكية اليومية، وحركة الرجل الآلي والضوء في الجامات وقذف الطائرَيْن الكرتين وقيام الموسيقيين بأعمالهم - كلها تتم بواسطة آلات يديرها الشمع المذاب داخل هذه الساعة الكبيرة، التي صنعها أحد نوابغ كُردستان، ألا وهو يوسف الأَصْطْرلابي وفق حسابات ميكانيكية ورياضية وفلكية دقيقة جداً. ولا فرق في كل هذا بين الشمع المذاب أو الماء في مثل هذه الساعة .

والصورة موجودة في نسخة الحصكفي من كتاب ابن رزاز وغير موجودة في نسخة أياصوفيا، وذلك لأن العديد من صور الأخيرة قد سرقت من قبل المستشرقين. وقد قمت بتجديد هذه الصورة. وقد نقلها السيد ماجد عبدالله من كتاب (قصة الوقت) لجواد الساعاتي، ولكنها طبعت مقلوبة في كتاب السيد ماجد (مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة الإسلامية، ص ١٤٨).

ساعة فارقين حسبها وصفها بسري كونياري

ذكر المؤرخ الدياربركري بسري كونياري في كتابه (DIYARBAKIR TARIHI، ج ٣، ص ٣١٤) أنه كانت فوق الجامع الكبير بفارقين بناية ساعة الى سنة (١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م)، لكن الأرمن هدموها في تلك السنة وإدعوا أنها من آثارهم، ووصفها بما يلي:

« كانت فوق الجامع الكبير ساعة شمسية لها نوافذ، والمشهور أنها كانت بناية ذات إثنتي عشرة نافذة. وكانت البناية قد صنعت وفق ما كانت الشمس في الاعتدال، أي نقطة تساوي الليل والنهار. وكانت الشمس تضرب كل ساعة إحدى النوافذ، وبعد إثنتي عشرة ساعة كانت الشمس تغرب. ومن المؤسف أن الأرمن هدموا هذه البناية ذات القيسة في سنة (١٣٢٥هـ). وكان لهذه البناية بابان مفتوحان نحو الجامع ولم تكن فيها غرف، وكان في داخلها إبتداءً من الباب إفريز. وكان الجانب الشمالي مزيناً بنوافذ على شكل قناطر، وكانت النوافذ الإثنتي عشرة مفتوحة نحو الجامع. وكان في الطرف الشرقي صالون واسع مسقوف ومكانه اليوم مسطح، وكان طول الصالون (٣٠) خطوة كبيرة وعرضه (٣٠) خطوة (٧).

نلاحظ من وصف بسري كونياري ما يلي:

١- أن بسري كونياري لم ير بناية الساعة سالمة وإنما كتب وصفها حسب ما سمعه من الناس بدليل قوله "والمشهور أنها كانت بناية..."

(٧) ترجم العبارة التركية أخي الملا أحمد يوسف، الذي يجيد التركية والعربية والفارسية إضافة الى لغته الكُردية، كما ترجمها السيد أسوس هردى أيضاً مشكوراً.

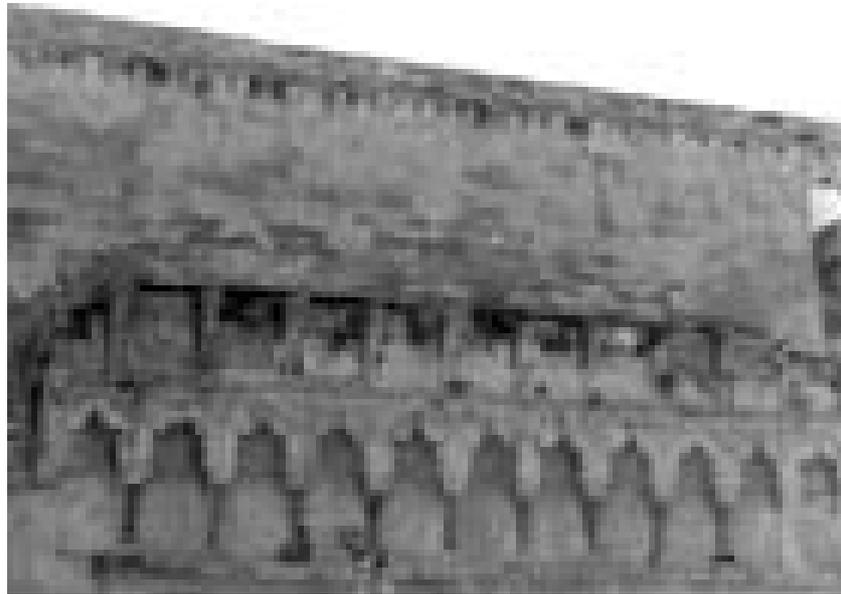
٢- كانت بناية الساعة عبارة عن غرفة واحدة أو ما يشبه غرفة، كأن تكون على شكل قبة دائرية جوفاء فيها نوافذ مفتوحة الى الجامع، بحيث أن أشعة الشمس كانت تنفذ من كل نافذة الى داخل الجامع، والجالس فيه يعلم بالساعة المعينة من تلك الأشعة، التي كانت تضرب بقعة معينة من الجامع. ومن مشاهدة الشمس من النافذة المعينة أيضاً، علماً أنه يوجد في الصورة المرقمة (٢٠٧) من الصور الثلاثة للجامع، التي أدرجها بسري كونيار في كتابه، بقايا غرفة مستطيلة غير دائرية فوق مكان ما من الجامع إهتم بها البناء من حيث الجمال المعماري، حيث زين جدارها (ولم يبق منها سوى القسم الأسفل بمقدار حوالي ٥-٦ صفوف من الأحجار بإفريز حجري بارز، وتحتة إفريز آخر بارز من رؤوس الثيران، حيث نُحتت الأحجار على شكل رأس الثور. وأنا لا أستطيع أن أرجع هذا الطراز المعماري بالأصل الى أبعد من العهد الزردشتي (٨). وكانت الغرفة تطل على قسم من إفريز الأقواس الصامتة أي الخالية من النوافذ وهي على شكل قناطر. ويوجد حالياً في كل من الجانبين الشرقي والغربي من الباب الشمالي (أي في الجدار الشمالي للجامع) إفريز متكون من إثني عشر قوساً يرجح أن تكون من العهد الأرتقي، علماً أن صور بسري أخذت حينما كان الجامع مهتماً، أي بعد تهديمه سنة (١٩٠٧) وقبل تعميره في سنة (١٩١٣) من قبل بناء مارديني شوه الجامع وعمل أقواس الأبواب على طراز أقواس مداخل الكنائس المسيحية التي أخذت من الفن القوطي الذي شاع في أوروبا من القرن الرابع عشر الى أواسط القرن السادس عشر، إذ لم يراع الجانب الأثري والتاريخي له إلا قليلاً. وهذه هي صورة بسري كونيار. وتشبه أقواس الإفريز المذكور أقواس المدرسة المسعودية بدياربكر وجامع قزل تپه وكلاهما من العهد الأرتقي. ويحتمل أن الغرفة المذكورة كانت الساعة، سواء الساعة الدوستكية أو ساعة شمسية صنعت في العهد الأرتقي، حيث سقط الجانب القبلي من الجامع سنة (٥٤٩هـ = ١١٥٤م) أو في التي قبلها، كما هدم نجم ألبى أقساماً أخرى منه ثم جدد بناءها، وهناك في قبة الجامع كتابة بإسمه (٩).

(٨) كانت للثور قدسية لدى الحيشيين وكذلك لدى سكان كُردستان منذ خمسة آلاف سنة على ما ظهر من التنقيبات في (تل قالينج أغا) الواقع ضمن مدينة أربيل. وللثور قدسية كذلك في الديانة الزردشتية، حيث إتخذ من جملة رموز الإله (ميترا - مهر) كالحصان والأسد والغراب الأبلق وزهرة نيلوفر وزهرة الأخوان، لذلك جسّم المعماريون الزردشتيون هذه الإعتقادات الدينية في أعمالهم العمرانية في المعابد وغيرها. ففي الصورة الموجودة في (ص١٥٨) من (إيران في عهد الساسانيين) لكريستنسن يشاهد حجران (تمثالان) لرأس الثور في معبد شابور الزردشتي. وقد إستمر هذا التقليد في العهد الإسلامي حتى اليوم، ووصل الى أوروبا. وفي السلمانية يسمى البناؤون وغيرهم هذا الحجر بإسم (بهردى سهرگا) أي حجر رأس الثور. وهو حجر عريض من الأعلى وضيق من الأسفل يدخل في منتصف أقواس مداخل الدور والشبابيك. ومن هذا المنطلق الديني نُحت مدخل كهف في وادي قرية (بيتاسي) الواقعة في جنوب زاخو على شكل رأس الثور. وفي الكهف ثلاثة قبور زردشتية صورتها في ١٩٩٤/٩/٢٠. وتوجد الصورة في (ص٤٦) من كتابي (شويتنه واركانى نهوئ له شاخي سورين). وقد إكتشفنا مئات الرسوم والتماثيل لرأس الثور في الأماكن الدينية الزردشتية المكتشفة من قبلنا، والتي لم يتم إكتشافها سابقاً. يذكر أنه حتى ثلاثينات القرن العشرين كان المعماريون الكُرد يدخلون نماذج معمارية في أعمالهم تجسد أفكاراً زردشتية كمواقف النار الزردشتية، وذلك دون أن يعلموا معانيها، بل لأن هذا التقليد الزردشتي قد وصل إليهم جيلاً بعد جيل.

(٩) في الورقة (١٠٧) من الأبحاث الخطيرة لإبن شداد ذكر لإنهدام الجانب الجنوبي من الجامع وتجديد الجامع (بل معظمه من قبل الأمير الأرتقي نجم الدين ألبى).



جامع فارفين



إفريز القناطر- من بسري كونيار



أفاريذ جامع فارقين

وإن كانت الغرفة ساعة شمسية، فلا بد أن تكون مظلة على الجانب الجنوبي المواجه للشمس من الجامع. وإن كانت غير شمسية فالراجع أن تكون مظلة على الجدار الشمالي الذي فيه الباب الرئيسي. وقد قام البناء المارديني (لا رحمه الله) الذي يحتمل جداً أنه كان مسيحياً بتغيير حوالي ثلاثة أبواب أخرى للجامع. ويستبعد أن يكون طول الغرفة بقدر عرض الجامع البالغ (٣٠ أو ٢٥ م)، وإن كان في جدار غرفة الساعة شبابيك على شكل قناطر، فهي مشابهة لأقواس (قناطر) الإفريز الذي في الجدار الشمالي من الجامع، والذي يرجح أن تكون من العهد الأرتقي، لكونها مشابهة لتلك الموجودة في المدرسة السعودية والمدرسة الزنجيرية بديار بكر من قوس المدخل لكل منهما وكلاهما من العهد الأرتقي (١٠).

وقد قمت بتصوير الإفريز في آب ١٩٧٧ أثناء دراستي لآثار مدينة فارقين. ولا يستبعد أن تكون ساعة الدولة الدوستكية قد تهدمت سنة (٥٤٨هـ أو ٥٤٩هـ)، ثم تم صناعة ساعة أخرى أثناء تعمير الجامع إستخدم فيها نفس الطراز من القناطر الباقية حالياً، وذلك بأمر من نجم الدين ألبى وكانت باقية الى سنة ١٩٠٧ أو أن ما تبقى من الغرفة كان غرفة الساعة الدوستكية.

٣- أن ما ورد من ذكر الصالون وأدرج في موضوع الساعة لا علاقة له بالساعة مطلقاً، وليس هذا الصالون (الرواق) الكبير فوق الجامع، بل كان مشيداً على الأرض في الطرف الشرقي من الجامع. ويحتمل أنها عبارة مقحمة ولعل قبلها عبارات محذوفة أي متروكة أثناء طبع الكتاب يستفاد منها

(١٠) قال شوكت بيسان أوغلو في ص ٢٢٤ من كتابه DIYARBAKIR TARIHI أن في جامع علاء الدين في (قونيه) إفريز مشابه لإفريز جامع فارقين.

أن بناية الساعة كانت على القسم الشرقي من الجامع مقابل ذلك الرواق، أي أن جدارها الشرقي كان يقابل الرواق إن كانت العبارة في محلها.

ومن حيث أن بسري كونيار وهو أفضل مؤرخي دياربكر في القرن العشرين، وكتابه أفضل وأوسع من مؤلفات غيره في موضوعه - فإنه لم ير غرفة الساعة سالمة، فلا يمكن القول إذن بأن معلوماته عن الساعة دقيقة وشاملة ١٠٠٪. ولكن الأمل ليس معدوماً في الحصول على معلومات عنها في مؤلفات أخرى أقدم، وكذلك على صور. هذا مع العلم أن ناصري خسرو عندما قدم إلى فارقين سنة (١٠٤٦م) أعجب بجامعها وكتب له وصفاً مسهباً في (سفرنامه)، على ما أشار إليه الشخص الذي إختصر (سفرنامه)، وأشار مختصر الكتاب إلى أنه حذف ذلك الوصف، لكنه كان البناء المارديني عديم الذوق، حيث أبقى من الوصف ما يتعلق بمراحض الجامع الأربعين. والنسخة المختصرة هي التي ترجمها يحيى الخشاب إلى العربية وطبعها، فمن المحتمل أن يكون ناصر خسرو وصف ساعة الجامع ويحتمل الحصول على ذلك في نسخة مخطوطة غير مختصرة منه في مكان ما. أما شوكت بيسان أوغلو وكذلك سليمان سافجي مؤلف (SILVA TARIHI) فلم يشيرا إلى الساعة.

أخيراً، إن ساعة بنكام، التي كرر الفارقي ذكرها ثلاث مرات وقال "أن نصرالدولة غرم من ماله" أي صرف على صنعها مبلغاً كبيراً، لم تكن ساعة شمسية قليلة التكاليف، وإنما ساعة مشابهة لساعة يوسف الإسطرلابي إن لم تكن هي نفسها ومشابهة للساعات التي أشرنا إليها. وإن كانت هي التي بقي بناؤها حتى سنة ١٩٠٧ قائماً، فقد كانت معطلة عن العمل، كما يحتمل بأن مبنائها لم يكن سالماً تماماً. ففسرها الناس لذلك خطأً بكونها ساعة شمسية، ولم يعلموا بحقيقتها. وإن كانت قد تهدمت سنة (٥٤٨هـ أو ٥٤٩هـ) ثم صنعت ساعة شمسية أخرى أثناء تعمير الجامع من قبل نجم الدين ألبی، فإنها غيرها بلا شك. والأرجح أنها كانت تطل على الساحة الشمالية للجامع حيث الباب الرئيسي كان في الجدار الشمالي منه.

ولا بأس ونحن بصدد هذه الساعة أن نذكر أنه كانت في كُردستان ساعة أقدم بكثير من العهد الدوستكي، ولكنها كانت ساعة شمسية (مزولة) حجرية. وهي موجودة الآن بين آثار جبل (نمرود) الغربي الواقع غرب الفرات في ولاية (أديمان)، وهي من حضارة دولة (كوماغن) الإغريقية الصغيرة هناك (٦٩ ق.م - ٧٢ ب.م)، التي خلفت آثاراً كبيرة وهذه صورتها (١١).

نشير كذلك إلى ساعة (بنكام) مائية قديمة ومهمة ذات علاقة بتاريخ كُردستان، وهي ساعة قصر جنزك (شيز - تخت سليمان) (تكاب) الحالية في أقصى شرق منطقة موكري من كُردستان إيران، حيث كان هناك واحد من المعابد الثلاثة الكبرى للدولة الساسانية، وهو معبد (گوشنَسَب) الزردشتي الملكي. لقد عمل الملك الساساني (كسرى) تلك الساعة في قصره هناك، وقد ذُكرتها مصادر شرقية وغربية وعرفت بد(تخت ديس). صنعت الساعة في سقف مقبب شبيه بالسماء تتحرك فيه البروج

(١١) الصورة مأخوذة من DOGHO ANADOLU BOLGESI (6). TURIZM VE TANITMA BAKANLIGI. hazairlayen ve

.Basan: TICARET MATBATICILIK. T.A.S IZMIR 1968.

الفلكية والكواكب السبعة السيارة والقمر مع حركة السماء فوق الأرض. وكان ينزل من الساعة مطر رذاذ وتحديث آلتها صوتاً كالرعد في ساعات معينة. وكان في الساعة صورة كسرى مع رجاله المقربين. وكان طول الساعة تسعين متراً وعرضها خمسة وستون وإرتفاعها سبعة أمتار ونصف، حسب أوصاف الثعالبي. وفي سنة (٦٢٤م) خرب هرقل القصر بما فيه الساعة. والتفاصيل في (إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٤٩-٤٥٠) لكريستنسن. وقد خصص عالم الآثار الكبير هرتسفيلد بحثاً عن هذه الساعة.

ولعل أقدم ساعة أو تقويم في كردستان كانت الحجر البيضوي المحرز بأثني عشر حزاً وخطاً، والموجودة في الخزانة رقم (٢) من المتحف العراقي ببغداد. وقد عثر عليها في كهف شاندر القريب من الزاب الكبير في منطقة بارزان في محافظة أربيل، وذلك أثناء التنقيبات من قبل العالم الأمريكي (سوليكي). وتاريخ السكنى في الكهف إبتدأ منذ ستين أو سبعين ألف سنة الى أحدث العهود (١٢).

لقد إعتبر عالم الآثار الأستاذ الدكتور بهنام أبو الصوف ذلك الحجر البيضوي التقويم القمري بدون تردد، وقال إن هذا التقويم قد ألقى سطوته على خياله (١٣). من المحتمل جداً أن سكان كردستان في العصر الحجري الحديث، وخاصة سكان (جرمو) الواقعة في منطقة السليمانية الذين عرفوا الزراعة قبل غيرهم من سكان العالم وذلك منذ تسعة آلاف سنة، عرفوا قياس الزمن والتقويم قبل غيرهم ايضاً وذلك بواسطة الدورة الزراعية. فقد قال كبير علماء الآثار العراقيين المرحوم طه باقر في موضوع (جرمو): لعل فكرة قياس الزمن والتقويم، ولاسيما التقويم الشمسي قد إستوحاها الإنسان من الدورة الزراعية. إذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من وقت البذار الى بذار اخر، أو من حصاد الى حصاد آخر. ولعل إنسان ذلك العصر (أي العصر الحجري الحديث) إستعان في ضبط مثل هذه الدورات والمواسم وتعاقبها ومواعيدها بإقترائها، بطولوع بعض النجوم والكواكب (١٤).

التجارة

لقد حصل تقدم بارز في الحركة التجارية في كردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية وذلك للأسباب التالية:

١- إهتمام الدولة ببناء علاقات الصداقة مع دول وإمارات المنطقة والإبتعاد عن الدخول في منازعات مع جاراتها، وإتخاذها السلم والصداقة مع شعوب المنطقة الإسلامية والمسيحية أمراً إستراتيجياً لسياستها الخارجية، كما مر التفصيل في أوائل فصل العلاقات الخارجية وفي موضوع سياسة

(١٢) بخصوص هذا الحجر راجع الدكتور، فرج البصمجي، كنوز المتحف العراقي، ص ١٢٧.

(١٣) راجع، ص ٦٨ من (الدكتور بهنام أبو الصوف) تأليف حميد المطيعي، بغداد ١٩٩٥.

(١٤) طه باقر، مقمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ١٩٩.

نصرالدولة السلمية في الجزء الأول. وقد أدت هذه العلاقات الى تشجيع وغو التجارة، وأصبح بإمكان التجار الأجانب دخول البلاد الدوستكية دون أية عراقيل من الدولة ودون خوف على أموالهم من السلب والنهب.

٢- إستتباب الأمن والإستقرار في البلاد وجعل الطرق التجارية التي تربطها بالبلاد الخارجية آمنة من العابثين وقطاع الطرق. فكان التجار لا يخافون أثناء تنقلهم في البلاد الدوستكية أو مرورهم بها من أعمال السلب والنهب. بينما كانوا كثيراً ما يتعرضون الى السلب والنهب في البلدان التي لا تنعم بالأمن والإستقرار، وذلك من قطاع الطرق وحتى من قبل جنود الدولة نفسها أحياناً. ففي أثناء ضعف وإنحطاط الدولة العباسية مثلاً (ربما طمع الوزير أو القائد العسكري في أرزاق الجنود، فكان الجنود يخرجون بسبب ذلك ويتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم ويسطون على قوافل التجار)^(١).

ويمكن أن نلمس مدى إهتمام الدولة الدوستكية بحماية الطرق التجارية من اللصوص وقطاع الطرق والمفسدين مما أمر نصرالدولة بقتل أحد رؤساء الكُرد في دولته، حينما إعترف بأنه قتل أثناء كونه قاطع طريق في عنفوان شبابه تاجراً، بعد أن سلب منه ما معه من أموال^(٢). فإقتص منه نصرالدولة لذلك التاجر المنكوب المجهول بعد مرور سنوات طويلة على قتله. كما نستدل على ذلك الإهتمام من شهادة أبي العلاء المعري، الذي مر بالبلاد الدوستكية أثناء رجوعه من بغداد وذلك حوالي سنة (٣٩٩هـ)، حيث ذكر بأنه سلك طريق الموصل وفارقين. وقد أعطانا المعري بعبارة وجيزة وصفاً دقيقاً لمدى تمتع البلاد بالأمن والسلام، وإليك نص كلام المعري: "سلكت طريق الموصل وميافارقين... ولما نزلنا بالحسنية تساوى حامل المال والرمال وقل بلاء الغادي أين قال والرائح أين عرس ويات، فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد. ثم عادت السبيل الى غوائلها وسدكت الرفاق بمخاوفها..."^(٣).

إن قول المعري هذا يقترن بصحة ما قاله بعض المؤرخين من أن البلاد الدوستكية كانت من أكثر البلدان أمناً وإستقراراً وكانت أطيبها^(٤). وإن أي بلد آخر من بلدان الشرق الأوسط آنذاك لم يبلغ مبلغ الدولة الدوستكية في توفير الحياة الآمنة المستقرة. ولاشك بأن إستتباب الأمن عامل مهم لتنشيط الحركة التجارية ودفعها الى الأمام.

٣- عدم فرض الضرائب الكثيرة أو الثقيلة على التجارة والسوق من قبل الدولة الدوستكية. إذ لم

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ١٩٠.

(٢) محمد بن أحمد المحلي، المستطرف، ج ٢، ص ١٠٦: مادة الحجل (كهو) ذكر ذلك في قصة لطيفة ذكرناها في الجزء الأول ص ٢٥٩-٢٦٠ تحت عنوان (الحجل يشهد).

(٣) محمد بن أحمد المحلي، المستطرف، ج ٢، ص ١٠٦: مادة الحجل (كهو) ذكر ذلك في قصة لطيفة ذكرناها في الجزء الأول ص ٢٥٩-٢٦٠ تحت عنوان (الحجل يشهد).

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٨٧.

نجد في المصادر المختلفة ما يشير الى فرض ضرائب من هذا النوع، بل ذكر الفارقي بأن نصرالدولة ألغى الكثير من الضرائب التي كانت قد فرضت على سكان مدينة دياربكر من قبل كل من عبدالبر وإبن دمنة(٥).

أما التجارة في كُردستان الوسطى في العهد الحمداني، فقد عانت من فرض الضرائب الكثيرة، إضافة الى عدم تورع الحمدانيين عن مصادرة أموال التجار كما هو معلوم من سياستهم، حتى إن سيف الدولة (ولعله من أحسن الحمدانيين سيرة) فرض ضرائب كثيرة ومختلفة على مدينتي الرقة والرافقة، وصادر سكانهما المرة تلو الأخرى بدرجة أدت الى إنحطاط المدينتين وتأخرهما من الناحيتين التجارية والإقتصادية عامة. كما إن مدينة رأس العين تأخرت كثيراً وإنحط شأنها بسبب ظلم الحمدانيين(٦).

وهناك أمثلة عديدة لا مجال لذكرها هنا. وكيف يمكن أن لا تتأخر التجارة وتنحط إذا ما دُمرت مدن عديدة في كُردستان والمناطق المتاخمة من البلاد البيزنطية مثل بلدة (تل فافان) الكُردية، التي أحرقتها حسين بن حمدان وقتل سكانها بدون ذنب وهو ينهزم أمام قوات الخليفة العباسي(٧).

أما التجارة في كُردستان الوسطى خلال فترة السيطرة البويهية القصيرة، فقد ظلت تعاني من أسباب التأخر كما في السابق، منها الضرائب الثقيلة ولعل الضرائب الجديدة زادت عن الضرائب الحمدانية. فقد زادت الدولة البويهية من مقدار الضرائب على كُردستان وغيرها من البلاد الخاضعة لها وذلك: "أن عضدالدولة أحدث جبايات لم تكن ورسوم معاملات لم تعهد... وقدر على أسواق الدواب والحميز والجمال عما يباع فيها من جميع ذلك، وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه عن الرسوم القديمة"(٨).

٤- تشجيع التجار وتقديرهم مما يمكن أن نلاحظ هذا الإهتمام من قبل الدولة الدوستكية بسرور نصرالدولة الفائق لسماحه أن التاجر (إبن بهات) ربح في يوم واحد من الختام (٥٠٠) دينار بيزنطي. فأحضره نصرالدولة الى مجلسه وأبدى سروره وتقديره، فأهداه التاجر مبلغ الربح، فلم يتسلمه منه وأقسم كل منهما بأنه لا يأخذ المبلغ. فإشترى به التاجر قرية (بني نوح) وجعلها وقفاً على حراس حصون أكل والجبابرة واليماني(٩). وقال له نصرالدولة: "إني ما أحضرتك لأخذه منك ولكن أردت أن أعلم صحة الحديث وإن في بلدي من كسب في يوم واحد خمسمائة دينار!". أما

(٥) الفارقي، ص ١٢٢.

(٦) إبن حوقل، ص ٢٠٠، ٢٠٣.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٠، حوادث سنة ٣٣٠هـ.

(٨) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص ٧١.

(٩) ورد في الفارقي، ص ١٦٧ (المجاعة) بينما ورد إسم هذا الحصن في بعض نسخ الفارقي الأخرى وفي مخطوطة الأعلام الخطيرة لإبن شداد ورقة ٩٢ بإسم (الجبابرة)، وفي فتوح الشام، ج ٢، ص ١٦٥ بإسم (الجبابرة) أيضاً، وذلك عند البحث عن الفتح الإسلامي لمنطقة دياربكر. وكانت هذه القلاع تقع في شمال دياربكر بالقرب من متبع دجلة قرب الحدود البيزنطية. وهناك ملاحظة أخرى وهي أن الفارقي فصل بين (إبن البهات) وأبي بكر محمد بن جري، بينما إعتبرهما إبن شداد شخصاً واحداً، وأورد "إبن الشهاب" بدلاً من "إبن البهات" وهو خطأ.

نظام الدين فكان يتفقد أحوال الناس ويسأل عن أحوال الحاضرين في المدينة وأحوال الغائبين أيضاً^(١٠) ويضمنهم التجار وأهل السوق. وقد شبه الفارقي في (ص ٢٢١) أيام أبي علي البلخي بأيام نظام الدين من فعل الخير وأمن الناس على أموالهم وإحترامهم وإكرامهم. ولهذه الأسباب إزدهرت التجارة في ذلك الجزء من كُردستان، وأصبحت الأسواق تعج بالبضائع والأموال التجارية وإمتلأت مخازن التجار وإستغنى الناس وتظاهروا بالثروة. فقد خلف التاجر والسمسار أبو بكر بن جري في مخازنه بعد وفاته على سبيل المثال ما قيمته (٨٠) ألف دينار من الأمتعة والأقمشة. وكان المذكور تاجراً غنياً، وقد صادره نصرالدولة وأخذ منه (٤٠٠) ألف دينار. وكان هذا قد حفر قناة ماء الى فارقين على حسابها الخاص، كلفته خمسين ألف دينار^(١١)، أو أكثر من هذا المبلغ بكثير. علماً أن الدينار آنذاك كان يعادل في قيمته الشرائية أكثر من خمسين ديناراً في وقتنا الحاضر. ويمكن أن نلاحظ أيضاً مما تقدم مما قاله الفارقي: "إنعمرت ميفارقين أيام نصرالدولة وقصدها الناس والتجار وجماعة من كل الأطراف"^(١٢).

لاشك أن حجم الصادرات الكُردية الى الخارج قد إزداد في العصر الدوستكي، كما إزداد حجم البضائع الأجنبية الواردة الى كُردستان للإستهلاك المحلي أو للمرور بها الى بلد آخر، وإن تجاراً قدموا من الخارج للإقامة فيها لمزاولة أعمالهم التجارية في هذا البلد الأمين.

أما أهم المدن التجارية، فكانت مدينة دياربكر (أمد)، وكانت تلتقي عندها عدة طرق تجارية. وكان مما تستقبله هذه المدينة من التجارة البيزنطية ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي^(١٣)، أي المصنوعة على الطراز المتداول في جزيرة صقلية، والتي كان التجار يوصلونها بعد ذلك الى العراق وغيره. ويمكن لنا أن نستنتج مدى حجم التبادل التجاري بين كُردستان والبلاد البيزنطية من تداول الدينار الأرماني البيزنطي بكثرة في المعاملات التجارية في العهد الدوستكي، كما بينا في موضوع النظام المالي.

لقد تقدمت مدينة دياربكر تجارياً وتوسعت أسواقها في العهد الدوستكي الى أكثر من ستين سوقاً مختلفاً على ما ذكره الدكتور أديب معوض^(١٤). أما مدينة الجزيرة، فكانت مركزاً تجارياً هاماً واقعاً على طريق دجلة المائي، سواء في العهد الدوستكي أو في العهود الأخرى. وقد أشار الى موقعها التجاري العديد من المؤلفين القدامى والمحدثين منهم ابن حوقل، الذي ذكر أن: "بها تجارة دائمة لو

(١٠) الفارقي، ص ١٩٩. وابن شداد، ورقة ٩١-٩٢.

(١١) الفارقي، ص ١٦٥-١٦٨. سبب مصادرة هذا التاجر كما ذكره هو الإتهام بالتواطىء مع ملك السنانسة وكانت بينهما صداقة، ولما سُجن تم تفتيش داره فوجد فيها أسلحة كثيرة، فصودرت وأعتقل وتوفي في السجن. وصرح الفارقي بأن التهمة كانت باطلة لفقها بعض حساده. راجع أيضاً مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٩١، نسخة مصورة في مكتبي مصورة على نسخة مكتبة بودليان بأكسفورد.

(١٢) الفارقي، ص ١٦٦.

(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٥.

(١٤) الدكتور أديب معوض، الأكراد بين الأمس واليوم، ص ٤٣.

تركها السلاطين وريح مطرد لو لم يجز فيها حكم الشياطين والخوارج" (١٥).

وأضاف بأنها: "فرضة (أي محطة تجارية) لأرمينيا وبلاد الروم ونواحي ميفارقين وأرزن وتصل منها المراكب مشحونة بالتجارة كالعسل والسمن والمنّ والجبن والجور واللوز والبندق والزبيب والتين الى غير ذلك من الأنواع" (١٦). وقد أشاد ابن حوقل بأهمية الجزيرة من الناحية التجارية باعتبارها محطة تجارية تستقبل التجارة الأرمنية والبيزنطية وتجارة إقليم ديار بكر. كما أشاد أيضاً بعمرائها وكثرة سكانها وفلاحيتها والأراضي الخصبة الواقعة في شرقيها وغربيها، إضافة الى ثروتها الحيوانية وفضلها على أرزن وفارقين من الناحية المذكورة (١٧).

أما المقدسي فقد عدد هو الآخر التجارات القادمة من الجزيرة الى العراق وبضمنها الخيل الجياد (١٨). وكان يصدر من منطقة الجزيرة الملح (١٩) وأحجار الرحي (الطاحون) من النوع البازلتي الأسود. وكانت قيمة الحجر الواحد منها في العراق خمسين ديناراً أو أكثر (٢٠). علماً أن أحجار الرحي كانت تشكل مادة تجارية مربحة كانت ترد دائماً من الجزيرة بواسطة الأكلاك الى الموصل والعراق حتى فترة الحرب العالمية الأولى. وما زالت مجموعات من أحجار الرحي الجاهزة للتصدير تشاهد متروكة على شواطئ دجلة فوق الجزيرة، حيث تركت هناك عندما أقفل الطريق بسبب تأسيس الحكومة العراقية.

أما مدينة زاخو (الحسنية)، فكانت تصدر الجبن والقبيج والجواجيق والشواريز والفواكه المقددة،

(١٥) ابن حوقل، ص ٢٠٢. وردت فيه العبارة (وريح مضطرب) وهي خاطئة والصحيح (وريح مطرد) كما صححته.
(١٦) ابن حوقل، ص ٢٠٢، ٢٠٣. اشتهرت البلاد الكردية منذ زمن بعيد بصناعة الجبن، وكانت لا تزال تصدر كميات كبيرة منه سنوياً الى البلدان المجاورة غير الكردية. وكان الجبن الكردي مشهوراً بجودته، ولهذا كان يفضل على غيره في أسواق العراق وسوريا وغيرهما. وأجود الجبن هو الذي يصنع في المناطق الباردة وخاصة مناطق الزوزان. وقد عرف قديماً جبن كوردي باسم (الجبن الزوماني) أو (الجبن الزومي). قال ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٦ يُنسب الى طائفة من الكرد تعرف بزومان، ولكنه قال أيضاً: ولعله ينسب الى (زوم) من نواحي أرمينية مما يلي الموصل. والنسبة الى زوم أرجح عندي، لأن المقصود بالجبن الزوماني أو الزومي، هو الذي تصنعه القبائل الكردية في زمومها في مناطق الزوزان الواقعة جنوب بحيرة وان الى حدود زاخو وعمادية... شمال الموصل. علماً أن لفظ (زوم) يطلقه الكرد في كردستان تركيا (وبضمنها ما نسميه في كتابنا هذا كردستان الوسطى) وكذلك في بهديتان على المضارب المعينة للقبائل الكردية في مناطق الزوزان أيام الصيف. فالزوم كان لفظاً مستعملاً منذ قرون، فمثلاً أورد ذكره ابن خرداذبه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذكره في القرن التالي أيضاً كل من الأضطخري والهمداني وابن حوقل مثلاً، وذلك عند ذكرهم لكرد إقليم فارس ولورستان الكبرى. فذكروا من زموم الكرد هناك: زوم (زم) الكاريان وزوم البازنجان وزوم جيلويه وزوم السوران... وكان كل زوم منها عبارة عن منطقة واسعة تشمل قرى ومدناً، فمدلوله في لورستان كان يختلف سعة عن مدلول الزوم المحدد في كردستان الشمالية وبهديتان. راجع ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٤٧. الاضطخري، مسالك الممالك، ص ١١٣، ١٤٤. ابن حوقل، ص ٢٤٠. الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٠٣.

(١٧) ابن حوقل، ص ٢٠٣.

(١٨) المقدسي، ص ١٣٩. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية، ج ١، ص ٢٤٢.

(١٩) قدامة بن جعفر، كتاب الخرج، ص ٢٤٥.

(٢٠) ابن حوقل، ص ٢٠١.

والزبيب (٢١). أما (معلثايا) فكانت تصدر الألبان والفحم والأعشاب والفواكه الرطبة والقنب (٢٢). وأما مدينة بدليس ذات الممر الإستراتيجي، فقد أشاد بموقعها التجاري أكثر من واحد من المؤرخين، لأنها كانت إحدى المحطات الرئيسية التي تمر بها القوافل التجارية بين أرمينيا وبلاد الكرج من جهة، وبلاد ما بين النهرين والشام من جهة أخرى (٢٣).

كما تربط بدليس بين بلاد الشام وأذربيجان والقفقاس، وكانت مركزاً لبعض الصناعات التي كانت تصدرها الى الخارج كالسجاد والجلود والصمغ (٢٤). ولعلها كانت أكبر مركز لتصدير العسل. فقد أبدى الرحالة الإيراني ناصر خسرو، الذي وصل إليها في العهد الدوستكي إستغرابه من كثرة عسلها ورخص أسعاره. وقال إشترينا مائة من بدينار واحد، وإن بها من يجني في السنة ثلاثمائة الى أربعمائة جرة عسل (٢٥).

أما مدينة نصيبين فكانت أيضاً مدينة تجارية لوقوعها على أطول طريق تجاري بري، كان يربط بين الشرق والغرب في القرون الوسطى. كما إنها تقع اليوم على خط الترانزيت الدولي. أما العاصمة فارقين فقد أصبحت في العهد الدوستكي مركزاً تجارياً مهماً بحكم كونها عاصمة ووقوعها على طريق بدليس - دياربكر وطريق دياربكر - شرقي دجلة. فإزدهرت فيها التجارة توسعت الى درجة أنها جلبت أنظار التجار في الخارج، فقدم إليها بعض التجار وسكنوها مزاولين أعمالهم التجارية فيها، كما يظهر من كلام الفارقي السابق. لقد توسعت الأعمال في هذه المدينة ونشأت فيها طبقة من أغنياء التجار وغيرهم كإبن جري وإبن البهات وأبي الحسن أحمد بن وصيف، وكان الأخير من كبار أصحاب المحلات التجارية في سوق القماش (البز) بفارقين، ومثل القاضي أبي الحسن الآمدي ومحمد بن العبيد بن المحور (٢٦).

(٢١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٥. (القيح): هو الحجل وبالكردية (كهو) وهو طائر جميل مشهور يكثر في المناطق الجبلية في كردستان ولحمه لذيذ وصوته شجي. يربيه الكرد لجماله وطيب صوته وإستخدامه في صيد الحجل البري، وربما تبلغ قيمة الواحد منه أكثر من ألفي دينار حالياً. ولا فرق بين القبح والحجل على عكس ما في بعض الكتب. راجع لسان العرب، إبن منظور، مادة قبح ومادة حجل. وتذكرة داود الأنطاكي، مادة حجل. (الجواجيق): جمع جاجق - جاجك، والجاجق كلمة كردية معناها باللهجة السورانية علك (علك مائي) يجمعه الكرد من صمغ أشجار الحبة الخضراء (كهزوان) ويبيعون منه كميات غير قليلة سنوياً. ولكن النوع الجيد والقليل هو ما يصنع من نبات الكعوب (كهنگر-كهردنگ) ونبات آخر، وكلا النباتين ساقيهما معظمتان يخرج منهما ماء حليبي يتجمد فيكون علكاً. ويحتمل أن يكون جواجيق جمع جاجق معرب (زأراك) وهو من مشتقات الحليب، حيث يجفف اللبن (دز) وتخلط به بعض النباتات مع فتات الجبن. (الشواريز): جمع شيراز وهو اللبن الرائب (ماس) المستخرج من مائه كما في لسان العرب والمنتج مادة (شرز). ويسميه الكرد (شيريز، والراجح أن شيراز تعريب (شيريز - شيريش).

(٢٢) الدكتور حميد عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغداد الى بداية العهد البويهي، ص ١٩١. تمثل معلثايا (مهلتا) دھوك الحالية، أي كانت تلك المناطق تصدر من منطقة دھوك بسهولة وجبالها. والقنب كما في المنجد نبات هندي الأصل ينتج لفيفاً متيناً صالحاً لصنع الحبال والخيوط. ويسمى بالكردية (كندر).

(٢٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٤٦٢.

(٢٤) نفس المصدر: مادة بدليس.

(٢٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٧.

(٢٦) الفارقي، ص ٩٩، ١٠٠، ١٨٢.

نظام السمسرة

كان نظام السمسرة موجوداً في الدولة الدوستكية كعامل منشط للحركة التجارية في كُردستان الوسطى. وكانت التجارة في العصر العباسي، بما فيه العصر الدوستكي، تسير وفق تنظيمات مالية معينة، ومن أهم الأنظمة التي إستخدمت في ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة، الذي كان السماسرة يحصلون من عملهم على أجور محترمة (٢٧).

وكان السمسار (٢٨)، أي الدلال والوسيط الذي يتوسط بين البائع والمشتري على إنجاز البيع. وقد أعتبرت السمسرة من الوظائف المهمة لتنشيط التجارة وإهتمت الدول والحكومات بتنظيمها وإصدار القوانين بشأنها. وقد جرت العادة أن يتخصص الدلالون كل في نوع معين من السلع، فعُرف دلال الأملك ودلال الرقيق ودلال الأقمشة (٢٩).

إن نظام السمسرة كان قد أنشأته الدولة الدوستكية في بلادها كجزء من إهتمامها بالتجارة، بإعتبارها إحدى الدول المتقدمة في عصرها. لأن الفارقي قد ذكر أن كلاً من التاجرين أبي بكر بن جري وإبن البهات كانا سمسارين، وكانا في نفس القت تاجرين. ويمكن أن نستنتج من هذا أن الدولة الدوستكية قد أدخلت السمسرة في أيدي أشخاص من أصحاب المروءة والأخلاق، وهم أشخاص معروفون بالعدل والإلتزام بالحق، إضافة الى كونهم متعلمين ومطلعين على قسط غير قليل من الشريعة الإسلامية، ولاسيما ما يتعلق بالمعاملات والأحوال الشخصية والقضاء الجنائي. هذا بالإضافة الى معرفتهم بمعظم سكان المدينة وبأخلاقهم وغيرها من واجبات وإختصاصات العدول. راجع التفاصيل في موضوع العدالة.

أما السمسار الآخر، فهو أبو بكر محمد بن جري، والذي كان رجلاً ذا مروءة وأخلاق وورع ومحباً لأبناء بلده وخير بلاده. وخير مثال على ذلك المشروع الخيري لقناة الماء التي حفرها وأجرى الماء بها الى العاصمة فارقين، والذي كلفه أكثر من خمسين ألف دينار أي ما يقدر بمليونين ونصف مليون دينار بقوة الدينار العراقي الشرائي الحالية. ولكن مع هذا فإنه عبر بالقناة من أمام داره ولم يدخل من مائتها قطرة واحدة الى منزله. وحينما سأل عن ذلك، قال حتى لايقول الناس إنما حفر القناة لأجل صالحه ومصلحته. وقد ذكره الفارقي أيضاً بد(الشيخ أبي بكر) بسبب من مكانته الأخلاقية. وتجدر الإشارة الى أن الفارقي قد ذكر في (ص ٢٧٠) إبن خليل السمسار، الذي تم القبض عليه في فارقين من قبل الملك الدقاق بن تتش السلجوقي سنة ٤٩٣ هـ، فمن المحتمل أنه أو أبوه كان سمساراً في العهد الدوستكي.

ونقول أيضاً يمكن أن نستنتج مما تقدم أنه كان من نظام السمسرة في الدولة الدوستكية أن تكون

(٢٧) الدكتور حسن أحمد، وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٢٠٨

(٢٨) السمسار كلمة معربة من الكلمة الفارسية (سبسار) ويحتمل أن يكون أصلها آرامياً.

(٢٩) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج ٢، ص ٥١٥.

في أيدي ذوي الأموال واليسار، لكي يتمكن السمسار من تكفل المشتري في المعاملات الضخمة ويكون محلاً للإعتماد والثقة بين البائع والمشتري كوسيط، وبهذه الصفة يتمكن من إنجاز المعاملات البيع والشراء بسرعة. وكلما إستطاع السماسرة الإسراع في تنفيذ البيع كلما كان لهم تأثير أكبر في تنشيط الحركة التجارية ودفعها الى الأمام. وهكذا تختلف السمسرة في تطبيقها المذكور عن (الدلالية) بمفهومها الشعبي الحالي الواطيء، لأنها كانت حينها وساطة بين البائع والمشتري في صفقات تجارية ضخمة، أو كانت وساطة (وكالة) أو شركة لنقل التجارة الخارجية على الأغلب حسب المصطلح الحالي في عصرنا هذا.

أما نظام الصيرفة والصكوك، فلم يصل اليها نص حول وجوده أو عدمه في الدولة الدوستكية. ويذكر بأن ذلك النظام كان موجوداً آنذاك في الدولة العباسية.

صادرات البلاد

كان ذلك الجزء من كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وبتعبير أعم في القرون الوسطى، على ما إقتبسناه من المصادر التاريخية، يصدر منتوجاته الى البلاد الخارجية من المواد التالية:

الفواكه المجففة والجوز واللوز والديس والحبة الخضراء (كهزوان) والسماق وكذلك من السما (كهزوا). ومن الثروة الحيوانية كانت تصدر الأغنام والماعز والأبقار والخيول والبغال (٣٠) والصوف والجلود والدهون والجن. وكان الصوف الكُرد في العهد الدوستكي، ولاسيما الأحمر منه، يعتبر من أجود أنواع الصوف بعد الصوف المصري. وأعتبر القبيح (حجل) هو الآخر من الصادرات. ومن مواد الدباغة: العفص (مازي) و(گلور) وقشور الرمان، وكلها توجد بكثرة في كُردستان. هذا بالإضافة الى تصدير الأخشاب والفحم والقطران وعرق السوس للأغراض الصناعية والأغراض الأخرى.

ومن المصنوعات اليدوية التي كانت تدخل ضمن التصدير المنسوجات اليدوية من ثياب قطنية وصوفية وحريرية كالطبالسة الصوفية والستائر المطرزة والمزركشة المنسوجة بالذهب وكذلك المقارم والشراشف والمناديل والفرش والسبنيات (٣١). أما من المعادن فكان يتم تصدير البورق وحجر الزجاج والرصاص والزرنيخ والحديد والنحاس والجبصين وأحجار الرحي السوداء البازلتية من نوع أحجار سور دياربكر. ومن المصنوعات المعدنية الموازين ودوايات الحبر. وأخيراً أحيل القاريء الى مواضيع

(٣٠) كانت كُردستان تصدر الى الخارج كميات كبيرة من الجوز واللوز على مر العصور. فقد ذكر نيپور، الذي زار الموصل في القرن الثامن عشر: أن أكثر من ألفي قنطار من البندق والجوز واللوز ترد سنوياً من كُردستان الى الموصل، حيث تقوم الموصل بتصديرها الى حلب. راجع الديوهجي، أعلام الصناع الموصلية، ص ٣٨. نقلاً عن رحلة نيپور الى العراق، ص ١١٤.

(٣١) السبنيات: نوع أسود من الثياب الحريرية وهي عبارة عن أزرق النساء فيها أمثال الأترج، أي موشية. راجع فيروزآبادي: قاموس المحيط، البستاني، محيط المحيط مادة (سبن) وفي لسان العرب لابن منظور مادة (سبن) أيضاً السبنيات ثياب غليظة من الكتان. وهو إسم غير عربي، ورد فيروزآبادي على صاحب هذا القول وأكد أنها ملابس حريرية. وذكرنا في موضوع الصناعات أن السبنيات كانت تصنع بفارقين فراجع هناك.

(الزراعة، الصناعات، والمعادن) إن كان يريد الإطلاع على الأماكن المنتجة لهذه الصادرات وعلى شرح بعض مواردها والمصادر التي إعتمدنا عليها.

المستوردات

كانت الدولة الدوستكية تستورد ما يحتاج اليه شعبها من مواد التجارة العالمية كان بعضها من منتجات بلدان الشرق الأوسط وبعضها الآخر من إنتاج الصين والهند والبلاد البيزنطية وغيرها. والمواد التجارية في القرون الوسطى بضمنها العصر الدوستكي كانت تأتي بصورة عامة من البلدان التالية:

الصين: منها كان يأتي الحرير والكاغد والغضائر (الصحون الكبيرة) والفغرنند والسرج واللبود والمداد والمسك والعقاقير والرقيق.

الهند: منها كانت تأتي الأحجار الكريمة والسيوف وجلود النمرور والصندل الأبيض والأبنوس وجوز الهند.

إيران: ترد منها الخوذ الفارسية ومرعز الشيرازية والإبريسم والسيوف والفراء والقطن والرقيق.

الخزر: ترد منها الدروع والبيضات والمغافر والعيبد والإماء.

سوريا: كانت ترد منها المنسوجات الحريرية وزيت الزيتون والسكر والزجاج والصابون.

مصر: كان يرد منها نسيج الكتان المشهور ونسيج الصوف، وقد ذكرنا في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية وصول ثياب الكتان من مصر سنوياً الى الدولة الدوستكية.

البلاد البيزنطية: ترد منها أواني الذهب والفضة والعقاقير والديباج وبراذين (نوع من الحصان) والجواري وأقفال وثياب الصوف وثياب الكتان. وكان يقدم من البلاد البيزنطية الى البلاد الإسلامية أيضاً مهندسو الماء وعلماء الزراعة وبنائو الرخام والاكارة (٣٢).

ومن المواد الكتابية كانت ترد من البلاد البيزنطية الى الدوستكية الرقوق، أي الجلود المهيأة للكتابة، ففي النصف الأول من العهد الدوستكي جدد يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدین الكتابة السطرنجيلية السريانية، ولهذا إحتاج المذكور الى كثير من مواد الكتابة. فأرسل بطرس ابن أخيه الى ملاطية لجلب الرقوق (٣٣). يظهر حتى ذلك العصر أن الرقوق كانت مفضلة على الكاغد في كتابة الكتب المقدسة والمهمة كالإنجيل والقرآن، بل إن الرقوق كانت تستعمل في كتابة القرآن بعد العهد الدوستكي بحوالي قرنين من الزمن أو أكثر. إذ توجد مصاحف مخطوطة على الرقوق مؤرخة بتواريخ متأخرة، هذا مع العلم بأن ملاطية كانت آنذاك تابعة للبيزنطيين.

(٣٢) إن المواد التجارية العالمية التي ذكرناها موجودة في العديد من المصادر القديمة ومنها: التبصر بالتجارة للجاحظ. والمدنية البيزنطية، ص ٩٤ لرنسيان.

(٣٣) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدین، ص ٢٣٤ . ٢٧٢.

الطرق التجارية

كانت هناك في العصر الدوستكي عدد من الطرق التجارية التي كانت تربطها بالأقطار الخارجية، بحيث أن الدولة كانت تصدر منتوجاتها الوطنية وتستورد ما تحتاجه عبر تلك الطرق الرئيسية في البلاد وهي:

طريق دجلة المائي:

لما كان نهر دجلة (٣٤) صالحاً للملاحة وطريقاً للنقل والتجارة من قبل الشعوب القديمة منذ ما يقرب

(٣٤) يقال أن إسم (دجلة) آري الأصل وهو (تيز) أي سريع الجريان، وهو غير صحيح بل إنه جاء من إسه القديم (أدكنا) الذي ورد في المسماريات السومرية وفي البابلية تحول إلى أدكنت أو أدكت. وهو مع إسم الفرات (في السومرية بورانون أو بوروننا وفي الأكديّة بوراتي أو بوراتيم) يعود إلى لغة قوم مجهولين سكنوا العراق قبل السومريين وقدموا من كردستان إذ سكن العراق وعمره أول مرة في التاريخ قوم نزوحوا إليه من كردستان في أواخر القرن السادس أو أوائل الألف الخامس قبل الميلاد. وينبع نهر دجلة وطوله حوالي ١٧١٨ كيلومتراً، من بحيرة كولجك في شمال دياربكر ويصب في خليج البصرة. وتصب في دجلة أنهار عدة كنت شخصياً قد عبرتها كلها ولي معرفة بها وأشير هنا إلى الأنهار التاريخية منها: (١) نهر (أنبر) وسماه الفارقي نهر (الحو) وهو قادم من حاني وهو أول نهر يصب في دجلة جنوب دياربكر. (٢) نهر باطمان (ساتيدما). (٣) نهر غرزان ويسمى أيضاً نهر رضوان وإسمه القديم (ساتيدما). (٤) نهر بوتان (الرزم) وهو الفرع الشرقي لدجلة. (٥) نهر (رهبينه) أو نهر مشار وينبع من سفوح مصيف دهشتميرا قرب قرية تحمل نفس الإسم، يمر في وادي كوريشا (وادي قريش)، على ما (في الكامل، ج ١٢، ص ٢٠٦) الذي هزم فيه الكرّد التتر هزيمة منكرة سنة (٦٢٨ هـ)، ثم يدخل سهل مشار ويصب في دجلة عند (خاناغيراخاني) جنوب إلتقاء فرعي دجلة، ثم يصب فيها. (٦) نهر قادم من (ديرشه) يسمى (روسور) يمر بقرية (باسرهد) الجميلة، وهي قرية مشايخ بوتان أسرة الشيخ حسين بن الشيخ خالد الزبياري، وقرية (هزراش) ويلتقي به فوقها ماء (ولهاتني بكاتني) عند النقب وهو نفق صخري في مضيق يمر فيه الطريق العام ويصب في دجلة في أسفل قرية شكهفتيان في موقع (بيري دهل)، وسماه ياقوت الحموي في (معجم البلدان): مادة دجلة: نهر (برني) ولعل الصحيح (برني) بالباء، وهو الآن إسم لكهف مفتوح كبير وعال فوق المصب عند شكهفتيان. (٧) نهر بينات (باعيناثا) ينبع من عند قرية بينات وعيونات في جنوب شرق فندك ويصب في دجلة في غرب قرية (زيتوي) قبالة قرية (بافني)، ثم نهر فنك. (٨) نهر (بوري) أي (رويسور) كما يسمى الآن بكلا الإسمين (وينبع من جبال غابار في بوتان) وقد سماه ياقوت الحموي بإسم (بويار) و(بوري) بمعنى المخاض ويصب فيه بالقرب من قرية (مسوري) القريبة من مدينة الجزيرة. (٩) ويصب في دجلة في جنوب الجزيرة من الشرق أيضاً نهر (نيردوش) وإسمه القديم نهر (دوشا) ونيردوش منحدر منه. (١٠) نهر الحابور زاخو بعد أن يلتقي به (٩) نهر (هيزل)، وتصب في دجلة من الشرق نهيرات قصيرة منها (ماء شهوي)، وهو الذي ورد إسمه عند ابن سراجيون بإسم نهر (باسانفا) نسبة إلى قرية (باسا الواقعة في جنوب (شهوي) ومصبه يقع في غرب مصب نهر بينات. أما من الغرب فالأنهار التي تصب في دجلة كانت قليلة أو صغيرة، لذلك أهملها الجغرافيون، ومنها نهر (سقلان - سهقلان مهما)، الذي يصب في دجلة بالقرب من مدينة الجزيرة جنوباً. وقد ورد إسم (سقلان) هذا في المقامات الزينية لإبن صقيل الجزري في (المقامة الجزرية) في القرن الثالث عشر الميلادي، والتي حققها ونال عنها درجة الدكتوراه الأخ الأستاذ الدكتور عباس مصطفى الصالح من بعقوبة. وفي جنوب هذا النهر وبالقرب من الحدود العراقية السورية التركية يصب فيه نهر (سّفان) من الأراضي الكردية في سورية. وأورد ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف، ص ٥٤، وقال إنه ينبع من ناحية العمر وقارة و(جبل الشيطان) أو علم السلطان ويقصد به الجبل المسمى عند الكرّد الآن بد(إيلم) القريب من الحدود الجنوبية لطورعبيدين في الجانب التركي والواقع وسط سهول فسيحة. وذكر المقدسي في ص ١٤٤ أول نهر يصب في دجلة بإسم نهر (الذيب) ثم الرمس ثم المسوليات، ولعل الأخير هو نهر (ساتيدما) أي نهر باطمان.

لقد أبدت دائرة المعارف الإسلامية في (مادة دجلة) إهتماماً بروافد دجلة، وذلك بتحديد أسمائها ومواقعها، =

من ثلاثة آلاف سنة، ومن تلك الشعوب الآشوريون الذين خلدوا على آثارهم المنحوتة رسوم الرموس (الأكلاك) التي تدعمها القرب المنفوخة، والتي إستخدموها في طريق دجلة المائي. ولما أنشأ الامبراطور الروماني قسطنطين في مدينة ديار بكر (آمد) داراً للصناعات الحربية من العجلات والطرادات، كانت بها ترسانة عظيمة للسفن الحربية (٣٥)، مما يفيد بأن الرومان إستخدموا نهر دجلة لأعمالهم العسكرية ضد الإمبراطورية الساسانية، حيث كانوا يرسلون الجيوش الإحتياطية الخلفية الى الجنوب بإتجاه الجزيرة وكردستان الجنوبية والعراق إضافة الى إستخدامهم النهر في التجارة.

اما في العصور الإسلامية وبضمنها العصر الدوستكي، فقد إحتفظ نهر دجلة بإهميته كطريق مائي الى العراق حتى نهاية العهد العثماني. ثم فقد أهميته بسبب قيام الدولة العراقية الحديثة وقيام الحدود بين العراق وتركيا.

لقد أشار العديد من المؤرخين الى أهمية طريق دجلة المائي من الناحية التجارية، حيث كان قسم من تجارة كردستان الوسطى وأرمينيا والبلاد البيزنطية تمر فيه الى الموصل والعراق. وكانت مدينة الجزيرة الواقعة على ضفة دجلة محطة للتجارة المارة بهذا الطريق، وقد أشار ابن حوقل الى ذلك (٣٦).

مآصر في دجلة

بالقرب من مصب (نهر شوي) في دجلة شمالاً وقبالة (قلعة بافي) ذات النفقين الصخرين، هناك مآصر في دجلة. حيث توجد على ضفته الشرقية صخرة منفردة فيها ثقب (حلقة)، مازال شائعاً بين سكان المنطقة أن الثقب كان مكاناً لربط سلسلة حديدية تمتد من الضفة الى الضفة الجنوبية المقابلة. إذ كانت السلسلة تربط هناك عند بناية غير كبيرة مشيدة بالحجر والكلس تسمى قلعة على دينوا (كهله على دينوا). شيدت القلعة الصغيرة للإشراف على المآصر لأخذ الأعشار، أي الضريبة النهرية من

=ولكنها لم توفق ووقعت في أخطأ بصدد نهر (يرنى- روسور) ونهر (باعيناثا)، وقد رجحت أن يكون نهر (باسانفا) الذي ذكره ابن سراييون، (نهر سفان) وهو خطأ. إذ أن الاول من روافد شرقي دجلة والثاني بعكسه. واعترفت دائرة المعارف بعدم معرفتها بمواقع الانهار المذكورة مع نهر بويار وعدم معرفتها اسماءها الحالية. ووقع (ابن سراييون - سهراب) في، عجائب الاقاليم، ص ١٢٦، طبع فيينا في خطأ بصدد نهر (الذيب) ونهر (باسانفا)، حيث قال ان الاول هو نهر ارزن والثاني ياتي من ارض فارقين ويصب في دجلة قرب الجزيرة. واخذ بهذا الخطأ آخرون منهم سباهي زاده في (اوضح المسالك، ص ٣٠ مخطوط). اما الخطأ الثاني ففيما قاله من ان نهر (باسانفا) ينبع من ارض ميافارقين، ولكنه لم يخطيء في تحديد مكانه وهو كما قلنا (نهر شوي - نهر باسا). وقد اتخذت قرية باسا من قبل السلطات التركية في الثمانينات مركزاً لناحية بدلاً من (فندق). وذكر الخوارزمي ايضاً اسم نهر (الذيب) في كتابه (صورة الارض، ص ١٣٠)، طبع فيينا، ولكنه لم يحدد موقعه، والراجح انه يقع فيما وراء ديار بكر. اما الشريف الادريسي فخطأ في (نزهة المشتاق، ص ٢٤٠) بصدد نهر (سربط - نهر غرزان) واعتبره بوتان (الرزم).

(٣٥) محمد أمين زكي، تاريخ الكرد وكردستان، ص ١١٥.

(٣٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٢٠. راجع ايضاً ريسلر، الحضارة العربية، ص ١٣٤. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، ص ٢٩٠. الدكتور عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ١٣٨. لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٤٣.

الأكلاك، حيث كانت السلسلة الحديدية تشد بإرتفاع مناسب لمنع مرور الأكلاك. وبعد أخذ الضريبة كانت ترخى لتمر الأكلاك في سيرها. وكان نظام المأصر معمولاً به حتى عهد إمارة بوتان. ويحتمل أنه كان قديماً جداً ويعود الى عهد قلعة بافي، التي يرجع تاريخها الى العصر الأشكاني على أقل تقدير حسب رأيي. وقد زرت القلعة وصورتها في ١٩٧٧/٧/٧ مع تلميذي فقيد التراث الكردي المرحوم ملا خلف رمضان البافهبي الذي أخذ الصورة فيما بعد وأرسلها اليّ. كان علي دينوا قد سيطر على المأصر متمرداً على إمارة بوتان حسب قصة شهيرة وكا من قرية (دينوا) على المرتفع الواقع جنوب دجلة وغرب (بافي). هذا وكان عند مدينة الجزيرة مأصر أيضاً مازالت بقايا سلسلتيه الحديديتين موجودة ومربوطة بسور الجزيرة في مكانين عند قلعة (برجا بهلهك). وقد ظن بعض المستشرقين أن السلسلتين هما بقايا جسر خشبي متحرك كان هناك على دجلة. ولكن الشائع عند سكان الجزيرة أنهما بقايا مأصر، ولا يذكر هؤلاء أنه كان هناك جسر متحرك. ويمكن أن تكون إحدى السلسلتين (وقد رأيتهما) للمأصر والأخرى لجسر متحرك. وكان هذا المأصر معمولاً به في عهد إمارة بوتان.



بناية المأصر

طريق شرقي دجلة

كان هناك طريق تجاري بري بمحاذاة دجلة من الجانب الشرقي يربط بين كردستان الوسطى وأرمينية والبلاد البيزنطية، وبين العراق. وكان الطريق يأتي من آمد (ديار بكر) ماراً بمنطقة بوتان (بهتان) وزاخو (حسنية) ومعلثايا (ملطا) قرب دهوك متجهماً إلى الموصل. وكان فرع من ذلك الطريق يتجه من سعرد إلى بدليس وخلاط وأرمينية، بينما كان الفرع الرئيسي يتجه إلى مدن أرزن وفارقين وآمد. وكان هذا الطريق أضمن سلامة في العهد الدوستكي مع طريق دجلة المائي من طريق نصيبين - الموصل، لأنه كان يمر في المناطق الكردية إلى الموصل بعيداً عن نفوذ العشائر العربية وعن أعمال السلب. وقد مر الشاعر الكبير أبو العلاء المعري بهذا الطريق، فوجده في غاية الأمن كما مرّ كلامه، رغم وجود أنهار متعددة في هذا الطريق الذي يجتاز العديد من روافد دجلة، التي كانت تخلق المضاعف للقوافل التجارية وللمسافرين، خاصة أثناء إرتفاع منسوب المياه. ولكن كانت هناك جسور وقناطر وكذلك خانات على طول الطريق، وما زال بعض تلك الجسور والقناطر صالحاً لمرور المشاة، بينما هناك آثار لجسور أخرى ما زالت شاخصة. وكانت الدولة الأشكانية (الفرثية) قد أهتمت بهذا الطريق كما تدل عليه آثارها الباقية في هذا الطريق البري وطريق دجلة المائي أيضاً، أي على طرفي دجلة ومنها نفق (بافى) في أسفل القرية بالقرب من ضفة دجلة الجنوبية الغربية، وقلعة بافي المطلة عليها وآثار أشكانية في قرية (هيتما) المطلة على دجلة في الجانب الآخر في شمال غرب بافي وجنوب باسا. ويحتمل أنها أجرت في الطريق توسيعات مقابل قلعة بافي بالقرب من مصب ماشوي (شهوى) في دجلة.

لقد إهتمت الدولة الدوستكية بالجسور الواقعة على روافد دجلة، فقد ذكر الفارقي أسماء سبعة جسور هي: جسر الحسنية والحמידية وتل بنان وقطنيتا وبابوذين والإبراهيمية وبرسدي. وذكر بأن الملك الدوستكي نصرالدولة وقف عليها العقارات و"غرم عليه مالاً عظيماً" (٣٧).

لأنستطيع أن نحدد مواقع هذه الجسور سوى واحد منها وهو جسر (تل بنان)، الذي ذكر الفارقي أن نصرالدولة شيده على نهر ساتيدما نهر (باطمان) سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م) عند قرية تل بنان والجنينة ليعبر عليه إلى مدينة النصرية. وفي ٢٢ آب ١٩٧٧ تمكنت من إكتشاف آثار هذا الجسر بين قرية (بيلهكان) على الضفة الغربية وقرية (كبيرك) على الضفة الشرقية. لم يبق من الجسر شاخصاً سوى دعامة واحدة في مكان عريض جداً من النهر. أما جسر (باطمان) الحالي، الذي يعد من أروع وأشهر الجسور في كردستان، فإنه يقع فوق مكان جسر نصرالدولة بمسافة حوالي كيلومترين أو أكثر في موضع ضيق من النهر عند قرية (مالا بادئ). وقد وصفه أوليا چلبي بإعجاب في (سياحتنامه، ج٤، ص٧٦). شيد الجسر المذكور (حسام الدين قمرتاش) بن نجم الدين إيليغازي بن أرتق سنة (٥٤٢هـ)، على ما جاء في (ديار بكر تاريخي، ج٢، ص٣٤٥) لبيسان أوغلو. وفيه كتابة الجسر وعليه صورة إنسانين يحتمل أن يكونا رجلاً وامراًة. ويظهر أن جسر نصرالدولة كان قد إنهار، ولذلك

(٣٧) تاريخ الفارقي، ص١٤٣.



جسر باطمان

قام قمر تاش بتشييد هذا الجسر في موقع صخري ذي أرضية قوية شبيهة بموقع وأرضية پرا دهلال (جسر حسنيه) في زاخو، آخذاً بنظر الإعتبار إنهيار الجسر الذي شيده نصرالدولة على أرضية مختلفة. لقد ذكر الفارقي أيضاً أن نصرالدولة شيّد جسراً على نهر (الحو)، أي نهر (حاني - أنبر) وهو أول نهر شرق مدينة ديار بكر في الطريق الى فارقين (٣٨). وكان على نهر غرزان نهر (سربط) عند مدينة أرزن في العهد الدوستكي جسر (٣٩). كما يوجد على نهر (كه زهر) أي النهر القادم من بدليس جسر قديم، ويوجد آخر على نهر بوتان الفرع الشرقي لدجلة أو نهر (الرزم) حيث توجد آثار جسر قديم على عدة أرجل (٤٠) فوق تل فافان (تلاتيف روان)، أي فوق إلتقاء الفرعين ويسمى (پرا كچكئ) أي جسر الفتاة. وفي موقع منبسط يسمى (جهمئ شهوكيا). لقد زار هذا الجسر في سنة ١٩٧٩ تلميذي المرحوم الملا خلف رمضان البافه يي بناءً على طلبي، ثم كتب لي يقول بأنه توجد آثار خمسة من

(٣٨) نفس المصدر.

(٣٩) تاريخ الفارقي، ص ٧٨.

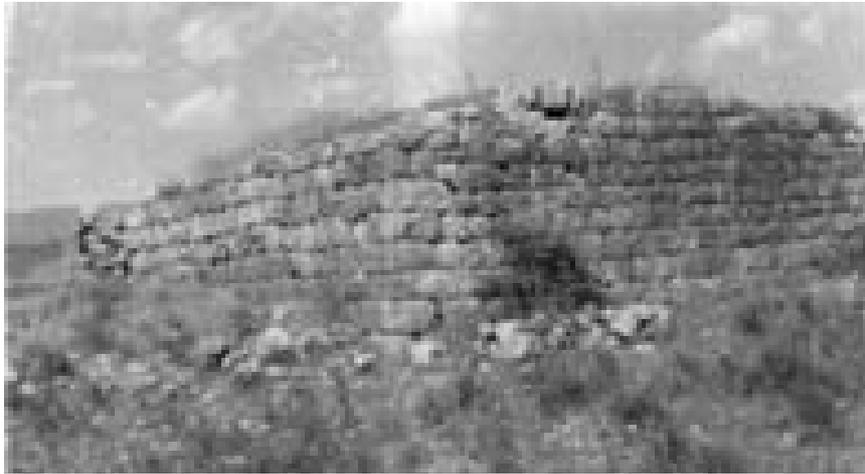
(٤٠) يقع هذا الجسر الكبير فوق تلاتيف روان (تل فافان). وفي أسفل قرية (بلوهريس) بمسافة قليلة، ويقع بالقرب من قاعدته الشمالية قرية (دير غالب) ويسمى الجسر أيضاً (پراشكهستئ)، وقد تهدمت بعض أقسامه. وقد شيّدت الحكومة التركية في موقع أعلاه بمسافة حوالي كيلومترين جسراً كبيراً سنة ١٩٥٦ يسمى جسر (بلوهريس) ويبلغ طوله (١٣٠) متراً. وبالقرب منه على الضفة الغربية حمام مياه كبريتية ماؤه حار. ومن الجدير بالذكر أنني لم أجد لحد الآن في أي مصدر ذكراً لهذا الجسر المهم. وقد أرسلت إستفساراً حوله الى تركيا بواسطة الطالبة (بلقيس حيدر من سكان مندلي). فأجاب عليه أحد أساتذة جامعة أنقرة، بأنه شيّد من قبل ملكشاه السلجوقي، ولم يزد على هذا شيئاً ولم يشر الى أي مصدر. وإن ثبت ذلك فيكون تشييده إما في أواخر عهد الدولة الدوستكية أو إثر سقوطها، علماً بأن الأتراك ينسبون كثيراً من الآثار الى ملكشاه وألب أرسلان بدون دلائل مقنعة، وذلك بمجرد كونها مشيدة في القرن الحادي عشر الميلادي. والجدير بالذكر أن اسم النهر ورد في=

قواعده الحجرية وقنطرة واحدة من الطابوق. يبلغ إرتفاع القنطرة عشرة أمتار وعليها كتابة لمن قام بتعميرها وهي "عمرها إبراهيم علي وعبدالرحمن عبدالله" مع احتمال خطأ في قراءتها، وهذه صورته:



جسر (پرا كچكي)

في جنوب الجسر على الطريق آثار خان يسمى (خانا چه مي شهوكيا) وهذه صورته:



خانا چه مي شهوكيا

=بعض المصادر (رزم) بتقديم الزاي المعجمة. والجسر كغيره من الآثار العديدة التي ستغرق بمياه سد أولوسو، وقد نشرت صورته مع صور الآثار المذكورة في مقال مسهب بخصوص غرقها وغرق مدينة (حصن كيفا) الأثرية، نشرناه في جريدة (كوردستاني نوئ) الأعداد الصادرة في ۱۱/۳۰ و ۶ و ۱۲/۷/۲۰۰۰.



قنطرة (على نهر مشار)

في جنوب الموقع بمسافة حوالي (٢٠) كلم يوجد خان يسمى (خانا كيترا خانج) المشيد بالحجر المهندم والجص بجانبه آثار لغرفتين عهدهما أقدم. وهذا الخان الواقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة والواقع على الضفة الغربية لنهر (مشار) عند مصبه يضرب المثل بمتانته في بوتان وقياساته (١٩×٥٠م)، وفي الجانب الجنوبي الشرقي للخان قنطرة (جسر) سالمة وجميلة على نهر مشار تعود الى القرون الوسطى. وفي الصفحة الشرقية من قاعدته الجنوبية غرفة قياس القنطرة (٣٣×٥٠م) وقد ألتقطت صورتها مع الخان في (١٩٧٧/٨/١٦).

وفي جنوب هذا الموقع بمسافة حوالي (٦) كلم بين قرية (چيلك) و(روسور) آثار خان قديم أيضاً يسمى (خانا كهوا) وعنده آثار مدينة كبيرة وقديمة جداً تسمى (دويشى خريب) تمتد من ضفة دجلة الى سفح الجبل الكبير الواقع في شمالها، كما توجد آثار عديدة لمدن مندثرة على جانبي دجلة. وهذه الآثار كلها ستغرق نتيجة بناء سد (أولوسو) الذي تقيمه تركيا على نهر دجلة، بالإضافة الى منحوتة أشكانية بين (بيرى دهل) و(چهمى پاوان). وبالقرب من الخان شرقاً يأتي نهر (روسور) الذي ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان باسم (برني)، وعليه جسر خشبي كانت تمر عليه القوافل عند مقبرة (بيرى دهل - پير ناقدهل) والطاحونة المائية. ومن المحتمل جداً أنه كانت على النهر هناك قنطرة حجرية قديمة. وفي أعلى هذا الموقع بحوالي (٥، ١) كلم قرية (شكهفتيان) على الضفة الشمالية للنهر، وهي عبارة عن مجموعة كهوف منها مسجدها الكهفي وعليه تاريخ (٥٥٠هـ = ١١٥٥م). وكان الطريق بين قسيمي القرية يمر في نفق صخري. وصعوداً من شكفتيان بمسافة حوالي (٢) كلم

توجد قنطرة حجرية جميلة على النهر عند قرية (جهمي غهور) الكهفية أيضاً، ولكنها غير صالحة للعبور. وتتجه تلك الطريق شرقاً الى قرية (گوننا) وتلتقي بالطريق الأشكاني في قرية (زفنگا حاجي عهليان) وهي عبارة عن كهوف كثيرة وهي قرية جافة. وتعتمد القرية في توفير المياه على صهاريج كثيرة منحوتة في الصخور. وهي مسقط رأسي، كانت في العهد الأشكاني محطة في كُردستان (في ١٢٧ ق.م- ٢٢٧ م) على الطريق الواقع بين مدينتي فنك (بينكا - بيناكا) وبوتان العليا والسواحل الجنوبية لبحيرة وان وأرمينية، وذلك حسب تحقيقاتي الأثرية (٤١). إن لتاريخ مسجد شكفتيان أهمية، إذ من المحتمل أن تكون قنطرة (خاناگيترا خانن) وقنطرة (جهمي غهور) من نفس الفترة التاريخية.

وبالقرب من (پيري دل) جنوباً على الضفة الصخرية لدجلة عند موقع (دهف ته نور) ينحدر الطريق في بقعة منحوتة في الصخر، لعلها تعود الى العهد الأشكاني حيث نحتت على الطريق أي الصفحة الشمالية منه صورة لرسم نسر على قاعدة مرتفعة مع كتابات بهلوية أشكانية. والنسر هو رمز الإلهة ميترا (ميشرا - مهر) حسب رأيي. ولم أجد لهذا الأثر الذي صورته بتاريخ ١٦/٨/١٩٧٧ ذكرًا في أي مصدر. ومن سوء حظ (لايارد) عالم الآثار بأنه عبر من تلك النقطة ليلاً، ولهذا لم ير هذا الأثر المهم. فلم يذكره في كتابه (نينوى وبابل)، وذلك حوالي سنة ١٨٤٧م، وفي الصفحة التالية صورة ذلك الأثر (٤٢).

بعد هذا الأثر بحوالي (٢) كلم يأتي موقع أثري مهم آخر يسمى (جهمي پاوان)، وكانت مدينة أو مستوطنة قديمة فيها آثار من العهد الساساني أو الأشكاني وفيها أبنية حديثة ونهير. وفي الحافة الجبلية الصخرية الشاهقة المطلة على الموقع آثار منحوتة متعددة في الصخور الى جانب بناء صغير بالحجر والجص يصعب الوصول إليه، ولعلها تقع أمام قبر صخري يعود الى العهد الأشكاني أو

(٤١) في المرتفعات الجبلية التابعة لزفنگ أكثر من ستين موقعاً عسكرياً (قلاع) معظمها صغيرة تعود جميعها أو معظمها الى العهد الأشكاني. وفي القرية وأطرافها حوالي (٢٠٠) كهف. ولهذا فهي كعشرات القرى في بوتان تعد من القرى الكهفية. وكانت دارنا تحتوي على كهفين أحدهما فوق الآخر، والكهف الفوقاني لا سبيل إليه سوى كوة دائرية تنزل إليه من فوق جانبه الجنوبي، وفي وسطه قبر محفور في الصخر وفوق القبر في سقف الكهف حلقة. ويتضح لي الآن بأنه قبر ميشرائي في سقفه حلقة منحوتة هي حلقة العهد الميثرائي (المهري) من العهد الأشكاني. وقد وجدت خلال السنوات القليلة الماضية قبوراً كثيرة من هذا الطراز. وقد عثر قبل سنتين سنة على قبر جماعي في كهف يشبه سرداباً تحت الأرض عند الصهاريج الواقعة في شمال القرية. وهناك آثار لكهريز صخري بابس قديم، فالقرية خالية من عيون الماء ماعدا واحدة ماؤها قليل تقع وراء صهاريج القرية. كانت تعيش في القرية حوالي (١٥٠) أسرة خلال السنوات الماضية. وفي مسجد القرية عمودان حجريان في قسم المسجد الكهفي على أحدهما تاريخ لسنة (١٢٠٤هـ = ١٨٢٤-١٨٢٥م)، وهو تاريخ ما شيد من المسجد بالحجر والجص. وقد شيد المسجد بأمر من (بدرخان) أمير بوتان، على ما هو شائع بين أهالي القرية.

(٤٢) من المحتمل أن تكون دائرة الآثار التركية قد شاهدت المنحوتة وحلت رموز كتابتها، وقد حاولت الحصول على ما لدى تلك الدائرة من المعلومات إن وجدت ولكن دون جدوى. وقد إكتشفنا في الشمال منحوتة لكتابة بهلوية أخرى منحوتة ومكتوبة في نفس الوقت بمادة سوداء، وذلك في أسفل صخرة زنتها حوالي طن مستندة الى صخرتين والمسافة بينهما حوالي (١٠٠) متر وتقع على الجانب الشرقي من الطريق الحديث بحوالي (٨٠) متراً أو أقل.



منحوتة دَف تنور

الساساني. ويقع الموقع على الضفة الشرقية لدجلة مقابل جبل (زفنگا طورى) المطل على دجلة من الغرب. ولا بد أن يكون في (چهمى پاوان) خان من العهد الإسلامى، وذلك في نطاق الإهتمام الكبير بطريق شرقي دجلة التجاري. وكان الطريق القديم يسير بمحاذاة دجلة ووراءه ويصل الى قرية (باسا)، ثم ينحدر ثانية، في طريق مرصوف بالحجارة، لعله لممر العربات التي تجرها الخيول، الى ضفة دجلة. وهناك خان كما يسمى الآن وهو كهف بالجانب الشرقي من نهر شوي، وخان آخر بالقرب من مصب النهر باعيناثا وهو الآخر كهف. ويعتبر هذا الطريق هو الطريق الرئيسي والأقدم من غيره. وتتفرع منه (وربما كان ذلك في وقت متأخر بالنسبة لهذا الطريق القديم) طريق آخر بالقرب من (چهمى پاوان) جنوباً يتجهت عبر سفوح السلسلة الجبلية الى (فندك)، التي كانت مركز ناحية تابع لقضاء (أوروه) التابع لولاية سعرد. وفي الجانب الغربي من القرية ظهرت مؤخراً آثار لبناء قديم لعلها لأحد الخانات. وكانت إحدى محطات هذا الطريق للقوافل التجارية بين الجزيرة سعرد حتى ستينيات القرن العشرين، أي قبل فتح طريق السيارات. بعد ذلك يمر الطريق في الجبل الواقع في الطرف الشمالي الغربي من نهر بينات (باعيناثا)، ويسمى ذلك الطريق (گهلى پهرپتى) الشهير. ونظراً لشدة إنحدار الصفحة الجبلية، فقد دشن الطريق بالأحجار والجدران الحجرية. ثم يعبر الطريق النهر والنفق المنحوت في الجانب الجنوبي للنهر، الذي أشرنا إليه سابقاً. ومن المحتمل جداً أن الطريق كان في القرون الوسطى يمر من (فندك) بقرية بينات (باعيناثا)، ثم ينحدر في وادي بينات العامر بالبساتين وأشجار الزيتون والصنوبر الطبيعية، حيث كان يلتقي بالطريق القديم (أو ما نسميه بالطريق الأشكاني)، الذي كان

يتجه شمالاً الى (زفنگا حاجي عهليان) الذي أشرنا إليه سابقاً (٤٣).

بعد الخروج من وادي بينات وزبوى يدخل الطريق الى منطقة سهلية أو خفيفة التموج بين دجلة والسلسلة الجبلية حتى يصل بعد حوالي (١٢) كلم الى خرائب بلدة (فك) القديمة وبساتين فك الحالية الواقعة على ضفة دجلة. وتشاهد قطع من سور المدينة التي كانت في العهد الدوستكي مركزاً للإمارة البشنوية القوية. فلاشك إذاً في أنه كانت في فك خان للقوافل ومازال قرب فندك وكذا عند مصب نهر باعيناثا في دجلة زورق بالمجازيف اليدوية للعبور الى ضفة النهر الغربية خان ايضاً. ويمر الطريق من فك في سفح السلسلة (سلسلة فك وديرا) ليعبر نهر (روسور) ايضاً أي النهر الأحمر (٤٤)، وبعد عبوره بحوالي كيلومتر أو أكثر بقليل يوجد خان شهير باسم (خانتي بانتي خانتي) الشهير قبالة مدينة الجزيرة. وفي أسفل الجزيرة بحوالي (٢) كلم توجد بقايا جسر كبير ومهم جداً على دجلة يسمى (پرا بافت)، الذي على قاعدته الغربية صور بروج فلكية (٤٥).

بعد هذه المحطة يأتي نهر (نيتردوش)، الذي ورد إسمه في المصادر (نهر دوشا) الذي ينحدر من القسم الغربي من جبل (الجودي) ويمر بقرية (شاخ) الشهيرة، التي على صخورها سبع منحوتات

(٤٣) كان الطريق (طريق المشاة لحد الآن) يتجه شمالاً من (زفنگ) الى قرية هراش الواقعة على الضفة الجنوبية ل(روسور) ويمر من شمال هراش من نفق منحوت في المضيقي الصخري الى مدينة (دهن)، وهي مركز قضاء تابع لولاية سعرد، ومن ثم الى السواحل الجنوبية لبحيرة وان والى مدينة (وان) وأرمينيا. وبناءً على طلبي سافر تلميذي الملا خلف البافهي الى زفنگ لإلتقاط الصور لبنية ذات طابقين في منتصف صخرة عالية تسمى (مرئ) مشيدة بالحجر والجص، ولعلها مقبرة من العهد الساساني. وسافر الملا خلف عاشق تاريخ وتراث كُردستان، وكتب في إحدى رسائله وسجل في الدفتر (١٠) من دفاتره -التي تزيد على الأربعة آلاف صفحة- وكلها لدي الآن حسب وصيته، وكتب في وصفها في الصفحات (١٤٦-١٥٣ من الدفتر ١٠). فقال ان طولها (٢٩) متراً وفي داخلها (٤٢) درجاً وقد نُحت النفق من الداخل بصورة دائرية. ومن المحتمل أن يكون هذا الأثر من العهد الأشكاني، كما يحتمل أن تكون فيه كتابة ايضاً أو رموز.

(٤٤) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان عند البحث عن دجلة هذا النهر باسم (بويار). وفوق المعبر مضيقي (قهسركا كيتلي)، والذي على جانبه الغربي منحوتة فارسية من العهد الأشكاني. أقامت الدولة الأشكانية إستحكامات كثيرة، حتى إنها شيدت أسواراً على السلاسل الجبلية في بوتان وكُردستان الجنوبية، لدرء خطر الرومان ولكيلا يتكرر إنتصار كإنتصار الإسكندر المقدوني على الشرق.

(٤٥) ورد إسم هذا الجسر في المراجع التركية الحديثة باسم (جسر يافس). شيد الجسر في موقع يتسع فيه دجله، ويربط بين منطقة بازيذا ومنطقة باقردا. ذكر أبو شامة المقدسي في كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، ص ١٣٨) أن جمال الدين الاصبهاني وزير عماد الدين زنكي، المتوفي سنة (٥٥٩هـ = ١١٦٥م)، شيد هذا الجسر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلا أنه توفي قبل إكماله وقال أنه شيد جسراً آخر على نهر (الأرياد) عند الجزيرة، أي نهر قرية أرنيات الحالية وهو سقلاني ممان (على ما نيهني إليه اخي الملا احمد) وأضاف انه من ابنية الوزير التي لم يرَ الناس مثلها. وكذل قاله ابن الأثير في (الكامل، ج ٩، ص ٨٨) و(ابن الخميس الدياربركي، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٦٣) وكان تشييده للجسر عندما كان وزيراً لقطب الدين الزنكي ولم يكمله بسبب إعتقاله. لقد نحت على قاعدته الغربية صور بروج فلكية مثل الحوت والأسد والجوزاء والقوس والشور مع كتابة أسمائها بالعربية. لقد زار الموقع أستاذي المرحوم السيد عبدالرحمن مفتي الجزيرة ابن السيد علي الفندكي، وذلك بناءً على طلبي وكتب لي: أنه توجد بجانب الكتابات العربية كتابة أخرى غير عربية، مما يؤيد ما قاله علماء غربيون بأن الجسر ساساني كما في دائرة المعارف الإسلامية (ج ٢، ص ١٨٢، طبعة دار الجليل بيروت). ومن الجدير بالذكر أن الإسكندر المقدوني عبر دجلة من هذه النقطة أو من مكان قريب منها وذلك سنة (٣٣١ ق.م).



برا بافت

آشورية. ويحتمل أنه كانت عليها قنطرة، لأن مجراه عميق وصعب العبور في الشتاء والربيع، ثم يدخل الطريق سهل سلويي (سهل باقردا) التاريخي الى أن يصل الى هيزل شمال غربي زاخو بـ (١٠) كلم عند آثار جسر قديم. وعند زاخو (ضمن المدينة حالياً) يوجد جسر (برا دهلال) الشهير على نهر خابور (٤٦) ويحتمل أنه جسر الحسينية الذي وقف عليه نصر الدولة عقارات.

وبعد إحتياز ممر زاخو يدخل الطريق الى سهل سليفاني (سهل معلثايا)، ومن المحتمل أن يكون عند قرية (باستكن) التي تبعد عن زاخو (٢٧) كلم. كانت القرية ذات التل الأثري محطة للقوافل في عهد (نرام سين) الأكدي في الألف الثالث قبل الميلاد على ما أشرنا إليه سابقاً. ثم كان الطريق يصل بعد (٢٣) كلم الى مدينة (معلثايا - ملطا) الواقعة على الضفة الغربية من نهر دهوك، أو يمر

(٤٦) يسمى برا دهلال الآن، وفي المراجع العربية بـ(الجسر العباسي)، وهو إسم حديث ولا علاقة له بالدولة العباسية. كان الجسر موجوداً في القرن العاشر الميلادي حسب أوصاف المقدسي له في (أحسن التقاسيم، ص١٤٧) والتفاصيل في مقالنا الخاص به والمنشور في (مجلة بين النهرين، العدد ٢٧). وقد رُبط بين أحجار الجسر من الداخل بقضبان حديدية. والجسر أصبح الآن ضمن مدينة زاخو ولا زال سالماً. وقد حدث لي مؤخراً الرأي بأن الجسر يعود الى العهد الساساني، وذلك إستناداً الى طراز قوسه الكبير قليل التحدب والبيضوي والمطابق للأقواس الساسانية التي رأيت منها قوساً في قلعة جند (قهلاى جوندى) في وادي زرزي في منطقة السليمانية. وفي غرب الجسر على مسافة حوالي كيلومتر توجد آثار جسر آخر ضمن المدينة على الفرع الجنوبي للنهر، الذي يتفرع ضمن مدينة زاخو الى فرعين. وبالقرب من آثاره شرقاً جسر سالم شيدته إمارة بهدينان على ما يعرف عنه. وأن نهر الخابور يقسم مدينة زاخو الى ثلاثة أقسام، وتقع قلعة المدينة في القسم الأوسط وهي مطلة على القسم الرئيسي من النهر وهو القسم الشرقي.

بالقرب منها غرباً، حيث الطريق العام الحالي عند جسر (آلوكا). وكان الطريق القديم يطابق هذا الطريق العام من آلوكا الى الموصل (٦٤) كلم.

هكذا يظهر من الخانات والجسور المتوفرة في منطقة بوتان على طريق شرقي دجلة مدى أهمية هذا الطريق التجاري. وليست لي معرفة دقيقة مماثلة بالمناطق الأخرى من الطريق، كي أشير الى ما هناك من جسور وخانات متصلة ما عدا متفرقات منها، مثل كاروان سرا (خان) عند مدينة حصن كيفا وفندق شيدته نصرالدولة مع مسجد عند قرية كيرك (تل بنان) على الطريق الجنوبي لجسر باطمان، وخانين في طرفي جسر باطمان.

طريق دياربكر- نصيبين- الموصل- كردستان والبلدان الشرقية:

كان هذا الطريق جزءاً من أطول وأهم الطرق التجارية البرية، وكان يربط بين الشرق والغرب القديمين. فكانت التجارة الشرقية ترد من سيلان والصين والهند الى أفغانستان وإيران والعراق، وتصل الى نصيبين ودارا، ثم يمر قسم منها متجهاً الى سوريا وموانئ البحر الأبيض المتوسط، بينما كان قسم آخر منه يمر بآسيا الصغرى (٤٧) وأوروبا، علماً أن الموصل لم تكن حينها تعتبر من المدن. وكانت الامبراطورية الرومانية تنازع الدولة الأشكانية (الآرية) السيطرة على طريق نصيبين والرها (أورفا)، التي هي اليوم من البلاد الكردية.

ومن بعد الرومان توجهت أنظار البيزنطيين للسيطرة على هذه البقعة لأهميتها الاقتصادية. ونشبت لذلك حروب كثيرة، سواء بين الدولة الأشكانية الرومان أو الدولة الساسانية والبيزنطيين. "وفي القرن السادس الميلادي كان الحرير لا يزال يسير براً بصفة رئيسية خلال فارس الى محطتي المكوس الامبراطوريتين عند نصيبين ودارا، ثم ينتقل الى مصانع قسطنطينية وصور وبيروت (٤٨).

والصحيح أنهما محطتا الكمارك بين الشرق والغرب، حيث كان حرير الصين وأحجار سيلان الكريمة والسلع التجارية الأخرى تصل الى بيزنطة والغرب عبر هذا الطريق. وكانت تقع على طريق دياربكر - نصيبين مدن دارا وكفرتوثا وقصر بني نازع (٤٩)، التي كانت محطات للقوافل التجارية.

رغم أن طريق دياربكر - نصيبين كان معروفاً كطريق تجاري يربط بين الشمال والجنوب، إلا أن أهميته قد ازدادت في عهد الدولة الدوستكية (التي كانت نصيبين من أمهات مدنها لحوالي أربعين سنة)، لأنها كانت تربط بينها وبين العاصمة فارقين. وقد ازدادت أهمية طريق نصيبين - آسيا

(٤٧) أرجيبالد، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص ١٧.

(٤٨) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ١٩٦.

(٤٩) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٩٦، عين مقدار المسافات من نصيبين الى أرزن بسبعة وثلاثين فرسخاً، ومن نصيبين الى دارا خمسة فراسخ، ثم الى كفر توثا سبعة والى قصر بني نازع ستة، ثم الى دياربكر (آمد) سبعة، ثم الى فارقين خمسة ومنها الى أرزن سبعة فراسخ. أما سكك البريد أي محطاته على هذا الطريق، فكانت إحدى عشرة سكة، تشرف عليها الدولة ومنها ثلاث بين نصيبين وكفرتوثا. وسبع محطات بين كفر توثا ودياربكر، وذلك حسبما ذكره قدامه بن جعفر في كتاب الخراج، ص ٢٢٩. والجدير بالذكر أن كل ستة فراسخ مرحلة (أي مسيرة يوم واحد)، والفرسخ حوالي سبعة كيلومترات. أما الشريف الإدريسي فقد عد المسافة بين نصيبين ودياربكر بالأميال ومجموعها (٧٨) ميلاً. راجع كتابه نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ص ٢٣٣.

الصغرى ماراً بالبلاد الدوستكية ومنطقة دياربكر تحديداً، في أوقات توتر العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية. فقد كانت الأخيرة تسيطر على طريق حلب - آسيا الصغرى في الوقت الذي كانت العلاقات متينة بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية والطريق بينهما آمناً.

وعند اضطراب طريق أذربيجان - أرمينيا - طرابزون (وكان هو الآخر طريقاً تجارياً عالمياً) بسبب هجمات السلاجقة على أرمينيا وجنوب روسيا إزدادت أهمية طريق نصيبين، حيث تحولت التجارة العالمية إلى الجنوب، أي إلى سورية ومصر. ففي الوقت الذي كانت تجارة مصر مع بلاد المغرب أقل أهمية بعد سنة (١٠٥٢م)، بسبب حركات بني هلال وأسباب أخرى، ظلت علاقات مصر التجارية مستمرة مع البلاد الشرقية أي فارس والهند والصين (٥٠).

طريق دياربكر- ملاطيه- أناضول:

إزدادت أهمية هذا الطريق، الذي كان يربط بين إقليم دياربكر والبلاد البيزنطية، بسبب العلاقات الودية بين الدولة الدوستكية والبيزنطية ولإستتباب الأمن فيه. وكانت التجارة بين الدولتين تمر بهذا الطريق، وسبق أن أشرنا إلى أن التجارة الواردة إلى دياربكر كانت تنقل منها إلى الموصل والعراق عن طريق نهر دجلة غالباً.

وكان هناك طريق آخر أقل أهمية من الأول يربط بين دياربكر والشمال والشمال الشرقي، وكان يمر من تل جفر ومدينة شمشاط على نهر موردا (ارسناس) (٥١) إلى قاليقلا أي أرضروم إلى منابع نهر آراس ونهر الكر في منطقة ديبيل (ديوين) وإلى الفرع الشمالي (قره سو). وكان هناك طريق آخر

(٥٠) أرجيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص ٣٨٩.

(٥١) شمشاط مدينة مندثرة تقع آثارها على ضفة نهر (موردا) الفرع الشرقي للفرات وذلك بين العزيز وبالو، راجع: NOREDDIN ERDIÇ OGLU, HARPUR TARIHI، ص ٢٥-٢٦. ذكر كل من ابن خرداذبه والمقدسي كلاً من شمشاط وتل جفر ضمن طريق دياربكر شمال سوريا. لكن المقدسي ذكر شمشاط أيضاً ضمن طريق ملاطيه في ص ١٥٠. وكذلك الإدريسي في ص ٢٣٣ ولكنه ذكر سميساط مكان شمشاط، فلا ندري هل إن هناك مكان بإسم شمشاط أخرى أم لا؟ راجع مؤلفاتهم بالتسلسل: المسالك والممالك، ص ٩٦. أحسن التقاسيم، ص ١٤٩، نزهة المشتاق، ص ٢٣٣، ٢٢٨. من الجدير بالذكر أن ابن حوقل سلك شخصياً طريقاً يربط بين فارقين وملاطيه، وذكر في ص ١٧٩ تفاصيل الطريق من ملاطيه إلى القسطنطينية. وتقع على طريق فارقين - ملاطيه أماكن مجهولة بالنسبة إلينا لم يذكرها غيره بهذا الشكل. وقال إن المسافة من فارقين إلى هنا مرحلة وإلى حصن ذي القرنين مرحلة خفيفة، وإلى مدينة الإدريس خمسة فراسخ، وإلى ضيعة القس ثلاثة فراسخ، وإلى مدينة هباب خمسة فراسخ، وإلى قرية انكليس ستة فراسخ، وإلى قرية كللكس ثلاثة فراسخ، وإلى حصن زياد (العزيز - آلازك) أربعة فراسخ عبر الفرات، وإلى قرية الحمام أربعة فراسخ عبر نهر القباقيب، وإلى مدينة عرقا أربعة فراسخ وإلى ضيعة وادي الحجارة ووادي البقر ستة فراسخ، ثم كان الطريق يمتد في البلاد البيزنطية إلى سمند أنقره... وكانت الضيعة المذكورة آخر حدود البلاد الإسلامية آنذاك، حيث البلاد البيزنطية ولكن البيزنطيين وسعوا حدودهم بعد ذلك وأثناء ضعف الحمدانيين باتجاه إقليم دياربكر إلى خط لا أستطيع أن أحده. ولكن يفهم من كلام ابن حوقل أن مدينة الإدريس وقعت في قبضة البيزنطيين في تاريخ لاحق من سفره، وذلك موقتاً كما أظن. ويحتمل أن قرية الحمام هي مورحمام الحالية الواقعة جنوب بلدة (أركوان) بالقرب من الضفة اليمنى للفرات. إن تحديد الأماكن التي ذكرها جديرة بالاهتمام وخاصة المدن، ويحتمل أن أنكليس هي (أگل) المشهورة.

يربط دياربكر بالبلاد البيزنطية يتجه من دياربكر غرباً الى سميساط أي حصن منصور (آديمان).

طريق دياربكر - بلاد الشام

على طول المسافة بين دياربكر وحلب كانت تقع الأماكن والمدن التالية: جرنان، بامقدا، جلاب، الرها، سروج ومنبج. وكان يتفرع طريق آخر من الرها الى الرقة ماراً بحران، وكان هذا الطريق على جانب كبير من الأهمية بتكاملته الشرقية.

طريق دياربكر - بدليس - خلاط - أرمينيا - أذربيجان

كان هذا الطريق يربط بين البلاد الدوستكية والبلاد الشرقية وقفاسيا، وكانت التجارة الأرمينية تصل عبر هذا الطريق الى الموصل والعراق. وكان هذا الطريق يتفرع الى فرعين عند مدخل ممر بدليس الغربي بالقرب من موقع (ويس القرنى). فبينما كانت أحد فروعها تتجه نحو الغرب الى أرزن وفارقين ودياربكر، كان الفرع الآخر يتجه جنوباً الى سعرد ومدينة الجزيرة ماراً ببيوتان، أي كان يتصل بطريق شرقي دجلة المار ذكره. وقد أشار العديد من المؤرخين الى أهمية طريق بدليس ومنهم القلقشندي الذي قال انه: "طريق المارة وقصاد الأبواب السلطانية الى الأردن" (٥٢)، أي أنه كان يربط بين بلاد الشام ومصر، من بلاد دولة المماليك، وبين إيران وباكستان (الأردو)، حسب قول القلقشندي وكان كاتب الإنشاء في الديوان السلطاني بمصر مطلعاً على الطرق والبلدان.

وفضلاً عن موقع بدليس الإستراتيجي الذي جعل منها معقلاً للكرد، فقد كانت مركزاً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب (٥٣) حيث كانت القوافل التجارية وكذلك الحجاج القادمون من البلدان الشرقية يمرون ببديليس، الواقعة في ممر جبلي إستراتيجي للغاية يبلغ طوله حوالي (٧٠) كلم. ويبدأ الممر شرقاً من بحيرة وان وبينهما جدار لولاه لما كان للبحيرة وجود. ويمر الطريق بالقرب من مدينة بدليس في نفق صخري قديم مشهور يسمى (بهري زهر) (٥٤).

كان المسافرون يلاقون صعوبات جمة في هذا الطريق أيام الشتاء لكثرة تساقط الثلوج. ولهذا كان موظفوا البريد المشرفون عليه في العهد الدوستكي والعهد الأخرى، ينصبون أعمدة فيه ليهتدي بها المسافرون. وقد سلك ناصر خسرو هذا الطريق في العهد الدوستكي وتحديث عن تلك الأعمدة وفوائدها، ونزل وهو متجه من خلاط الى بدليس في (رباط كاوان سراي) وكانت الثلوج تتساقط

(٥٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٧٩.

(٥٣) أحمد عطية، القاموس الإسلامي، ج١، ص٢٩.

(٥٤) تاتي إستراتيجية ممر بدليس من كونه الممر الوحيد من نوعه في منطقة واسعة من مناطق جبال طوروس، حيث لا وجود لممر مشابه الى مسافات شاسعة من تلك الجبال شمالاً وجنوباً. ويتمتع الممر فيه بمناظر خلابة حيث تعلو الممر جبال شاهقة مغطاة بالغابات الطبيعية، كما يجري في الممر السحيق نهر بدليس إضافة الى مياه العيون التي تنحدر من جوانبه. وتقع في هذا الممر مدينة (بايقان) مركز إحدى أقضية سعرد. وقد خربت تركية نفق (بهري زهر) جراء شق طريق للسيارات، وذلك دون مراعاة للأهمية الأثرية والتاريخية لهذا النفق.

والبرد قارصاً، وذلك في تشرين الثاني من عام ١٠٤٦م (٥٥).

وكان هذا الرباط (الخان) تحت إشراف الدولة الدوستكية، كغيره من الرباط الواقعة في النقاط الحساسة من الطرق والتي شيد نصرالدولة عدداً منها، كما سيأتي في موضوع الآثار العمرانية. وكان كل رباط (خان) عادة يشتمل على غرف للمسافرين وإسطبل للدواب. وكان المكلفون بإدارته من قبل الدولة يزودون المسافرين بالطعام ودوابهم بالعلف. والرباط (الخان) الذي نزل به ناصر خسرو يقع في عقبة تطل على بحيرة وان عند بداية ممر بدليس الشرقية وكان يعرف بـ(دهشتا رهوا)، ومنه يتفرع طريق موش. ويطل على تلك العقبة (زينو) من الشمال الشرقي جبل نمروود البركاني. والموقع يعد من أشهر المواقع في كردستان الشمالية لبردوته وكثرة ثلوجه. ويوجد في نفس الموقع حالياً رباط أي خان مع بناية للموظفين المشرفين عليه من قبل الحكومة التركية. وكان يوجد خان أو رباط في نهاية ممر بدليس (كهلى بدليس) أي مدخله الغربي بإسم رباط (أويس القرني) في العهد الدوستكي (٥٦).

الأوزان والمكاييل

الرطل والمُن كانا من الأوزان المتداولة في كردستان الوسطى في العهد الدوستكي. وأما الرطل فلم يكن وزنه موحداً في كافة المناطق. فقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن وزن الرطل المتداول في مدينة خللاط هو (٣٠٠) درهم^(١)، بينما ذكر بأن وزنه في مدينة فارقين هو (٤٨٠) درهماً^(٢). وعلى هذا فإن رطل خللاط كان يساوي (٤٨٠) غراماً، بينما كان رطل فارقين يساوي (٧٦٨) غراماً^(٣).

(٥٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٦.

(٥٦) ذكر ناصر خسرو هذا الرباط بإسم جامع أويس القرني، بينما ورد في بعض المصادر بإسم (رباط) وهو في الواقع رباط وجامع ومزار مشهور يقول الناس أن أويس القرني، الذي عاش في القرن الأول الهجري مدفون هناك علماً أن هناك رواية تاريخية بكون أويس توفي أو قتل في أرمينية. ولهذا فهو مزار معروف منذ قرون يزوره الناس من أماكن بعيدة، وفي سنة ١٩٧٥ قام أحد أغنياة سعرد بتجديد عمارة المسجد وبنى منارة له.

(١) مما تجدر الإشارة إليه هو أن رطل خللاط كان مطابقاً للرطل المتداول في منطقة خوي وأورميه من كردستان الشرقية، على ما ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم، ص ٣٨٠. أما رطل بغداد فكان (١٣٠) درهماً أي أقل من رطل خللاط بكثير.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٠.

(٣) بالنظر لتكرار الأوزان والمكاييل القديمة في المصادر وعدم معرفة مقاديرها حسب الأوزان والمكاييل الحديثة ونظراً لأهمية تحديدها، فقد راجعت قواميس اللغة وكتبت أخرى للتأكد من مقدار كل منها. ثم حددتها على أساس الغرام ابتداءً من المقياس الذي يساوي (٦٩) حبة شعير متوسطة، حيث وزنت شخصياً هذا المقدار من الحبوب عند الصاغة، فبلغ غرامين كاملين وإليك تحديد بعض تلك الأوزان والمكاييل، نذكر تحديد عدد آخر منها في متن الكتاب:

مكوك: ثلاث كليجات يساوي (٥٥, ٨٩٠) حبة = ١٦٢٠ غراماً

كليجه: من واحد وسبعة أثمان المن = ١٨٦٣٠ حبة = ٥٤٠ غراماً

المن رطلان = ٩٩٣٦ حبه = ٢٨٨ غراماً

الرطل = إثنى عشرة أوقية = ٤٩٦٨ حبه = ١٤٤ غراماً

أما المن فقد وجدته ناصر خسرو مستعملاً أيضاً في كُردستان عند ذكره لبديس وأرزن (٤) لكننا لانعلم مقدار (المتين) المستعملين في بديس وأرزن، فهل هما مستندان الى رطل خلاط أم رطل فارقين أم الى رطل آخر؟ مع ما يلاحظ من قرب بديس من خلاط وقرب أرزن من فارقين (٥).

وال(من) لازال من الأوزان المتداولة حتى الآن بين القبائل الكُردية في ذلك الجزء من كُردستان وكذلك الأوقية (وهقيه)، ولكن وزنها الحالي أكبر بكثير من وزنها القديم. وأما الدرهم فكان أغلب الظن متداولاً في البلاد الدوستكية مع ملاحظة إعتباره جزءاً من أجزاء الرطل والمقصود بالدرهم هنا هو الوزن وليس النقود.

أما المكايل المتداولة في الدولة الدوستكية، فلم نطلع سوى على المكيال والمكوك والكاراة والجريب. وأما المكيال والمكوك، فقد أورد ذكرهما إيليا برشنايا مطران نصيبين في العهد الدوستكي، حيث ذكر في تاريخه أن في سنة (٣٩٦هـ = ٤٠٦م) حدث غلاء في البلاد، فبلغت قيمة مكيال الخنطة درهماً واحداً وثلاثة مكايك من الشعير درهماً أيضاً ومكيالاً واحداً من السمسم عشرة دراهم (٦).

ويبين كذلك بأن المكيال هو ثمانية مكايك، إلا انه لم يبين مقدار المكوك. ولكن المقدسي حدد قبل

=الأوقية = أستار وثلث أستار = ٤١٤٠ حبه = ١٢ غراماً
 الأستار = أربعة مثاقيل ونصف = ٣١٠٠ حبه = ٩ غرامات
 المقيال = درهم وثلاثة أسباع الدرهم ٦٩ حبه = غرامان
 الدرهم = ستة دانق = ٣٣ ١/٢ حبه = ١٠,٦ غرام تقريباً
 الدانق = قيراطان
 القيراط = طسوجان
 الطسوج = حبتان

وهناك مكايل أخرى مثل المُدّ وهو رطلان بغداديان وقيل رطل وثلث الرطل، والصاع أربعة أمداد.

الجدير بالذكر أنه توجد في المراجع اللغوية خلافات بخصوص بعض ما تقدم. راجع بصدد الأوزان والمكايل المتقدمة: الجوهري، الصحاح، ج ٤، ١٠٩٦. ابن منظور، لسان العرب، مادة (رطل) و(مكوك) و(مقيال) ودانق (الصاع). والفيروزآبادي، قاموس المحيط مادة (رطل) و(مد). وراجع أيضاً أحمد بن محمد المقرئ، مصباح المنير، مادة: رطل ودرهم ودانق ومد. وراجع أيضاً بطرس البستاني، محيط المحيط، مادة درهم ورطل. وراجع أيضاً عبدالله البستاني، البستان، مادة درطل. والمازندراني سيد موسى، عقدة المنير، ص ١٣٠ الى ص ١٤٢.

(٤) ناصر خسرو، ص ٤٢ و ٤٧.

(٥) في هامش (١١٨) من أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيغاشي نقلاً من (النخب) للكرملي، أن المن في أول وضعه كان (٧٩٤) غراماً و(٢٥) سنتيغراماً، ثم تبدل بعد ذلك حسب الزمان والمكان. وما تجدر الإشارة إليه هو أن (المن) كان متداولاً في العهد السومري وكان يسمى منا (mana)، وكان مقداره (٥٠٥) غرام) كما قال الدكتور فوزي رشيد في مقاله (التجارة والصناعة قديماً...) المنشور في جريدة (الإتحاد) العراقية العدد الصادر في ١٩٨٨/٦/٥. وقال جورج كونتينو في (الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ص ١٦٢): أن المن في بلاد الرافدين القديمة كان يسمى مانو (ميننا) وكان (٦٠) شقلو وهو يساوي (١٨) أونصة.

(٦) تاريخ إيليا برشنايا، ص ٨٣، مطبوع على الآلة الطابعة، أرى أن الصحيح ديناراً بدلاً من درهماً.

التاريخ المذكور بحوالي (٢١) سنة مقدار الموك المتداول في بلاد الجزيرة (بضمنها إقليم دياربكر) بخمسة عشر رطلاً^(٧)، أي بقدر رطل بغداد وهو (١٣٠) درهماً^(٨). وحدده أيضاً بأربعة أمداد بـ(مد) الجزيرة. فعلى هذا ان الموك كان يساوي (٣١٢٠) غراماً والمكيال يساوي (٢٤٩٦٠) غراماً، أي ما يقارب (٢٥) كيلوغراماً. أما الكارة فقد ذكرها الفارقي وابن شداد، غير انهما لم يبينا مقدارها^(٩).

ولكن المقدسي ذكر ان الكارة بهذا التحديد تساوي (٤٩٠,٩٢٠) غراماً، بينما يساوي القفيز (٢٤٨٠) غراماً أي كيلوغرامين و(٤٨٠) غرام. وإن لم يكن هذا التحديد مطابقاً لمقدار (كارة) دياربكر في العهد الدوستكي، فهو قريب منها لما ذكر الفارقي من ان ابن دمنه كان يحمل كارة حنطة ذات يوم...^(١٠).

أما الجريب فورد ذكره من قبل الفارقي وابن شداد عندما ذكرا بأن نصرالدولة كان يوزع على الفقراء يومياً جريباً من الحنطة إيفاءً لنذر له^(١١).

فعلى هذا انه يساوي الكارة اي (٤٩٩٢٠) غراماً. أما الكر، وكان اكبر المكاييل، فلاشك انه كان مكياً قديماً في كُردستان. وكان هذا المكيال متداولاً في العهد السومري بإسم (گور) (Gur) وكان مقداره آنذاك (٣٠٣) كيلوغرام^(١٢)، وكان متداولاً في العهد الدوستكي. وقد اتفق اللغويون على ان (الكر) كان يبلغ ستين قفيزاً أي ما يساوي (٧٤٨) كيلوغراماً و(٨٠٠) غرام. وقد وجدت في بعض المصادر الحديثة بأن القفيز يساوي (١٨) كيلوغراماً والجريب (٧٢) كيلوغراماً والكر (١٠٨٠) كيلوغراماً.

يحتمل ان المكيال والموك اللذين أوردهما المطران إيليا متدرجان من رطل آخر غير رطل بغداد كرطل فارقيين مثلاً، والذي يعتبر أثقل من رطل بغداد مع وجود احتمال للزيادة او النقصان في الجريب. اذ من المحتمل ان الاوزان والمكاييل كانت تختلف في كُردستان عما هي عليه في بلد آخر. ومن المحتمل جداً ان الصاع كان متداولاً في البلاد ويعرف الصاع في كُردستان الآن بـ(فطره) وهو أربعة امداد. اما المد فكان متداولاً في إقليم الجزيرة كـالقفيز على ما ذكره المقدسي ايضاً^(١٣).

يحتمل أن الكتاب الذي افه ايليا برشنايا في الموازين والمقاييس كفييل بالقاء الضوء على الاوزان والمكاييل المتداولة في كُردستان أيام الدولة الدوستكية^(١٤).

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥، ذكر أن رطل الجزيرة هو رطل بغداد.

(٨) في العقد المنير للمازندراني، ص ١٣٠ أن الرطل العراقي (أي رطل بغداد) كان يساوي (١٣٠) درهماً، وفي المصباح المنير، مادة (رطل) أنه يساوي ١٢٨ ١/٢ درهماً وقد إعتمدنا على الأول.

(٩) الفارقي، ص٨٣. والأعلاق الخطيرة، الورقة ٨٣.

(١٠) الفارقي، ص١١٥. والأعلاق الخطيرة، الورقة ٨٩.

(١١) الفارقي، ص٨٣، كانت هذه الكمية من الحنطة من واردات قرية عطشا.

(١٢) مقال للدكتور فوزي رشيد في جريدة (الإتحاد) الصادر في ١٩٨٨/٦/٥.

(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥.

(١٤) راجع ترجمة حياة ايليا في موضوع الحياة الثقافية: علماء مسيحيون.

أخيراً إذا القينا نظرة على أوزان النقود الدوستكية، التي ذكرناها في موضوع (العملة الدوستكية)، نرى مدى دقة الأوزان في كُردستان انذاك. إذ كان يبلغ وزن البعض من نقودها (٢, ٨٨٩) غرام.

التنظيم الحرفي والأسواق

كانت الدولة الدوستكية قد نظمت الجماعات الحرفية والمهنية في جمعيات مختلفة كل واحدة منها تختص بإحدى الجماعات كالتجار والحائك والخياطين والحدادين والصفارين والخشابين والفحاميين والخصاصين والبنائين والأطباء والصاغة وبائعي المواد الغذائية والقصابين والبزازين (أي بائعي الأقمشة) وبائعي الخضراوات والفواكه. وكانت الحرف والمهن موزعة على أسواق مختصة، وكان لكل صنف سوقه المسمى بإسمه، كما كان لكل سوق موظف يشرف عليه يسمى (الشيخ) و(الرئيس) أيضاً. وإستعمل الفارقي مصطلح (مقدم) و(متقدم) و(الشيخ) لرئيس التجار علماً أن (مقدم) أو (متقدم) أستعمل لمسؤول المحلة للفتوة كما سيأتي. وكان (شيخ السوق) مرتبطاً بـ(النقيب) والنقيب مرتبطاً بـ(المحتسب). وقد ذكرنا في موضوع الحسبة واجبات المحتسب وصلاحياته. وكانت الحسبة هي النقابة العامة في العاصمة، وكانت في المدن نقابات للأصناف أي للحرف والمهن المختلفة. وعن طريق هذا التنظيم كانت الدولة تتحكم بالرقابة على الأسواق.

لقد ذكر الفارقي في (ص ٧٥) من السلم التنظيمي الحرفي (شيخ سوق الطعام) في مدينة آمد (ديار بكر)، وكان إسمه (عبدالبر) وهو الذي دبر مؤامرة إغتيال الأمير أبي علي حسن بن مروان سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م) (١).

وهذا دليل على وجود هذا التنظيم في الدولة الدوستكية. وكان هذا التنظيم موجوداً في الدولتين العباسية والفاطمية، وقد أخذ المسلمون من الدولتين الساسانية والبيزنطية وخاصة من الأخيرة. هذا مع العلم بأن المحتسب، كأحد الحكام من الدرجة الثانية، كان موجوداً في العهد الجمهوري الروماني قبل الميلاد (٢).

وقد ألفت عنها (أي عن الحسبة) كتب خاصة متعددة ماعدا مواضيع أخرى بخصوصها في المصادر التاريخية المتفرقة. ولو كان في تاريخ الدولة الدوستكية عدة كتب مثل تاريخ الفارقي لعلمنا منها الكثير مما نجهله عنها الآن.

إن من أهم واجبات (شيخ السوق) في التنظيم الحرفي النقابي، هو تمثيل أهل السوق في القضايا

(١) في تاريخ إيليا يرشنايا المطبوع ص ٢٠١، أن عبیدالله بن دمنه قتل عبدالبر يوم الإثنين الرابع من شوال سنة (٣٨٩هـ) أي في السنة التي تلت مقتل أبي علي.

(٢) راجع، مدخل إلى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم ص ٥٦، ٥٨، ٦٠، تأليف آ. بتري.

العامّة وتحديد الأسعار عند الحاجة بالتشاور مع المحتسب أو (النقيب). وكان له الحكم على أبناء صنعته والموافقة على إنتماء الشخص الى طائفته ومنحه إجازة ممارسة المهنة، إذا رآه صالحاً لذلك. إذ لم يكن للشخص حق الإنتماء وممارسة المهنة وفتح دكان له بدون إجازة من الشيخ. ويكون إنتخاب الشيخ من قبل أعضاء الحرفة وتعترف السلطة بتعيينه أو كان يعينه المحتسب. أما أصحاب الصناعات فلم يُقبل إنتماؤهم الى صنف صناعاتهم إلا بعد أن يكونوا قد تعلموا أسرار الصنعة وبعد اجتياز إختبار من قبل خبراءها. فإذا رضي الحبير بقابلية الشخص يذهب الى شيخ السوق (شيخ المهنة) والنقيب. وبعد ذلك يطلب الشيخ حضور أستاذه للتحدث معه بذلك الصدد ومناقشة الأستاذ حول قابلية ذلك الشخص، فإن رضي الأستاذ بإنتمائه الى أهل الصنعة طلب موافقة جد الشخص إن كان حياً، لأن العقد كان يتم بإسم الجد. وإذا حصلت الموافقة من الجميع يحدد يوم تقام فيه وليمة من قبل الشخص كان يحضرها أبناء تلك الصنعة. وإن كان المذكور فقيراً يساعده النقيب في إقامة الوليمة (الحفلة). وأثناء الوليمة، وبعد حصول الشخص على (العهد) أي التفويض من أستاذه بالدخول في المهنة، كانت تجري مراسيم (الشد)، وفيها كان النقيب يشد حزاماً أو مندبلاً أو قطعة قماش حول كتفه أو وسطه أو رأسه ويعقدها بأربع عقد ولكل عقدة مراسيمها الخاصة (٣).

(٣) صباح إبراهيم الشبخلي، الأصناف في العهد العباسي، نشأتها وتطورها، ص ٧٧-١٠٩، ص ١٢٠-١٢٣. ذكر الشبخلي بأن العقدة الأولى هي للأستاذ (أسطه) الذي يقرأ أثناء عقدها تعريفاً للشخص مع آيات قرآنية. والعقدة الثانية هي للجد ويقرأ خلال عقدها كلاماً على التبريك مع الآيات القرآنية. والعقدة الثالثة هي للـ(بير) التي يعقدها النقيب والذي يقرأ خلال عقدها كلاماً متعارفاً للبير مع آيات قرآنية. والعقدة الرابعة هي عقدة الإمام علي ويعقدها النقيب كذلك، ويذكر خلالها الكلام الخاص بالإمام ثم يقرأ آيات من القرآن. والعقدتان الأخيرتان أحدهما بإسم الحسن والأخرى بإسم الحسين. وأما (البير) فهم الأنبياء. فالنبي داود بير الحدادين وإبراهيم بير البنائين ونوح بير التجارين وإدريس بير الأطباء وعيسى بير الصباغين وشعيب بير النساجين ومحمد بير التجار. ولاشك أن هذه التقاليد الموجودة في الدول الإسلامية، كانت موجودة في كردستان أيضاً. فمثلاً كان الحدادين في مدينة السليمانية يعلمون، كما سمعت من الكثيرين منهم، أن بير مهنتهم هو النبي داود، ولذلك فالسندان شبه مقدس لديهم ويسمونّه (دهزگا) ويقسمون به، ويقولون بأن سبب التقديس أو الإحترام الزائد قد نشأ من كون السندان جاء من النبي داود وورثته الحدادون منه. وفي ١٩٩٩/٩/٨ سافرت والمهندس السيد حميد ملا صادق الكويي (المنسوب الى مدينة كويه - كويسنجق) مع البناء أسطه عمر من السليمانية الى كويسنجق، حيث أنيطت بي مهمة الإشراف على ترميم قيصريتين فيها من الناحية التراثية. كنت والأسطه عمر (وأبوه اسطه عباس وجده اسطه حسن فاطمة غزالي من أفضل بنائي السليمانية) نتحدث عما يتعلق بأعمالهم فكنت أذكر له أسماء البير. فسبقتني في القول وقال إن بيرنا نحن البنائين هو النبي إبراهيم. وأضاف أن بلدية السليمانية حتى سنة ١٩٥٨ لم تكن تسمح لأحد بممارسة مهنة البناء ما لم تكن له إجازة ممارسة المهنة من البلدية. وإن رئيس البنائين كان (معمارباشي البلدية) أي رئيس جماعة البنائين من قبل البلدية، وهو الذي كان يرشح الشخص لأن يكون بناءً كي تمنحه البلدية الإجازة. إذ أن (معمارباشي) كان يعني (شيخ البنائين) أو النقيب أي نقيب البنائين. وقد أضاف السيد حميد وهو ماهر في الشؤون الإدارية أن هذا القانون لا زال موجوداً في نظام البلدية ولم تلغاه الدولة العراقية، ولكنه تعرض الى الإهمال بعد إنتهاء العهد الملكي. أما تقليد (الشد) فلم يسمع به الأسطه عمر ولم أسمعه أنا من البنائين المعمرين الذين توفوا. والدولة العراقية كانت قد أخذت ذلك القانون من الدولة العثمانية التي أخذته بدورها عن الدول الإسلامية التي سبقتها. وقد وجدت إجازة من العهد العثماني بالتركية العثمانية للمرحوم حاجي محمود موتابجي بالسليمانية. بخصوص مهنة موتابجية إرثية كانت لأبيه أو جده ثم أدرج فيها إسمه أيضاً. وقد سمعت ان المرحوم الدكتور أمين موتابجي قد نشر الإجازة، وعندني نسخة مستنسخه على النسخة الأصلية لإجازة مهنة الطب الشعبي لحمه نادر الجراح بالتركية العثمانية. بخصوص الشيخ، راجع الدوري، مقدمة في الإقتصاد العربي، ص ٦٨.

لقد سمي الماوردي في الأحكام السلطانية (ص ٢٢٧) الشيخ بـ(العرفاء - عرفاء الأسواق). وذكر الصابي وجود عامل على سوق الغنم وآخر على سوق البطيخ وآخر على دار القطن وآخر على سوق الرقيق وغيرها (٤).

وهكذا يتضح لنا أن إسم (الشيخ) قد تغير حسب تغير الأقاليم والفترات الزمنية. وكان من واجبات الشيخ أيضاً الإهتمام بنظافة السوق ومنع العاملين فيه من الغش وتهيئة أهل السوق للمشاركة في المناسبات والإجتماعية، كتزيين السوق في المناسبات البهيجة وإغلاقها في المناسبات المحزنة.

كان التجار ضمن هذا التنظيم الحرفي في الدول الإسلامية يتمتعون بمكانة مرموقة، وفي مقدمة هؤلاء كان يأتي تجار البز (الأفمشة)، حيث كانوا ضمن الطبقة الخاصة حتى إنهم كانوا يشتركون في مباحة الخلفاء الجدد. وكان هؤلاء التجار أصحاب ثقافة، حتى إن بعض المؤرخين قد ذكر بأن بعض البزازين كانوا فقهاء، ويلعبون دوراً في الحياة السياسية. وكانت السلطة تعترف بمكانتهم الإجتماعية (٥).

وكان (عبدالبر) يمتلك علماً في الفقه، على ما يتضح لنا من كلام الفارقي (ص ٥٧). حيث ذكر بأنه كان يجلس كل يوم (أي في مدينة آمد) للقضاء والشهود. وذكر الفارقي من التجار (ص ١٦٥-١٦٦) التاجر أبا بكر بن جري، وكان ذا مال ويسار وقد حفر قناة ماء من رأس العين الى العاصمة فارقين وصرف عليها أكثر من خمسين ألف دينار. ويفهم من كلامه أنه كان رجلاً ورعاً و(كان شيخاً مقدماً من التجار وكان سمساراً) أي شيخهم المقدم أي رئيسهم أو نقيبهم في سلم التنظيم الحرفي هذا، وكذلك وصفه لابن بهات بالمتقدم بحيث أن كلاً منهم كان رئيس التجار أي نقيبهم في فترة ما، علماً أن الفارقي ذكر اسم التاجر (ابن البهات) ووصفه بأنه (كان متقدماً وسمساراً من جملة العدول والشهود)، أي من هيئة القضاء (المحكمة) الدائمة. وكان بحكم وظيفته ذو معرفة بالفقه الإسلامي وأحكامه وتنظيم السجلات ومتصفاً بالعدل والأمانة. وقد ربح التاجر المذكور في يوم واحد خمسمائة دينار ببيزنطي من بيع الخام. وهو رقم كبير قلما يوجد مثيل له في التاريخ الإسلامي نظراً للقوة الشرائية الفائقة للدينار في ذلك العصر، كما ذكرنا في موضوع (العدالة) والتجارة. وقد أعطانا الفارقي في (ص ١٠٠) إسم تاجر آخر من ذوي المكانة الإجتماعية المرموقة في العاصمة فارقين هو (أبو الحسن أحمد بن وصيف البزاز)، وكان من كبار تجار (سوق البز) ومن جملة العدول أيضاً ومن أصحاب الثقافة كإبن البهات. وما يدل على مكانة العدول (الشهود) الإجتماعية والمشاركة في الحياة السياسية للدولة أيضاً، هو المشاركة في تنصيب الأمراء الدوستكيين. فقد حضر التجار مراسم تنصيب نصرالدولة خلفاً لمهدالدولة بمدينة أرزن سنة (٤٠١هـ)، وحضروا مراسم تنصيب نظام الدين (٦).

(٤) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص ٣٢٣.

(٥) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٦) الفارقي، ص ٩٥، ١٧٨.

رغم أنه لم تصل إلينا معلومات كثيرة عن الحركة التجارية وأسماء التجار ومقدار ثروتهم، إلا أن الفارقي أشار في (ص ١٦٦) إلى توسع العاصمة فارقين السكاني في عهد نصرالدولة وتنشيط الحركة التجارية فيها، ومجيء تجار أجنبية للسكن فيها وانتشار الغنى فيها، حين قال: "وإنعمرت ميفارقين (أي إزدحمت بالسكان) وقصدها الناس والتجار من كل الأطراف وإستغني الناس في أيامه وكانت من أحسن الأيام ودولته غير الدول" أو دولته خير الدول. وقد أشرنا في بداية موضوع الحياة الإقتصادية إلى كلام الطبيب ابن بطلان حول توفر الأعمال وإستغناء الناس في هذه الدولة الكردية. ونظراً للتنظيم الحرفي في الدولة وتوسع التجارة والحرف والمهن، فإن الأسواق توسعت وتعددت بتنوعها، وكان لأصحاب كل صنف سوق خاصة بهم. وقد ذكر الفارقي أيضاً في (ص ١٤١) بأن نصرالدولة بنى في مدينة النصرية (الأسواق)، حيث ذكرها بصيغة الجمع، وأن تعدد تلك الأسواق كان حسب تعدد الحرف والمهن.

وذكر الدكتور أديب معوض في كتابه (الأكراد بين الأمس واليوم، ص ٤٣): أن أسواق مدينة آمد (ديار بكر) في العهد الدوستكي كانت تزيد على الستين سوقاً. أما الأسواق التي إطلعت على أسمائها فهي:

١- سوق الطعام بآمد

٢- سوق البز في فارقين، الذي كان يتمتع بنظافة وإحترام خاص، حيث يمنع أو يكره دخول الشخص فيه ركباً كما هو واضح من كلام الفارقي في (ص ٦٦).

٣- سوق القبة في فارقين، الذي ذكره الفارقي في (١٦٥)، وقال الدكتور سوادي عبد محمد أنها كانت قيصرية (مقبية) (٧).

وقال السيد صباح إبراهيم الشخلي، أن هذا النوع من الأسواق (أي القيصرية) أخذها المسلمون من البيزنطيين وهي منسوبة إلى (قيصر) وتعني السوق الامبراطوري في الاصطلاح السوري والفلسطيني والمغربي أيضاً (٨).

وكانت سوق القبة في فارقين تقع بالقرب من الجامع الكبير من الطرف الغربي ويتجاه الشمال قليلاً. وقد أجرى التاجر الكبير أبو بكر بن جري قناته المائية إلى هذا السوق ومنها إلى الجامع الكبير.

٤- سوق العطارين: وكانت تحتوي على حوانيت (صيدليات) للأدوية الطبية، وكان حانوت الطبيب أبي سالم، الذي أصبح وزيراً للأمير ناصرالدولة منصور تقع في هذه السوق (٩)، على ما قاله الفارقي في (ص ٢٠٦). وقال د. سوادي ان ابن شداد سمى السوق المذكورة بـ(سوق العديم) (١٠) وكانت تحتوي على المعاجين والأشربة والسكر وما شابه ذلك.

(٧) د. سوادي، الأحوال الإجتماعية والإقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية، ص ٣٢٤.

(٨) الشخلي، الأصناف في العصر العباسي، تنشأتها وتطورها، ص ٣٩ وهو كتاب قيم جداً.

(٩) لفظ السوق يأتي مذكراً ومؤنثاً أيضاً.

(١٠) الدكتور سوادي، الأصول الإجتماعية والإقتصادية في الجزيرة الفراتية، ص ١٣٩.

٥- سوق الخبيل: وكان خاصاً ببيع وشراء الخيول، وكان يقع في المحدثثة في أطراف جامع بني مروان، على ما ذكره ابن شداد (١١).

٦- سوق العجل: ذكره الطبيب ابن بطلان في (دعوة الأطباء) على ما مر ذكره في بداية موضوع الحياة الإقتصادية، ومن المحتمل أن يكون ذكرها على سبيل الكناية.

٧- العرصة: ذكرها الفارقي في (ص ٢٤٦) وقال أن محمد بن صافي كان غلام البيع في العرصة بفارقين، والعرصة هي ميدان (مزادخانه على ما يسمى حالياً) للبيع والشراء، وهي من السوق أيضاً. وقد أورد اليونيني في (ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٢٦٢) إسم سوق (العطر) بفارقين على ما نقله عنه الدكتور سوادى (١٢)، وقال بأنها كانت تحتوي على حوانيت (دكاكين) العطور والبخور واللاذن والمحلّب (١٣).

ويحتمل أن سوق العطر هذا كان موجوداً في العهد الدوستكي، حيث قال في (ص ٣٢١): "يمكن القول أن أسواق مدينة الجزيرة في القرن السادس الهجري كانت إستمراراً لأسواق القرنين الرابع والخامس الهجريين".

وفي القرون الوسطى كانت بعض الأماكن أسواقاً لأيام معينة، فقد ذكر ابن جببر في رحلته (ص ١٩٤) أن سوق (دنيصر) (قزل تپه) للبيع والشراء كان في أيام السبت والأحد والخميس والجمعة. ويسمون هذا السوق الحافل الذي يجتمع فيه سكان الجهات المجاورة والقرى المتصلة به (بازار)، وقد وصل ابن جببر إليها يوم الخميس الثالث من ربيع الاول سنة (٥٨٠ هـ = ١١٨٥/٦/١٤ م). ومعلوم أن (بازار) إسم كُردي للسوق وسنذكر أن مدينة (دنيسر) من تخطيط الدولة الدوستكية حسب رأينا، كما إن الأوقات المحددة لإقامة سوقها كانت تعود الى عهدنا على الأغلب.

(١١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (ورقة ٧٢).

(١٢) سوادى، ص ٣٢٤.

(١٣) في تذكرة أولي الالباب للطبيب داود الانطاكي، أن شجرة اللاذن تشبه شجرة الرمان، ويستخرج من بذرو اللاذن طيب يسمى نوع منه بالعنبري والآخر بالخلوق. أما الخلق كما جاء في المنجد: نوع من العطر أعظم أجزاءه الزعفران. والمحلّب على ما جاء في تذكرة الأنطاكي شجرة تنبت في البلاد الباردة ورؤوس الجبال ويكبر كالبطم ولها أوراق مستطيلة طيبة الرائحة وهي دواء لعدة أمراض كالخفقان وضيق النفس والكبد والطحال والكلبي وعسر البول والحصى.

الفصل السادس

الحياة الثقافية

الفقه- التجويد- الأدب- علماء مسيحيون- الطب- التنجيم- المكتبات- تطور

الكتابة الكوفية المزخرفة- جديد الكتابة السطرخيلية السريانية

الحياة الثقافية

لقد شهدت الحياة الثقافية في عهد الدولة الدوستكية إزدهاراً واضحاً للثقافة لإهتمام الدولة بها وينشر العلم ورعايتها لأهل العلم من الفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء. وكان للهدوء والإستقرار اللذين شهدتهما البلاد والرخاء والتقدم الإقتصادي والعمراي أثر واضح في الحياة الثقافية، وكانت من العوامل القوية التي ساهمت في دفع عجلة ثقافتها. ولهذا غصت مراكز العلم في دياربكر والعاصمة فارقين والجزيرة وطانزه (طنزه) وشاتان وأرزن وبدليس وغيرها من المدن، بأهل العلم من الأساتذة والطلبة، فتخرج منها فطاحل العلماء وكبار الادباء.

وقد جلب هذا التقدم في الحياة الثقافية أنظار أساتذة وطلبة العلم من خارج البلاد، فقدم العديد منهم الى البلاد الدوستكية كأستاذ يدرس في مدارسها أو كطالب يتلقى العلم فيها. ومن الذين أشاروا الى هذه الحركة الثقافية من المؤرخين إبن الأثير الجزيري، حيث ذكر إن نصرالدولة كان: "مقصد العلماء من سائر الآفاق وكشروا ببلادهم وممن قصده أبو عبدالله الكازروني، وعنه إنتشر المذهب الشافعي بدياربكر، وقصده الشعراء وأكثروا مدائحه وأجزل جوائزهم"^(١). وأشار الى تلك الحركة أيضاً إبن الجوزي الذي قال: "ووفد إليه -أي الى نصرالدولة- الشعراء وسكن عنده العلماء الزهاد"^(٢). وكما أشار إبن خلدون أيضاً بقوله ان نصرالدولة (قصده العلماء فمهد عنده مقامهم)^(٣). وكذلك أشار الى تلك الحركة الثقافية أيضاً المؤرخان الكرديان إبن خلكان^(٤) وأبو الفداء الأيوبي^(٥).

(١) إبن الأثير، الكامل، ج. ١٠، ص ٢٦.

(٢) إبن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٢٢٢.

(٣) إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣١٩.

(٤) إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٧.

(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٨٩.

أما الفارقي، فقد ذكر من الشعراء الذين قدموا الى البلاد ومدحوا نصرالدولة: أبا الحسن التهامي وصریح الدلاء علی بن عبدالواحد البغدادي. وذكر من الشعراء المقيمين في خدمته أبا الرضا ابن الطریف الفارقي، وابن السوداوي وابن الفطيري(٦).

أما ممن قدم من العلماء الى البلاد الدورستكية، فأبو حسن الأمدي علي بن محمد بن عبدالرحمن الحنبلي، وهو بغدادي الأصل ومؤلف كتاب (عمدة الحاضر وكفاية المسافر) في الفقه في أربعة مجلدات. قدم المذكور سنة (٤٥٠هـ = ١٠٦٨) إثر احتلال البساسيري مدينة بغداد وسكن مدينة دياربكر، ودرس بها الى أن توفي سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٦) في عهد الأمير نظام الدين(٧). ومنهم نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي مؤلف كتاب الانتخاب الدمشقي في بضعة عشر مجلداً، درس الفقه علی الكازروني والحديث علی هبة الله بن سلمان بمدينة دياربكر (آمد)(٨). ومنهم الحافظ مكي بن عبدالسلام بن الحسين الرميلي، وتلقى العلم بفارقين ودياربكر وهو واحد من حفظة الحديث(٩).

أما القاضي أبو منصور بن شاذان الطوسي، فقد قدم الى فارقين وتولى القضاء بها. وكذلك القاضي ابن جرجور هبة الله الشاذي المشرقي، الذي تولى القضاء بفارقين أيضاً كما ذكرنا في موضوع القضاء.

وقدم الى البلاد الدورستكية كذلك أطباء مهرة ومن أصحاب المؤلفات الطبية العديدة، مثل الطبيب المسيحي جبرائيل بن بختيشوع، وأبي نصر التكريتي وأخيه الطبيب أبي الفضل، كما سيأتي بالتفصيل. كانت الدولة الدورستكية ترتبط بالعاصمة العباسية بغداد بعلاقات ثقافية قوية، بالإضافة الى بلاد الشام ومصر. وكان الكثير من الطلاب يتوجهون من البلاد الدورستكية الى بغداد، لإكمال دراساتهم علی الغزالي وأبي إسحق الشيرازي(١٠) وابن الصباغ وغيرهم من كبار علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر للميلاد). ولا بأس أن نذكر هنا بعضاً من ذوي الصلة القوية بتاريخ العلم في العهد الدورستكي منهم: فخر الإسلام ابو بكر الشاشي الفارقي، أحد أئمة عصره في الفقه الشافعي. ولد بفارقين ودرس الفقه بجامع فارقين علی الكازروني، والقاضي أبي منصور بن شاذان الطوسي ودرس الحديث بمدينة دياربكر علی قاسم بن أحمد الخياط، ثم بعد عزل أستاذه الطوسي من القضاء سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) ورجوعه الى ايران، توجه الشاشي الى بغداد ودرس الفقه علی أبي اسحاق الشيرازي وابن الصباغ. فبرع وذاعت شهرته واصبح مدرساً في المدرسة النظامية اكبر مدارس بغداد واشهرها. وله مؤلفات عديدة منها (الشافي في شرح الشامي) في

(٦) الفارقي، ص ١٤٤.

(٧) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٣، حوادث سنة ٤٦٥هـ. الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٤٧.

(٨) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٥، ص ٣٥٢.

(٩) نفس المصدر، ج ٥، ص ٣٣٣.

(١٠) هو إبراهيم بن علي بن يوسف، ولد بقرية فيروزآباد من قرى شيراز سنة ٣٩٣هـ، دروس بشيراز والبصرة. كان أكبر عالم في بغداد في حينه في الفقه الشافعي، توفي سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م).

عشرين مجلداً، وله آراء فقهية تفرد بها (١١). ومن هؤلاء العلماء أيضاً الشيخ أبو الغنائم الفارقي محمد بن الفرّج بن منصور (١٢). وحسن بن محمد بن أحمد الأمدي، وأبو علي الأمدي الحسين بن سعد بن الحسين اللغوي الشاعر والأديب (١٣)، وحجة الدين أبو عبدالله مروان بن علي بن سلامه بن مروان الطنزي (١٤). وإبن برهون الفارقي قاضي واسط (١٥)، ويحيى بن محمد الأرزني النحوي

(١١) هو ابو بكر بن محمد بن احمد بن الحسين الفارقي، وهو غير ابي بكر الشاشي محمد بن علي بن حامد وغير القفال الكبير محمد بن علي بن اسماعيل الشاشي، حيث ياتي ذكره بأبي بكر الشاشي القفال ايضاً. ولد الشاشي بفارقين سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م) وسمع الحديث ببغداد على يد ابي بكر الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد الكبير، وعلى القاضي ابي يعلي بن الفراء، كما سمع الحديث من الكازروني ايضاً. تولى التدريس في المدرسة النظامية سنة (٥٠٤هـ = ١١١١م)، ومن مؤلفاته (حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء ويعرف بالمستظهري لأنه ألفه للخليفة العباسي المستظهر بالله والمعتمد، و(الشافي) شرح مختصر المزني والفتاوي- مخطوط يعرف بفتاوى الشاشي) (العمدة في فروع الشافعية - مخطوط) و(تلخيص القول - مخطوط) و(الترغيب في المذهب الشافعي).

توفي الشاشي ببغداد سنة ٥٠٧هـ = ١١١٤م) ودفن مع شيخه الشيرازي وخلف ولدين، كانا من كبار العلماء وهما أحمد وعبدالله. وقد أطرى المؤرخون في وصفه وأطنب تاج الدين السبكي في ذكر آرائه الفقهية. وله ترجمة في معظم المصادر منها (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج٦، ص٧٢، حتى ما بعد ص٧٨. والكامل لابن الأثير، ص٢٦٨، البداية والنهاية لابن كثير، ج١٢، ص١٧٧-١٧٨. والأعلام للزركلي، ج٦، ص٢١٠. وطبقات الشافعية، ص٧٢ لأبي بكر بن هداية الله المصنف الكوراني الكردي) وفي المصدر الأخير انه توفي سنة (٥٠٥هـ) وهي نفس السنة التي توفي فيها الغزالي وهو خطأ. كما ورد في بعض المصادر انه ولد سنة ٤٢٩هـ. اما نسبة (الشاشي) لهذا العالم الفارقي فلا أدري من أين أتت؟ هل إن اباه كان في الأصل من مدينة (الشاش) من بلاد ماوراء النهر أو انه إتخذها نسبة له تقليداً بالعالمين الشاشيين المذكورين اعجاباً وتيمناً بهما؟

(١٢) قدم بغداد مع أبيه بعد سنة (٤٤٠هـ = ١٠٨٤م) درس الفقه على يد الشيخ أبي إسحق الشيرازي، ثم عاد الى بلاده ثم سافر مرة أخرى الى بغداد وأكمل دراسته، وعاد فسكن مدينة الجزيرة ودرس بها. كان عالماً فاضلاً توفي على الأرجح سنة (٤٩٢هـ = ١٠٩٩م). راجع طبقات الشافعية للسبكي، ج٤، ص١٩٣.

(١٣) ولد ونشأ بمدينة آمد (ديار بكر) ودرس في كردستان، ثم قدم الى بغداد ودرس على يد القاضي أبي يعلي الفراء وأبي طالب بن غيلان. وسافر في طلب العلم الى بلاد الشام ايضاً، كما سافر الى إيران وسكن مدينة أصفهان وتوفي بها سنة ٤٤٤هـ = ١٠٥٢م). ذكر له ياقوت الحموي في معجم الأدباء، ج١، ص٦٦٦-٦٦٩ مقطوعات شعرية رقيقة منها:

وأهيف مهزوز القوام إذا إنثنى وهبت لعذري فيه ذنب اللوائم
بشعر كما يبدو لك الصبح باسم وشعر كما يبدو لك الليل فاحم

راجع أيضاً السبوطي، بغية الوعاة، ج١، ص٥٣١. والأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٥٧ (الزركلي منسوب الى قبيلة زروكي زركي) (الزركلي في منطقة ديار بكر).

(١٤) كان حجة الدين مروان من سكنة بلدة طنزي (قرية طانزه). ولد ونشأ في بوتان وكان تلميذاً في أواخر العهد الدوستكي وتلقى العلم فيها وسافر الى بغداد ودرس على يد الغزالي وأبي بكر الشاشي الفارقي وقرأ الحديث على غيرهما. بعد إكمال دراسته رجع الى بوتان وأقام في بلدة (فناك) عند أمرائها، وكان يتردد رسولاً من قبلهم الى دار الخلافة العثمانية ببغداد. كان عالماً فاضلاً ذكياً كفوءاً ومقدراً. ذكر عدد من المؤرخين كالسبكي والاصبهاني والحموي انه اصبح وزيراً لعمادالدين زنكي بالموصل في اواخر حياة عمادالدين. توجد في طبقات الأطباء لابن ابي اصيبعة ترجمة حياة الطبيب. والفيلسوف ابن الصائغ الجزري قصيدة لابن الصائغ بمناسبة توليه الوزارة، كما ان لابن الصائغ رسالة باسم حركة العالم بمناسبة مغادرته كردستان الى الموصل، أي نفس المناسبة. هذا وكان لابن مروان الطانزي قابلية على قرض الشعر وذكر له الاصبهاني مقطوعات شعرية رقيقة وعديدة ومعظمها في الحكم، منها قوله في وضع نفوذه في خدمة أقاربه: =

اللغوي الخطاط (١٦). ومن هؤلاء أيضاً أبو الحسن حمدون بن علي الهيزاني (١٧).

وفضلاً عن هذا كان علماء كردستان يستعينون بعلماء بغداد في حل بعض المسائل المستعصية كالمسائل التي أرسلت من قبل بعض علماء فارقين الى القاضي أبي يعلى الفراء -محمد بن الحسين- ببغداد (١٨).

الفقه

كان الفقه الإسلامي يدرس في كردستان في العهود السابقة، ولم يك مقصوراً على مذهب معين من المذاهب الأربعة: الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية، بل كان يدرس بشكل مختلط، أي كان يتم تدريس كل من الفقه الشافعي والحنبلي والحنفي والمالكي من قبل المتمذهبين به. ولم يستقر في

=إن لم يكن جاهي لقومي نافعاً ومالي مضمون به عن اقاربي

فلا كان ذاك الجاه والمال اتسه برغمي مذخور لبعض الأجانب

ان البيت الأول غير سالم عروضياً وغير مطابق للبيت الثاني في بحره لما وقع فيه من خطأ أو خطأ، وأظن أن الصحيح (مضموناً). كانت أسرة مروان هذه أسرة علم وفضل، ويحتمل أن القاضي أبا بكر محمد بن مروان بن عبدالله الطنزي المولود سنة ٤٠٣هـ = ١٠٢١م من نفس الأسرة. راجع عمادالدين الاصبهاني (خريدة القصر، ج ٢، ص ٤٠٧-٤١٥: قسم شعراء الجزيرة وفنك)، والحموي، معجم البلدان، ج ٦، ص ٦٢، والسبكي، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ٣٠٩، وابن الأثير، اللباب في الأنساب، ج ٢، ص ٢٢٤.

(١٥) ابن برهونك هو حسن بن إبراهيم بن علي بن برهون، ولد بفارقين سنة (٤٣٣هـ = ١٠٤٢م). نشأ ودرس بها وقرأ الفقه على يد الكازروني. بعد وفاة أستاذه توجه الى بغداد ودرس على أبي إسحق الشيرازي بالمدرسة النظامية وعلى ابن الصائغ. برع في الفقه وتولى القضاء بمدينة واسط، وكان قاضياً عادلاً وصریحاً في كلامه يقول الحق في وجه الأمراء ولا يعرف المساومة معهم. عُزل عن القضاء وتوفي بواسط سنة (٥٢١هـ = ١٢٨م). وصفه السبكي بأنه كان أحفظ أهل زمانه في الفقه الشافعي. راجع ابن شاکر الكتبي، عيون التواريخ، ج ١٢، ص ٢٧٧، وذكر له أيضاً كتاب (الفوائد على المذهب) وتاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ٢٠. ابن خلکان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٤٣. عباس القمي، الكنى والألقاب، ج ٣، ص ٥. المصنف الكوراني، طبقات الشافعية، ص ٧٥. إسماعيل باشا بابان، هدية العارفين، ج ١، ص ٢٧٢. ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٠، ص ٣٧. محمد أمين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، ج ١، ص ١٧٤. الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ١٩٢. عبدالرقيب يوسف، أعلام من مشاهير الكرد وكردستان (مخطوط). جدير بالذكر ان بعض المؤلفين خالف في تاريخ وفاته، كما خالف السيد محمود ياسين في الإمارة المروانية، ص ١٩٥ بقوله انه رجع الى آمد وتوفي بفارقين.

(١٦) كان الأرزني مليح الخط سريع الكتابة يخرج العصر يوماً الى سوق الكتب ببغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب كتاب الفصيح للشعلب ثم يبيعه بنصف دينار. وكان إضافة لكونه خطاطاً إماماً في اللغة على ما وصفه ياقوت الحموي. وله تأليف باسم مختصر النحو. توفي الأرزني سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م). راجع محمد طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي، ص ٢٩٢. الزركلي، الأعلام، ج ٩، ص ٢٠٧. عبدالرقيب يوسف، أعلام من مشاهير الكرد وكردستان، مخطوط.

(١٧) ابن الأثير، اللباب مادة حيزاني.

(١٨) حل أبو يعلى المسائل الموجهة إليه من العاصمة الدوستكية في كتاب سماه (رسالة في جوابات مسائل وردت من ميفارقين). راجع الأحكام السلطانية، لأبي يعلى، مقدمة الناشر. وكان أبو يعلى أكبر علماء الحنابلة في العراق بلا منافس، ولهذا نظن ان المسائل الموجهة إليه كانت حول أمور فقهية من المذهب الحنبلي. توفي ابو يعلى سنة (٤٥٦هـ = ١٠٦٥م).

كُردستان الوسطى حتى النصف الأول من عهد الدولة الدوستكية أي مذهب منها. وفي رأيي ان كلها كانت موجودة فيها ولو على غير مستوى واحد. وقد أشار المقدسي الى وجود المذاهب الحنفية والشافعية وكذا الحنبلية بدرجة أقل في إقليم الجزيرة (١٩).

وأدخل المقدسي كل البلاد الدوستكية ضمن هذا الإقليم عدا بدليس الى أرديش وملازگر. ويحتمل أن مذهب الأوزاعي قد دخل كُردستان الوسطى أيضاً من بلاد الشام. وكان لهذا المذهب نوع من النفوذ في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي). وقد دخلت كُردستان مذاهب فقهية أخرى قد انقرضت مثل مذهب داود ومذهب سفيان الثوري، وكان للأخير نفوذ قوي في مدينة (دينور) كبرى مراكز العلم في كُردستان الشرقية حينها، وذلك في القرن العاشر الميلادي على ما ذكره المقدسي (٢٠). وكان أبو بكر عبدالغفار بن عبدالرحمن الدينوري (توفي في ٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م) آخر من أفتى بجامع المنصور ببغداد على مذهب سفيان الثوري (٢١).

أما كُردستان إيران وحتى شهرزور من إقليم الجبال، فكانت فيها مذاهب مختلفة لم يستقر فيها مذهب من المذاهب. وكان أهل الحديث من اذربيجان وارمينيا، وكانتا مشتملتين على جزء من البلاد الكُردية، من الحنابلة على ما هو واضح من كلام المقدسي (٢٢).

وكان شأن كُردستان الوسطى كشأن كُردستان إيران في وجود مذاهب مختلفة. هذا وكان القضاء في الدولة الدوستكية الى النصف الأول من عهدها حراً غير مقيد بأحد المذاهب، وإنما كان يسير وفق المذهب الذي يتمسك به القاضي، أو أن القاضي كان يجتهد في أحكامه، أو وفق المتمذهبين بكل واحد منها. وقد ذكر ابن شداد ان في فارقين مدرسة للحنابلة عند باب الجامع، ومدرسة للحنفية أنشأها شهاب الدين غازي الأيوبي وأخرى للشافعية أنشأها ابن الفقاعي عثمان (٢٣). أما في النصف الأخير من العهد الدوستكي، فقد تغلب المذهب الشافعي وإستقر في البلاد بفضل مدرسة فارقين للفقاه الشافعي، التي تزعمها أبو عبدالله محمد بن بيان بن محمد الكازروني. فإنه كما ذكره عدد من المؤرخين نشر هذا المذهب في إقليم دياربكر كما مرت الإشارة اليه (٢٤) وكان الكازروني (٢٥) العالم

(١٩) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٤٢.

(٢٠) نفس المصدر، ص ٣٩٥.

(٢١) نفس المصدر، ص ٣٩٥.

(٢٢) المقدسي، ص ٣٩٤-٣٩٧.

(٢٣) مخطوطة الأعلام الخطيرة، القسم الخاص بالجزيرة ورقة (٧٤) في الورقة (١٢٤) ورد إسم فخرالدين محمد بن الفقاعي الوزير أي وزير الملك الكامل الايوبي امير فارقين. قتل فخرالدين من قبل المغول أثناء إحتلال فارقين في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٦٥٧ هـ.

(٢٤) راجع ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٦.

(٢٥) قال السبكي ان الكازروني سكن آمد، كما ذكرناه ودرس بجامع فارقين، أي انه انتقل اليها وهو ينسب الى مدينة كازرون الواقعة في إقليم فارس، ولا نعلم متى وصل الى البلاد الدوستكية. توفي بفارقين سنة (٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م) وكان قبره ولم يزل مشهداً يزار الى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. فقد ذكر ابو الحسن الهروي في كتابه (الإشارات الى معرفة الزيارات، ص ٦٤-٦٥) ان من بين اماكن الزيارة في فارقين قبر محمد بن بيان رفيق ابي اسحاق =

الذي لايبارى في كردستان الوسطى، فكان له أصحاب وتلاميذ ساعدوه في إستقرار المذهب الشافعي وانتصاره. ومن كبار أصحاب الكازروني، القاضي أبو بكر بن صدقة، الذي تولى القضاء بفارقين كما ذكرنا في موضوع (القضاء). وغلبة المذهب الشافعي في كردستان الوسطى لاتعني أن المذاهب الأخرى قد إنتهت فيها. فقد أنشئت مدرسة للحنابلة في فارقين في العهد الأيوبي. وفي رأيي أن المذهب السني الأشعري (٢٦) إستقر في كردستان الوسطى بواسطة مدرسة فارقين للفقه الشافعي وبواسطة الكازروني وتلامذته أيضاً، حيث لم يكن مستقراً فيها قبل العهد الدوستكي. ساند الشافعيون المذهب السني الأشعري، ولهذا نجد أن ابن الأثير يستغرب من القاضي أبي الحسين بن أبي جعفر السمناني كيف انه كان حنيفياً ومتعصباً في نفس الوقت للمذهب السني (الأشعري)، وكان قد أغناه بالكثير من مؤلفاته (٢٧).

ومن فقهاء الدولة الدوستكية أيضاً شيخ الإسلام أبو عبدالله بن مروان وأبو بكر محمد بن مروان بن عبدالله الطنزي (٢٨)، وعمر بن ثابت الثمانيني تلميذ النحوي الشهير ابن جني (٢٩) والشيخ أبو محمد بن المحور الفارقي، وهبة الله سليمان الأمدي، وابو عبدالله بن زيدان وابن عامر وابن مساعد، وشريف بن ابي السخاء وابو الحسن أحمد بن القاضي ابي علي البغل، وابو طاهر محمد بن الخطيب المشهور بعبدالرحيم ابن نباته الفارقي خطيب جامع فارقين، والخطيب ابو القاسم يحيى بن طاهر بن محمد بن نباته، وابن عقيل خطيب الجامع الكبير في دياربكر، وابو العلاء المتكلم قاضي نصيبين، والقاضي ابو عبدالله بن سلمه المالكي، والقاضي حسن بن منذر (ويقال انه بغدادى الأصل) وغيرهم من قضاة الدولة الدوستكية، من الذين عثرنا على معلومات عنهم ومجموعهم ثلاثة عشر قاضياً، بالإضافة الى غير هؤلاء من العلماء الأفاضل مثل الشيخ (ممك الفنيكي) (٣٠) وأحمد بن عمار بن

=الفيروزآبادي، أي أبي اسحاق الشيرازي. وقال محمد بن شاکر الكتبي في (عيون التواريخ، ج١٢، ص٢٧٧) في ترجمة ابن هربون ان الكازروني كان تلميذ المحاملي. ومن تلامذة الكازروني شيخ الاسلام الروياني عبدالواحد بن إسماعيل صاحب المؤلفات الكثيرة، وعبدالجليل بن عبدالجبار المروزي قاضي دمشق المتوفي سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) ونصر بن ابراهيم بن فارس الازدي وابو الغنائم عبدالرزاق العدوي وعبدالله بن الحسن بن النحاس وابو بكر الشاشي الفارقي، ونصر بن ابراهيم المقدسي وغيرهم. يظهر ان الكازروني لم يكن ميالاً الى التاليف، بل كان يصرف وقته في التدريس ولهذا لم نجد له سوى كتاب (الإبانة) في الفقه الشافعي، الذي أورد ذكره اسماعيل باشا بابان في (هدية العارفين، ج٤، ص١٢٢، ج٥، ص١٠٠).

(٢٦) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق الاشعري المتوفي سنة (٣٢٤هـ = ٩٣٦م). كان من أئمة علم الكلام وله مؤلفات كثيرة ويقال أنها بلغت الثلاثمائة.

(٢٧) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٩-١٢٠.

(٢٨) ذكره ابن الأثير في الكامل، ج٩، ص١٩٢. وقال ان مولد الطنزي كان في سنة ٤٠٣هـ. وقد روى الطنزي الحديث عن أبي جعفر السمناني. وذكره أيضاً ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج٦، ص٦٢. في مادة (طنز). ويحتمل انه شيخ الإسلام ابن مروان الذي ذكره ابن الاثير بكنية ابي عبدالله في حوادث سنة (٤٤١هـ)، هو الذي أوفده نصرالدولة الى السلطان طغرل لإطلاق سراح ملك الأبخاز، وكان الامبراطور البيزنطي قد توسط بنصرالدولة لإطلاق سراحه.

(٢٩) كان من سكان قرية ههشتيان (ثمانى) الواقعة في السفح الشمالي لجبل الجودي.

(٣٠) هو الشيخ محمد البشنوي المعروف بالشيخ ممك وصفه ابن الاثير في اللباب، ج١، ص١٢٨ بالشيخ الصالح وقال توفي قبيل سنة (٤٠٠هـ). ما زال قبره في فنك معروفاً خلف المضيق ومقابل القلعة من الشرق، وقد صورت قبره في=

مظفر البديسي. راجع موضوع القضاء والخطابة. وأبي الحسن حمدون الهيزاني، وكان ممن روى عنه أبو بكر الشاشي الفارقي (٣١).

وهنا تجدر الإشارة الى أسرة فارقية إرتقى أبنائها الى مناصب رفيعة في الدولة الفاطمية بمصر في العهد الدوستكي، وأعني بهم الوزير عبدالكريم بن عبدالحاكم بن سعيد الفارقي، الذي تجمعت في يده ثلاث وظائف مهمة هي وظيفة قاضي القضاة، وداعي الدعاة والوزارة، حيث أصبح وزيراً للخليفة المستنصر بالله (٣٢)، كذلك إرتقى الى هذه المناصب الثلاثة أخوه أحمد بن عبدالحاكم (٣٣)، علماً بأن داعي الدعاة كان يوجه الدعاة الرسميين للمذهب الإسماعيلي الشيعي ويشرف على أعمالهم. أما عبدالحاكم نفسه فكان قاضياً لطرابلس، ثم إنتقل الى مصر سنة (٤١٩هـ = ١٠٢٨م) وتولى القضاء فيها (٣٤).

إن أول من تقلد القضاء بمصر من هذه الأسرة هو مالك بن سعيد، وذلك سنة (٣٩٨هـ = ١٠٠٧م) وقد علت منزلته عند الخليفة الفاطمي (الحاكم) الى درجة لم يبلغها غيره من القضاة. وكانت لملك سيرة حميدة وله أخبار طريفة في العدل والجود والبر ومساعدة الفقراء، وفي الحلم ورقة القلب وغيرها من مكارم الأخلاق. ورغم أن الخليفة الفاطمي اعتمد عليه كثيراً ومنحه سلطات واسعة، حيث كلفه بمهمة الإشراف على الإقطاعات الواسعة والسجلات والإشراف على كتب العمال ومراسلة دعاة الدعوة الفاطمية، الا انه قتله ظملاً سنة (٤٠٥هـ = ١٠١٤م) (٣٥).

= ١٩٧٧/٧/١٣. وتسمى المقبرة التي يوجد فيها قبره بمقبرة شيخ ممك (زيارته شيوخ ميمك). حول قبره سياج من الأحجار وفي الطرف الشمالي من قبره كهف صغير فيه محراب يسمى (خلوة شيخ ممك). لقبره إحترام زائد يزوره الناس. وقد رأيت في الكهف امتعة متروكة هناك، فلما سألت عنها، قال لي بعض سكان فنك انها لبعض عوائل القبائل الرجل (كوجهر) تركوها هناك منذ توجههم الى الزوزان حسب عاداتهم لأنه مكان أمين، فقد تركوها في ذمة (شيخ ميمك) ولا يأخذ أحد منها شيئاً. وعندما يرجع أصحابها في الخريف يأخذون أمتعتهم. وكانت تسكن فنك سبع عشرة عائلة تقيم في كهوفها، بينما كانت في الماضي مدينة ذات أسوار.

(٣١) السمعاني، الأنساب ورقة (١٨٣) مخطوط في مكتبة مديرية الآثار ببغداد.

(٣٢) علي بن منجب، الإشارة فيمن نال الوزارة، ص ٤٨، سيرة المؤيد، ص ٤٨، طبعة ١٩٤٩. الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٧٧. ذكر ابن المنجب ان عبدالكريم تولى الوزارة سنة ٤٥٣هـ = ١٠٦١م وعزل وتوفي في السنة التالية. راجع أيضاً ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٦، ص ٣٧٥.

(٣٣) ابن المنجب، الإشارة فيمن نال الوزارة، ص ٥٠. سيرة المؤيد، ص ٤٩. وابن حجر العسقلاني، رفع الأصر، ص ٧٨. ذكر الأول انه تولى الوزارة مرتين في سنة ٤٥٥هـ ونكب وعوقب وذهب الى الشام وتوفي هناك. راجع أيضاً ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٦، ص ٣٧٥-٣٧٧.

(٣٤) ابن المنجب، ص ٤٨. وأبو عمر أحمد بن يوسف الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٩٦: ذيل أحمد بن عبدالرحمن بن برد. الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٤٩. لقد ذكر العسقلاني في رفع الاصر ص ٨٣-٨٥ شخصاً آخر من هذه الأسرة وهو أحمد بن عبدالكريم بن عبدالحاكم تولى القضاء والوزارة سنة ٤٥٥هـ وفوضت اليه الوزارة عدة مرات. راجع أيضاً ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٦، ص ٣٧٥-٣٧٧.

(٣٥) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٩٦-٦٠٣. ذكر له العسقلاني ترجمة واقية في (رفع الأصر) الملحق بالولاة والقضاة وذكره العسقلاني هكذا: مالك بن سعيد بن مالك. أما أحمد بن عبدالرحمن، ص ٤٩٦ من (الولاة والقضاة)، فذكره بإسم مالك بن سعيد بن سعيد. ويخصوص أخبار آل الفارقي، راجع المقريزي (إعطاء الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) في الصفحات (٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣١٢، ٣٣٣).

التجويد

لاشك أن علم التجويد (٣٦) كأحد العلوم كان يدرس في البلاد الدوستكية، ولكن لم تصل إلينا معلومات مفصلة بصدده عدا بعض الإشارات حوله. فقد ذكر الفارقي ان الشيخ أبا البركات والد القاضي أبي المرجا (كان مقرئاً مجوداً عالماً من أصحاب المصري الذي ورد الي ميفارقين) (٣٧)، واتى غير مرة بذكر القراء بجانب الشعراء. والقراء هم الذين يجيدون قراءة القرآن حسب قواعد التجويد ومنهم من له معرفة بالتجويد ومنهم من هو عالم في هذا المجال كأبي البركات الذي كان عالماً فاضلاً في علم التجويد وغيره. ويظهر من كلام الفارقي انه كان متضلعا في علم التجويد وملماً بالقراءات.

ويستفاد من ذلك ان ذلك العالم المصري الذي لم يذكر الفارقي اسمه كان من علماء التجويد، قدم البلاد ودرس هذا العلم وعمل على توسعه. ونستنتج من كلمة (الأصحاب) كمصطلح يطلق على أنصار كبار العلماء والائمة، الذين يعتبر كل واحد منهم اماماً في اختصاصه ومؤسساً او متزعماً لمذهب من المذاهب يعمل على نشره او تثبيته. إذ يقال ان العالم الفلاني من اصحاب الشافعي او الاشعري او ابي اسحاق الشيرازي أو الكازروني. فمثلاً تزعم الأخير المدرسة الشافعية في كردستان الوسطى، أي نشر المذهب الشافعي فيها، ثم تزعمها بعده القاضي ابي بكر بن صدقة. ولهذا أطلق الفارقي لفظ (الأصحاب) على أصحاب الأخير أيضاً. وفي ضوء التفسير الصادق لهذا المصطلح، نعلم أن ذلك العالم المصري تزعم مذهباً أو علماً في البلاد، وأقرب الاحتمالات عندي أنه انتزع زعامة مدرسة التجويد فيها وكان له بدون شك تلامذة ومؤيدون في مجال إختصاصه. وتشير كلمة (الأصحاب) أيضاً الى ما هناك من جدل وخلاف ومؤيدين ومعارضين.

من المحتمل ان ذلك العالم تزعم نشر وتثبيت القراءات السبع او بعضها في البلاد الكردية، كقراءة حفص المتبعة في كردستان الى الآن. علماً بأن مذاهب التجويد التي تسمى بـ(القراءات)، الشاذة منها او الصحيحة السبعة، مرت هي الأخرى كالمذاهب الفقهية والكلامية، بدور الخلاف والنقاش الى أن انتصرت القراءات السبع في القرن العاشر الميلادي، واعتبرت القراءات الاخرى شاذة غير شرعية. وقد ظهر في مصر إهتمام بالتجويد في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وألف المصريون مؤلفات فيه (٣٨).

(٣٦) التجويد: علم يعرف به إعطاء كل حرف حقه من الصفات وغيرها كالترقيق والتفخيم والجهر والرخو والإستطالة وغيرها من صفات الحروف السبع عشرة، وغايته إتقان لفظ القرآن في القراءة والتجويد هو علم الأصوات ومخارجها.

(٣٧) الفارقي، ص، ٢٨٠. القاضي أبو المرجا هو يحيى بن الضرير كما تكرر ذكره يظهر ان البركات كان عالماً ضريراً تولى القضاء بعد سقوط الدولة الدوستكية سنة ٥٠٧ هـ في دولة شاه أرمن التي أسسها في خلاط وماوراها سگمان القطني وهو غير القاضي ابي المرجي سعادة بن الحسين.

(٣٨) آدم منز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ٢٧٤.

الأدب

لقي الأدب في الدولة الدوستكية اهتماماً غير قليل، ونقصد بالأدب الأدب العربي، حيث لم أجد شيئاً عن الادب الكردي. ولهذا يعد بابا طاهر الهمداني أول شاعر كردي معروف في كردستان الشرقية بعيداً عن بلادها. وكان شأن كردستان في الإهتمام بالادب العربي آنذاك شأن غيرها من البلدان الإسلامية غير العربية. فقد كانت العربية لغة القرآن هي لغة الثقافة في جميع تلك البلدان من الأندلس (أسبانيا) وحتى أقصى بلاد ما وراء النهر (تركمانيا) والى حدود الصين، إلا أن الأدب الفارسي كان قد بدأ في الظهور في هذه الفترة بالذات على يد الرودكي والفردوسي. ولهذه الحقيقة نحن لانستطيع ان ننتقد الدولة الدوستكية لعدم تشجيعها الادباء الكرّد على التأليف وقرض الشعر باللغة الكرّدية، إذا ما نظرنا الى المسألة بمنظار ذلك العصر. وفيما يلي عدد من أدباء وشعراء الدولة الدوستكية:

المنازي

كان ابو نصر أحمد بن يوسف المنازي كاتباً بارعاً واديباً لامعاً وشاعراً رقيق الطبع، تولى ديوان الرسائل والإنشاء في الدولة الدوستكية، وكانت تلك وظيفة مهمة بمنزلة وزارة الخارجية الحالية وكان معتمداً لدى الأمير نصرالدولة، وقد أرسله مراراً في السفارة الى العاصمة البيزنطية. ذكر عدد من المؤرخين كالاصبهاني وابن كثير وياقوت الحموي، ان هذا الشاعر تولى الوزارة في الدولة بعد وفاة الوزير ابي القاسم المغربي (٣٩).

سافر المنازي الى كل من بلاد الشام والعراق واجتمع بأبي العلاء المعري كبير شعراء عصره في كل منهما. وكان المنازي يأتي باللفظ السلس والمعنى الرقيق، وقد اعجب به ابو العلاء المعري حتى قال له (أنت أشعر من بالشام)، وذلك حينما عرض عليه مقطوعته الشعرية المعروفة (٤٠) والتي أولها:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم

ويقال انه لما زار المعري ببغداد بعد ذلك بخمس عشرة سنة، وقرأ عليه مقطوعته الشعرية التي أولها:

لقد عرض الحمام لنا بسجّع (إذا أصفى له ركب تلاحى (٤١))

قال له المعري (ومن بالعراق)، أي انت اشعر من بالعراق عطفاً على قوله السابق (أنت اشعر من

(٣٩) الاصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٣٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٥٤. الحموي، معجم البلدان، ج٧، ص١٦٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٤٤. شمس الدين سامي، قاموس الاعلام، ج٢، ص٧٦٥ باللغة التركية.

(٤٠) انشد المنازي مقطوعته الشعرية هذه في وصف وادي بُراغا بين منبج وحلب. وقال بعض المؤرخين كالرعيبي الأندلسي قولاً مفاده ان هذه المقطوعة لحمدة بنت زياد الأندلسية. ولم يقل بهذا غيره مع ان مؤرخي الشرق متفقون جميعاً أنها للمنازي.

بالشام)، الذي كان قد قاله له قبل خمسة عشر سنة. وقد أورد هذا عدد من المؤلفين متخذين ذلك دليلاً على ذاكرة المعري الخارقة (٤٢).

ومن أشهر مقطوعات المنازي الشعرية، المقطوعة التالية التي إتخذها عديد من المؤلفين مثلاً للرقعة والبلاغة:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زللاً ألد من المدامة للنديم
يراعي الشمس أنى قابلته فيحجبها ليأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وقال المنازي في غلام له طويل وبليد:

ولي غلام طال في دقة كخط إقليدس لا عرض له
وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لاجزء له

وذكر المؤرخون للمنازي ديوان شعر نادر وحاول كثيراً القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي الحصول على نسخة منه، فلم يظفر بذلك. وأغلب الإحتمالات أن ديوانه مفقود. وكان المنازي إضافة الى كونه أديباً شاعراً، عالماً إشتغل بالتدريس أيضاً ومن درس عليه سعيد بن عبدالله بن بندار والد الشاعر علم الدين الشاتاني. توفي المنازي في فارقين سنة ٤٣٧هـ = ١٠٤٦م) وكان من أهل منازلجرد الواقعة في منطقة خربوت أو (ملازگرد) المشهورة (٤٣).

(٤١) وتام المقطوعة:

شجى قلب الخلي فقبل غنى وبرح بالشجي فقبل ناحسا
وكم للشوق في أحشاء صب إذا إندملت أجد له جراحاً
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى وسكران الفؤاد وإن تصاحا
كذاك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق المها مرضى صحاحا

(٤٢) ممن ذكروا ذلك ابن خلكان والحموي وكذلك ابن العماد في (شذرات الذهب، ج٢، ص٢٥٩). راجع عن المنازي أيضاً شمس الدين سامي، قاموس الاعلام، ج٢، ص٧٦٥ باللغة التركية. والذهبي، العبر في خبر من غير، ج٧، ص١٨٧. تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٣٤٩. تاريخ الفارقي، ص١٣٠. أحمد تيمور باشا، حياة المعري. الزركلي، الأعلام، ج١، ص٤٥٨. راجع أيضاً موضوع ديوان الرسائل من كتابنا هذا وكذا دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، ج١، ص٢٥٣.

(٤٣) يرى بعض المؤرخين أنه من منازلجرد (ملازگرد) المدينة المعروفة، أما ابن خلكان فينبغي هذا ويقول بالقول الأول علماً انه توجد في المنطقة الواقعة شرق العزيز بلدة باسم (مازگرت) وهي مركز قضاء في ولاية تونجه لي مركز ديرسيم، وزاد ابن خلكان له نسبة (السليكي) والسليكي (قلعة سليك) تقع قرب بينگول (جبل جور - جبججور) وتسمى الآن سلكان (سهلهكان) وفي شرفنامه (ص٣٤١) ذكر لقلعة سليك.

حسين بن داود الفنكي

كان الأمير حسين من الأسرة المهرانية الحاكمة في فنك، مركز الامارة البشنوية التي كانت تضم القسم الشمالي من بوتان. وكان البشنوي شاعراً مبدعاً وصفه ابن الاثير بشاعر بني مروان (٤٤)، يحتمل أنه أول شاعر كردي نجده يفتخر ويعتز بشعبه وأمجاده من امراء فنك، اذ نجده في القصيدة التي رثى بها الأمير باد مؤسس الدولة الدوستكية، يعتز بكونه من الكرد البشنويين من انصار ومخلصي الدولة الدوستكية والمساهمين في تأسيسها. ويشير الى الانتصار الذي احرزه الأمير باد في المعركة الحاسمة، التي نشبت عند قرية باجلي (باجلايا) على خابور زاخو بينه وبين قوات الدولة البويهية، حيث أشار الى أن الانتصار كان بفضل البشنويين بقوله:

بباجلايا جلونا عنه غمته ونحن في الروع جلاؤون للكرب

كما نجده يشير في إحدى قصائده الى إباء أجداده من بني مهران وشجاعتهم وكونهم لم يقبلوا الذل في يوم الأيام، فيقول في قصيدة لامية:

إن يعرف الناس رسم الذل في جهة فالذل عند بني مهران مجهول

ثم يشيد بمفاخر الكرد التي اجتمعت في أجداده فيقول:

مفاخر الكرد في جدودي ونخوة العرب في إنتسابي (٤٥)

الأمير حسين بما أشتهر في القرون الوسطى من أن الكرد ينتمون الى أصل عربي وبهذا يقصد في المصراع الثاني من بيته الشعري (٤٦).

هذا وقد ذكر المؤرخون ان للبشنوي ديوان شعر كبير، وكتاب الدلائل، والرسائل البشنوية. وقد بذلت من جهتي جهداً كبيراً وراجعت الكثير من المكنيات وفهارس المخطوطات، فلم أجد لمؤلفاته الثلاثة ذكراً يدل على وجودها الآن. ويظهر ان البشنوي قد جمع رسائله التي أرسلها الى أصدقائه في كردستان وخارجها. وما يتوقع ان من بينها رسائل رسمية ألفت بإنشائه لأمراء فنك. وأرى أن لرسائله أهمية كبيرة لو عثرنا عليها، فلاشك أنها تضم معلومات عن عصره. وله مقطوعات شعرية كثيرة في عدد من المصادر ومعظمها في التشيع، ولهذا فإن مؤرخي الشيعة إعتبروه من شعرائهم كما ذكرنا في موضوع التشيع. وقد توفي الأمير حسين البشنوي سنة (٤٦٥هـ = ١٠٧٣م) أو بعد ذلك بسبع سنوات عند بعض المؤرخين (٤٧).

(٤٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٧٢، حوادث سنة ٣٧٣. ذكر ابن الاثير هنا ثلاثة ابيات من القصيدة التي رثى بها البشنوي الامير باد (باد) بن دوستك ذكرناها في الجزء الأول، ص٩٣.

(٤٥) عماد الدين الاصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٤٥١.

(٤٦) يتوضح الأمر أكثر حيث يقول في البيت الأخير من قصيدته اللامية:

نحن الذؤابة من كرد بن صعصة من نسل قيس لنا في المحتد الطول

(٤٧) محمد بن علي بن شهراسوب، معالم العلماء، ص٤٢. محسن العاملي، أعيان الشيعة، ج٢٨، ص٣٣. ابن الاثير، اللباب في تحرير الانساب، مادة (الفنكي). أغا بزرك الطهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج١٠، ص٢٤٤.

محمد أمين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، ج١، ص١٨٦.

إبن أسد الفارقي: أدبه وإنتفاضته الشعبية

هو ابو نصر حسن بن اسد بن حسن الفارقي. كان عالماً وشاعراً كبيراً، تولى الوزارة لآخر الملوك الدوستكيين ناصر الدولة منصور في الفترة الثانية من حكمه. لُقّب بمحي الدين وكان له الفضل في إحياء الدولة لشهور قليلة. تولى ديوان الجباية في آمد، وإثر القضاء على الدولة الدوستكية سنة (٤٧٨هـ) من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه، تم إعتقاله من قبل السلاجقة ربما بسبب معارضته للإحتلال السلجوقي. وفي سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٣م) إثر وفاة ملكشاه، حدثت مناوأة بين السلطان (بركياروق) بن ملكشاه وعمه (تُتش) الظالم وفرغت فارقين من السلطة السلجوقية. فإختلف سكان المدينة، فقد أحب بعضهم إحياء الدولة الدوستكية، بينما رفضها قسم آخر. فضبطت المدينة من قبل طبقة الأغنياء وكتبوا الى بركياروق ليرسل إليهم أحد قادته كي يسلموه المدينة. ولما يتسوا من بركياروق أرسلوا وفداً منهم الى (تُتش)، حينما كان يحاصر نصيبين للغرض نفسه.

كان يتزعم الوفد القاضي أبو بكر بن صدقة السعدي، ولكن إبن أسد الشاعر الوطني شكّل حركة شعبية من تلامذته وشباب فارقين، فأخذ السلطة من يد الأغنياء في المدينة، بهدف النضال ضد الإحتلال الأجنبي السلجوقي وتحرير البلاد وإحياء الدولة الكُردية. وكان ناصر الدولة منصور قد وصل من قرية (حربى) الواقعة شمال بغداد التي أسكنه ملكشاه فيها الى مدينة الجزيرة وإسترجعها، وإتفق مع بني عقيل على صد زحف تتش. فطلب منه إبن أسد أن يتوجه الى فارقين ليتسلمها. فجاء ناصر الدولة وإستلمها في أول سنة ٤٨٦هـ وإتخذها عاصمة للدولة كالسابق وجعل إبن أسد وزيراً له. ولكن لم تمض على ذلك أكثر من خمسة أشهر، حتى جاء تتش وإحتل مدينة آمد ثم ميفارقين. وكان قد إحتل نصيبين وأقام فيها مذبحه فظيعة وإعتدى جيشه على شرف نساؤها. ثم خلع تتش على القاضي بن صدقة السعدي وأضاف قرية قلوبح (كولفا) القريبة من فارقين الى إقطاعات القاضي، مكافأة له على إخلاصه للحكم السلجوقي. فإختفى إبن أسد أكثر من سنة ثم ذهب الى تتش وهو في (حران) لكي يعفو عنه، لكن بعض الحاضرين حرضوه على قتله، فقتله تتش وذلك في سنة (٤٨٧هـ). كان إبن أسد شاعراً محبوباً لدى الجماهير فحزن عليه والي فارقين من قبل تتش الوزير الأسبق لناصر الدولة أبو طاهر الأنباري، الذي كان مخلصاً للدولة الدوستكية، وإستنكر ذلك وترك وظيفته وسار الى خربوت، ثم قتل تتش أبا طاهر مع إبنه (٤٨).

أما حركة إبن أسد الشعبية، فنستطيع تسميتها بـ(حركة الفتوة)، فهي شبيهة بأهدافها الى حد ما بـ(الفتوة) في بغداد وبحركة (الأحداث) في دمشق وحلب في العهدين العباسي والفاطمي (٤٩).

هذا عن حياة إبن أسد السياسية. أما عن حياته الأدبية، فنستنتج من كلام الفارقي بأنه تزعم مدرسة الأدب في فارقين. فقد كان من أبرز الأدباء وله شطارة وجسارة وجمع كبير من التلامذة ونفوذ

(٤٨) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٢٢. السيوطي، بغية الوعاة، ص ٢٨١. الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ١٩٨.
(٤٩) راجع الفارقي، الصفحات ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٨ و ٢٤٠ وموضوع (الحياة الإجتماعية). والجزء الأول ص ٣١٥ - ٣١٧، الطبعة الأولى. كان الوفد ماعدا القاضي يتكون من: الشيخ أبي سالم يحيى بن حسن بن محمد بن محور، والشيخ عبدالله ابن زيدان، وإبن مساعد، وإبن بلق وآخرون. أما ما ذكره الفارقي من أن إحتلال تتش لفارقين كان في ربيع الأول (٤٨٦هـ)، فهو خطأ لأنه وقع بعد هذا التاريخ =

قوي بين الشباب والطبقة الكادحة. وصفه المؤرخون بما يدل على تضلعه في اللغة العربية وقواعدها وفي فنون الأدب، فقد قال عنه ياقوت الحموي: "كان شاعراً رقيق الحواس مليح النظم متمكن من القافية كثير التجنس فلا يخلو له بيت من تصنيع وإحسان وبديع... وكان نحوياً رأساً وإماماً في الفقه يقتدى به".

ولابن أسد من المؤلفات: كتاب ألغاز وديون شعر و(شرح اللمع الكبير) و(الإفصاح في شرح أبيات مشككة الإعراب)، وقد عرف بكتاب المغالطات وطبع خطأ باسم (الرماني) (٥٠)، وتوجد له قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة في المصادر ومن شعره:

يامن حكى ثغره الدرّ النظيم ومن خالّ أصداغه السود العناقيدا
إعطف على مستهائمٍ ضم من أسف على هواك وفي جبل العناقيدا

=الفتوة: في (مقدمة في الإقتصاد العربي، ص ٧٨. ٩٢) للدكتور عبدالعزيز الدوري: أن كلمة (الفتى) مرادفة لكلمة (عيار) و(الشاطر). كان العيارون والشطار من العامة وبينهم أهل الصنائع والباعة، وكان هدفهم التجار الكبار لا الصغار. وكان لهؤلاء مبادئ أخلاقية كالمروءة والرفق بالضعفاء والفقراء وحماية النساء، وكانوا يسمون طريقتهم (الفتوة) ويعتزون بالشجاعة والكرم. وهم يرون أن الأغنياء والتجار جشعون سيطروا على المال والتجارة دون أداء حقهما وأن السلطة تحميهم. وبهذا المفهوم وجهوا حركاتهم، وكانوا يخرجون للقتال بتعبئة شبه عسكرية ولهم عرفاء ونقباء وقادة. ولهم كذلك في كل محلة (مقدم) أو (متقدم). وفي أواخر العهد السلجوقي سادت تنظيمات (الفتوة)، وكان (الناصر لدين الله) الذي أصبح فيما بعد خليفة قد دخل (الفتوة) وتدرج فيها حتى ترأسها. فوحدها وركز مقاييسها في الأخلاق والفروسية ووسعها إلى سورية ومصر لتقوية الخلافة العباسية وترسيخها.

أما حركة (الأحداث) في دمشق وحلب، فقد بدأت منذ أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى السادس (الثاني عشر الميلادي). وكانت الحركة شبه ميليشيا شعبية إتخذت موقفاً عدائياً من السلطة الخارجية ونجحت في فرض سيطرتها وتولية رئيس منهم على المدينة، كما حصل في دمشق التي تولاه آل الصوفي بين (٤٨٨ = ٥٤٨ هـ)، وفي حلب (آل بديع)، وفي (أمد) الأسرة النيسانية في مطلع القرن السادس الهجري. وكانوا يستندون أحياناً أميراً ثائراً، أو يستندون الأمير المحلي، كما فعلوا مع المرادسيين في حلب. كان للأحداث تنظيمهم ولهم تنظيم من رؤساء وتقباء ومقدمين. وعندما يسيطرون على مدينة يوزعون سلطاتهم في المحلات على العيارين. وكانوا يفرضون ضريبة على الأسواق ويتولون حفظ الأمن. وكانوا على العموم يعبرون عن نظرة أهل المدينة تجاه السلطة الخارجية. وكان الغزاة الأجانب يضربون هذه الحركات الشعبية الاجتماعية، التي كانت تنشأ عند سوء الإستغلال والإضطرابات السياسية وما يرافق ذلك من فوضى.

وبخصوص بني نيسان في أمد، الذين أشار إليهم الأستاذ الدوري، نقول أنه في سنة (٤٨٨ هـ) حدثت ثورة شعبية ضد الوالي السلجوقي (طغتكين) أخمدتها بقوة حيث صلب بعض الشوار على ما ذكره الفارقي في (ص ٢٣٩)، ثم عين أميراً تركمانياً سلجوقياً على أمد باسم (إينال). وظلت الولاية في يد أولاد الأمير المذكور إلى أن أخذها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٧٩ هـ). ولكن السيطرة كانت في يد وزراء (بني إينال) من (بني نيسان) وهم أبو علي حسن بن أحمد وكمال الدين علي وبهاء الدين مسعود (وقد تأخرت أمد في عهدهم كما سيأتي في موضوع سور دياربكر).

(٥٠) نشرت مجلة المجمع العلمي بدمشق، ج ١، المجلد ٣٤ سنة ١٩٥٩ رسالة لعبدالعزیز الميمي أرسله من باكستان ذكر فيه أن خيرالدين الزركلي طبع كتاب (الإفصاح) هذا في المغرب باسم الرمانى المتوفى سنة (٣٨٨ هـ)، وبعد أن قام بتحقيق ظهر له أنه كتاب ابن أسد الفارقي بدليل أنه ينقل عن الرمانى وبدليل أنه توجد له وباسمه عدة نسخ مخطوطة في عدد من المكتبات، وبهذا إرتكب الزركلي خطأ عظيماً حرم الفارقي المسكين من أنبل ما ألفه في حياته. هذا وتوجد في مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد نسخة مخطوطة من (الإفصاح) تحت الرقم ٢٩٨٦ ويتبين من مقدمتها أن ابن أسد قد ألفه لأحد المنتفذين من الأمراء المحبين لأهل العلم، ولعله أحد أمراء الأسرة الدوستكية أو أحد أمراء الدولة. وقد ورد إسم هذا الكتاب في (إيضاح المكنون، ج ٢، ص ٤٣، لإسماعيل باشا بابان (شرح أبيات المشككة الإعراب).

وكنت مطوياً على عفة مظنونة يمشي بها وقتتي
 وإن تحاسبنا فقولي لنا من أنت يا بدليس من أنت
 وأين ذا الشخص النفيس الذي يزيد في الوصف على النعت
 من طبعك الجافي ومن أهله قد صرت بغداد على بخت
 وقد توفي ابن الطريف سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٩م) أو التي بعدها (٥٤).

إبن الفطيري

كان أحد شعراء نصرالدولة وكان كاتباً للقاضي أبي الرجي في فارقين (٥٥). وقد أورد له
 الباخرزي (٥٦) المقطوعة الشعرية التالية:

وبهجتني يا عاذلي مقرطوق جمع النحول بأسره في خصره
 أسروه من أرض العدو فأصبحت نفسي أسيرة ناظريه وثغره
 وحياته لولا ملاحظة خده ما ذل إيماني لعزة كفره

ولم يصلنا شيء آخر من شعره، ويحتمل أن له قصيدة أو قصائد عديدة في مدح نصرالدولة وفي
 مناسبات عديدة، شأنه في ذلك شأن ابن الطريف وابن السوداوي وغيرهما، ولكنها لاتزال في عداد
 المفقودة.

=وقد تسامح قلبي في مواصلة
 أهابه وهو طلق الوجه مبتسم
 وأورد له هذه المقطوعة أيضاً ابن الجوزي في، المنتظم، ج٨، ص١٣٩. كما أورد له قصيدة مطلعها:
 يا قالة الشعر قد نصحت لكم
 ولست أدهى من النصح
 ينصحهم فيها بعدم مدح من لا يستحقه وجعل الشعر تافهاً والنزول الى حضيض من الدناءة. كما ذكر ابن الصابوني
 المقطوعة الرقيقة التالية في (تكملة إكبا الإكمال، ص٣١٠) نقلاً عن ابن الدبيشي:
 تبارك من كسا خديك نوراً
 ومن أعطى محاسنك الكمالا
 أغار إذا شربت الكأس شحاً
 على تلك المرافف أن تنالا
 ولكن أدنها من فيك حتى
 ترى للشمس بالقمر إتصالاً

(٥٤) وقع خلاف بصدد وفاته، ففي الوقت الذي يرى ابن الجوزي أنه توفي سنة (٤٣٠هـ) يرى ابن الاثير ومن تبعه انه
 توفي في السنة التي بعدها. راجع بصدده أيضاً الفارقي، ص١٤٤. وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢١٥. وقد
 ورد في هذين المصدرين (ابن الطريف) بالطاء المهملة، وفي المصدرين الأولين ابن (الظريف) بالضاء المعجمة.
 وإعتمدنا على هذين المصدرين في الجزء الأول والطبعة الأولى من هذا الجزء الثاني، والان نعتد على الفارقي وابن
 خلكان، سيما وأن الفارقي أقرب اليه زماناً ومكاناً.

(٥٥) الفارقي، ص١٦١-١٦٢. ورد اسمه في ص١٤٤ ابن الفضيبي وهو خطأ.

(٥٦) ابو الحسن علي بن حسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة اهل العصر، ج١، ص٢١٠-٢١١. انشد المقطوعة في
 غلام رومي، وصفه أيضاً الباخرزي بشاعر نصرالدولة.

سداد بن إبراهيم الجزري

كان (الظاهر أبو النجيب) سداد شاعراً رقيق الشعر لطيف الأسلوب، وكان من سكان جزيرة بوتان (جزيرة ابن عمر). مدح بشعره الملك البويهبي عضدالدولة والوزير المهلبلي. توفي سنة (٤٠١ هـ / ١٠١١ م) وأورد كل من ياقوت والكتبي (٥٧) ومن شعره في الحكم:

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره أحسنه
فدعه فقد ساء تديبه سيضحك يوماً ويبكي سنة

وفي (التراث العربي، ج ٢، ص ٣٧٧) للعلامة الدكتور مصطفى جواد أن اسمه (سدّاد) بالسين المهملة، على ما في الكتبي والصفدي ولقبه (الظاهر) بالطاء المعجمة، وقد تصحف اسمه ولقبه عند المؤرخين. فقد ذكره بـ(شداد) بالشين المعجمة و(الظاهر) بالطاء المهملة وأضاف أن البيتين (الأولين) له وليس لأبي العلاء المعري. وقد كتبهما ابن القارح في رسالته إلى المعري ونسبهما إليه. عمّر (سدّاد) كثيراً وأدرك سيف الدولة الحمداني.

حسن بن محمد الأمدي

هو أبو علي حسن بن محمد بن أحمد من سكان مدينة دياربكر (آمد). تربي وأخذ العلوم في كردستان أيام الدولة الدوستكية، ثم إنتقل إلى العراق وإلتقى به السمعاني ببغداد حوالي سنة (٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م) وكان في التسعين من عمره، وقال: انه فاضل غزير الادب والفضل قيم بصنعة الشعر عارف باللغة. وعرض على السمعاني بعض قصائده.

ترى الأمدي يبدي الحنين في قصائده نحو وطنه ويرسل الشوق إلى ربوعه الجميلة، التي قضى فيها أيام صباه وباقية من أيام شبابه. ونحن نلمس حنينه وأشواقه من الأبيات التالية، وهي من قصيدة له بديعة يفضل فيها آمد على بغداد بالعراق وعلى جبرون بالشام، يقول فيها:

(دياربكر) كان لي زمناً بها أبارك لهو يستفيض وعون
لا غرو أن رزقت هواك على الصبا تلك المعامل والقباب الجون
ياحبذا تلك القلاع وحبذا تلك البقاع وحبذا ليسون
هل أنت يا بغداد أحسن منظرًا أم (آمد) السوداء أم جبرون (٥٨)

وهو يحيي مدينة آمد في واحدة أخرى من قصائده (٥٩) ويقول:

(٥٧) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج ١١، ص ٢٧٠ وما بعدها. محمد بن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٤٠. راجع أيضاً محمد أمين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، ج ١، ص ٢٥٠. وقد ذكره ياقوت الحموي ومحمد أمين زكي بإسم (شداد) بالشين المعجمة وهو خطأ.

(٥٨) عماد الدين الاصبهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٤٦١. تسمى مدينة (دياربكر) الكردية بآمد السوداء لسواد سورها العظيم، لكونه من حجر البازلت البركاني التي قذف بها بركان جبل (قهرهزداغ- قهرهجوغ) الكبير الواقع جنوب غرب دياربكر.

(٥٩) ذكرها الاصبهاني في الخريدة، ج ٢، ص ٤٦١.

متى تحيا بلاد بالشام أقل حُييت يا (أمد) السوداء من بلد

أبو الفرج الزهرجي

كان أبو الفرج أحد الأدباء الفضلاء وكاتباً لنصرالدولة، ورد ذكره في رسالة ابن القارح وفي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري. كان الزهرجي السبب في تأليف كل منهما رسالته المشهورة، وبهذا أصبح كل منهما مديناً له. وكيفية ذلك أن ابن القارح إجتمع في مدينة دياربكر بأبي الفرج وتداولوا في الأمور الأدبية، وناقشه الزهرجي وابنه كما أطلعه الزهرجي على خزائنه كتيبه. ثم أنشأ الزهرجي رسالة أدبية في تقريظ ومدح ابن القارح ورسالة ثانية لأبي العلاء المعري سلمها إلى ابن القارح ليسلمه إليه، ولكن الرسالة الأخيرة سرقها من ابن القارح رجل رافقه وهو متوجه من دياربكر إلى حلب، حيث سرقها من جملة ما سرقه منه من الأشياء. فكتب ابن القارح رسالته إلى أبي العلاء يعتذر منه فيما آلت إليه رسالة أبي الفرج وتطرق إلى أمور أخرى (٦٠)، ووعد أبا العلاء في خاتمة رسالته أنه سيرسل إليه بعد وصول جوابه رسالة الزهرجي التي أنشأها في تقريظه ومدحه (أي مدح ابن القارح)، وذكر أن رسالته كانت من أكبر الأسباب لدخوله حلب.

أما أبو العلاء الذي ألف رسالة الغفران رداً على رسالة ابن القارح وأودعها فنون البلاغة، حتى إن الأدب العربي يعطيها مكانة سامية، وأبدى فيها أسفه على عدم وصول رسالة الزهرجي إليه، ودعا على ذلك السارق الذي وصفه بأنه: ارتكب أمراً شنيعاً وقطع من قلائد الأدب قلادة ثمينة، قاصداً بالقلادة رسالة الزهرجي (٦١).

رغم أن شيئاً من إنتاج أبي الفرج الزهرجي لم يصلنا، ولكن يفهم من فحوى رسالتي ابن القارح وأبي العلاء أنه كان من الأدباء الأفاضل ومن الكتاب البارعين، حتى عبّر أبو العلاء عن رسالته المسروقة بالقلادة الثمينة من قلائد الأدب العربي. ومن هذا يُفهم أنه كانت لأبي العلاء معرفة تامة بالزهرجي وقابليته الأدبية سواء عن طريق المراسلة أو عن طريق اللقاء. كما أن إختيار نصرالدولة إياه

(٦٠) قال ابن القارح في صدر رسالته (المطبوعة مع رسالة الغفران، ص ٢٢): "كان أبو الفرج الزهرجي كاتب حضرة نصرالدولة أدام الله حراسته كتب رسالة إلى أعطانيها ورسالة إليه (أي إلى أبي العلاء) أدام الله تأييده إستودعنيها وسألني إيصالها إلى جليل حضرته وأكون نافتها لا باعثها ومعجلها لا مؤجلها، فسرق عديلي رحلاً لي الرسالة فيه فكتبت هذه الرسالة أشكو أموري وأبث شقوتي وأطلعه على عجري وبجري. لقيت أبا الفرج الزهرجي ومعه خزانة كتيبه..."

ومن المجدد بالذکر أن لقاء ابن القارح بالزهرجي كان بعد وفاة أبي القاسم المغربي وزير نصرالدولة سنة ٤١٨هـ = ١٠٢٦م بحوالي ست سنوات، لأن أبا العلاء ألف رسالة الغفران رداً على رسالته بست سنوات علماً أن ابن القارح قد ذهب إلى فارقين سنة (٤١٧هـ) من مدينة ملطية بناءً على طلب الوزير المغربي، وكان بينهما معرفة قديمة حيث أنه كان معلم أخويه بمصر. كما ذكر في رسالته فلا ندري هل انه ظل في كُردستان إلى هذا الوقت، أي حوالي سبع سنين، أو انه غادرها ثم قدم إليها مرة ثانية، و إلتقى بالزهرجي. وفي رأبي أن الإحتمال الاول هو الاقرب. وتجدر الإشارة إلى إحتمال كون الزهرجي يهودياً لأن ابن القارح قال له لما اطلعه على مكتبته: إن كتبك كلها يهودية.

(٦١) المعري، رسالة الغفران، ص ٣٩٦. راجع نص كلامه بصدد أبي الفرج ودعائه على السارق وتأسفه على الرسالة المسروقة.

كاتباً له يدل على أنه كان من خيرة الكتاب. ولا ندري هل إنه هو أبو الفرج الخازن الذي ذكره ابن الجوزي أم أنه شخص آخر؟ (٦٢)

وأخيراً نرى في ضوء ما تقدم، أن لرسالة الغفران ذات الشهرة العالمية إرتباطاً وثيقاً بتاريخ الدولة الدوستكية، فلولا الزهري لما كانت رسالة الغفران ولولاه ولولا أبو القاسم المغربي وزير نصرالدولة، لما كان هذا العمل الكوميدي العظيم من أبي العلاء أعظم أديباء عصره (٦٣).

علماء مسيحيون

لا فرق عندي وأنا أكتب تاريخ العلم في هذا الجزء كُردستان في عهد الدولة الدوستكية بين عالم كُردي وآخر غير كُردي وبين عالم مسلم وآخر غير مسلم. لأن لكل عالم عاش في هذا الجزء من البلاد الكُردية إرتباطاً عضواً بالموضوع، ولكن بسبب عدم توفر المصادر المسيحية لدينا، ولا سيما المتعلقة بهذه الفترة، وقلة إهتمام المصادر الإسلامية بالتاريخ المسيحي ليست لدينا معلومات كثيرة بصدد العلماء المسيحيين في الدولة الدوستكية:

إيليا برشنايا النسطوري مطران نصيبين (٦٤)

كان إيليا من كبار العلماء المسيحيين ومن المؤلفين المعروفين في عصره. ولد سنة (٣٦٤هـ = ٩٧٤م) في مدينة (السن - قرديلاباد) غربي دجلة قبالة مصب الزاب الصغير في دجلة. أصبح أسقفاً لباهذرا في عام (٣٩٢م) ثم مطراناً لنصيبين عام (٣٩٩هـ = ١٠٠٩م). كان متضلعا في علوم عديدة تشهد على ذلك مؤلفاته ومناظراته العلمية مع الوزير أبي القاسم المغربي، التي حدثت بينهما بمدينة نصيبين في سبعة أيام. وقد دون إيليا كل ما دار في تلك المناظرات في كتاب عرف باسم (مجالس إيليا) وب(الرسائل الجدلية) أيضاً، وكان ذلك في سنة ٤١٧هـ = ١٠٢٦م). كان إيليا شخصية محترمة في الدولة، وخاصة أنه كان أبا الطيب زاهد العلماء منصور بن عيسى طبيب نصرالدولة ورئيس مستشفى فارقين. كان له أكثر من عشرين مؤلفاً، منها (كتاب الأزمنة) وهو يتكون من جزئين الأول في التاريخ، والثاني في الحساب والتقويم. والقسم السرياني من الكتاب مؤلف بالسريانية

(٦٢) ذكر ابن الجوزي في (المنتظم، حوادث سنة ٤٥٥هـ): ان أبا الفرج الخازن سقى الأمير سعيد بن نصرالدولة السم فمات بديار بكر، فاقترض نظام الدين من ابي الفرج وقتله. علماً أنه ورد خطأ في كلامه بصدد وفاة الأمير سعيد ويصدد كون نظام الدين هو نصر بن سعيد، ولعل الخطأ الأخير حدث من قبل النسخ. ومضى في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص ٢٧٨ من أن سعيداً مات مسموماً من قبل جارية نقلت عن الفارقي.

(٦٣) تاتي علاقة الوزير المغربي بالموضوع من حيث انه السبب الثاني في إرسال ابن القارح رسالته الى المعري، اذ بلغه ان المعري متدمر منه لما بلغه ان ابن القارح يذم المغربي بعد وفاته، وكانت بينهما صداقة متينة حتى إن المعري كان يتعصب للمغربي، فأراد برسالته أن يوضح له أخلاق صديقه المغربي.

(٦٤) يعرف أيضاً بإيليا ابن السن، والأخير تعريب (برشنايا). وإسم أبيه عيسى ومعنى برشنايا ابن السن أي بلدة السن التي ولد فيها.

والعربية، وفي مكتبتني نسخة مصورة منه على مخطوطة هذا الكتاب الكبير الموجودة في المكتبة البريطانية بلندن (BRITISH LIBRARY) تحت الرقم (٧١٩٧). وقد نشر كل من كابوت وبروكس دراسة حول تاريخه هذا في باريس سنة ١٩٠٩-١٩١٠. وقام الدكتور يوسف حبي بتعريبه وطبعه مجمع اللغة السريانية ببغداد سنة ١٩٧٥ بعنوان (تاريخ إيليا برشنايا). وله كتاب آخر في الموازين والمقاييس، كتب (سوفيرا) دراسة حول هذا الكتاب ونشرها سنة (١٨٧٧) وترجمها الى الفرنسية، وتوجد نسخة كاملة منه في جوتا، كما كتب (فيدمان) تحليلاً له سنة (١٩١٦). وإيليا مؤلفات أخرى بالسريانية والعربية (٦٥).

يوحنا ابن شوشان:

ولد في ملاطيه وإسمه يوشع الكاتب من أساتذته البطريرك يوحنا التاسع. برع ابن شوشان في العلوم اللغوية والدينية وفي الفلسفة. كان بليغاً وخطاطاً أصبح بطريركاً لليعاقبة (السريان الغربيين) في مدينة دياربكر (آمد)، التي نقل اليها مقر الكنيسة اليعقوبية من انطاكية في أواخر عهد الأمير نصرالدولة. وفي سنة (١٠٥٨م) بالذات سمي (يوحنا)، ثم اعتزل ثم اعيد الى منصبه الديني الأعلى سنة (١٠٦٣م)، وكان حسن السيرة والإدارة وعين سبعة عشر مطراناً وأسقفاً.

لإبن شوشان مؤلفات عديدة منها مقالة نقض فيها مذهب الملكيين، ورسالة علمية مجمعية الى بطريرك الأقباط، ورسالة جدلية الى جاثليق (بطريرك) الأرمن. وله أربعة قصائد في نكبة ملاطية

(٦٥) من مؤلفاته أيضاً القاموس السرياني العربي، وكتاب البرهان الصحيح في تصحيح الإيمان، والمعونة على دفع التهم، وتوجد منه نسخة مخطوطة بالسريانية بإسم (المعرفة عند دفع التهم) في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت الرقم (٣٤٣)، وفضيلة العفة، والحكم النافعة طبع في القاهرة من قبل أحد المستشرقين وهو (بولوسبات) سنة ١٩٣٦، ورسالة في حدوث العالم، ورسالة في الصلاة، ورسالة في الموارث، ورسالة في وحدانية الخالق، ومقدمات على الأناجيل، وخمسة شكوك وأجوبتها، وفرادى الفوائد، ورسالة رد بها على رسالة لوزير نصرالدولة ابي القاسم المغربي وهي غير مجالس إيليا، وحل بعض المسائل الإنجيلية. وله مؤلفات أخرى بالسريانية بحيث أن مجموع مؤلفاته المعلومة لدينا (٢٤) مؤلفاً وأثراً علمياً. وقد ذكر البطريرك أفرام برصوم في كتابه القيم (اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والاداب السريانية، ص١٢٦): "ان لإيليا كتاب الترجمان وكانت توجد نسخة منه بخط عبيدشوع أسقف (مدينته) الجزيرة سنة ١٥٤٧ في خزانة أفرام برصوم أو خزانة البطريركية اليعقوبية". ولا ندري هل انه قاموسه السرياني أو كتاب غيره.

توفي إيليا يوم الجمعة المصادف العاشر من محرم (٥٤٣٨هـ = ١٠٤٦م) ودفن جثمانه بجانب قبر أخيه رئيس الأطباء أبي سعيد منصور بن عيسى. من مطارنة الدولة إيشوعياب مطران نصيبين المتوفي سنة (٣٨٣هـ = ٩٩٣م) ومنهم يهبهالا الذي أسيم مطراناً لنصيبين إثر وفاة المطران إيشوعياب، وكان قبل ذلك أسقفاً لأبرشية نوهدر، التي تشمل منطقة دهوك وزاخو. توفي يهبهالا سنة (٣٩٨هـ = ١٠٠٨م) وأصبح بعده إيليا مطراناً لنصيبين. ذكرهما إيليا في تاريخه (ص ٢٠٠-٢٠٣) وذكر أيضاً (مارگريل) أسقف (أرزن) الذي أسيم مطراناً لأربيل وأثور (أي منطقة الموصل) وذلك سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م). لقد ذكر أيضاً في (ص ٢٠٥) أبا الحسن بن يسرايل الكاتب النصراني الذي قتل من قبل سكان نصيبين سنة (٤٠٨هـ = ١٠١٨م) في يوم الأحد السابع عشر من جمادى الآخرة. ولم يذكر ابن شوشان سبب قتله، ولكنه قال أن الأمير أبا الفضل حسام الدولة (يقصد بدران بن المقلد العقيلي المتوفي سنة ٤٢٥هـ) غضب على سكان نصيبين وقتلهم وقتل منهم أناساً كثيرين وصادر جماعة منهم وبدأ بعمارة قلعة نصيبين في نفس السنة، فمن المحتمل أن أبا الحسن بن يسرايل كان كاتباً لأبي الفضل أو أحد موظفيه المعتمدين.

على أيدي الأتراك السلاجقة، أي بصدد الجرائم التي إرتكبوها في هذه المدينة وذلك في سنة (١٠٥٨م)، وتوفي سنة (١٠٧٢م) في السادس من تشرين الثاني (٦٦).

علماء مسيحيون آخرون

من العلماء المسيحيين أيضاً عبديشوع، الذي كان أسقفاً لثمانين (ههشتيان) وتوابعها من منطقة جبل الجودي، وذلك في سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٥م). وإيشوعيب أسقف الجزيرة في السنة المذكورة أيضاً (٦٧). ويوحنا أسقف الجزيرة في أوائل القرن الربع الهجري (العاشر الميلادي)، وجبريل الشماس الذي كان أسقفاً لغرزان (أرزن) وتوابعها، والذي عُيّن مطراناً للموصل سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) (٦٨).

وفي أواخر العهد الدوستكي عين عبديشوع الجاثليق مطراناً في نصيبين وإستدعي الى بغداد في مهمة دينية، ولكنه تأخر سنتين لأنه كان في مدينة فارقين التي كانت تلك المدة محاصرة بالقوات السلجوقية، وكان عبديشوع معروفاً بإبن العارض (٦٩). من العلماء المسيحيين أيضاً (مار برصوما)، الذي كان من قرية الزيدية بنصيبين ودرس على المطران إيليا، ثم سافر الى مدينة دياربكر وأقام خمس سنوات في بيت النخوار بدياربكر، ثم عُيّن أسقفاً لمرعيشية ثمانين (ههشتيان) في أول جثلقة مار إيليا (٧٠).

وكانت أسرة النخوار أسرة مسيحية متمكنة حتى زمن الفارقي، أي النصف الأخير من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي)، ونشأ منها إبن الخمار الذي عينه نصرالدولة كاتباً لابنه الأمير محمد في دياربكر سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م).

الطب

بجانب إهتمام الدولة الدوستكية بالحياة الإقتصادية والعمرانية، فقد إهتمت بالعلوم ومن جملتها الطب وذلك لحاجة البلاد اليه، فأكرمت الأطباء وعززت مكانتهم وشجعتهم على ممارسة مهنتهم سواء بمداوة المرضى، أو بتركيب الأدوية وتحضيرها أو بتأليف الكتب القيّمة فيه وتزويد مستشفى فارقين

(٦٦) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، ص ٣٦٧. واتخذ البطريرك يعقوب الثالث سنة ١٠٧٢م بداية لعهد البطريركية ابن شوشان والصحيح انها نهايته ولعل الخطأ مطبعي. راجع كتابه (الحقائق الجليلة، ص ٧٢). بصدد جرائم السلاجقة في ملاطيه. راجع (تاريخ الرهاوي المجهول، ص ٢٣) مطبوع على الآلة الكاتبة بجمع اللغة السريانية ببغداد، ترجمة الأب پير أبونا، وفيه أن السلاجقة قتلوا عشرة آلاف شخص من ملاطية.

(٦٧) فطاركة كرسي المشرق، ص ١٣٠.

(٦٨) نفس المصدر، ص ١١٣.

(٦٩) نفس المصدر، ص ١٢٧.

(٧٠) نفس المصدر، ص ١٥٣.

ومدرستها الطبية بتلك المؤلفات.

لقد دفع تشجيع الدولة للأطباء وتقديرها لهم الى توجه عدد منهم الى كُردستان والإقامة فيها. فشيدت الدولة في عهد نصرالدولة مستشفى (بیمارستان) كبيراً في عاصمتها على أحدث طراز المستشفيات في عصرها. وزودته بكافة أدوات الطب ووسائله، كما زودته بالأدوية والعقاقير المعروفة آنذاك، ووقفت على هذا المستشفى الأملاك والعقارات الكافية بسد نفقاته والكفيلة بالحفاظ على بقائه فترة من الزمن. فكانت للمستشفى بهذه الصورة ماليته الخاصة.

من المحتمل جداً أن مستشفى فاروقين كان مقسماً الى أجنحة مختلفة للباطنية والعيون والكسور وغيرها، كالمستشفى العضدي في بغداد، الذي شيده الملك البويهي عضدالدولة وعين فيه (٢٤) طبيباً وكان أكبر مستشفيات عصره. ويحتمل أن الدولة الدوستكية، بحكم توسطها بين البلاد الإسلامية والبلاد البيزنطية المسيحية إستفادت من الجانبين في مجال الطب والمجالات الأخرى.

تأسيس مستشفى فاروقين

ذكر الفاروق في (ص ١٢٣) ان نصرالدولة بنى بیمارستان أي المستشفى سنة (٤١٤هـ) في العاصمة فاروقين، ولم يزد على هذا المقدار القليل الذي لا يستهان به في قيمته التاريخية. لكن الطبيب والمؤرخ المحقق -ابن ابي اصيبعة- قد خلد لنا معلومات قيمة بخصوص تأسيسه من قبل الأمير نصرالدولة إثر شفاء إحدى بنات الملك الدوستكي من مرض شديد، وذلك على يد الطبيب الماهر زاهد العلماء، وذكر ذلك في قصة طريفة. وإليك ما قاله هذا المؤرخ على ما تحدث له الطبيب سديد الحاني الذي ذكرناه في موضوع الصناعات الميكانيكية: "وحدثني الشيخ سديدالدين بن رقيقة الطبيب سبب بناء بیمارستان ميفاروقين هو ان نصرالدولة بن مروان لما مرضت ابنة له وكان يرى لها كثيراً فألى على نفسه انها متى برئت ان يتصدق بوزنها دراهم، فلما عالجها زاهد العلماء وصلحت اشار على نصرالدولة ان يجعل جملة هذه الدراهم التي يتصدق بها تكون في بناء بیمارستان ينتفع الناس به ويكون له بذلك أجر عظيم وسمعة حسنة. قال فأمره ببناء بیمارستان وانفق عليه أموالاً كثيرة ووقف له أملاكاً تقوم بكفائته وجعل فيها من الآلات وجميع ما يحتاج اليه شيئاً كثيراً فجاء لا مزيد عليه في الجودة" (٧١).

(٧١) ابن ابي اصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٥٨. اشير بهذه المناسبة الى المخطوطة (قصة ابنة ملك فاروقين) كي يكون الباحث على علم بمحتوى هذه القصة ولا يظن انها قصة ابنة نصرالدولة، قصة مرضها الذي أصبح سبباً لبناء مستشفى فاروقين. وجدت في كتاب رسائل أحمد تيمور الى الكرمل، جمع ونشر الأستاذ جورجيس عواد، ان العالم الكردي الاصل احمد ابن اسماعيل باشا يخبر الاب انستاس الكرمل في احدى رسائله ان لديه مجموعة مخطوطة تضم (٣٧) قصة من بينها قصة ابن ملك ميفاروقين، فظننت انها قصة ابنة نصرالدولة، وعلمت ان ذلك الكتاب او المجموعة هي الآن في مكتبة تيمور بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم (١٥). فأرسلت كتاباً الى الأستاذ الفاضل الدكتور محمد الشنيطي مدير دار الكتب ملتصقاً منه أن يزودني بنسخة مصورة. فزودني بها مشكوراً وهي تقع في (١١) صفحة. ولما أطلعت عليها ظهر لي ان هذه القصة مروية عن اسحق النديم حكاهها=

لاشك أن مستشفى فارقين هذا كان يتمتع بأهمية تاريخية وحضارية كبيرة. أما الذي أشرف على بناء المستشفى فحسب قول ابن ابي اصيبعة انه كان زاهد العلماء (أبا سعيد). أما الفارقي فعبارة غير واضحة. إذ عندما قال ان نصرالدولة بنى البيمارستان وجدد الجامع أردف ذلك بقوله: "وتولى عمارته أبو السعيد الكبير الكاتب ابن بختيشوع الخازن". فلا ندري الى أي منهما يعود ضمير الغائب في عبارته. وأخذنا بـ(القريب أولى من البعيد) فذكرنا سابقاً أنه تولى تجديد الجامع. وان كان القصد بالمرجوع اليه (البيمارستان)، فإنه إلتبس بين (أبي سعيد زاهد العلماء) و(أبي السعيد بن بختيشوع)، ولذلك نرجح قول ابن ابي اصيبعة. ولكن يمكن الجمع بين الإثنين وذلك بأن جعل زاهد العلماء بانياً وابن بختيشوع مشرفاً على البناء، خاصة إن كان ابن بختيشوع هذا الطبيب أبا سعيد عبيدالله ابن بختيشوع. ومعروف بأن اشراف طبيب على بناء المستشفى مراعاةً للجوانب الصحية في البناء أولى من إشراف غير الطبيب. هذا ويحتمل جداً أن الدولة الدوستكية أسست مستشفيات أخرى

=لهرون الرشيد وبظلة القصة هي (شمس النهار) بنت ملك ميفارقين. أما بظله فأحمد بن علي الجوهري، الذي كان حسيماً في القصة ابن احد تجار بغداد البارزين واحد النابغين سمع ان الملك قرر ان يزوج ابنته الشهيرة بجمالها وعلمها ودكائها لكل من يجيب على أسئلتها العلمية في محفل يحضره هو وكبار رجال دولته والقضاة والعلماء... ومن عجز عن حلها قتله. فبأتى بطل القصة الى فارقين ويجيب في إجتماع كبير على أسئلتها، ثم يزوجه إياها الملك ويجعله ولي عهده كما هو مفصل في القصة.

أخبرني الأستاذ الدكتور شاكور مصطفى الأستاذ بجامعة الكويت في رسائله أنه توجد عدة قصص في أواخر النسخة المصورة من النسخة المخطوطة من تاريخ الفارقي التي يمتلكها. فطلبت منه تزويدي بها إن كان لها علاقة بالدولة الدوستكية او المجتمع الكردي، ولكنه أخبرني بعدم علاقتها بهما. وكان في نيتي ان افرد موضوعاً للجانب الفولكلوري من التاريخ الدوستكي. إذ أن بعض القصص الكردية الحية في كردستان الآن، يعود تاريخها الى عهد الدولة الدوستكية، مثل قصة زواج الأمير أحمد بن نظام الدين في الأسر وإعطائه علامة لزواجه البيزنطية او الفرنجية عندما رجع الى كردستان، كي تعطيهما لولده الطفل اذا كبر ليعود الى كردستان ويبحث عن والده. ولما كبر ابنه وكان قد سماه محمداً، اخذ العلامة واقبل من البلاد الافرنجية (الأوروبية) الى كردستان ليبحث عن والده. فوجده أميراً في قلعة هتاخ، وزوجه ابوه ورزق ولدين هما الامير ابراهيم والامير حسن، وقد رأهما المؤرخ الفارقي الذي روى في (ص ٢٥٣) هذه القصة الطريفة، التي نجد ما يشابهها في الأفلام السينمائية. وأصبحت قصة الأمير احمد هذه معروفة في كردستان يتناقلونها جيلاً بعد جيل. راجع الجزء الأول، ص ٣٤٥-٣٤٦. هذا علماً بأن الامير احمد الذي وصفه الفارقي بالفروسية وصاحب المقامات البطولية الشهيرة أسر في قلعة انطاكية في الحروب الصليبية، وذلك في ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م، إثر فشل الحملة القوية التي قادها كربوقا السلجوقي على القوات الصليبية في أنطاكية. وكان الأمير احمد قائداً لقوات القلعة المطلة عليها. ويرى ستيفن رنسيمن، ان الامير احمد كان على إتصال سابق بالقائد الصليبي بوهمند، فاستسلم له واعتنق الديانة المسيحية. راجع كتابه، الحروب الصليبية، ج ١، ص ٣٥٤. وإن كان هذا صحيحاً، فإن هدف إنضمامه الى القوات الصليبية ربما كان لإحياء دولته إذا تمكنوا من إحتلال كردستان الوسطى، علماً بأن نفوذهم وصل الى حدودها.

أما قصة (زهبييل فرّوش) الشهيرة في كردستان، فهي الأخرى تعود الى عهد الدولة الدوستكية. ويتضح من القصة المطبوعة أن زهبييل فرّوش هو الأمير سعيد بن الأمير حسن (والصحيح بن نصرالدولة). وقد ذكر بسري كونياري في ج ٢، ص ٣٠٨ و ٣١٩ ان القصة حدثت في فارقين على ما هو مشهور بين سكانها. وقد أشرت الى هذا بموجز في الجزء الأول، ص ٣٦٦، ولكني كتبت تحقيقاً مفصلاً بهذا الخصوص ترجمه الى اللغة الكردية السيد أحمد تاقانه أحد الأدباء الكرّدي ونشره في جريدة (هاوكاري) العدد (١٨٨). وفي أب صورت قلعة زهبييل فرّوش في فارقين حسبما يسميها السكان، وهي الجدار الشمالي من (برج الملك) الذي كان فيه قصر نصرالدولة.

في بلادها، لاسيما في المدن المهمة، ولكن لم يصل إلينا أي نص تاريخي بهذا الصدد. إذا ألقينا نظرة على مستشفى فارقين، نجد أنه قد بقي عامراً رغم عواصف الزمن الى عهد مؤرخنا أحمد بن يوسف الفارقي. اذ وجد الأمير ابا سعيد بن الأمير حسن بن نصرالدولة راقداً فيه لمعالجة عينه، حيث أصيبت بالعمى (٧٢).

يحتمل أن المستشفى ظل عامراً الى زمن ابن ابي اصيبعة المتوفي سنة (٦٦٨هـ = ١٢٧١م)، أي حوالي ثلاثمائة سنة من تاريخ بنائه، لأنه حينما يتحدث عن هذا المستشفى لا يذكر انه اتى عليه الخراب، رغم قوله أنه زار مدينة فارقين. من أسباب بقاء المستشفى عامراً بعد زوال الدولة الدوستكية بمدة طويلة، فيعود الى أوقافه التي أوقفها عليه نصرالدولة. لأن واردات أوقاف المستشفى تكفلت بسد نفقاتها والمحافظة عليها لصفها على الترميمات وشراء الأدوية والآلات والأجهزة الطبية وطعام المرضى. كما يعتقد ان رواتب الأطباء والمستخدمين كانت تدفع من واردات أوقافه وهي مالية المستشفى الخاصة. ولما كانت ولا تزال أملاك الوقف لدى المسلمين يحرم إغتصابها وبيعها وصرف وارداتها في غير وجهها الشرعي فإنها تبقى قروناً عديدة، فيبقى بواسطتها الموقوفة عليه من المساجد والجسور والمستشفيات وغيرها. لأن تلك المنشآت كانت تُعمر بواردات تلك الأوقاف عند الحاجة. ولهذا السبب إتخذ نصرالدولة المحب للإعمار والبناء كثيراً من القرى والعقارات وقفاً على المساجد والجسور والأسوار والمدن وغيرها، حرصاً منه على بقائها زمناً طويلاً آثاراً خالدة من حضارة تلك الدولة الكرديّة.

مدرسة الطب

كانت مستشفى فارقين تشتمل على جناح خاص لتدريس علم الطب مما نستطيع تسميته بـ(مدرسة الطب)، وإعتبارها لذلك أقدم مدرسة طبية في كُردستان. وقد سماها ابن ابي اصيبعة بـ(مجلس العلم). وكان الطب يدرّس في المستشفيات، كما ان علوم الفقه والحديث والتفسير والعلوم العربية وغيرها كانت تُدرّس حتى ذلك الحين في المساجد والجوامع والرُبط. إذ لم تكن في البلاد الإسلامية مدارس مستقلة ومنفصلة عن الجوامع والمستشفيات. كما لم تكن لدى المسيحيين مدارس مستقلة عن الأديرة والكنائس. وقد أجمع المؤرخون تقريباً على أن أول من بنى المدارس في الإسلام مستقلة عن المساجد، كان نظام الملك الطوسي وزير الملك السلجوقي ألب أرسلان، ثم توزر الملكشاه وذلك في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري. وقد أورد التاريخ ذكر مدارس محدودة قبله، كمدرسة العالم المشهور ابن فورك المتوفي سنة (٤٠٦هـ)، والمدرسة البيهقية في نيسابور نسبة الى البيهقي المحدث المشهور المتوفي سنة (٤٥٠هـ). ولكن نظام الملك يعتبر أول من بنى المدارس، لأنه شيد مدارس كثيرة في البلاد، وكان ينفق في سبيل العلم سنوياً (٦٠٠) ألف دينار (٧٣)، حتى إنه شيد

(٧٢) تاريخ الفارقي، ص ١٨٥.

(٧٣) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٩٦.

مدرسة في مدينة الجزيرة (٧٤) التي تعد أقدم مدرسة مستقلة بهذا المعنى في كُردستان. ويحتمل أن نظام الملك بنى تلك المدرسة أثناء قدومه الى البلاد الدوستكية مع ألب أرسلان في سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧٣م) أو إثر القضاء على الحكم الدوستكي.

بصدد كون المستشفيات تضم قديماً مدارس الطب، نورد فيما يلي ما ذكره المؤرخ جرجي زيدان: "مارستان أو بيمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرض ويقابله اليوم المستشفى، ولكن المارستان كانت في التمدن الإسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها" (٧٥). و"كان رئيس الأطباء يجلس لإلقاء درس الطب" (٧٦).

فعلى هذا كان في مستشفى فارقين مدرسة طبية يدرّس فيها الأطباء علم الطب، ومنهم زاهد العلماء رئيس المستشفى. فقد كان يلقي في المدرسة، التي عبر عنها ابن ابي أصيبعة بـ (مجلس العلم)، المحاضرات الطبية، وقد جمع محاضراته تلك فشكّلت الجزء الثاني من كتابه (الفصول والمسائل والجوابات)، الذي ألفه في فارقين. وبهذا الصدد قال ابن أبي أصيبعة: "... ولزاهد العلماء من الكتب كتاب البيمارستانات وكتاب في الفصول والمسائل والجوابات وهو جزءان، الأول يتضمن ما أثبتته الحسن بن سهل مما وجد في خزائنه من رقاع وكراريس وأدراج وغير ذلك من المسائل والجوابات. والجزء الثاني على جهة الفصول والمسائل وجوابات أجاب بها في مجلس العلم المقرر في البيمارستان الفارقي" (٧٧).

لاشك أن مدرسة الطب في فارقين، التي كانت ترعاها الدولة، كان لها دور في نشر الطب وتخرج الأطباء وإزدياد عددهم في كُردستان. والجدير بالذكر أن مدارس الطب في العالم الإسلامي، بما فيها مدرسة فارقين، كان التدريس فيها على منهجين، منهج نظري في المدارس الطبية ومنهج علمي للتدريب والتمريض يجتمع فيه الطلاب حول رئيس الأطباء. فيرون كيف يفحص المرضى وما يصف لهم من علاج. وإذا اجتاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للإمتحان ونالوا الشهادة، ولكنهم كانوا تحت رقابة الدولة في ممارستهم دائماً. أما مسألة اليمين، فقد كانت قديمة حيث كان الطبيب اليوناني أبقراط يستحلف الطلاب قبل أن يبوح لهم بأسرار الطب (٧٨). وكان هذا النهج يطبق دون شك في مدرسة فارقين الطبية.

(٧٤) ابو شامة، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، ج ١، ص ٢٥، طبع مصر ١٢٨٧هـ.

(٧٥) جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٩٦ وكذا قاله جاك. س. ريسلر.

(٧٦) جاك. س. ريسلر، الحضارة العربية، ص ١٩٤.

(٧٧) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٧٨) الدكتور عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٨٨، ٢٧٦.

الأطباء

لقد قام أطباء مستشفى فارقين ومدرستها الطبية بدور فعال في مجال التأليف في علم الطب. فبجانب نشاطاتهم في معالجة المرضى ونشر الطب في البلاد، ألفوا الكتب في كيفية تحضير الأدوية وتركيبها (أقرباذين) (٧٩) وفي المستشفيات وتنظيمها. كما ألفوا الكتب في بعض الأمراض كأعراض العيون وطرق معالجتها، وفي أسماء الأمراض وإشتقاقاتها، وفي القضايا الجنسية من الناحية الصحية، وفي الطرق التمهيديّة لتعلم الطب بالنسبة للطلاب، أي في أصول تعليم الطب. فقد ألف الطبيب ابن دينار كتاباً قيماً في تحضير الأدوية، وألف رئيس الأطباء زاهد العلماء كتاباً في البيمارستانات وفي الطرق التمهيديّة لتعلم الطب، وفي أمراض العيون وكيفية معالجتها. كما ألف الفضل بن جرير التكريتي في أسماء الأمراض وألف أخوه أبو نصر في القضايا الجنسية من الناحية الصحية وفي التاريخ والنجوم.

وأما الأطباء الذين عثرنا على أسمائهم وعلى نبذة من حياتهم وأعمالهم، والذين مارسوا الطب في الدولة الدوستكية، فكلهم مسيحيون ما عدا ابن دينار، حيث لا نستطيع البت في كونه مسيحياً لأننا لم نجد نصاً يدل على ذلك. هذا في حين أن احتمال كون المذكور مسيحياً أكثر توقفاً من غيره، وأذكر في هذا الموضوع نبذة عن حياة كل واحد من هؤلاء الأطباء إجلالاً لهم وإكمالاً للموضوع نفسه.

جبرائيل بن بختيشوع

هو الطبيب أبو عيسى جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل، كان من أسرة بختيشوع السريانية الشهيرة (٨٠) في تاريخ الطب وأقدم أطباء الدولة الدوستكية الذين نعلم بهم. قدم إلى البلاد الدوستكية سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) في عهد مهرداد الدولة سعيد بن مروان قبل تأسيس مستشفى فارقين. كان والده طبيباً للخليفة العباسي المعتذر. درس الطب في بغداد على يد الطبيب هرمزد وعلي بن يوسف الواسطي. برع في الطب وذاع صيته وعلت منزلته عند الملك البويهبي عضدالدولة، الذي قرّبه إليه. كان من الأطباء العاملين في البيمارستان العضدي ببغداد، ولما مرض الوزير العالم (الصاحب بن عباد) في مدينة الري (طهران القديمة)، إختاره عضدالدولة من بين أطباء بغداد لإجادة اللغة الفارسية ومهارته في المعالجة، وأرسله ليداوي الوزير. وجمع ابن عباد العلماء لمناظرته، فأظهر جبرائيل تضلعاً في علم الطب بما أعجب الحاضرين، فخلع عليه وطلب منه أن يؤلف

(٧٩) ورد في دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص٤٦٣، طبع طهران. أن كلمة (أقرباذين) اخذت من الكلمة السريانية (جرفاذين) وأصلها يونانية تعني الرسالة الصغيرة، وقد عرّفها عيسى بن علي بأنها رسم الأدوية أو النسك أو المجموع. والحاصل أن أقرباذين هو الكتاب المؤلف في الأدوية الطبية كما يفهم من كلام ابن أبي أصيبعة في الترجمة التالية لحياة ابن دينار. وفي كشف الظنون، ج١، ص١٣٦ ان أقرباذين لفظ يوناني بمعنى التركيب أي تركيب الأدوية وقوانينها.

(٨٠) لفظ (بختيشوع) بفتح الباء وسكون الحاء وكسر التاء وسكون الياء، إسم سرياني بمعنى (عبدالمسيح). راجع المساعد، ج٢، مادة «بختيشوع».

له في الطب (كُنَاشاً) (٨١) يختص بذكر الأمراض العارضة من الرأس الى القدم. فألف له كتاب (الكناش الصغير) في مائتي ورقة، فأجازه بما قيمته ألف دينار. عاد بعد ذلك الى بغداد في غلمان وثروة، فسُرَّ بذلك عضدالدولة وخرج أطباء بغداد لإستقباله. وبعد ثلاث سنوات أرسله عضدالدولة الى بلاد الديلم لمعالجة خسروشاه، وطلب منه الأخير أن يؤلف تقريراً في كتاب عن المرض الذي أصيب به. فألف (مقالة) في ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس.

رجع جبرائيل الى بغداد ثم سافر الى بيت المقدس وطلب منه الخليفة الفاطمي (العزير بالله) أن يتوجه الى مصر ويقيم عنده ولكنه رفض الطلب. وكانت له رجوع وأسفار أخرى، الى أن لاطفه أخيراً ممهدالدولة. فذهب الى فارقين في سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) حيث لقي تقديراً كبيراً هناك (٨٢)، وظل يمارس الطب في العاصمة الدوستكية الى أن توفي سنة (٣٩٣هـ = ١٠٠٢م) بعد أن بلغ من العمر خمساً وثمانين سنة، ودفن في المصلى خارج سور فارقين.

وللطبيب جبرائيل بن بختيشوع عدا المؤلفات المذكورة، مؤلف الكناش الكبير في خمس مجلدات وهو أهم مؤلفاته الطبية، وكان من المؤلفات الطبية التي إعتمد عليها الأطباء وإستفادوا منها. وله مقالة في إسقاط البدن ألفه لابن عباد بناءً على طلبه أثناء رجوعه من عند خسروشاه، وكتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة، ورسالة عصب العين، ومقالة في الدم، ومقالة في الرد على اليهود، وله مقالات وآثار أخرى (٨٣).

عبيدالله بن بختيشوع

هو أبو سعيد عبيدالله ابن الطبيب جبرائيل المذكور، ولعله بعد وفاة والده لم يغادر كُردستان، بل ظل يمارس الطب في فارقين. ويحتمل أنه درس الطب على يد والده حتى أصبح من الأطباء البارزين ومن أصحاب المؤلفات العديدة. كان فاضلاً في صناعة الطب مشهوراً بجودة الأعمال متقناً لأصولها وفروعها ومن جملة المتميزين. كان جيد المعرفة بعلوم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة بصناعة الطب، وله تصانيف منها:

١- مقالة في الإختلاف بين الألبان ألفها لبعض أصدقائه سنة ٤٤٧هـ.

٢- كتاب مناقب الأطباء: ذكر شيئاً من أحوالهم ومآثرهم ألفه سنة ٤٢٣هـ.

(٨١) الكُنَاش، كلمة سريانية معناها المجموعة أو المذكرات سمي بعض الحكماء كتبهم بالكُنَاش. راجع الحفاجي (شفاء الغليل، ص ١٩٩).

(٨٢) ذكر القظفي قصة طريفة وقعت بين جبرائيل ومهدالدولة وخلصتها، أنه أعطي له دواءً مسهلاً في إحدى الليالي. ولما زاره في الصباح قال ممهدالدولة ممتحناً له لم يكن للدواء أي تأثير، فقال الطبيب لا بد أنه يعمل معك خمساً وعشرين مرة، ثم إعترف الممهد بتأثيره فغضب الطبيب من إمتحانه له، لأنه طبيب شهير لا يحتاج الى إمتحان فشد رحله ليغادر فارقين، فأبلغ ممهدالدولة بذلك، فجاء إليه وإعتذر منه وأعطاه بغلة ومبلغاً من النقود فقبل إعتذاره ولم يسافر.

(٨٣) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٢٠٩-٢١٤.

- ٣- كتاب الروضة الطبية: كتبه الى أبي الحسن محمد بن علي، وقد طبع بمصر سنة ١٩٢٧ ويقع في (٥٠) باباً مثل الجنس والفصل والجوهر والفكر والحركة والزمان والمكان والكم والكيف وغيرها. وهذا الكتاب كما ذكره المؤلف في مقدمته مختصر لكتابه تذكرة الحاضر.
- ٤- كتاب التواصل الى حفظ التناسل، ألفه سنة ٤٤١هـ.
- ٥- رسالة الى الأستاذ أبي طاهر بن عبد الباقي المعروف بابن قرطمين، جواباً على مسألته في الطهارة ووجوبها.
- ٦- رسالة في بيان وجوب حركة النفس.
- ٧- كتاب نوادر المسائل المقتضية من علم الأوائل في الطب.
- ٨- كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر.
- ٩- كتاب الخاص في علم الخواص.
- ١٠- رسالة في تاريخ حياة جالينوس حقق فيها مفصلاً فيما اختلف فيه المؤرخون بصدده حياته واعتمد على الرسالة القفطي في ترجمة حياة جالينوس.
- ١١- منافع الحيوان: ذكره ابن أبي أصيبعة بإسم طبائع الحيوان وخواصها ومنافعها وأضاف بأنه ألفه للأمير نصرالدولة (٨٤) وتوجد الآن نسخ عديدة من هذا الكتاب، الذي لقي الشهرة والإستحسان. وقد تمت ترجمته الى الفارسية، كما عني به المصورون في القرون الوسطى حيث يعتبر بنسخه العديدة من المخطوطات المهمة المزوقة بالرسوم، وفي مكتبتي نسخة مصورة من هذه المخطوطة (٨٥). وفي الصفحة التالية صورة الصفحة الخامسة منها وفيها يشاهد السلطان محمود غازان على عرشه وحوله خدمه، وصورة أخرى لحيوانين من (منافع الحيوان).
- الجدير بالذكر أن الفارقي ذكر شخصاً بإسم أبي سعيد الكبير الكاتب بن بختيشوع الخازن (٨٦)، ولكنه لم يشر الى كونه طبيباً، ومن المحتمل أنه هو عبيدالله. وفي مخطوطة (الأعلاق الخطيرة) أبو سعيد حرث بن بختيشوع، وهو الذي بنى بيمارستان (مستشفى) فارقين (٨٧). كان عبيدالله مؤرخاً
- (٨٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٢١٤، طبع بيروت، ١٩٦٥.
- (٨٥) في مكتبتي نسخة مصورة من منافع الحيوان، والنسخة الأصلية موجودة في نيويورك بمكتبة (مورغان) تحت الرقم (M500)، والنسخة الفارسية ترجمها من العربية عبد الهادي بن محمد محمود المراغي بأمر من السلطان محمود غازان حفيد هولاء. تقع المخطوطة في (٨٣) ورقة وتحتوي على (١٠٠) لوحة فنية لرسوم حيوانية وأدمية مختلفة عدا الزخارف. وقد قام بتصوير النسخة أكثر من رسام وعلى النسخة ختم الأمير الكردي البديسي شمس الدين بن ضياء الدين الروشكي وكتبت سنة ٦٧٤ أو ٦٧٧ هـ، إذ أن رقم الأحاد مشوه لا يظهر منه سوى حرف العين، والروشكي ليس مصوراً على ما أخطأت في الطبعة الأولى. وقد وصل الي كتاب من معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة مرقم (٣٥١-١-١٢) بتاريخ ١٧/٨/١٩٧٥ يفيد ان اسم هذا الكتاب هو: عقد الجمال في طباع منافع الحيوان والإنسان، حيث ان لدى المعهد نسخة مخطوطة مصورة على مخطوطة دار الكتب المصرية تقع في (٨٣) ورقة ومسرتها (١٦) سطراً ولم يأت في مقدمتها إسم أحمد بن مروان.
- (٨٦) الفارقي، ص ١٢٣.
- (٨٧) مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢.



السلطان محمود غازان- منافع الحيوان



حيوانات من (منافع الحيوان)

إضافة الى كونه طبيباً ماهراً، فكتابه (مناقب الأطباء) كان مصدراً مهماً في تاريخ الطب. وتتجلى لنا أهمية الكتاب من كونه أصبح مصدراً مهماً لابن أبي أصيبعة والقفطي في تراجم كثير من الأطباء. وقد اعتبر كتابه هذا من الكتب المفقودة، ولكن ليس ببعيد العثور عليه في المستقبل. وقد توفي عبيدالله بعد سنة ٤٥٠هـ (٨٨).

زاهد العلماء

هو الطبيب أبو سعيد منصور بن عيسى النسطوري أخو المطران إيليا برشنايا الذي مر ذكره. كان طبيب نصرالدولة الذي كان يقدره كثيراً. وكان له الفضل في تأسيس مستشفى فارقين، الذي كان رئيساً لها ولأطبائها. له من المؤلفات ماعدا (كتاب البيمارستانات)، وكتاب الفصول الذي مر ذكرهما (كتاب فيما يجب على المتعلمين لصناعة الطب تقديم علمه) وهو عبارة عن منهج لتعليم الطب، وكتاب في أمراض العين وكتاب في المنامات والرؤيا. توفي زاهد العلماء قبل سنة ٤٣٨هـ = ١٠٤٦م) ودفن في بيعة فارقين (٨٩).

إبن دينار

كان أحد أطباء مستشفى فارقين في عهد نصرالدولة. كان طبيباً صيدلانياً خبيراً في صناعة الأدوية وتحضيرها. اخترع دواءً اشتهر به (الشراب الديناري) إنتشر في الأقطار المجاورة على أيدي الأطباء لما لقيه من نجاح. فكانوا يستعملونه حتى زمن الطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة، أي الى القرن الثالث عشر الميلادي وبعده. وكان ابن دينار قد صنع شرابه من أكثر من عشرين مادة وهو دواء لعدة أمراض. ألف ابن دينار كتاب (أقرباذين) في كيفية تحضير الأدوية أي في (علم الصيدلة). وقال المؤرخ المذكور في ترجمته وقد وجد كتابه المذكور: "... كان بميفارقين في أيام نصرالدولة بن مروان وكان فاضلاً في صناعة الطب جيد المداواة خبيراً بتأليف الأدوية، ووجدت له أقرباذيناً بديع التأليف بليغ التصنيف حسن الإختبار مرضي الإختبار. وإبن دينار هذا هو الذي ألف الشراب المنسوب اليه المعروف بالشراب الديناري المتداول إستعماله والمشهور بين الأطباء وغيرهم والمذكور في كتابه هذا..." (٩٠). وكذا قال الخفاجي وشمس الدين سامي، حيث ذكر انه مخترع الشراب الديناري

(٨٨) راجع بصدد ترجمة حياة عبيدالله المصادر التالية: القفطي، تاريخ الحكماء الصفحات ١٢٦، ٢٥٦، ٢٦٣. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٠٩١، ١٨٣٦. أفرام برصوم، نوابغ السريان، ص ٨٨. الزركلي، ج ٤، ص ٣٤٥. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ٥، ص ٢٣٨. رفايل بابو اسحاق، أحوال نصارى بغداد، ص ٢١٣. مجلة المشرق، مجلد ١٢، حوالي ص ٤٨٦. دوميلي، العلوم عند العرب، ص ٢٤١. وفي إيضاح المكتون، ج ٢، ص ٣١١ لإسماعيل باشا بابان: أنه توفي سنة (٤٥٠هـ) وفي ص ٦٨١ توفي سنة (٤٥١هـ)

(٨٩) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٥٨. إيليا مطران نصيبين، الرسائل الجدلية، الورقة الأخيرة من النسخة المخطوطة، وكذلك النسخة المنشورة في مجلة المشرق الأعداد الخمسة الأولى لسنة ١٩٢٢. أخبار فطاركة كوسي المشرق من كتاب المجلد لعمر بن متي، ص ٩٩. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ١٣، ص ١٨. محمود ياسين، الإمارة المروانية في ديار بكر والجزيرة، ص ١٩٧. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦. إسماعيل باشا بابان، هدية العارفين، ج ٢، ص ٤٧٣. قال خطأ انه توفي بعد سنة ٤٦٠هـ.

(٩٠) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٤٣. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج ٢، ص ٦٢٥.

المشهور^(٩١). وهكذا يتضح مما تقدم مدى مساهمة هذا الطبيب الكردي في الطب ومشاركته في هذه الخدمة البشرية، وكذلك مشاركة الدولة الدستورية والشعب الكردي في الحضارة الإنسانية.

أبو نصر يحيى بن جرير

كان أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي^(٩٢) أحد أطباء الدولة الدستورية وأحد أطباء مستشفى فاروقين. كان طبيباً نطاسياً له مؤلفات في عدة علوم منها الطب والتنجيم والتاريخ والرياضة البدنية، مما يدل على سعة علمه وعلو مكانته. من مؤلفاته كتاب الباه ومنافع الجماع ومضاره، ورسالة في منافع الرياضة ووجهة استعمالها، والمختار من كتب الإختبارات الفلكية ألفه لسديد الدولة أبي الغنائم عبدالكريم^(٩٣) ورتبه على فصول كثيرة^(٩٤).

وله أيضاً كتاب المصباح المرشد إلى الفلاح، والنجاح الهادي من التيه إلى سبيل النجاة في^(٥٤) فصلاً ذكر فيه معتقدات المسيحية وأسرارها وآدابها، وكان كتاباً مهماً في نظر المسيحيين. وله كتاب علم الفقه وإعتقاد أئمة النصارى، وفي دير الزعفران القريب من ماردين قوانين بيعية منسوبة إليه وله مقالة في صلب المسيح. وقد أشار أبو النصر في كتاب المصباح المرشد إلى اثنين من مؤلفاته وهما

(٩١) شهاب الدين أحمد الخفاجي، شفاء الغليل، ص ٩٨، ١٩٠، ١٠١. وفي ج ٢، من تذكرة أولي الألباب ذكر الطبيب داود الأنطاكي أن شراب الدينار صنعه بختيشوع (الطبيب)، أي جد أسرة بختيشوع كما يفهم لكن ابن أبي أصيبعة وغيره قالوا أنه للطبيب ابن دينار، فمن المحتمل أن يكون ابن دينار أيضاً من أسرة بختيشوع. أما تركيب هذا الشراب الشهير بمفعوله، فقد ذكر داود الأنطاكي أنه يصنع من المواد التالية: أمير باريس ويزر الهندباء ومن كل عشرة وعود سوس أربعة ويزر كشوت وورد منزوع القمعاق وقنطريون ودقيق المصطكي ودارصيني وفوتنج وصندل ولك وزعفران وطباشير وعود هندي و(أحياناً) الرازيانج والشبث ولسان ثور والزبيب وراوند وأسارون. وذكر الأنطاكي أن هذا الشراب جيد للحصيات والعفن وما في أعماق البدن من الأخلط الفاسدة وضعف المعدة والكبد. وفي ذيل تذكرة أولي الألباب، ص ١٧٣، وهو تأليف أحد تلامذة الأنطاكي إسمه غير معلوم ومطبوع مع التذكرة. زيادة (زهر نيلوفر) والسكر ومقدار بذر الهندباء ستون درهماً ومقدار الورد ستون درهماً أيضاً ويزر كشوت خمسة عشر درهماً وخمسة أرطال سكر. وهكذا يتضح مما تقدم مدى مساهمة هذا الطبيب الكردي في دفع الطب إلى أمام ومشاركته في هذه الخدمة البشرية، وكذلك مشاركة الدولة الدستورية والشعب الكردي في الحضارة الإنسانية.

(٩٢) روي إسم أبيه جرير وحرير.

(٩٣) كان سديد الدولة ابن الوزير ابو الفضل الاتباري (ابراهيم بن عبدالكريم) وأخ الوزير ابي طاهر وكلاهما من وزراء الدولة الدستورية. ساءت أحوال سديد الدولة وأخيه بعد زوال الدولة الدستورية، حيث اعتقل اخوه في حصن كيفا من قبل ابن جهير ولما عزل الأخير سنة (٤٧٩هـ) عن ولاية ديار بكر، توجه سديد الدولة إلى أصبهان واتصل بالسلطان ملكشاه فأطلق سراح أخيه. وفي سنة (٤٨٩هـ) قتل سديد الدولة في فاروقين من قبل طغتكين وزير تاج الدولة تتش السلجوقي، كما قتل أخوه ابو طاهر، وذكرنا تفاصيل قتل الأخير في الجزء الأول ص ٣١١-٣١٢. وسديد الدولة هذا كان والد سديد الدولة ابي عبدالله محمد الذي تقدم في الدولة العباسية واشتهر وولي ديوان الإنشاء ومات سنة (٥٥٨هـ). والراجع ان الطبيب ابا نصر الف كتابه المذكور في العهد الدستوري، حينما كان سديد الدولة في اوج عزه.

(٩٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٤٣. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٦٢٤. إسماعيل باشا بابان، هدية العارفين، ج ٢، ص ٥١٩. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ١٣، ص ١٨٩. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج ٢، ص ٢٢٥. الزركلي، الأعلام، ج ٩، ص ١٦٩.

الفائق وزيج التواريخ^(٩٥). كذلك ألف أبو نصر كتاباً مهماً آخر تناول تاريخ الدولة الدوستكية أسماءه (الجامع للتواريخ) الذي تضمن (تاريخ الدول والممالك وتاريخ بناء المدن، والحوادث المشهورة من عهد آدم إلى دولة بني مروان) كما قال ابن شداد^(٩٦). وقد نقل ابن العديم معلومات عن هذا التاريخ بصد بناء مدينة حلب، وذكر أنه وجده بخط المؤلف^(٩٧)، كما نقل عن (الجامع للتواريخ) أيضاً ياقوت الحموي بصد بناء أنطيوخيا في مادة (حلب) ويصدد مدينة الرها أيضاً^(٩٨). لم يعثر الباحث لويس شيخو على أي أثر لهذا التاريخ ولهذا عده من التواريخ المفقودة^(٩٩).

وقد بحثت عنه (أنا) أيضاً وسألت عدداً من المكتبات في الشرق والغرب، فلم أجد له أثراً. ويتوقع أنه يستفاد منه كثيراً حين العثور عليه في مجال تاريخ الدولة الدوستكية. ولكن المثير للإستغراب أن الفارقي لم يشر في تاريخه إلى تاريخ أبي نصر ومن المستبعد عدم إطلاع عليه أو عدم سماعه به على أقل تقدير، كما أنه لم يورد لأبي نصر سوى ذكر وفاته في فارقين سنة ٤٩٧هـ = ١١٠٤م^(١٠٠). في حين ذكر إسماعيل باشا بابان وتبعه الزركلي أنه توفي في حدود ٤٧٢هـ = ١٠٨٠م^(١٠١). والجدير بالذكر أن ابا نصر كان طبيباً مسيحياً يعقوبي المذهب.

الفضل بن جرير

من أطباء الدولة الدوستكية أيضاً وهو أخو أبي نصر. كان الفضل ابن جرير من أطباء فارقين كأخيه في عهد الأمير نصرالدولة. وكان أيضاً طبيباً ماهراً وقال صاحب طبقات الأطباء في ترجمته: "أنه كثير الإطلاع في العلوم فاضلاً في صناعة الطب حسن العلاج وخدم بصناعة الطب الأمير نصرالدولة بن مروان. له من الكتب مقالة في أسماء الأمراض وإشتقاقاتها كتبها إلى بعض أصدقائه وهو يوحنا بن عبدالمسيح"^(١٠٢). وله أيضاً كتاب الذبائح وكتاب الفائق في التاريخ^(١٠٣). يحتمل أن تاريخه هذا يتضمن قسماً غير قليل من تاريخ الدولة الدوستكية.

(٩٥) مجلة المشرق، العدد (١٠) سنة ١٩٢٢، وفيها أن نسخة مخطوطة من المصباح المرشد موجودة في مكتبة الفاتيكان- بالكرشون ٢٠٥٤- وفي مكتبة أوكسفورد، ومكتبة المتحف البريطاني- ٨١٧، ٥٧٠، ومكتبة الكلدان بديار بكر، وفي مكتبتهم بسعد - لاأظن أن المكتبة الأخيرة لها وجود الآن. توجد نسخة من كتاب علم الفقه في رومية. كما توجد نسخة مخطوطة من المختار من كتب الإختيارات الفلكية في مكتبة متحف لندن تحت الرقم ٥٧٠٩ حسبما وصل إلينا كتاب المتحف البريطاني تاريخه ٧ آب ١٩٧٤.

(٩٦) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج ١، ص ١٢، مطبوع.

(٩٧) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ١٥.

(٩٨) الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨٣، ج ٤، ص ٨٧٦.

(٩٩) مجلة المشرق، مجلد ١٢، ص ٤٨٦ سنة ١٩٠٩.

(١٠٠) الفارقي، ص ٢٧١.

(١٠١) إسماعيل باشا، هدية العارفين، ج ٢، ص ٥١٩.

(١٠٢) طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٤٢. مجلة المشرق، العدد ١٠ لسنة ١٩٢٢.

(١٠٣) أفرام برصوم، نوابغ السريان، ص ٥.

الوزير أبو سالم الطبيب

من أطباء الدولة الدوستكية أيضاً أبو سالم الطبيب، الذي كان من أكبر الأطباء نفوذاً في الفترة الأخيرة من عصر الدولة الدوستكية، ويحتل أنه كان رئيس الأطباء وطبيب الملك الخاص. ذكر الفارقي أن الطبيب أبا سالم المسيحي كان له دكان في سوق العطارين وتقدم لدى الأمير منصور حتى جعله وزيراً (١٠٤).

يظهر من هذا أن أبا سالم لم يكن مجرد طبيب فقط، بل كان رجلاً سياسياً ذا قابلية ولباقة، ولهذا قرّبهُ الملك وجعله وزيراً له وإقتنع بإخلاصه فسلم له أمر الدولة ومهمة الدفاع عنها عندما توجه الأمير الى أصفهان لدى الملك السلجوقي ملكشاه، الذي أرسل الجيوش الى كُردستان الوسطى لإحتلالها في سنة (٤٧٦هـ). وقد برهن أبو سالم حقاً على إخلاصه اللامتناهي تجاه الدولة الدوستكية، فقد دافع عن البلاد ضد الجيش السلجوقي والقوات المتحالفة معه زهاء سنتين، الى أن إحتل ذلك الجيش المدن كلها عنوة. وهكذا صمد ولم يستسلم ولم يخن الأمير والبلاد، ولا نعلم عن مصيره على أيدي المحتلين. كما لم يسلم بعد القبض عليه للمحتلين الكثير من أموال الدولة النقدية التي أخفاها وكنمها حسبما أكد عليه الفارقي، الذي طعن كثيراً في سياسته. فقد قال الفارقي أن أبا سالم حرّض الأمير منصور على عدم الإستسلام والخضوع للسلاجقة وعلى الإستمرار في مقاومتهم، مما حمله على رفض إقتراح ملكشاه بتقسيم البلاد الدوستكية بينهما والإبقاء على جزء من البلاد في يده، وذلك أثناء حصار الجيوش السلجوقية لها. ولكن مع هذا يجب أن نعلم أن الفارقي وبدافع من التعصب الديني لم يكن يحب المسيحيين.

صيدلية أبي سالم

لعل من المقبول أن نعتبر دكان الطبيب أبي سالم الموجود في سوق العطارين بفارقين، صيدلية تضم مختلف الأدوية والعقاقير الطبية بالنسبة لذلك العصر، علماً أن العقاقير كانت في القرون الوسطى تباع في (سوق العطارين) وربما كان الطبيب شريكاً مع العطار في دكانه الذي يضم الأدوية كما قال جرجي زيدان وغيره من الباحثين، الذين إعتبروا أمثال دكان إبي سالم صيدليات ولو بالشكل البدائي أو القديم، وكما يتضح كذلك من كتاب (دعوة الأطباء) للطبيب إبن بطلان الذي سنبحث عنه. ومما لا شك فيه ان أبا سالم كان يبيع العقاقير الطبية في دكانه المذكور مع العلم ان المدن الكبيرة التي كانت تضم المستشفيات (بیمارستانات) في البلاد الإسلامية كمدينة فارقين لم تكن تخلو من الصيدليات. هذا ومن المحتمل ان يكون أبو سالم هو الطبيب الفضل بن جرير التكريتي، حيث ذكر عمادالدين الاصبهاني ان إسم أبي سالم هو الفضل النصراني وقد إلتقى بإبنه أبي الحسن عيسى بالموصل (١٠٥).

(١٠٤) الفارقي، ص ٢٠٦. راجع موضوع وزارة أبي سالم الطبيب في الجزء الأول، ص ٢٨٧.

(١٠٥) الاصبهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٣٤٩.

ولكن الفضل بن جرير كان يلقب بأبي سعد حسبما ورد في بعض المصادر (١٠٦).
أخيراً إن إرتقاء هذا الطبيب الى منصب الوزارة لا يخلو من الدلالة على تقدير الدولة الدوستكية للأطباء وأصحاب العلم والفضل والإعتماد عليهم وتشجيعها وإكرامها لهم وللمسيحيين ايضاً في نطاق سياستها الديمقراطية.

ابن بطلان ودعوة الأطباء

هو الطبيب ابو الحسن المختار بن حسن بن عبدون وإسمه الحقيقي (يوانيس). كان طبيباً مسيحياً من أشهر أطباء عصره، تنقل بين بغداد والشام ومصر والقسطنطينية. كان يعتبر نفسه وحيد عصره في الطب إضافة الى كونه أديباً لامعاً. ولما ذاعت شهرة (ابي الحسن علي بن رضوان) أشهر اطباء مصر، ذهب ابن بطلان من بغداد الى مناظرته. وظل هناك ثلاث سنوات ودخل في نقاشات حادة معه أسفرت تلك المناقشات والمناظرات العلمية عن تأليفه عدة كتب صغيرة أو رسائل من قبلهما وكل يرد على صاحبه. فكانت من اشهر المناظرات العلمية. ثم ذهب ابن بطلان الى العاصمة البيزنطية القسطنطينية. واسمه عند اللاتين هو: ELLUCHASEN ELIMITAR (١٠٧).

هذا ومع أننا لانستطيع أن نجزم بكونه من أحد أطباء الدولة الدوستكية، إلا أن له صلة بتاريخ الطب وتاريخها فيها، وكان بينه وبين الطبيب عبيدالله بن بختيشوع صداقة متينة. دخل ابن بطلان البلاد الدوستكية وهو في طريقه من بغداد الى مصر وظل في الطريق حوالي ثلاث أو أربع سنوات حيث مكث هنا وهناك (١٠٨). وقد نص بعض المؤرخين على دخوله إقليم ديار بكر (١٠٩).

ولاشك أنه إطلع على سير الطب في البلاد الدوستكية وعاصمتها بالذات. ويحتمل جداً أنه مارس مهنة الطب فيها مدة من الزمن، فأعجبه ذلك وأعجبه إهتمام نصرالدولة بالطب وتقديره للأطباء. فجسم إعجابيه هذا بتأليف كتابه الشهير (دعوة الأطباء) بإسم الأمير نصرالدولة، رغم أنه كان بعيداً عن بلاد الأمير. وبهذا يكون الكتاب بعيداً تماماً عن التملق والتزلف إذ ألف ابن بطلان الكتاب في (دير المنيح) في ضاحية العاصمة البيزنطية سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م) ألفه حسبما جاء في مقدمته على طريقة كليلة ودمنة. والكتاب في شكل أسئلة وأجوبة ومحاورات طبية ذكر فيه الأمراض المختلفة وطرق معالجتها وأسماء الأدوية وأدوات الطب المعروفة في ذلك العصر، وأورد فيه أسماء (٢٦) آلة طبية (١١٠)، إضافة الى توضيحه مسائل طبية معقدة. والكتاب في هيئة حوار خيالي دار بين طبيب

(١٠٦) مجلة المشرق، العدد العاشر لسنة ١٩٢٢. أفرام برصوم، نوابغ السريان، ص ٥. رفائيل بابو اسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٣.

(١٠٧) دوميلي، العلوم عند العرب، ص ٢٤١.

(١٠٨) بدأ ابن بطلان رحلته من بغداد سنة ٤٣٩هـ وقيل في التي بعدها. ووصل مصر سنة ٤٤٣هـ.

(١٠٩) من هؤلاء القفطي في تاريخ الحكماء، ص ٤٩٤. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج ٢، ص ٦٠٧. رفائيل بابو اسحق، أحوال نصارى بغداد، ص ٢١٨. محمود ياسين، الإمارة المروانية، ص ١٩٧، وقد إعتبره الأخير من أطباء الدولة الدوستكية. راجع ايضاً بصدد ابن بطلان: ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٩٨. وخمس رسائل لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري، طبع القاهرة ١٩٣٧. ومجلة المشرق، العدد الأول لسنة ١٩٢٢. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، ص ٣٧٦. رفائيل بابو اسحاق، تاريخ نصارى بغداد، ص ١٠٤.

بغداد ي زار فارقين وآخر من فارقين في السبعين من عمره (١١١)، وذلك بأسلوب أدبي رائع. دعوة الأطباء كتاب مشهور طبع أكثر من مرة، كما تُرجم إلى الفرنسية وطبع، كما شُرح من قبل علي بن هبة المعروف بابن البردي سنة (٥٠٧هـ = ١١١٤م) (١١٢).

إبن بطلان بمدح نصرالدولة وعهده السعيد

لقد وصف ابن بطلان في مقدمة كتابه هذا الأمير نصرالدولة ابن مروان وصفاً بليغاً، مشيراً إلى ما حصل في عهده من التقدم الإقتصادي والطبي بأسلوب المدح الذي يشبه الدم. فتراه يقول على لسان طبيب فارقين، وهو جالس في سوق العطارين موجهاً كلامه إلى طبيب بغداد: "ما كان يموت لي مريض سابقاً إلا وقد مرض عوضه إثنان فأنا في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل، كأنني قرواش بن المقلد أو ملك ميفارقين وأمد... وفي كل خمس سنوات يعرض وباء وموت، فمنذ ملك ابن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة وصحت الاجساد وإنكشف الوباء عن هذه البلاد وإنقطعت علة الخوانيق وكانت قلما فارقت الحلوq وبطلت الأمراض الخريفية وكان موسماً مألوفاً معروفاً، فصرنا لا نرى مريضاً إلا في كل حين ولا نشاهد جنازة إلا في كل زمان بعيد ولا نسمع صراخاً إلا في كل دهر مديد، حتى كأن اقبال الأمير قد عصب الابدان من الاسقام وحسن الاعضاء من الآلام، او كأنه من بين آل مروان قد اخذ للخلق من الدهر الامان..." (١١٣).

ثم يسترسل ابن بطلان في الكلام وينتقل للحديث عن ما شهدته كُردستان الوسطى في عهد نصرالدولة العظيم، من تقدم إقتصادي وكثرة الأعمال والقضاء على البطالة، كما مر في موضوع الحياة الإقتصادية. ولنكتف بهذا القدر من كلام الطبيب ابن بطلان، الذي لا يخلو من إعطاء القاريء فكرة عن تقدم الطب في الدولة الدوستكية. ونكرر مرة أخرى بأن تأليفه أشهر مؤلفاته بإسم الملك الكُرد نصرالدولة وهو بعيد عن بلاده، يبعد شبهة الرباء عن الكتاب وإشارة إلى تقدير المؤلف لإهتمام الدولة الدوستكية بالطب والأطباء، وإعجاباً منه بخصائل نصرالدولة الحميدة وسياسته الديمقراطية، التي أدت إلى تطور دولته على كافة الأصعدة.

أحمد ابن أبي الأثعث

بمناسبة بحثنا عن تاريخ الطب في كُردستان الوسطى في العصر الدوستكي، يجدر بنا أن نشير إلى

(١١٠) من هذه الآلات مكاوي الطحال والرأس، مفتاح الرحم وملزم البواسير ودراقات القولنج وقمادين الجرب ورضاص التنقيط ومجرفة الأذن وصانير السبل والظفرة وكلبات الأضراس ومخرط المناخير وقاتا طير التسويل وغيرها من الآلات التي كان يستعملها الأطباء في العمليات الجراحية وغيرها. راجع دعوة الأطباء، ص ١٠.

(١١١) رغم انه اختار للمحاورة طبييين خياليين طبيب فارقي وآخر بغداد ي، إلا ان ما تطرق اليه في كتابه أشياء حقيقية عدا إسمي الطبييين فهما خياليين. فمثلاً يقول طبيب فارقين: أنظر حسن هذا القدح فإنه حصل لي من نهب قصر الإمارة أيام الفتنة. وهذه إشارة إلى مؤامرة شيروة ونهب ما في القصر من قبل سكان فارقين أثناء ثورتهم عليه كما مر بالتفصيل في الجزء الأول، ص ١٤٧-١٦٤. توجد في مكتبة (أمبروزيانا) ميلانو الإيطالية نسخة مخطوطة مصورة من دعوة الأطباء تحت الرقم (A. 125). طالما حاولت الحصول على نسخة مصورة منها ولكن دون جدوى.

(١١٢) عبدالرحمن بدوي، التراث اليوناني. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٧٥٦.

(١١٣) دعوة الاطباء، مقدمة.

طبيب بارز ومؤلف بارع سكن بوتان (بهتان) قبيل العهد دوستكي، الذي من المعتقد أن يكون قد ترك تأثيراً في الطب وصل الى العصر دوستكي، وذلك عن طريق نشره الطب وتخليفه عدداً من التلاميذ، وهو الطبيب أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي الأشعب وأصله من بلاد فارس. فقد أقام المذكور في (قلعة برقي) التابعة للإمارة البشنوية في فنك. وهناك فرع من تأليف كتابه (الغازي والمغتذي) سنة (٣٤٨هـ). وقد ذكر ابن أبي أصيبعة انه كان له تلامذة كثيرون، منهم محمد بن ثوان الموصللي وأحمد البلدي. وأورد من مؤلفاته ثلاثة وثلاثين مؤلفاً ومن أعماله العلمية حوالي الخمسين. توفي في الفترة الواقعة بين (٤٦٠ و ٤٧٠هـ) (١١٤).

لا بد هنا أن نشير الى طبيب آخر نبع في كوردستان وعاصر الدولة دوستكية وهو (ماسويه) المارديني، الذي توجه الى مصر وعمل في بلاط الخليفة الحاكم، وتوفي بها سنة ١٠١٥م. كان طبيباً ماهراً وحجة في الصيدلة وعُرف عند الغربيين باسم (MESUE LUNIOR) (١١٥).

التنجيم

شجعت الدولة دوستكية التنجيم أيضاً، وكان لأمرائها اعتقاد بأقوال المنجمين. فقد ذكر الفارقي أنه قدم الى البلاد في عهد نصرالدولة منجم حاذق من الهند وحكم له بمستقبل أسرته ودولته بأمر واضح. حيث قال هذا المنجم ان الدولة ستزول على يد رجل احسنت اليه. ففكر نصرالدولة ساعة ثم رفع رأسه ونظر الى وزيره ابن جهير، وقال أين أنا من هذا (١١٦). لقد قدم هذا المنجم الشهير وإسمه (إبن عيسون) الى البلاد سنة ٤٦٣هـ. وكان من أفضل علماء النجوم، وقد قرّبهُ الأمير نظام الدين حتى كات يشرب معه (١١٧) دلالة على مدى تقدير دوستكيين للمنجمين. وذكر أيضاً أنه حضر عند وفاة نظام الدين مراسم التعزية المنجمون ومن بينهم إبن عيسون الذي فتح الطالع، فوجد ان الوقت غير مناسب لتنصيب الأمير منصور الى ثلاثة أيام، فأرجي ذلك الأمر الهام بناءً على تكهنه (١١٨). ويمكن أن نعتبر الطبيب أبو نصر التكريتي من المنجمين أيضاً لسعة معلوماته في التنجيم، حيث ألف في التنجيم والفلك كتابه (المختار من كتب الإختيارات الفلكية) كما ذكرنا (١١٩). علماً ان الكتاب

(١١٤) إبن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢٢٤-٢٢٨. نقلاً عن مناقب الأطباء للطبيب عبيدالله بن جبرائيل ومن مؤلفاته كتاب البرص والبهق ومداواتهما وكتابان في الصرع وكتاب في الجدي والحصبة والحميقاء، وكتاب في أمراض المعدة، وكتاب في الحيوان.

(١١٥) دوميلي، العلوم عند العرب، ص ٢٤٠.

(١١٦) تاريخ الفارقي، ص ١٧٢-١٧٣.

(١١٧) الفارقي، ص ٢٠١.

(١١٨) نفس المصدر، ص ٢٠٣. يظهر أن إبن عيسون غادر كوردستان في أواخر العهد دوستكي أو بعد سقوطها، الى مصر وتقدم عند الخليفة الفاطمي (المستعلي). ففي سنة ٤٨٩هـ كان بمصر وقد حكم المنجمون بأن طوفاناً مثل طوفان نوح سيحدث فسأل الخليفة إبن عيسون فقال أخطأ المنجمون ولكن يغرق خلق كثير في بقعة ما، ولكن الخليفة أخذ الإحتياطات للطوفان المزعوم، فأمر بأحكام المستنبات والسدود وكان الناس يتوقعون الغرق، فوصل الخبر بأن الحجاج غرقوا في واد بالحجاز بسيل عظيم. فأمن الناس وخلع الخليفة على إبن عيسون وعين له راتباً وذلك حسبما ذكره ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٥٨) وكما نقل عنه الدكتور بدوي عبداللطيف في حاشية، ص ٢٠١ من تاريخ الفارقي.

ورد في بعض المصادر بإسم (كتاب الإختيارات في علم النجوم).

المكتبات

يظهر ان الدولة الدوستكية وفي نطاق إهتماماتها الحضارية، أبدت إهتماماً بإقامة المكتبات (خزانات الكتب) الزاخرة بمختلف الكتب، ليرتادها أهل العلم للإستفادة منها بالبحث والإستنساخ ولتكون مظهراً من مظاهر الحياة الثقافية والحضارية في البلاد. فقد كانت في كُردستان في العهد الدوستكي مكتبات كثيرة تضم الكثير من الكتب في مختلف العلوم ومنها: مكتبة دياربكر، ومكتبة جامع فارقين، وقد زودهما العالم والاديب أحمد بن يوسف المنازي كاتب ديوان الرسائل في الدولة بالكثير من الكتب. وأشار الفارقي الى هاتين المكتبتين، حيث قال أن المنازي "جمع كتباً كثيرة وقسمها بين آمد وميفارقين وأوقفها في الخزانة في جامع ميفارقين وخزانة أخرى بجامع آمد، وهما الى الآن بآمد وميفارقين معروفة بكتب المنازي"^(١). وأشار معظم المؤرخين الذين ترجموا للمنازي الى المكتبتين، ولم يختلف كلامهم عن كلام الفارقي^(٢). نستنتج مما ذكره الفارقي أن جناح أو خزانة كتب المنازي ظل باقياً بإسمه حتى زمانه. ويعود ذلك الى التنظيم الذي كانت تتحلى به المكتبات في كُردستان. فبقاء خزانات الأشخاص بأسمائهم في مكان أو جناح خاص في المكتبات يعتبر جزءاً من التنظيمات المكتبية، كما هو متبع الآن في المكتبات الكبيرة في الشرق والغرب. وكانت هاتان المكتبتان تؤديان وظيفة المكتبات العامة.

ونستنتج من ذلك أيضاً بأن المكتبتين ظلنا سالتين حتى سبعينيات القرن السادس الهجري (بما أن الفارقي بدأ بتأليف تاريخه سنة ٥٧٢هـ). وإستمرت أعداد المخطوطات التي تحتويهما المكتبتان بالإزداد بمرور الزمن. ولعل مكتبة جامع دياربكر هي التي إستولى عليها صلاح الدين الأيوبي وأخرج منها كتباً هائلة. فقد ذكر الكاتب الكُردي الأستاذ أبو زيد مصطفى السندي، أن صلاح الدين لما إستولى على دياربكر (آمد) في سنة (٥٧٩هـ = ١١٨٤م) وجد فيها مكتبة كبيرة تحوي مليوناً وأربعين ألف مجلد^(٣).

(١١٩) (علم الإختيارات) علم يبحث عن أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر وأوقات يجب الإحتراز فيها عن إبتداء الأمور، وأوقات يستحب فيها مباشرتها... وذلك بحسب كون الشمس في البروج والقمر في المنازل وما بينهما من المقابلة أو التربيع أو التسديس. وهذا العلم هو فرع من فروع علوم النجوم كما ورد في (مفتاح السعادة، ج١، ص ٣٦٠، طاش كبرى زاده) وفي (كشف الظنون، ج١، ص ٣٤٤. قال حاجي خليفة، وقد ألف في علم الإختيارات عديد من العلماء مثل بطليموس والبيس المصري وكنكه الهندي وكشيار بن لبنان الجبلي وسهل بن نصر وهبة الله بن شمعون وغيرهم.

(١) الفارقي، ص ١٣١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٤٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٥٤. تاريخ ابن الوردي، ج١، ص ٣٤٩. الشيخ عباس القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص ١٨٠. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج٢، ص ٧٦٥. فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص ٢٥٣.

(٣) مجلة (پهرورده و زانست) العدد الثاني السنة الأولى، ص ٥٩، مقالة بعنوان (ميثويين خواندني) نقلاً عن ابن الأثير في (البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣١٣). وأضاف ابن كثير (وقد راجعته فيما بعد) ان صلاح الدين وهب الكتب كلها لوزيره العالم القاضي الفاضل، فإنتخب هذا منها ما حمل به سبعين حمارة. إن هذا العدد وهو (مليون وأربعين ألفاً) رقم هائل جداً لذلك يوهم بالمبالغة. ولعل ابن كثير نقل عن ابي شامة المقدسي مؤرخ الدولة الأيوبية، الذي ذكره أيضاً =

وذكر ابن شداد في الوقعة (٩١) من (الأعلاق الخطيرة)، أن الوزير أبا القاسم المغربي وزير نصرالدولة جعل خزانة كتبه بميفارقين وقفاً ولا زالت معروفة بخزانة المغربي حتى الآن (أي النصف الأخير من القرن الثالث عشر وقت تأليف ابن شداد لكتابه في سنة ٦٧٩هـ = ١٢٨٠م). وإن لم تكن المكتبة التي وقف هذا العالم كتبه عليها مكتبة جامع فارقين فإنها مكتبة عامة أخرى.

لم تكن المكتبات في كُردستان عبارة عن مكتبة جامع دياربكر ومكتبة جامع فارقين فقط، بل كانت هناك مكتبات أخرى في كثير من المساجد وفي الكثير من الكنائس والأديرة كانت هناك مكتبات زاخرة بالكتب الثمينة، منها مكتبة البيعة الملكية في فارقين. ومن هذه المكتبة إستفاد المؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف الفارقي في وضع كتابه (تاريخ ميفارقين وأمد)، إذ كان هناك في المكتبة كتاب سرياني باسم (التشعيث) في تاريخ بناء مدينة ميفارقين، فترجمه له أحد المسيحيين ونقل عنه معلومات بهذا الخصوص (٤).

مكتبة دير قرتمين

كانت إحدى المكتبات العامرة مكتبة دير (قرتمين) اليعقوبي في طورعبدین (طوری) شرق ماردين وكانت تضم كثيراً من الكتب من بينها كتب تاريخية. كانت المكتبة في سنة (١٠٢٠م) بإدارة الراهب مار شليمون السبريني (المنسوب الى قرية باسبرينا من طورعبدین). وقد زارها في السنة المذكورة يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدین، فوجد ان الكتب والآنية المقدسة والطقوس الكنسية كاملة وسالمة. فأصدر توجيهاته بالإهتمام والمحافظة الشديدين على محتوياتها. وكان الخطاط عمانوئيل ابن أخ الأسقف قد زود تلك المكتبة بما كتبه بخطه على الرقوق ومقداره سبعون مجلداً، وأهدى عمانوئيل على ما قاله البطريك (أفرايم برصوم): "الدير أي مكتبتها كتباً لا مثيل لها في العالم" (٥).

ولما زالت سعادة المسيحيين بل سعادة شعب كُردستان الوسطى كلها بسقوط الدولة الدوستكية، وأقبل عهد السلب والنهب والإضطهاد أثناء الحكم السلجوقي. تعرضت هذه المكتبة في سنة (٤٩٥هـ = ١١٠٠م) الى التدمير، عندما أغار التركمان السلاجقة على منطقة طورعبدین وأطلقوا أيديهم في السلب والنهب والقتل وأجلى السكان الى ما وراء حصن الصور (٦).

=في كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٣٩ ونقل أبو شامة ذلك عن عماد الدين الاصبهاني كاتب صلاح الدين.
(٤) تاريخ الفارقي، ص ١٥ مقدمة الأستاذ الدكتور بدوي عبدالطيف نقلاً عن القسم غير المطبوع من تاريخ الفارقي.

(٥) أفرايم برصوم، اللؤلؤ المنتور في تاريخ العلوم والاداب السريانية، ص ٢٢.

(٦) ورد ذكر قلعة صور في عدد من المصادر وهي تقع في القسم الشمالي من منطقة طورعبدین في منطقة جبل قورس. كانت قلعة حصينة. في أوائل هذا القرن زار مدينة صور إسحق أرملة وقال أن القلعة تتوسط المدينة هي تطل على جهات قرية الأحمدى الشهيرة وقلعة قلت، وفي المدينة ثلاثة أسواق وفيها جامع شيد سنة ١١٩٥هـ وفيها منارة ذات (٣٦) درجة تعلوها قبة ذات نقوش لطيفة. وكانت فيها بيعة أن السبعة ولكنها تحولت الى جامع. كانت صو حافلة بالمسيحيين في القرن السابع الميلادي، ولكن معظمهم إعتنق الإسلام في القرن الاثني عشر. راجع مجلة المشرق مجلد ١٦ سنة ١٩١٣، ص ٥٧٣: سياحة في طورعبدین لأسحق أرملة. ويحتمل أن صور هي بلدة (SAVUR) وهي مركز قضاء تابع لولاية ماردين في شمالها الشرقي وبينهما حوالي (٣٠) كلم ونفوسها (٤٠٠٠) نسمة وذلك سنة ١٩٦٥. وفي حياة إنسايكلوپيديسي، ص ١٣٦ لسنة ١٩٧٠ ان قلعتها تعود الى عصر الرومان.

وقد تعرض هذا الدير أيضاً لنهبهم حيث نهبوا ما فيه من التحف الثمينة وأتلفوا الكتب، حتى إن أوراق بعض الكتب الثمينة ومنها كتاب عن تاريخ الدير وصلت الى نصيبين. ولكن الرهبان بذلوا جهوداً في جمع أوراقه فجمعوها كلها عدا ورقة واحدة. ولم يجر تنظيم هذه المكتبة إلا بعد أكثر من نصف قرن، وذلك في سنة ١١٦٩م بالذات. حيث تم تنظيمها وجدد (١٧) مجلداً من كتبها يخط عمانوئيل والريان جبريل السبريني والريان موسى الراهب الكفرسلطي^(٧). والجدير بالذكر أنه كانت في دير قرتمين مدرسة كبيرة تدرس فيها العلوم المسيحية. كما كانت في دير زقنين القريبة من دياربكر مدرسة شهيرة^(٨). ومن المكتبات المسيحية مكتبة دير مار يوحنا قورديس في مدينة دارا، وفي المتحف البريطاني مخطوطة قديمة من مخطوطات هذه المكتبة باسم (الكتاب المنسوب الى الأريوفاغي) كان قد وقفها على هذه المكتبة لعازر مطران بغداد في القرن التاسع الميلادي^(٩)، مما يدل على أن المكتبة قد أنشأت قبل العهد الدوستكي. وكان دير أتوس في منطقة رأس العين يضم مكتبة أنشئت من قبل أثناسيول النعال مطران فارقين في أواسط القرن الثامن للميلاد. وكان هذا الدير مركزاً للعلم، حيث تخرج منه خمسة عشر أسقفاً في سنة (٧٤٠هـ = ١٠٤٢م) (١٠).

تطور الكتابة الكوفية المزخرفة في الدولة الدوستكية

إتنبه بعض المستشرقين وعلماء الآثار منذ أوائل هذا القرن الى كنز ثمين من الكتابات الكوفية الأثرية المتطورة تطوراً كبيراً في مدينة دياربكر، الموجودة على آثارها العمرانية وبالأخص سورها وجامعها الكبير (أولوجامي). وإهتم هؤلاء بدراسة هذه الكتابات لإبراز خصائص تطور الكتابات وميزاتها الفنية حسب العهود والتواريخ المختلفة ومقارنتها بالكتابات الكوفية في بقاع متباينة من العالم الإسلامي. فقد لاحظ هؤلاء من خلال دراستهم العامة، ان القرن الحادي عشر الميلادي كان عصر نضوج الكتابات الزخرفية^(١١)، وإن كتابات دياربكر العائدة للعهد المرواني (الدوستكي) تعد من أرقى الكتابات الكوفية المتطورة في العالم الإسلامي. وأول من جلب أنظار الباحثين الى كتابات

(٧) أفرام برصوم، تاريخ طوعبيدين، ص ٢٧٢، ٢٧٦. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم السريانية، ص ٢٢. نقلاً عن مخطوطة (سفر الحياة في باسبرينا في تاريخها الكنسي)، وعن سيرة مار شمعون الخطية. والجدير بالذكر ان مكتبة دير قرتمين كانت قد أنشئت قبل العهد الدوستكي وازداد عدد مخطوطاتها في هذا العهد وسبق وإن زودها مار شمعون الزيتوني مطران (حاران) بـ (١٨٠) مجلداً.

(٨) نفس المصدر، ص ١٩.

(٩) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ٢٥.

(١٠) نفس المصدر، ص ٢٣.

(١١) الخط الكوفي: يعتبر من الخطوط العربية وله عدة أقسام: (١) الكوفي البسيط الذي لا يلحقه تزويق أو تخميل أو تضيفير ومادته كتابية بحتة. (٢) الكوفي المورق وتلحقه زخارف تشبه أوراق الأشجار تنبعث من الحروف القائمة والحروف المستلقية وبالأخص الحروف الأخيرة كسيفقان رقيقة تحمل وريقات نباتية متنوعة الأشكال. (٣) الكوفي ذي الأرضية النباتية تستقر فيه الكتابة فوق أرضية من سيقان النباتات اللولبية وأوراقه. ويسمى الكوفي المخمل. (٤) الكوفي المضفر (هوناندي) وهو نوع من الزخارف الكتابية التي بولغ في تعقيدها الى حد يصعب معه أحياناً تمييز العناصر الزخرفية وتضفر حروف الكلمة الواحدة وأحياناً تضفر كلمتان متجاورتان أو أكثر. (٥) الكوفي الهندسي الأشكال وأقدم هذا النوع يعود الى القرن الثالث عشر الميلادي.

دياربكر (آمد) المستشرق (فان برشم) الذي زارها في أوائل القرن العشرين وألف كتابه الضخم (AMIDA). يختص الكتاب بآثار دياربكر (آمد) وفيه صور للكثير منها ولكتابتها المزخرفة من العهد الدوستكي والعهد السابقة كالعهد السلجوقي، والذي كان في الحقيقة إمتداداً للعصر الدوستكي (المرواني) من ناحية الكتابة.

وفي سنة ١٩٢٠م قام تلميذه السويسري (فلوري) بدراسة الكتابات الكوفية في جامع دياربكر والجامع الأزهر وجامع الحاكم بالقاهرة والقبروان بتونس، وهو يرى في الأشرطة الكتابية المزخرفة في دياربكر نوعاً من أجود مبتكرات الفن الإسلامي وأروعها، وهو يبدي دهشته من إهمال مؤرخي الفنون أمر دراسة تلك الأشرطة الكتابية.

إن فلوري الذي وصفه الدكتور إبراهيم جمعه بعميد الباحثين في الكتابة الكوفية، يرى في آمد أي دياربكر أصلح مكان لدراسة فن الأشرطة الكتابية المزخرفة، إذ تتوافر فيها الشروط الواجب توفرها في الدراسة العلمية المنظمة. فهناك من الآثار المؤرخة تاريخاً دقيقاً ومن الصفات الفنية العالية ووحدة المادة الكتابية عليها ما يساعد على مثل هذه الدراسة. ويتفق فلوري مع فان برشم على أن النقوش المروانية والسلجوقية في آمد تعتبر من أروع المنتجات الكتابية في العالم. ويضيف الى ذلك انه لكي يدرس الإنسان أشرطة (آمد) لا بد له من دراسة الحروف الأجدية الكوفية، التي أصبحت منذ القرن الحادي عشر الميلادي أدوات للتزيق وخضعت في تطورها لقوانين الزخرفة الإسلامية خضوعاً تاماً.

ويلاحظ فلوري أن الفن الإسلامي العربي، الذي توجد منه أمثلة طيبة في القاهرة الفاطمية، لم تنل الكتابة فيه مثل هذه الصفات الزخرفية الممتازة التي تتصف بها كتابات آمد... ثم يتناول فلوري كتابات آمد المؤرخة في سنة (٤٣٦هـ) بإسم الأمير أحمد، فيقول عنها بأنها من النوع المورق المتطور تطوراً كبيراً، ويصف حروفها ويتكلم عن الزخارف التي تلحقها، ويقارن زخارفها بزخارف جامع الحاكم، ويشير الى الزخرفة القوسية التي نراها في القوائم، ثم يحللها تحليلاً أجبدياً. ثم ينتقل الى نقش أمدي آخر مؤرخ في (٤٣٧هـ) فيه عناصر زخرفية جديدة، ويصف حروفه ويحلله تحليلاً أجبدياً. ثم ينتقل الى كتابة مؤرخة سنة (٤٤٤هـ) لا تختلف من حيث أسلوبها الكتابي عن سابقتها ويرى فيها تطوراً في فن الزخرفة، وهو كعادته يصفها وينوه بزخارفها ويحللها تحليلاً أجبدياً. لقد أجاز فلوري لنفسه بعد هذه الدراسات أن يفرد لآمد أسلوباً كتابياً خاصاً بها (٢).

وفي سنة ١٩٢٢ تناول فلوري نوعاً من كتابات آمد يختلف بعض الشيء عما سبق ان عالجه منها وهو النوع المظفر. ولكي يتمكن فلوري من فهم كتابات دياربكر المظفرة فهماً صحيحاً ودرسها دراسة صحيحة ويصل الى ميزاتها وخصائصها الفنية، بدأ بدراسة الكتابة الكوفية المظفرة في (راديكان) جنوب بحر قزوين في إيران المؤرخة سنة (٤٠٧هـ)، ليتخذ منها أساساً لفهم كتابات دياربكر المظفرة (٣). وستجد العديد من صورها في ملحق صور الكتاب.

(٢) الدكتور إبراهيم جمعه، دراسة في تطور الكتابات الكوفية، ص ٣٣-٣٤.

(٣) الدكتور إبراهيم جمعه، ص ٣٤.

الزخرفة الحيوانية

هناك صفة فنية أخرى للكتابة الدوستكية لم يتطرق اليها الباحثون وهي الزخرفة الحيوانية . فقد إستعملت الدولة الدوستكية في الزخارف الكتابية على بعض آثارها رسوم بعض الحيوانات مثل الكتابة المؤرخة سنة (٤٤٤هـ) ، حيث يوجد رسم لحيوان يشبه النمر بين الزخارف النباتية على هيئة التسلّق. كما يوجد رسم لطير الهدهد(٤) وهو واضع رجله على حرف العين من كلمة (وأربعمائة) في الكتابة المؤرخة سنة (٤٦٠هـ) الموجودة على برج مربع من سور دياربكر(٥).

وفي رأيي أن الزخرفة الحيوانية ميزة أصلية من مميزات الكتابات الدوستكية وميزة فنية مبتكرة، أدخلتها الدولة الدوستكية أول مرة في الكتابة الكوفية المزخرفة. إذ لا توجد الزخرفة الحيوانية في الكتابات الكوفية قبل العهد الدوستكي. وقد إنتقل هذا النوع من الزخرفة الى الكتابات السلجوقية الموجودة على بعض آثار دياربكر من عهد ملكشاه وذلك تقليداً وتأثراً بالكتابات الدوستكية التي شهدت تطوراً كبيراً في العهد السلجوقي. وتجدر الإشارة الى أن الدولة الدوستكية (المروانية) إستعملت الزخرفة الحيوانية على الكتابات الموجودة على نقودها أيضاً، كما مر ذكره في موضوع العملة الدوستكية.

"تعليق الصورة: بسمله... مما أمر بعمله والإنفاق عليه من ماله مولانا الأمير السيد الأجل المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء أبو نصر أحمد بن مروان أطل الله بقاءه وأدام سلطانه وجري ذلك على يد القاضي أبي علي الحسن بن أحمد الأمدي في سنة أربع وأربعين وأربعمائة والبناء نصير بن سبا"(٦).

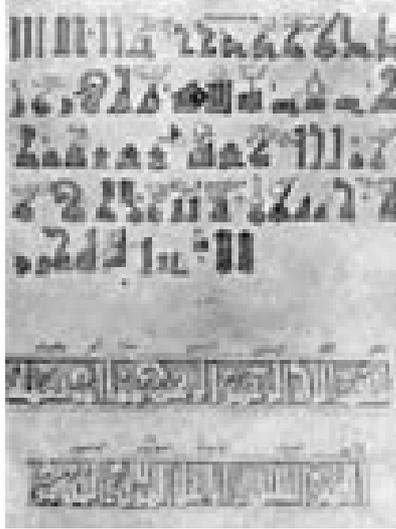
وقرر فلوري بعد دراسته للوحات دياربكر ان شرق العالم الإسلامي انتج انواعاً مختلفة من المخطوط الكوفية لم ينتج غربه مثيلاً لها(٧). أما (مارسيه) وهو أحد الباحثين في الكتابة الكوفية، الذي كتب عن الكتابات الكوفية الموجودة في شمال أفريقيا والأندلس (أسبانيا)، فأكد على أهمية كتابات دياربكر في فنها الزخرفي وقال: ان النضج الذي إنتهت إليه الكتابة حتى أصبحت فيه عاملاً زخرفياً، إنما تم وإكتمل في شرق العالم الإسلامي. وهو يشارك فلوري الرأي في ان كتابات دياربكر مثال

(٤) إن في إختيار النمر إشارة الى القوة وخفة الحركة، أما الهدهد فطائر يتمتع بنوع من التقدير والإحترام بسبب وردو ذكره في القرآن ونقله لأخبار الملكة بلقيس للنبي سليمان بن داود، كما يتعلق بإعتقادات قديمة في الطب والطب النفساني منها أن لحمه شفاء من المغص والقولنج وتخثر الدم، وحمل لسانه وريشه يورث الجاه والقبول وعظم جناحه الأيسر المثلث يعقد الألسن ويورث المحبة وتعليقه مذبوحة على الباب يدفع السحر والنظرة، وحمل عينيه يقوي الحفظ ويذهب النسيان، وإذا لفت أظفاره وريشه في حبر أصفر ودفن تحت فراش المتباغضين تحل المحبة بينهما وما الى ذلك من كما هو مفصل في تذكرة دادو الأنطاكي، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

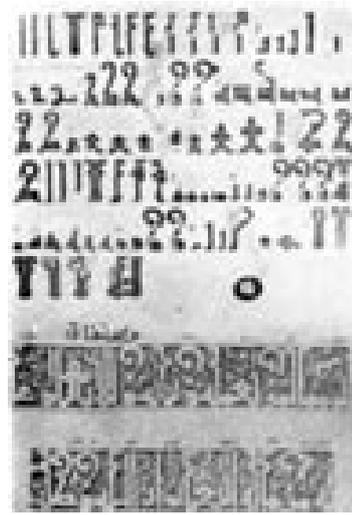
(٥) راجع نص الكتابة وصورة الأثر في موضوع الحياة العمرانية، وراجع أيضاً الهدهد في موضوع النحت.

(٦) ص٢٨ من بسري كونيار DIYARBAKIR TARIKHİ و VAN BERCHM / AMIDA . الصورة من المصدر الأخير. في بدائع الخط العربي ص٢٥٤ لناجي زين الدين لوحة ٩٧ صورة كتابة محللة تحليلياً أبجدياً مؤرخة بسنة ٤٤٤هـ، ذكر المؤلف انه نقلها من فلوري وان الكتابة على جامع دياربكر. وأضاف أنها من أروع المنتجات الفنية في العالم. والراجع أن هذه الكتابة هي الكتابة المذكورة على السور لا الجامع.

(٧) ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، ص٤٥٢.



كتابة دوستكية- ٤٤٤ هـ



كتابة دوستكية- ٤٢٦ هـ

طيب لما بلغت الكتاب من الإتقان الزخرفي (٨).

أما الدكتور زكي محمد حسن وهو أحد مؤرخي الفنون الإسلامية، فقد أشاد هو الآخر بكتابات دياربكر، وقال إن استخدام الزخارف الكتابية كان أكثر إتقاناً في الأقطار الإسلامية منه في غربي العالم الإسلامي. وحسبنا أن أيدع تلك الكتابات يُنسب إلى إيران ودياربكر (٩). وقد أشار المستشرق (ديمان) إلى مدى تطور الخط الكوفي في فن الزخرفة في عهد الدولة الدستكية وإلى خلو الزخرفة العباسية (سابقاً) منه (١٠).

وفعالاً كانت الكتابات العائدة للعباسيين والموجودة على سور دياربكر، من الكتابات الكوفية البسطة الخالية من الزخرفة. ومن هذا نستنتج أن التطور حصل في عهد الدولة الكردية على أيدي أمهر الخطاطين في كردستان. أخيراً بعد أن أقر هؤلاء الباحثون بأن الكتابات الكوفية المزخرفة في الشرق، بما فيه كردستان، أكثر تطوراً منها في غرب العالم الإسلامي ابتداءً من مصر. وبعد أن أقر فلوري عميد الباحثين بتفوق الكتابات المروانية والسلجوقية في دياربكر على كتابات القاهرة، واعتبرها الباحثون من أروع النماذج وبعد أن اعتبر فلوري أن مدينة (أمد) أصلح مكان في العالم الإسلامي على الإطلاق لدراسة فن الاشرطة الكتابية... وبعد هذا كله نستطيع أن نحكم بأن الكتابات الدستكية كانت من أرقى الكتابات الكوفية المزخرفة في العالم الإسلامي حتى ذلك العصر، وإنها بلغت أرقى تطورها في كردستان على أيدي أمهر الخطاطين والرسميين في الدولة الدستكية. وهذا

(٨) إبراهيم جمعه، ص ٣٧.

(٩) زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ص ٢٧٩.

(١٠) م.س. ديمان، الفنون الإسلامية، ص ١٠٠.

ابيضاً اثر من آثار الحضارة الكُردية في عهد تلك الدولة، لأن الخط كما قال ابن خلدون تابع للعرمان (الحضارة). وأخيراً فقد خطأ بعض هؤلاء الباحثين في نسبة نماذج من الكتابات الدوستكية الى العهد السلجوقي، أي الى السلاجقة، رغم أن التواريخ الموجودة فيها خير دليل على هذا الخطأ. وتلك النماذج الدوستكية أكثر تطوراً من كتابات العهد السلجوقي والعهود التي تلتها.

جدید الكتابة السطرنجيلية السريانية

يعتبر الخط السطرنجيلي نوعاً من أنواع الخط السرياني، وقد لقي إهتماماً من قبل المسيحيين في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية. وكان هذا الخط قد تعرض للنسيان في طورعبدین منذ مائة سنة، إلا أن المسيحيين الذين تمتعوا بأكبر قدر من الحرية في العد الدوستكي، قاموا بتجديده وكان رائدهم في ذلك يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدین في (٩٩٨هـ = ١٠٣٥م). فقد تم تجديد هذا الخط بواسطة الكتب القديمة، وشجع يوحنا أبناء أخيه على تعلمه وإجاده. فبرع منهم عمانوئيل، الذي كتب بخطه الجميل سبعين مجلداً من الترجمان البسيط (فشيطة)، والحرقلية،... (وأهدى دير قرتمين كتاباً لا مثيل لها في العالم) (١١).

كما برع يحيى أخو الأسقف يوحنا الرابع في دقة الرسم والتصوير. وبذل يوحنا جهداً لتوفير مواد الكتابة، فأرسل (إبن أخيه) بطرس الى مدينة ملاطيه لجلب الرق (١٢)، أي لشراء الرقوق (الجلود الجاهزة للكتابة). وكان الرق مادة كتابية قديماً كالعظام والبردي وغيرها قبل توفر الورق. ويظهر من ذلك، أن الرقوق كانت حتى ذلك التاريخ تستعمل في الكتابة في كُردستان. ومن الخطاطين في العهد الدوستكي جبريل أخو عمانوئيل والريان موسى الكفرسلطي والأسقف يوحنا نفسه، والراهب توما بن يوسف المدوي، وبترس شقيق عمانوئيل، وحايا الراهب شقيقه أيضاً والراهب صليبا (١٥م) (١٣).

وقد تلقى هؤلاء الخطاطون السريان التشجيع من لدن يوحنا الرابع على تعلم الكتابة السطرنجيلية الصعبة ونشرها. وهو ما أتاح له ولتلاميذه تجديد هذه الكتابة وإحيائها. ومن الخطاطين أيضاً البطريك اليعقوبي يوحنا بن شوشان (١٠٥٨-١٠٧٢م)، الذي نقل الكرسي البطريركي اليعقوبي من أنطاكية الى مدينة دياربكر في العهد الدوستكي (١٤).

(١١) توجد نسخة من الإنجيل بخط عمانوئيل في مكتبة برلين تحت الرقم (٣٠٤) ونسخة أخرى في مكتبة البطريركية اليعقوبية في دير (مار مرقس) على ما في اللؤلؤ المنشور، ص ٣٦٧.

(١٢) البطريك أغناطيوس أفرام برصوم، تاريخ طورعبدین، ص ٢٣٤، ٢٧٢. ورد في اللؤلؤ المنشور لأفرام برصوم، ص ٢٩ إسم الرسام المذكور (يعيش) بدلاً من (يحيى) ومن هذا يظهر أن اللفظين إنما هما الترجمة العربية لإسمه السرياني.

(١٣) أغناطيوس أفرام برصوم، تاريخ طورعبدین، ص ٣٤٢. اللؤلؤ المنشور لنفس المؤلف.

(١٤) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور في تاريخ الآداب والعلوم السريانية، ص ٤٨٨. وفي هذا المصدر ورد بين الخطاطين القس بطرس بن الشماس آل سابا السبريني، ويوسف الملطي. وكان يوسف بارعاً في النقش والتصوير، فضلاً عن كونه شاعراً أيضاً. وفي الحقائق الجليلة، ص ٧٢ إتخذ البطريك يعقوب الثالث سنة (١٠٧٢م) بداية عهد ابن شوشان لا نهايته.

الفصل السابع

فن العمارة والآثار العمرانية

لاشك أن الكثير من الآثار الدوستكية الإنشائية كالأسوار والقلاع والجسور والمساجد والخانات والقباب والدور السكنية قد إندثرت، إلا أن قسماً منها ظل شاخساً حتى زمننا هذا لم يستطع الدهر إزالتها. ولكننا رغم ذلك لا نمتلك مادة كافية لدراسة الخصائص المعمارية للدولة الدوستكية بشكل مفصل وكذلك الخصائص المعمارية الكُردية آنذاك. فكما هو معروف إن القصور والمباني السكنية والمساجد هي التي تحتوي على تفاصيل ودقائق الفن المعماري لا الأبراج الصامتة. ولكن مع هذا وصلت إلينا بعض المعلومات بهذا الصدد. ويحتمل أقدم من تحدث ولو بإيجاز عن فن البناء والزخرفة لبني مروان (الدوستكيين)، هو المستشرق (شان برشم) في كتابه الضخم (AMIDA) الذي وضعه عن آثار مدينة دياربكر ونشره في أوائل هذا القرن. فقد قال حسبما نقله عنه السيد محمود ياسين، الذي لم يغفل عن التطرق الى هذا الموضوع الحيوي، مايلي: "كانت الكثير من الأبنية في زمن بني مروان محلاةً بالنقوش والزخرفة، وتفننوا في تركيب أبواب المدن... وإستخدموا الأقواس في البناء وهي مما يسمى بالأقواس المسكورة. وقد وجد قوسان مكسوران أحدهما يحيط بالآخر عند الباب المواجه للمدينة ويرتفع فوق القوس الثاني برج المدينة، أي مدينة فارقين" (١).

وإستخدمت الدولة الدوستكية من الملاط للربط بين أحجار البناء الجيس (الكلس) والجص، كما استخدمت الحديد أيضاً في البناء لزيادة التقوية كما سنذكر لاحقاً. وإستخدمت في الرابطة المعمارية الزخرفة والرسوم الحيوانية أيضاً. ولعل القصر الدوستكي (دار الإمارة)، الذي كان بأربعة طوابق، كان من أهم المباني الدوستكية المحلاة بالزخارف. وقد أشار الفارقي في (ص ١٠٧) الى زخارفه حين قال إن: "نصرالدولة عمل في القصر أحسن عمل وزوقه وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب وعمل فيه ما لم يُعمل". علماً بأن لفظ (التزويق) يشمل الزخارف النباتية والهندسية، وكذا الرسوم الحيوانية والآدمية معاً. لذلك يحتمل أن القصر كان مزيناً بالرسوم أيضاً. فقد استخدمت الدولة الدوستكية رسوماً حيوانية في بعض منشآتها وقد بقي بعضها على ما سنذكر.

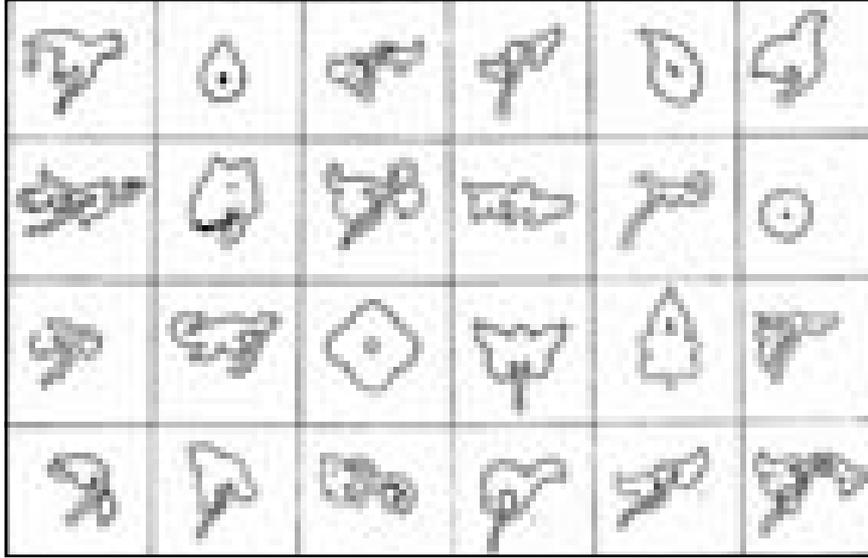
ومما لاحظنا في فن العمارة الكُردية في عهد الدولة الدوستكية هو أنها استخدمت في جامعها بدياربكر، والمعروف حتى الان بـ(جامع بني مروان)، الأقواس المنكسرة قليلة الإنكسار. ففي مدخل الجامع قوس منكسر (مدبب) يعلوه بمقدار قوس منكسر أكبر، وقد استخدمت الاكتاف على جوانب الأبواب عند بداية الأقواس وإرتكازها. وهذه الأكتاف طالعة الى الأمام أي الى الخارج كرفوف مسطحة من فوق ومنحنية من الأسفل كرقبة حية (كوبرا)، وهذه الأكتاف كانت موجودة في حضارات سابقة وخاصة الرومانية والإغريقية.

(١) محمود ياسين، الإمارة المروانية، ص ١٨٨. نقلاً عن AMIDA، ص ٣٤.

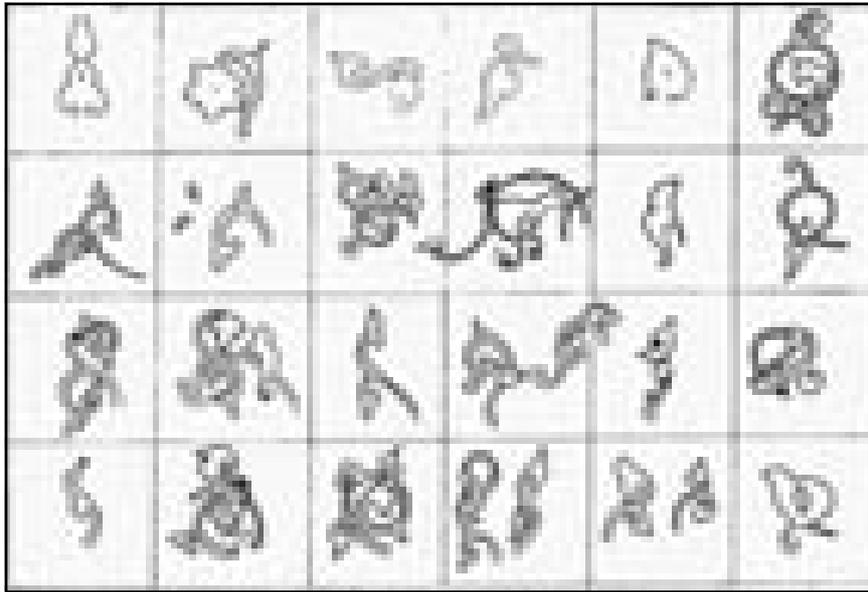
لقد استخدمت الدولة الدوستكية أقواساً دائرية في الجامع أيضاً، حيث يوجد قوس دائري في الطابق الثاني من الجامع، ويعلو القوس قوساً آخر مشابهاً في الطابق الأسفل. والغرفة الفوقانية للجامع لها طارمة نحو الخارج يعلوها القوس المذكور وأمامها مشبك حديدي، وهي نوع من (شاذروان). أما الشباييك فهي مستطيلة مربعة المقطع أي ذات زوايا أربعة. وإستخدمت الدولة الدوستكية نموذجاً من الريازة المعمارية وهو المخاريط الحجرية التي تسمى بالكردية (مروله)، وهي عبارة عن حجر في صف من كل صفيين من أحجار الجدار بارز الى الخارج بمقدار من مستوى الجدار، وذلك في بعض الجدران أو في زاوية بعضها، بحيث يتبادر الى ذهن الناظر أنها أدخلت في الجدار خرطاً كالمسامير. وكل حجر من هذه فوق وإستقامة الحجر الذي يليه من نفس النوع، وهكذا يتكون عمودياً خط من (مروله) بارزة. لقد استخدمت الدولة الدوستكية هذه الريازة في (المنظرة العتيقة) لقصر نصرالدولة، والتي تسمى الآن بـ(قلعة زمبيل فروش)، وفي البرج الخمس بفارقين وقلدها في ذلك الإمارة الأيوبية في فارقين عند تعمير المباني. وتوجد هذه الريازة لدى دول لاحقة وخاصة الدولة العثمانية. ولا ندري هل ان الدولة الدوستكية إقتبستها من دولة أخرى أم لا؟ ومن المحتمل أن تلك الريازة هي إمتداد لفن معماري كُردي قديم يعود الى النصف الأول أو النصف الثاني من الألف قبل الميلاد. فقد استخدمته الدولة الكاشية في العراق (١٥٣٢ أو ١٥٨٠-١١٠٦ أو ١١٥٧ ق.م)، حيث قدم الكاشيون من لرستان وأتو معهم بهذه الريازة. فأدخلوا المخاريط الفخارية في الجدران الطينية كالمسامير وشكلوا منها نقوشاً فسيفسائية ملونة مختلفة في المعبد الكلسي (معبد إي - أنا) في الوركاء، وهو من خصائص فن العمارة الكاشية. ولا يزال الكُرد يستعملون هذا الفن، وذلك بإدخال أخشاب كالأوتاد في الجدران الحجرية عمقاً ويسمونها (مروله)، وهو فن كُردي أصيل أحبه الكُرد وخاصة في منطقة هورامان وسوران، حتى إن محمود باشا الجاف إستعمل (مروله) خشبية في منارة جامع في قزربات (قزل رباط) في منطقة خانقين وخلف جبل حميرين. وقد أدخل المرولة في دورة المنارة لتصبح جزءاً من مقرنصاتها، والمنارة هي الوحيدة من نوعها التي تتصف بهذه الريازة في كُردستان والعراق. أما الأخشاب الكبيرة التي تدخل في الجدران الحجرية أفقياً بين كل صفيين أو أكثر، فتسمى بالكردية (ديمهك). ويستعمل النوعان لتقوية البناء وللزينة أيضاً. إن ما إستعملته الدولة الدوستكية قد جاء من طراز (مروله) ويمكن تسميتها بالمروله الحجرية، و(مروله) بكسر الميم وفتح اللام.

وإستخدمت الدولة الدوستكية الشرفات الدفاعية أيضاً في الجامع، لما انه كان ملصقاً بسور دياربكر وباب الجبل (باب خربوط)، من أبواب المدينة. والشرفات التي فوق أعالي الجامع مستطيلة مربعة المقطع. وفي وسط كل شرفة نافذة (زراقة) طويلة لرمي السهام، وقد استعملت في بعض الأبراج مثل (البرج المرواني) زراقات طويلة ضيقة.

أما مزاريب مياه الأمطار على الجامع، فعملتها من الحجر بدلاً من الخشب، وقد شاهدنا في مدينة عقرة (ناكري) مجموعة من هذه المزاريب الحجرية المحفورة على السطوح. وقد إستعمل الآشوريون المزاريب الحجرية كما تشاهد في خرائب نينوى.



لوحة للزخارف الموجودة مع الكتابات الكوفية



لوحة للزخارف الموجودة مع الكتابات الكوفية

طراز السدلي

كان الطراز المعماري المسمي في العهد الإسلامي بـ(السدلي)، الذي يسميه الكُرد حالياً بـ(كهله كى) و(كهله كى)، موجوداً في العهد الدوستكي. فقد ذكر الفارقي في (ص ١٧٧) أن نصرالدولة دُفن أولاً في السدلي بالقصر، ثم نُقل إلى القبة التي شيدها إبنته (ست الملك) بملاصقة جامع المحدثة بالميدان (أمام المدينة من جهة القبلة). ولا بد بأن دفن الأمير كان في أرضية الطابق الأسفل. لقد شرح الدكتور بدوي عبداللطيف (السدلي) بأنها القبة القائمة على ثلاث دعائم وهو خطأ. وذكر العلامة مصطفى جواد أن أصل اللفظ هو (سهدل) البهلوية الساسانية، ومعناها ثلاث قباب. وقد تم تعريب اللفظ إلى (سدري) وهو أن تُبنى الدار بثلاث قباب متداخلة: إيوان وغرفتين كل واحدة على أحد جانبي القبة الوسطى (الأيوان). ولما كان أحد قصور الحيرة (قصر الخورتق) قصر النعمان بن المنذر مشيداً على هذا الطراز، فقد سمي بالسدير (٢) وكان (قصر الخورتق) بالحيرة أيضاً مشيداً بنفس الطراز ولهذا سمي الباحثون الأبنية المشيدة بهذا الطراز الطراز الحيري أو بـ(الحيري ذي كمين). وذكروا بأنه يتكون من قلب هو الأيوان ومن ميمنة أي الغرفة الواقعة في يمين الأيوان ومن الميسرة أي الغرفة الواقعة في يسار الديوان، ويقع باب كل من الغرفتين في داخل الأيوان. وقد أتخذ هذا الطراز على هيئة تشكيلات الحرب (القلب والميمنة والميسرة). وقد تعرض هذا الطراز إلى الإهمال أكثر من (٢٣٠) عاماً، عدا إستعماله في (قصر المشتى) الأموي في الشام، إلى أن أحياه الخليفة العباسي (المتوكل) إبن المعتصم (٨٤٧ - ٨٦١م)، فإنتشر حتى وصل إلى شمال أفريقية (٣).

وتوجد حالياً في المدن العربية العراقية والكردية الكثير من الدور المشيدة على الطراز السدلي في كركوك وكويسنجق والموصل وبغداد والبصرة وغيرهما. لقد ظن الباحثون أن تاريخ هذا الطراز المعماري يعود إلى العهد الساساني، ثم علموا بأنه كان موجوداً في العهد الفرثي (الأشكاني) الأقدم، بدليل إستخدامه في بعض مباني مدينة الحضر. أما أنا فأرجعه إلى عهد الدولة الميمنية بدليل أن كهف (قزقپان) الواقع في منطقة السليمانية، الذي يعود تاريخه إلى العهد الميدي، نُحت على طراز السدلي (كهله كى). والكهف هو قبر لأحد الحكام نُحتت على واجهته صورة دكه (موقد) نار ورموز زردشتيه. وهناك أيضاً كهف مريم (شكهفتا مريمه من) داخل مدينة ناكري - عقره في منطقة بهدينان، نُحت في العهد الأشكاني (الفرثي) على الطراز السدلي. يتكون الكهف من ثلاث غرف متجهة من الجنوب إلى الشمال، قياس الغرفة الوسطية والغرفتين الجانبيتين (١٢×١٥، ٤) وإرتفاع الغرف (٣) أمتار. لكل غرفة بابها الرئيسي الخارجي مع وجود ثلاثة أبواب داخلية بين الغرف

(٢) بحث للدكتور مصطفى جواد بعنوان (الإيوان والكنيسة في العمارة الإسلامية) منشور في مجلة سومر مجلد ١٥.

(٣) بحث بهذا الخصوص للباحث الراحل ميخائيل عواد منشور في مجلة (الثقافة) المصرية العدد ١٩٩، و ٢٠٠ سنة ١٩٤٢. وقد نشرنا مقالاً بالكردية بعنوان (شيوه كيهله كى لهونهرى ناوه دانكرده وهى كورديدا) وذلك في مجلة (كاروان) العدد ٢ السنة ١٩٨٢.

الوسطى والغرفة الشرقية، وبابن بين الوسطى والغربية. وقد تبين لي للوهلة الأولى من رؤية الكهف أنه معبد زردشتي إتخذه المسيحيون بعد ذلك كنيسة لهم(٤).

لقد ذكرت الباحثة (دروثي مكاي) في كتابها (مدن العراق القديمة، ص ٢٤) أن الفرثيين هم الذين نقلوا الطراز الحيري (السدلي) الى الحيرة. ويفهم من (ص ٢٢) أن طاق كسرى كان على نفس الطراز ولم يبق منه سوى القسم الأوسط. وذكر فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى في (الحضر مدينة الشمس، ص ٢٤٢) أن أحد معابدها قد شيد على هذا الطراز، علماً أن المعبد المذكور، ويحتمل أنهما يقصدان (معبد سميا)، قد شيد في العهد الأشكاني (الفرثي). ولم نجد لحد الآن نموذجاً أقدم من نماذج القرن السادس أو النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد. و عليه فإن هذا الطراز المعماري طراز كُردي أصيل إنتشر من كُردستان الى بلدان الشرق وغيرها. أي إنتقل من كُردستان الى بلدان الشرق الأوسط، وهو الطراز الشائع الى اليوم في قرى كردستان العراق خاصة في مناطق أربيل والسليمانية وكذلك مناطق سنه وموكریان وغيرهما من مدن كردستان إيران، إلا أنه يتراجع في المدن حالياً أمام الطراز المعماري الحديث. ولكن الأحياء القديمة في المدن لا زالت تحتفظ بطراز السدلي (كهلهكي). يذكر أن هذا الطراز المعماري له نوعان المقبب والمسطح، كان الثاني شائعاً في مدن كركوك وكويسنجق وكفري. وفي سنة ١٩٩١-١٩٩٢ طرحت فكرة (بل دعوة الى) إحياء نفس الطراز في مشروع إعمار كُردستان من قبل وكالات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الخيرية، بعد تدمير العراق لحوالي أربعة الاف قرية. فقد أحييت المنظمات الخيرية العالمية نفس الطراز في بناء القرى الكُردية.

لقد تطور الطراز السدلي في منطقة دياربكر، حيث توجد أبنية فيها أيوانان متلاصقان بجانب كل منهما غرفة وأحياناً يلي إحدى الغرفتين أيوان ثالث تتبعه غرفة واحدة كما يشاهد في النموذج الأول في الصورة (ص ٥) من كتاب سافجي لبنايات موقع برج الملك (قلعة زهنبيل فرّوش)، أي موقع دار الإمارة الدوستكية. ويشاهد النموذج الثاني في صورة مدينة (لجي - ليجة) وهي الصورة (٢٣٦) من كتاب بسري كونيبار. وعندما زرت فارقين لم تكن تلك البنائيات موجودة، بل كانت توجد في أماكنها دور حقيرة كما كان قسم من الموقع خالياً من الدور فلطراز السدلي تفرعات.

ولما كان قصر نصرالدولة كبيراً، فإن نواته كانت على الطراز السدلي أو كان الطراز يتكرر في أقسام القصر.

الأزج

نوع من الفن المعماري عبارة عن البناء الذي يحمل سقفاً مقوساً. كان هذا الطراز معروفاً في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية. فقد ذكر الفارقي أن الوزير أبا الفضل الأنباري وزير نظام الدين دُفن في أزج كان قد شيد له غرب المسجد عند مشهد علي بن أبي طالب بجبل فارقين(٥). والراجح

(٤) في أيار ١٩٩٨ زرت آثار عقرة مدة خمسة أيام وفي خريف السنة نفسها مدة ستة وأربعين يوماً وأخذت آثارها في السفارة الأخيرة (١٤٧٦) صورة فوتوغرافية وعشرين ساعة كاملة بكاميرا فيديو.

(٥) نفس المصدر، ص ١٨٥.

أن فن الأرزج في كُردستان كان أقدم من العهد الدوستكي، باعتباره من الفنون المعمارية القديمة في الشرق الأوسط. وقد أشار العلامة مصطفى جواد إلى أنه من مبتكرات السومريين(٦).

القباب

من الفنون المعمارية التي إستخدمتها الدولة الدوستكية في البناء فن القبة كقباب الأضرحة، مثل قبة الأمير علي التي شيّدت على ضريحه في مدينة أرزن عند رأس الجسر، والتي دُفن فيها مهندس الدولة أيضاً، وقبة (بني مروان) في المحدثّة في الجانب القبلي خارج سور فارقين والتي شيّدتها (ست الملك) على ضريح والدها نصرالدولة ودُفن فيها نظام الدين أيضاً. وهناك أيضاً القبة التي شيّدتها (ست الناس) على ضريح زوجها ناصرالدولة منصور في مدينة دياربكر، وقبة باب الجبل في مدينة الجزيرة، التي دُفن فيها الأمير بهرام بن نظام الدين، والقبة التي شيّدها مهندس الدولة وسط (عين زغور) وتسمى الآن (أنزل - عين الزلال)، وذلك عند (باب الروم) أي باب أورفا (الباب الغربي) لمدينة آمد. وذكر ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٦٨) بأن العين المذكورة تقع خارج السور وهذا خطأ، لأنها تقع داخله في الجانب الشمالي من مسجد وجامع بالكلي.

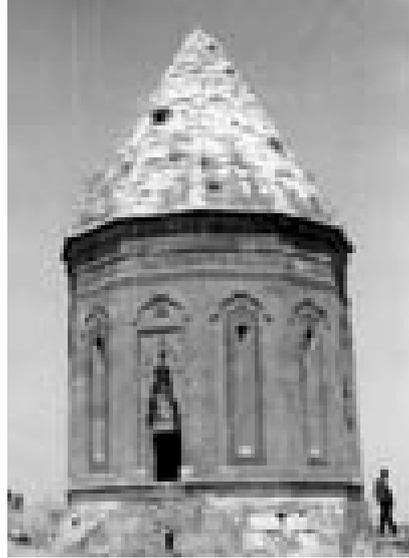
وأما شكل القباب الدوستكية، فلم تصل إلينا معلومات عنها فلانعلم لذلك هل إنها كانت بيضوية أو بصلية أو برجية أو مخروطية، كما لانعرف كذلك شكل قاعدتها مدورة كانت أم مربعة أم مثمّنة الجوانب أم غير ذلك. ولاندري كذلك مدى تشابه تلك القباب مع تلك التي شيّدت بعد العهد الدوستكي الموجودة في خلاط وأرضروم وولاية وان، وهي من أجمل القباب في العالم الإسلامي. وبعض تلك القباب مزخرف زخرفة بديعة جداً مثل قبة أرغن خاتون وقبة هوستا شاكور في خلاط وقبة حليلة خاتون عند مدينة سطان وصورتها في الصفحة التالية(٧).

يحتمل أن القباب الدوستكية كانت تمثل نموذجاً للفن الكُردّي في القباب، وكانت ذات صلة بالقباب الموجودة في كُردستان قبل العهد الدوستكي، مع العلم أن تاريخ تشييد القباب في كُردستان يرجع إلى ما قبل الإسلام. فقد كانت الكثير من البنايات قبل الإسلام في أرمينيا (التي تشمل قسماً غير قليل من كُردستان الوسطى وبلاد ما بين النهرين وفارس...) تعلوها القباب(٨). علاوة على ذلك يرى العديد من الباحثين مثل المس بيل ورابراكوس وكذلك تامارا رايس كما ورد في (السلامة، ص ١٧١)، أن شكل القباب المخروطية التي إعتبرت من الطراز السلجوقي مأخوذة من خيام الكُرد ويبدو آسيا الوسطى، فضلاً عن أن أصل هذه القباب وجد في أرمينيا صلته بأبراج كئناس الأرمن.

(٦) مجلة سومر العدد ٢٥. راجع أيضاً عطا الحديشي وهناء عبدالحالق، القباب المخروطية في العراق، ص ٩.

(٧) تقع هذه القبة العظيمة ذات الطابقين والروعة الفنية علي ساحل (بحيرة وان) مباشرة. شيّدها الأمير الكُردّي الهكاري عزالدين (بن مجلي بن أسدالدين بن منكلان) سنة (٧٣٦هـ = ١٣٣٥-١٣٣٦م). هي أقدم من قبة أرغن خاتون التي شيّدت سنة (١٣٩٧م). بين القبتين شبه كلي أو كبير في الزخرفة والسقف المخروطي والقاعدة المثلثة. والمعمار الذي بناها كان (أسد بن هاوند) الخلاطي على ما هو مكتوب فوق إحدى نوافذها. صورتها في آب ١٩٧٧.

(٨) أحمد فكري، مساجد الإسلام، ج ١، مسجد قبروان، ص ١٠١.



قبة حليلة خاتون

المنظرة

هي عبارة عن (كشك) عالٍ يطل على ماحوله أو على جهة من الجهات، كان الملوك يجلسون فيه للزهوة مع ندمائهم. كانت (المنظرة) موجودة في مصر أيضاً ولا شك بأنها، بسبب وظيفتها، كانت تتمتع بصفات معمارية جميلة.

لقد شيدت الدولة الدوستكية منظرتين في العاصمة فارقين. الأولى شيدها نصرالدولة، عندما شيد قصره (دار الإمارة) في موقع برج الملك كجزء من القصر أو مستقلاً عنه. وكان قد بوشر ببناء القصر في سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م). ذكر الفارقي في (ص ١٠٧) أن المنظرة، والتي سماها المنظرة العتيقة (لأن نظام الدين شيد منظرة جديدة) كانت تطل على الربض أي على الأراضي الواقعة في شمال المدينة بينها وبين الجبل)، فقد ذكر في (ص ٢٠٤) أن نظام الدين كان جالساً فيها في إحدى الليالي المقمرة يشرب فيها ومعه (ابن عيسون). فخرج المنجم ونظر إلى المدينة وعمارتها وإلى إشراقه سورها وإلى الربض وكثرة بساتينها. فقال لنظام الدين ما أحسن هذا البلد وأكثر العمارة التي فيه، ولكن الطالع يقضي أن الظلم والخراب سيستوليان عليه بعد زوال دولتك. فيعلم من هذا بأن هذه المنظرة كانت على قوتها، لأن نظام الدين عندما كان جالساً فيها كان قد مرّ على بنائها أكثر من ستين سنة. وفي رأيي أن جزءاً من تلك (المنظرة العتيقة) لا زال موجوداً حتى الآن. وهو البرج الصامت (غير المجوف) البارز عن مستوى السور إلى أمام والمشيد بالحجر الأبيض، مثل باقي السور المسمى حالياً بقلعة زنبيل فروش (كهلها زهيبيل فرّوش)، الواقع بين التل في الزاوية الشمالية الشرقية من السور



قلعة زنبيل فروش

الذي كان عنده (باب الشهوة) وبين (باب الهوة) الذي عليه كتابة بإسم نصرالدولة. وهو ليس برجاً حقيقياً، وإنما هو جدار برجي وطلعة في السور نحو الخارج بمقدار عدة أمتار تطل على الرض. وهي تعتبر الآن أعلى نقطة مما تبقى من سور المدينة. ويحتمل أن إرتفاع المنطرة كان في وقته حوالي (١٥) متراً أو أكثر، ولكن قسماً من قمته قد تهدم. وفي الجزء الأعلى منها شبك طولي، ولا يوجد طريق إلى قمته وتوجد عند مستوى بداية الشباك من الداخل آثار جدار سور أو بناية كانت ملتصقة به، كما يتضح من هذه الصورة التي أخذناها.

كان السكان يسمون هذه المنطقة من السور بـ(شادور) مما يحتمل أنه جاء من (شاذروان)، أي (المنطرة)، الذي يعطي معنى مشابهاً لمعنى المنطرة في إطلالتها على الجهة المقابلة. وقد نُحت وجه أحجار على مستويين، ولا يستبعد أنها جُددت في وقت ما، بحيث أن وسط الحجر أبرز من أطرافه. بحيث كوّن شكلاً مربعاً أو مستطيلاً متقدماً إلى الأمام، ويوجد الطراز نفسه في أماكن أخرى من البناية أو البرج الخمس القريب من قلعون جنوباً أي في الزاوية الجنوبية الشرقية من برج الملك وعليه كتابة بإسم نظام الدين نصر بن أحمد بن مروان، وأخرى بإسم الملك الكامل الأيوبي مؤرخة سنة (٦٤٩هـ) وفوق الكتابة صورة لأسدين بينهما (قرص الشمس). إن الأجزاء المشيدة بهذه الأحجار تعود إلى ترميمات أجريت بعد العهد الأيوبي. ويحتمل أن البناية اليمنى في صورة سليمان سافجي العالية، وهي بعرض غرفة واحدة فيها شباكان في جداره الجنوبي (لم تبق الآن) - تجديد للمنطرة. علماً بأن هذا البرج (قلعة زمبيل فروش) الذي يشبه منارة مربعة لم يُبن لغرض دفاعي وإنما للزينة (٩)

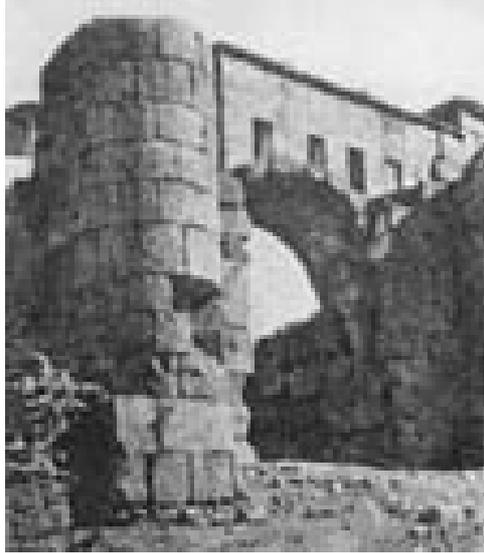
ولا يبعد كثيراً عن الزاوية الشماليه الشرقيه للسور وإنما هي بقربها. والثانية، أي المنظره الثانيه، شيدها خامس الملوك الدوستكيين نظام الدين بن نصرالدوله فوق برجين صغيرين داخل باب المدينه. أي فوق الباب الخلفي لباب قلوبح (باب كولفا - دهركه هي كولفا) الشرقي، أي الباب الواقع في السور الثاني (السور الداخلي الذي يقع خلف السور الخارجي وخلف الباب الخارجي بخمسه أمتار ونصف). وكان قد تم تركيب مرآة كبيرة في المنظره أقيمت للزينة. وقد أشرف على بناء هذه المنظره وتركيب المرآة القاضي أبي الحسن أحمد بن البعل مدير المنظره والسور، حسبما ذكره الفارقي في (ص ١٠٧) وكذلك ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧١).

شاهد ياقوت الحموي أثناء زيارته الى فارقين سنة ١٢٢٥م آثار المرآة وقال في (معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٠٤) أن البرج سمي برج المرآة، لما كانت عليه مرآة عظيمة يشرق نورها إذا طلعت الشمس على ماحولها من الجبال. وأضاف إن بعضاً من ضباب الحديد لا يزال موجوداً في البرج. مما يدل على استخدام الحديد في بناء المنظره أو في تركيب المرآة فقط على المنظره. وقد شاهد ابن شداد أيضاً في القرن الثالث عشر آثار الحديد في المنظره المشتملة على المرآة. وكان هذا الباب موجوداً الى النصف الأول من القرن العشرين حيث في كتاب بيسان أوغلو (ص ١٤٤) صورته في الصفحة التاليه.

تشاهد على الباب غرفة حديثه نوعاً ما ذات أربعة شبابيك، شيدت في مكان المنظره مع بقاء عدد قليل من أحجار المنظره في القسم الأسفل من جدار الغرفة الأيمن. ومن المحتمل أن المنظره كانت سالمه حتى عهد ابن شداد. ولكن المرآة لم تبق الى عهده، بل لم تبق حتى الى عهد الحموي الذي شاهد المكان الذي نُصبت عليه وآثار الحديد فيه. ولم يذكر كلاهما المنظره ولا يستبعد كونها قد رمت أو جُددت في القرون التاليه أيضاً. ولاشك بأن قسماً واحداً على الأقل من المنظره قد بقي الى أن تم

(٩) قصة زمبيل فروش (بائع السلال) من أشهر القصص الكُردية. هي قصة صوفية تدور حول أحد الأمراء الذين ترك الدنيا والثروة وأخذ يبيع السلال متجولاً في المدن الكُردية. كان المذكور شاباً جميلاً تراه زوجة أحد الأمراء في فارقين في قلعة (زهمبيل فروش) أي (قصر نصرالدوله) فتدعوه الى داخل القصر بحجة شراء السلال منه، ثم تراوده عن نفسها، فيأبى ويلقي بنفسه من على القلعة الشاهقة وينزل الى الأرض دون أن يتأذى.

وللقصة نص باللهجة الكرمانجية الشماليه دونها مرادخان البايدي، ولها نص بالكرمانجية الجنوبيه (سؤزاني) دونها المرحوم حاجي جندي من كُرد أرمينيا. وقد ذكرها (بسري كونيار في ج ٣، ص ٣٠٨ و ٩١) وقال إن القصة في الأصل عبارة عن فاجعة (محمد بن أبي الصقر) أحد وجهاء فارقين والمناويء لحكم الأمير أبي علي حسن بن مروان، والذي ألقاه أبو علي من على السور ومات، وذلك سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م) على ما ذكرناه في الجزء الأول، ص ١٣٣، الطبعة الأولى. وفي جريدة (هاوكاري) العدد ١٨٨ والصادر في ١٢/١٠/١٩٧٣ نشرنا مقالة بخصوص جذور القصة التي حدثت في فارقين ولها علاقة بتاريخ الدولة الدوستكية. أما المكان الذي ألقى منه ابن أبي الصقر من فوق السور، فلم يكن هذا المكان لأنه يفهم من كلام الفارقي (ص ٦٨) أن ذلك المكان كان برج باب المدينه أو بالقرب منه. وعند ذكر باب المدينه غير مقيد بباب دمعين- يقصد به (باب أرزن) الواقع في غرب الزاوية الجنوبيه الشرقيه من السور بمسافة حوالي مائة متر أو أقل. أما (باب الهوة) الذي يقرب من زمبيل فروش غرباً، فكان مسدوداً مع (باب قلوبح) في عهد أبي علي، بينما كان كل من (باب الريض) في الزاوية الشماليه الغربيه و(باب باقوسي) بعيداً عن قلعة زمبيل فروش ويحتمل أن يكون المقصود (باب الريض) حيث كان الريض ينتهي بالجبل بمنبع ماء المدينه (وفيه ينباع أخرى غير كبيرة) المكان المناسب للاحتفال بالعيد. بخصوص تلك الأبواب راجع (الفارقي، ص ٨٦).



باب كولفا - المنظرة والمرأة

تشديد الغرفة المذكورة في مكانها. هذا مع العلم بأن الآثار والتراث لم يتضررا في العهود السابقة قدر الضرر الذي لحق بهما الى ستينيات القرن العشرين في بلدان الشرق الأوسط، وخاصة في بلد مثل كُردستان نتيجة لإنعدام الوعي لدى سكانها وقلة إهتمام دولها بالآثار والتراث.

ومن المؤسف أنني لم أجد لهذا الباب، الذي كانت عليه المنظرة ومرآتها، أثراً سنة ١٩٧٧، لأنه قد تعرض للهدم من قبل بعض الجهلاء من السكان الذين أرادوا أن يبنوا لهم محله داراً قبيحة كقبح ضميره. ولذلك فقد فقدنا المميزات المعمارية التي كانت تتحلى بها المنظرة.

وأما جامع فارقين الكبير، فبسبب الترميمات التي أجريت عليه، ضاعت تفاصيله المعمارية العائدة للدولة الدوستكية عدا بعض التجويفات الداخلية في السقف بالقرب من النهاية الغربية منه، التي تعود الى العهد الدوستكي وكانت تستخدم لنقل صوت الإمام الى أرجاء الجامع الفسيحة. وعندما بوشر بتجديده في العهد الأرتقي جرى إحياء طراز التجويفات في الأقسام المتهدمة من الجامع للغاية نفسها. ويوجد في الجدار الشمالي وتحت إفريز المقتنطرات على الأقل بابان يعودان الى ما قبل العهد الأرتقي، وهما مثيران للإهتمام معمارياً، كما ترى من صور بسري كونيبار (٢٠٥-٢٠٧). ولكني لا أستطيع البت بكونهما من العهد الدوستكي، وذلك لأنهما مشابهان لباب كنيسة مريم البيزنطية في مدينة دياربكر. أما جامع نصرالدولة في دياربكر والذي مر بأدوار ترميمية عدة، فلم أتمكن من دراسته عندما رأيت، دراسة دقيقة.

وبهذه المناسبة تجدر الإشارة الى أنه نشأ في كُردستان معماريون مهرة، وتشهد على إبداعاتهم ما خلفوه من آثار رائعة من المباني والقلاع والأسوار والمساجد والقباب والمنارات والجسور وغيرها، كقلعة

بدليس وسور دياربكر والجامع الكبير وجسر باطمان والمنارة المعلقة الحجرية المشيدة على أربعة أعمدة حجرية في دياربكر، وجسر باطمان وقباب خلاط وكذلك المدرسة الياقوتية والحاتونية (جفته مناره) في أرضروم، والمدرسة الزنجيرية في ماردين، وهذه المدارس التي تزينها الزخارف البديعة وغيرها من الآثار التي تعود الى القرون الوسطى.

كما قام معماريون مهرة من كردستان ببعض الأعمال البنائية في الخارج، وشيد هؤلاء آثاراً يعتبرها علماء الآثار ومؤرخو الفنون الإسلامية من الآثار الرائعة في فنها المعماري. ففي النصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، أي في العصر الدوستكي، إستعان بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي (المستعلي) بثلاثة أخوة معماريين من سكان مدينة الرها (أورفه) بإقليم دياربكر، في تجديد ثلاثة من أبواب سور القاهرة، وقد بنى كل منهم باباً منها (١٠). كما شارك بعض من سكان نصيبين في بناء الدير القبطي المعروف بالدير السرياني في وادي النطرون بمصر، والذي يزخر بالزخارف الجميلة المتأخرة عن العصر الطولوني (١١)، أي بعد القرن التاسع الميلادي. وقام الحاج منجبرتي الخلاطي بصنع منبر جامع علاء الدين في مدينة قونية عام (٥٤٠-٥٤١هـ = ١١٤٥-١١٤٦م)، ولا يزال هذا المنبر قيد الإستعمال ويعتبر واحداً من الآثار الفنية، وأسم صانعه مكتوب عليه (١٢).

وفي عام ٦٢٦هـ (= ١٢٢٨م) بنى خرامشاه بن مجيد الخلاطي بالإشتراك مع أحمد إبراهيم التفليسي البوابة الشمالية ذات الروعة الفنية للجامع الكبير في ديورغي (١٣). وقام هذان البنّاءان في نفس السنة ببناء مستشفى الأمراض العقلية في نفس المدينة، وهو فريد في طراز بنائه، ولعل أحسن وصف له هو أنه زاه كثير الألوان والزينة أكثر من كونه عملاً غريباً كثير الزخرفة (١٤). لقد نشأ في خلاط كثير من المعماريين والنقاشين، مثل قاسم بن استاذ علي ويزد بن فاتح وأصيل بن ويس وهاوند بن برگي وقاسم بن محمد (١٥).

هذا وللبنائين في ماردين وطورعبدين شهرة فائقة في مهارتهم المعمارية في تشييد القصور الحجرية، ومعظمهم من المسيحيين. وقد إشتهر منهم في الماضي هوستا حنه (حنا) من البنائين ولاسيما بعد أن شيّد (برجا بهلهك) من قلعة الجزيرة. فأصبح هذا مضرب المثل للبنّاء الكرديستانيين الماهر حتى الآن، ولذا يتردد إسمه كثيراً في الأغاني الكردية الشعبية. أما سكان خلاط فلا زالوا يحتفظون بما إشتهر به أجدادهم أو قدماءهم من فن العمارة. ويحتمل أن سكان كردستان تركيا إستفادوا في العمارة من الآراميين والبيزنطيين القدماء، حيث كان فن العمارة راقياً في المناطق العربية منها. ويذكر التاريخ أن الملك الساساني (قباد الأول) لما إستولى على مدينة دياربكر (آمد)

(١٠) الدكتور جمال الدين سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص ٧٨.

(١١) دكتور زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر، ص ٧٢.

(١٢) تمارا رايس، السلاجقة، ص ٢٢٦.

(١٣) نفس المصدر، ص ٢٣٢ فيه صورة لقسمين من البوابة.

(١٤) نفس المصدر ص ١٦٥، ورد هنا - كورامشاه الجيلاني الخلاطي.

(١٥) في كتاب AHLAT MEZAR TASLERI لبيهان قره مغاره لري أسماء عشرين بنّاءً ونقاشاً من خلاط.

في أوائل القرن السادس، دخل حماماتها فأعجب كثيراً بعمارتها وتنظيمها، فأمر ببناء حمام على نفس الطراز في كل مدينة من مدن فارس (١٦).

ومن الجدير بالذكر ان الفن المعماري في كردستان تركيا أرقى من أمثاله في باقي مناطق كردستان. فدور الفلاحين على سبيل المثال في مناطقها، وخاصة الجبلية منها، لا تقاس بمشيلاتها في مناطق أربيل وكركوك والسليمانية، عدا منطقة هورامان، من حيث المظهر والمتانة. وكثيراً ما تجد دوراً جميلة ذات طابقين في حين أن أصحابها فلاحون صغار. ولم تكن هذه المهارة المعمارية حديثة، بل مورثة من الأجيال الغابرة. وأخيراً لم يصلنا من أسماء البنائين في العهد الدستكي سوى عدد قليل منهم نصير بن حبيب وعبيد بن (سفر؟) وموسى بن يزيد وأبو سعد بن (حميض؟).

الزخرفة

إستخدمت الدولة الدستكية زخارف مختلفة في تزيين عماراتها وأثارها، ولعل القصر الدستكي الذي شيده الأمير نصرالدولة سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م) من أهم عماراتها المزخرفة. فقد أولي إهتمام كبير لزخرفته، حيث ذكر الفارقي بأن القصر رُوق وأجري في حيطانه وسقوفه الذهب (١). أي زينت بزخارف من ذهب، كما مر من نص كلامه في موضوع فن العمارة. أما جامع العجم أي الجامع الكبير في فارقين، والذي جدد عمارته نصرالدولة، فكان يضم زخارف بديعة. أما سور مدينة دياربكر (أمد)، فلا تزال أقسام منه تضم الكثير من الزخارف الدستكية الدقيقة في فنها، والتي بلغت أرقى مستوى في فن الزخرفة. هذه الزخارف التي أبدع فيها الفنان الكردستاني الدستكي هي الموجودة في الأشرطة الكتابية على عدد من أبراج وأقسام السور. وقد نالت تلك الأشرطة والأفاريز الكتابية الكوفية بزخارفها ومادتها الكتابية عناية الباحثين وفي مقدمتهم المستشرق السويسري (فلوري) وأستاذه (قان برشم)، حسبما ذكرناه في موضوع تطور الكتابة الكوفية.

أما الباحث (ديماند)، فقد إعتبر تلك الزخارف من فنون النحت الراقية حينما قال: "ومن حسن الحظ أن المؤرخ من تاريخ دياربكر يكشف عن مدى التطور الذي أصاب فن النحت الإسلامي وفنون الزخرفة بصورة عامة في العصر السلجوقي. فبينما جرت عادة الفنانين في العصر العباسي على كتابة الخط الكوفي على أرضية خالية من الزخرفة، فإننا نجدهم في نقوش دياربكر في عهد المروانيين (أي الدستكيين) ينفون الحروف الكوفية بتفرعات نباتية مورقة. وتاريخ تلك النقوش هو ٤٢٦، ٤٣٧، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٧٦هـ".

ثم يذكر ديماند أن السلاجقة هم من إبتكر الزخرفة الحيوانية في الكتابات الكوفية بدياربكر (٢). ولكن الباحث المذكور لا يعلم بأن السلاجقة ليسوا مبتكريها، وإنما إبتكرتها الدولة الدستكية ومنها

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ٢١٧.

(٢) الفارقي، ص ١٠٧.

(٣) ديماند، الفنون الإسلامية، ص ١٠٠.

إنتقلت الى السلاجقة في آثار دياربكر ودليلنا على ذلك الرسوم الحيوانية التي نجدها في الكتابات الدوستكية، والتي تعد دليلاً آخر على إهتمام الدولة الدوستكية بالزخرفة والنحت.

لقد كان الفنان الدوستكي موفقاً في التكشير من تنوع الزخارف وفي الإبداع الفني، ولهذا إستطعنا أن نشخص في عدد قليل من الأشربة الكتابية واحداً وخمسين نوعاً من أنواع الزخرفة النباتية، كما يتضح من لوحتي الزخارف، وهما منقولتان عن لوحتين للكتابات الدوستكية نشرناهما في موضوع تطور الكتابات الكوفية المزخرفة، فراجع هناك (٤).

الرسوم الحيوانية

لم يحصر الفنان الدوستكي إهتمامه بالزخرفة فقط، بل وزعه بين الزخرفة والنحت. والمقصود بالنحت هنا الرسوم الأدمية والحيوانية المنحوتة على الأحجار. ورغم إندثار العديد من الآثار والعمارات الدوستكية، إلا أننا نجد عدداً من هذه الرسوم على آثارها الباقية، وهي رسوم دقيقة تشهد على مدى دقة وبراعة الفنان الدوستكي في النحت والتصوير. وبخصوص موضوعنا (النحت)، يوجد رسم لأسد على جسر دياربكر الذي شيده الأمير نظام الدين على نهر دجلة سنة (٤٥٧هـ = ١٠٦٤م). ويمثل الرسم أسداً متجهماً لليمين رافعاً ذيله نحو ظهره ولسانه طالع كأنه يلهث. ولعل الفنان أراد عن طريق تصوير لسان الأسد خارجاً من فمه أن يرمز الى ضرورة الماء للحياة أو أن له معنى آخر. وعلى الجنب الأيمن للأسد صورة رمز يشبه مثلثين قاعدتيهما مرتبطتين بخط. وقد علق (ماكس فان برشم) على هذا الرسم وتساءل عما إذا كان شعاراً للدولة الدوستكية. وأورد فان برشم وكذلك بسري كونيار صورة لهذا الرسم، وأشار الى وجود رسم لأسد مماثل على أحد الأبراج عند باب خربوت شيده الأمير ناصرالدولة منصور سنة ٤٧٦هـ (٥) كما ذكرنا في موضوع (شعار الدولة).

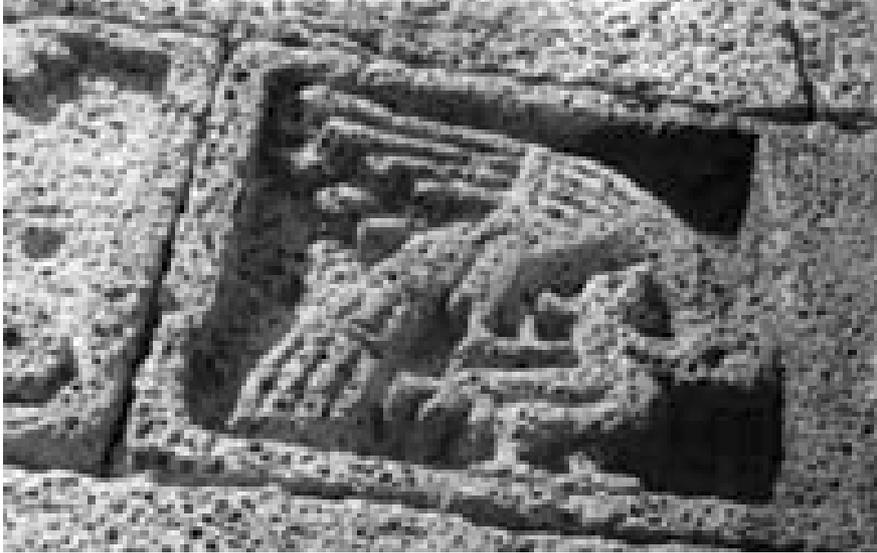
لقد وجد فان برشم رسوماً حيوانية من العهد الدوستكي على سور فارقين أيضاً، وقال عنها: "توجد على السور أشكال على هيئة نجمة البحر وبها خمسة فروع على بايين صغيرين (أي رأس كل فرع) رسوم على شكل عصفير وقد تركها المروانيون (الدوستكيون) فيما يسمى بـ(ركن محراب) حفراً في صخور السور". وأضاف فان برشم بأنها من خصائص الفن المرواني (٦).

وتوجد صورة لهدهد أيضاً في الكتابات الدوستكية على برج مربع من سور دياربكر في الشريط الكتابي المؤرخ سنة (٤٦٠هـ) من عهد نظام الدين. والهدهد في الصورة متجه نحو اليسار وقد وضع رجليه على حرف العين من كلمة (وأربعمائة) في نهاية الكتابة. ويكون ذلك الرسم لصغر حجمه

(٤) ساعدنا مشكوراً الفنان الكردي دارا محمد علي الأربيلي بنقل الزخارف عن الأصل، أي عن اللوحتين اللتين تجد صورتها في الموضوع المشار اليه، وقد بذل جهده لكي تكون طبق الأصل، ولو أن الزخارف الأصلية كانت أدق بكثير.

(٥) ص ٣٤ من: Van Berchm / Amida . Besri Konyar / Diyarbakir Tarikhi. ج ٢، ص ٣٤، ٣٦، والصورة نقلناها من المصدر الأخير وهي الصورة رقم (٢٥).

(٦) نفس المصدر الأخير، ص ٣٤.



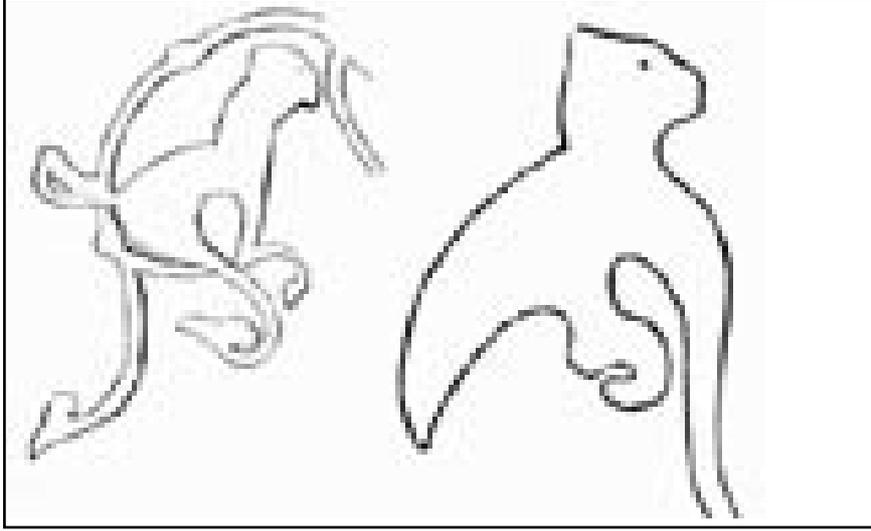
النسر والحمامة

زخرفة حيوانية للكتابة، كما أشرنا اليه في موضوع الزخرفة، وهو في غاية الإتقان والإبداع الفني. فقد إلتجأ الفنان الى مميزات عديدة لإبراز مكانة الهدهد في مجال الإعتقاد الشائع فيه من قبل المجتمع إبتداءً بالمنظور الجوي، أي إمتلاكه البعدين (أي من الجانب وال فوق)، ثم أسلوب مطابقة الطبيعة وعدم الإلتجاء الى التجريد في أعضاء جسم الطير. وإختار الفنان رسم الهدهد في كتابة تضم اسم نظام الدين، ليرمز الى سياسته الحكيمة في معالجة المشاكل، مثلما كانت تعالج بالهدهد أمراض عديدة نفسية وغير نفسية.

ويوجد أيضاً رسم عصفور منحوت في كتابات دوستكية على سور دياربكر صورها فان برشم، ولكن تاريخها غير واضح بسبب التشويه. والرسم منحوت فوق الكلمة الثانية أو الثالثة من السطر الثاني من الكتابة، وأظن أن فان برشم لم يذكر هذا الرسم أيضاً (٧).

وتوجد على سور قلعة دياربكر المسماة (إيج قلعه)، الواقعة في الضلع الشرقي من السور، كتابة كوفية من عهد الأمير نظام الدين بن نصرالدولة مؤرخة في سنة (٤٦٤هـ = ١٠٧١م). وقد نُحتت في بداية الكتابة صورة نسر وحمامه، وفيها وضع النسر رجليه على ظهرها وهو آخذ برقبتها بمنقاره ليفترسها. الصورتان تم نحتهما بدقة فنيه تشهد على مهارة الفنان، وقد صورناهما في ١٩٧٧/٨/٢١ مع صورة شريط الكتابة الطويل، وبين الكتابة نجمتان إحداهما سداية والأخرى خماسية، وفي أعلى الصفحة صورة النسر والحمامة.

(٧) رقم صورة الكتابة المذكورة في أميدا ١١:١٢، وقد عرضت الصورة على عدد من ذوي الإختصاص في مديرية الآثار العامة ببغداد لغرض قراءة الكتابة، ولكنهم لم يتمكنوا من تشخيص تاريخها.



صورة تجريدية للنمر وحيوان آخر بين زخارف الكتابات

وتجدر الإشارة الى وجود صورة للشمس مشعة في كتابة سنة (٤٣٧هـ) التي فيها إسم نصرالدولة وولده سعدالدولة أبو حسن، موجودة على أحد الأبراج الواقعة في شرقي (كچي برجو) من سور دياربكر، كما سيأتي نص الكتابة.

رسوم تجريدية

من الرسوم المنحوتة على الآثار الدوستكية أيضاً، رسم (نمر) بأسلوب تجريدي بين الزخارف النباتية اللولبية، وذلك في الكتابة المؤرخة (٤٤٤هـ) الموجودة على سور دياربكر من عهد الأمير نصرالدولة. والرسم المذكور صغير الحجم بحيث أن الباحثين لم يتمكنوا من تشخيصه من بين الزخارف، وقد رسمه الفنان بشكل تجريدي بديع بحيث تنتهي كل من يد النمر ورجله اليمنى بفرع نباتي وكذلك ذيله. وقد مزج النحات بين أعضاء جسم النمر والفروع النباتية. ويمثل هذا الرسم أيضاً عنصراً زخرفياً حيوانياً للكتابة.

إختار الفنان النمر، لأنه رمز للقوة وخفة الحركة. ومن الجدير بالذكر أن الرسم يأتي في أوائل السطر الأول من الكتابة، التي مضت صورتها في موضوع تطور الكتابة الكوفية المزخرفة. ويوجد رسم تجريدي لحيوان آخر رأسه يشبه رأس حيوان سنوري، غير أن له جناحان ينحدر أحدهما ليتلاصق بحرف الميم من كلمة (بعمله) من السطر الأول من الكتابة المؤرخة بسنة (٤٢٦هـ)، التي أدخلنا صورتها في موضوع الكتابة الكوفية أيضاً. لقد ذكرنا في موضوع العملة الدوستكية أن نهاية بعض الحروف من كتابات النقود تنتهي برأس البط أو الوز.

لاشك أن الدولة الدوستكية قد تركت آثاراً فنية معدنية وخشبية كالأبواب والتحف. ويشير الفارقي أكثر من مرة إلى باب من النحاس سماه (باب الصفر)، صنعه نصرالدولة خصيصاً لباب قصره بمدينة النصرية، التي شيدها على الضفة الشرقية لنهر باطمان، وكتب عليه اسمه مما يدل على أهمية هذا الباب في صنعه وفنه. وقد وجد الفارقي على باب جامع فارقين كما ذكرنا (٨).
ويظهر أن الصناع في كردستان قد تفننوا في صنع الأبواب المعدنية، مثل باب كنيسة فارقين الحديدي المشبك الذي أعجب به الرحالة الفارسي ناصر خسرو، وأكد على أنه لم يجد له مثيلاً في أي مكان آخر. ووجد أيضاً باباً من الحديد على أحد أبواب مدينة فارقين من جهة الغرب وأضاف أن هذا الباب يعلوه طاق حجري (٩).

تخطيط وتجديد مدن

قامت الدولة الدوستكية بإنشاء الكثير من المشاريع العمرانية في بلادها، من تخطيط مدن وبناء قصور وفنادق وخانات (الرُبط) وحمامات ومساجد وبناء المساجد والجسور، وقنوات الماء وتشديد التحصينات الدفاعية كالقلاع والأسوار. وقد حصل في عهد الدولة الدوستكية حركة عمرانية نشيطة أشار إليها الطبيب ابن بطلان بإشتغال الناس في (الزواجار) أي العمل في البناء كما ورد ذكره في أوائل موضوع الحالة الاقتصادية.
لقد وصل إلينا ذكر عدد من تخطيط وتجديد مدن كانت من معالم حضارة كردستان الوسطى في العصر الدوستكي، منها ما ظل خالداً حتى اليوم رغم مرور ما يقرب من ألف سنة عليها، وقد أشرنا إلى بعضها في مناسبات اقتضت ذلك. ومن تلك المشاريع:

مدينة النصرية

باشر الملك الدوستكي نصرالدولة ببناء مدينة له على الضفة نهر باطمان الشرقية سماها (النصرية) نسبة إلى لقبه نصرالدولة أو كنيته أبي نصر. واختار لتخطيط المدينة موقعاً يمتاز بجماله الطبيعي لاسيما وقت الربيع. وكان يقضي في كل سنة فصل الربيع في المدينة. وقد وفر في هذه المدينة أسباب العيش والرفاهية والنزهة. وقد أعجب المؤرخ الفارقي بهذه المدينة، فقال في (ص ١٤١) بصدد بنائها وبناء أماكن في الطريق للإقامة فيها أثناء سفره إليها ما يلي: "... بنى نصرالدولة النصرية وأحسن عمارتها وبنى قصراً مليحاً على جانب الشط، وعمل فيها الأسواق والحمامات والدور وبنى لكل من بني عمه وأولاده دوراً وتديرها جماعة من الناس وعمل دولاباً على الشط ورد الماء إليها وعمل

(٨) الفارقي، ص ١٤١، ١٤٥.

(٩) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨. راجع أيضاً لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٤٣، و ١٤٠-١٤١. لعل الباب الذي يعلوه طاق حجري هو باب القصر العتيق وسمي قديماً أيضاً باب الفرح والغم، وكانت عليه منحوتتان، راجع الجزء الأول، ص ٧٨، ٨٠.

الساتين والبرك... وعمل (باب الصفر) الذي هو اليوم بالجامع وركبه على باب قصره وعمل فيها كل ما يراد. وهو أنزه الأماكن وأحسنها. وكان الأمير زمان الربيع يخرج هو وأولاده وجواربه ونساؤه أجمع وأصحابه وبنو عمه الى النصرية ويطعمون بها في تلك المروج والأزهار مدة الربيع... وكان أول يوم يسيرون من المدينة الى القرية المعروفة الآن بباطري وهناك مسجد وفندق أثره باق الى الآن على النهر (١). فيقيمون يومهم ثم يصبحون فيسير في اليوم الثاني رجاله الى أسفل النهر عند (بابودين) وقد بنى الوزير فخرالدين بن جهير المسجد الذي يعرف بمسجد الشيخ الى اليوم وفندقاً وداراً وحماماً، فيقيمون يومهم ويصبحون من غدوة فيسيرون الى الجنيينة فيعبرون الجسر ويطعمون بجانب الشط الشرقي وكان بنى هناك على رأس الجسر عند تل بنان مسجداً وفندقاً فيقيمون يومهم ويصبحون فيسيرون من غدوة الى النصرية ويتفرجون في الطريق على المروج والأزهار والصحارى ويطعمون بالنصرية هذا الربيع الى أن يحمر الحر ويعودون الى المدينة".

لم يحدد الفارقي وغيره تاريخ بناء النصرية، والأرجح عندي أن نصرالدولة بناها في أواخر عشرينات أو أوائل ثلاثينات القرن الخامس الهجري، أي في الفترة من (١٠٣٦-١٠٤١م). ولهذا فإن ما حددناه من تاريخ بنائها بسنة (٤٢٣هـ) في الجزء الأول من كتابنا هذا خطأ. وقد إستفست من العديد من سكان فارقين عن مكان النصرية وعمما اذا كان هناك إسم قريب لها، وخاصة من الأستاذين الملا محمد المفتي مفتي فارقين (٢) والملا عبدالهادي إمام الجامع الكبير بفارقين وابن العلامة الشهير الملا حسين كجك (٣) فأجابا بأنه كانت هناك بليدة بإسم (ألمدينا) كانت تقع على ضفة نهر باطمان وكانت مركزاً لناحية. ولكن جرفتها مياه نهر باطمان قبل عشرين سنة فتم إتخاذ باطمان مركزاً لتلك الناحية. ولهذا يحتمل جداً أن (ألمدينا- مدينا) كانت هي مدينة النصرية، لأنها كانت تقع في نفس البقعة أو الموقع التي كانت قد بُنيت فيها النصرية. هذا علماً بأن إسم (مدينا) قد ورد في إحدى الأغاني الكوردية بخصوص مذبحه قرية (جانو). وسألت سكان فارقين كذلك بخصوص قرية (باطري)، فقالوا أن هذا الإسم غير موجود، ولكن توجد قريتان أسفل فارقين وعلى نهرا في المنطقة التي كانت فيها (باطري)، وهما قريتا (رشو- رهشوّ) و(تريسي- تريهسي). فلا بد إذن أن باطري

(١) ورد في نسخة من تاريخ الفارقي إسم (باطرس) بدلاً من باطري والمقصود بالنهر هنا ماء فارقين. وفي أحسن التقاسيم، ص ٣١، للمقدسي، كلمة فندق وخان وتيم ودار التجارة ألفاظ مترادفة.

(٢) كان الملا محمد المفتي عالماً فاضلاً سمعت بأنه إنتقل الى رحمة الله.

(٣) كان الملا حسين بن الملا عبدالله من سكان قرية (دهشته دهحل) ولعلها (سهردهحل) الواقعة في غرب جزيرة بوتان. درس على العالم الشهير الملا عبدالرحمن الهوسري في (هوسهر) القريبة من الجزيرة، ودرس على الملا فتح الله الوركاني في بدليس وعلى العلامة الملا حامد السعدي من أحفاد الملا خليل السعدي، وذلك في مدينة سعرد. ونال الإجازة العلمية من الملا أحمد مفتي فارقين. أصبح الملا حسين كجك أي الملا الصغير مدرساً في فارقين، وكان من مشاهير علماء وقته. توفي بفارقين سنة ١٩٥٥. كانت ولادته في (١٢٨٨هـ = ١٨٧٢م). له خمس مؤلفات (فتح الجليل في الفقه، وقد تم طبعه) وكتاب آخر في علم الكلام وآخر في علم البيان (الإستعارة) وآخر في الرد على الوهابيين والخامس شرح كتاب الملا أبو بكر ميرزا رستمى المسمى (الوردة النضارة في المجاز والإستعارة). وقد زودني بهذه المعلومات الأستاذ الملا عبدالهادي واخوه الملا مهدي أطل الله بقاءهما.

هي إحدى القريتين وقد تغير إسمها. وفي الثاني والعشرين من آب ١٩٧٧، توجهت من فارقين إلى نهر باطمان (٤) محاولاً إكتشاف الطريق الذي كان يسلكه نصرالدولة إلى النصرية وما على الطريق من قرى، وكذا الفنادق والخانات التي شيدها في الطريق، وإكتشاف آثار الجسر الذي بناه على نهر باطمان في هذا الطريق المتموج. فوصلت قرية بابودين (بابوزين) الباقية بإسمها القديم، والتي تقطنها حوالي (٣٥) أسرة والتي تقع على الجانب الشرقي من وادي ماء فارقين، فلم أجد هناك أية آثار للمسجد أو الفندق أو الدار أو الحمام، التي شيدها نصرالدولة هناك. وسألت سكان (بابودين) عما إذا كانت توجد في حدود القرية آثار بنايات قديمة، فأجابوا بالنفي.

ومن بابودين إتجهنا إلى نهر باطمان في طريق ترابي والمسافة بينهما حوالي (٣) كلم. فمررنا بالقرب من قرية (جانو) (٥)، ولم نتمكن من الوصول إلى النهر لوقوع جدول كبير على طريقنا تم حفره من النهر. فلم ندخل لذلك إلى قرية (بيلهكان) الواقعة على الضفة الغربية للنهر، فرجعنا وإتجهنا شمالاً إلى جسر (مالا بادي) الشهير بجسر باطمان (براقمان) التاريخي العظيم. وعبرنا من فوق الجسر الحديث وإتجهنا جنوباً بموازة النهر إلى قرية (كيرك) الواقعة على الضفة الشرقية مقابل (بيلهكان) وبينهما النهر في مجراه العريض، وبين القريتين مسافة حوالي (٥, ١) كلم. شاهدت آثار (جسر الجنينة) الذي بناه نصرالدولة ولم يبق منه سوى إحدى قواعده غير الكاملة أيضاً. وبالنظر لإتساع مجرى النهر هناك، فلا بد بأن الجسر كان طويلاً يصل طوله إلى أكثر من (٢٠٠) متر. وقد ذكر الفارقي الجسر بإسم (جسر تل بنان) مرة و(جسر الجنينة) مرة أخرى.

وقد توصلت نتيجة لهذه السفرة إلى أن قرية (كيرك) المطلة على النهر وعلى رأس الجسر الشرقي، والواقعة حالياً على الطريق العام فارقين- باطمان- سعرد، هي قرية (تل بنان). أما قرية (جنينة) فيفهم من كلام الفارقي أنها لم تكن بعيدة عن ضفة النهر الغربية، فيحتمل أن تكون قرية (بيلهكان) الواقعة على هذه الضفة التي عندها تل أثري، ولم أصل إليها إن كانت موجودة آنذاك. وبخلاف ذلك فإن (جنينة) قد تكون قرية (جانو) الواقعة في التلال الصغيرة القريبة من النهر بمسافة حوالي كيلومترين مع تقارب الإسمين. ولكن ذكر لي بأن (جانو) كان إسماً لرئيس القرية عندما كان سكانها من المسيحيين، إن لم يكن من ذكر لي ذلك متوهماً. ولا أستبعد من ناحيتي أن تكون قرية جانو في العهد الدوستكي عند موقع (بيلهكان)، حيث ضفة النهر منبسطة، ثم إبتعدت بعد ذلك بسبب أحد الفيضانات إلى موقعها الحالي.

(٤) كان معي محمد الواثق وفائق يشيل والسائق محمود شمس الدين والأخيران من سكان فارقين ومن الوطنيين الكُرد.
(٥) ذكر لي بأن سكان قرية (جانو) كانوا مسيحيين قتلت تركيا معظمهم في إحدى حملات الإبادة ضد المسيحيين ولم ينح منهم سوى القليل. وفي كتاب (ستراتنج زارگوتنا كوردايه يا تاريخي ل ١١٦-١١٨) وهو كتاب ثمين للدكتور نوردخان جليلي، أغنية كوردية بعنوان (فهرومانه) أي (حملة إبادة) بخصوص المذبحة التي وقعتها الدولة العثمانية في سكان (گوندئ جانو) وإحراق القرية بحيث لم يبق من سكانها حي عدا أطفال تشردوا في العراء. ثم تتطرق الأغنية إلى مذابح المسيحيين في فارقين وبشيري وغرزان (أرزن) مما تقشعر له الأبدان. ويرد في الأغنية أيضاً اسم السلطان عبدالحميد، مما يفهم ان المذبحة كانت في عهده، ويرد في الأغنية كذلك ذكر جندرمة (المدينا) الذي شاركوا في المذابح.



منظر من مدينة ماردين

وخلاصة القول ان سفرتي تلك لم تكن كافية، إذ لم أصل الى (بيله كان) ولا الى مكان بليدة (ألدينا)، التي لم تكن بعيدة عن (كيرك) بأكثر من عشرة كيلومترات. كما لم أتمكن من البحث عما كان عند (تل بنان) من مسجد وفندق، ولكن السفر لم تخل رغم ذلك من فائدة.

تجديد عمارة مدينة ماردين

يظهر أن يد الإعمار والبناء قد إمتدت في عهد الدولة الدوستكية الى مناطق عديدة من البلاد. فسارت لذلك التقدم العمراني جنباً الى جنب التقدم الذي حصل في المجالات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية وغيرها. ومن معالم هذا التقدم (مقارنةً بالعهود السابقة) تجديد بناء مدينة ماردين في عهد الأمير نصرالدولة، بعد مرور ما يقرب من سبعين سنة من عهد الدولة الدوستكية. وقد تحدث عن هذه المأثرة العمرانية الحضارية المؤرخ المفتي عبدالسلام المارديني. فقد ذكر إن ماردين التي ظلت عامرة قريباً من مائة سنة بعد الفتح الإسلامي، إستولى عليها الخراب وخت من سكانها حوالي ثلاثمائة سنة الى أن عمّرها الأمير المذكور، وقال المارديني: "... ثم إن ماردين لما دخلت في قبضة الإسلام وحكم بها عامود بن مارية إمتدت عمارتها قريباً من مائة سنة ثم آلت الى الخراب وصاح على أطلالها اليوم والخراب وبلدة ليس فيها أنيس إلا اليعافير واليعيس وختت عن نحو ثلاثمائة سنة حتى

إستولى على دياربكر والجزيرة رجل من الأكراد يقال له أحمد بن مروان... وكان من أهل الشجاعة والسماحة والدولة والعظمة... ثم إن المذكور شرع بتعمير بلدة ماردين وعمّر ما حولها من القرى ونقل إليها الرجال والأموال وبنى أسواقها ومساجدها وكانت عمارتها سنة ٤٤٠هـ ولم يزل يرسل إليها نوابه الى ان توفي..."(٦)

(٦) عبدالسلام المارديني مفتي مدينة ماردين (حكام ماردين أو تاريخ ماردين، الورقة ١١٦ نسخة مخطوطة من مكتبتي كتبت في حياة المؤلف سنة ١٢٥٨هـ) وهو كتاب قسم لم يطبع لحد الآن ويقع في (٣٩٤) صفحة. (ماردين) مدينة من كردستان تركيا، وهي الآن مركز ولاية يتبعها أحد عشر قضاءً وتتأخم الحدود السورية العراقية، وتعتبر هامة من الناحية الإقتصادية، حيث بلغ إنتاجها من الحنطة والشعير سنة ١٩٦٥ (١٠٠٨٢.٠٠٠) طن من الحبوب ومن الزبيب وحده (١٠٠٤٣.٠٠٠) طن وبلغ عدد الأغنام والماعز فيها (١٠٢٩٧.٠٠٠) رأساً. وأما نفوس المدينة، فكان (٣١٠٠٠) نسمة. وبخصوص تاريخ هذه المدينة كانت قلعتها عامرة قبل العهد الدوستكي بحوالي تسعين سنة، وقد تحصن بها حمدان بن حمدون التغلبي جد الحمدانيين، وحاصرها الخليفة العباسي المعتضد وإحتلها سنة ٢٨١هـ = ٨٩٤م) أو التي بعدها. ولما إحتلها هدمها على ما ذكره ابن الأثير في (الكامل، ج٧، ص١٥٤). أما في القرن التالي، فقد ورد ذكرها كقلعة فقط كل من الإصطخري وابن حوقل ولم يذكرها ماردين كمدينة بينما ذكرها المدن والقصباء الواقعة في تلك المنطقة مثل نصيبين ودارا (القريبة من ماردين والتي بناها البيزنطيون في أوائل القرن السادس الميلادي)، وذكر رأس العين وكفرتوثا وغيرها. أما ابن خرداذبه وقدامه بن جعفر فقد أوردوا ذكر (كورة ماردين) دون ذكر المدينة، بينما لم يورد لها المقدسي ذكراً في حين ذكر أكثر من عشرين مدينة صغيرة وكبيرة من إقليم الجزيرة. ولم أجد لها ذكراً كذلك في أخبار سيف الدولة الحمداني والروم البيزنطيين الذين وصلت بعض غاراتهم الى منطقة ماردين، ودمروا هناك مدناً مذكورة في معظم المصادر التي تطرقت الى ذكر تلك الأخبار. وما تقدم يمكن أن نتوصل الى أن مدينة ماردين قبل العهد الدوستكي كانت عبارة عن القلعة فقط، أما المدينة التي تقع في وسط الجبل الذي فوقه القلعة الشما، فلم تكن موجودة أو عامرة وعمرتها الدولة الدوستكية، فكانت مدينة جديدة ناشئة في النصف الأخير من عهدها ولم تكن ذات أهمية. ولم يذكرها الفارقي في عهدها، بل ذكرها بتسع سنوات من سقوط الدولة الدوستكية، أي في العهد السلجوقي. حيث قال ان واليها في سنة (٤٨٧هـ) كان يدعى (جالستري). وفي سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٦م) ذكرها مستنسخ كتاب (صوة الأرض) لابن حوقل في تعليق له نشر ضمن (ص٢٠٢) باسم (ريض ماردين) بينما أطلق اسم ماردين على القلعة. حيث قال: "ماردين حصن حصين منبع ومن تحتها - أي تحت القلعة - ريع عامر منغص بالسكان ضيق الأسواق وليس بين أيديهم حائل يمنعهم من النظر الى برية رأس العين والمخابر وسنجان ومياههم من عيون مجرورة في قنوات وقد إستحدثوا الآن الصهاريج والبرك ليجمعوا ماء المطر حيث كثر الخلق وإزادات العمارة - علماً أن هذا الشخص عاش في المنطقة ورأى ماردين وغيرها. ويستفاد من كلامه ان اسم ماردين لم يكن يغلب لذلك الوقت على الريض، بل على القلعة مما يدل على ان المدينة كانت حديثة وغير عامرة قبل العهد الدوستكي، أي في زمن كل من الإصطخري وابن حوقل وابن خرداذبه وقدامه وكان الناس بعد العهد الدوستكي. وكذلك ذكرها باسم (ريض ماردين) كل من ياقوت الحموي والقزويني في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وأطلقا اسم ماردين على القلعة. وقد صرح ياقوت الحموي بان بعض الناس يقولون ان ماردين حديثة وقريبة العهد من زمنه، ولكنه رفض هذا الإدعاء مستنداً على قدمها بمجيء اسم ماردين في شعر جرير. ولا يخفى بأن ذلك القول بحدثة المدينة له قيمة رغم عدم إقتناع الحموي به، إذ يمكن ان نجعله تعبيراً لما ذكره عبدالسلام المارديني. وأنا اظن بأن الأمر لإتبس على ياقوت، فالمقصود بحدثة ماردين هو المدينة بينما المقصود بماردين في شعر جرير هو القلعة التي يرجع تاريخها الى عصر ما قبل الإسلام. وقد ذكر أوليا جلبي بأنها من عصر الإسكندر المقدوني وورد ذكرها في الفتوحات الإسلامية. وهناك ملاحظة أخرى وهي ان صهاريج ماردين احدثت من قنواتها المائية وانها (أي الصهاريج) حُفرت في عهد مستنسخ كتاب صورة الأرض كما تقدم، أي في عهد الأرتقيين. أما القنوات فإنها حُفرت على الأكثر أثناء بناء المدينة أو في السنوات الأولى من تعميرها من قبل الدولة الدوستكية. ولعلها كانت شبيهة بقنوات الماء في فارقين. وبالمقارنة يحتتمل تحديد زمنها، وذلك من إختصاص علماء الآثار. ومن الجدير بالذكر ان ماردين تقدمت كثيراً بعد ان اصبحت مركزاً لإمارة أرتقية اسسها الامير نجم الدين إيلغازي بن ارتق السلجوقي سنة=

مدينة دنيسر

من المحتمل أن الدولة الدوستكية هي التي خططت مدينة (دنيسر) في سهل ماردين، وتسمى الآن (قزل تپه)، وانها بُنيت وأصبحت بلدة في عهدها إذ لم أجد لهذه المدينة ذكراً يدل على وجودها في تاريخ سابق. فمثلاً لم يورد لها ذكراً كل من ابن حوقل والمقدسي والأصطخري والهمذاني وابن خرداذبه والمسعودي، الذين عاشوا في القرن العاشر الميلادي وكانوا من خيرة البلدانين المسلمين. كما لم يذكرها غيرهم، في حين انهم ذكروا المدن والأماكن المهمة حولها، أو التي في تلك المنطقة مثل ماردين ودارا كفتوتوا ورأس العين. وإن أول مصدر وجدنا فيه ذكراً لها كان نقود الدولة الدوستكية، إذ توجد نماذج منها مسكوكة في دنيسر بتاريخ (٤٠٨هـ = ١٠٧١م) و ٤١٠ و ٤١١هـ، كما سلف في موضوع (العملة الدوستكية) في دنيسر (٧).

وحتى إذا كانت قرية قبل العهد الدوستكي، فإنها أخذت بالنهوض كمدينة في العهد الدوستكي، وأصبحت بلدة في طريق القوافل التجارية، وإن إنشاء الدولة داراً للضرب (أي لسك النقود) فيها إنما كان تشجيعاً للناس على الإقامة فيها لتصبح مدينة.

مدينة سعرد

أما مدينة (سعرد)، فقد ذكرها الفارقي في (ص ٩١) بإسم قرية سعرد، وذلك في عهد مهادالدولة. ولكنها كانت موجودة قبل الإسلام كبلدية لورود إسمها في الفتوحات الإسلامية (٨) وقد ذكر الأصطخري في (مسالك الممالك، ص ٦٧) أنها مدينة صغيرة بغير سور، ولا شك بأنها قد توسعت في العهد الدوستكي.

(٧) بخصوص دنيسر راجع هامش خاص بها في موضوع (العملة الدوستكية).
(٨) قال الأب أنستاس الكرملي في (المساعد، ص ٤٣) أن (دكرانكرد) هو الإسم الأقدم لمدينة آمد، ولكن محققى الزخارف البديعة. راجع: الأصطخري، مسالك الممالك، ص ٧٣. ابن حوقل، ص ١٩٤، ٢٠٢. ابن خرداذبه، مسالك الممالك، ص ٩٥. قدامه بن جعفر، كتاب الخراج، ص ٢٤٥ المرفق بالمسالك والممالك. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩. القزويني، آثار البلاد، ص ٢٥٩. البغدادي، مراصد الإطلاع، ج ٣، ص ١٢١٩. الفارقي، ص ٢٤٠. أوليا چلي، سياحته، ج ٤، ص ٥٧-٦٠. وراجع أيضاً ابن بطوطة، ص ٢٣٨. القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٣١٦.

(٨) قال الأب أنستاس الكرملي في (المساعد، ص ٤٣) أن (دكرانكرد) هو الإسم الأقدم لمدينة آمد، ولكن محققى الكتاب الأستناذ جورگيس عواد وعبدالمسيد العلوجي علقا على ذلك بأن چمبر ذكران (دكرانكرد - دكرانجرد) (سعرد)، ولكن (لهمان) قال انها فارقي وإن (دگران) ملك أرمينيا (الأشكاني) هو الذي بنى مدينة (دكرانكرد) وعاش نحو (١٤٠-٥٥ ق.م). وينسب الى سعرد مجموعة من العلماء منهم إبراهيم بن لقمان وأصله من (معدن) في منطقة (شيتروا) التابعة لسعرد وكان على ما في (تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٦) كاتباً على عرصة الغلة بمدينة آمد في عهد الملك الكامل الأيوبي، وقد تولى الوزارة بمصر للملك سيف الدين قلاوون، وتوفي سنة (٦٩٣هـ). (١١) الفارقي، ص ١٤٢-١٤٣.

مدينة ساسون

أما مدينة (ساسون - غاب الجوز)، وهي الآن مركز قضاء تابع لسعرد وفي شمالها الغربي بمسافة سبعين كيلومتراً، فلا أستبعد أن تكون من بناء هذه الدولة الكردية أيضاً. فقد ذكر الفارقي في (ص ١٦٨) أن نصرالدولة شيد على حدود السناسنة (الأرمن) (الحصن الجديد)، وغرم عليه من ماله وأصبح حداً وسداً في وجوه السناسنة. وإنهم أي السناسنة إنحصروا بعمارتهم عن البلد، أي البلاد الدوستكية. ولكنه لم يبين تاريخ بناء المدينة. أما ابن شداد فقد ذكر في (الورقة ٩١) بأن الملك الكامل بن شهاب الدين غازي الأيوبي تفاوض مع التتر (المغول)، الذين حاصروا فارقين في سنة (٦٥٨هـ)، على أن يعطيهم (قلعة السناسنة) مقابل فكهم الحصار عن عاصمته فارقين. فقبل المغول وذهبوا إلى قلعة السناسنة فلم يسلمها إليهم. ويستفاد من كلام هؤلاء المؤرخين أن القلعة كانت مهمة، ومن كلام الأخير يتضح بأنها لم تكن قلعة على قمم إحدى الجبال فحسب، بل كانت بلدة أيضاً عوضها الملك الكامل عن فارقين وكان لها وال. فهذه القلعة (البلدة - بلدة ساسون) في رأيي هي الحصن المهم الذي شيده نصرالدولة، وقد جرت الإشارة إليه في موضوع (العلاقات مع الشعب الأرمني) وموضوع (الحياة البشرية: العرب).

مشاريع عمرانية أخرى

ومن مشاريع الدولة الدوستكية تشييد مستشفى فارقين وتجديد جامعها الكبير، والذي أقامت فيه الساعة (البنكام)، وتشبيد منارة جامع الريض^(٩)، الذي سمي أيضاً (جامع بني مروان) مما لا يستبعد أن واحداً من ملوكهم هو الذي شيده بالأصل خارج سور العاصمة، وتجديد جامع المحدثه نفسه^(١٠)، وبناء فندق ودار وحمام ومسجد عند قرية باطري^(١١)، وحمام أو حمامي العقبة وآخر في صحراء شورجان عند الينبوع^(١٢). وقد أنجزت هذه المشاريع في عهد نصرالدولة.

تشييد دار الإمارة

كانت دار الإمارة، أي مقر الحكومة في عهد كل من الأمير باد (باد) وأبي علي ومهدالدولة (قصر بني حمدان)، الذي شيده سيف الدولة الحمداني قرب الزاوية الجنوبية الغربية من سور المدينة، بالقرب (٩) الفارقي، ص ١٢٣. كان بناؤها في سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م). راجع أيضاً موضوع الطب والبنائ المعماري والزخرفة في كتابنا هذا.

(١٠) الفارقي، ص ١٣٨، كان تجديد هذا الجامع في (٤٢٣هـ = ١٠٣١م). والأعلاق الخطيرة ورقة ٧٢ و ٩٠.

(١١) الفارقي، ص ١٤٢-١٤٣.

(١٢) نفس المصدر، ص ١٦٤. راجع أيضاً الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢ في المخطوطة ان في رأس سوق الخيل بالمحدثه جامع يعرف بجامع بني مروان، وفيها أيضاً ذكر ثلاثة عشر حماماً في فارقين وحولها. صحراء الشورجان غير معلومة لدينا.

من (برج علي بن وهب). وفي سنة (٤٠١ هـ = ١٠١١ م) تعرض الى الهدم من قبل سكان فارقين الثائرين على (شيره بن مه م)، بعد قتله للأمير مهادالدولة في أوائل السنة المذكورة في قلعة هتاخ (ايتاخ)، كما مر بالتفصيل في الجزء الأول. وبعد القضاء على فتنة شيره في أواخر تلك السنة، فكر نصرالدولة في تجديد قصر بني حمدان (القصر العتيق) ليكون دار الإمارة ليسكن فيه. ولكن البعض إقترح عليه أن يعمر القلعة التي على التل (الواقع بالقرب من الجامع الكبير من الشمال الغربي الذي كان أمراء سليشان بنو عليه مقر إمارتهم في القرن الثالث عشر أو بعده وعليه الآن دار أشرف بك من سلالة أمراء سليشان). ولكن الوزير خواجه أبا القاسم الاصفهاني اقترح عليه بناء قصره، أي دار الإمارة، في موقع (برج الملك) الذي كانت فيه القلعة الرئيسية لفارقين في شتى عهودها، وذلك لكونه أعلى قسم في المدينة. وكان في الزاوية الشمالية الشرقية (تل)، شيد عليه مخطط المدينة بمساعدة الرومان الطبيب السرياني (ماروثا الفارقي) المتوفي حوالي سنة (٤٢١ هـ) قلعة، فكانت أصل المدينة وعند التل شاهدت آثار باب مسدود، وهو أقدم أبواب المدينة والمسمى (باب الشهوة). وكان للموقع سوره الخاص.

لقد ذكر الفارقي في (ص ١٠٧) أن نصرالدولة فرح عندما قال له الوزير: "الذي عندي ان تبني (اي القصر) ملاصق برج الملك وهو موضع عال يحكم على البلد جميعه واعلم انك ان بنيت في البلد كان برج الملك منفرداً يحكم من فيه مستقلاً دون المدينة ولا يقدر عليه وإن بنيت في هذا الموضع انضاف برج الملك والباب الى القصر وكانت تحت حكمك ومن جملة القصر". ويوشر في بناء القصر في أول سنة (٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) "فعمره أحسن عمارة وغرم عليه مالا عظيماً وبنى المنطرة العتيقة المطلة على الریض و غرس بستان القصر... وقيل كان موضعها وموضع دار السيدة بيعة كبيرة ونقل مشاهدتها الى بيعة الملكية وعمل في القصر أحسن العمل وزوقه وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب وعمل فيه ما لم يعمل مثله". وأضاف الفارقي أن نصرالدولة فرغ من بناء القصر في ذي الحجة، أي الأخير من نفس السنة بثلاثة أيام قبل عيد الأضحى. وذكر أيضاً أنه حفر قناة ماء من رأس العين (أي من سهرة كاني)، وهو الينبوع الكبير الواقع خلف المدينة وتحت الجبل وذلك بحوالي كيلومتر واحد بإستقامة باب الریض، وأجرى الماء الى القصر وأحواضه وبستانه^(١).

ولا ندري ما المقصود بالباب، هل كان باب الشهوة أو (باب الهوة) الذي كان يقع في غرب باب الشهوة في السور الكبير والزاوية الغربية من موقع برج الملك، أو هل كان باب (قلوفح - كولفا) الواقع في القسم الشرقي من السور. وكانت الأبواب الثلاثة تؤدي الى برج الملك، وكان الأخير مسدوداً حتى عهد مهادالدولة. أما باب الشهوة، فلم أجد إشارة الى كونه كان مفتوحاً أيضاً، فمن المحتمل ان المقصود به (باب الهوة) الذي عليه كتابة تجديدية لنصرالدولة.

أما البستان الذي غرسه نصرالدولة، فكان يقع أمام القصر بإتجاه الجنوب، وكان قسم منه أو معظمه

(١) أشار الدكتور عبداللطيف عوض في الهامش الى انه ورد في إحدى نسخ الفارقي وفي (الأعلاق الخطيرة) (مخطوطة مارش) انه كان للقصر حمامان.

موجوداً حتى سنة ١٩٧٧ بين السور شمالاً والشارع الرئيس في المدينة والممتد من الشرق الى الغرب جنوباً^(٢).

شيد نصرالدولة القصر بثلاثة طوابق وزاد عليه ابنه نظام الدين طبقة رابعة اثناء حكمه. ولاشك بأن القصر كانت له ملحقات أنشأ بعضها فيما بعد لكي يتسع لأفراد أسرته. فقد ولد لنصرالدولة أكثر من أربعين ولداً وكان يمتلك مئات الجوارى عدا الخدم والحراس. ولم يذكر الفارقي سوى دار واحدة شيدها بعد القصر لزوجته (السيدة) بنت أمير الموصل (قرواش بن المقلد) العقيلي.

لقد ذكرنا ان هندسة القصر كانت على الطراز السدلي (كهلهكي) الكردي الأصيل، وكانت له ثلاثة أبواب. وذكر اسم الباب الشرقي في (ص ١٤٩) وقال كان نصرالدولة يركب من على الصفة ويسير في القصر ويخرج من الباب الشرقي ويمضي حيث أراد. وكانت هذه عادته إلا أنه غضب مرة من ابن عمه (مرزبان بن بلاشو)^(٣)، فخرج بنفسه الى باب الدرجة برأسها بباب القصر ونزل وركب البغلة من أسفلها وخرج من القصر. أي انه لم ينزل من تلك الدرجة منذ أربعين سنة من بنائه. وقد وجد ابن شداد عندما زار فارقين سنة (١٢٥٩ هـ = ١٢٥٩ م) القصر ووصفه بأنه "قصر عظيم كان دار السلطنة"، ووجد اسم نصرالدولة على الباب الوسطاني للقصر (على ما في الورقة ٧٣). أما الباب الثالث، فلعله كان في الجهة الغربية من القصر مما يدل على أنه كان باقياً الى آخر عهد الإمارة الأيوبية في فارقين.

فالقصر كان دار الإمارة في العهد السلجوقي والأرتقي والأيوبي ولاندري متى تهدم كلياً أو جزئياً، ولكن نعلم أن مركز الحكم في المدينة في العهد العثماني كان في نفس المكان. وفي كتاب سليمان سافجي، المتوفي سنة (١٩٤٥ م)، صورة قديمة لنفس المكان الذي اشتهر بـ(قلعة زمبيل فروش) بدل (برج الملك) منذ عدة قرون. وتشاهد في الصورة هناك أربعة بنايات في إستقامة واحدة وملاصقة للسور الشمالي، أو منفصلة عنه بقليل وأمامها البستان. وقد وصفنا بعضاً من تلك البنايات في موضوع (السدلي). لقد وجدت في مكان القصر جدار عرضة حوالي مترين يمتد من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي بمحاذاة تل برج الملك وقلعة زمبيل فروش، وهو حسب رأيي جدار القصر أو سوره الخاص.

لاشك بأن تلك الأبنية أو على الاقل ثلاثة منها قد شيدت على أنقاض قصر نصرالدولة، أو انها تجديدات وترميمات له جرت كلما دعت الى ذلك الحاجة خلال أكثر من ثمانمائة سنة بعد العهد الدوستكي. ومن المحتمل جداً أن تلك الأبنية تحمل الطراز المعماري للقصر وأقسامه، أو فيها بعض جوانبه الهندسية وعلى الأخص البنايات الثانية والثالثة والأولى.

عندما زرت فارقين سنة ١٩٧٧ لم تكن تلك الأبنية موجودة، بل هناك بيوت حقيرة جديدة متناثرة،

(٢) فتح قائممقام فارقين إبراهيم بك هذا الشارع سنة (١٣٤١ هـ = ١٩٢٢-١٩٢٣).

(٣) (بلاش) كان إسماً لخمسة من الملوك الأشكانيين وملك ساساني واحد ويكتب (ولفاش) أيضاً. حكم بلاش الأول (٧٨/٧٧-٥١ م) ويعلم من إسم (بلاشو) بن (كك - كهك - كهكو). ان هذا الاسم كان متداولاً في كوردستان حتى العهد الدوستكي.



جدار من دار الإمارة

ولست أدري سبب إزالة تلك الأبنية الجميلة. وقد أضرَّ سكان فارقين بالسور وأبراجه وجلبوا الكثير من أحجاره وشيّدوا بها دورهم. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن في مخطط جبرييل الموجود في (ص ١٤٣) من كتاب بيسان أوغلو إشارة إلى بناءين فخمين في برج الملك بالقرب من السور.

قنوات المياه لدار الإمارة وللمدينة

جرى في عهد نصرالدولة أيضاً حفر ثلاث قنوات ماء للعاصمة فارقين. ففي حوالي سنة (٤٠٥ هـ = ١٠١٤م) حفر نصرالدولة قناة ماء وأتى بها من خارج المدينة إلى قصره في برج الملك. كما حفر قناة أخرى وجاء بها إلى وسط الریض من الجانب الشرقي إلى تحت برج الملك إلى باب الهوة إلى أحد برجي باب قلوّفح، ومن تحت البرج أدخل القناة إلى المدينة، ووزع ماءها في قنوات فرعية للمدينة^(٤).

أما القناة الثالثة فكانت قناة ابن جري، التي تبرع بحفرها التاجر أبو بكر بن جري وسماها الفارقي قناة الجامع. وقد حفرها ابن جري من منبع نهر فارقين (عين حنبوص) وضم إليها مياه عيون أخرى إليها، وجاء بالقناة من الجانب الغربي إلى السور وأدخلها إلى المدينة عبر بستان الفصيل ونقب السور بعد أن أذن له الأمير. ومضى بها في الفصيل إلى ما بين السورين، وأجراها إلى المدينة عند البنبوع. ومضى بها في وسط المدينة وزقاق القتيل، وعبر بها إلى باب داره فوق القبة ولم يأخذ منها إلى داره

(٤) نفس المصدر، ص ١٦٤.

قطرة. ودخل بها الى سوق القبة والى الجامع، وعمل التسع أنابيب (أي صنابير أو حنفيات) ووزع الماء في مرافق الجامع وحماماته. لقد أشاد الفارقي بأهمية هذه القناة، فقال انه حصل للبلد بها فائدة كبيرة. والقنوات الثلاث تم شقها من رأس العين (عين حنباص). كما أشار الفارقي الى قناة حفرها سيف الدولة الحمداني لقصره خاصة (قصر بني حمدان) من الجهة الغربية للمدينة. أما تكاليف قناة ابن جري الى حدود السور، فكانت خمسين ألف دينار (٥).

كما صنع نصرالدولة مصنعاً (صهريجاً - سهرداو - بن تهبهق) في بستان الرئيس على بن منصور بن كهك (علماً أن هذا البستان مازال بستاناً لم يتغير وضعه) عند برج علي بن وهب (وأمام باب الفرح والغم بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية من السور حيث البساتين حالياً) الى أن ظهر فيه الماء وأحسن عمارته وغرم عليه ومالاً كبيراً. وأضاف الفارقي أنه لم ير أحسن من بنائه ولا أحكم منه، وتولى عمارته الوزير ابن جهير (٦). كانت المصانع تبلط قيعانها بالأحجار والجص وكذلك جدرانها على العموم كي لا تتسرب مياهها، ووجدنا في كردستان أحواضاً يرجع تاريخها الى حوالى ألفي سنة.

المباني الدينية

في سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٥م) جدد نصرالدولة الجامع الكبير في العاصمة فارقين، الذي كان يمتاز بفن معماري جميل على ما يتضح من نسخة سفرنامه ناصر خسرو المعربة والمطبوعة، والتي حذف منها الكاتب النسخة الخطية أوصاف الجامع الذي ذكرها بالتفصيل ناصر خسرو، الذي شاهدها وأعجب بها.

يقع الجامع الكبير الذي يسمى (جامع عجم وجامع صلاح الدين) يقع في وسط المدينة، ويمر أمامه حالياً الشارع الرئيسي في المدينة والممتد من الشرق الى الغرب. للجامع بابان جنوبي وشمالي، ومساحته (٦٠×٣٠م) أو (٦٠×٢٥م) وكان موجوداً في القرن التاسع الميلادي. فقد ذكر ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢ و٧٧) أن أحمد عيسى بن الشيخ أمير ميفارقين بنى منارة الجامع وإسمه مكتوب في لوح حفر سنة (٢٧٣هـ = ٨٨٦ - ٨٨٧م). وفي الورقة (٧٧) ذكر ان اسم المبارك بين ميمون مكتوب على لوح حجري في المقصورة الغربية للجامع. علماً ان المبارك تولى إقليم دياربكر من قبل الخليفة العباسي (المقتدر) سنة (٢٩٥ - ٣٢٠هـ = ٩٠٧ - ٩٣٢م). وقد أشار ابن شداد الى انه نقل معلوماته عن الفارقي.

لأُعرف سنة تشييد الجامع ومن الذي شيده أولاً. فقد قال بسري كونياري باحتمال كونه كنيسة في الأصل وهذا الرأي راجح، لكون عدد من أبوابه القديمة (التي تُرى في صور بسري كونياري) مشابهة لباب كنيسة مريم في دياربكر، والموجودة صورها في بيسان أوغلو (ص ١٠٣) وهي من العهد البيزنطي في الجدار الشمالي، الذي فيه تلك الأبواب ثلاثة أدوار. وقد جدد نصرالدولة سنة

(٥) الفارقي، ص ١٦٤-١٦٥. راجع أيضاً مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢، ٩٠.

(٦) نفس المصدر، ١٦٨. في مختار الصحاح والمنجد (المصنع) ماهو كحوض يجمع فيه ماء المطر.

(٤١٤هـ) وأشرف على التجديد كاتبه أبو سعيد الكبير بن بختيشوع الحازن. ثم إنهدم الجانب القبلي منه في العهد الأرتقي، فجدد معظمه الأمير حسام الدين ألبى قمرتاش، حيث توجد كتابة بإسمه في قبة الجامع^(١) ولا أثر للمنارة. كما توجد فيه، أي الجامع، خمس كتابات من عهد الأمير الأيوبي شهاب الدين غازي بن الملك العادل ابن أيوب، إحداها في القبة والأخرى في الجدار الجنوبي الشرقي، حيث عمل هناك محراباً جميلاً بتاريخ (٦٢٤هـ = ١٢٢٧م)^(٢).

ولحسن الحظ، فإن هذه الأقسام لم تتلف وتتغير بعد ترميمات عام ١٩١٣م، التي أجزاها بناءً مارديني شوه هذا الجامع المهم عمارة وتاريخاً، كما أشرنا إلى ذلك في موضوع (ساعة بنكام). وقد لاحظنا من إحدى صور بسري كونيار الثلاثة التي أخذت عندما كان الجامع مهدماً (وهي الصورة ٣٠٦ في كتابه)، وجود حفر صغيرة دائرية على بعض الأحجار المتناثرة. يذكر بأن تلك الحفر خاصة بقطع حديدية كانت قد استخدمت في الربط بين حجر وآخر للثقوية. وهذا الأسلوب كان موجوداً في العهد الساساني، حيث استخدم في (بت خانة) في (بيكولي) الواقع في السفح الجنوبي من سلسلة قرداغ من كردستان العراق. ومن المحتمل جداً أن تلك الأحجار تعود إلى أعمال الترميمات التي أجزاها نصرالدولة للجامع، بنفس الطريقة التي استخدمها بها نظام الدين في تجديد باب قلوبح، كما سيأتي ذكره. راجع صور الجامع في موضوع (ساعة بنكام).

أما في مدينة دياربكر، فقد بنى نصرالدولة في سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) مسجداً ملاصقاً للجانب الأيسر (حينما تدخل المدينة) من باب خربوت (باب الجبل). وما زال يسمى بـ(جامع بني مروان). وكان قسم من هذا المسجد قد تهدم فيما كانت دائرة الإطفاء تشغل قسماً آخر، أي ما تبقي منه حتى عام ١٩٦٣. وقد شاهدت المسجد في آب ١٩٧٧ وكان الناس يصلون فيه. للمسجد وكان ذا طابقيين رغم أنه لم يكن من المساجد الكبيرة. لقد تولى الإشراف على بنائه الوزير ابن جهير. وعلى المسجد الكتابة التالية:

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تطوع بعمله (وبنائه والإنفاق) إليه تقر (با) إلى الله تعالى ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم مولانا (الأمير السيد) الأجل المؤيد المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء أ(بو) نصر أحمد بن مروان أطال الله في العز الدائم (م) بقاه وجزا له؟) سلطانه وذلة (؟) أعدائه وجرى ذلك «على

(١) قال ابن شداد في الواقعة (١٠٧): "أن في ليلة الإثنين ثاني عشر من شهر ربيع الأول من سنة ٥٤٨هـ = ١١٥٣م إنهدم الجامع ووقع مكان المنبر والأروقة فهدم حسام الدين قمرتاش الأرتقي الباقي منه، ثم أمر بتجديده". وفي الورقة (٧٣) قال: "وسقط من الجامع الجبهة القبلية في ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسائة فعمر جديداً". وفي قول ابن شداد تناقض في السنة التي إنهدم فيها الجامع كما خطأ في قوله أن حسام الدين قمرتاش هو الذي جدد الجامع وفي السنة التي توفي فيها حين قال أن قمرتاش توفي سنة (٥٤٨هـ). لأن الصحيح أنه توفي في السنة التي قبلها. وقد تولى الإمارة ابنه نجم الدين ألبى سنة (٥٤٧هـ)، الذي جدد الجامع. ويوجد الآن نص كتابي برسم المذكور في القبة في (ج١، ص ٣٢٦ من كتاب شوكت بيسان أوغلو) المؤلف في تاريخ دياربكر، والكتابة خالية من التاريخ، علماً أنه لم يعمر القبة بأكملها بديل وجود قسم أقدم في القبة يعود إلى العهد الدوستكي. والقبة كبيرة تستند على ثمانية أعمدة وهي مشتملة الأضلاع.

(٢) الكلمة نقلت خطأ ولعل الصحيح (و أذل).



المسجد قبل الترميم- من بيسان أوغلو

يدي... الأجل ابو نصر محمد بن محمد بن جهير أدام الله مكانه في ذو الحجة سنة سبع وأربعين وأربعمائة) وقد قامت تركيا بترميم الجامع (٣).

تجدد الإشارة الى انه توجد بجانب المسجد الشمالي كتابة ورسوم رومانية على السور. وقد ذكر ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٩٠) أن جامع الرض (٤). قد تهدم فجدده نصرالدولة وبنى منارته سنة ٤١٤هـ. أما الفارقي فقد ذكر في (ص ١٢٣) بناء المنارة فقط، علماً أن الرض هو الأرض المنبسطة الواقعة بين مدينة فارقين والجبل. (٥)

وذكر ابن شداد انه في نفس السنة بنى (جامع المحدثه) ووقف عليه الأوقاف. والمحدثه هي الضاحية الجنوبية لفارقين، وهناك منارة أيوبية مربعة يحتمل أنها شيدت لهذا الجامع، الذي لم يبق منه أثر اليوم. وقد أشرنا في موضوع بناء (النصرية) الى ان نصرالدولة بنى في كل من قرى باطري (٣) الكتابة والصورة من بيسان أوغلو، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) ورد في الأعلاق الخطيرة (جامع الراضي) سهواً أو خطأً من الناسخ. وهذا الجامع غير (مسجد الصخرة) الذي ذكره الفارقي في (ص ٢٥١) أنه كان يقع تحت الجبل وغير مسجد رأس العين، أي كان المسجد في الأراضي الواقعة بين المدينة والجبل وتبلغ مسافتها كيلومتراً عرضاً. ثلاثة مساجد وقد ذكر ناصر خسرو في (سفرنامه، ص ٤١) أن صلاة الجمعة تقام في جامع الرض. وذكر الهروي في (الإشارات الى مواقع الزيارات، ص ٦٤-٦٥) طبعة دمشق ثمانية مساجد في فارقين كانت تتمتع بقدسية خاصة، يزورها الناس لإشتهاها بكونها مشيدة من قبل صحابة الرسول (ص) وهي: مسجد خزيمه، مسجد إبراهيم، مسجد الخنادق، مسجد ياسين، مسجد أبي خالد، مسجد حرملة، مسجد على بن أبي طالب، مسجد عتري، وذكر أيضاً اسم مسجد الصخرة. ومن المحتمل أن بعضاً منها كان يقع خارج المدينة لأن مشهد (مسجد) على بن ابي طالب كان يقع في الجبل. ويظهر ان هذه المساجد كانت أقدم من العهد الدوستكي، علماً أن علي بن ابي بكر الهروي ذكرها بعد عهدها لأنه توفي سنة (٦١١هـ = ١٢١٦م).

(٥) أتى ابن شداد على ذكر ينبوعين في الرض باسم (عين جوزه) و(عين حفيرة) في وسطه، وقال أن الأخير يدخل مدينة فارقين ويدير اربعة أرجاء في داخل البلد (ورقة ٧٤).



المسجد بعد الترميم- المؤلف

وبابوزين وتل بنان مسجداً. ولاشك ان الدولة الدوستكية بنت مساجداً في المدن أخرى، إذ لا يمكن أن تكون (النصرية) خالية من مسجد، ولكن مع هذا لم ترد الى ذلك إشارة.

والجدير بالذكر هنا هو قول ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٤) ان في فارقين ما يناهز المائتي مسجد، منها (مسجد الدكة). ويفهم من (الورقة ٧٢) أن المسجد المذكور كان قريباً من (باب الهوة)، وقد وجدنا آثاره في غرب هذا الباب عند السور مباشرة. والدكة كان موقعاً مطلقاً على (الحنديق الذي في مكانه الحالي بساتين) علماً أن الدكة هي شريط ضيق و مسطح من الأرض يقع غرب قلعة زمبيل فروش أكثر إرتفاعاً عن موقع الحندق. وفي الصفحة التالية صورة المسجد.

لا بأس هنا أن نشير الى الجامع الكبير لآمد وهو أهم جامع في كوردستان بزخارفه وأعمدته الحجرية، ونقول انه كان موجوداً في عهد نصرالدولة. فقد وصفه ناصر خسرو في (سفرنامه عند البحث عن آمد في ص ٨-١٠) بما يلي: "ومسجدها الجامع من الحجر الأسود وليس مثله متانة وإحكاماً، وقد أقيم في وسطه مائتي عمود قطعة واحدة وفوق هذه الأعمدة عقود من الحجر وقد نصبت فوقها أعمدة أقصر من تلك وجميع أسقف المسجد على هيئة الجمولون وقد كملت نجارة ونقارة ونقشاً ودهناً". وقد أشار الى الحوض الحجري في ساحته والذي يتدفق منه الماء من أنبوب في وسطه.

وفي عهد ملكشاه جرى ترميم المسجد من قبل عميدالدولة ابن فخرالدين ابن جهير سنة (٤٨٤هـ). وعلى المقصورة الشرقية والغربية كتابات من عهد بني إينال سنة (٥١١ و ٥١٨ و ٥٥٥هـ). وكان البناء في السنة الأخيرة (هبة الله الكركاني). المسجد المذكور كان في الأصل كنيسة بإسم (سانت توما) أو كنيسة توما، على ما جاء في كتاب بيسان أوغلو، ج ١، ص ٢٧١-٢٧٥ ويسري كونيار، ج ٢، ص ٥١.



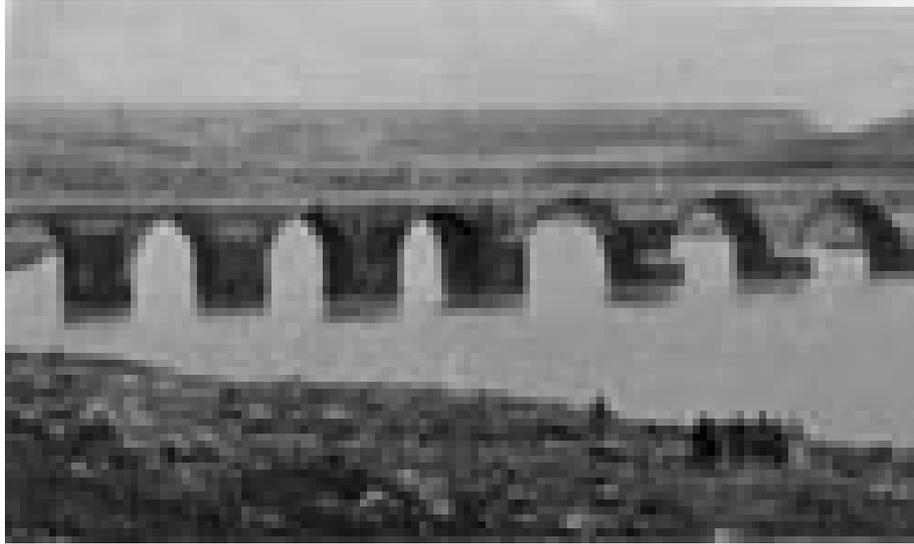
مسجد الدكة

الجسور

نظراً لوجود أنهار كثيرة في البلاد الدوستكية الجبلية بصورة عامة، وبسبب هطول الأمطار وسقوط الثلوج الكثيرة، فقد كانت أنهار البلاد تفيض في فصلي الشتاء والربيع وتخلق متاعب كثيرة للسكان وللقوافل في عبورها. ولهذا دشنت الدولة الدوستكية جسوراً وقناطر عديدة ومنها: الجسر الكبير الذي شيده نصرالدولة على نهر باطمان (أحد الروافد الرئيسية لنهر دجلة) الذي مر ذكره. وفي سنة (٤٣١هـ = ١٠٣٩م) بنى نصرالدولة جسراً على نهر (الحو) وهو نهر أنبر (عنه نبار)، وهو أول نهر الى الشرق من مدينة آمد (ديار بكر) كما ذكرنا.

وقد ذكر الفارقي في (ص ١٣٤) أسماء سبعة جسور، فقال: "وقف نصرالدولة على جسر الحسينية والحמידية وتل بنان وقطنيتا وبابوزين والإبراهيمية وبرسدي وغرم عليه مالا عظيماً"^(١). لاشك ان

(١) ذكر الدكتور بدوي عبداللطيف في هامش (ص ١٤٣) من تاريخ الفارقي الذي نشره هو أن أسماء الجسور حسب العبارة المذكورة مأخوذة من نسخة (ب) من تاريخ الفارقي، بينما وردت أسماؤها في (النسخة أ) كما يلي: "على جسر الجنينة وتل بنان الحسينية، وتل بنان والإبراهيمية وبابوزين وبرشدي وقطنيتا". وفي الأعلق الخطيرة ورقة، ٧٣ ورقة ٩١: بنى (أي نصرالدولة) جسر الحسينية على تل بنان ان هذه الأماكن غير معلومة لدينا ما عدا تل بنان وبابوزين، علماً أنه توجد حالياً (كوندي ابراهيم) في ناحية (مالا بادي) التي تقع فيها (كوندي جانق) وبابوزين و(كيترك) وبيلهكان وقرية باسم (حسنيكان) في نفس الناحية، و(حسنيان) في ناحية بشنك وبابوزين هي بابودين. وجسر تل بنان في ناحية مالابادي و(حسنيك) في قضاء (لجى). وجسر تل بنان والجنينة هو واحد.



الجسر - من فان برسم



مقطع من الجسر

عبارته تعرضت للإرتباك والخطأ ولا يدري أن الضمير في (وغرم عليه) يرجع الى أي من الجسور. ولعل الصحيح (عليها) أي غرم على الجسور المذكورة كلها. وإن كان كذلك يكون هو مشيد تلك الجسور، لأن كلمة (غرم عليه) تستعمل عادة لشيء بناه الغريم لا الواقف. كما إن الشخص (بصورة عامة) يقف الأملاك على ما شيده هو عدا المباني الدينية. فمن المحتمل لذلك أن تكون هذه الجسور من إنشاء نصرالدولة، ومن بينها جسر تل بنان الذي شيده هو. وإن كان المقصود مجرد الوقف يحتمل جداً أن يكون جسر الحسينية جسر مدينة زاخو (حسنيه) المسمى (پرا دهلال) الذي كان موجوداً قبل العهد دوستكي.

وفي سنة (٤٥٧هـ - ١٠٦٥م) شيّد الأمير نظام الدين نصر بن نصرالدولة الجسر الكبير الموجود حالياً على نهر دجلة عند مدينة ديار بكر، وهو على إحدى عشرة قاعدة وعليه الكتابة الكوفية التالية مع صورة الأسد.

والكتابة على الحجارة البيضاء: "مما أمر بعمله والانفاق؟ عليه مولانا؟ الأمير؟ الأجل؟ السيد (...). نظام الدين مؤيد الدولة (... بن) عز الإسلام أطال الله بقاءه وأعز نصره ودبر هداة إبتغاء ثواب الله وطلب رحمته في (...). وجرى أكثر ذلك على يد (...). القاضي أبي الحسن عبدالواحد سنة سبع وخمسين وأربعمائة والبناء عبيد؟ بن سمحر؟"

المنشآت الدفاعية

لقد قامت الدولة الكردية ببناء منشآت وتحصينات دفاعية تكون لها ولسكانها درعاً أثناء الحروب والإعتداءات الأجنبية، كالقلاع والحصون والأسوار والأبراج. ونظراً لما تعرضت له البلاد خلال العهد الحمداني من غارات بيزنطية متكررة، فقد تهدم الكثير من أسوار وقلاع المدن علاوة على تداعي بعضها وإحتياجه الى الترميم أو التجديد. فاضطرت الدولة دوستكية بعد تأسيسها الى تقوية دفاعات البلاد العسكرية، حتى إن المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعاة الفاطمي، الذي كان يدير ثورة ضخمة ضد الدولة العباسية، أشار في رسالته الى نصرالدولة كيف إن بلاده منيعة فيها "الحصون التي هي من أمهات الحصون" وإنها "البلاد المعمورة المأهولة"، كما أشرنا الى ذلك في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية. وقد ذكرنا في الجزء الأول كيف أن الملك السلجوقي (الب أرسلان) لما وصل الى آمد في عهد نظام الدين إستغرب من مناعة سورها، فأخذ يضع يده علي السور ويمسح بها صدره. وبفضل تقوية الدولة لسور فارقين أصبح من اقوى الاسوار وصمد جيشها في فارقين سنتين امام القوات السلجوقية، وهي مدة لم تصمد أمامها مدينة أخرى ولم تقاوم تلك المقاومة الطويلة. كما ان الملك الايوبي الشجاع (الكامل) قاوم المغول بسبب مناعة سور المدينة أيضاً سنتين (١).

(١) ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة - القسم الخاص بالجزيرة من المخطوط الذي نشير اليه كثيراً (ورقة ١١٩-١٢١) تفاصيل إيفاده من قبل الملك الناصر الايوبي من دمشق الى فارقين للصلح بين الملك الكامل والمغول في سنة ٦٥٧هـ = ١٢٥٩م)، وكان المغول يحاصرونها، وذكر بعضاً من صور المقاومة البطولية للملك الكامل وسقوط المدينة في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة (٦٥٨هـ) وأسر الملك الكامل وإحضاره بين يدي هولاء. وذكر ابن شداد كيف إنه قال لهولاء: "من أنت حتى أحمل مشقة رؤية وجهك انت ما لك قول ولا دين ولا امانة بل خارجي يجب علي قتالك وانا =

كانت المنشآت الدفاعية من أهم الضروريات، لهذا وقفت الدولة قرى وعقارات على الأسوار والقلاع كوسيلة من وسائل بقائها، ولكي يتم صرف وارداتها على ترميمها وحراستها. ولا شك أن ملوك الدولة الكوردية شيّدوا القلاع وحصنوها. إلا أننا لم نطلع على المعلومات بهذا الصدد سوى ما يتعلق منها بالحصن الذي شيّده نصرالدولة على حدود السنانسة (الأرمن).

سور فارقين وأبوابه

اتخذ سور فارقين شكلاً مستطيلاً وفي بعض المراجع الحديثة^(٢) أن طوله من الشرق الى الغرب (٦٠٠) متر، ومن الشمال الى الجنوب (٥٠٠) متراً. كان السور مشيداً بالحجر الابيض والجص، وهو عبارة عن سورين: الأمامي (الخارجي)، والداخلي (الخلفي) وهو اعلى واهم من الاول. وبين السورين فراغ يسمى فصيلاً عرضه (٥٠٥) متر، وهو في ذلك مشابه لسور قسطنطينية (استنبول) البيزنطي. كان السور الأمامي هو الخط الدفاعي الأول للسور الكبير الخلفي. وتجدر الإشارة الى أن اسم (الفصيل) يطلق على السور الامامي ايضاً. اما عرض جدار السور اي (ثخنه) فيبلغ متران، وابعاج السور كما قال ناصر خسرو الذي زار فارقين في عهد نصرالدولة: بين كل خمسين ذراعاً أي حوالي (٣٠) متراً برج. أما ابن شداد فقد قال في (الورقة ٧٣): عندما زرتها كان للسور إثنان وأربعون برجاً ذوات شرفات. مع العلم أن موقع المدينة لا يتمتع بمناعة طبيعية، فموقعها منبسطة مع تموج خفيف. ولم يبق من السور سوى نتوءات في القسم الشرقي من وبالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية.

أما أبواب السور فكانت ثمانية وهي:

١- باب قلوّح (باب كولفا) وكولفا الآن قرية قريبة من المدينة من ناحية الشرق. وسمي بالباب الجديد وباب المرأة ايضاً. وسمي ايضاً بباب الفرج أو باب الفرح (بالحاء المهملة) وهو الباب الشرقي لوقوعه في القسم الشرقي من السور بين برجين صغيرين. كان الباب موجوداً في السورين أحدهما أمام الآخر، وقد شيّد الخلفي منهما، الذي كانت عليه المنطرة والمرأة نظام الدين بعد سنة ٤٥٨هـ = ١٠٦٦م) على ما قاله الفارقي في (ص١٩٨-١٩٩) (راجع صورته في موضوع فن العمارة). اما الباب الامامي الواقع في السور الخارجي (الفصيل)، فهو والباب الخلفي عموماً متماثلان طرازاً عدا إختلافهما في الجزء الاعلى من المدخل. فالباب الخلفي كان معقوداً دائرياً كعقادة جسر لكي يحمل

=خير منك". فقال هولكو بأي شيء انت خير مني؟ فقال لأنني أؤمن بالله وبرسوله ولي دين وامانة فإن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء وكان لنا من عدن الى تبريز فذهب منا ذلك وكذلك يفعل الله بك اذا اراد يرسل عليك من يقتلك ويسبي ذريتك ولا يترك من عسكري احداً. فقال له: "كلامك اكبر منك لأنك من السلطين الصغار". ثم وكزه (أي هولكو) بسيف كان بيده فخرق بطنه وأمر سولجق فضرب عنقه وبعث برأسه الى الشام...". وفي بعض المصادر ان هولكو قال له أنت من ابناء السلطين العظام او من السلطين العظام بدل (الصغار). وذكر ان المغول ابادوا سكان فارقين ولم يبق منهم سوى سبعة انفس.

(٢) راجع شوكت بيسان وأغلو، ص١٤٣ من Diyarbakir Tarikhi .

بناية المنطرة. أما الأمامي فهو مستطيل، وقد جدد عمارة الأخير الملك الأشرف الأيوبي (موسى بن الملك العادل الذي دخلت فارقين تحت حكمه من ٦٠٧-٦١٧هـ = ١٢١٠-١٢٢٠م). وعندما زرت المدينة سنة ١٩٧٧ لم يبق من كتابة الملك الأشرف سوى ما يقل عن ثلاثة احجار وهي:

١- (الأ) شرف العالم العادل

٢- بن أيوب ناصر أمير المؤمنين

٣- المحترم سابق الدين (بفا)

اما في عهد سليمان سافجي اي في الثلاثينات، فكان قد بقي منها مقدار أكثر(٣). لقد سقط من الباب تاريخ الكتابة. علماً ان كتابته بخط الثلث المزخرف وتقع فوق الباب وتحتها وفوق الباب ايضاً كتابة على حجر واحد تحمل اسم البناء وهي " عمل ابي العلاء بن أبي الفتح" (٤).

سعة الباب (٢٧٧ م) وعرض جداره (أي ثخنه) (٣٨٠). على المدخل حجر واحد طوله أكثر من ثلاثة أمتار، ويعلم من الحجر الثاني الذي على يسار الكتابة الاخيرة، ان هذا الحجر كان موجوداً قبل عهد الملك الأشرف، وذلك بدليل وجود حفرتين صغيرتين عليه كان قد ادخل فيهما حديدان لربط الحجر بحجر آخر. وقد وضع البناء ابو العلاء هذا الحجر في تكميره للباب بشكل مقلوب خطأً (أو لسبب ما كأن تكون على وجهه كتابة من عهد نظام الدين وهذا احتمال قوي)، كما قام بتغيير وضعيته الافقية الاصلية في البناء السابق الى وضعية عمودية في تكميره مع عدد من الاحجار الاخرى، بضمنها الحجر الذي عليه اسمه هو. و من هذا نستدل على ان نظام الدين قد بنى أو جدد هذا الباب الامامي من باب قلوبح ايضاً، لأنه كان قد استخدم الحديد في الباب الخلفي، الذي رأي كل من الحموي وابن شداد آثار الحديد فيه. وهذا دليل على ان الدولة الدوستكية قد استعملت الحديد في الربط بين الاحجار في بعض بناياتها، منها على الأغلب الجامع الكبير بفارقين (كما نوهنا عنه في موضوع المباني الدينية). والمقصود هنا قطعة او (وصلة) حديدية قطرها حوالي (٣) سنتيمتر استخدمت لتقوية البناء. وإذا ما دققنا النظر في الباب، سيتجلى لنا بأن ترميم الملك الأشرف شمل المدخل والقسم الأعلى من البرجين. ففي البرج الأيمن بقيت أربعة أحجار وفي الأيسر عدد من الأحجار في صفيين من ترميمه. أما الباقي منهما، فهو من عهد نظام الدين، ونلاحظ ذلك من نحت الأحجار. وقد إستعمل البناء ابو العلاء عدداً من الأحجار القديمة، حتى ان الحجر الذي يحمل اسمه كان قديماً. وفيما يلي صورتان للباب وكتابته أخذناهما أثناء زيارتنا لفارقين.

يظهر في الصورة برج اسطواني كبير في السور الداخلي (الخلفي)، وهو البرج الشمالي من برج

(٣) قرأ الكتابة سليمان سافجي على ما في (ص٤٢) من كتابة على النحو الآتي:

"... المعروف قديماً بباب المرأة والان بباب الفرج مولانا السلطان الملك الأشرف العادل المؤيد المظفر المنصور (... ابو الفتح ابن مولانا السلطان الملك العادل ابي بكر ايوب ناصر أمير المؤمنين اعز الله انصاره..... الخطيب الحسيب شمس الدين ابي المعالي المفضل ابن جعفر ابن نباته وهمة الحاج الأجل المحترم سابق الذكر"، والصحيح (سابق الدين).

(٤) في كل من كتاب بسري كونيبار وبيسان أوغلو نص الكتابة.



باب قلوبح



كتابة باب قلوبح



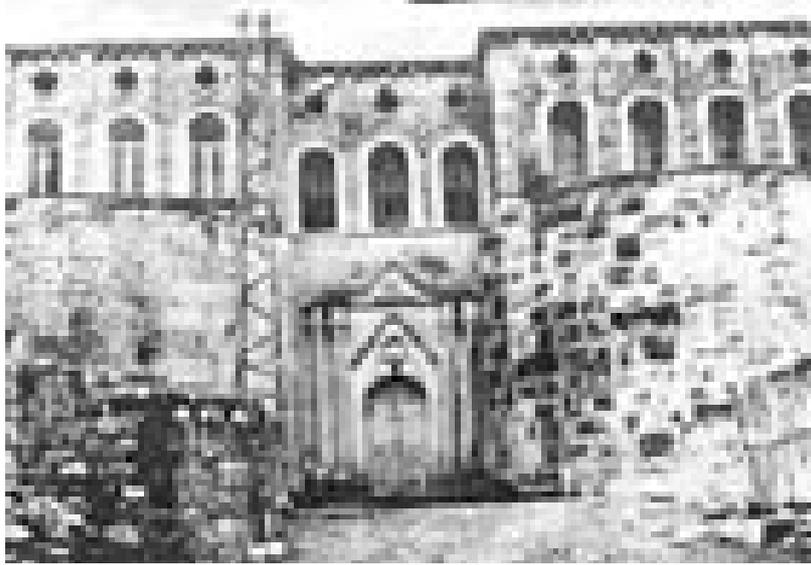
باب الجبل

الطبايين. وكان هذا البرج يقع في الجنب الشمالي للباب الخلفي، الذي كانت عليه كل من المنطرة والمرأة، والذي تهدم وبنيت في مكانه دار حقييرة. وعلى البرج كتابة لنجم الدين آلب الأرتقي سنة (٥٦١هـ). وتجدد الإشارة الى أنه ونتيجة لقيام أحد السكان بحفر أساس لدار كان يعتزم بناءها، ظهرت بناية ذات أعمدة حجرية مهمة كانت مطمورة، وذلك عند الباب من الطرف الشمالي الشرقي خارج السور.

٢- (باب الشهوة): كان يقع عند الزاوية الشمالية الشرقية من السور. وقد رأينا آثاره عند تل برج الملك. وكان مسدوداً منذ زمن بعيد وكان يتحكم في قسم من السور شمالاً وجنوباً.

٣- باب الجبل: سمي (باب الهوة) أيضاً. ومن قول ابن شداد يتضح لنا بأن التسمية حدثت في العهد الحمداني. يقع الباب في غرب باب الشهوة بالقرب من قلعة زمبيل فروش غرباً. وكان يقع في النهاية الشمالية الغربية من قصر نصرالدولة، وبنفتح على القصر. بقي من الباب الجانب الشرقي، الذي عليه كتابة بتاريخ (٤٠٥هـ) بإسم نصرالدولة، حيث جدده كما سيأتي في نص الكتابة. وكان هذا الباب هو الباب الشمالي للمدينة وأمامه مباشرة من الخارج (الدكة) ثم (الحنديق)، وكان يواجه الرض، وكان يقابل باب الجبل باب أرزن في القسم الجنوبي الشرقي من السور. وهذه صورته.

٤- باب الرض: كان يقع في الزاوية الشمالية الغربية من السور مباشرة، وعلى جانبي مدخله



باب الربض

حالياً برجان صغيران. كان من أهم أبواب المدينة ويواجه شمالاً المنبع الرئيس لفارقين (رأس العين - عين حنباص). وكان يتحكم في السور من جهتين، شمالاً وغرباً. إحتل السلاجقة المدينة من هذا الباب، وقد شخصته وهو الآن سالم وهو مدخل دار صادق بك من أحفاد أمراء سليشان (أمراء فارقين) (٥). وأعلاه صورة الباب المذكور. وبالقرب من هذا الباب كتابة جميلة جداً لصلاح الدين الأيوبي (٦)، وكتابة أيضاً للملك الكامل الأيوبي، وفي جنوبه بمسافة أبعد بقايا برج شاهق هذه صورتها.

٥- باب الفرح والغم: سمي بـ(باب باقوسي) أيضاً، وباقوسي قرية في غربي المدينة. سمي أيضاً بـ(باب القصر العتيق). وهو الباب الغربي للمدينة ويقع بالقرب من الركن الجنوبي الغربي من السور من الجهة الشمالية. مازالت آثاره واضحة للعيان في السور الخارجي وقد صورناه. أما صورتان الموجودتان عنده فلم أجد لهما أثراً. كانت الصورة الأولى لرجل يلعب بيديه، والثانية لرجل على رأسه صخرة، ولهذا سمي بباب الفرح والغم. وهو الباب الذي رأى ناصر خسرو عليه باباً حديدياً مشبكاً

(٥) ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة (ورقة ٧٣)، ان الخندق المحفور حول المدينة كان عبارة عن برك فُصل بينها بمقاطع يأتي ماؤها من عين حنباص، أي أن الخندق كان يملأ بالماء. وقال في (ورقة ٧٢) أيضاً أن سيف الدولة شرع بحفر الخندق حينما إستولى على المدينة.

(٦) أخذ صلاح الدين فارقين من الأرتقيين في ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ وحضرها هو بنفسه كما جاء في (ص ٨٩، النوادر السلطانية لإبن شداد الموصلية) ولكنه إستولى على مدينة ديار بكر سنة (٥٧٩هـ) ومات أثناء ذلك. فأكملت اخته جميلة حفرة. وفي مكان الخندق حالياً بساتين.



بقايا البرج جنوب باب الريض



باب باقوسي

وأعجب به. ولعله أحد البابين الحديديين اللذين كانا موجودين قبل عهد سيف الدولة الحمداني، إلا أنه عمل على تقويتها، كما قال ابن شداد في (الورقة ٧٢). وكانت هناك آثار باب صغير عند هذا الباب قرب زاوية السور (برج علي بن وهب)، وقد شاهدنا له أثراً قليلاً، بالقرب من أثر البرج شمالاً وفي جنوب باب الفرع والغم، أي عند ضلع السور تقريباً.

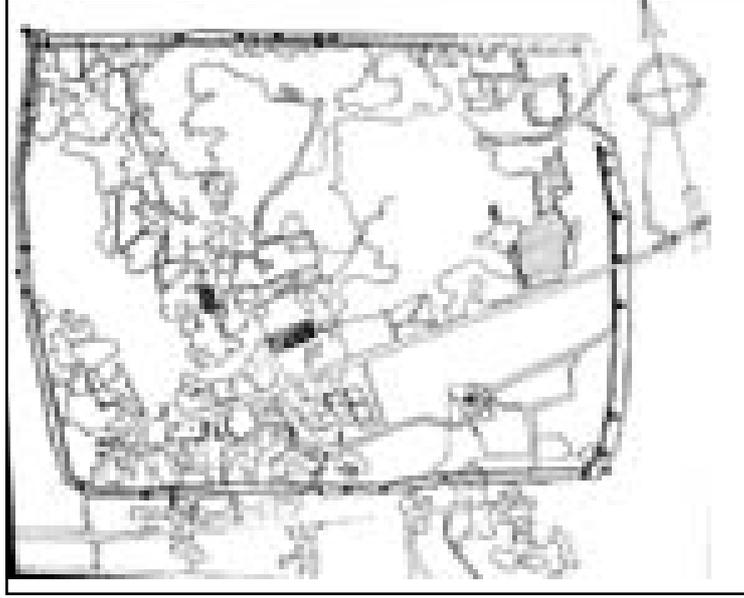
٦- باب الميدان: كان يقع بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للسور، حيث كان هناك قصر سيف الدولة الحمداني، الذي شيّد الناس في موضعه دوراً لهم، ولذلك لم أستطع تحديد مكانه بدقة. سمي هذا الباب بباب الميدان فتحه سيف الدولة لقصره ولم يكن له باب يقابله في الفصيل أي السور الأمامي، بل كان الطريق يخرج منه فيما بين السورين إلى باب الفرع والغم. توجد تحت مكان السور في القسم الجنوبي الغربي غرب (العقبة)، أي الوادي الضحل الذي تجري فيه المياه القذرة للمدينة، ينبوع - فوقه آثار باب في السور، ولست أدري هل كان باب الميدان أو أنه من نوع الأبواب الصغيرة في السور الخارجي، وأمام الينبوع بعض البساتين.

٧- باب كان في أسفل العقبة، وكان يؤدي إلى المحدثه وهناك الآن بساتين.

٨- باب أرزن- باب المحدثه- باب الخنازير: كان في ١٩٧٧ سالماً بصورة عامة. يقع في غرب الركن الجنوبي الشرقي من السور بحوالي مائة متر، ثم أخبرني بعض الناس أنه تهدم. وكان الباب الرئيسي للمدينة وورد إسمه مراراً في تاريخ الفارقي بإسم (باب المدينة) فقط. وقد ذكر في (ص ٨٦) ان مهندس الدولة بناه من جديد سنة (٣٩٦هـ = ١٠٠٥-١٠٠٦م) إثر إنهدامه وكان باب الرض وباب باقوسي مفتوحين، واثناء تجديده فتح باب قلوبح. وبعد ان اكمل بناءه سد الابواب الثلاثة وكانت الاخرى مسدودة ايضاً، فبقي باب ارزن وحده مفتوحاً من بين كافة الابواب.

وذكر ابن شداد في (الورقة ٧٢) انه كانت هناك عدا الابواب الثمانية الكبيرة ابواب صغيرة في السور الخارجي (الفصيل) خاصة بالعمل كنقل مواد الانشاء الى المدينة ومنها.

اما السوران فإن قسماً كبيراً منهما قد ازيل، وخاصة السور الداخلي الكبير، من قبل السكان بصورة عامة. حيث نقلوا احجارهما لبناء دورهم وكذلك أبراجهما، بينما ابقوا احياناً أجزاءهما السفلى واتخذوها أساساً لدورهم وهي تشاهد الآن تحت جدرانها. وماعدا السور الخارجي (الامامي) الغربي، فإن معظم القسم الاسفل منه مازال سالماً مع مسنداته حافظت عليه البساتين، لأنه اصبح الجدار الشرقي لها ودعت مصلحة الجهلاء لإبقائه، علماً ان بساتين المدينة الكثيرة تقع بصورة عامة في غرب المدينة. اما السور الجنوبي، فقد ازيل وشيد مكانه او على الاجزاء السفلى منه الدور، عدا الجزء القريب من الزاوية الجنوبية الشرقية. اما السور الشرقي فبقي منه جزء بالقرب من تلك الزاوية ايضاً مع عدة ابراج. اما السور الشمالي، فقد ازيل ماعدا حوالي مائة متر او اكثر من الجهة الشمالية الشرقية. وكان وضع السور، أي السورين في عهد (كبريل) عندما زار المدينة سنة ١٩٣٢ أحسن نوعاً ما من سنة ١٩٧٧، كما يتضح ذلك من مخططه الموجود في (ص ١٤٣) من كتاب بيسان أوغلو.



مخطط جبريل للسور

وكانت هذه أبواب سور المدينة الأصلية، أما القسم الشمالي منها (الريض) والقسم الجنوبي (المحدثة - الميدان)، فكانا خارجين عن السور وإعتبرهما قسمين من المدينة كونها توسعت في العهد الدوستكي الذي توسعت فيه حركة الإعمار والبناء. وهي كما قال الفارقي في (ص ١٦٦) إنغمرت أي إمتلأت بالسكان في عهد نصرالدولة وقصدها الناس والتجار من كل الأطراف. بينما ذكر ابن حوقل في (ص ٢٠٣) ما يعلم منه ان فارقين كانت قبل العهد الدوستكي قليلة المنازل والسكان. حيث قال ان مدينة الجزيرة وافرة السكان "وليس كآرزن وميفارقين من خلو المنازل". وقد حصل ذلك التوسع شمالاً وجنوباً فأصبح كل من الريض والمحدثة كمدينة. ولما زار ناصر خسرو فارقين في السنة السادسة والستين من العهد الدوستكي، ذكر في (سفرنامه، ص ٤١) ان في الريض (كاروان سراها) أي خانات وأسواق وحمامات وكل ما ينبغي لهذه المدينة من مهمات (٧).

وبالنسبة لما ذكره من سور المحدثة، لم أجد ذلك في مصدر آخر. أما بالنسبة لسوقها، فمن جملة أسواقها كان هناك سوق خاص ببيع وشراء الخيل وسمي لذلك بسوق الخيل وكان يقع في طرف الجامع.

(٧) ذكر ابن شداد في الورقة (٧٢) أسماء حمامات فارقين والريض والمحدثة وهي: حمام القاضي بجانب الجامع وحمام سعيد تحت القصر وحمام العقبة وحمام الحطابين وحمام الأزج والحمام الجديد وحمام خزيمه أنشأها ابن الفقاعي وفي المحدثة حمامان، وفي الريض حمامان هما حمام جوزة وحمام حنباص. وكانت هذه موجودة في عهده وسبق وأن ذكرنا انه كان للقصر حمامين. وذكر الفارقي ان في العقبة (داخل المدينة) حمامين، وفي (ص ٢٦٩) ذكر الفارقي إسم (حمام ابن موسك) أي الرئيس ابي عبدالله بن موسك بن محمد بن كك. وكان الحمام ملاصقاً لداره بفارقين.

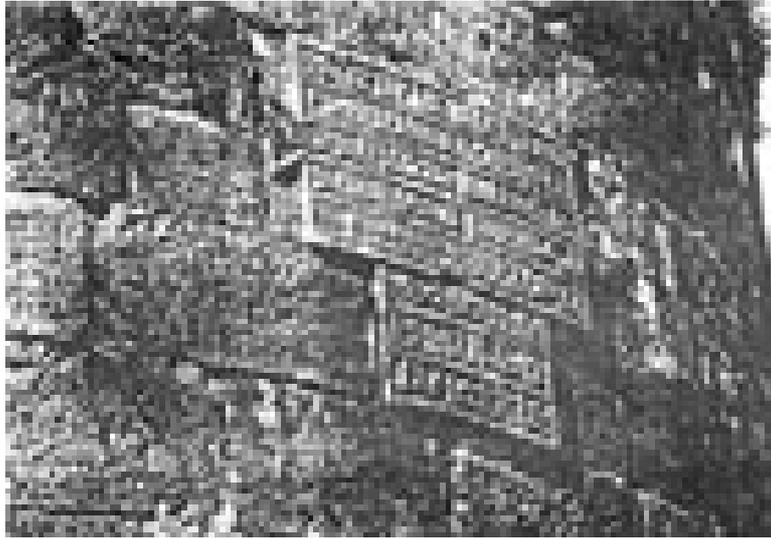
أما بالنسبة للربض، فكان له مسجدان آخران، ويمكن القول بأن فارقين كانت تتكون في العهد دوستكي من ثلاث مدن كانت أكبر بكثير مما شاهدها عليه في سنة ١٩٧٧. حيث كانت محصورة في حدود السور عدا جزء قليل من حدود الجانب الجنوبي الشرقي من السور. أما المحدثه والربض، فكانا خاليين من المباني السكنية ويتألفان من الأراضي الزراعية للساتين والحبوب. أما الضاحية الشرقية (الميدان)، فكانت أيضاً خالية من المباني ويحتمل أنه كان فيها قليل من المباني في العهد دوستكي والأيوبي، وقد شييد فيه الأمير شهاب الدين غازي بن الملك العادل الأيوبي جوسقاً (كوشكا).

بناءً على ما تقدم كانت فارقين في العهد دوستكي تقدر بحوالي ضعفي حجمها في عام ١٩٧٧. ونظراً لكون عدد سكانها في (١٩٦٥) كان يبلغ (٢٠٠.١٢) ألف نسمة حسب الإحصاء الرسمي، وفي عام (١٩٧٧) بـ (١٨) ألفاً، فيمكن إذن تقدير عدد سكانها في العهد دوستكي بحوالي (٣٥) ألف نسمة، وهو عدد غير قليل بالنسبة إلى حجم المدن في ذلك العصر.

كتابات فارقين

ذكر الفارقي في (ص ١٦٣) أن سور ميفارقين مسك نفسه في جميع هذه الدول وإنهدم منه أقرب شيء وبقي إلى ولاية بني مروان، فإستهدم فيه مواضع كثيرة. فبنى منها الأمير ابو الفوارس بن دوستك أخو (پاد) بعضها، وبنى الأمير منصور الممهده مواضع كثيرة، وقد وجد اسمه على أكثر من خمسين موضعاً من السور كان قد رممه. وبنى ابو علي مواضع كثيرة واسمه عليها، وبنى نصرالدولة ونظام الدين مواضع كثيرة من ابرجة وبدانات وغيرها وعمرت احسن عمارة. وقال عدت في السور من ظاهره ما بناه نصرالدولة وعليه اسمه، فكان تسع مواضع وقيل عشرين موضعاً. وعدت من باطن السور فكان نيفاً وثلاثين موضعاً ووقف على السور القرايا وغيرها. وذكر ابن شداد ان نظام الدين زاد على إرتفاع سور فارقين وأمد. لقد أشار الشاعر (المتنبي) في إحدى قصائده إلى ما أصاب سوري المدينة من ضعف وهزال بحيث "ترق لميفارقين وترحم". وذلك في العهد الحمداني كما مضى في الجزء الأول (ص ٨٠).

لقد عمرت الدولة الكردية حتى عهد نصرالدولة مايزيد على مائتي موضع من السور وعمرتها بصورة جيدة، بحيث أن ناصر خسرو أعجب بمتانته وبأبراجها ذات الشرفات "بحيث تقول ان يد بناء ماهر قد أكملها اليوم". ولكن من المؤسف ان الكتابات دوستكية الكثيرة التي شاهدها الفارقي لم يبق منها إلى ثلاثينيات القرن العشرين سوى سبع كتابات فقط. حيث لم يجد مؤرخو دياربكر أكثر منها. علماً أن كتابات الدولة دوستكية في فارقين ودياربكر كانت كوفية. وتلك الكتابات هي:



كتابة مهاد الدولة سنة ٣٩١ هـ (الكتابة الأولى)

الكتابة الأولى:

لمهاد الدولة بتاريخ (٣٩١هـ = ١٠٠١م) وكان تقع على برج مدور شمال القلعة، اي في القسم الشرقي من سور فارقين وهذا نصها:
"بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. امر بعمله الأمير المنصور مهاد الدولة ابو منصور مولى امير المؤمنين اطال الله بقاءه في سنة احدى وتسعين وثلثمائة وانفق عليه من خاص ماله ابتغاء وجه الله عزوجل(٨).

الكتابة الثانية:

تقع على باب الجبل (باب الهوة) وهي باسم نصرالدولة، حيث عمّر الباب سنة (٤٠٥هـ = ١٠١٤م) والكتابة سبعة سطور على الجانب الشرقي من الباب حيث لم يبق للجانب الغربي وجود وقد صورتها وقرأتها على النحو الآتي:
١- بسم الله الرحمن الرحيم لا اله
٢- إلا الملك الحق المبين وصلى الله

(٨) نقل الكتابة بيسان اوغلو (ص٢٣٣) من البرت جبريل الذي نقلها من ماكس فان برشم ويحتمل انها زالت من الوجود بعد ذلك لذلك لم يرها سليمان سافجي.



كتابة باب الجبل

- ٣- علي محمد وآله وسلم تسليما
- ٤- مما أمر بعمله الأمير السيد الاجل
- ٥- نصرالدولة ابو نصر مولى امير
- ٦- المؤمنين اطال الله بقاءه وعز نصره
- ٧- في سنة خمس وأربعمائة حسبي الله (٩).

الكتابة الثالثة:

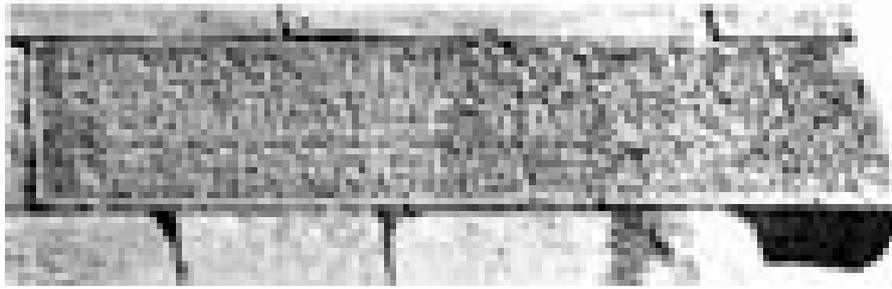
وهي بإسم نصرالدولة وبتاريخ (٤١٦هـ = ١٠٢٥م). نقلها أولاً ثان يرشم ثم نقلها عنه كبريل، وأخذها عن الأخير بيسان أوغلو (ص٢٣٤)، ولم يذكرها سليمان سافجي وقد تلف قسم من الكتابة ولم يذكر بيسان موقعها وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بعمارة هذا..."

(٩) سليمان سافجي ص٢٢ من Silvan Tarihi ورد فيه (الملك) بدل (الأمير)، وهو خطأ كما جاء بدلاً من (امير المؤمنين) المنصور المؤمنين) وهو خطأ أيضاً. وقال سافجي ان الكتابة تقع عند موقع (شادور) وكذلك قال بيسان أوغلو في (ص٢٣٣)، ويحتمل ان معناه (دور الشاه). فلا ندري هل المقصود قصر نصرالدولة بحيث أطلق الكُرد هذا الإسم عليه في وقت ما أو لا؟ أو هل أنه محرف (شادروان) على لسان العامة؟ وهل إن المقصود آنذاك بالشادروان (شادور) المنظرة (منظرة نصرالدولة القريبة من هناك)؟ أو هل ان (شادور) مخفف من (شادور) الفارسية بمعنى تخت الشاه؟ وقصد بذلك تخت نصرالدولة وقصره، لأن هذا الباب كان يؤدي الي القصر وكان عند الزاوية الشمالية الغربية منه.



البرج الخمس



الكتابة الرابعة: على سور فارقين للملك الكامل - ٦٤٩ هـ

الأمير السيد الاجل نصرالدولة اختيار (؟) الملة (؟) ... دام (؟) سلطانه وجرى ذلك... القاضي ابي...
الحسن بن محمد... في سنة ست عشرة وأربعمائة (١٠).

الكتابة الرابعة:

وتقع على برج مخمس الأضلاع في القسم الشرقي من السور في جنوب باب قلوفح (كولفا).
والكتابة على الجدار الجنوبي منه حيث شيده أو رمه الأمير نظام الدين سنة (٤٦٤هـ = ١٠٧١م -
١٠٧٢م)، علماً ان على الجدار الجنوبي الشرقي منه كتابة بإسم الملك الكامل الأيوبي تحت صورة
أسدين بينهما قرص للشمس . الكتابة بتاريخ (٦٤٩هـ) حيث عمّر البرج. وقد وردت الكتابة في
بيسان أوغلو (ص ٢٣٥).

وفي سليمان سافجي (ص ٢٣-٢٤) إيضاح مع تصحيح خطأ معلوم:

١- بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله

٢- مما امر بعمله مولانا الأمير السيد الاجل المؤيد المنصور جمال الاسلام نظام الدين

٣- نصيرالدولة (١١) كهف الأمة عز الملوك سلطان الأمراء ابي القسم نصر بن عز الاسلام
نصرالدولة اطال الله بقاءه وادام سلطانه

٤- في سنة أربع وستين وأربعمائة.

الكتابة الخامسة:

كانت على موقع من السور الداخلي شمال باب قلوفح وهي بإسم نظام الدين وبتاريخ (٤٧٢هـ =
١٠٧٩م - ١٠٨٠م). ذكرها سليمان سافجي (ص ٢٤) وأشار الى ان بدايات الكتابة فقدت. وهذا نصها
مع تصحيح ما ورد فيها من أخطاء نتيجة قراءتها بصورة غير دقيقة:

"ادام الله سلطانه في وزارة الاجل الأعز زعيم الدولة (١٢) أبي طاهر سلامة (١٣) ابن
(الانباري)؟ (١٤) وبنظر القاضي ابو الحسن محمد ابن الحسن في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

ومن الجدير بالذكر أن القاضي ابا الحسن أحمد هو القاضي ابي علي الحسن بن علي بن البغل
الأمدي، والذي تولى إدارة السور كما ذكرنا في موضوع (إدارة السور)، علاوة على توليه إدارة
الوقف، وذلك سنة (٤٦٨هـ).

(١٠) يحتمل أن هذا القاضي هو الشيخ ابو محمد الحسن بن محمد بن المحور من بيت المحور الشهير في فارقين، الذي
عينه نصرالدولة عندما تولى الحكم مديراً للأوقاف، كما ذكرنا في موضوع الأوقاف.

(١١) ورد في المصدرين (نصرالدولة) والصحيح (نصير الدولة).

(١٢) ورد في المصدرين المذكورين (سليمان) والصحيح (سلامة).

(١٣) كتب اللقب خطأ وغير واضح والصحيح (زعيم الدولة).

(١٤) كتب (ابن جهير) وهو خطأ، لأن سلامة كان ابن ابي الفضل ابراهيم بن عبدالكريم الأنباري وعرف بـ(ابن الانباري)،
والتفصيل في موضوع (الوزارة)، وقد أصبح كل منهما وزيراً لنظام الدين.

الكتابة السادسة:

كانت تقع في القسم الشمالي من السور بالقرب من دار صادق بك (باب الرض) على حجر (٦٠×٥٠ سم)، وقد سقط بعض منها على ما ذكره سافجي ونسبها الى الحمدانيين متوهماً أن ناصرالدولة بن نظام الدين من الحمدانيين. وهذا نص الكتابة حسبما جاء في (ص١٧) من كتابه:

١- الأمير الأجل المؤيد

٢- علم الدين ناصرالدولة فخر الأمة

٣- الملة (١٥) تاج الملوك شرف الأمراء ابو العـ...

٤- لي (١٦) بن نظام الدين اطال الله.

الكتابة السابعة:

كان تقع عند مرقد الشيخ خليل على ما قاله سافجي (١٧) وهي بإسم ناصرالدولة وعدّها أيضاً من جملة الكتابات الحمدانية متوهماً، ولم يذكر نص الكتابة ولا تاريخها، ولكنه أتى بصورتها وهي ثلاثة أسطر في بدايتها البسملة. ويظهر انه سقط بعضها وذكر أنها لنفس ناصرلدولة المذكور، أي ناصرالدولة (منصور) بن نظام الدين آخر الأمراء الدوستكيين. وأخيراً إن زيارتي الى فارقين لمدة ثلاثة أيام كانت غير وافية، ولكنها لم تخل من فائدة، لأن معرفة مخطط المدينة يحتاج الى مدة طويلة.

مخطط فارقين على ما وضعناه

سور دياربكر وأبراجها وكتابتها

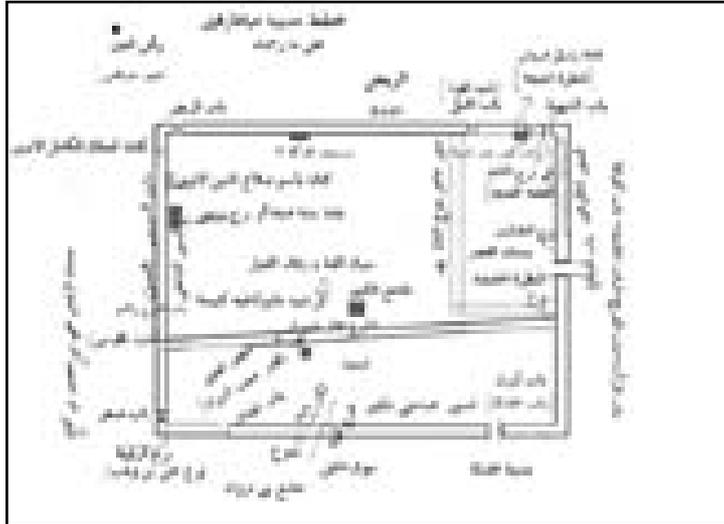
كان سور دياربكر (آمد) المشيد بحجر البازلت الأسود أقوى أسوار المدن في الشرق الأوسط (١). وقد وصفه المؤرخون والسواح بإعجاب، منهم ناصر خسرو الذي قال: لقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم وفي بلاد العرب والعجم والهند والترك. ولكن لم أر قط مثل مدينة آمد في أي

(١٥) العبارة غير سليمة ولا بد أن تكون قبل (الملة) كلمة.

(١٦) أو أبو العلاء.

(١٧) كتاب سليمان سافجي ورغم حجمه الصغير المتكون من ستين صفحة كتاب قيم. ففيه من كتابات فارقين ما لم يتطرق اليها كل من بسري كونيار وبيسان أوغلو، وطبع سنة ١٩٥٦، أي بعد وفاته في سنة ١٩٤٥. ولد سافجي في مدينة دياربكر (١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ - ١٨٩٠ م)، وكان معلماً وله كتاب الفه في دياربكر، وكتاب آخر بخصوص مدينة دياربكر، وقد ترجم المذكور كتاب (شرفنامه) الى التركية؟ وكان يجيد العربية والفارسية.

(١) قال عادل تكن في ص٧ من كتابه الصغير (DIYARBAKIR) أن سور دياربكر أقوى وأهم سور في العالم بعد سور الصين.



مخطط سور وأبراج آمد

مكان على وجه الأرض، ولها سوران. وأضاف أن لسورها أربعة أبواب، وعليها أبواب من الحديد لا خشب فيها. وللصور الخارجي أيضاً أبواب من الحديد، والأبواب في السورين متخالفة بمسافة تبلغ خمسة عشر ذراعاً، وإرتفاع السور الخارجي عشرة أذرع ومن فوقه شرفات (٢).

هذا مع العلم بأن المذكور زار المدينة سنة (١٠٤٦م) في عهد الدولة الدوستكية. وكنا قد ذكرنا سابقاً أن الملك السلجوقي ألب أرسلان لما شاهد سورها إستغرب منه، فأخذ يضع يده عليه ويمسح بها صدره متبركاً به. طول السور من الشرق إلى الغرب (١٧٠٠) متر، ومن الشمال إلى الجنوب (١٣٠٠) متر، ويبلغ طوله الكلي (٦) كلم. إرتفاع السور حالياً (٨-١٢) متراً وعرضه (٣-٥) متراً. عدد أبوابه أربعة وهي في كل جهة باب: ففي الشرق باب دجلة (باب الماء - الباب الجديد)، وفي الغرب باب الروم (باب حلب)، وفي الشمال باب الجبل (باب خربوط)، وفي الجنوب باب التل (باب ماردين).

وللسور إثنان وثمانون برجاً، إرتفاع بعضها حالياً أكثر من عشرين متراً. ولم يتم إستخدام الملائح بين أحجار السور والأبراج، سواء كان من الجص أو أية مادة أخرى، وإنما شيد فيما يسمى بالإصطلاح المعماري الكردي (وشكه كهلهك - هيشكه بهر) أي الحجر الأصم (حجر اللاش).

إن أول من شيد هذا السور هو الإمبراطور الروماني (جونستانتينوس) سنة (٣٤٩م)، أما القلعة الواقعة في منطقة صخرية عالية، فهي تطل على دجلة والواقعة في الضلع الشرقي من جزء الشمال، فأقدم من السور وقيل أنها تعود إلى عهد الحوريين (٣)، أي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد.

ولحسن الحظ أن السور مازال سالماً بأبراجه، ولعلها أسلم مدينة في الشرق الأوسط من هذه الناحية. وعلى السور كتابات رومانية وكتابات لدول وإمارات إسلامية، مختلفة تتضمن أسماء الملوك والأمراء وأحياناً أسماء المهندسين والبنائين (٤)، وعلى السور رسوم حيوانية ونقوش. فديباريكر بسورها وأبراجها ومبانيها وأبراجها ومبانيها الأثرية الكثيرة تشبه متحفاً زاخراً لا يشبع الطرف من رؤيتها،

(٢) أضاف أن في داخل المدينة في عدة أماكن سلالم ليتيسر الصعود إلى السور. وقد بُنيت قلعة على قمة كل برج وعلى بعد مائة ذراع (أي حوالي خمسين متراً) برج نصف دائرته ثمانون ذراعاً (أي حوالي أربعين متراً أو أكثر، لأن الذراع نصف متر وهناك ذراع أطول). وسمى ناصر خسرو الباب الشمالي (باب الأرمن)، والجنوبي (باب التل). وقال في وسط المدينة عين ماء تكفي لإدارة خمس طواحين. وفي المدينة أشجار وبساتين. راجع (سفرنامه ص ٨-١٠).

(٣) راجع بيسان أوغلو، ص ١٣٤ من ديباريكر تاريخي.

(٤) ورد في كتابات أمد اسم المهندس احمد بن جميل الأمدي في كتابات عدة وكذا اسم شجاع الدين المقدم جعفر بن محمود الحلبي حيث كتب "ترسيم..." أي بتخطيط وهندسة جعفر. فيعتبر لذلك مهندساً معمارياً ورد اسمه في كتابة بتاريخ ٦٢٥هـ و٦٣٤هـ، وكذلك الملك الصالح ابو الفتح محمود بن محمد بن قره أرسلان الأمير الأرتقي، حيث كتب على واحد من أكبر أبراج أمد (وهو برج يدي قرداش) انه بترسيمه. علماً أن ابن رزاز الجزري قد ألف كتابه لهذا الأمير. كان الأمير محمود مولعاً أو محباً للفنون وعالماً بالهندسة الميكانيكية أيضاً ورساماً. أما البناء فكان يحيى بن ابراهيم الصرفي. ووردت أسماء هؤلاء البنائين في كتابات أمد: نصير بن حبيب في كتابة لنصرالدولة بتاريخ ٤٣٧هـ وموسى بن مزيد ٤٦٤هـ و٤٦٥هـ وعبيد بن (سفر) ٤٥٧هـ، وابو سعيد بن حمص أو حميص في ٤٧٦هـ، ومحمد بن سلامة الرهاوي ٤٨١هـ و٤٨٢هـ و٤٨٥هـ، وهبة الله الكركاني ٥٥٠هـ و٥٥٩هـ و٥٥٩هـ و٥٥٩هـ و٥٥٩هـ و٥٥٩هـ، ويحيى بن ابراهيم الصرفي وعيسى بن درهم وأبو درهم ٥٩٥هـ عمل مع شجاع الدين جعفر بن محمود الحلبي وعثمان بن طاكاك (٦٢٠هـ) وغلام جعفر المذكور ومسعود ٦٢٠هـ عمل مع (المهندس) جعفر وابو الفرج عمل مع جعفر أيضاً، سنة ٦٣٤هـ، ويحتمل ان البناء ابراهيم كان ابنه.

ولها المقام الأول بين مدن كُردستان وهي أكبرها، ويبلغ عدد سكانها الآن حوالي (٢) مليون نسمة. لقد إهتمت الدولة الكُردية بترميم ما ضعف من سور دياربكر وأبراجه، كما إن نظام الدين زاد في إرتفاع السور. وقال الفارقي في (ص٨٣) أن (ابن دمنة) زاد في إرتفاع السور قامة، وكان هذا وصهره عبدالبر قد حكما المدينة بعد إغتيال عبدالبر للأمير أبي علي الحسن بن مروان في أواخر (٣٨٦هـ = ٩٩٦م) كما ذكرنا في الجزء الأول. ثم خضع عبدالبر لمعهد الدولة، فكان حكمهم من قبل الدولة الى سنة (٤١٢هـ). وفي الورقة (٦٩) قال ابن شداد ان الفصيل، اي السور الأمامي شيد من قبل ابن دمنة ثم أزاله الملك الكامل الأيوبي، ولم أجد ذلك في مصدر آخر (٥).

لقد تقدمت المدينة أيضاً في عهد الدولة الدوستكية، ولكنها سرعان ما تأخرت بعد زوالها بشهادة من كاتب نسخة (صورة الأرض) لابن حوقل المخطوطة التي طبعت بتعليقاته. فقد قال في (ص٢٠١): أنه دخلها سنة (٥٣٦هـ) "ولم يكن بها إلا بقايا رمت... فلم يزل بها جور بني نيسان وكثرة الإضطهاد والإجحاف والمصادرات والتضييق عليهم... فألجأهم ذلك الى التشتت عن الأوطان فخرت بيوتهم... فلم يبق بأسواقها حانوت معمور...". ولاشك أن الدولة الدوستكية قد رمت عشرات الأماكن وكتبت عليها. ولكن لم تبق من كتابتها على السور والأبراج سوى أربع عشرة كتابة، وفيما يلي تلك الأماكن والكتابات:

١- في سنة (٣٨٦هـ = ٩٩٦م)، عمّر الأمير أبو علي الحسن بن مروان (باب الجبل) وكتب عليه ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمله الأمير المنصور ابوعلي الحسن بن مروان اعز الله نصره سنة ست وثمانين وثلثمائة" (٦).

٢- كتابة على برج في الجنوب الشرقي من السور وهي عبارة عن سطرين مكتوبين على الحجر الأبيض، وهي بتاريخ (٤٢٦هـ) وفي الصفحة التالية صورة للبرج.

ونص الكتابة على ما جاء في بيسان أوغلو (ص٢٢٦) ويسري كونيبار (ج٢، ص٢٤) هي: "بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر عمله الأمير السيد الأجل المؤيد المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة ركن الملة مجد الأمة شرف الأمراء ابو نصر أحمد بن مروان اطال الله بقاءه وأدام سلطانه شهور سنة ست وعشرين وأربعمائة وحسبي الله ونعم الوكيل".

٣- كتابة لنصرالدولة على باب (كچي برجو - KEÇIBURÇU) المشيد على صخرة عالية في الزاوية

(٥) ذكر الفارقي في (ص٨٢) من تاريخه تاريخ آمد وميافارقين، أن ابا طاهر يوسف بن دمنة شيد القصر على دجلة والسلسلة في شرقي البلد، وأحكم عمارته وفتح له باباً من القصر الى دجله وسماه (باب الهوة). ولم يذكر انه بنى السور الأمامي (الفصيل). وذكر إيليا برشنايا في تاريخه (المخطوط) (ص٨٣) هذا القصر بإسم قلعة، وذلك بعد أن حاولت جماعة قتله سنة (٣٨٦هـ)، ثم قتل سنة (٤٠٢هـ). بينما ذكر الفارقي ان قتله كان في سنة (٤١٥هـ). وذكره إيليا بإسم عبدالله بن دمنة وذكر انه إستولى على آمد عندما قتل عبدالبر يوم الإثنين الرابع من شوال سنة (٣٨٩هـ). (ففي ص٢٠١ من النسخة المطبوعة يُعتمد على معلومات إيليا أكثر من الفارقي، لأن تلك الأحداث وقعت في عهده وقد فرغ من تأليف تاريخه هذا - كتاب الأزمنة - سنة ١٠١٨م).

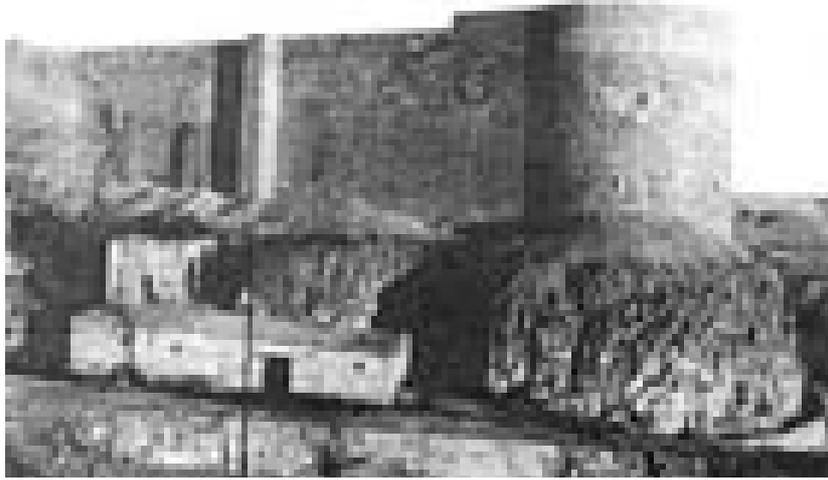
(٦) بيسان أوغلو، ص٢٢٦ من Diyarbakir Tarikhi ، لم يذكرها بسري كونيبار.



باب الجبل بآمد



برج في دياربكر



كچي برجو - بيسان أوغلو

الجنوبية الشرقية من السور، وقد طلع البرج عن مستوى السور الى أمام وله بذلك منظر جميل ومهييب. لا يقل البرج في داخله عن طابقين جده أو رمه نصرالدولة سنة (٤٣٧هـ = ١٠٤٥ - ١٠٤٦م)، وهو من أشهر أبراج دياربكر ويقع في شرق باب ماردين وبينهما برجان. وفي آب ١٩٧٧ عندما زرت آثار دياربكر، كان البرج تحت الترميم وقيل لي أن الحكومة تتخذه متحفاً، وكانت تحت البرج رحي مائية. وقد مضى نص الكتابة في موضوع الجباية فراجع هناك.

٤- كتابة على مربع برج يقع في شرقي (كچي برجو)، وبينهما أربعة أبراج، عليه كتابة كوفية مزخرفة مؤرخة بسنة (٤٣٧هـ = ١٠٤٥-١٠٤٦م)، وهي تحمل إسم نصرالدولة وابنه سعدالدولة محمد والي المدينة.

وفي العشرين من آب سنة ١٩٧٧ صورت البرج وقرأت كتابته التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم مما امر بعمله وبنائه والانفاق عليه إبتغاء ثواب الله وطلب رحمته مولانا الأمير السيد الآجل المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء ابو نصر أحمد بن مروان في ولاية ولده الأمير سعدالدولة ابو الحسن محمد اطال الله بقاءهما وأيد ملكهما وجري ذلك على يد القاضي ابي علي الحسن بن علي بن أحمد الأمدي سنة سبع وثلثين وأربعمائة والبناء نصير حبيب" (٧).

لم أتمكن من قراءة إسم والد البناء آنذاك، ولذلك أخذت الإسم "حبيب" من بيسان أوغلو، والآن

(٧) توجد في فان برشم أيضاً في (ص٢٦)، وفي بيسان أوغلو (ص٢٢٨) وفي بسري كونيبار (ج٢، ص٢٨). في الأول والأخير "نصير بن سبأ" وهو غير صحيح. وبخصوص سعد الدولة ابو الحسن محمد راجع كتابنا (ج١، ص٢٤٤). في المصدر الأول انه البرج الثامن من (كچي برجو) ولا بد أن يكون أحدنا خاطئاً.

وبعد التدقيق في صورة الكتابة أُويد انه حبيب وليس (سبا؟).

وتجدر الإشارة الى ان هناك هناك صورة منحوتة لقرص الشمس فوق كلمة (سبع).

٥- كتابة على برج مربع وهو الأول أو الثالث ويقع شرق (كچي برجو) وهي بإسم نصرالدولة بتاريخ (٤٤٤هـ). تولى الإشراف على بنائه القاضي ابو علي المعروف بـ(ابن البغل) قاضي آمد الذي ذكرناه في موضوع (القضاء). وقد قرأت الكتابة على النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله وبنائه والانفاق عليه من ماله مولانا الأمير السيد الأجل المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء ابو نصر أحمد بن مروان اطل الله بقاءه وادام سلطانه وجرى ذلك على يدي القاضي ابي علي الحسن بن علي بن أحمد الآمدي في سنة أربع وأربعين وأربعمائة والبناء نصير حبيب" (٨).

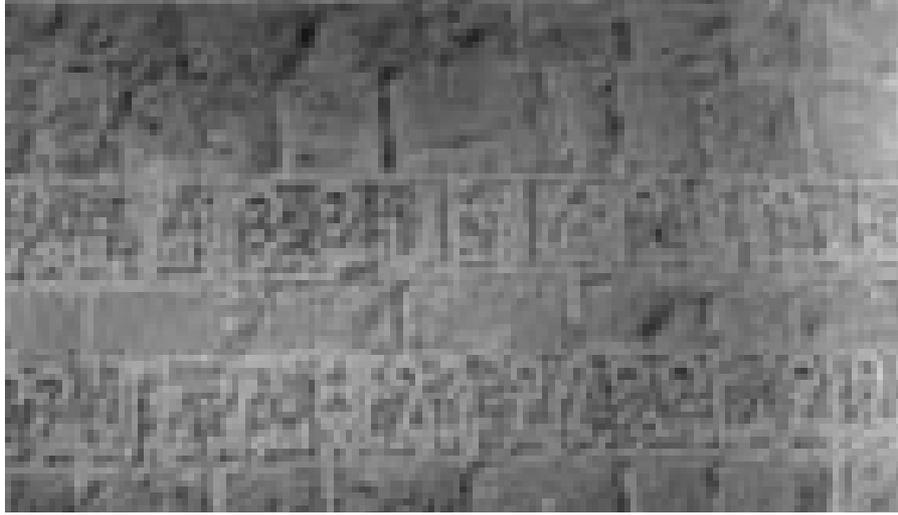
وفي الركن الغربي من البرج (ركن محراب) جميل عبارة عن قطعة حجرية واحدة إرتفاعه عن الأرض أكثر من متر واحد، وقد نحت في جانبيه عمودان صغيران. أما القسم الأعلى داخل المحراب، فمقسم الى خمسة فصوص كزخرفة هندسية وفوقه زخارف. وفي الزاوية العليا الشرقية من المحراب (ركن محراب) نحتت عليه صورة حمامة وفي الزاوية الغربية المقابلة صورة نسر، علماً أنه نحتت صورة نسر وحمامة عند بداية كتابة بإسم نظام الدين بتاريخ (٤٦٤ هـ) على قلعة دياربكر نحتهما أدق من نحت النسر والحمامة هنا. وتوجد على الحاشية السفلى من المحراب كتابة بخط كوفي بسيط أو بين الكوفي والنسخ هي "الحمد لله وسلام على" (٩).

ولانعلم هل إن هذا النقش (ركن محراب) من الفن الدوستكي أم لا؟ ولكن البت في ذلك إنما يكون بعد التدقيق في الأبراج للتأكد من وحدة البناء. هذا مع العلم بأن الكتابة الموجودة عليه لا تشبه الكتابة الدوستكية. لذلك يحتمل أن يكون من العهد العباسي.

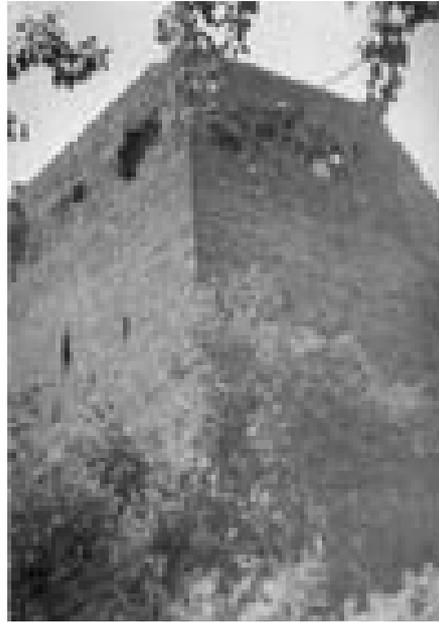
وفي الركن الشرقي ركن محراب آخر مشابه، لكنه خال من رسم الطائرین وعلى حاشيته ثلاث كلمات الوسطى إسم (الله)، وذلك في الصف الخامس من حجارة البرج. وفي نفس الركن في الصف الثاني عبارة من كلمة إو (كلمتين) تشبه إسم (يوسف). وإن كان ما نقوله صحيحاً فلعله إسم (ابو طاهر يوسف ابن دمنه)، الذي مر ذكره في بداية هذا الموضوع، وفي الركن الغربي حجر مائل. وفي وسط هذا البرج أيضاً وفوق الكتابة الدوستكية (المروانية) في الصف السابع حجر عليه نقش مروحي في نصف دائرة وعلى جانبيه إسم (الله) بخط النسخ، وفي وسط البرج وبإرتفاع حوالي مترين رسم ثور أو بقرة.

(٨) الكتابة موجودة في كل من بسري كونيبار ج ٢، ص ٢٨ وبيسان اوغلو، ص ٢٢٨. وفي الأول أيضاً كتب (سبا؟) مع وضع علامة الإستفهام. الكلمة غير صحيحة والصحيح (حبيب). وفي الأخير انه البرج الثالث، ولكني سجلته بالبرج الأول في شرق (كچي برجو). والصورة الكاملة من كونيبار.

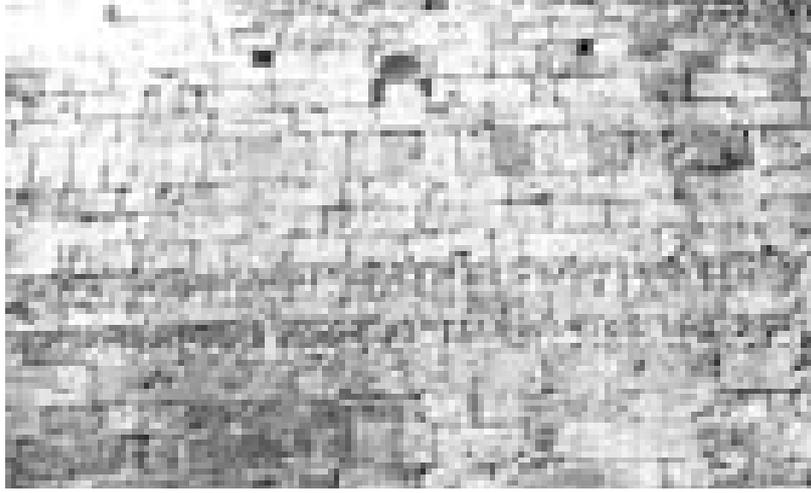
(٩) باقي العبارة تالف بسبب كسر الطبقة العليا من الحجر، ولعل المؤلف اسم (محمد) فقط وتنتهي الكتابة بـ(سلام على) ولم يكتب إسم (محمد) لوضوح المقصد، مثلما تنتهي الكتابة بكلمة (وصلی) على بعض النقود.



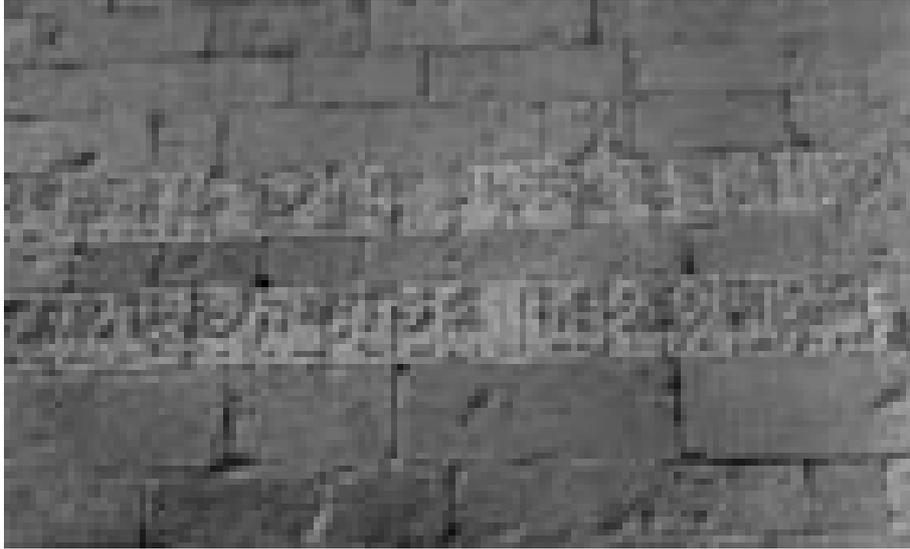
مقطع من كتابة سنة ٤٣٧ هـ



برج سنة ٤٤٤ هـ



مقطع من كتابة برج سنة ٤٤٤ هـ



كتابة لنصرالدولة على باب خربوت



كتابة برج سنة ٤٤٤ هـ

والجدير بالذكر أنه توجد على أحد الأبراج الواقعة غرب باب ماردين ثلاثة محاريب قريبة الشبه بمحاريب برجنا هذا. وفي كتاب بيسان أوغلو (ص ١٧١) صورة محراب (يسمى في العمارة بركن محراب) على البرج الواقع في يمين (باب الجبل)، الذي فوقه كتابات للخليفة العباسي (المقتدر بالله جعفر)، وهو من عمل المهندس أحمد بن جميل الأمدي. ويحتمل ان تكون محاريب هذا البرج من عهد المقتدر، علماً بأنه توجد على بعض نقوده صورته وهو راكب عجلًا كرمز للقوة (١٠). وعلى هذا البرج رسم ثور أو بقرة. يذكر ان صنع المحاريب كان موجوداً في الحضرات القديمة، ومنها الحضارة السومرية، وفي الكهوف والمعابد الزردشتية الصخرية الكثيرة المكتشفة من قبلنا في (عقره - ناكريّ وسلسلتها الجبلية نماذج من المحاريب المختلفة وفي النفق الصخري لمعيد (شكه فتا چار ستوين) الزردشتي بالقرب من دهوك الذي إكتشفته في ١٩٩٥/٥/٢٥ ركن محراب ايضاً.

٦- كتابة في داخل باب خربوط بإسم الأمير نصرالدولة الذي عمره، ولكن سقطت منها عبارات ومنها تاريخها . وقد ذكر تلك الكتابة كل من فان برشم (ص ٣٠) ويسري كونيار (ج ٢، ص ٢٩)، أي أن الكتابة كانت باقية الى عهدهما قبل أن تزيل الحكومة التركية هذا الباب. وقد صور فان برشم هذه الصورة للباب المذكور.

وقد ورد في المصدر الثاني (أي في كونيار) خطأ لعله مطبعي وهي كلمة (البيه) بدلاً من (عليه)

(١٠) توجد صورته في (ص ١٣٧) من (النقود الإسلامية) للدكتور محمد باقر الحسيني، وقال انه نقد إعلامي سيء (ومحفوظ في المتحف العراقي).

في عبارة (... والانفاق عليه). وفيما يلي نص الكتابة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تطوع بعمله وبنائه والانفاق عليه تقرباً الى الله تعالى والى نبيه محمد صلى الله عليه مولانا (الأمير السيد؟) الأجل المؤيد المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء..."

٧- على باب خربوط آية قرآنية بنفس خط الكتابة السابقة لنصرالدولة. أشار إليها بسري كونيار في (ج٢، ص ٣٠) ولم ينقلها، ولكن أدرج صورتها في الكتابة وهي المرقمة (٢٠).

٨- كتابة على برج مدور يقع في الطرف الأيسر من (جفته قايي) وليس بينهما برج آخر. كانت عليه كتابة دوستكية بقي منها التاريخ فقط، وهو بدوره ناقص أيضاً وهو عبارة عن "في سنة أربع و... أربعمئة".

٩- كتابة على برج بين باب أورفا وباب خربوط (باب الجبل) سقطت منها عبارات وكانت في أربعة سطور. وهذا نصها على ما جاءت في بيسان أوغلو (ص٢٢٩): "... جمال الإسلام نظام الدين ونصير (١١) الدولة... السيد الاجل كافي الدولة ابو... بن عز الإسلام اطال الله بقاه... سنة خمسين وأربعمئة" (١٢).

١٠- كتابة البرج المرواني: وهي كتابة على البرج الشاهق، وهو أطول أبراج المدينة والذي يقدر إرتفاعه حالياً بـ (٢٢) متراً، وقد بقي منه الآن إثنان وسبعون صفاً من أحجار البناء. يقع البرج في جنوب باب دجلة (باب الماء) الشرقي. وهو البرج الثاني أو الثالث حالياً في جنوب الباب وباتجاه (كچي برجو)، كما انه يقع في بدايات القسم الجنوبي من السور (١٣).

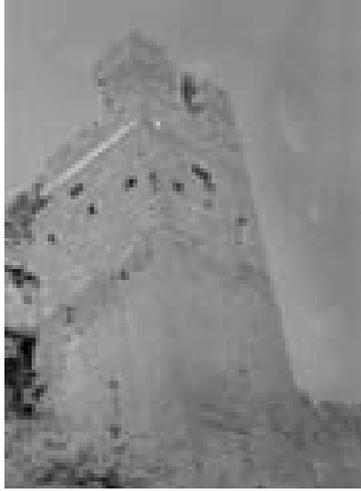
وفي سنة (٤٦٠هـ) شيد الملك الكُردي نظام الدين ذو السياسة العادلة هذا البرج المربع من أساسه وأوصله الى إرتفاع يزيد على إرتفاعه الحالي، لكي يصل الى مستوى السور إرتفاعاً ويعلو عليه، وذلك لأنه شيد تحت السور على أرضية شديدة الإنحدار باتجاه دجلة، فهو لذلك خارج عن مستوى السور بمقدار وهو جدار ساند للسور صَمَد لا جوف له في معظم هيكله. وهناك في قسمه الأعلى برج

(١١) كتب (نصرالدولة) والصحيح (نصرالدولة).

(١٢) نقل التاريخ بشكل خاطيء لأن الكتابة لنظام الدين، الذي تولى الملك سنة (٤٥٣هـ) إثر وفاة والده نصرالدولة في التاسع والعشرين من شوال في السنة المذكورة.

(١٣) وصلت الى البرج وشاهدت في لفحة هجير من شهر آب منفرداً قادماً من الأبراج الشرقية، فوجدت نفسي يتلك القامة القصيرة كأني أقف بخشوع أمام هيكل الأمير (ياد) الضخم وقوة عزيمته وعلو همته، على ما عرفه التاريخ لنا. وبينما كنت نشواناً بتصوير البرج وقراءة كتابته الصعبة العالية، خرجت علي مجموعة من أطفال دياربكر من شقوق السور كالزنابير الهاتجة وطفقوا يرشقونني بالحجارة رشق السهام. فخفت أن يشجوا رأسي ويكسروا آلة تصويري، فكلما أصعد إليهم مطارداً يهربون، وكلما أنزل الى أسفل البرج يرجعون فيرشقون بحجارتهم ويرجمون - صانهم الله من عدو يقر في الماضي بطون جداتهم وقطع رؤوس جدودهم - وستصبح هذه الذكرى البهيجة مدمعة لمقلتي متى أدركتني شيخوخة أقعدتني عن التجوال بين آثار كوردستان الحضارية يوم لاينفع التمني والتشكي حسبما ذكره شاعر بلغ من الكبر عتياً وأمسى للشيب شكياً! حينما قال:

ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب



البرج المرواني

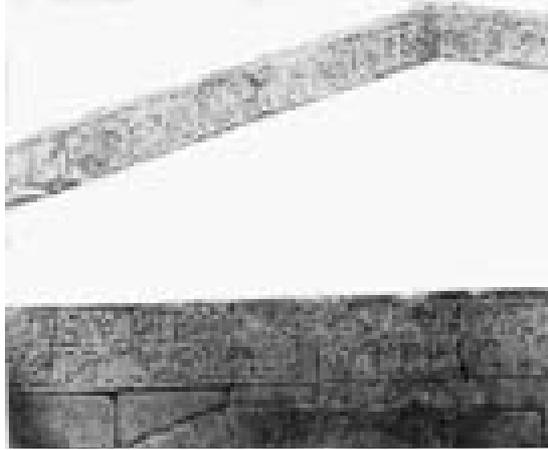
باسق عتيد لا يكلّ طرف الناظر اليه، وهو يبدو في أسفله مثل عصفور بالنظر لضخامته ومهابته. وتتجلى من البرج ما لا يقل عن ثلاثة أدوار تعميرية. وعلى صدر البرج على الحجر الأبيض سطران من أجمل أنواع الكتابة الكوفية المزهرة، ولكنني لم أتمكن سوى من قراءة السطر الأول فقط، وذلك نظراً لضيق الوقت ولعلمي بكونها موجودة في كتاب (بسري كونياري، ج ٢، ص ٣٥). ثم وجدت تلك الكتابات في كتاب بيسان أوغلو (ص ٢٢٩) الذي ذكر بأن البرج يسمى (يقصد من قبل سكان ديار بكر) بالبرج المرواني (مرواني برجو). وأشار الى هذه الكتابة أيضاً الدكتور حسن الباشا في الفنون الإسلامية، ج ١، ص ١٢٥. وجاء بها فان برشم في (أميدا، ص ٣٥). وفيما يلي نص الكتابة:

١- بسم الله... ما أمر بعمله الأمير الأجل السيد نظام الدين مؤيد الدولة وفخر الأمة عز الملوك ابو القسم نصر.

٢- بن عز الإسلام اطال الله بقاءه وأعز نصره على يدي القاضي أبي الحسن عبدالواحد بن محمد في سنة ستين وأربعمائة.

١١- كتابة على سور قلعة ديار بكر (إيج قلعة) بتاريخ (٤٦٤هـ = ١٠٧١م). تقع الكتابة على الطرف الخارجي للقسم الشرقي من سور القلعة المطل على عين ماء ينبع ماؤها من تحت الصخرة التي شيد عليها السور. وكانت القلعة عندما زرتها مقراً للحامية العسكرية في ديار بكر.

وفي بداية الكتابة صورة نسر وحمامة سبق ذكرهما، والصورة على الحجر الواقع قبل بداية الكتابة مباشرة. والكتابة ماعدا التاريخ في سطر واحد طويل طوله حوالي عشرة أمتار وهي برسم نظام الدين. وأما التاريخ ففي سطر مستقل منفصل على صدر جدار (ساند) طالع نحو الأمام وبنفس الإستقامة.



كتابة البرج المرواني

ونص الكتابة حسبما قرأتها بالإستفادة من بيسان أوغلو هي كالآتي:

- ١- "مما (١٤) أمر بعمله الأمير السيد الأجل جمال الإسلام نظام الدين مؤيد الدولة عز الملوك ابو القسم نصر بن عز الإسلام اطال الله بقاءه وأعز نصره وذلك بنظر الوزير الأجل الأعز الكامل زعيم الدولة أبي طاهر سلامة بن إبراهيم ادام الله أيامه وجرى ذلك على يدي القاضي ابي الحسن عبدالواحد بن محمد بن عبدالواحد في سنة ٢- أربع وستين وأربعمائة والبناء موسى بن مزيد".

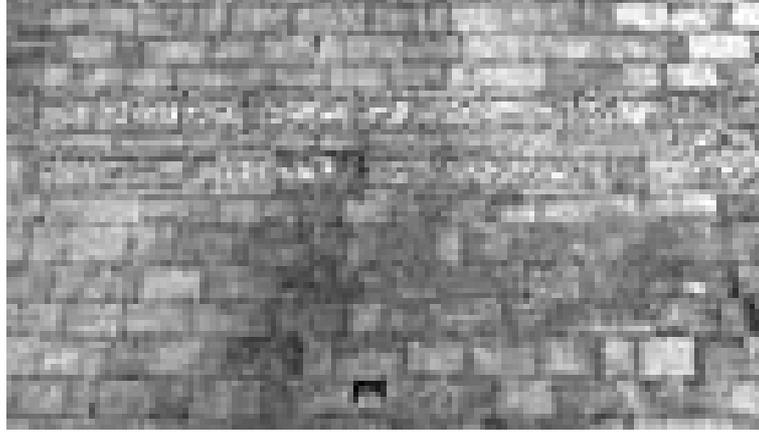
والجدير بالذكر انه توجد نجمة بعد كلمة (بقاه) ونجمة ثانية بعد كلمة (القاضي).

- ١٢- كتابة مؤرخة بسنة (٤٦٥هـ) على (تك قايي)، وهو الباب الصغير الواقع بين باب خربوط وباب أورفا. على يمين الباب كتابة للملك الكامل الأيوبي بتاريخ سنة (٦٣٤هـ) والكتابة كوفية من النوع المسمى بالكوفي البسيط. وقد قرأتها على النحو الآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله جمال الإسلام نظام الدين عز الملوك أبو القسم نصر بن عز الإسلام اطال الله بقاءه بنظر الوزير الأجل زعيم الدولة ابي طاهر سلامة بن ابراهيم ادام الله أيامه (وجرى ذلك؟) على يدي القاضي ابي الحسن عبدالواحد بن محمد سنة خمس وستين وأربعمائة والبناء موسى بن مزيد (١٥).

(١٤) في بيسان اوغلو (ص٢٣١) ورد (ما أمر) وهو خطأ، وأخذنا لفظ (زعيم) في (زعيم الدولة) من هذا المصدر مع إسم البناء واسم والده. وأشار هذا المؤلف الى أن النص موجود في كتاب سليمان سافجي. أما بسري كونيبار فلم يذكرها، وقد أشار إليها حسن الباشا في (ص١٢٥) من كتابه.

(١٥) النص موجود في بيسان أوغلو (ص٢٣٢). أخذت منه العبارة الواقعة بين (بقاه) وبين (جرى ذلك؟) وليست فيه عبارة (وجرى ذلك) التي نقلتها مع شك في صحة قراءة النص، والنص غير موجود في كتاب بسري كونيبار.



كتابة إيج قلعة



كتابة تك فابي بإسم نظام الدين

١٣- كتابة على برج كبير كان يقع بالقرب من موقع باب الجبل جنوباً، وأظن أنه كان ذا أربعة طوابق وسداسي الأركان وقد صورناه. والكتابة على الحجر الأسود في الركن الشرقي من البرج. ويسمى البرج بـ(تهك برجؤ) أي البرج المنفرد، لأنه بقي وحيداً بعد أن أزلت الحكومة التركية باب الجبل مع بعض الأبراج. والكتابة هي للأمير ناصرالدولة آخر أمراء الدولة الدوستكية ومؤرخة بسنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٣م). ونص الكتابة كما جاء في كتاب قان برشم (أميدا) (ص٣٦) هي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله والانفاق عليه من ماله الأمير السيد الأجل المنصور سيف الإسلام علم الدين ناصرالدولة تاج الملوك شرف الأمراء ابي المظفر منصور ابن نظام الدين اعز الله نصره وجرى ذلك على يدي القاضي ابي نصر محمد بن عبدالواحد في شهور سنة ست وسبعين وأربعمائة والبناء ابو سعيد بن حمص". (١٦)

١٤- على نفس البرج كتابة أخرى بقيت منها هذه الكلمات على ما جاء في بيسان أوغلو (ص٢٣): "... سيف الإسلام علم الدين ناصرالدولة ابو المظفر منصور... " وعلى هذا البرج صورة أسد من عهد الأمير منصور كما مر ذكرها.

(١٦) الكتابة الموجودة في كتاب بسري كونيار (ج٢، ص٣٦) وكتاب بيسان أوغلو (ص٢٣٢) اسم والد البناء في الأول (حمص) بدون ياء وفي الثاني (حميص) بالياء، علماً أنه أصبح في الأخير بالصاد المهملة ضاداً معجمة لخطأ مطبعي. كما ان اسم البناء كتب فيهما (سعد) وبالنسبة للأول لاشك انه خطأ مطبعي، لأنه كتبه (سعيد) في الإملاء اللاتيني التركي.



برج بقرب باب خربوط



كتابة برج بقرب باب خربوط

((إضافات))

* لفظه پاد

في الجزء الأول من كتابنا هذا (ص ٣١-٣٥) كتبت بخصوص إسم مؤسس الدولة الدوستكية، مشيراً إلى جملة من المصادر كان من بينها (النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٤٥) و(ج ٥، ص ١٠٥ لابن تغرى بردى، النسخة الخطية المصورة في الكتب المصرية)، حيث ضبط المؤلف إسم (پاد) بالباء المفخمة (غير العربية) أي (پ) بثلاث نقاط، فعند المؤلف ان الإسم هو (پاد). وكذلك ضبطه الشيخ عبدالوهاب النجار في تعليق له في هامش (ص ١٢١، ج ٧، من الكامل في التاريخ لابن الأثير، طبعة مصر، ١٣٥٣هـ) حيث كتب أن اللفظ (پاء موحدة مفخمة وذال معجمة)، بحيث يصير الإسم (پاذ). ومعروف أن حرف (پ) غير العربي يكتب في الرسم العربي على شكل (ب) بنقطة واحدة. ولهذا نجد اللفظ كتب بشكل (باد) في المصادر العربية.

لم يستقر رأيي آنذاك على صيغة (پاد) حسبما ضبطه كل من ابن تغرى بردى والشيخ عبدالوهاب النجار، بل كتبت في (ص ٣٣) ما يلي: "تظل رواية «پاد» مفتوحة للبحث والتعقيب". علماً أن عدداً من المؤرخين ذكروا ان (باد) لقب لهذا الأمير، أما إسمه ف(حسين - حسين بن دوستك) وكنيته (ابو عبدالله أو ابو شجاع)، ومن هؤلاء المؤرخين الروذراوي محمد بن حسين المتوفي سنة (٤٨٨هـ) الذي عاصر الدولة الدوستكية وأصبح مدة وزيراً في الدولة العباسية، وذلك في كتابه (ذيل تجارب الأمم، ص ٨٤)، والفارقي في (ص ٥١) حيث قال: "وإنما لقبوه باد" لكنه كتب ان إسمه (الحسين بن دوستك) مرة، وكتب مرة أخرى أن (الحسين) كان أخاه، وابن تغرى بردى أيضاً.

ومنذ أن نشر الجزء الأول سنة ١٩٧٢ فكرت مراراً في هذه المسألة وحاولت معرفة معنى لفظ (باد)، فوجدت في دائرة المعارف الإسلامية مادة (پادشاه) أن كلمة (پاد) تتصل بالكلمة السنسكريتية (پاتس) ومعناها سيد أو زوج ومؤنثها (پاتي)، والكلمة اليونانية (π α τ υ ν α) والكلمة اللاتينية (POTNS). وكان لقب (پادشاه) مقصوراً على الملك ومعناه السيد الملك. ومن الجدير بالذكر أن إسم (پاتي) للزوجة لا يزال متداولاً في بوتان، حيث يقول الزوج لزوجته أحياناً "پتني"، ولكن بعض النسوة كن يغضبن من مناداتهن ب(پتني) من قبل أزواجهن. واللفظة المذكورة في سبيلها إلى الإنقراض، إن لم يجر الإعتناء بها في نطاق إحياء اللغة الكردية، وخاصة الألفاظ النادرة.

في القاموس الفارسي (برهان قانع) لمحمد كريم التبريزي: ان (پاد) تأتي بمعنى حارس ومحافظ وحاكم وكبير وصاحب جلاله وعقل ومعرفة (أورنك) وتخت (سرير العرش). وفي القاموس الفارسي (فرهنگ عمید): أن (پاد) و(پات) بمعنى الحارس والمحافظ والكبير وصاحب الجلالة والتخت السلطاني. وفي (قاموس تركي) لشمس الدين سامي مادة (پاد) أن پادشاه بمعنى الحاكم الكبير.

يتضح مما سبق، أن كلمة (پاد - پات) كلمة آرية قديمة تقرب من معنى الملك، أو أنها بنفس المعنى، ولهذا فإن إثنين من الأمراء الأرمن تلقبا بلقب (پات) وهما (سمباط) من الأسرة البكرادونية، والأمير (ورزتيروتس). حيث تلقب الإثنان بلقب (پاتكانيان) كما قال (كريستنس في هامش ص ٣٩٤ من، إيران في عهد الساسانيين). وإن كان المقصود بسمبات (سمبات الأول) ابن آشوت، الذي عاش بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، فمن المحتمل أن الأمير الكردي (پاد) أدرك أواخر عهده. وإن كان المقصود هو سمباط الثاني (٩٧٧-٩٨٨) فإن الأمير پاد عاصره تماماً. ولعل هذا الأمير الكردي أخذ فكرة التلقب بـ(پاد-پات) من هذين الأميرين أو من سمباط بالذات، لأن عهد (ورزتيروس) غير معروف بالنسبة لي.

وبناءً على ما تقدم، فقد إستقر رأيي على ان اللفظ هنا هو (پاد) بالباء المفخمة وحده، بدلاً من (پادشاه). وعندما أرادوا تعظيم الملك أكثر تم دمج اللفظتين پاد وشاه في لقب واحد، فجاء (پادشاه) الى الوجود.

في ٢٧/٥/٢٠٠٠ زرت الدكتور فريدون جنيدي، وقد قدم الى السليمانية، وهو زردشتي وعالم في الأوستا والديانة الزردشتية والپهلوية. وأفادني مشكوراً بأن لفظة (پاد) في أوستا (پايتي) وفي الپهلوية الساسانية (پات) وفي الفارسية (پاد) وفي العربية (باد). وقال أن اللفظ بمعنى (نگهبان) أي الحامي والمحافظ. وجاء في أوستا (پات حُشْتَر) بمعنى حارس ومحافظ البلاد أو محافظ المدينة، لأن (حُشْتَر) تأتي بمعنى البلد وبمعنى المدينة أيضاً.

* قرية كورماس (كرماص)

في الرابع عشر من آب ١٩٧٧، توجهت من مدينة سعرد الى قرية بني مروان قرية كورماس (كرماص) التي تقع في منطقة شيروان (شيروا) وهي منطقة شديدة التموج عموماً قليلة الواردات. كان رفيقي في الرحلة أخي (محمد الواصل). تقع كورماس على سفح جبل (كوران) وتحدها من الشرق القرى التالية: قرية (بابي) وعندها في جبل (كوران) (قلعة باي) الوارد إسمها في (شرفنامه) والمصادر الأخرى، تتكون قرية (باي) من حوالي أربعين أسرة. وتحدها من الغرب قرية (كهلمخ) ومن الشمال قرية (نهونين) ومن الجنوب قرية (كيشهر). تتكون (كورماس) من ثلاثة وثلاثين أسرة، وتنقسم القرية الى ثلاث أقسام منفصلة. منها بيوت بگوات كورماس على موقع مرتفع من جهة الشمال الشرقي.

للقرية بساتين كثيرة. ولما وصلنا إليها إجتمع حولنا مجموعة من رجال القرية، فألقيت عليهم مجموعة من الأسئلة، فلم يعلموا شيئاً عن مروان وأبنائه الحكام و(پاد) ودوستك وجبال (باحسمى). فقال أحدهم في بستاني رحي (طاحونة قديمة). فقلت ما إسمها؟ فقال (ناشي مهروان) أي (رحي مروان). فأخذني سرور عظيم مشوب بالدهشة. فقد كان غرضي العثور على الرحي الذي كان لمروان بن (كك) بن مروان والد الجيل الأول من أمراء الدولة الدوستكية، حيث قال الفارقي في (ص ٦٠) انه



قرية كورماس



ثاشي مروانان

"كان لمروان طاحونة يشغلها وكانوا رؤساء كرماص ومقدموها". فسرنا بسرعة الى بستانه القريب الواقع على الطريق الجنوبي للقرية. فشاهدت آثار بناية مشيدة بالحجر والجص ملصقة بالأرض، أي لم تبق منها معالم بارزة. فإستغربت جداً، كيف أن سكان القرية إحتفظوا جيلاً بعد جيل منذ أكثر من ألف سنة بإسم هذه الطاحونة (ناشئ مهروان)، التي خلدت إسم مروان. فصورتها وتبركت بها، لأنها أقدم آثار أسرة (بني مروان)، ولكن لم الإستغراب؟ ففي كُردستان اليوم الكثير من الأماكن التي بقيت بأسمائها منذ أربعة آلاف سنة وأكثر. ولكن إسم جبال (باحسمي) العالية في شرق وشمال شرق كورماس، والبعيدة عنها بمسافة منها، الفاصلة بين منطقة شيروان ومنطقة هيزان (خيزان)، والتي قال الفارق ان الأمير باد بن الحسين بن دوستك "خرج من جبال باحسمي وهي ولاية حيزان والمعدن"- فقد تغير إسم تلك الجبال الى اسم (گهرزهفيل GERZEVIL)، بينما ظلت بليدة (معدن) وهي الآن قرية، وقد ورد إسمها في الفتوحات الإسلامية، ظلت محتفظة بإسمها حتى اليوم. وهي تقع في جبل (گهرزهفيل) في شمال بلدة كوفرا (كفرا - شيروان) الواقعة شمال كورماس، وهي مركز قضاء شيروان من أقضية ولاية سعرد. لقد إندثر إسم (حارُخت) إسم قبيلة ياد، وحل محلها إسم (شيروا- شيروان) وإن الشطر الأخير من إسم القبيلة هو نفس إسم (بُخت- بختان- بهتان- بۆتان)، ومازال سكان منطقة (شيروا) يقولون بالأصل الواحد، أي أن الجميع بختيون. إذن فإن منطقة بوتان منطقة تمتد من خابور زاخو الى قرب وادي بدليس. وفي شرفنامه موضوع بخصوص إمارة شيروان، التي كان مركزها (كفرا) التي تشعبت الى شعبة (كرنى) و(إيرون). والجدير بالذكر أن في جنوب حصن كيفا قرية بإسم (گوندي مهروانئ)، أي القرية المنسوبة الى مروان، وهي تبعد عن دجلة غرباً بحوالي سبعة كيلومترات، ويحتمل أنها تحمل إسم بني مروان إن كانت من أملاكهم أثناء فترة حكمهم.

* عشيرة دوستكي

هي من عشائر بهدينان الكبيرة تقيم في شمال دهوك وحتى المشارف الجنوبية لوادي (سپنه)، الذي تحده من الشمال سلسلة جبل متينا. وكان رئيسها سعيد بگ ثم ابنه ديوالي يقيمان في دهوك. وعندما صدر الجزء الأول من كتابنا هذا، سمعت بأن بعضاً من أبناء هذه العشيرة إنتقدوني لعدم الإشارة الى أن هذه العشيرة هي قبيلة ياد وبني مروان وإنما تحمل إسمهم. ثم سألت أكثر من مرة عن عدد أبناء هذه القبيلة، فأكدوا لي بأن القبيلة قدمت من منطقة دياربكر في زمن غير معلوم الى منطقة دهوك كما هو معلوم بين أبنائها، ولاسيما المسنين منهم. ومن المعلوم أن إسمها الغالب الآن هو (دوسكي) بدون تاء، ولكن تسمى أيضاً (دوستكي) بالتاء، حتى إن الشهيد الملا أنور المائي ذكرهم بإسم (دوستكي) بالتاء في كتابه (الأكراد في بهدينان). فلايستبعد لذلك أن تكون لهذه القبيلة صلة بالدولة الدوستكية أي بأمرائها، كأن تكون تركت جماعة من أبناء وأحفاد الأسرة المروانية منطقة فارقين مع أناس مقربين منهم وتابعين لهم (وخاصة المنتمين الى قبيلتهم الأصلية ممن لهم دور أكثر في مقاومة السلاجقة) في مدينة فارقين وأطرافها، وهاجر هؤلاء الى بهدينان إثر زوال دولتهم مبتعدين عن إضطهاد السلاجقة الغزاة المحتلين.

المصادر

المخطوطات باللغة العربية:

- ١- ابن شداد الحلبي عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم. توفي سنة (٦٨٤هـ = ١٢٨٥-١٢٨٦م): الأعلاق الخطيرة في ذكر الشام والجزيرة: القسم الخاص بالجزيرة، مخطوط بمكتبة بودليان الرقم (٣٣٣) المعروفة سابقاً بمخطوطة (مارش) بخط الأمير الكردي سليمان بن غازي بن محمد الأيوبي أمير حصن كيفا وذلك سنة (٧٨٩هـ) ويقع في (١٤٢) ورقة.
- ٢- إيليا برشنايا النسطوري، توفي سنة (١٠٧٤م)، مجالس إيليا، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد الرقم (١٠٦٨) في (٦٧) ورقة مسطرتها (١٧) سطراً من الحجم المتوسط.
- ٣- الحلبي ابن الملا أحمد بن محمد بن علي، ملخص تاريخ الإسلام الكبير للذهبي، مخطوط في مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم (٥٨٩٠).
- ٤- الخزرجي، ابو العباس إسماعيل بن العباس الغساني (ت ٨٠٣هـ)، العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد. كان الكتاب يسجل بإسم الخزرجي، جمال الدين علي بن حسن، ولكن أثبت السيد شاكر محمود أنه لأبي العباس هذا وذلك في دراسة عن الخزرجي نال عليها درجة الماجستير من جامعة بغداد.
- ٥- سپاهي زاده محمد بن علي (ت ٩٩٧هـ)، أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد الرقم (٤٢٩)، وقع المؤلف في أخطاء كثيرة.
- ٦- السمعاني عبدالكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ)، الأنساب، نسخة مخطوطة في مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد والكتاب مطبوع أيضاً.
- ٧- الصوفي شمس الدين محمد بن ابي الفتح، الأعلام بشد المنكام، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد الرقم (٤٠٦).
- ٨- عبدالرقيب يوسف، أعلام الكرد وكردسان، مخطوط.
- ٩- عبدالرقيب يوسف، منهج البحث لكتابة تاريخ المدن، مخطوط فرغت من تأليفه سنة ١٩٧٤.
- ١٠- عزيز بطرس (توفي بعد سنة ١٩٦١)، الرعاة الكلدان، تاريخ كنسي، مخطوط بمكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد (١٨) كراسة صغيرة الرقم (٢٦١-٢٧٩).
- ١١- قصة إبنة ملك فارقين، مؤلفها مجهول، مخطوطة ضمن مجموعة مخطوطة موجودة بدار الكتب

والوثائق القومية بالقاهرة: الخزانة التيمورية الرقم (١٥)، نسخة مصورة منها في مكتبتي هدية من الأستاذ الدكتور محمود الشنيطي مدير دار الكتب، المخطوطة تقع في ست ورقات تتكون كل صفحة من (١٢) سطراً.

١٢- الجزري بديع الزمان إسماعيل بن الرزاز القرن (٦هـ = ١٢م)، الجامع بين العلم والعمل النافع في الحيل، نسخة مصورة حصلت عليها من معهد المخطوطات بالقاهرة تقع في (٤٩٦) صفحة.

١٣- المارديني، عبدالسلام مفتي ماردين في القرن التاسع عشر، تاريخ ماردين، نسخة مصورة منه في مكتبتي كُتبت النسخة في حياة المؤلف سنة ١٢٥٨ هـ، وهي تقع في (٣٩٤٠) صفحة.

١٤- مشيحا زخا، تاريخ قديم لكنيسة أربيل، ألف في القرن السادس الميلادي بالسريانية وترجمها الى العربية مطران زاخو عزيز بطرس: نسخة بخط ابن المترجم بطرس عزيز مهداة الى غورگيس عواد وعندي نسخة مصورة عليها.

المطبوعات باللغة العربية:

- ١٥- آ. بتزي، مدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم، ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز، بغداد سنة ١٩٧٧.
- ١٦- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي، الطبعة الثانية ١٩٦٧.
- ١٧- آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمه من الفرنسية يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧.
- ١٨- آغا بزرك الطهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، الطبعة الأولى.
- ١٩- الآلوسي، أبو الثناء محمود، نشوة المدام في العودة الى دار السلام، الطبعة الأولى.
- ٢٠- إبراهيم جمعة، دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، نال عنها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٣، طبع سنة ١٩٦٩.
- ٢١- ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥.
- ٢٢- ابن أبيك، ابو بكر بن عبدالله (القرن ٨هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر.
- ٢٣- ابن الأثير، أبو الحسن عزالدين علي بن عبدالكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، طبعات مختلفة.
- ٢٤- ابن الأثير، اللباب في الأنساب، الطبعة الأولى.
- ٢٥- ابن الأثير، تاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، الطبعة الأولى.
- ٢٦- ابن بطريق، أفتيشيوس سعيد بن بطريق الأنطاكي (القرن الخامس الهجري) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩.
- ٢٧- ابن بطلان، المختار بن حسن بن عبدون يوانيس الطبيب (توفي بعد سنة ٤٥٠هـ)، دعوة الأطباء، طبع بمصر سنة ١٩٠١.
- ٢٨- ابن بطوطة، ابو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ) رحلة ابن بطوطة. طبع بيروت ١٩٦٠.
- ٢٩- ابن جبير، ابو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٦٨.
- ٣٠- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، حيدرآباد ١٣٥٨هـ.

- ٣١- ابن حجر، العسقلاني أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)، رفع الإصر عن قضاة مصر، طبع ١٩٥٧.
- ٣٢- ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي النصيبي فرغ من كتابه سنة (٣٧٢ هـ = ٩٨٢ م أو بعدها)، صورة الأرض. طبع ليدن ١٩٣٨، وطبع بيروت مكتبة الحياة.
- ٣٣- ابن خرداذبه، ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله (القرن ٣ هـ)، المسالك والممالك، طبع ليدن ١٩٨٩ م.
- ٣٤- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بيروت ١٩٥٦.
- ٣٥- ابن خلدون، المقدمة، طبعة القاهرة.
- ٣٦- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد الأربيلي (ت ٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، طبعة مصر ١٩٤٨.
- ٣٧- ابن خميس، الدياربركري حسين بن محمد (ت ٩٦٦ هـ)، تاريخ الخميس، الطبعة الأولى.
- ٣٨- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن ايدير، الإنتصار بواسطة عقد الأمصار، الطبعة الأولى.
- ٣٩- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (٦١٠-٦٨٥ هـ)، كتاب الجغرافيا، بيروت ١٩٧٠.
- ٤٠- ابن شاکر الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤ هـ)، عيون التواريخ، ج ١٢، تحقيق الدكتور فيصل السامر ونبيل عبدالمنعم داود، بغداد ١٩٧٧.
- ٤١- ابن شحنة، محمد بن محمد (٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، الطبعة الأولى.
- ٤٢- ابن شداد، يوسف بن رافع الموصللي (ت ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. إختصار محمد درويش، طبع دمشق ١٩٧٩.
- ٤٣- ابن شهر آشوب، رشيد الدين ابو جعفر محمد بن علي (ت ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م)، معالم العلماء، طبع النجف ١٩٦١.
- ٤٤- ابن الصابوني، جمال الدين محمد بن علي (ت ٦٨٠ هـ)، تكملة إكمال الكمال
- ٤٥- ابن الصيقل الجزري، معد بن رجب بن نصرالله (ت ٧٠١ هـ)، المقامات الزينية: خمسون مقامة نال عليها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤ الدكتور عباس مصطفى الصالحي من بعقوبة.
- ٤٦- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ)، الفخري في الآداب السلطانية، طبع مصر ١٩٢٧.
- ٤٧- ابن العبري، ابو الفرج كريكوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ)، تاريخ مختصر الدول. بيروت ١٩٥٨.

- ٤٨- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، دمشق ١٩٥١.
- ٤٩- ابن العماد الحنبلي، ابو الفرج عبدالحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٩٥٠.
- ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم (القرن ٣ هـ = ٩م)، المعارف، طبع مصر ١٩٣٤.
- ٥٠- ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.
- ٥١- ابن كثير الحافظ، ابو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزءاً.
- ٥٢- ابن المستوفي، المبارك بن أحمد الأريلي، تاريخ إربل، تحقيق ونشر سامي بن السيد خماس الصقار، سنة ١٩٨٠.
- ٥٣- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، الطبعة الأولى.
- ٥٤- ابن نباته الفارقي، عبدالرحيم، خطب ابن نباته.
- ٥٥- ابن نباته المصري، ديوان شعره.
- ٥٦- ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.
- ٥٧- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي.
- ٥٨- ابو حنيفة الدينوري، أحمد بن وَثَّان، القطعة المطبوعة من الجزء الخامس من كتاب النبات، طبعة ليدن والجزء الثالث، طبع في لبنان بتحقيق المشرفين برنهارد لفين. توفي الدينوري على الراجح سنة (٢٨٢هـ).
- ٥٩- ابو سالم، محمد بن طلحة النصيبي (ت ٦٥٢هـ)، العقد الفريد للملك السعيد. طبع ١٣١٠هـ.
- ٦٠- ابو شامة المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٢٨٧هـ.
- ٦١- ابو عبدالله بن الازرق، بدائع السلك في طبائع الملك. تحقيق الدكتور علي سامي النشار، بغداد ١٩٧٧.
- ٦٢- ابو العلاء المعري، أحمد بن عبدالله بن سليمان (ت ٤٤٩هـ)، رسائل ابي العلاء، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت.
- ٦٣- ابو العلاء المعري، رسالة الغفران. تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء، الطبعة الثانية مصر.
- ٦٤- ابو العلاء المعري، لزوم ما لا يلزم، بيروت ١٩٦١.

- ٦٥- ابو الفداء، عمادالدين إسماعيل بن علي الأيوبي (ت ٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، طبع بيروت.
- ٦٦- ابو الفداء، تقويم البلدان، طبع باريس ١٨٤٠م.
- ٦٧- ابو القاسم الزياتي (ت ١٨٠٩م)، الترجمات الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً، طبع ١٩٦٩.
- ٦٨- ابو يعلي، محمد بن حسين الفراء (ت ٤٥٨هـ)، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد، القاهرة ١٩٣٨.
- ٦٩- أحمد تيمور بن اسماعيل بن أحمد تيمور (ت ١٩٣٠م)، التصوير عند العرب، الطبعة الأولى.
- ٧٠- أحمد تيمور، حياة المعري.
- ٧١- الدكتور أحمد السعيد، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٧٢.
- ٧٢- أحمد عطية، القاموس الإسلامي، القاهرة ١٩٦٦.
- ٧٣- أحمد فكري، مسجد القيروان، طبع ١٩٣٦.
- ٧٤- أحمد ممدوح حمدي، معدات التجميل في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، طبع ١٩٥٥.
- ٧٥- الإدريسي، محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠ هـ = ٨٨٩م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لم يشر الى مكان الطبع.
- ٧٦- إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
- ٧٧- أديب معوض، الأكراد بين الأمس واليوم، الطبعة الأولى.
- ٧٨- أدي شير ابرهينا، المطران الشقلاوي (قتل ١٩١٥م)، تاريخ كلدو وآشور، الطبعة الأولى.
- ٧٩- آرشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة أحمد عيسى ومحمد شفيق غربال، الطبعة الأولى.
- ٨٠- أ. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن شلبي، طبع القاهرة.
- ٨١- اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ)، كتاب العصا، مطبوع ضمن مجموعة من الكتب الصغيرة في كتاب سمي بـ(نوادير المخطوطات)، القاهرة ١٩٥١.
- ٨٢- اسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، الطبعة الأولى.
- ٨٣- إستاجيان، تاريخ الأمة الأرمنية.
- ٨٤- إسماعيل باشا بابان بن محمد أمين بن مير سليم الكردي، هدية العارفين، الطبعة الأولى.

- ٨٥- إسماعيل باشا بابان، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، طبع طهران سنة ١٩٦٧.
- ٨٦- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مؤسس المذهب السني الأشعري (ت ٣٣٠هـ)، مقالات الإسلاميين، طبع القاهرة ١٩٥٠.
- ٨٧- الاصبهاني، عمادالدين محمد بن محمد (ت ٥٩٤هـ)، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، طبع دمشق.
- ٨٨- الاصبهاني (عمادالدين)، تاريخ دولة آل سلجوق: إختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨.
- ٨٩- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤١هـ)، أقاليم البلدان، الطبعة الأولى.
- ٩٠- الأصطخري، مسالك الممالك، صبعة ليدن، ١٩٢٧.
- ٩١- أفرام برصوم، سويريوس بطريك أنطاكية وسائر المشرق (١٨٨٧-١٩٥٧م)، تاريخ طورعبدین، ألفه بالسريانية وترجمه الى العربية تلميذه كريفوروس يوسف بهنام مطران بغداد والبصرة سنة ١٩٦٣.
- ٩٢- أفرام برصوم، اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، طبع حمص ١٩٤٣.
- ٩٣- أفرام برصوم، نوايخ السريان في اللغة العربية الفصحى، الطبعة الأولى.
- ٩٤- أفرام برصوم، المورد العذب في موجز تاريخ الكنيسة، طبع حمص ١٩٥٣.
- ٩٥- أنستاس ماري الكرملی، المساعد، تحقيق گورگیس عواد وعبدالحمید العلوجي، بغداد ١٩٧٦.
- ٩٦- ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، موصل ١٩٧٣.
- ٩٧- ألبير أبونا، آداب اللغة الآرامية، بيروت ١٩٧٠.
- ٩٨- أندريه بارو، بلاد آشور، ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبعة بغداد ١٩٨٠.
- ٩٩- أنور المائي، الأكراد في بهدينان، الطبعة الثانية، دهوك ١٩٩٩.
- ١٠٠- إيشو مالك خليل، الآشوريون في التاريخ، ألفه بالإنكليزية وترجمه سليم واكيم، بيروت ١٩٦٢.
- ١٠١- إيليا برشنايا النسطوري (ت ٤٣٨هـ = ١٠٤٧م)، تاريخ إيليا برشنايا، ترجمة الدكتور يوسف جبي عن السريانية، نشره مجمع اللغة السريانية ببغداد سنة ١٩٧٥.
- ١٠٢- باخرزي، أبو الحسن علي بن حسن (ت ٤٦٧هـ)، دمية القصر وعصرة أهل العصر، طبع بغداد ١٩٧١.

- ١٠٣- باكستاني، المقدم عبدالواحد، الأكراد وبلادهم بتقديم الرئيس الباكستاني الأسبق أيوب خان، ألفه بالإنجليزية وترجمه الى العربية عبدالسميع سراج الدين، طبع ١٩٧٠.
- ١٠٤- البستاني، عبدالله، البستان في اللغة.
- ١٠٥- البستاني، بطرس، دائرة معارف البستاني، الطبعة الأولى.
- ١٠٦- البستاني، محيط المحيط.
- ١٠٧- بطرس نصري، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارق والمغرب السريان، طبع ١٩٠٥.
- ١٠٨- البلاذري، فتوح البلدان.
- ١٠٩- بنيامين بن الربى يونه الأندلسي، قام برحلته من (٥٦١-٥٦٩هـ)، رحلة بنيامين، ترجمها من العبرية عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥.
- ١١٠- پول آميل، تاريخ أرمينيا، تعريب شكري علاوي، طبع بيروت.
- ١١١- تاريخ الرهاوي المجهول، عربّه ألبير أبونا، مطبوع بالآلة الكاتبة بمجمع اللغة السريانية ببغداد.
- ١١٢- تاريخ السعدي لمؤلف مجهول وجدّه المطران أدي شير مخطوطاً بين مخطوطات مدينة سعرد ونشره في باريس عام ١٩٠٧. ألف بعد سنة ٢١٧ هـ.
- ١١٣- تامارا رايس، السلاجقة، ترجمة لطفي الخوري وإبراهيم الداوقوي، طبع بغداد ١٩٦٨.
- ١١٤- توفيق اليوزبكي، الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية. طبع ١٩٧٠.
- ١١٥- التيفاشي، أحمد بن يوسف (ت ٦٥١ هـ = ١٢٥٢م)، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، طبعة الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧.
- ١١٦- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)، التبصر بالتجارة، الطبعة الأولى.
- ١١٧- جاك. س. ريسلر، الحضارة والعربية، ترجمة غنيم عبدون، طبع مصر.
- ١١٨- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة ١٩١٤-١٩٣١.
- ١١٩- جهشياري، ابو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)، كتاب الوزراء والكتّاب، الطبعة الأولى بالقاهرة.
- ١٢٠- جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان التكريتي ١٩٧٩.
- ١٢١- الجوهري، الصحاح.
- ١٢٢- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الطبعة الثالثة، المطبعة الإسلامية بطهران ١٩٦٧.

- ١٢٣- حبيب زيات، الخزانة الشرقية، الجزء الثاني، بيروت ١٩٧٣.
- ١٢٤- حسن إبراهيم وعلى إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، طبع ١٩٣٩.
- ١٢٥- حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، طبع ١٩٣٥.
- ١٢٦- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم شريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، فرغا منه سنة ١٩٦٦، طبع دار الفكر العربي.
- ١٢٧- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ثلاثة أجزاء، الطبعة الأولى.
- ١٢٨- حمدان عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغداد حتى بداية العهد البويهي، بغداد ١٩٧٩.
- ١٢٩- حميد المطيعي، د. بهنام أبو الصوف، بغداد ١٩٩٥.
- ١٣٠- خاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، رسالة ماجستير من جامعة القاهرة، طبع بغداد ١٩٦٨.
- ١٣١- الخزرجي، جمال الدين علي بن حسن (ت ٨١٢هـ)، العقود اللؤلؤية في الدولة الرسولية، الطبعة الأولى.
- ١٣٢- خمس رسائل لابن بطلان وابن رضوان، طبع القاهرة ١٩٣٧.
- ١٣٣- خوارزمي، محمد بن موسى، صور الأقاليم، طبع فيينا ١٩٢٦.
- ١٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، طبع القاهرة وطبع طهران.
- ١٣٥- داود الأنطاكي، (بن عمر) (ت ١٠٠٨هـ)، تذكرة أولي الألباب الجامع للعجب العجائب، طبع مصر ١٩٥٢.
- ١٣٦- دروئي مكاي، مدن العراق القديمة، ترجمة يوسف يعقوب مسكوني، طبع ١٩٦١.
- ١٣٧- دومبيلي، العلوم عند العرب ترجمة عبدالحليم النجار والدكتور محمد يوسف، الطبعة الأولى ١٩٦٢.
- ١٣٨- دي لاسي أوليري، علوم اليونان وسبل إنتقالها الى العرب، طبع ١٩٦٢.
- ١٣٩- ديماندا، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، طبع دار المعارف.
- ١٤٠- الذهبي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أحمد الفارقي (ت ٧٤٨هـ)، العبر في أخبار من غُيّر، المجلد التاسع، طبع الكويت.
- ١٤١- الذهبي، دول الإسلام، طبع ١٣٣٧هـ.
- ١٤٢- الرحبي، عبدالعزيز بن محمد، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج. بغداد ١٩٧٣.

- ١٤٣- رفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، الطبعة الأولى.
- ١٤٤- رفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٤٨.
- ١٤٥- الروذراوي، أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨هـ)، ذيل تجارب الأمم، طبع مصر ١٩١٦.
- ١٤٦- ريسلر: الحضارة العربية.
- ١٤٧- زامبارو، معجم الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، طبع مصر ١٩٥٢.
- ١٤٨- الزركلي، الأعلام، الطبعة الأولى.
- ١٤٩- زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر، طبع ١٩٠٣.
- ١٥٠- زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصر العباسي، طبع ١٩٤٠.
- ١٥١- زينفون، رحلة العشرة آلاف عبر كردستان، ترجمة صلاح سعدالله، طبع ١٩٧٣.
- ١٥٢- زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية.
- ١٥٣- الدكتور سامي سعيد الأحمد، اليزيدية، أحوالهم ومعتقداتهم، بغداد ١٩٧١.
- ١٥٤- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، طبع ١٩٥٢.
- ١٥٥- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، طبع ١٩٦٤.
- ١٥٦- ستيشن رنسيمن، المدنية البيزنطية: الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، طبع ١٩٦٥.
- ١٥٧- سعيد الديوه چي، تاريخ الموصل، الجزء الأول، طبع سنة ١٩٨٢.
- ١٥٨- سعيد الديوه چي، أعلام صناعة المواصلة، طبع ١٩٧٠.
- ١٥٩- سعيد الديوه چي، الموصل في العهد الأتابكي، الطبعة الأولى.
- ١٦٠- سعيد الديوه چي، اليزيدية، طبعة ١٩٨٧٣.
- ١٦١- سهراب، ابن سرايون، عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة، قيينا ١٩٢٩.
- ١٦٢- الدكتور سوادى عبد محمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة العربية خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، بغداد ١٩٨٩.
- ١٦٣- سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة الدكتور سامي سعيد الأحمد، بغداد ١٩٨٠.
- ١٦٤- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، لب الألباب في تحرير الأنساب، إعادة طبع بالأوقفسيات من قبله مكتبة المثنى في بغداد.

- ١٦٥- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات النحاة، الطبعة الأولى.
- ١٦٦- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل.
- ١٦٧- صباح إبراهيم سعيد الشبخلي، الأصناف في العصر العباسي، نشأتها وتطورها. بغداد ١٩٧٥.
- ١٦٨- الدكتور صبحي انور رشيد، الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، طبع بغداد ١٩٧٦.
- ١٦٩- الدكتور صبحي انور رشيد، تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم، بيروت ١٩٧٠.
- ١٧٠- صديق الدمولوجي، اليزيدية، الطبعة الأولى ١٩٤٩.
- ١٧١- صفي الدين البغدادي، عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ)، مرصد الإطلاع.
- ١٧٢- طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ)، مفتاح السعادة، طبع ١٩٦١.
- ١٧٣- طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الآثار الحضارة، الطبعة الأولى، بغداد.
- ١٧٤- طه الهاشمي، مفصل جغرافية العراق، الطبعة الأولى.
- ١٧٥- العاملي، السيد محسن أمين، أعيان الشيعة، الطبعة الأولى.
- ١٧٦- عباس العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية من صدر الإسلام الى آخر العهد العثماني، بغداد ١٩٥٩.
- ١٧٧- عباس القيمي، الكنى والألقاب، الطبعة الأولى.
- ١٧٨- عبدالرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمها ونشرها سنة ١٩٤٠.
- ١٧٩- عبدالرزاق الحسني، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم، الطبعة السادسة.
- ١٨٠- الدكتور عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري.
- ١٨١- الدكتور عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الإقتصاد العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨.
- ١٨٢- عطا الحديثي وهناء عبدالحالق، القباب المخروطية في العراق.
- ١٨٣- علي أمير، مختصر تاريخ العرب.
- ١٨٤- علي بن المنجب، الإشارة فيمن نال الوزارة.
- ١٨٥- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، طبع ١٩٦١.
- ١٨٦- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، طبع دار العلم للملايين.
- ١٨٧- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون، طبع ١٩٦٢.

- ١٨٨- العمري، القاضي شهاب الدين المعروف بإبن فضل الله العمري (أحمد يحيى بن فضل الله ت ١٣٤٩ هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، الطبعة الأولى.
- ١٨٩- العمري، القاضي شهاب الدين... مسالك الأبصار، الطبعة الأولى.
- ١٩٠- العيني، بدرالدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، شيخ محمودي، القاهرة ١٩٥٩.
- ١٩١- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق، تاريخ الفارقي (تاريخ ميفارقين وآمد) بدأ بتأليفه سنة ٥٧٢ هـ. حقق القسم الأخير ونال عليه درجة الدكتوراه ونشره الدكتور بدوي عبداللطيف عوض، طلع القاهرة ١٩٥٩.
- ١٩٢- فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، الحضر مدينة الشمس، طبع ١٩٧٤.
- ١٩٣- فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي الى سقوط الخلافة العباسية. بغداد ١٩٥٩.
- ١٩٤- الدكتور فرج صبحي، كنوز المتحف العراقي، بغداد ١٩٧٢.
- ١٩٥- فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ١٩٢٣-١٩٥٩.
- ١٩٦- فنديداد: من الكتب الزردشتية من العهد الفرثي، ترجمه من الفرنسية الدكتور داود الجلبلي الموصللي، الطبعة الأولى.
- ١٩٧- فيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)، قاموس المحيط، الطبعة الثالثة.
- ١٩٨- الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل، طبع بغداد ١٩٧٠.
- ١٩٩- قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠ هـ)، كتاب الخراج مطبوع مع المسالك والممالك لابن خرداذبه. طبع ليدن ١٨٨٩ م.
- ٢٠٠- القزويني، زكريا بن محمد (القرن الثالث عشر الميلادي)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠.
- ٢٠١- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)، تاريخ الحكماء، طبع لايبزك ١٩٠٣.
- ٢٠٢- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الطبعة الأولى.
- ٢٠٣- كاريل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ١٩٦٥.
- ٢٠٤- الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤ هـ)، فوات الوفيات، مطبعة السعادة.
- ٢٠٥- الكندي المصري، محمد بن يوسف (ت ٣٥٥ هـ)، الولاة والقضاة، ذيل.

- ٢٠٦- كونراد برويسر، المباني الأثرية في شمال بلاد الرافدين في العصور المسيحية القديمة والإسلامية، ترجمة علي يحيى منصور، بغداد ١٩٨١.
- ٢٠٧- لانجر، موسوعة تاريخ العالم.
- ٢٠٨- لسترنج بدان، الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وگورگيس عواد، طبع ١٩٥٤.
- ٢٠٩- لومون، تاريخ الكنيسة، ترجمة الخوري يوسف داود، طبع ١٨٧٣ م.
- ٢١٠- ليو أوبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيصل عبدالرزاق.
- ٢١١- ماجد عبدالله شمس، مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة العربية، بغداد ١٩٧٧.
- ٢١٢- ماري بن سليمان، تاريخ فطاركة كرسي المشرق (كتاب المجلد)، الطبعة الأولى.
- ٢١٣- ماريوس كانا، نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة، طبع ١٩٣٤.
- ٢١٤- المازندراني، السيد موسى، العقد المنير فيما يتعلق بالدرهم والدنانير، طبع النجف ١٩٦١.
- ٢١٥- الماوردي، قاضي القضاة ابو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت ١٩٧٨.
- ٢١٦- المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت ٤٧٠ هـ)، سيرة المؤيد، القاهرة ١٩٤٩.
- ٢١٧- محفوظ محمد عمر، إمارة بهدينان العباسية، طبع ١٩٦٩.
- ٢١٨- المحلي، محمد بن أحمد، المستطرف، الطبعة الأولى، ترجمة محمد
- ٢١٩- محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكُرد وكُردستان، علي عوني، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٦١.
- ٢٢٠- محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية، ترجمة علي عوني، القاهرة ١٩٤٥.
- ٢٢١- محمد أمين زكي، مشاهير الكُرد وكُردستان، طبع ١٩٤٥-١٩٤٧.
- ٢٢٢- محمد باقر الحسيني، النقود الإسلامية، الموسوعة الصغيرة (١٦٨)، بغداد ١٩٨٥.
- ٢٢٣- محمد توفيق وردي، نماذج من التراث الشعبي الكُرد، الطبعة الأولى.
- ٢٢٤- محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، الطبعة الأولى.
- ٢٢٥- محمد مغنیه، الشيعة والتشيع، طبع بيروت.
- ٢٢٦- محمد حسن الزبيدي، العراق في العصر البويهي، القاهرة ١٩٦٩.
- ٢٢٧- محمد الحضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الطبعة الأولى.
- ٢٢٨- محمد سليم الجندي، تاريخ معرة النعمان، طبع ١٩٦٣.
- ٢٢٩- محمد طاهر الكُرد، تاريخ الخط العربي وآدابه، الطبعة الأولى.
- ٢٣٠- محمد عبدالعزيز مرزق، الفن الإسلامي: تاريخه وحضارته. طبع ١٩٦٥.

- ٢٣١- محمد علي التهانوني، كشاف إصطلاحات الفنون، طبع أستانبول.
- ٢٣٢- محمود ياسين التكريتي، الإمارة المروانية في دياربكر والجزيرة، رسالة ماجستير من جامعة بغداد ١٩٧١.
- ٢٣٣- المسعودي علي بن الحسن (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والإشراف، طبع بيروت ١٩٦٥.
- ٢٣٤- المسعودي، مروج الذهب، طبع مطبعة السعادة وطبع مطبعة دار الرجاء بمصر.
- ٢٣٥- مشيحا زخا، أحوال كنيسة أربيل (القرن السادس الميلادي)، مخطوطة سريانية ناقصة ترجمها المطران بطرس عزيز الى العربية ونشرها في أعداد من مجلة النجم منها العدد ٩ في ٢٥ آب ١٩٢٩.
- ٢٣٦- الدكتور مصطفى جواد، في التراث العربي، تقديم وإخراج محمد جميل شلش وعبد الحميد العلوه جي، بغداد ١٩٧٩.
- ٢٣٧- مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسلامية، طبع دمشق.
- ٢٣٨- المصنف الكوراني، أبو بكر بن هداية الله الكردي (ت ١٠٤١هـ)، طبقات الشافعية، الطبعة الأولى.
- ٢٣٩- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن ١٩٠٦، دون المقدسي معلوماته سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م).
- ٢٤٠- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ١٤٤١م)، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق الدكتور محمد حلمي، القاهرة، ١٩٧١.
- ٢٤١- المقرئ، الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك، الطبعة الأولى.
- ٢٤٢- المقرئ، أحمد بن محمد، مصباح المنير.
- ٢٤٣- المناوي، محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، الطبعة الأولى.
- ٢٤٤- المنجد.
- ٢٤٥- مهرجان أفرام وحنين، من مطبوعات مجمع اللغة السريانية، بغداد ١٩٧٤.
- ٢٤٦- الموسوعة العربية الميسرة، الطبعة الأولى.
- ٢٤٧- ميجر سون، رحلة متنكر في بلاد ما بين النهرين وكردستان، ترجمة فؤاد جميل، الطبعة الأولى و١٩٧٠.
- ٢٤٨- ميخائيل عواد، صفحة مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، طبع ١٩٨١.
- ٢٤٩- مينورسكي، الأكراد، ترجمة الدكتور معروف خزنة دار، الطبعة الأولى.

- ٢٥٠- ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، الطبعة الأولى.
- ٢٥١- ناجي معروف، المدخل الى الحضارة العربية، الطبعة الأولى.
- ٢٥٢- ناصر خسرو، (القرن الحادي عشر الميلادي)، سفرنامه، ترجمه من الفارسية يحيى الخشاب، طبع بيروت.
- ٢٥٣- نويختي، حسن بن موسى (القرن ٣هـ = ٩م)، فرق الشيعة، طبع النجف ١٩٥١.
- ٢٥٤- نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية.
- ٢٥٥- الهروي، ابو الحسن على بن ابي بكر (ت ٦١١هـ)، الإشارات الى معرفة الزيارات، طبع دمشق ١٩٥٣.
- ٢٥٦- هلال ناجي، الحسن بن أسد الفارقي، بغداد ١٩٧٨.
- ٢٥٧- الهمداني، ابو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبع بريل ١٣٠٢هـ.
- ٢٥٨- الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، طبع دار الجليل، بيروت.
- ٢٥٩- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب، القاهرة ١٩٦٥.
- ٢٦٠- ياقوت الحموي الرومي، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م)، معجم الأدباء أو إرشاد الأديب، طبع ١٩٦٥.
- ٢٦١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعات مختلفة.
- ٢٦٢- يعقوب الثالث، بطريك أنطاكية وسائر المشرق، الحقائق الجلية في الابحاث التاريخية والأدبية والفلسفية، طبع ١٩٧٢.
- ٢٦٣- يوسف زكريا، الموسيقى العربية.

المصادر باللغة الكُردية:

- ٢٦٤- أحمدى خانى (مهم وزين) طبع ههولتير ١٩٦٨.
- ٢٦٥- الدكتور أوردىخانى جليلى سترانى گوتنا كوردايه تاريخييين: چاپى كۆزى زانىارى كورد، بهغدا (١٩٧٧).
- ٢٦٦- بهمن كرمى، لورستان، ترجمة خالد رسول من الفارسية الى الكُردية، ونشره في ١٩٩٥.
- ٢٦٧- جميل الروزيبانى (ميترووى ههسنه وهيهى وعهبيارى)، بغداد ١٩٩٦.
- ٢٦٨- جميل الروزيبانى (چوار دهولته تى كورد)، ههولتير سنه ٢٠٠٠.
- ٢٦٩- حسين حزنى موكرىانى (ديريكى پيشكه وتن) چاپى يه كه م.
- ٢٧٠- حسين حزنى موكرىانى (كوردستانى موكرىان) چاپى يه كه م.
- ٢٧١- خدر سليمان (گوندياتى)، بغداد ١٩٨٥.
- ٢٧٢- خدر سليمان (تيزيدياتى)، بغداد ١٩٧٩.
- ٢٧٣- عبدالرقيب يوسف (گهشته كى ئهركيولوجى دكوردستانا باكورد) باللغة الكوردية، مخطوط.
- ٢٧٤- مهلا عبدالكريمى مدرس (بنه مالهى زانىاران)، ١٩٨٤.
- ٢٧٥- مهلاى جزيرى (أحمد) (ديوانا مهلايين جزيرى)، طبع ههولتير ١٩٦٤.

المصادر باللغة الفارسية:

- ٢٧٦- ابن البلخي، فارسنامه، طبع كمبردج ١٩٢١.
- ٢٧٧- أحمد كسروي، شهرياران كمنام، الطبعة الأولى.
- ٢٧٨- رشيد ياسمي، كرد وپيرستكي نژاد أو.
- ٢٧٩- سعيد نفيسي، تاريخ تمدن إيان ساساني، طهران ١٣٣١ شمسي.
- ٢٨٠- شرفخان البديسي، شرفنامه، طبعة القاهرة.
- ٢٨١- شرفخان البديسي، النسخة الأولى بخط المؤلف نسخة مصورة على النسخة التي بمكتبة بودليان برقم (٣١٢).
- ٢٨٢- علي اكبر، تاريخ إسلام، طهران ١٩٣٥.
- ٢٨٣- علي اكبر وقائع نگار، حديقته ناصريه: نشر محمد رؤوف توکلي، ١٣٦٤ شمسي.
- ٢٨٤- المستوفي القزويني، حمد الله بن أبي بكر (ت بحدود ٧٥٠هـ)، نزهة القلوب في المسالك والممالك، طبعة ليدن ١٩١٣.
- ٢٨٥- محمد أمين هورامي، فهرههنگی ئيريهن فاج.
- ٢٨٦- محمد كريم، برهان جامع، قاموس فارسي طبع في تبريز سنة ١٢٦٠هـ.
- ٢٨٧- مسعود گلزاری، کرمانشان، کردستان، طبع طهران، مطبعه بهمن.
- ٢٨٨- هاشم رضا، أوستا، طبع ١٣٦٣ شمسي.
- ٢٨٩- يونس مرواريد، مراغه، طبع ١٣٦٠ قمری.

المصادر باللغة التركية:

- ٢٩٠- إسماعيل غالب، مسكوكات قديمه إسلامية قتالوغي، صدر قبل الحرب العالمية الأولى.
- ٢٩١- أوليا چلبلي، محمد ظلي بن درويش (القرن ١١ الهجري = ١٧ الميلادي)، سياحتنامه، الطبعة الأولى ١٣١٤هـ.
- ٢٩٢- لن پول، دول إسلامية، ترجمة الى التركية خليل أدهم، طبع إستنبول ١٩٢٧.
- ٢٩٣- ADIL TEKIN : DIYARBAKIR , Istanbul
- ٢٩٤- Beyhan Karamagarleri : AHLAT, mezarlarleri. Ankara 199
- ٢٩٥- دائرة المعارف الإسلامية. ISLAM ANSIKLOPEDI SI
- ٢٩٦- REMAZAN BALIN / DIYARBAKIR TARIHI
- ٢٩٧- HANNA DOLAPONU / DEYR - EL - UMUR TARIKHI, 1971
- ٢٩٨- HAYAT ANSIKLOPEDI SI
- ٢٩٩- BESRI KUNYAR / DIARBAKIR TARIHI ULUS BASMEVI, 1936
- ٣٠٠- HAYAT TURKIYE ANSIKLOPEDI SI , 1970 ISTANBUL
- ٣٠١- HUSEIN SARAG OGHU / TURKIYE ÇUGRAFYASI UZERINE ETUDLER: DOGO ANADULU: CILT: MAARIF BBAS- IMIVI, ISTANBUL 1965
- ٣٠٢- REUF SEYMEN / ÇUGRAFYA DESLERI: ORTA: 111. ISTANBUL 1964
- ٣٠٣- سليمان سافجي، SILVAN TARIHI, DIYARBAKIR , 1956
- ٣٠٤- Sevket Beysanoglu / Anitleri Vekitabeleri ILE. DIYARBAKIR TARIHI, I. ciLD 1987.
- ٣٠٥- Turkiye Ensiklopidisi

المصادر باللغة الإنكليزية:

GERTUDE LOWTHIAN BELL / AMURATH TO AMURATH, LONDON, 1911 - ٣٠٦

D.R. BARNETT / ASSYRIAN PALACE RELIEFE. LONDON- ٣٠٧

STANLEY LANE POOLE / ADDITIONS TO THE ORIENTAL COLLECTION - ٣٠٨

المصادر باللغة الفرنسية:

Max Van Berchem/ AMIDA, Paris 1910 - ٣٠٩

المصادر باللغة السريانية:

٣١- إيليا برشنايا، كتاب الأزمنة بالسريانية، مخطوط، نسخة المتحف البريطاني الرقم (٧١٩٧)،
لديّ نسخة مصورة منها تقع في (٢٨١) صفحة. ترجم المواضيع المذكورة مشكوراً الأب الخوري
أفرايم جرجيس نائب مطرانية بغداد للسريان الأرثوذكس. ثم عرّبه الدكتور يوسف حبي ونشره
مجمع اللغة السريانية في بغداد سنة ١٩٧٥.

المجلات باللغة الكُردية

- ٣١١- پهروهرد و زانست، مجلة مديرية الدراسات الكُردية في بغداد، العدد الثاني، السنة الأولى.
٣١٢- مجلة همزار ميتر، العدد الثالث، سنة ١٩٩٨.

المجلات باللغة العربية

- ٣١٣- مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠.
٣١٤- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٤٣، الجزء الأول، سنة ١٩٥٩.
٣١٥- مجلة المشرق، لصاحبها يونس شيخو، أعداد مختلفة.
٣١٦- المورد، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام العراقية، مجلد عدد ٤، سنة ١٩٧٥.
٣١٧- مجلة بين النهرين، يصدرها المركز الثقافي الآشوري في دهوك، العدد ٩، سنة ١٩٩٥.

فهرس

5	مقدمة الطبعة الثانية
9	مقدمة الطبعة الأولى
13	الأمراء الدوستكيون ومدد حكمهم
15	الفصل الأول- العلاقات الخارجية
22	العلاقات مع الدولة العباسية والبويهية
26	العلاقات مع الدولة الفاطمية
29	توتر العلاقات والحلف الثلاثي
31	موقف نصرالدولة من حركة البساسيري
34	رسالة ممثل الدولة الفاطمية الى نصرالدولة
37	الموقف بعد معركة سنجار
41	العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية
49	العلاقات مع الدولة السلجوقية
55	العلاقات مع الدولة العقيلية
59	العلاقات مع الإمارات العربية في شمال سورية
59	العلاقات مع الإمارة الحمداية
61	العلاقات مع الإمارة النميرية
63	العلاقات مع الإمارة المرداسية
64	العلاقات مع الدول الكردية
69	العلاقات مع الشعب الأرمني
73	الفصل الثاني- النظام السياسي والإداري
75	الإمارة
77	الوزارة
80	الحجابه
82	ديوان الرسائل والإنشاء
84	الحسية (النقابات)
88	الأوقاف

92	إدارة السور
94	القضاء
101	العدالة
102	الخطابة
104	النظام المالي والنقد المتداول
106	العملة الدوستكية
117	ديوان الجباية (المالية)
122	الخازن
122	الطرز
123	شعار الدولة
125	القوات المسلحة
125	الجيش
128	الشرطة
131	الفصل الثالث- الحياة البشرية والإجتماعية
131	الكرد
137	السريان
137	الأرمن
138	العرب
142	اليهود
144	الروم البيزنطيون
145	طبقات المجتمع
145	الطبقة الغنية
146	الطبقة المتوسطة
146	الطبقة الكادحة
147	المرأة
149	الأعياد والمناسبات
155	الفنون الجميلة
157	الإقطاع

161	الفصل الرابع- الديانات
161	الديانة الإسلامية، التشيع
164	الديانة المسيحية
172	الزردشتية
177	الفصل الخامس- الحالة الاقتصادية
180	الزراعة
192	الثروة الحيوانية
194	المعادن
200	الصناعات
200	صناعة النسيج وافرش
204	صناعات أخرى
205	تمليح وتجفيف الأسماك
207	الصناعات المعدنية
209	الصناعات الميكانيكية
210	ساعة بنكام
221	التجارة
227	نظام السمسة
228	صادرات البلاد
229	المستوردات
230	الطرق التجارية
244	الأوزان والمكاييل
247	التنظيم الحرفي في الأسواق
253	الفصل السادس- الحياة الثقافية
256	الفقه
260	التجويد
261	الأدب
270	علماء مسيحيون
287	التنجيم

288	المكتبات
290	تطور الكتابة الكوفية في الدولة الدوستكية
294	جديد الكتابة السطرجميلية السريانية
295	الفصل السابع- فن العمارة
298	طراز السدلي
299	الأزج
300	القباب
301	المنظرة
306	الزخرفة
307	الرسوم الحيوانية
310	تخطيط وتجديد المدن
316	مشاريع عمرانية أخرى
316	تشبيد دار الإمارة
320	المباني الدينية
324	الجسور
326	المنشآت الدفاعية
327	سور فارقين وأبوابه
335	كتابات فارقين
340	مخططنا لفارقين
340	سور دياربكر وأبراجها وكتاباتها
357	إضافات
361	المصادر